

تَارِيحُ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ

الشيخ محمد عبد الله

(١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

الجزء الثاني

يحتوي على أهم مقالاته الإصلاحية التي نشرت في الجرائد ولوائحه في إصلاح
التربية والتعليم الديني، ومدافعه عن الدين، ورحلته إلى صقلية وعلى كتبه
ورسائله إلى العلماء والفضلاء في الموضوعات المختلفة وعلى بعض حكمه المنشورة

جامعة

السيد محمد رشيد رضا

مُنشئ مجلة المنار

(١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م)

الطبعة الثانية لدار الفضيلة

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م



دار الفصيلية للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة : القاهرة - ٢٢ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة ت وفكس ٤١٨٩٦٦٥ رقمي ١١٢٤١ هليوبوليس
المكتبة : ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات ، دبي - ديرة - مزب ١٥٧٦٥ ت ٤٦٩٦٨٤٦٩٦٨ فكس ٢٦٢٨٧٦

﴿ فهرس الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام ﴾

(وهو جل منشآته الاصلاحية والاجتماعية والادبية)

باب المقالات

الفصل الاول

ما كتبه في عهد طلبه للعلم بمصر وفيه مقالاتان

صفحة

- ١ المقالة الاولى في (فلسفة التربية) وهي ملخصة من درس السيد جمال الدين الافغاني
٧ الثانية في (فلسفة الصناعة) » » »

الفصل الثاني

(مقالاته في السنة الاولى من الاهرام)

- ١٥ المقالة الاولى - تقر يظ الاهرام
١٧ الثانية - الكتابة والقلم
٢٣ الثالثة - المدبر الالساني ، والمدبر العقلي الروحاني
٣٧ الرابعة - العلوم الكلامية ، والدعوة إلى العلوم العصرية
٤٥ الخامسة - الصحافة الادبية

الفصل الثالث

(مقالاته الاصلاحية ، في جريدة الوقائع المصرية الرسمية)

- ٤٩ المقالة الاولى - حكومتنا والجمعيات الخيرية
٥٢ الثانية - احترام قوانين الحكومة وأوامرها من سعادة الامة
٥٦ الثالثة - حب الفقر أو سفه الفلاح
٥٩ الرابعة »
٦٣ الخامسة »
٦٩ السادسة - المعارف (انتقاد على وزارتها تمهيداً لاصلاحها)
٧٣ السابعة »
٧٨ الثامنة - أيضا
٨٠ التاسعة - التربية في المدارس والمكاتب الميرية
٨٤ العاشرة - وخامة الرشوة
٨٧ الحادية عشرة - العفة ولوازمها

صفحة	
٩٢	المقالة ١٢- القوة والقانون
٩٨	» ١٣ ما أكثر القول وما أقل العمل
١٠٣	» ١٤ منتدياتنا العمومية وأحاديتها
١٠٩	» ١٥ حاجة الانسان الى الزواج
١١٣	» ١٦ حكم الشريعة في تعدد الزوجات
١١٩	» ١٧ خطأ العقلاء
١٢٣	» ١٨ كلام في » »
١٢٧	» ١٩ » » » أيضا
١٣٣	» ٢٠ إبطال البدع من نظارة الاوقاف العمومية
١٣٦	» ٢١ بطلان الدوسة
١٣٩	» ٢٢ الدوسة
١٤٢	» ٢٣ ماهو الفقر الحقيقي
١٥٠	» ٢٤ وضع الشيء في غير موضعه
١٥٣	» ٢٥ الكتب العلمية وغيرها
١٥٧	» ٢٦ اختلاف القوانين باختلاف الأمم
١٦٤	» ٢٧ تأثير التعليم في الدين والمقيدة
١٦٩	» ٢٨ بقايا » » » »
١٧٢	» ٢٩ نيل الممالي بالفضيلة
١٧٦	» ٣٠ العلم وتأثيره في الارادة والاختيار
١٨١	» ٣١ الملكات والمادات
١٩٤	» ٣٢ الحياة السياسية
١٩٧	» ٣٣ الشورى
٢٠٠	» ٣٤ » والقانون
٢٠٥	» ٣٥ الثمرن والاعتدال
٢١٠	» ٣٦ الثمدن

الفصل الثالث

(مقالات العروة الوثقى الاصلاحية)

٢١٥	المقالة الاولى - فاتحة مجلة العروة الوثقى
٢٢٣	» ٢ الجنسية والديانة الاسلامية

صفحة	
٢٢٧	المقالة الثالثة - ماضي الامة وحاضرها وعلاج عللها
٢٣٧	» ٤ النصرانية والاسلام (مقابلة بينهما)
٢٤٤	» ٥ انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك
٢٤٩	» ٦ التمهيب
٢٥٩	» ٧ القضاء والقدر
٢٦٨	» ٨ الفضائل والذائل وأثرها
٢٧٦	» ٩ الوحدة الاسلامية
٢٨٢	» ١٠ والسيادة - أو الوفاق والغلب
٢٨٨	» ١١ استمارة القاتحين على الامم بامرائها ورؤسائها
٢٩٣	الامل وطلب المجد
٢٩٧	» ١٢ رجال الدولة وبطانة الملك
٣٠٢	» ١٣ كم حكمة لله في حب المحمدة الحقة
٣٠٧	» ١٤ الشرف
٣١٢	» ١٥ دعوى الفرس الى الاتحاد مع الافغان
٣١٧	» ١٦ امتحان الله للمؤمنين
٣٢٠	» ١٧ أسباب حفظ الملك
٣٢٥	» ١٨ سنن الله في الأمم
٣٣١	» ١٩ الجبن
٣٣٥	» ٢٠ الامة وسلطة الحاكم المستبد
٣٣٧	» ٢١ الوم
٣٣٨	استدراك على الفصل الاول
٣٣٩	» ٣ الدولة العثمانية والخديوية المصرية

الفصل الرابع

(ما نشر له بعد النبي من المقالات في الصحف السورية والمصرية)

٣٤٢	المقالة الاولى - مصر وجريدة الجنة
٣٤٦	» ٢ كتب المغازي وأحاديث الأفاضل
٣٥١	» ٣ مراسلات
٣٥٥	» ٤ رسالة صموئيل باكر في السودان ومصر وانكلازا
٣٦١	» ٥ مصر - الحاكم الاهلية

صفحة

٣٦٥	المقالة السادسة - اللغة الرسمية في المحاكم الأهلية بمصر
٣٦٩	٧ » الاتفاق
٣٧٤	٨ » المسألة الهندية
٣٨٠	٩ » بسمارك والدين
٣٨٢	١٠ » آثار محمد علي في مصر
٣٩٠	١١ » انما ينهض بالشرق مستبد عادل
٣٩١	١٢ » القضاء والقدر
٣٩٤	١٣ » الرجل الكبير في الشرق
٣٩٧	١٤ » الحث على اعانة منكوبي حريق ميت غمر

الفصل الخامس

(بعض ماكتبه في المناظرات الدينية وغيرها)

٤٠٠	الرد على هانوتو
٤٠١	ترجمة مقال هانوتو
٤١٥	رد الاستاذ الامام عليه
٤٢٥	المقالة الثالثة في الرد على هانوتو
٤٣٣	الاسلام أيضا
٤٤٠	حديث مع المسيو هانوتو
٤٤٩	المقالة الرابعة - هانوتو والاسلام
٤٥٣	» » » »
٤٦٣	» في الرد على هانوتو
٤٦٨	التربية التي يكون بها الانسان انسانا والجماعة الكبيرة أمة

(باب الرحلات العلمية التاريخية)

٤٧٣	بلم - صقاية
٤٧٧	كنيسة موريالي وتساها العرب وأين هم العرب؟
٤٧٩	دير الكبوشين ومدرستهم ومقبرتهم في بلم
٤٨٣	المكتبة العمومية ودار المحفوظات
٤٨٥	حاجة السائح إلى معرفة اللغات وأياها أنعم
٤٨٩	مسبنا ومقبرتها
٤٩٢	صمخ الصقليين ونسولهم وكساحم

صفحة

- ٤٩٣ رثائهم ووساختهم ومقاتلهم بالمصريين
٤٩٧ دور الآثار و بساتين النبات
٤٩٨ الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها
٥٠٢ أمير وأميرة من الأسرة الخديوية

الباب الرابع

﴿لوائح الاصلاح والتعالم الديني﴾

- ٥٠٥ اللائحة الاولى
٥١٢ التعليم الديني الابتدائي لطبقة العامة المسلمين
٥١٣ » » الوسط للطبقة المرشحة للوظائف
٥١٥ » » العالي لطبقة المعلمين والمرشدين
٥١٩ كلام في الدعاة والمرشدين
٥٢٢ اللائحة الثانية - في اصلاح القطر السوري
٥٢٤ حالة أعالي جبل لبنان
٥٢٦ » » ولايتي بيروت وسورية
٥٣٣ اللائحة الثالثة لاصلاح التعليم في مصر
٥٣٩ المدارس الاميرية
٥٤٠ » الاجنبية
٥٤١ الجامع الازهر
٥٤٣ الكتاتيب الاهلية
٥٤٤ المكاتب الرسمية الابتدائية
٥٤٦ المدارس التجهيزية والمدارس العالية
٥٤٧ المعلمون والمدرسون ومدرسة دار العلوم

الباب الخامس

- ٥٥٣ الفصل الاول - كتبه ورسائله الاصلاحية السياسية والدينية
٥٩٢ » الثاني - طائفة من كتبه ورسائله الودادية
٦٣٣ نموذج من كتبه في التمازي
٦٤١ كلمة له في المنار
٦٤٢ خاتمة في بعض كلمه المنشورة وحكمه المأثورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ، وكل شيء أحصيناه
في إمام • بين • (سورة يس)

مات الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) ولم يمت بل هو حي
بآثاره ، التي هي -قبس أنواره ، مات المراتة الطبيعية ، وحي الحياة العقلية
الروحية فهو لا يزال كما كان ، قبل أن يغيب عن العيان ، تنقل أقواله ،
وتذكر اعماله ، وتكتب معارفه ، وتشكر عوارفه ، ولا غرو فان للعلماء
والحكماء في هذه الدنيا حياتين -- حياة جسمية محدودة بتبدىء يوم
الولادة وتنتهي يوم الوفاة ، وهي الحياة الحيوانية التي يشاركون فيها سائر
الناس بل سائر الحيوان -- وحياة عقلية روحانية غير محدودة وهي تبدىء
بظهور نمرات عقولهم النافعة لامتهم أو اسكل من ينجيها من الناس
وتدوم مادام الزمان ، وبقي من المناظرين في آثارهم إنسان ، وقد كان
الاستاذ الامام من خير هؤلاء العلماء ، وأفضل أصحاب هذه الحياة من
الحكماء ، تشهد له بذلك آثاره المرقومة في وجوه الصحف ، وماثره
المرسومة في ألواح القلوب ،

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا إبدنا الى الآثار

يسفر لك هذا السفر من تاريخ هذه الحياة عن هذا النافعة العبقري وهو

لا يزال تلميذا يقتبس أنوار الحكمة من أستاذه السيد جمال الدين، و يفيض منها على عقول المستعدين : بما يكتب من المقالات ، في فلسفة التربية والصناعات ، وآونة بحبر الفصول الانشائية ، وبجلي المعاني المصرية في أبواب الاستجاع الحريية ، ويزفها كالخرائد ، على منصات الجرائد ، داعيا الى استقلال الفكر ، وتبادل علوم العصر ، حاثا على ترقية الامة ، حاضا على تجديد مجد الملة ، آمرا بالاتحاد على ترقية الاوطان ، ناهيا عن التعصب الذميم بين المختلفين في الاديان ، فهذا مثال طور الطاب والتحصيل من حياة الرجل العقلية ، يتتديء في الكتاب بمقالاته التي كتبها وهو في عهد طلبه للعلم بالازهر الشريف وينتهي بحكمة الماثورة ، ودرره المنشورة ثم يمثل لك في طور آخر . وهو تارة بين أرباب الرياسة ، يرشدهم الى طرق الادارة والسياسة ، ويهديهم سبيل الرشاد ، لترقية الرعاية وعمران البلاد ، وتارة يشرف على الامة بالوعظ والتعليم ، ويسلك بها صراط الحياة المستقيم ، ببيان غوائل السرف وفوائد الاقتصاد ، وتقويم النفوس بمقائل الفضائل وأحسن الآداب ، بمد تطهيرها من لوث الخرافات ، ومساوي التقاليد والعادات ، يهبط على الفلاح في حرثه فيخطبه بما يفهم ، ويرج بطالب الحكمة الى أفقه فيعلمه ما لم يكن يعلم ، — وهذا هو المثال الاول بطور العمل ، من الحياة المعنوية للرجل ، تجليه لك مقالاته في جريدة الحكومة الرسمية ، وجل عمله فيها خاص باصلاح حال البلاد المصرية ،

ثم تجليه لك مع أستاذه في الديار الاوربية ، مستحدين على إرشاد جميع الشعوب الاسلامية ، السيد الحكيم يترح ويدبر ، والاستاذ الامام

يكتب ويحرد ، يدعوان الى العروة الوثقى التي لا انفصام لها ، وبجمعان
القلوب على الوحدة وكانا أحق بها وأهلها ، هنالك تتجلى لك روح
القرآن ، هابطة من سماء الحكمة والعرفان ، مؤيدة بالعزة والسلطان ،
تطوف بتلك العروة البلاد ، وتصافح قلوب أهل الاستعداد ، فتحييها
حياة جديدة ، وتجذبها الى عيشة سعيدة ، ، هنالك ترى الالهام الالهي ،
يعد بتأثيره العلم الكسبي ، فيصيبان مواقف الاقتناع من العقل ، ويبلغان
مواضع التأثير من النفس ، فلا يقرأ القاريء مافى العروة من بيان حال
المسلمين ، وأسباب مأصيده وابه من البلاء المبين ، وماتطب لدائهم وتصف
من دوائهم ، الا وينثنى أسير البرهان ، مملوك الوجدان بالاذعان ، مندفعاً
الى العمل بذلك البيان ، بالجنان واللسان والاركان ، وذلك طور ومستوى
القوة ، وكال الفترة ، ومنتهى علو الهمة ، وبيع النفس والوقت للملة والامة
ثم يظهره لك رابضاً في الديار السورية ، يعمل لاصلاح الاسلام
باصلاح الدولة العثمانية ، أومقيماً في الديار المصرية ، يبين لاولي الامر
طريق الاصلاح بالتربية الدينية ، وهو في القطرين يتكلم عن فهم ثاقب ،
ويرمي عن فكر صائب ، يبين طبائع البلاد والساكين ، وجمع بين
مصلحة الحاكمين والمحكومين ، ويهديهم الى الطريق السليم ، في نظام
التربية والتعليم ، معرضاً باستعداده لتنفيذ العلم بالعمل ، مصرحاً بضمان
تحقيق الامل ، وفي ذلك مافيه من اعتماد على الله ، وثقته بالقوى والمواهب
التي آتاه ، يلوح لك ذلك في لوائح الاصلاح وما فيها من اشراغ منهاج الفلاح
ثم يبرزه لك في طور المبارزين ، للطاعنين على الدين المبين ، فيترأى لك أن
قلمه أمضى من الحسام ، وكله أنفذ من السهام ، فهو بهما يكر ويصول ،

ومجندل من المجادلين الفحول، ولا ينثني الا والحق غالب على أمره، والباطل مغلوب يأرز الى جعره، وحسبك من ذلك رده على مسيو هانوتوفى قوله في طبيعة الديانتين الاسلامية والمسيحية، ثم ردد عليه في مسألة الجامعة الاسلامية ثم يريكه بحجوب الاقطار، ويقطع أجواز البحار، للنظر في آثار الاولين؛ واستخراج العبر منها للآخرين، فقرأ في صقلية مرة بتصفح الصحف والاسفار، ويستنطق العاديات والآثار، ويقرأ ما نقش على الجدران بالبرية، لتحقيق المسائل التاريخية؛ ومرة يبحث عن الاخلاق والعادات، وينقب من المنشآت والمستحدثات، يتردد بين الاديوار والكنائس، والمقابر والمدارس، ثم يزف ما استفاد الى أمته، فيما كتب عن رحلته ثم يكشف لك عنه الحجاب، وهو يرسل العلماء والكبراء والكتاب، فتارة يتلو عليك من كتبه الى حزب المصلحين، وأهل البصيرة من تلمذ المسلمين، ما تخشع له القلوب، وتحد من وقعه الشؤدون، فكانك منه وقد عاد بك الاسلام، الى عصر النبي عليه الصلاة والسلام، فرأيت نفسك ترفق غيرة على الدين، وتفيض حزنا على ما حل بالمؤمنين، فلم يبق لها هم الا أن تكون كلمة الحق هي العليا، وكلمة الباطل هي السفلى، أو كأنك معه في عصر الراشدين، وكأنه معك أمير المؤمنين، يصول على الارواح بمواعظه الصادقة، ويختاب الالباب ببلاغته الرائعة،

ومرة يشنف مسامعك باللوأؤ والمرجان، من رسائل الوداد الى الاصدقاء والخلان فيمثل لك الادب الباهر، واللفظ الساحر، وبصور لك الوفاء في أجل صورده، والاخلاص في أجل مظاهره، والصدق والحب على البعد والقرب، ويريك من ذلك الرجل الحزين على أمته، المستغرق في عمل

الاصلاح للثة ، أديبا ظريفا ، وندى لطيفا . حسن الامايح مليح الافاكية
حلوا الفكاهة مر الجدة زجت بشدة البأس منه رقة الغزل
وأونة يقرئك مما كتب الى المؤلفين بالعربية ، أو المترجمين للكتب
الاجنبية ، ما يرفع من اقدارهم ، ويشب من نارهم ، وما يشجذ غرار همته ،
ويزجي ركاب عزيمتك الى أن تسكون من زميرهم ، وتساهمهم في مثل خدمتهم
وأحيانا يسممك من تمازيه للـحزين ، وهـ راعظه للمرزوين
بالاقرين ، ما يحلو به مرير الصبر ، ويرغب فيما عند الله من المثوبة
والاجر ، ويترك القلوب مفتوحة لثائرة ، قد سكنت قدرها الفائرة ،
وأنشأت تشيع الاحزان ، وتستقبل السلوان ،

نم نختم لك ذكرى هذه الحياة الروحية ، والاتار العقلية بشذرات
من الحكم المنشورة ، والايات الماثورة ، فترى اجمالا ينبي عن تفصيل ،
وقليلا لا يقال له قليل ، كانه صورة مصغرة للملك الروح "كبيرة" ، أو
عناوين لتلك الكتب المسطورة ، على أن الكتاب كله نتف من أقواله ،
ونموزج من أعماله ، وإن اتاره في النفوس لاعظم من آثاره في الطروس
فهو كحي في الآخرة بما قدم من عمل ، حي في الدنيا بما ترك من أثر ، يمثل
حياته هذا الكتاب الناطق وينشر خبرها الصحيح مريدة الصادق

محمد رشيد رضا

منشيء المنار

(تنبيه) تزيد هذه الطبعة على الاولى عدة مقالات ورسائل وحكم منشورة ،
وحذفنا منها رسائل الوردات لقلة من يفهمها ولرجوع الاستاذ عن كثرتها وقد
بلغت الزيادة مع هذا ٩١ صفحة

باب المقالات

يدخل ما كتبه من المقالات ونشر في الجرائد في ثلاثة فصول
(أولها) ما كتبه في عهد طلبه للعالم بالازهر ولدى السيد جمال الدين الافغاني
(ثانيها) ما نشره بعد دخوله في طور العمل وتصديه لاصلاح الحكومة والامة
بمصر وهو ما نشره في جريدة (الوقائع المصرية) الرسمية (ثالثها) ما كتبه بعد
تخيه من مصر وتصديه مع أستاذه وصديقه السيد جمال الدين الافغاني لاصلاح
الاسلامي العام وهو ما نشره في جريدة (العروة الوثقى) التي انشئت في
(باريس) (رابعها) ما نشر بعد ذلك في الصحف المصرية والسورية

الفصل الاول

ما كتبه في عهد طلبه للعلم بمصر وهو أول عهده بالانشاء الذي عرف به في عالم
الصحف : وعندنا منه ما نشر في أعداد متفرقة السنة الاولى لجريدة الاهرام
الاسبوعية من العدد الخامس الذي صدر في ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ الى العدد
« ٤١ » وهي السنة التي نال فيها بليها « أي سنة ١٢٩٤ » شهادة العالمية من الازهر ،
وبعض ما نشر في جريدة مصر التي كانت لسان السيد جمال الدين ومريديه
وتلاميذه وهو مقالتان تجملهما فائحة المقالات وهما في الحقيقة لسيد وليس
لشيخ منهما الا العبارة :

المقالة الأولى

فلسفة التربية

في ليلة الاحد الماضي (١) انعقد درس الاستاذ جمال الدين الأفغاني، وانتظم في سلكه جم غفير من نبهاء طلبة العلم وفضلائهم، وكثير من الافندية مستخدمي الدواوين. بمحضر هؤلاء، وأولئك، شنف المسامع بمقال جليل في شأن تربية الامة وما يلزم أن يسلك من سبلها، ولما فيه من عظم الفائدة رغبت في نشره في الجرائد الوطنية (٢) همياً للفوائد، وبيئاً لما انطوى عليه من حسن المقاصد، قال مامعناه: إذا وجه العقل نظر الاعتبار الى الاجسام الحية بالحياة النباتية أو الحيوانية أو الانسانية علم أن قوام حياتها بتفاعل العناصر الداخلة في قوامها، تفاعلاً متناسباً بحيث لا يتميز أحد تلك العناصر بالغلبة على باقيها، غلبة تقتضي بظهور خواصه وتسلبها على خصائص البقية، فبذلك التناسب يتم للبدن الحي ما يسمى بالمزاج المعتدل الحاصل لروح الحياة، فان غلب أحد العناصر على سائرهما، واضمحلت خواص بقيتها فيه، انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال، واستولى المرض على الجسم، وكما يكون الاختلال وفساد البنية بتغلب بعض العناصر على ما سواه منها. كذلك يكون بمغالبة المزاج للحوادث الخارجية وغلبتها عليه، كالبرد الشديد المذهب لروح الحرارة الغريزية، والحر الشديد الموجب للاحتراق، وتحلل الرطوبة الضرورية المنتهي الى اليأس نذير الموت والفناء ومن ثم وضعوا علوم النباتات والحيوانات والطب البشري والبيطري، لبحث في تلك العلوم عما به يحفظ التوازن بين البسائط التي يتركب منها الجسم

(١) كان ذلك في ١١ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٦ أول يونيو «حزيران» سنة ١٨٧٩م

(٢) نشرها في جريدة مصر التي كانت تطبع في الاسكندرية وكانت مظهر افكار

السيد ومجلى حكمته وميدان اقلام مر يديه

ومحترز من تسلط الموائد الخارجية عليه ، ويعاد به المزاج الى حالة الاعتدال إن خرج عنها لتتم حكمة الله تعالى في بقاء الانواع إلى آجالها المحددة بحكم الحكمة الازلية . فالنباتيون يعيتون الاراضي القابلة للزراعة والغراسة لكل نبات ، ويحددون الفصول الملائم هواؤها لنموه ، ويوضحون مواد التسميد ، وغير ذلك مما لا بد منه في تربية النباتات — وكذلك الاطباء يبحثون عن مواد الاغذية وماذا يجب أن يتخذ منها لكل مزاج ، ومضار الاهوية ومنافعها ؟ ويقفون بتجاربهم الصادقة على الادوية النافعة لرد البدن الى حالة الصحة وآلات العلاج المفيدة حتى تحفظ بذلك على البدن صحته ، ويرجع اليها إن انحرف عنها .

ولن يكون الطبيب طبيباً يترتب عليه غايته حتى يكون على علم بالتاريخ الطبيعى وعلوم النباتات ليعلم خواصها ، ويميز نافعها من ضارها . وعلى بصيرة من اختلاف الامزجة ومقتضياتها ، وما يلائم كل واحد على حسبه ، وخبيراً بعلم الامراض وأسبابها وكيفياتها من شدة وضعف ، وتاريخها من قدم وحدث ، حتى يعالج كل بما يليق به . فان جهل من ذلك شيئاً كان فقد خيراً من وجوده . فان الطبيب الجاهل رسول ملك الموت ، إذ بجعله يستعمل من الادوية ما عساه يهيج للمرض ، ويعين من الاغذية ما يساعده على قسوته ، فيفضي ذلك الى هلاك المريض . وقد كان بدونه محتمل الشفاء بمقاومة الطبيعة لولا مساعدة الجاهل وعونه ، وكما يلزم للطبيب أن يكون عالماً بجميع ما قدمنا يجب أن يكون شقيقاً وحباً صادقاً أميناً ، لا يكون قصارى عمله ما يناله من جعل المعالجة . فانه إن كان قسياً عديم الرأفة أو كان خائناً فلربما صار آلة في أيدي أعداء المريض يستعملونه لهلاكه بالقائه السم في الادوية مثلاً ، أو إهماله في العلاج بما يقدمونه اليه من العرض الفاني . وكذلك إن قصر همه على ما ينال من الدينار والدرهم ، فانه إن كان على تلك الصفة لم يكثر بحال المريض مادام يوفى أجر عمله ، فان هلك فقد نال ما يزيد عن مكافأته ، وإن امتد المرض زاد الايراد بتوارد الاوقات ، فعنده أيضاً خير من وجوده

وكما أن روح الحياة البدني انما يستقر حيث تجتمع أصول متضاربة ينشأ من

تغالبها مزاج معتدل كامل، وبغلبة أحدها يفسد التركيب ويذهب الروح الحيوي من حيث أتى . كذلك روح الكمال الانساني إنما يكون حيث تجتمع أخلاق متضادة وملكات متخالفة ، يقوم من تضادها وتخالفها حقيقة الفضيلة المعتدلة التي هي ركن لبيت سعادة الانسان ، وعليها مدار حياته الفاضلة ، فان تغلب أحد الخلقين على الآخر ، فسد نظام الفضيلة ، واستحكمت الرذيلة ، وبات شقيا سيئ الحال ، وسقط في مهواة التعب والعناء ، المفضيين الى الحين والهلاك . ألا ترى أن النفس الانسانية لا بد لها من خلق الجرأة وخلق الخافة ، وهما متضادان ، ومن مقاومتها على وجه معتدل بحيث يستعمل كلا فيما يليق به من المواقع ، تتحقق الشجاعة التي لو فقدت بتغلب الخافة لكان فاقدها عرضة لتعدي جميع الحيوانات عليه ، ولم يستطع عن نفسه دفاعا ، وكانت حياته تحت خطر يهدده في جميع أوقاته . ولو أن الجرأة تغلبت على الخافة حتى ذهب أثرها كانت نهورا وعدم الكثرات بالمهلك لحق ولغير حق ، بدون تبصر ولا مراعاة حكمة ، فيلقي بروحه في مهاوي المهلكة بلا طائل يعود على نفسه أو وطنه

وكذلك لا بد من خلق الامساك والبذل ، وهما متخالفان متعارضان ، يتقوم من تغالبهما في النفس فضيلة السخاء ، وهي البذل في موضع الاستحقاق إذا اعتدلا . ولو أن الامساك تغلب على ضده حتى اضمحل فيه لا مسك عن قضاء لوازمه الضرورية ، فلا يأتي باللائق من الاغذية والالبسة مثلا ، فيضر بيده ، ولم يوف بحقوق مشاركته في المعيشة كزوجته وولده ، أو في التعامل كجيرانه وأهل بلده ، فيقع الشقاق بينهم ، ويتأذى به الى شقاء دائم ، وغير ذلك من مفايد البخل التي لا تنحصر . ولو تغلب البذل لأنفق جميع ما بيده في المفيد وغير المفيد حتى يصبح فقيرا فلا يجد ما ينقذه في ألزم لوازمه فيهلك

وهكذا جميع الملكات الفاضلة الانسانية إنما هي واسطة لطرفين متضادين لا بد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة ، وبغلبة أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة ، ولا محالة ينهدم بيت السعادة دنيوية كانت أو أخروية ، ولا يسعنا المقام لتفصيل ذلك . وكما يقع العناد بتغلب أحد الضدين على الآخر في النفس

يقع أيضاً بتغلب أمر خارج عن مزاج الفضيلة كغلبة التربية الفاسدة المغذية للعنصر الفاسد بمخالطة ذوي الملكات الرذيلة والغرائز الناقصة ، وانفعال النفس بحركاتهم وسكناتهم وتقليدها لأعمالهم ، وتقلدها بعاداتهم ، أو باستماع إغواء ذوي الاهواء ، وتمويهات أرباب الاغراض الفاسدة الدنيئة ، المذيعين للأفكار الرديئة ، المؤيدين للعقائد الباطلة ، التي ينبعث منها سوء الاخلاق المؤدي الى فساد المعيشة . فللنفوس علل وأمراض كما للابدان ذلك

ومن ثم قد وضعت علوم التربية والتهذيب لتحفظ على النفس فضائلها وتردها عليها ان اعتلت وانحرفت عنها الى جانب النقص والاعوجاج ، كما وضع الطب ولوازمه لحفظ صحة البدن كما ينينا — فالحكماء العمليون القائمون بأمر التربية والارشاد ، وبيان مفاسد الاخلاق ومنافعها ، وتحويل النفوس من حالة النقص الى حالة الكمال ، بمنزلة الاطباء ، وكما لزم للطبيب أن يكون عالماً بالتاريخ الطبيعي والنباتات والحيوانات وعلل الامراض وأسبابها ودرجاتها من شدة وضعف ، كذلك يلزم للحكيم الروحاني طيب النفوس والارواح إذا رقي منبر الارشاد أن يكون عالماً بتاريخ الامة التي قام بارشاد أبنائها وتاريخ غيرها من الامم أيضاً وأن يكون مطلعاً على درجات ترقيا ودركات تدنيها في جميع الازمان ، وأن يسير أخلاقها بمسار الحكمة ليعلم أسباب أمراضها النفسية ، ويقف على درجات الداء وتمككه فيهم وأنه حديث أو قديم ، قوي في النفوس أو ضعيف ، وما هو العلاج اللائق بكل صنف ، وكما أنه يجب على الطبيب البدني أن يكون على علم تمام بمنافع الاعضاء وغاياتها كذلك على الطبيب الروحاني ان يكون عالماً بمنافع الاخلاق ومضارها على طبق ما في نفس الامر الواقع ، وكما يلزم أن يكون الطبيب شقيقاً رحيماً صادقاً أميناً ، لا ينظر الى الدنيا ، ولا ينحط الى المقاصد السافلة ، كذلك على النصحاء والمرشدين أن يكونوا من ذوي الاستقامة والفضيلة مرقعي الهمم ، أولي مقاصد عالية ، لا يبيعون الفضيلة بحطام الدنيا ، ولا بالتقرب والترلف الى الامراء والكبراء .

أولئك هم المرشدون الحقيقيون فان رزقت الامة بثلهم فبشرها بالسعادة .

وإن رزئت بمطبيين لا أطباء، بأن صعد على منابر النصيح فيها الجبهة والاغبياء، والسفلة والادنياء، فأنذرهما بالعناء والشقاء، فإن المرشد الضال والنصوح الجاهل يودع النفوس رذائل الاخلاق باسم أنها فضائل، ويغرس فيها جرائم الشر باسم أنها أصول الخير، ولربما كان مقصده حسناً ولا يريد الا خيراً، ولكن جهله يعنيه عن سلوك طريقه، ويبعده عن اتخاذ وسائله، فتقع الارواح في الجهل المركب، وهو شر من الجهل البسيط، فان ذا الثاني على باب الفضيلة لا يلبث ان فتح له أن يلجسه، وصاحب الاول قد بعد عن المقصد بمراحل، واستتر تحت نفع الرذيلة، واعتقد ذلك ظلاً ظليلاً، فلا يمكن العدول عما وقع فيه الا بعد مكابدة شديدة وعناء طويل، فلا ريب كان عدم هؤلاء المرشدين خيراً من وجودهم، وكذلك إن كان خائناً أو دنيئاً ينحط الى سفاسف الامور أو عدم الشفقة والانسانية، فانه يتخذ النصيحة سلباً للوصول الى أغراضه الفاسدة ومطالبه الذاتية، فلا يبالي أوقع الافراد في خير أو شر، صفت النفوس أو تكدرت، ارتفعت الآداب أو انحطت، صحت الارواح أو اعتلت، فيكون آلة بيد الاشرار وأولي الاهواء، يستعملونه في فساد الامة والعشيرة لقضاء أوطارهم ألا وأن القائمين بأمر الارشاد يحصرون في قبيلين، قبيل الخطباء والوعاظ، وقبيل الكتبة والمصنفين، ومنهم أرباب الجرائد، فان كانوا على نحو الاوصاف الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم، فقد استحقوا التعظيم والاحترام والتبجيل والاجلال، واستوجبوا الشكر والثناء من كل قلب مخلص، وقاموا بخدمة أوطانهم وأبناء بلدتهم، وإلا استحقوا الرفض والطرد والابعاد، ووجب على من يهمهم أمر الاصلاح أن يقدفوا بهم من البلاد كي لا يفسدوها بمرضهم الوبائي الذي لا يقتصر ضرره على المتلبى به، بل يتعداه بالسراية الى كل ماسواه

المقالة الثانية

فلسفة الصناعة

قد عاد حضرة الاستاذ الفاضل ، والفيلسوف الكامل ، السيد جمال الدين الأفغاني الى التدريس بعد فترة تزيد مدتها عن سنة . فابتدأ حفظه الله يقرأ شرح إشارات الرئيس ابن سينا في الحكمة العقلية ، وهو كتاب جليل يحتوي من هذا العلم أصولاً جلية ، غرست أصولها في بلاد المشرق من مدة تقرب من ألف سنة ، إلا أنها نبئت فروعها في المغرب ، واجتنت ثمارها لغير غارسها ، ولم تزل في بلادنا على كليتها وإجمالها لم تخرج نتائجها العقلية من حد (١) القوة الى الفعل — إلا أن هذا السيد الفاضل قد جمع في تدريسه بين تدقيق الشرقيين ، وبسط الغربيين ، يجمع الى الاصول فروعها ، وإلى المقدمات نتائجها ، وإلى الجملات تفاصيلها ، بانياً جميع أقواله على البراهين الثابتة والحجج القوية . ولما كانت دروسه العالية عظيمة الفوائد ، حجة الثمرات للعموم . رأيت من الواجب قياماً بالخدمة الانسانية أن أودع بعضها قوالب العبارات اللاتقة بها ، وأنشر طيب وفدها في صحف (الجرنالات) لئتم الفائدة ، والله يتولى التوفيق

بين حفظه الله وأثبت أن الانسان نوع من أنواع الحيوانات الارضية (لا كما يزعمه أرباب الأوهام كالصينيين وقدماء الفرس من أنهم من أبناء السماء فليترك من له فطنة) وأنه قد آتى عليه حين من الدهر وهو على مقربة منها ، ينشأ نشأتها ، ويسير في عيشه سيرتها ، يتفياً ظلال الاشجار ، ويستكن في الجحرة والاوكر ، ليس له شعار ولا دنثار (ولكن خفيف أشعار) يقتات بنباتات وثمرات تحضرها له القدرة الالهية ، على يد القوى الطبيعية ، لا تمسها يد صناعية ، ولا تربية أجنبية ، ليس له من المنكر والتحيل إلا مالا يداني فيه

(١) لعل الكلمة حيز بنشد بداليا فانها هي المستعملة في هذا المعنى ولفظ الحد صحيح فيه

الثعلب ، ولا من العلم والتدبير إلا ما يبعثه على الغدو لطلب قوته من الاعشاب
وثمار الاشجار، والرواح للاستكنان في كن يواريه عن أعين الحيوانات العادية ،
والفرار من المكاره الحسية ، كما تفر الشاة من الذئب ، والارنب من الثعلب .
ولم يكن له من رفعة القدر ما يجلسه على كرسي سلطنة الوجود ، وقيمه متحكماً في
كل موجود ، ويدعوه للحكم بأنه خلاصة العالم ومنتهى سير الحقائق وعماد عالم
الكون ، وأن جميع البسائط والمركبات إنما خلقت لأجله ، والكواكب
السيارات إنما تتحرك لخدمته ، بل كان ضعيفاً عاجزاً جاهلاً حافياً عارياً يزعمه
كل حادث ، وتستفزه كل نبأة ، ويتهب من كل شكل وهيئة ، والشاهد على
ذلك ماتحكيه لنا أحوال الأمم التي كأنها قرية عهد بالانسانية في جنوب أفريقيا
والقبائل المستمرة (١) في قم الجبال والاجم والغابات البعيدة عن العمران البشري
المعروف ، الذين لم تضطرم الحاجات ولم تسقمهم الضرورات الى الانتقال من
مكان الى مكان ، فانهم لم يزالوا على سذاجة الحيوانية وبساطة الفطرة ، لا يفهمون
خطاباً ، ولا يحسنون جواباً ، إلا ما كان متعلقاً بضرورة الحياة ، كجلب قوت
بسيط ، ومدافعة عاد من الحيوانات ، وجميع ما يعده الانسان المتمدن كمالاً
وانسانية فهم بعيدون منه ، عارون عنه ، مع بعد تاريخهم وامتداد زمن وجودهم
على سطح الارض

الا أن مبدع الكون جلت قدرته لما اختص هذا النوع من بين الأنواع
الحيوانية بمخافة العجز والفقر والحاجة ، حيث جعل جميع لوازم حياته خارجة عنه ،
لا تحصل الا بالتحصيل ، وليس تحصيلها الا بعد السكد والعناء : وهبه قوة عاقلة
كلية التصرف ، عامة القبول ، ووكل تربية هذه القوة الى تعليم مدرسة الوجود
السكلي ، فكان لكل نبات وحيوان ، بل لكل موجود مشهود حق الاستاذية
وسابق الفضل على نوع الانسان ، فاسترشد بأعمالها ، واهتدى بآثارها ، والتقط
دور الحكم من فعلها وانفعالها ، وتدرج في ذلك شيئاً فشيئاً ، تارة بخطي ، وتارة
(١) استمر الرجل : جاز وذهب واطرد ومضى على طريقة او حالة واحدة

وهو المراد هنا

يصيب ، وطوراً ينجلي له الحق وآخر عنه يغيب ، مرة تعوقه العوائق القدرية والارادية عن إدراك الحقائق والوصول اليها ، وأخرى تجذبه الجواذب اضطراباً للوقوف عليها ، حتى وصل الى ماأراه من أحواله الغريبة وأثاره العجيبة ثم بين حفظه الله كيف كان يتقلب الانسان في سيره هذا ويقطع عقبات المصاعب، ويخترق حجب الجهالات، منقاداً في جميع ذلك لقائد الحاجة والضرورة يأمر أمره ويتبع سيره ، تارة يتدرج الى السكال فيقعده مقعد رئاسة الكون وسلطنة الوجود بما يرشده اليه من اتقن في الفنون واختراع الصنائع ، وأخرى ينحط به الى قعر جحيم الاوهام ، ويقذف به في جب الخرافات ، ويكبله بقيود الاعتقادات السخيفة . ويغل يديه بسلاسل العادات والافكار الرديئة ، على أن جميع اعتقاداته الفاسدة الباطلة إنما نشأت له من قياس حوادث الكون وظواهره على ما يصدر عن ذاته (الشريعة) حيث جعل لها غايات تحاكي غاياته على تفصيل طويل في ذلك ، مستشهداً في تبيانه بشواهد أحواله الآنية المشهودة، مستدلاً بجميع أعماله المنقولة المعهودة

وانه في جميع مراتبه لم يكن ليقم ظهره بين الموجودات الا بدعائم الصنائع التي هدته الى اختراعها تلك القوة العاقلة الكلية ، لتكون له عوضاً عما سلبه من اللوازم الضرورية والحاجية والكمالية التي منحت لغيره من الحيوانات بأصل الفطرة . وليس ذلك بخاف على ذي شعور ، فان صناعة الحياكة مثلاً قائمة مقام القوة السامكة للجلود الغليظة المفترزة للأشعار والابواب الواقية لما أحاطته من صولة البرد والحر بل القائمة مقام ترس يحفظ جوهر بدنه من تمزيق عادية غيره . وصناعة الحديد والاسلحة منزلة منزلة القوة المولدة للمخالب والبرائن والانياب للسباع والضباع وعوادي الطيور . وهكذا بقية الصنائع ، وما لم يقم منها مقام ضروري أو حاجي قام مقام كلي على ما يتضح لك بعد

واذا كانت الصنائع هي قوام هذا النوع وعليها مدار بقائه في أي مرتبة كانت رأينا من الواجب أن نعرف الصناعة ونقسمها الى أقسامها الاولية على

ما قرره الحكماء الاقدمون ، وأوضحه الفلاسفة المتأخرون ، ليتبين شرف كل صناعة على وجه الاجمال فنقول :

الصناعة قوة فاعلة راسخة في موضوع مع فكر صحيح نحو غرض محدود الذات . فالقوة منشأ الاثر مطلقاً ، فعلا كان أو انفعالا . فالمعلم مثلاً ذو قوة الفعل ، والمتعلم ذو قوة الانفعال ، إلا أن قوة التأثير والقبول لاتعد صناعة ، ومن أجل ذلك قيدت بالفاعلة ، وليست كل قوة فاعلة صناعية ما لم تكن تلك القوة راسخة في موضوعها تصدر عنها أعمال مستمرة على وجه منتظم . فالقوة الحالمية التي تعرض آنآ وآنات ثم تزول ليست منها في شيء ، وما لم يكن فعلها تحت سلطان الفكر فلا تدخل في مفهوم الصناعة كالأفعال الطبيعية من إحراق النار وتمديد الحرارة وتجميد البرودة وما شاكل ذلك . فان لم يكن الفكر صحيحاً كفكر السوفسطائي المنكر لبديهيات العلوم ، أو كان نحو غرض غير محدود الذات كأعمال الجذلي الذي أخذ على نفسه أن لا يقر قولاً لقائل أيا كان ، حقاً أو باطلاً ، فليس له حد يقف عنده ، بل قوته متوجهة الى معارضة مقابله . فان كان نافياً ، كان هو مثبتاً ، وإن كان مثبتاً كان هو سالباً ، فليس بصناعة

ثم إن من نظر في عالم الوجود الكلي علم علم اليقين إنه وأن وقع كثير من صورته وكالاته تحت قوى طبيعية كقوى النمو والجذب والدفع ، أو قوى إحساسية كقوى طلب الغذاء مثلاً في الحيوانات ، أو الهرب مما يؤلم الجثمان ، إلا أن عامة أفعاله واقعة على ترتيب عقلي محكم . ونعني بالترتيب العقلي ما يكون مبنياً على مراعاة الغايات والحكم وفوائد السكال التي تعود على نظام الكل وتبقى ببقائه فان العقل على خلاف الحس إنما ينظر الى الكلي الباقي أولاً ثم يتدرج منه الى الجزئي لا العكس

وإن وازع هذا النظام العام قد خول الانسان من قوة العقل مالم يخوله غيره ، وجعلها محور صلاحه وفلاحه ، إن وجهها صوب وجهتها الحقيقية ، فان استعملها لغايات طبيعية أو حسية أي قاصرة على موضوعها المودعة فيه لاتفيد سواه ، كأن يطلب بها تنمية بدنه أو جلب ما يلائم ذائقته أو نهامته وما يشبه

ذلك ، فقد أضع تلك القوة العالية الشريفة ، وسلخ عنها ثمرتها ، وانحط الى درجات الحيوانات ، بل النباتات التي لم تمنح تلك المنحة الجليلة ، وأما من حفظ نفسه من السقوط وأمسك عليها حق تلك الخاصة أغني العقل ، فهو الذي ينظر الى كلية العالم الكبير ، فيعلم أن نوع الانسان وسائر الانواع من لوازم كماله أو متماته ، فيتوجه نحو حفظ ذلك الكمال ، ويوقن أن نوع الانسان لا يحفظ بقاؤه في عالم الوجود الا بحفظ أشخاصه على انتعاق ، كما نبأنا اللطيف الخبير بما أودعنا من القوى المولدة والمصورة ، ويتحقق أن حفظ أشخاصه وأفراده إنما يكون بالاجتماع والالتئام لما لكل فرد من كثرة الحاجات التي يضيق نطاق وسعه عن أن يأتي عليها في الازمنة المتطاولة مع اضطرابه الى جميعها في الآن الواحد ، كما تراه في مواد الاغذية التي لا تحصل الا بزرعة وحصاد ودرس ثم طحن ثم عجن وخبز وطبخ وهلم جرا . وجميعها أيضاً يتوقف على صناعات كثيرة من حدادة ونجارة ونحوها ولوازم الاكتساء من العرى ، وضروريات المدافعة والمكافحة مع ضواري الحيوانات ، كل ذلك لا يكون الا بأعمال تستفرغ أجل الشخص الواحد في تعلمها فضلاً عن تحصيل غايته منها ، فكيف به أن يستقل وهو محتاج الى ثمرات جميعها يوماً بيوم ، بل ساعة بساعة ، فلا بد من التعاون في الاعمال فيعتاض كل عن ثمن عمله بشرة عمل الآخر . فيكون المجموع الانساني كبذن ذي أعضاء ، يعمل كل عضو منه للبدن لتكون عاقبته لنفسه . إذ لو طلب الاختصاص — مع أنه لا بقاء له الا في ضمن المجموع — فقد طلب فقد نفسه من حيث لا يشعر ، فاذا علم جميع ذلك وضع نفسه عضواً حقيقياً وركناً ثابتاً يقوم بأداء عمل يعود على كلية الافراد أولاً من طريق كليتهم ، ويعود الى شخصيته ثانياً .

ومبدأ هذا العمل فيه هو الذي نسميه بالصناعة ، فمن لم يكن ذا عمل حقيقي يفيد المجتمع الانساني ، ويعين على انتظام الهيئة الكلية ، فهو كالأعضاء التي لا فائدة منه على البدن الا تكلف حمل ثقله مع عدم التألم من إزالته . فالاولى إباته وقطعه ، بل إن كان لا يعمل ويسمى الى بقية الافراد في عدم العمل كالأباحية الذين يعتقدون أنه لا ملكية لأحد في مال ولا عرض ، حينما جاعوا أكلوا ، أو شبعوا

واقعوا ، ويثثون أفكارهم بين أفراد النوع ليقصدوا بأعمالهم ، ويسيروا بمثل سيرهم ، فيتركون الأعمال اتكالا على ما يبد الغير حيث إنه مباح لهم ، فان تغلبت أفكارهم بطلت الصنائع وذهب ما يبد الغير وما بأيديهم ، فيحتاجون الى الضروري من الاقوات وغيرها ، ولا يجدون فيه لكون (١)

فأولئك كالأمراض السارية مثل الجذام والزهرى لا بد من قطع العضو المؤف « المصاب » بها وإلقائه في النار لئلا يتعدى ضرر مرضه الى سائر البدن ومن هذا القبيل الفساق والفجار وان لم يكونوا اباحين فان أعمالهم قد تكون قدوة لغيرهم فيأتي من ضررهم ما أتى من أولئك فينبغي أن يعاقبوا ويؤدبوا ويحال بينهم وبين أعمالهم هذه بكل ما يمكن وان كان بالتعذيب حتى يستقيموا أو لا يقيموا ومن الناس من مثله مثل الأمراض الغير السارية والاعضاء الزائدة كمن أضيوا بالآفات المانعة لهم من تعاطي الاشغال كالكسحاء والبله والمعاتيه فلا بد أن يتحمل ثقلهم ان لم يمكن استشفائهم فرار آمن ألم القلب عند اختزالهم واقتطاعهم ، لما لهم من العذر القائم ، اذ أن مدبر الكون قد حرمهم عطاء العقل أو عطل فيهم آلات خدمته فهو غير مطالب لهم بأداء فروضه أو قضاء حقوقه ، الا أن الحق الأعلى قد بث في النفوس وأودع في القلوب النفرة السكينة من هؤلاء وأولئك الذين لم يقوموا بالواجبات التي تقتضيها منهم صورة الانسانية ، فهم مبغوضون في النفوس ، مطرودون من زوايا القلوب ، ساقطون عن نظر الاعتبار ، بل هم ملعونون من أنفسهم أيضا اذ يجد كل واحد منهم من نفسه عند ما يخلو بها أنه خسيس منحط الدرجة رديء العاقبة ، وان كان شقاؤه يغلب عليه فيما بعد ، فانظر الى حكمة ربك كيف تنبه الغافل ، وتؤيد العاقل ، ولكن أكثرهم لا يعقلون

وأما ذوو البطالات ومن رفضوا الأسباب ووكلاوا أنفسهم الى التوكل الكاذب

(١) قد ظهر بعد الحكيمين الافغاني والمصري صنف من غلاة الاشتراكية الشيوعية يسمون البلاشفة ويسمى مذهبهم البلاشفة أو البلاشفية تغلبوا على قيصرية الروسية فخرّبوا عمرانها وأفسدوا أديانها وقضوا على ارواح الملايين من أهلها ، ثم شرعوا يثثون دعايتهم في العالم كله وهم أولى بما قاله الحكيم في الاباحية

اذ لم يتحققوا معنى التوكل وظنوا أنه عبارة عن معارضة سنة الله التي قد خلت في عباده ودعوا ذلك تبطلا وانقطاعا عن عالم الظاهر، مع أخذهم لكشكول التكفف، وخلعهم لجلباب التعفف، فهم بمنزلة شعر الابط لا ينشأ عن تكاثفه سوى عناء الحك واستجلاب بعض العفونات ان لم يتعهد بالتطهير، ويستحب ازالته وتنقية الهيئة الاجتماعية من درنهم، فان بلغ من أمرهم أن يتخذوا ذلك أمراً يدعى اليه وذهبوا في الناس يحولون وجوههم عن الاعمال، ويقلدون أعناقهم سبوح المسكر والحياة، ويسربلونهم بسر ايل التمويه والتزوير، ويغفرونهم بتأبط هراوة الشر واقتناء قدح الطمع، يودعون نفوسهم أخلاق الشيطان من حب الرئاسة الكاذبة وطلب الدنيء من الدنيا من كل وجه والحق والحسد والعداوات وغير ذلك ويحجبون ذلك بأستار من التلبيس (غير المنتظم) ثم يوصونهم أن أخرجوا أيديكم من تحت تلك الأستار طالين انتهاب أموال الناس والاستئثار بشمرات اكتسابهم باسم أنهم وأنهم وأنهم (كما ترى) وجب إلحاقهم بالباحين وتحتم على كل ذي شعور من بني النوع أن يسعى لقطع دابرهم واستئصال شأفتهم، كيلا يفسدوا أفكار العامة وأعمالهم، ويعود ويل ذلك كله على العامة والخاصة معاً، وبالجملة حيث تبين أن لاقوام للانسان الا بالصنعة، فمن أخل بوظائفها أورامها بالنقد. فقد عمد الى هدم بنيان الانسانية، فعابها أن تطرده من أبوابها، وتمحو اسمه من كتابها

أقسام الصنعة وسرفها

ثم ان الصنعة على التعريف المتقدم تنقسم الى أقسام، إما نافعة ضرورية أو غير ضرورية، وأما أن تكون كثيرة النفع أو قليلة أو متممة لفعل الطبيعة أو مزينة له، فالقسم الاول كالحدادة لأنها مما يحتاج اليه جميع الصناعات العملية. والثاني كقصر الثياب مثلاً. والثالث هو ما يكون الغاية منه نفع الانسان لا غير كالحكمة التي هي مقننة القوانين وموضحة السبل، ورواضعة جميع النظمات، ومعيّنة جميع الحدود، وشارحة حدود الفضائل والردائل، وبالجملة فهي قوام

الكالات العقلية والخلقية ، ومن هذا القسم الحكومة العادلة ، والرابع (أي الذي هو خير بالواسطة) كالزراعة والكتابة ، فان لها غايات سوى نفس الانسان لكنها تؤول اليه . والخامس (وهو الكثير النفع) كالنجارة والتجارة مثلا . والسادس كصناعة الصيد وما شاكلها . والسابع كعلم الطب المتم لا فعال القوى الحيوانية المساعد لها على اتمام وظائفها . والثامن كالصبغة والنقش والتلوين وغير ذلك

ثم إن شرف كل صناعة وكل فن بعموم موضوعه وشمول غايته ، وأن أعم الاقسام موضوعا هو صناعة الحكمة لما بينا من أنها الباحثة عن كل ما يلزم للانسان اتخاذه في أعماله وأفكاره وأخلاقه ، فهي أشرف الصناعات والحداة ، وإن كانت عامة لكنها من الحكمة بمنزلة الخادم المنقاد من السيد الحاكم الأمر



الفصل الثاني

ما كتبه في جريدة الاهرام أيام كان مجاوراً في الازهر وهو أول كتابته الانشائية في الجرائد ومن قرأ هذه المقالات وما يأتي بعدها يتجلى له كيف كانت بداية الاستاذ الامام وكيف ترقى الى تلك النهاية الحسنة الخاتمة. وعندنا منها . ولدينا منها خمس مقالات

المقالة الاولى

تفريط الاهرام

جاء في العدد الخامس للسنة الاولى من جريدة الاهرام الاسبوعية الصادر في ٢ ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٧٦ الموافق ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ ما يأتي: وردت اليينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة والاديب الفهامة الشيخ محمد عبده احد المجاورين بالازهر فأدرجناها بحروفها :

الى حضرة الهمام الكامل سليم أفندي محرر جريدة الاهرام انه لما نظر لدى كل قاص ودان ، واشتهر بين بني نوع الانسان ، أن مملكة مصر كانت في سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك ، وكعبة يؤمها كل سالك وناسك ، اذ كانت قد اختصت بتربية العلوم ، وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم ، وانفردت بالبراعة في الصنائع ، والابتكار في أنواع البدائع ، فكان أبناء العالم اذ ذاك ينتدون نداها ، ويستجدون جدها ، يستطرون من الغيث قطراً ، ويستمدون من المحيط نهراً ، فكان التمدن فيها كهلاً ، حين كان عند غيرها طفلاً ، ولا زالت كذلك حتى زها فيها التمدن وأعجب ، اذ رأى الطالبين تنسل اليه من كل حذب ، وأن ملوك الارض خدام عتبة ، وتيجان

الكيانين تحت قبضته ، فاستكبر واعتلا ، ولكؤوس الراحة اجتلا ، فاقصته الى ممالك الغرب ، ليدوق مرارة الشغب أو اللغب ، ويتربى بذلك ويتأدب ، فبدا بتلك الممالك غريباً ، ونادى معلماً فوجد مجيباً ، وتناوشته أيدي المباحدين ، ولفحته أقوال المنكرين ، ولا زال يحتمل أنواع المتاعب ، ويقاسي مستعصيات المصاعب ، الى أن بلغ بها أشده ، ومملك رشده ، وسار فيها شرقاً وغرباً ، وخامر ألباب القوم حباً ، فعم انتشاره ، وبدت آثاره ، وتلاأت أنواره ، واذ تحلى بحلل الجلال ، وتتوج بتاج الكمال ، وقضى مدة السباحة ، وباء بغاية الراحة ، استدار الزمان كهيته ، ورجع الامر الى بدايته ، وقفل القمدن الى مسقط رأسه ومقر تربيته ، فورد ديار مصر ورود الاهلي ، وتمكن بها تمكن الاصيلي ، فاستقبلته الديار بغاية المسرة ، وأكرمت مشواه وأعظمت أمره ، واستردت ماكانت فقدت ، وأدنت ماكانت انأت ، وأحلته محل القرب ، وأنزلته سوداء اللب ، فقام يؤدي حق خدمتها ، ويوفي شكر كرامتها ، فنظر الى ماكان أبداه في تلك الازمان ، من شواهد البنيان ، التي كم بلغت الاسباب ، وحيرت الالباب ، وانبات بما فيها عن براعة بانها ، ونطقت بفيها ، ان آيات الكمال فيها ، فلما أعجب بالمثل ، حداه حادي الكمال ، لأن ينسج على هذا المنوال ، فانشأ لنا جريدة الاهرام المؤسسة على أحكم قواعد الاحكام ، الكافلة بإرشاد المسترشدين ، وتنبيه الغافلين بما فيها من المباني الرقيقة ، والمعاني الدقيقة ، والافكار العالية ، المؤيدة بالبراهين الشافية ، القائمة بنشر العلوم ، بين العموم ، فيالها من جريدة أسست قواعدها في القلوب ، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب ، تنادي بمقالها وحالها : حي على الفلاح ، وهلموا الى موارد النجاح ، لاتقفوا عند صورة المبنى ، ولكن تجاوزوا عنه الى المعنى ، تلك أهرام أشباح ، وهذه غذاء أرواح ، تلك ظواهر صور ، وهذه دقائق عبر ، تلك مساكن أموات ، وهذه لسان سر السماوات ، نعم أين ذلك الزمان ، من هذا الآن ، الذي قد سطعت فيه شمس العرفان ، ونشأ فيه بنو الانسان نشأة أخرى ، وتقلب في فنون الحقائق بطنا وظهراً ، فحقيق أن تكون أيامنا غير أيامهم ، وأهرامنا غير أهرامهم ، وأين الذي تفنيه الرياح

والامطار ، من الذي لا توهنه توالي المدد والاعصار ، فان مقره العقول العاليات ،
والنفوس الزكيات ، التي لا يتناولها الفناء ، ولا يبتذلها العناء ، فيخجج بمنشئها ،
وطوبى لقاريها ، فمن الواجب على ذوي الالباب أن يجتنوا جناها ، وأن يستطاعوا
بسر معناها ، فيبوؤا بأنوار الحكمة ، وينقلبوا بفضل من الله ونعمة . فانه ليس
شيء لدى العاقل أبهى من حقيقة يكشفها ، ولا ألد من حكمة يصادفها ، هذا
إيجاز في مزاياها ، بسم الله مجراها ومرساها ، اهـ

(يقول جامع الكتاب) هذه بداية ، تشير الى ما عرفنا من الغاية ، فالتصور
يدل على استعداد الخيال ، وناهيك بمجاور أزهرى للعلوم العصرية ميال ، لا ينكر
منه المنتهي من إنشائه الآن ، الا تحري السجع الذي كان منتهى البراعة في ذلك الزمان

المقالة الثانية

الكتابة والقلم

وجاء في اهرام السنة الاولى ايضا مانصه وقد نشر في عدة اعداد اولها الثامن

وردت الينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة الاديب الشيخ محمد عبده
أحد المجاورين بالازهر وموضوعها في أن فن القلم والكتابة من الوازم
للضرورة ليس للعالم عنها مندوحة في تمييزهم الحقيقي :

إن مما انبسط به أيدي الضرورات ، وأنتجت مقدمات الحاجات ، انشاء
لسان القلم ، نائبا عن المتكلم فيما يتكلم ، وذلك أنه لما اقتضى النظام الالهي أن
يخلق الانسان محتاجا في أن يقوم بدنه مدة مامع حد ما من الراحة ، الى أن يتخذ
مما خلق الله له في الارض مالم يكن حاصلا ، وأن يكون منه مالم يكن كائنا ، بحسب
الحلقة الاصلية ، ركب فيهم القوة النطقية ، واللطفية الفكرية ، التي بها يكون ترتيب
ما يحتاجون الى اتخاذه من الطعام والمشرب والملبس والسكن . فقادتهم الفكرة
الى اتخاذ الصنائع والآلهة ، على حسب استدعاء الحاجات ومقتضياتها ، واضطرم
فلك الى الاجتماع بتفصيل لسنا الآن بصدد ، وانه وان صح أن يقوم كل شخص

بعمل من الاعمال والبراعة فيه بالآلات البدنية ، فليس في قوة كل أحد أن يكون مخترعاً مبتكراً لما يحتاج اليه أرباب الاعمال في أعمالهم من اللوازم الضرورية ، أو الادوات التيسيلية ، أو لما به يكون صلاح ذات بينهم في المعاملات ، وفصل الامر بينهم عند الخصومات ، على ما يقتضيه انتظامه الاجتماعي الانساني بتفصيل لسنا الآن بصده أيضاً ، بل ذلك انما يقوم به أرباب الفكرة الوقادة ، والفطنة للنقادة ومن البين أن مجرد صفاء الجوهر لا يكفي في ترتيب الاثر عليه ، بل لا بد في ذلك من أعماله وتربيته وإعداده لذلك الامر العظيم وتخليته عن جميع الاشغال سواء ، فان القوة الواحدة لا تكفي على البراعة لأمور متعددة فاحتيج اذن الى اتخاذ أرباب التعاليم ليقوموا لهم بالعلم والارشاد الى طريق العمل ، ويقوم أرباب الاعمال باخراج ذلك من القوة الى الفعل ، فقام كل بواجبه ، واعتاض كل من صاحبه ، وكان نسبة أرباب التعاليم الى أولياء الاعمال نسبة الاب الشفيق ، والخي الرقيق ، ليس لهم فكر الا في ترقيتهم ، ولا نظر الا فيما يكون سبباً لاسعادهم وأساساً لراحتهم ، واذ رأوا ذلك منهم تحققوا ما لهم من الفضيلة ، وانتضلوا للقيام بشكرهم بكل حيلة ، فاشتغلت اذ ذاك أفكارهم ، وارتفعت أنظارهم ، واتسعت دائرة المعرفة ، وغدت آيات الحقائق منكشفة ، ففسر عليهم حفظ ما أسسوه ، وعظم عليهم أن يؤدوه كما أبدوه ، لكثرة المقدمات ، وتشدت الجزئيات ، وصعوبة ما يحتاج اليه القواعد ، مما لا يقوم بحفظ الكثير فضلاً عن الواحد ، فاحتاجوا أيضاً الى اتخاذ ما به تحفظ أفكارهم بحيث يرجعون اليه عند النسيان ، ويذكروهم لدى البيان ، فظفقوا يتخذون صوراً من الاحجار ، وأخشاب الاشجار ، تحكي بالمناسبة عما يريدون ، وتنطبق على ما يقولون ، لتكون اشارة للعارفين ، وحجاباً على أعين الجاهلين ، وكان ذلك كافياً لنقطة من الزمان

ثم لما شيدت مباني العرفان ، وانتشرت المعارف بين بني الانسان ، وغصت الارض بالعلوم ، وسيرت فيها سيرة النجوم ، صعب عليهم الحفظ بالتصوير ، والتبس الامر على السميع البصير ، فألجئوا بالاضطرار الى حفظ ذلك بالارقام العلمية ، الحاكية عن الحروف اللفظية ، القابلة في الرسم للتأليفات الغير المتناهية

يكون أدنى التباس بين أشكالها، كما لا يحصل الالتباس بين الالفاظ عند تأديتها، فكان القلم لساناً آخر للمتكلم، الا أن ما نطق به اللسان الحقيقي عرض سيال، وما نطق به القلم جوهر لا يزال، فلصاحبه عند الذهول أن يرجع اليه، ولغيره من أهل لسانه أن يعول عليه فسهل عليهم بذلك حفظ آثارهم وبث أفكارهم، وفرغوا من شغل عظيم، ووضع عنهم وزر جسيم، كان يعوقهم عن كثير من التعاليم، وكان من ذلك أن حفظ قول القائلين من جيل الى جيل، على نحو ما نال من اجمال وتفصيل، فكان بذلك أفكار الازمنة المتتالية مجتمعة في نقطة واحدة، وكذلك أفكار أهل زمان واحد، على ما فيها من الشوارد، بدون اشتباه في ذلك، فحصل لذلك التعاون في الأفكار، وإيقاد سراج الاستبصار، فان أفكاراً كثيرة تقدمت أو تأخرت، بمنزلة لجنة قد انعقدت، للارتقاء في حقيقة أمر خفيت، والناظر الناقد بمنزلة رئيس الجمعية يرجع بين الاقوال، ويرى بنور بصيرته ما اليه أمر كل آل

فكم من وهم فاسد عنه اندفع، وكم من محال جاز وجائز امتنع، وكم من نور له بين تلك الآراء لمع، فكان له مكنة أن يمضي في ضوء مصباحه، وأن يضرب بسلاحه لطلب صلاحه، فوضع القواعد، وأقام الشواهد، ورمى بالقذى في عين الجاحد، فارتقت العلوم الى ذراها، وارتبط أولها بأخرها، وركض العالم في ضوءها، واستقوا من هاغل نوءها، وعاد مثل الاول والآخر، في هذا العمل الفاخر، مثل جماعة تألبوا على إقامة بيت بالاشتراك، وكافوا كلاً على حسب حاله من المسكنة والادراك، أن يأتي بماله بال في إقامته، أو دخل في استدامته، أو ما يكون موجباً لحسن الترتيب، أو اتقان التركيب. فمنهم من ميز زواياه، ومنهم من فصل جوهره عن خباياه، ومنهم من أسس قواعد، ومنهم من أقام شواهد. وهكذا كل يسعى لتشيده، وإقامة حدوده، واحكام قوائمه، واظهار علائمه، الى أن يتم بيت المعارف، الذي هو أمان لكل خائف، وهو حرم الله الذي من دخله كان آمناً، وعرشه الذي من استوى عليه كان بالعزة قنناً، وكل ذلك بسر سير القلم الذي به علم الانسان ما لم يعلم، وجمع الكل

في صعيد واحد ، ونادى قلباء كل قاصد . فهذا إيجاز في شأنه ، ويسير من بيانه ، في تسير العلوم وارتقائها ، وتسهيل اقتباسها وابدائها .
ثم لما عظم أمر المعاملات التجاؤا الى التعامل بالنسيئة ، واحتاجوا الى حفظ وجه التعامل خوفا من النفوس الجريئة ، وكثرت وجوه الاعتداء من الأحزاب والشعوب ، والتجؤا الى الاصلاح كيلا يبيدهم الغيوب ، وكان ذلك لا يستقيم الا بحفظ معاهدات ، تنعقد بينهم لمنع الاقتراحات ، ولا يتم ذلك الا بأن يحفظ ما وقع اتفاق عليه ، على الوجه المرضي بينهم ليتمكن الرجوع عند الاحتياج اليه ، فلم يوجد لذلك مستودع أمين ، ولا حصن مكين ، لا يداع هذه المعاني ، الا ما يشيده القلم من المباني ، فكان القلم هو الشاهد العدل ، والحكم الذي عليه المعول ، ولولاه لم تحفظ حدود ، ولم يوثق بعهود ، ولم ينل المحق حقه ، بل يتسمع المجال للمبطل وتبعد الشقة

ولما انتشر نوع الانسان في أقطار الارض ، وبعد ما بينهم في الطول والعرض ، مع ما بينهم من المعاملات ، وموائيق المعاهدات ، احتاجوا الى التخاطب في شؤونهم ، مع تنائي أمكنتهم وتباعد أوطانهم ، فكان لسان المرسل اذ ذاك لسان البريد ، وما يدريك هل حفظ ما يبدى المرسل وما يعيد ؟ وان حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد ؟ بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يبعد القريب أو يقرب البعيد ، فكم من رسول أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مغلول ، أو حرب تحمد الانفاس ، وتعمر الأرماس ، ومع ذلك كان خلاف المرام ، ورمية من غير رام ، ولم يكن في كلام المرسل ما يثقله بهذه الاوزار ، ولا من نفسه ما يشعل شرر هذه النار ، فوكت الندامة ، وضرب الويل خيامه ، فالتجؤا الى استعمال رقم القلم ، ووكالوا الامر اليه فيما به يتكلم ، فكان مبلغاً أوعى من سامع ، وهاجماً أسرى من لاعم ، وقنوعاً أغلب من طامع ، وصامتاً أنطق من ممانع ، فأدى القول كما سمع ، وحكى الصنيع كما صنع ، وآتى على المرام ، من فاسد أو سداد ، بل ربما كان أوعى للعقالة من القائل ، وأحفظ للأمانة من المالك الحامل ، فهو حينئذ حقيقة اللسان ، وغيره مجاز عنه في البيان . فكم من معاتب

تفر النفوس من عتابه ، ان هو أعتب في خطابه ، ولكن إن رقم أتى بالريق ،
ونادى نداء الشفيق ، فاستبدل الشقيق بالمشاق ، ورفع العنا ووضع الوراق ،
فهو ان تكلم كلم ، وان رقم شفى الالم ، وكم من مؤدب فيه ، لا يستطيع
تحريك فيه بما يخفيه ، لا يفيد المستفيد ، ولا يوافي مرام المستعيد ، ولكنه ان
أجرى القلم ، نطق بالحكم ، وحج وأفهم ، وحل وأبرم ، وأسس وأحكم ، فهو
وان لم ينطق بلسانه ، قد نطق ببراءه وبنانه ، فلم تعده فضيلة البيان ، وان
عضلته عصبة اللسان . وكم من خطيب نجيب ، ورقيب حسيب ، ان تكلم ألق ،
وأطبق وأغلق ، وان كتب أعجب ، ورغب وأرهب ، وقرب وأبعد ، وجمع
وأفرد ، وأوقد نيران الالفة ، وعقد روابط الالفة ، وآتى برقيق التشبيه ، ودقيق التنبيه
ومن أجل آثار القلم ، اذ يعد من أعظم النعم ، ومن اللوازم ألزم ، الجرائد
(والجرنالات) التي هي أمل عظيم لترقي الملل ، وانتظام أمور الدول .

أما الاول فلائها توقف الملل على خصائصها ، الموجبة لتقائصها ، وتوضح لهم
أسباب الترقى ، وما به يكون التوقي ، وتنشر بينهم أخبار غيرهم من سلفهم وجيرانهم ،
وما به كانت عزة ملة وذلة أخرى ، وأي الامور لهم بالتمسك أخرى ، وتشوه لهم وجه
القبائح ان ارتكبه ، وتعظم لهم أمر الجليل ان تركوه ، فتشرح مفاسد العادات
التي هم عليها كالجبال ، والتكاسل عن الصناعة ، والرضا بالفقر ، مع التردى
برداء الكبر ، والتمسك بالخرافات ، وفاسد الاعتقادات ، وجمع كلمة النفاق ،
وشق عصا الوفاق ، وغير ذلك من قبائح الافعال ورذائل الاخلاق ، وتقدم
لديهم مصالح الفضائل كاتساع دائرة الافكار ، والتنقيح على مافي العالم من
دقائق الاسرار ، والحث على الاشتغال بالصنائع ، والاهتمام في ترقى البدائع ،
وطلب العيشة الراضية ، مع اليد العليا والهمة العالية ، والنظر في آراء الاوائل نظر
الناقد ، والتمسك بما قطع به البرهان في باب العقائد ، كيلا يفوت كثير من
الكالات ، ويفقد عظيم من اللذات ، وتبث بينهم أفكاراً تكون سبباً لتنوير
البصيرة ، وتطهير السريرة ، وتحرك فيهم حمية الغيرة ، فينتبهون بذلك من
غفلاتهم ، ويستيقظون من سباتهم ، ويلتفتون الى مصالحهم ، ويقلعون عن

قبائحهم ، فيطلبون الخير ، ويجتنبون الضر ، ويرتفع من بينهم الجور ويوضع العدل ، وتطلع فيهم شمس المعارف ، وينسلخ عنهم ليل الجهل ، وينالون من الراحة والرفاهية مالا يحصر ، ويستولون من عظام الامور على مالا يصح أن يذكر ، وان أدركه أرباب النظر

وأما الثاني فلائها لسان سر السياسة فتنبى عن نتائجها في الآن بل في الآت ، وتوازن بين الدول وقواها ، وتحقق النسب بين أضعفها وأقواها ، وتبين ما في نظامهم من الاختلاف ، وما في أفعالهم من الاعتلال ، ونتائج ما أبدوه من أسباب النجاح ، ومواد الاصلاح ، وحفظ الارواح ، وارتياح الاشباح ، وما اثنت عليه صدور السلاطين ، من عدل يزين وظلم يشين ، وترشدهم الى مايجب أن يسلك فيما استولوا عليه ، وما يؤول أمرهم ان سلكوا غيره اليه ، وتعري وتحذر ، وتبشر وتندر ، فاذاك ينتبه الغافلون ، ويحترس المستيقظون ، ويقوم الضعف المتلافي ، ويطلبون الحق بالملاصق والمتجاني ، ويهرع المحتلون لسد خللهم ، وبراء عللهم ، وتخفيف أثقالهم ، ويرتدع الظالمون ، ويغبط المقسطون . وذلك كله مع تنائي الاقطار ، وتباعد الاسفار . فالقول الواحد يبلغ الجميع في قليل زمان ، وكأنما القاتل والسامع في مكان ، فيعتضد البعض ببعض في الخروج من الذلة ، وشفاء الغلة . وانما مثل صاحب (الجرنال) مثل خطيب قام على منبر العالم وأمسك بيده صور اسرافيل ، ونادى بالحقير والجليل ، فنفخة تحيي ونفخة تميت ، وعظة تصيب وأخرى تقيت . فمن الواجب على كل ذي دراية ، أن يكون له بمطالعة هذه الصحائف غاية ، ليكون على بصيرة في أمره ، ومصيباً في سيره ، ناثلاً لخيره ، حذراً من شره ، متحرراً نحو المعالي ، طالباً ما تهتز اليه العوالي ، ويقف على خفيات الحقائق ، ورفائق الدقائق ، ويخرج الى فضاء المعرفة ، ويطلق من غل الجهالة والسفه ، إن هذا الا بامداد مداد القلم ، وجريانه في ميدان تربية الامم ، والا فأن اللقيانت ، من بلاد تبت . وأين فارس ، من بلاد هند وفارس ، إذ يقوم عليهم رقيباً ، وفيهم خطيباً ، يعظهم بالموعظة الجسنة ، ويحذرهم غرة السنة . ولقد ينبئنا ما انجر اليه علم أمر العالم في سيره ،

وليس له مكنة أن يعدل عنه الى غيره ، بأن صار القلم محتاجاً اليه في أدنى المهمات ، وأهون المهمات ، وخصما في جميع المنازعات ، وحكماً لدى المحاكمات ، حتى لم يبق للسان الا محاورات قليلة ، وموارد أخطارها غير جليلة ، فاقراً وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم

المقالة الثالثة

المدير الانساني والمدير العقلي الروحاني

وجاء في العدد ١١ منها الصادر في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٦ — ١٤ ذي الحجة سنة ١٢٩٣ ما يأتي وتتمته في ع ٢٣

﴿ وردت الينا هذه الرسالة من قلم جناب العالم العلامة ﴾

﴿ الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالجامع الازهر ﴾

إن النظر في الآثار الانسانية على اختلافها بحسب الخصائص الشخصية، واثلافها في الغايات النوعية ، ينبئنا بأن الحقيقية الانسانية تشتمل على مديرين عظيمين (أحدهما) المدير الحيواني مع ما يستتبعه من جميع الاحساسات الظاهرة والباطنة (والآخر) هو المدير العقلي الروحاني السكلي . ولكل واحد منهما — اذا لوحظ وحده بقطع النظر عن صاحبه — غاية يطلبها ، وحدود في سيره لا يجاوزها . فالمدير الحيواني ليس له من غاية سوى حفظ تركيب الحيوان الى حد معلوم ، والى زمن مخصوص ، فهو منوط باللوازم السكافة لهذا الغرض من جلب ما تقوم به البنية ، ودفع ما فيه مضرة أولها عنه غنية ، على قدر الامكان ، حتى يقوم هذا المزاج سالماً مدة ما من الزمان ، وذلك أيضاً هو حال سائر الحيوانات العجم . يرشدك الى ذلك التأمل في آلاتها البدنية ، وآثارها الحياتية . فان حيواناً من الحيوانات لم يكن لتتوجه ارادته ، الى سوى ما يقوم بدنه ، أو دفع ما يعتري عليه مما يوهنه ، فان رجليه لم تكن تسعى الا لطلب المرعى أو للهرب

من قاصد ايلام ، أو للاستقاء من حر أوام ، أو ليقع سفاداً ، ليتخذ له من نوعه أولاداً ، بل لاشعور له بهذا الاخير ، وانما هو ليدفع عن بدنه ما كان يناله بالتأخير ، ولا سكنت الا للاستراحة من تعب ، أو لياوى حيث أعياء الطلب ، ولا تحرك منه خيال ، لغير ماذ كرنا على أي حال . فهذا مطمح نظره ، وقصارى أمره في سيره . وليس له في هذا السير سوى خدمة الطبيعة ، ومساعدتها بآتمام تركيب العالم العنصري ، واستبقاء أنواعه ، واستكمال آثاره البسيطة . فقد علمت أن الانسان في هذا مشارك لغيره من الحيوانات ، وليس يمتاز فيه عنها بشيء من جهة من الجهات

وأما المدير العقلي فهو من حيث هو ليس له من غاية سوى كشف المعنى ، وان بعد المرمى ، على وجه لا يلحقه فيه الريب ، ولا يتطرق اليه أدنى عيب ، والتحلي بالمسكات الفاضلة ، والتنزه عن الصفات غير الكاملة ، وذلك بأن يأخذ بالقسط ، ويقف على الحد الاوسط ، فيما يجب أن يقع من تصرفاته ، مع اغيائه أو في حد ذاته ، وأن يفيض على الغير مما استفاد ، أو أن يضع النجاح ويرفع الفساد ، ويقرر قواعد الوفاق ، ويقطع أساس التفرق والشقاق ، وكل ذلك على مقدار قوته ، وما يملكه من مكنته . فهو السابح في يبداء الوجود ، ليميز الواقع من المفقود ، ويقف على أصول الكون ، وما نشأ عنها لونا بعد لون ، ويكشف عن وجوه الاسرار براقع الآثار . فلا يدع مدينة الا قرع بابها ، وطعم طعمها واستقى شرابها ، ولا حسناء الا كشف نقابها ، ورشف رضابها ، ولا عميقاً الا وقف على قراره ، ولا مرتفعاً الا أتى عليه بمعياره ، وعلى هذا المنوال حتى يصبح وقد استغنى عن العالم بصدرة ، واكتفى عن مخبريه بمخبره ، وأضحى خلقاً جديداً ، وعلى كل شيء بذاته شهيداً ، وانطوت في وحدته الكائنات ، واتحدت في ذاته المختلفات

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
فينتد يضع موازينه ، ليحكم قوانينه ، فقد عرف النافق من الكاسد ،
وميز الصحيح من الفاسد ، فيأخذ بما استطاب ، ويدع ما منه استراب ، فلا يدع

شاردة من الفضائل الا اقتنصها ، ولا ناشزاً من المكارم الا قص قصصها ، ولا دفيناً من المحاسن الا أبرزه ، ولا خليطاً الا أطاق عنه ما يشوبه وأفرزه ، ولا نقيصة الا أولاهها النفاًر ، وولاهها الادبار ، فلا يذنيه ميله من السفاسف ، ولا يقصيه عزوه عن المعالي وان دونها القواصف ، فلا يكلف ثقل العار ، ولا يستنكف الأخذ بالثار ، واذا دعت اليه داعية الحق ، وان جل الخطب واتسع الخرق ، وحينئذ يستميج مسامع أمثاله ، ليمدهم من نواله ، ويفرم فيهم أشجار النجاح ، ليجتوا منها ثمار الفلاح ، ويجنبهم رية الاختلال ، ويضع لهم ما يعبرون عليه في لجج الاشكال ، وهذه هي الآثار التي قد امتاز بها الانسان عن سائر الحيوانات ، فلا ريب كان المدبر العقلي هو الانسان بالحقيقة

هذا ما لكل من المدبرين على حدته ، الا أن سير الوجود قد اقتضى أن يكون مجموعهما طبيعة واحدة ، وهي الحقيقة الانسانية ، وان يقع الوسط بينهما على وجه محكم ، حتى أن الاتحاد بينهما ربما يتوهم ، وأن يكون كل منهما محتاجاً الى الآخر في ابداء عماله وبلوغ كماله ، وهاك الشاهد: فانا قد بينا أن المقصد الاعلى للعقل ، انما هو استكشاف أسرار الوجود ، وابراز ما استتر في عالم الشهود ، وذلك مقام لا يعلوه كعبه ، ولا يأتي عليه عناؤه وتعبه ، عند استبداده بذاته ، وصرف الوجهة عن آلاته ، بل الطريقة المثلى في ذلك ، والمسلك الوحيد من بين المسالك ، هو استعمال هذه الآلات الجسدانية ، ليتوصل منها الى ما يتطلبه من الدقائق الخفية . فانها تقدم اليه من صور الكائنات ما لم يكن يحضره ، ولم يكن يبلغه خبره ، فانا لو فرضنا أن العقل قد فطر على أحسن الفطر ، ونشأ على غاية من صفاء الجوهر ، ولكنه لم يستعمل حس البصر ، فهل كان يتمكن من استقبال وفد الضياء ، أو استطلاع سكان الفضاء ، حتى يحدد دائرة أورانوس ، ويهاجم العقرب بالقوس ، ويجمع بين الاسد والثور ، على الجوار بلا تعد ولا جور ، ويعين ما لبدرنا من المنازل ، وأين حوت ليالي وصله وهجره نازل ، ويعين سير الكاتب ، ويستكشف ما نال المشتري من العجائب ، وينبي عن ذي الحلقتين ، ويحقق ما بين السماكين ، ويقف على ما لشمسنا من التدبير ،

وأن يضرب بسلاحه لطلب صلاحه . فوضع الشواهد ، وأقام القواعد ، ورمى بالقذى من عين الجاحد ، وفوائد السمع سوى هذه كثيرة

وكذلك حاسة الشم قد قدمت اليه أنواع المشومات ، وحاسة الذوق أنواع المطعومات . وحاسة اللمس أرشدته الى مبدأ الصلابة واللين . فأرشدته كل ذلك للبحث في أسرار هذه الاختلافات وأسبابها ، وعلاها الفعالة وعلاقاتها بها . وذلك باب من العلم عظيم ، وخطبه جسيم . ولو أن المدرك العقلي فينا وقف على نقطة واحدة ، واتخذ له متبوءاً على حدة ، هلا كان يفوته كثير من المعلومات ، ويعوزه الاطلاع على جم من الكائنات ، بلى فلا بد من الانتقال من أين الى أين ، والابغال في البون واللين ، والاستبصار فيما يراه كيلا يعود بخفي حنين ، فتحتم عليه لنيل كمال الأرب ، تحريك كثير من الآلات البدنية نحو الطلب ، والا فليس يدرك الا نزراً ، ولا يحمل الا وزراً . شعر

إن العلى حدثتني وهي صادقة فيما تحدث أن العز في النقل
لو كان في شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوماً دارة الحل
فقد تنورت من هذا أن ليس للعقل عن شيء من هذه الآلات غنى ، ولا
لا شجاره دون سقيها جنى

هذا هو الاضطراب العقلي الى الحيوان في كماله الادراكية ، وجدير بأن يكون كذلك في كماله العملية ، كالاقدام والاحجام ، لربط وثام ، أو تقرير نظام ، أو دفع عار ، أو تأنيس نفار ، أو وضع عدالة ، أو إنقاذ من ويل جهالة ، أو إغاثة ملهوف ، أو مواصلة مشغوف ، وغير ذلك مما يجب أن يكون العالم عليه ، ولا راحة للكون الا بأن يصار اليه . وكذلك الحيواني في الانسان ، مضطر الى العقلي في بقائه مدة ما من الزمان . فان الانسان لما شغفته عرائس الاكوان حبا ، ودعته لوصلها : هلم قربا ، تنكب عن مقامه ، وأسرع في إقدامه ، فبرز اليها قبل أن تنسج له أيدي القدر لباساً يقيه ، أو تصنع له نعلا يحمديه ، بها ترفده من حدة الناب ، وقوة الخلاب ، مابه يتخلص من مهاجمه ، وينتصف من مقاسمه ، ولم تهيه من القوة الطبيعية ، ما يتعيش معه بمطلق النهاية ، فكان

ويكتسبون ثياب النحول ، ويعترضون حد السيف المسلول ، يجوبون القفار ،
راكبين متون الاسفار ، يتوسدون مالا يتوسد ، ويأكلون ويشربون مايزهد ،
وذلك كله ليستكشف الواحد منهم ارتفاع جبل من الجبال ، أو ليستبين أن
سلسلة جبال قد أخذت في امتدادها كم من الاميال ، أو ليعلم أن مقاطعة على كم
تحتوي من أفراد الانسان ، أو أنهم يتدينون بأي دين من الاديان ، فمؤلاً قد
هجروا أوطانهم ، وأتعبوا أبدانهم ، لتحقيق أمر جزئي خطره في ذاته يسير ،
وان كان مايرتب عليه من الآثار في جملة العالم كثير ، ويصر أن كثيراً من
الناس قد امتلك خزائن من الاموال ، وتحصن بقلاع من فرسان الرجال ، بحيث
يكون له مكنة من الراحة التامة البدنية ، واقتناء جميع اللذائذ الحيوانية ، ومع
ذلك ينتحل نحلة الفكرة ، وينتفح لية نفسه كرة بعد كرة ، يتمثل اليه الحور
والولدان ، فيغض عنهم ساحبا ذيل النسيان ، وربما غفل الزمن الطويل عن غذائه
الذي به دوام قوته واستحكام بنائه ، وانكب على النظر فيما بين أوراق الدفاتر ،
ليقف على أفكار الاوائل والاواخر ، وبضع قسط الميزان بين الآراء ، كأنما
يحكم بين الاسكندر ودارا ، حتى اذا أخذته الحيرة يرى ولها حيرانا ، وملا سكرانا
قد اكفى بسلاف الشراب ، واستغنى بمحادثة العقول عن مسامرة الاحباب ،
ويقرع أقداح الكلام ، من قرع جامات المدام ، واذا قذفت به أمواج بحر الوله
إلى ساحل المعرفة ، وانقشعت عنه ظلمات الاوهام وأسفر له صبح الحق ، انقبه الى رmqه ،
والغناء حرقه ، وحسبك مارووه عن نيونن الفيلسوف المشهور ذلك حيث استقرقته
الفكرة ، مع أن الجوع كان قد بلغ معه قدره ، طلب الطعام فلم يجد فأمر أن
يصنع له البيض فانه أسرع الى النضج من غيره فأتي له بقدر فيه ماء وأوقدوا
أسفله النار وأتى له بالبيض ثم قالت الخادمة له اذا غلا القدر فألق البيض فيه
فأخذ بيضة ينتظر بها غليان القدر وكانت الساعة بيده ليعلم مقدار الزمن الباقي
للمرسة ، فلما غلا القدر ألقى الساعة في القدر ظاناً انها البيضة ، ثم أخذ ينظر الى
البيضة ليعلم مقدار الزمن من حركة زلالها ، ويكتشف الواقع من صفاتها ، فانت
الخادمة وهي تظن أن الفيلسوف قد قضى عمله ، وبلغ من الغذاء أمله ، فوجدت

الساعة في القدر دائرة بين المهبوط والصعود ، والركوع والسجود ، كسكران أطربته ألحان القانون والعود ، أو ناسك حركته أهوال ذلك اليوم المشهود ، وأحوال غيره من أمثاله مشهورة ، وفي الكتب مسطورة ، وبالجملة فان كون البحث في دقائق العلوم وكشف معميات الامور ، مما يشغل الانسان عن نفسه فضلا عن حسه ، أمر محقق قد قر في نفوس العموم حتى لا يصح أن ينكر اذا لم يجده كل شخص من نفسه

ويرى ويسمع أن من الناس من يقوم بنشر فضيلة من الفضائل ، أو تبيان حق في مسألة من المسائل ، ينتضل سيف لسانه ، ويستميل عقول الغافلين بسحر بيانه ، فيثعوذون من سحره بتائم الانصراف ، ويغمدون غضب لسانه في اغماد الاجحاف ، قائلين (شعر)

من ذا الذي من غينا يخرجنا نحو العلى والحق من يرشدنا
ويجزعونه في ذلك كؤوس الاحن ، ويطلبون الراحة من عنائه بالاجلاء
على الوطن ، وهو مع ذلك لا ينثني عنائه ، ولا يسكن في طلب اسعادهم هيجانه ،
وليس يهيمه في ذلك قرع الصفاح والسنان ، ولا استفرازه من مكان الى مكان ،
ولكن أن يقبل المستعدون سجال نيضه ، وأن يرى أزهار غرسه في صالح
أرضه ، ومن أولئك رجال لا يحصى عددهم ، ولم ينقطع الى الآن مددهم ، ويرى
ويعلم أن كثيراً من الناس يريق دم جميع اللذائذ ، دون حماية لائذ ، ولا يحتمل
ثقل العار ، وإن دونه جبال النار ، وحسبك ما تراه من لاعبي نحو الشطرنج والتره
اذ يصرف أحدهم فكرته ويبدل همته في أن يحوز قصب السبق في ميدان الغلبة
بحيث لو أتى اليه محبوب كان دائم الماطلة ، وقد دعت داعية الرافة للمواصلة ،
لا يلتفت اليه ، ولا يعطف ميله عليه ، وكل ذلك حذراً من أن يلحقه عار
المغلوبة ، مع أنها غلبة وهمية ، لا تكترث بها النفوس الاية فضلاً عن الدنية ،
فما ظنك بعار يلحق صاحبه الشناعة ، ويذهب بيهائه ويكشف قناعه ، خصوصاً
إن أودع بطون الدفاتر ، ليكون عبرة من الاول للآخر ، فهناك يخضع لباس حب
الحياة عن نفسه ، ويضع خوذة شرف الانسانية على رأسه ، حتى يتخلص مما

خقه ، أو يلحق بمن سبقه ، وهو في ذلك يتلذذ بطعناات السنان ، كأنها غمرات حور وغلمان ، ومن هؤلاء كثيرون ، وأنتم بهم عالمون ، فمن هذه الجهة يظن بل يوقن أن ليس المقصد الاعلى ، وانغاية القصوى ، من هذه النشأة الانسانية ، سوى التحلي بهذه الفضائل المعنوية ، واقتناء تلك اللذائذ الروحانية ، ولا محالة يذهب الى أن الانسان يأكل لان يعيش ، ويعيش لان يرى ، ويرى لان يعقل ، ويعقل لان يكمل ، وهذا هو النظر الادق ، والقول الاحق

فان قال قائل : أن جميع ما ذكرته ثابت لا ينكر ولكن جميع ما يرتكبه أولئك الذين عدتهم من ترك اللذائذ البدنية ، وميلهم نحو ما زعمت من الخصائص العقلية ، ليس لاستكمال اللذة الثانية لذاتها . بل لتكمل لهم الاولى بجميع جهاتها ، فان أرباب العلوم . قد علموا أن لاتنال الرفاهية والراحة . ولا يستوفى جميع ما يتقوم به البدن سالما عن جميع الآفات الا بالعلوم والمعارف وكثرة التجارب ، فيشقون في تحصيلها ، ليسعدوا بنيل عاقبة أمرها . وان الذين قد استتبوا راحتهم في نشر أفكارهم وبث فضائلهم لم تكن داعيتهم الى ذلك سوى حب الرياسة ، ليستعبدوا غيرهم ويتخلصوا مما كانوا ينالونه من الذل والتعاسة . وإن أرباب الهمم العالية لم يجبروا المستجير . ولم يحفظوا ذمار العشير . الا خوفا من أن يمتد اليهم عند التساهل في حواشيهم يد المتغلبين فيتمكنون من نواصيهم فيمنعونهم من لذاتهم الجسدية . ومقتضيات حياتهم البدنية . وبالجملة ما نشرته فهو إمانيل لقمة ، أو دفع لكمة .

فأقول مجيباً : دقق النظر يا هذا في أحوال الذين بذلوا أرواحهم في طلب الكمالات العقلية مع ايقانهم إما بفوت هذه اللذائذ الحسية . أو قطع عرق الحياة بالسكلية . الذين لم يكن مسعاهم سوى نيل المكرم والفضائل . وكل ما دون ذلك فهو له من الوسائل . فانه لو كان لهم غاية سوى تلك الكمالات لما اتوا دونها ولم يتجاوزوها الى أضدادها ، بل في أحوال غيرهم . فانك قلما تجد انسانا لا يفدي بلذة بدنية لنيل روحية . والتي أن عددت لك أصنافهم الدانية التي لاتنحط درجة أفرادها عن ذلك على اختلافها يطول المقال ويتسع المجال .

نعم اننا لا ننكر أن كثيراً من الافراد يتخذ المقاصد ومبادي . ولم ينالوا من الانسانية سوى المشابهة في الارجل والايادي . اشربوا في قلوبهم عجل الشهوات ، ووسموا جميع الآثار الانسانية بالمقدمات . وتكالبوا تكالب الذئاب على الفريسة ، وأن مثلهم في نيلها بما ذكر مثل المحتلس ، يتزيا بزي أرباب الامانة كيلا ينفر منه الأمين ولا يحترس . فان بني نوعهم لو يقفون على مقاصدهم الدنية ، لم يرفدوهم شيئاً مما تهواه تلك الهمم الارضية . الا من هم على مشربهم ، وارتضعوا من ثدي أمهم .

ومنهم من رسب في أرض حيوانية بالمرة . ولم يوجه طرفه نحو سماء الانسانية بنظرة . فثله كتل الحمار يركبه كل راكب ، ليمده بعلف دائب . وهذا مع ما قبله سواء في المقصد . وشركاء في المصدر والمورد . لامتتهى لركابهم سوى ما رب حيوانية بل نباتية . فلا يصح لأحد منهم أن يرى نفسه أرقى من ثعلب يروغ من المحارب . ومحتال في التوثب على ضعيف الدجاج والارانب . ومع كل ذلك لا تقبل نفسي أنهم مجردون من اللذائد الروحانية ، وإن غلبتهم على ذلك دناءتهم ، وانحطت بهم طبيعتهم . ولا أمل أنهم يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا ، وتستشيط نفوسهم والآلام غضباً أن أندادهم في أعراضهم جهلوا . بدون أن يلاحظوا في ذلك تلك الذات ، أو يكون لهم اليها التفات .

ثم إني أنشدك الله أيها الحكيم . الا ما تقلدت الانصاف في التحكيم . وانبأتني على من ترقبت الآثار التي توقن أنها من خصائص الانسان ، كتمهيد دلائل العرفان ، التي قد استخدمها ما في العالم من جماد وحيوان ، واستنقذ بها أبناء عالمه من ربة التكليف ، الى فضاء ليس فيه مزعج ولا مخيف ، وفي ظل من أنت ترفل في ثياب الفخار ، تحكم ما تريد وتفعل مما تشاء وتختار ؟ لاشك في أنك تحكم بان تلك آثار أولئك الذين قد بذلوا حياتهم في نيل الفضائل والمعارف ، وأجهدوا أنفسهم في بثها مع مصادمهم من أنواع المخاوف ، وجعلوا تلك الغايات نصب أعينهم حينما ذهبوا ، ومنتهى سيرهم رغبوا أو أرغبوا . قائل كل واحد منهم (شعر)

ولست بنظر الى جانب الغنى اذا كانت العليا في جانب الفقر
وهل سمعت أن ملة قد ارتقت الى صلاح حال ، أو تنعم بال ، الا بعد
أن خضب ثراها بدماء أولئك الفضلاء ، واختطف عقاب جورها نفوس هؤلاء
النبلاء ، ثم بعد يرتعون في مروج حنينهم ، ويختالون في ثياب عز غيرتهم ، فهل
كل ذلك يحصل الا بإيثار لذة واحدة ، على لذائد متعددة ، بل غير متناهية ،
وهي لذة الفضيلة ، والصفات الجليلة ، فهي خاصة الانسان التي عنها ينشأ آثاره
فأذن لا جرم ينقسم الانسان الى قسمين قسم أخذ الى أرض الحيوانية
فغايته غاياتها يقوم بدنه مدة ثم ينفلت من الحياة لا يبقى له أثر ، ولا يسمع له
خبر ، وقسم قد ارتقى الى ذروة الانسانية فتهج المنهج العقلي الذي قد منانياته ،
وأيدنا برهانه ، فكلما قوي في فطرة الشخص جانب الانسانية ، كان ميله نحو
التصرفات العقلية ، ، يأنف الظلم ، ولا يجازف في الحكم ، ولا ينتحي نحو الغدر ،
ولا يحتمل صدمات القهر لغير الحق ، بل تركض خيله في أرض العدالة ، لرفع
آثار الجهالة ، ودفع معرة النذالة ، يأخذ بالبرهان ، ولا ينكص اذا استحکم البيان ،
وذلك لا الى حد مخصوص ولا في مكان مخصوص ولا في زمان مخصوص ، نعم
الاقرب الى البحر أولى بمائه ، والسوى انما ينال من فضل استغنائه ، ومن ثم ترى
أن أهل قارة أوروبا لما ارتقت لديهم المعارف الى ذراها ، وبلغت فيهم الكمالات
قصاراها ، وألقت الرياسة اليهم زمامها ، وفوضت السياسة اليهم أحكامها ، وأصبح
نور العقل في أحيائهم يتلأل ، وسنا الفضل في أقطارهم يتعالى ، تسابقت همهم
الى بث مقتضيات الانسانية ، في نواحي الكرة الارضية ، واستنصل مادة
التوحش ، وتطهير الارض من خصال التبربر ، وما استعصى عليهم في ذلك من
عويصات الموانع ، أنفذوا اليه قامعا من كتابهم أي قامع
الا أن منهم من يتخذ هذه الفضائل اسما ، ويتقلدها رسما ، لتكون آلة لاعمالهم ،
وسلما لسوء آمالهم ، خصوصا الملك الكبير ذا الارض الواسعة ، والاقطار الشاسعة ،
الذي قد منح أهل مملكته تمام الحرية ، حتى إنه لا يبيح لهم أن تدرس العلوم
الفلسفية ، في مدارسهم الرسمية ، بل الاهلية ، بل إن أراد أحدهم أن يتبصر ،
(٥ — تاريخ الاستاذ الامام — الجزء الثاني)

اتخذ له كينا وتستر ، وأولى أهل ملته من مقتضيات الخنو والشفقة ، ماتنطر منه قلوب أهل الرأفة والرقّة ، خصوصاً أهل دينه الكاثوليك الذين مزقهم كل ممزق ، ونفى كثيراً منهم الى حيث لا يخاف ولا يفرق ، وما ترك وسيلة الى الاسترقاق الا أقامها ، ولا ذريعة الى استعباد غيره الا قص قصصها ، كيف لا وقد تقلد رتبة البطركية ، التي هي مقدمة رتب الالهية ، فقام بأموريته المقدسة ، ليؤدي بعض مأسسه ، وكتبه على نفسه من القيام بحقوق الانسانية والتهافت على تقويم الحق ، على الوجه الاحق الالقي ، فأوقد نيران الفتنة في بيوت أهل دينه الفقراء المحتاجين الى رعاية دولتهم ليجردهم من ذل الشوكة والقوة ، ويلبسهم عز الضعف والمهنة ، وينقذهم من ربة الحرية التي قد نالوها حيث هم على حفظ عهودهم عاكفون ، وعلى أصلح أحوالهم الداخلية متألبون ، يتدللون على دولتهم تدلل المعشوق على العاشق وينالون منها ما ينال الولد من والده أو الحبيب من محبه الصادق ، وليستخلصهم من كل ذلك الى فضاء عدله الذي قد بسط غطاءه على أنفاس أهل مملكته ، وبجراحة الحرية التي قد استعبد بها أبناء ملته ، وقد صادقه على ذلك جل الممالك القاسطة ، لما لكل واحد منهم من ساقطة ، ينتظر بها الالتقاط ، وبذلك الملك المقدس في نيلها يكون الارتباط ، وهم في ذلك ينادون بالانسانية ، وبالحقوق المدنية ، وترنم منهم الخطباء على منابر الظلم والاجحاف ، بتلاوة آيات الاقلاع عن الاتحاد واقتناء شرف الانصاف ،

وإني لست الآن معهم في ميدان المحاكاة حتى أنبئهم أنه قد فعل ذلك بأبناء دينهم بل أبناء أوطانهم ، وهم بمرأى من ذلك ومسمع ، مالا يصح في مثل هذه الايام أن يسمع ، وقد سودت بذلك وجوه الصحف ، ومع ذلك لم يتحرك فيهم عرق الحماسة ، ولا فتحو في ذلك سجلات السياسة ، وان أمثال أولئك الكهل لا يليق بهم مع هذه الدعوى التي بها منعوا بيع الرقيق قضاء لحق المساواة أن يجعلوا تلك الرأفة والرقّة خاصة ببعض المقاطعات ، أو منحصرة في جهة من الجهات ، بل كان من الواجب أن ينظروا من وراء حجاب الى خيوه وخوقند ، كما نظروا جهاراً الى الصرب والجبل الاسود ، فأني لو تسكمت في هذا يطول أو يجيني

محجب بأنهم الى الآن لم يبلغوا حد الكمال ، حتى يفعلوا أفعال الرجال ، ولا
يحرشون تحرش المغتال ، وللانسان كمال سوي مام فيه ، وتلك التي نتوسم
فيها العظم مباديه ،

ولكن أعجب لجعل المسئلة شرقية وغربية ، فان العاقل يتفرس في ذلك
أسراراً خفية ، تنبئنا عنها التواريخ القديمة والحديثة ، وتحكي ما كانت تفعله
القياصرة بالاكسرة ، والاكسرة بالقياصرة ، حيث كل من الشرقيين والغربيين
مع سعة أوطانه ينتهز الفرصة للوثوب على الآخر . فهذا حقد الميراث ، جذير
بلا كراث ، الا أنه لما جمعت الشوكة أسبابها وتوجهت نحو المغرب وتركت
الشرقيين بحمي يثرب ، قويت من الغربيين المهاجمة ، وبطلت من الشرقيين آثار
القاومة ، فبات عدو بلا معادي ، ومبارز لا تصده الدواعي والعوادي ، فخي
الامر على غير بصير ، وذهب على غير خير ، وما أوصل الشرقيين الى هذا
المد سوى تفرق الآراء ، واختلاف الاهواء ، حتى إن بعض الناس من لا يبالي
بهم ، يهملون بسوء أحوالهم ، وينتهجون اذا بشروا بتسلط أعدائهم ، وما ذاك
الا من تداني الممم ، وتراكم الظلم ، والوقوع في حفرة الحيوانية ، والانحطاط عن
درجة الانسانية ، حيث فقدت منهم الغيرة والحمية ، وذلك بدل أن ينبذوا في
مثل هذه الاوقات جميع التعصبات الدينية ، والاختلافات المذهبية ، لحماية أوطانهم
ووقايتنا من وطأة أعدائهم ، الذين لا يرومون من الاستيلاء علينا بمعاشر الشرقيين
الا توسعة مما حكمهم ، والتمسك من استعبادنا بالدخول تحت حوزتهم ، لنكون لهم
خزينة عند الافتقار ، وترسا يقون به أوطانهم ورجالهم مما عسى يبرزه الاستقبال
وبعد ذلك يكون عاراً علينا أي عار ، يذهب بهاؤكم ، ينشئ منكم عدوكم وينهدم
يتلوكم ، وينقطع من العزة رجاؤكم ، أنتم بامعشر الشرقيين أبناء وطن واحد ،
مقتاركون في المنافع والمضار وسائر المقاصد ، لا يمس أحدكم خير الا نال الآخر
منه مثل مانال صاحبه ، ولا توجه اليه خير الا وهو الى الآخر يتعاقبه ، فما
لهمكم تضاءلت ، وخطباؤكم تمثلت

فألت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالاياب المسافر

ولم تخاطبوا عدوكم من صميم قؤادكم
محا السيف أسطار البلاغة وانتحى اليك ليوث الغاب من كل جانب
واذكروا إذ تسطر أحوالكم في صحف الرجال ، ويستقبل بها ما يأتي من
الاجيال ، فان أنتم أبرزتم حمتكم ، ورعيتم حق وطنكم ، الذي منه ابتدتم وفيه
سكنتم ، ودافعتم عنه ببذل الارواح فضلا عن حسن المقال ، وبالجملة سلكتم مسالك
الرجال لانهوس الأطفال ، ، فلكم مآثر انسانية ، تنالون بها مجدكم وغاركم ،
وتمتلكون سعدكم ، وحلية يختال فيها من تعقبونه بعدكم ، وإلا فالعار والشنار لاحق
بكم ، وليس إلا أن يحنى تراب الذل في وجوه أعقابكم ، وانظروا الى أحوال سلفكم ،
لتكون مرآة لأحوالكم . فان قال قائل

ان الديانات ألفت بيننا إحنا وأودعتنا أفاين العداوات

فكل واحد منا يتوقد من صاحبه ، لمخالفته له في مذهبه ، ومناوآته إياه في
مشربه ، فكيف تميل تلك القلوب لرفع الشقاق ، وجمع كلمة الاتفاق ، والتخلص
من خسة النفاق ؟ فنجيبه : إن مثلنا في ذلك مثل أخوين تولدا من بطن واحد
وأصل واحد قد يقع بينهما بعض المنازعات المنزلية ، والمناوشات المعاشية ،
فيأخذ كلا منهما ماشاء من الغيرة والحمية ، ويكاد أن يفتك كل بالآخر ومع كل
ذلك انهما عند اقتراح أجنبي على أحدهما يقوم الآخر بتصرته ، ولا يحجم
عن رد تبعته ، فلكم العداوات الجزئية ، لا يصح لدى العاقل أن تضر بمصالحنا
الكلية ، وعلى فرض أن لو عدت تلك المزااحات شيئا يذكر ، وأمرأ يصح اليه
النظر ، فما أشنع حال من ينتقم بيد الغير ، ويلحق نفسه وعقبه عارا السفاهة والضير ،
أين أنتم من تيمستكليس اليوناني الذي بعد ماضع المسكايد مع دارا وهزمه ،
وجاهد ماجاهد في حماية وطنه ، أقصاء اليونانيون وطروده ، وأجمعوا أمرهم على
أن يقتلوه ، فالتجأ الى دارا يستجده مما اعتراه فاعظم منزلته وأكرم مثواه ، ثم
إن دارا طلب منه أن يحشد جيشا على اليونانيين فقال وجهني الى أي مكان ،
قاص أو دان ، سوى بلاد اليونان ، فانها وطني ومقر تربيتي ، لا ترضى همتي ،
بان أقدمها لغير أمتي ، وإنه وإن كان أهل اليونان طردوني ولكن تراب اليونان

ما صنع معي قبيحاً . فلما أغلظ عليه دارا في الطلب ، نادته هواتف الانسانية إن
 ذلك من الموت أصعب ، فاختر الموت على الحياة ، وتناول السم ومات ، ألا
 فاتبهوا من سنة الغفلة ، واتخذوا لكم من الانسانية ظلة ، ومن الفضائل خلة
 واحذروا ، وبالحمة الوطنية اتقوا واعتصموا اه

(جامع الكتاب) : ليتأمل القراء آراء هذا الرجل التي كتبها منذ ستين
 سنة وهو مجاور في الأزهر بجدها عين ما انتهى اليه بحث المحققين من عقلاء
 الشرقيين بعد مكابدة الاحداث واختبار أوربة بعد كتابة ذلك المجاور الأزهرى
 لما قبلهم بنصف قرن . أه من تعليقات الطبقة الثانية

المقالة الرابعة

العلوم الكلامية والدعوة الى العلوم العصرية

نشرت في العدد ٣٦ وأعداد بعده من جريدة الاهرام قالت:

(وردت الينا هذه الرسالة من قلم جناب العلامة الاديب الفاضل)

(الارب الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالجامع الأزهر)

كلما تناسينا عهد جاهلية العرب ، وما كان من مقتضيات الجهالة في تلك
 الخب ، ومنينا أنفسنا باننا صرنا في نشأة أخرى ، وتقدمنا الى الأمام بعد أن
 كنا الى القهقرى ، واستصبحنا بمصباح الآمال ، في ليل الضلالة والاختلال ،
 وسمت أفكارنا ، بتحصيل ماسبقنا اليه غيرنا ، تذكرنا حوادث الايام باننا لازلنا
 في أول نقطة من ذلك الزمن الاول ، بل كان ذلك على تنزل منه الى أسفل ،
 وتنشئ آمالنا ، عن تقدم أهالي أوطاننا . فمن أعجب ما رأينا في هذه الايام ،
 أن بعض طلبة العلم الكرام ، الذين قد بذلوا جهدهم في التحصيل ، وخلعوا ثياب
 أوزار البطالة والتعطيل ، وافتدوا براحتهم ، لتزوير بصيرتهم ، قد تحركت الى
 العالي همته ، ودعته الى التفنن غيرته ، فأخذ في دراسة بعض الكتب المنطقية

والكلامية ، التي كان قد صنفها بعض أفاضل الملة الاسلامية . لما أنه قد علم كما هو الواقع أن العلوم المنطقية إنما وضعت لتقوم البراهين ، وتميز الافكار عنها من السمين ، وتبين كيف تتركب المقدمات لانتاج المطلوب بعد البيان ، وأي مقدمة يصح أن تؤخذ في البيان وأيها يجب أن يقذف وي طرح . فهذا علم حقيق بان يتخذ سلباً لجميع العلوم ، ولا يعدل عن طلبه الا جهول ظلم ، والعلوم الكلامية ، إنما هي احكام لتأييد القواعد الدينية ، بالادلة العقلية القطعية ، حتى يحق لممارس تلك العلوم أن يقتبس نور تلك المطالب من تلك البراهين ، ويقنع بذلك الطالبين ويردع المنكرين ، على وجه لا يكون فيه إثبات الشيء بنفسه ، ولا تنزيل العقل عن درجته في إدراكه وحسه . فلما سمع بذلك بعض أجبائه ، وأصفيائه وأقربائه ، الذين يؤثرون خيره ، ولا يرتضون ضرره ، اهتز لذلك واضطرب ، وأعجب كل العجب ، وأخذ من الحزن على ذلك الطالب ماشاء الله أن يأخذه ، وأوسع لذلك الطالب النصيحة ، وبألها من فضيحة أي فضيحة ، قائلاً كيف تدرس علوم الضلالات ، حتي تقع في الشبهات ، الا فارتدع ، وبجالتك اقتنع ، وكن كما كان الاب والجد ، وجد فيما كانوا عليه فمن جد وجد ، فأجاب الطالب المسكين سؤاله ، وطوى سجل علمه ونشر جهله ، ومع ذلك لم تدعه السنة حساده ، المتألمين على عناده ، ولم يزالوا مصرين على سفه الكلام ورمي سهام الملام ، يقولون الى الان : إنه في ضلاله القديم ، لم يميز بين المنتج والعقيم ، والمخدوش والسليم . حتى إن بعض ذوي (الجهل) من أهل بلاده ، المخلصين في وداده ، الساعين في إسعاده ، وشوا بهذا الطالب الى والده ، وأفصحوا له القول بشأن ولده ، قائلين ان (الرجل) منا اذا سمع ان ولدك يشتغل بالعلوم ، تتناول له أيدي الهموم (يقوم) ولا يهتم له طعام ولا شراب ، ويبيت ليله في اضطراب ، ويظل نهاره في اكتئاب ، أسفاً على هذا المسكين كيف ترك جهالتنا ، ولم يعمل على مثالنا ، ألم تعلم ان الانسان كلما قوي في العلم اجتهداه ، وبدا له رشاده ، ينزل اعتقاده ، فكيف بك وهو ثمرة فؤادك ، وأرشد أولادك ، فتحرك في والده عرق الحمية ، وأسرع ذاهباً الى مصر المحمية ، ليرى هل صح الخبر ، أو كذب الناقل ونجر ، فوصل الى ولده في الساعة الثالثة من

الليل ، ومن آن وصوله أخذ ينذر ولده بالثبور والويل ، ان كان لتلك الاقاويل
 صحة ، فأجابه الطالب ان ذلك من كذب الناقلين ، وبغي الماسدين ، واتي
 من يوم سعت في مني ، وقطع نفقي ، لم تقر عيني بنظرة في رياض تلك العلوم ،
 ولم أشف قلبي بأخذ منطق منهاولا مفهوم ، فلم يصدقه حتى تمسك بالجل المتين ،
 وأحلفه بالله رب العالمين ، ان الناقل كذاب ، وانه في أمره غير مرتاب ، فخلف
 وهو الصادق في حلفه ، وكيف لا وقد حفته المكاره من بين يديه ومن خلفه ،
 قلما أيقن أبوه بكذب ما نقل اليه ، حمد الله وأثنى عليه ، وأصبح من غده ، متوجهاً
 الى بلده ، فانظر الى هذا الرجل مع كثرة انشغاله ، واحتياجه لساعة ينظر فيها الى
 أحواله ، كيف ترك الأهم ، وصرف الدرهم ، وتقض اقتضاض السهم ، وأقدم
 إقدام الشهم وما ذاك الا لحادث أقلقه ، وشناعة عظيمة خاف أن تلحقه ، وداهية
 دهياء قد استفزته من أرضه ، وبأس شديد يطلب التخلص من حلوله بركضه ، فان
 سألت ما هذا الامر الفظيع ، والحادث البسع البشيع ، قال ان ولدي يتعلم المنطق
 والكلام ، ويتخلص من قيد جهل قد أخذ بالنواصي والاقدام ، وانظر الى هذه
 الحماسة والغيرة التي قد دعتهم الى التعاضد والتناصر ، والنخوة التي قد حركتهم على
 التكاثر ، للتخلص من هذا الحادث الملم ، وانتشاع هذا الليل المدمم ، بغاية الحرارة
 الناشئة عن صدق طوية ، وخلوص نية ، فتباً لهذه العقول ، وبئست عواقبها
 وما اليه أمرها يؤول

ان دام هذا ولم تحدث له غير لم يبك ميت ولم يفرح بمولود
 واتي لا تعجب من هؤلاء الاخوان في الوطن ، وأرباب البصائر والافطن
 كيف مالت بهم الحرارة الى الهبوط ، حتى آل أمرهم الى السقوط ، وباعجبا اذا لم
 نصرف الفكر في تقويم البراهين وتسديدها ، وكيفية الوقوف على الحقائق وتحديددها ،
 ففى أي شيء نصرفه ، فانه ان ضل عنار شادنا ، وغاب سدادنا ، فهل بشي سوى
 الدليل نعرفه

ألا وإن هذا أمر غني عن البيان ، ويكل عن الافصاح به اللسان ، مع أن
 هذه العلوم ليست الا ما يقرأ في سائر جوامع المسلمين في مشارق الارض ومغاربها

حتى الآن في نفس الاستانة يقرأ في مساجدها كثير من كتبها . وقد قال
الاكابر من المحققين كالامام الغزالي وفخر الدين الرازي وغيرهم : إن تعلم هذه
العلوم من فروض الاعيان (١) وأطبق جميع العلماء على أنها من فروض الكفاية
خصوصا في مثل هذه الازمان ، التي قد وقع فيه اختلاط الناس من سائر الاديان ،
فانه من اليين أن مايؤخذ عن الآباء ، وبلغناه السنة الاقرباء ، ان لم يؤيد
بالبراهين ، نالته أقوال الملحددين ، وأدحضته شبه الجاحدين ، فيصبح وقد وهى
بنيانه ، وانحط شأنه . أو لم تطلع هؤلاء المساكين على ما كتبه شيخ الاسلام
في استانبول الى الرجل الجرمانى الشهير الذي قد أسلم في هذه الايام إذ يقول له:
نحن لا نتجنب وزن عقائدنا بالميزان المسمى بالمنطق ، ولا تقبل اعتقاداً يناقض
العلوم المتعارفة (كالبرهنة) في فني الحساب والهندسة ، من أن الكل أعظم
من الجزء ، وأن الشيء لا يكون غير نفسه ، وأن الشيء الواحد لا يكون واقعا
وغير واقع في آن واحد . وأمثالها من العلوم المتعارفة ، وهي البديهيات الاولى
أو الاولوية على ما في الباب الرابع من معيار سداد (النظر) حتى لو كان حديث
أو آية كذلك أي تغاير العلوم المتعارفة لأولناه . اهـ

وليت شعري اذا كان هذا حالنا بالنسبة الى علوم قد أرضعت ثدي
الاسلام وغذيت بلبانه ، وتربت في حجره ، وتقلدت في ايوانه ، من زمن يزيد
عن ألف سنة ، وتناولتها أيدي الخالص منا ، وتناقلتها عنهم الألسنة ، فما حالنا
بالنسبة الى علوم جديدة مفيدة ، هي من لوازم حياتنا في هذه الازمان ، وكافة
عنا أيدي العدوان والهوان ، وأساس لسعادتنا ، ومعيار لثروتنا وقوتنا ، لا بد
لنا من اكتسابها ، وبذل المجهود في طلبها . فبالاولى نضع أصابعنا في
آذاننا إن ذكرت ، ونهاجر من كرة الارض اذا سماؤها انشقت . وأن مثل

(١) لعل الغزالي قال ذلك في بعض كتبه المنطقية أو الكلامية التي ألفها في
بدايته ثم جزم بانها من فرض كفاية . وقد صرح اخيرا بان من آمن بظواهر
القرآن وما كان عليه السلف ومات ولم يعرف شيئا من مصطلحات علم الكلام
ودلائله لا ياله الله عنها ولا ينقص من دينه شيء يجعلها الخ وكتبه جامع الكتاب
للطبعة الثانية

هذه النفرة لو كانت في عهد المتوكل العباسي ، عند ما كانت الامة بفرور وسواسي ، وقوة متوهمة ، محصنها من تعدي الامم المتقدمة ، أو في زمن المالك والاسكولمان ، وغيرهم ممن تملك هذه الاوطان ، حين كانوا في ذروة التوحش ، لا يهتدون الى مابه يدبرون أمورهم في التعيش ، وكانوا حائرين في تيه الخيالات والالوهام ، وقد اخذ بجميع احساساتهم جور الحكم ، ولم يكن بينهم وبين غيرهم من الامم اختلاط ، إذ كانوا في حفرة الانحطاط ، لكان (١) لا يأخذنا العجب ، بل نضيف ذلك الى السبب ، ونلتمس لهم العذر في ذلك ، إذ قد عميت عنهم جميع المسالك ،

وكنا نؤمل أن المبنج يفيق بشم روح النوشادر ، وأن هؤلاء يهتدون اذا ارتفعت الموانع وأقبلت البشائر ، ويقومون من غفلتهم اذا قام من يوقظهم ، ويخرجون عما هم فيه اذا نادى بهم من يعظمهم ، ولكن ذلك الامر منهم في زمان جرى فيه سيل العلوم ، حتى عم أتحاء الكرة على العموم ، وهم فيه غرقى من حيث لا يشعرون ، ووقع فيه الارتباط بيننا وبين الامم المتقدمة ، ورأينا ما هم عليه من الاحوال الحسنة ، وظهر لنا التوازن بينها وبين أحوالنا المهجنة (٢) كدورهم وفاقتنا ، وعزتهم وذلتنا ، وقوتهم وضعفنا ، وقدرتهم وعجزنا ، وصولتهم وانهزامنا ، وغير ذلك من المزايا والرزايا التي لا تعد ، وبها يعتد ، بل في زمان خرج فيه العلم من الاذهان الى الاعيان ، وتنزل من مرتبته الروحانية ، وتحلي في الصور الجسدانية ، وفتح لنا رياضه ، وهياً للغرس غياضه ، وأصبح يحول بيتنا في علاه ، وينادي بأرفع صوت وأعلاه : ألا من سائل فأعطيه ، ألا من فقير فأغنيه ، ألا من طالب سلطان فيناله ، ألا من محارب عدوان فنحدد نصاله ، ألا من حيران في غسق الضلال ، يمن على نفسه بنظرة لسنانا المتعال . ونحن بمسمع من نداءه ، ومرأى من سنائه ، لكن صمت الآذان وعميت الابصار (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم *)

(١) هذا جواب قوله : لو كانوا في عهد المتوكل الخ (٢) لعلها المهجنة من هجته بالتشديد اي عابه .

ممكن يوجد الحمقى والأغبياء ، وأرباب الجهالات والاشقياء . وذلك لا ينافي حكم الغالب ، فأجيبه بأن هذه ليست أول قارورة كسرت ، ولا أبداع واقعة وقعت ، ولكن ذلك أكثر من الكثير ، وأمره فاش يبتنا شهير ، خصوصا من الطائفة الشريفة التي تعد بمنزلة روح لهذه الامة ، فانهم الى الآن لم ينظروا الى أنفسهم ولا الينا بعين الرحمة ، ولم يروا لهذه العلوم فائدة ، تعود عليهم أو على أبناء ملتهم (بعائدة) ولكن اشتغلوا بما ربما كان أليق بزمان قد أفلت كواكبه ، وطويت صحفه وولت ركائبه ، غير ملتفتين الى أننا أصبحنا في خلق جديد ، قد طرحنا الايام بديننا وشرفنا في بادية ، قد غصت بأساد ضارية ، كل منا يطلب قاره ، ويطلب شن الغارة . فان كنا من آحاد تلك الآساد فقد وقينا أنفسنا وديننا ، والا فإما أن نطرح ديننا وننجو بأنفسنا ، وإما أن نبيد عن آخرنا ، بسوء الجهل وضلال الطريق ، مع أن ملاك الامر بأيدينا ، فعلينا أن ننظر الى أحوال جيراننا من الملل والدول ، وما الذي نقلهم عن حالهم الاول ، وأدى بهم الى أن صاروا أغنياء اقوياء ، حتى كادوا أن يتسلطوا علينا بأموالهم ورجالهم إن لم نصل قد تسلطوا بالفعل . فاذا حققنا السبب وجب علينا أن نسارع اليه حتى نتدارك ما فات ، ونستعد لخيرنا فيما هو آت . وها نحن بعد النظر لا نجد سببا لترقيهم في الثروة والقوة الا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم حتى قادتهم الى رشادهم ، فتوروا خيراتهم فاكسبوها ، ومضراتهم فنكبوا عنها وتركوها ، قاذأ أول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا أليس من البين أنه لا دين الا بدولة ، ولا دولة الا بصولة ، ولا صولة الا بقوة ، ولا قوة الا بثروة . وليس للدولة تجارة وصناعة ، وانما ثروتها بثروة أهاليها ، ولا تمكن ثروة الأهالي الا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتبينوا طرق الاكتساب . فان ذلك أمر قد خفي على ذوي الالباب فضلا عن غيرهم ، كيفلا وقد ولت أزمنا كان التحارب فيها بالاختشاب والنبال ، والسهام وخزف الجبال ، وما أشبه ذلك مما كان يمكن استحصاله بزهيد القيم . وحضرنا زمان نضطر فيه الى المراكب المدرعة ومدافع المتراليوز والكروب ، وبنادق الابرة ، وغير ذلك

من الاساحة التي تجددت وتستجدد فيما بعد ، فان الشر الذي هو محط عناصر الانسان لا يزال يرشده ويقوده نحو اختراع أمثال هذه الآلات المملكة لهذا النوع ، فانهم حتى الآن قد جعلوا العالم بيت نار وهم قائمون على عبادتها وخدمتها بكل جد وإخلاص . وكيف تتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا وديننا من شرر هذه النيران بدون أن يكون عندنا ما يماثلها إن لم تقل ما يزيد عنها ؟ وهل يمكن استحصاها بالخرز والخزف أو بداني الحرف ؟ كلابل لا بد من أن تؤذي البيوت من أبوابها ، وتطلب المسببات من أسبابها ، فلا بد من البحث عن وجوه الاكتساب ، من وجه الصواب ، والاستضاء بنور المعرفة ، والتبري عن مرافقة السفه ، وليس من يرشدنا الى ذلك إلا أبناء هذه الطائفة فانهم أرواحنا وقائدو أشباحنا ، حينما أوجها وأوجهنا ، وفي أي وقت على أي شيء عرجوا عرجنا ، وإن من حقهم ان يقوموا لحث الجمهور على اقتناص تلك العلوم وبيان فوائدها ، وما يترتب عليها من المنافع وعلى عدمها من المضار ، ووجه احتياجنا اليها ، ولعمرك الله قد كان ذلك خير الاعمال وأحبها عند الله لان اعلاء كلمة الحق وحفظ بيضة الاسلام مقدم على جميع الشعائر ، فانه بعد زوال الرأس ، لا يبقى لسائر البدن الا الرمس ، كما هو بين عندهم ، وغير خاف عليهم .

ولا تظنن أني أقول : أن توانيهم عن مثل هذا المسمى على علم منهم بلزومه ، لركة في دينهم ، حاشا لله . بل إنهم لم يلتفتوا الى لزومه ، وأنه أهم ما يهمهم ، وأوجب ما يجب . ولو أنهم التفتوا اليه ، وحقه والامر على ما هو عليه لقاموا بإرشاد الناس اليه على قدم وساق ، وضائق المساجد بخطباتهم ووعاظهم . وحث الاهالي وتحريضهم على استحصال ما هو أساس لحفظ دينهم ، على ما هو المعبود منهم من الهمة فيما يكون مقويا لشوكة ديننا وصورته ومحافظتهم على بقاء عزته وقوته . ومن لي بأن ينتهبوا الى هذه النكبة ، وأنه لا بد لهم من الالتفات الى هذه اللوازم البتة ، كي يمنوا علينا بحسن النظر ، ويعينوا لنا حد الخير والشر ، فاننا لا نسمع الا مقالهم ، ولا نرى الا أحوالهم ، بل لا نسمع إلا بآذانهم ، ولا نبصر إلا بأبصارهم ، ولا نذوق إلا بذائقهم ،

ولا تكلم الا بالسنتهم ، كيف لا وهم الارواح ، ونحن الاشباح . وهم السمات ونحن الارواح . حينما مالوا ملنا . وما مالوا ملنا . نعم اننا نحتاج زيادة على هذه المدارس الى مدرسة عمومية تتكفل ببيان هذه المسئلة وهي ان العلم نافع والجهل ضار ، وافصح الفرق بين غسق الليل ورابعة النهار ، بل هي ألزم من جميع اللوازم فانه ما لم تتوفر الرغبة في شيء لا يتحقق الاقدام عليه بل يكون مبتذلا عند النفوس ، مرموقا بعين اليأس ، تسمئز منه الطباع ، وتنفر منه الاسماع ، وان هذه المسئلة أي ان العلم نافع لنا ، والجهل مهلك لا رواحنا وأبداننا ، مسئلة صارت عندنا من أدق النظريات ، يحتاج في بيانها الى كثير من المقدمات ، والحجج والبيانات ، مع ما ينضم الى ذلك من الاعتبارات كالترغيب . والترهيب . والتمثيل والتقريب . والاجمال والتفصيل والابحار والتطويل . على حسب اختلاف مراتبنا في القبول . وعلى الله تمام المسؤل

المقالة الخامسة

وجاء في العدد ٤١ من هذه السنة مانصه :

التحفة الادبية

انه حينما كانت هم أرباب الفطن النقادة ، والفكر الوقادة ، (من أهل) العربية في أوج كمالها ، وأفلاك سعادتها في منازل اقبالها ، كانت الامة تباهي سائر الأمم برجالها العقلاء السياسيين ، وفلاسفتها المستبصرين ، وتختال بينها عجباً بما لها من الثروة والقوة ، والعز والفتوة ، ومسطوح شمس المعارف في أفق ديارهم ، وانجلاء غيوم الجهالات عن وسط سمائمهم ، حيث كانوا قد استووا على منصات السكمان في التعقل والتبصر على حسب ما كانت عليه درجة العلم في ذلك الوقت . وبينما اللغة العربية تباهي سائر اللغات باتساعها وإحاطتها بدقائق (المعاني) التي كان يديها اعرفاء من المتكلمين بها ، وكانت متحلية بترزية بحولية الاصطلاحات العلمية كاصطلاحات الطبيعيات والالهيات والرياضيات والطب وغير ذلك من

سائر الفنون ، وكانت قريرة العين بتلك الحلية والزينة وازديادها وانتظامها على حسب مرور الأزمان (إذ) قبرت تلك الهمم وتنزلت الى حضيض الانحطاط لمواقع قد اعترضت سيرهم وصدتهم عن التقدم في مدارج السعادة والكمال وأوقفهم (عند حد) لم يتجاوزوه ، بل أرجعهم الى مقام كانوا قد تقدسوا عنه وتركوه

تلك الامة (كان) ما كان لها من الشأن ، وبدأ أمرها بعد التمام في النقصان ، وسلبت تلك اللغة الشريفة ما كان لها من الحلي والزينة ، وأمست للصغار والابتدال رهينة ، وتقدم سائر الامم في اكتساب المزايا التي كانت لتلك الامة وحسنت هيئاتهم الاجتماعية ، ونالوا من الثروة والرفاهية ، وتحملت ألسنتهم بالعلوم والمعارف ، وديارهم بالبدائع وبهي الزخارف ، وتطاوت ألسنتهم بالفخار على لساننا ، وباهت رجالهم في المياسات والافكار رجائنا ، فلما قرع آذان أبناء الامة العربية سهام الملام ، قام فيهم قائم الغيرة والحمية وآلوا على أنفسهم أن لا يألوا جيداً في استرجاع ما فقدوه رغمًا لتلك الموانع ، وقسراً لمركات هائلك القواطع ، فنشأ فيهم من بذل الهممة في استحصان العلوم واللغات وبرعوا في ذلك وترجموا الى لغتهم العربية الكتب من جميع الفنون كالطبيعة والكيمياء والطب والجيولوجيا وغير ذلك من الفنون المفيدة فتجلت لغتنا في حليتها ، وبدت ترفل في ثياب زينتها

الا انه لم يوجد فيهم من يعنى بعلم السياسة وتاريخ سير التمدن حتى يمن على اللغة العربية بأن يودعها دقائق معانيه ، ويقلدها آلياً . مبانيه ، حتى قام بهذا الامر العظيم جناب الفاضل الاديب ، والارذعي الارب ، الذي يغنيك رؤية أثره ، عن عطر ذكره ، الخواجا حنين نعمة الله خوري فتبرع لأبناء العرب ولغتهم بترجمة كتاب جليل في هذا الموضوع لم يسبق سابق بمثاله ، ولم ينسج ناسج على منواله ، وهو ما ألفه الوزير الشهير كيزو فانه كتاب قد جمع فيه من نتائج السياسيات ، ما تحارفيه ألباب أرباب الرياضات ، حقيق بأن يسمى سبيل النجاة ، ومادة الحياة ، وهو الكتاب المسمى بالتحفة الادبية . واني لا أستطيع أن أذكر من مزايا هذا الكتاب فوق ما أفاده حضرة الاستاذ الاكرم ، والفيلسوف الاعظم ، الذي تشرف بذكر اسمه سامع القاصي والداني ، جناب السيد جمال الدين الأفغاني ، وهاك ما قال :

« لا ريب ان كل انسان طالب للسعادة بطبعه ، وهارب من الشقاء بوسعه ، فجميع حركاته وسكناته انما هي لاستحصال تلك الغاية وان سعادة الانسان انما تقوم بسعادة ملته وأهالي وطنه ، فانه عضو من أعضاء الملة ، ولا شك في أن العضو يشقى بشقاء سائر الاعضاء ، ويتألم بآلامها الا أن يكون أشل عديم الاحساس ، فأعظم سعادة تطلب انما هو سعادة الامة والملة التي نشأ الانسان فيها الا أن للوصول الى هذه السعادة المطلوبة طرقا وعرة السلوك وربما ضل فيها الطالب فوقع في تقيض المقصود ونزدي في حفرة الشقاء ، فكان من الواجب على كل انسان أن يأخذ الأهبة ويمتحن جميع السبل ويتخذ أعظم الوسائل لنيل هذا المطلب الجليل ومن المعلوم ان المستبد برأيه كثيراً ما يعرض له الخطأ بل قلما تقع منه الاصابة فأحسن الطرق وأولاها بالسلوك هو الطريق الذي قد امتحنته أيدي التجربة وترتبت عليه تلك النتائج في عالم الاعيان ، وهانحن (أولاء) لا نشك في أنه قد حصل لأهل أوربا تقدم ووصول الى الغاية المطلوبة في هذا العالم وكان ذلك نتائج مقدمات ترتبت قياساً صحيح النتيجة حتى أوصلتهم الى هذا المطلوب ، فلا بد لكل انسان ان يبحث عن تلك المقدمات التي انتجت سعادة أولئك الامم حتى يستعملها في إيصال أهالي ملته ووطنه إلى مثل ما ناله غيرهم ، حتى يسعد بسعادة تراه الذي نشأ فيه ، والوزير كبيرو قد جمع في كتابه هذا جميع الشروط والاسباب والوسائل والآلات التي كان لها المدخل في سعادة الاورباوين والعناصر التي تكون منها ذلك المزاج اللطيف ، بحيث ما أبقي شاردة إلا اقتنصها ، ولا خفية إلا إلى العيان أبرزها ، وأحكم بيانها ، فعلى عالم الانسانية أن يشكر له هذا الصنع الديدع وعلى أبناء العرب خاصة ان يقوموا بشكر مترجمه الفاضل ، فانه قد بالغ في تهذيب العبارات ، وتحقيق الاشارات ، حتى أتى على المرغوب من إيضاح معاني ذلك الكتاب بالفاظ رفيقة عذبة المذاق ، متسقة المساق ، تتسابق معانيها إلى الازدهان ، وتبرز دقائقها في عالم العيان ، فكان حقيقاً بأن يجعل قلادة في عنق كل واحد من أبناء هذه الامة العربية . نلى أبناء أوطاننا وأهالي لغتنا العربية أن يعرفوا له هذا الجليل الجليل ، ويذلوا الهمة في مطالعة هذا الكتاب العظيم الشأن ودراسته ، والاخذ بسيرته والسير على طريقته ،

حتى تستنير عقولهم ، وتندفع إلى المعالي همهم ، ويعضدوا بذلك مقصد هذا
 الفاضل ، فانه لم يكن له بغي في هذا العمل سوى ترقية هذا الفن في أبناء هذا الوطن ،
 فليؤيدوه بالهمة والنشاط في ذلك ، وليقتدوا به في النهوض إلى مثل هذا الصنيع المفيد ،
 فان بيت السعادة محتاج إلى أركان كثيرة ومما يرشدك إلى أنه لم يرم شيئاً سوى نفع أبناء
 الوطن وانه محب صادق لخيراتهم أنه لما رأى ان بعض أهل العالم من الازهر قد نشر
 بعض مقالات على الطرز الجديده بدت منه علامات السرور والابتهاج ، وسارع إلى
 مدحهم والثناء عليهم ، وشكر ذلك اليهم ، فجازاه الله عنا وعن أهالي أوطاننا خيراً ،
 وخلد له أحسن الذكري «
 محمد عبده

(يقول جامع الكتاب) سقطت كلمات من هذه المقالة تعرف بالبداية
 فوضعناها بين أقواس ، وسبق مثل ذلك في غيرها ، وهذا آخر ما رأينا للاستاذ الامام
 من المقالات في السنة الاولى من جريدة الاهرام وكان لا يزال مجاوراً في الازهر لم يصير
 مدرساً رسمياً وهي تدل على أنه أوتي من كمال العقل وسداد الرأي في بدايته مالا
 يزال كبار علمائنا وعظماء رجالنا قاصرين عن إدراكه ، ولو عمل أهل هذه البلاد
 بارشاده منذ تصدى للإصلاح ونشر آرائه في الصحف لكانت مصر الآن من أعظم
 الأمم علماً وحضارة واستقلالاً وقوة ، ولكن استعداد الأمة كان ناقصاً ، وما نراه
 الآن من التنبه والتوجه إلى العلم والعمل للامة فله ولأستاذه السيد جمال الدين الفضل
 الاول فيه ، وقد صرح هو بأنه لا يرجو ان يعيش إلى ان يرى ثمرة عمله ، وانه ليس
 إلا معبداً ومهداً لمصلح يأتي بعده .

الفصل الثالث

مقالات الوقائع المصرية (الرسمية)

لما تولى الاستاذ رحمه الله ادارة المطبوعات في وزارة الداخلية ورئاسة تحرير جريدة الحكومة الرسمية ، أنشأ فيها قسماً أدبياً لارشاد الأمة لما تصلح به أخلاقها وآدابها ولغتها ، فنذكر في هذا الجزء أهم ما كتبه في هذا القسم

المقالة الاولى حكومتنا والجمعيات الخيرية*)

ان مما تلج به الصدور ، وترتاح له النفوس ، ويبعثنا على الثقة بحسن مستقبلنا ، ما نراه من إقدام أبناء قطرنا على الاعمال الخيرية ، وجدد ونشاطهم في تأليف الكلمة ، وضم الشمل ، واتحاد المقصد لنجاح البلاد وتقدمها ، وأخذهم بالوسائل الحقيقية التي تؤدي إلى ذلك وان سبقنا إليها سكان الممالك المتقدمة وبلغوا بها آمالهم من الثروة والقوة وكال السطوة . وهي إنشاء الجمعيات الخيرية المتعددة تختلف أشكالها ، وتتحد مقاصدها ، وتعدد أركانها ، وطرق سيرها ، وتتفق غاياتها وفوائدها ، فتكون على تنوع وظائفها بمنزلة بدن واحد ذي أعضاء مختلفة يقوم كل عضو منه بما يعود على البدن كله بالصحة والقوة ، ويزيدنا أملاً وثقة ما نشاهده من تأييد الحكومة السنية لتلك الجمعيات ، وشدها عضدها بما تبديه من المساعدات لها في كل ما يوجب ثباتها وتقدمها وتشيد أركانها وتقوية دعائمها ، بما تصدره من الاوامر السامية في شأن تقريرها واعترافها بها ، حتى يظهر لجلي النظر ودقيقه ان الحكومة بأقوالها وأعمالها كخطيب فصيح العبارة ، لطيف الإشارة ، يبتث الغيرة في القلوب ويحذب الهمم من خطة الخطة ، ويدعو أفراد الرعايا إلى الهدى والرشد ، ويعلمهم الواجب عليهم لأنفسهم ، وهو المحبة الوطنية ، والالفية الانسية ، والتعاون على جلب المنافع العامة

*) نشرت في العدد ٩٤٢ من جريدة الوقائع المصرية الذي صدر في ١٤ ذي القعدة

سنة ١٢٩٧ ١٩٥٥ أكتوبر سنة ١٨٨٠ م

(٧ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

التي يشترك فيها كل واحد منهم ، ودفع بلايا الفقر والفاقة والذلة الناشئة من الشقاق والتباغض المتولدين من الجهل بحقيقة الحياة الانسانية. وصدر مثل ذلك من حكومة مصرية وان كان غريباً عجيباً إذا رجعنا إلى صفحات التاريخ في الازمان الماضية إلا أنه ليس بمكان الغرابة في عصرنا هذا ، فإن الجنب الخديو المعظم قد عرف من عهد شبوبته بالميل إلى المعارف ، وشدة الحب لها ، والسعي في تربية الاهالي وتهذيب عقولهم ، وعلى ذلك وزراؤه الكرام أيد الله شأنهم ، ومن ذلك لانعجب اذا رأينا هذه الحكومة الجليلة مساعدة لأهل الخير ، ممهدة لهم طرق الوصول الى خير ما يقصدون ، بعد ما ذلت لهم المصاعب الكليّة التي أدركهم اليأس من تذليلها في سنين طويلة - بعناية خديوها الخليل وهمة دولتو رئيس النظار (١) وإن من أقوى البراهين على ما نقول إقبال الجنب الخديوى ودولتو رياض باشا ناظر الداخلية الجليلة على من قدموا اليه من رجال الجمعيتين الخيريتين ، الجمعية الخيرية الاسلامية بالاسكندرية ، وجمعية المقاصد الخيرية بمصر . فقد قابلهم الجنب المعظم بصدر رحيب ، ووجه باش ، وأجاب التماس كل بأن يصير سعادة ولي العهد رئيساً عاماً للجمعية المبعوث من طرفها ، وعند ما عرض قانون كل من الجمعيتين على دولتو ناظر الداخلية الجليلة أقره واستحسنه ، وبعث الى نظارة المعارف باعترافه وقبوله ، وأصدر الأمر بتقرير كل من الجمعيتين ، وشكر صنيع كل من رجالهما ، وحث على مساعدتهما في كل ما به تقدمهما ، غير انه لم يفض الطرف عن ما يلزم لعموم نفعهما وهو مراعاة وحدة التعليم ، وأن تكون موضوعات التعليم فيهما متحدة مع باقي المدارس الميرية ليتأتى قبول تلامذتهما في المدارس العالية ليتمتعوا بتتيم دروسهم فيها ، ونيل الشهادات الحقيقية على ما اكتسبوه من الفنون ، وخص جمعية الاسكندرية باعانة نقدية يبلغ مقدارها ٢٥٠ جنهما من جانب الحكومة في كل سنة ، حيث إنها قرنت بين العزم والفعل

(١) كان رئيس النظار وناظر الداخلية لذلك العهد رياض باشا الشهير ، وكان قائماً بضروب من الاصلاح جليلة وكانت الجريدة الرسمية هي الحادي والسائق لسكل ضرب منها

وشوهد لها أثر في العيان . إلا انه حث مندوبيها على مراعاة الفقراء والايتم والاكثر منهم بالمدرسة قائلاً : إن للأغنياء طرقاً كثيرة في تعليم أبنائهم ، أما الفقراء فليس لهم سبيل اليه ، وإننا لو رأينا زيادة عنايتكم بالفقراء لزدناكم في الاعانة والنقدية ، ثم أكد وصيته بأن يكون التعليم حقيقياً راسخاً في القلوب ، ثابتاً في العقول ، لا أن يكون ظاهرياً على سطوح الخيالات والالهام . فهذا الصنيع ، الجليل من هذا الوزير الجليل ، يستدعي انطلاق الالسنه بالثناء عليه ، وميل الافئدة بكليتها اليه ، وما كل ذلك إلا بعناية الحديوي وحسن مقاصده ، خلد الله دولته ، ومكن في الآفاق سطوته ، وسنري من آثارها تين الجمعيتين ما يحمد أثره ، ويحمد ذكره ، وهذا محصل ما كتب من نظارة الداخلية الى نظارة المعارف في شأن الجمعية الخيرية بالاسكندرية بتاريخ ١٢ القعدة سنة ٩٧

« ليس بخاف مانهض اليه الموقفون من أهل البر والاحسان من ذوات ووجوه الثغر السكندري في تأليف وإنشاء جمعية خيرية لتعليم العلوم واللغات المفيدة والصنائع النافعة . وقد قارنوا العزم بالفعل إذ أنشأوا المكاتب التعليمية ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وحباً فيما يعود على الوطن بالخير . والآن قدموا لنا قانون الجمعية الدال على حسن مقاصدهم بما قرروه من إنشاء مستشفى للمرضى ، ومكتبة لمطالعة الكتب واستنساخها ، ثم دار ضيافة لمن يقدم على الجمعية . وأن يكون من شؤونها مواساة الارامل وتربية الايتام من أبناء أعضائها بعد موتهم وغيرهم ، ومساعدة من يصابون في أنفسهم وأموالهم بما يقوم بدوائهم ، وتكون رياستها العمومية في عهدة سعادة ولي العهد الاكرم . وحيث كان هذا المشروع من محاسن الاعمال العائدة بالمرأيا على الوطن وأهله الدالة على جمال المقصد ، وهي مطابقة من كل وجه لأفكار الحضرة الحديوية ، وعند تلاوة مفصلات القانون المحكي عنه وجد مقبول الوضع ، ملائماً موافقاً للطبع ، فبناء على ذلك وجب قبول هذه الجمعية وتقريرها على حدتها ومعرفتها بالاسم الذي عنونت به ، ولزم تحريره لسعادتكم اخطاراً بذلك لتقوموا بما ينبغي من المساعدة لها فيما يمكن به

تقدمها وحسن سيرها ، ومن طيه نسخة القانون للعالم بما اشتملت عليه ، وحفظها أساساً لذلك بالمعارف

« وحيث اشتملت هذه الجمعية على تعليم وتدريس العلوم ونشرها بالصفة التي أوضحت بقانونها ، وهذا مما يجعلها تحت سلطة المعارف وملاحظتها ، فعليكم إعطاء جميع التعليمات والأوامر التي تلزم لذلك »

المقالة الثانية

احترام قوانين الحكومة وأوامرها

منه - عبارة الامة *

إنما تسعد البلاد ويستقيم حالها إذا ارتفع فيها شأن القانون ، وعلا قدره واحترمه الخاكئون قبل المحكومين ، واستعملوا غاية الدقة في فهم فصوله وحدوده والوقوف على حقائق مغزاه ، وسهروا لتطبيق أعمالهم جزئية وكلية على منطوقه الحقيقي ومفهومه ، عند ذلك تحيا البلاد حياة حقيقية ، ويسري فيها روح السعادة وتهطل عليها سحائب الرحمة ، فتحصب بها أرض الثروة لكون جميع الاعمال على اختلافها حينئذ متجهة الى غاية واحدة هي النفع العمومي المنقسم على كل فرد من أفراد الرعية على التساوي كل بمقدار عمله ، وصاحب الحظ الوافر من السعادة هم العمال والمأمورون وأركان الدولة ، لأنهم مصدر الاعمال الكلية التي عليها يدور نظام البلاد ، فينالون من الثمرة على مقدار ما لهم من الفضل

وليس يكفي في راحة العباد وانتظام المملكة أن توضع القوانين حاوية لكليات الامور وجزئياتها ، ثم تهمل من النظر ، وتطرح عن الفكر ، ويستمر كل ذي عمل في عمله ، يتبع فيه رأي نفسه إن خطأ وإن صوابا . فان هذه الحالة يستوي معها وضع القانون وعدم وضعه ، ولا فائدة في إبراز فصوله وأبوابه

(* نشرت في العدد ٩٥٢ من جريدة الوقائع المنسربة الصادر في ٢٦ القعدة سنة

١٢٩٧-٣١ أكتوبر سنة ١٢٨٠

من عالم الفكر إلى عالم اللفظ والكتابة ، بل يكون هو والعدم سواء ، وتتساوى بلاد ارتقى فيها الفكر الشرعي إلى أعلى درجة ، مع بلاد بلغت أقصى غاية من الهمجية والتوحش ، فان نهاية أمر الجهتين هو الاختلال والشقاء . وطالما افتخرت حكومة مصر في الزمن السابق بإصدار اللوائح ووضع القوانين ، وتجديد النظامات ، وتنقيح الاصول الاساسية ، وسجلت ذلك في الدفاتر ، وخلدته في بطون الاوراق ، حتى كان الناظر في ذلك يظن أن بلاداً هذا نظامها ، وذلك قانونها ، لني غاية من السعادة والراحة ، لكنها كانت تحمق أعناقها خجلاً عند ما كان يظهر من أعمالها وأعمال عمالها ما يضاد القانون الذي وضعت ، ويؤدي إلى شقاء البلاد التي حكمتها ، ولا تؤاخذ على ذلك . وهذه خصلة لا يرضاها العاقل لنفسه أعنى أن يعمل على خلاف ما يرسم ويحدد

أما حكومتنا اليوم فلم تسمح بوضع اللوائح تحت المساند ، ولا في مستودعات الدفاتر ، ولا تحت تراب الاهمال والاغفال ، بل لا تزال همه رجالها متوجهة إلى جعل القانون عنوان العمل ، فلا تصدر حركة من أمر أو مأمور إلا على طبق ما رسمته في أوامرها العالية ، فان بقي من تلك العادة السيئة (أعني إهمال الاوامر) شيء في نفوس البعض من ذوي المناصب ، وبلغ ذلك مسامع رئيسه الأعلى وجه اليه اللوم والعتاب ، وأنذره إنذار من يؤاخذ بالذنب ويعاقب على الجرم ، وأخذته الغيرة على قانونه الذي سنه خوفاً عليه من الضياع ، وعلى ثمرته من الفقدان . فان تكررت منه المخالفة أنزله عن منصبه بعد إحالة النظر في مخالفته على المجالس القضائية ، وذلك كله لحسن مقاصد الحضرة الخديوية وعنايتها بإصلاح بلادها ، وبهمة دولتلو رياض باشا رئيس النظار ، وغيرته على الحق ، ويتخطه ، وسهره على تنفيذ لوائح الحكومة ومنشوراتها ، علماً منه أن أسعد البلاد ماخذ فيها حكم القانون ، خصوصاً إن كان ذلك القانون عادلاً ، يوافق مصلحة البلاد ، وانه لا فائدة في إجهاد النفس لوضع اللوائح ، وتأسيس المنشورات إذا لم يعمر عليها العمل ، ولم تكن نصب أعين العمال في جميع إجراءاتهم ينظرون إليها ، ويسيرون في كل أحوالهم عليها

فرغب هذا الرئيس الجليل رغبة حقيقية في تأييد حرية العمل في هذه البلاد ، ورفع سوط النسوة الغير القانونية ، وإبطال عمله بالكاية . إذ لم يجعل لأحد من المأمورين سلطة على أحد من الاهالي ، إلا فيما يعود على البلاد بالمنفعة العامة ، كما هو شأن العدالة وحقيقة النظام ، وأعلن ذلك بالصراحة في منشورات الداخلية الجليلة مراراً ، ليعلمه الماكون والمحكومون معا . فيعرف الاهالي حقوقهم ممتازة ظاهرة ، فلا يسمحون بخدشها . ويعتبر بذلك المديرون ، وصغار المأمورين . فلا يسخرون أحداً في عمل من الاعمال بغير حق ، وإلا فلا يأمنون عاقبة ذلك وسوء مغيبه . نعم لهم الحق في أن يسوقوا المتقاعدين عن الاعمال التي تطلبها مصلحة البلاد بسوط العدل ، الذي لا يرفع عن المهمين — وهذه صورة منشور جليل صدر من نظارة الداخلية في هذا الشأن منبئاً بغيره دولتو ناظرها الأنخم ، وشدة محافظته على رعاية القانون

أول منشور من وزارة لداخلية تسخير الناس في اعمال الحكومة

« قد علمنا مما كتب لنظارة الداخلية من مديرية الشرقية بالتلغراف : أنه أخذ جملة أنفار من أهالي مديريته ، وتوجه بهم إلى جهة شالوفة ، لاصلاح ما حدث من الخلل ، وترميم ما وقع من التهدم بجسر سكة الحديد ، في المسافة الواقعة بين هذه الجهة والسويس . ولما سئل عن إقدامه على هذا الاجراء بأمر من هو ؟ أجاب : بأنه أقدم على ذلك بناء على تلغراف ورد اليه من عموم إدارة السكة الحديد . ولما رآه من المصلحة العامة في ذلك ، مع تعهد إدارة السكة الحديد بدفع أجر الانفار . ولا يخفى أن هذا الاجراء لا ينطبق على القواعد الأساسية المتبعة ، ولا يوافق نصوص الاوامر السامية المصرحة بأنه لا يجوز تكليف الاهالي بعمل من الاعمال إلا إذا كان عائداً عليهم بالمنفعة العمومية ، كزري مزروعاتهم ، وحفظ أراضيهم وبلادهم من غوائل الغرق فقط . نعم أن منفعة السكة الحديد تعد منفعة عامة ، لكن لما دائرة خصوصية ترجع اليها ايراداتها ومصاريفها . فعليها أن تتدارك جميع أعمالها من طرفها لاستعمال مأموريها

أنفسهم فيما يلزم لها ، وليس لها أمر ولا نهى على المديرين من أعمال الادارة ، ولا غيرهم فيما يماثل هذا الامر ، ولو صدر عنها ذلك فلا يصح لمدير أو من دونه أن يجيها أو غيرها إلى ما نطلب بعد ما علم هذا الاساس المتين ، خصوصاً إن أوامر الحكومة الصادرة إلى المديرين ، ناطقة بأوضح عبارة بأن كل مأمور مكلف بامثال أوامر النظارة التابع هو لها . فالمديرون ليسوا بتبعة لمصلحة السكة الحديد ، ولا غيرها من المصالح ، ولكنهم تابعون لنظارة الداخلية ، ولا يسوغ لهم إجراء عمل ما يشبه ذلك إلا بأمر يصدر لهم منها . فعلى المديرين والاهالي عموماً أن ينتبهوا لمثل هذه القوانين الثابتة ، ويراعوها حق المراعاة ، ويعلموا أنه لاسلطة للمدير أو غيره على أحد من أهالي البلاد في عمل من الاعمال ، إلا فيما يعود اليهم بالمنافع العامة فقط ، وهو ما يتقرر بالجداول في كل سنة من أعمال التطهير ، وتقوية الجسور لحفظ البلاد عند فيضان النيل ، وكل من يبدو منه أدنى مخالفة لهذه الاوامر بأن يكلف الاهالي بأداء أعمال لا تجب عليهم ، ولا هي في منفعتهم العامة المقررة في جداول العمليات ، فقد أوقع نفسه تحت خطر المحاكمة ونفوذ أحكام العدالة فيه ، ومجازاته بما يقضي به القانون . وبهذا لزم الاخطار لعموم الجهات ، ومن الجملة لسعادتك تحذيراً من الوقوع في المخالفة

المقالة الثالثة

حب الفقر أو سفه الفلاح *

كان أهالي بلادنا محملين من الاثقال النقدية مالا يطيقون من ضرائب على الاراضي متنوعة متكررة تتجدد على الدوام ، بتجدد الاشهر والاعوام ، وحرائم تفرض على الانفس وتوابعها من غير نظام ، لا تنتهي إلى غاية ، ولا تقف عند حد ، حتى بلغت بهم نهاية لا يستطيعون معها الأداء لشيء مما فرض عليهم . ثم لم يكن لاقتضاء هذه الفرائض الثقيلة منهم وقت معين ، ولا قاعدة معروفة ، بل ذلك كان على حسب اشتهاؤ الحاكم ، وإرادته الغير مرتبة . فتارة يجبرون على أداء جميع أموال السنة بأنواعها ، في أول شهر منها . وتارة يطالبون بأموال السنة القابلة في منتصف السنة الحاضرة ، ولا محيص لهم عن الأداء ، فان من تأخر عنه عومل بالضرب المهلك ، والحبس المؤبد ، أو انتزع منه جميع ما بيده قهراً ، وما شاكل ذلك من المعاملات الحشنة

ولا يجد للخلاص من جميع ذلك سبيلاً سوى الالتجاء إلى التجار وأرباب البنوك الذين هم كانوا أعظم أعوان الظلم في ذلك الوقت ، وأشد أنصاره . فاذا رأوا حاجة الأهالي اليهم تدللوا وتمنعوا عنهم أن الكرباج وراءهم ، فلا قدرة لهم على الصبر ، ولا سبيل إلى التخلص من ألم العذاب ، ولو مؤقتاً ، إلا بالرضاء بكل ما يرسمون عليهم من الفائدة ، فكان التاجر لا يؤدي قوده سلفاً ، ولو قبل الحصاد بعشرين يوماً إلا ستين فيما يساوي مائة وقت الحصاد ، فتكون الفائدة

(*) نشرت في العدد ٩٦٩ الصادر في ٢٢ الحجة سنة ١٢٩٧ — ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٠ تحت هذا العنوان ما يأتي :

أربعين أو أزيد في الشهر الواحد ، وصاحب البنك لا يعطي إلا بفائدة عشرة في المائة ، بل أزيد في كل شهر ، ومن الناس من كان يأخذ المائة بمائتين في أربعة أشهر ، وجميع هؤلاء حاضرون أحياء نعلمهم وهم يشهدون . فكانت تلك الايام ويلا ووبالا على الحكومة والاهالي جميعاً ، وكانت سعداً وريعاً للتجار وارباب البنوك الغرباء الدخلاء الذين انتشروا بين أبناء البلاد انتشار الذئب بين الاغنام . فأثقلت كواهل الفلاحين وغيرهم من الوطنيين بالديون الهائلة ، واضطرم العجز لبيع أملاكهم ، ورهن عقاراتهم وأراضيهم ، أو الانسلاخ منها بالكفاية ، فأحاط بهم الفقر ، وصاروا في أسوأ حال

والحمد لله أصبحوا في هذه الايام ، وقد خففت عنهم الاثقال ، وألغى كثير من الضرائب غير القانونية ، ووقفت المطالبات عند حد معروف ، وضربت لتأديتها مواعيت محددة على حسب فصول السنة وما يكون فيها من حاصلات الزراعة . فتوفرت على الاهالي ثمرات أنعابهم ، وصاروا الآن لاجابة لهم إلى بيع شيء بأقل من قيمته ، ولا بفلس واحد . فان أوقات الأداء هي أوقات اجتناء ثمرات الزراعة . ومع ذلك فالمطلوب مقسط بأقساط خفيفة سهلة الأداء لا تلجى ، صاحبها إلى ارتكاب شيء مما كان يرتكب أولاً ، فنمت الثروة نمواً لم يكن يخطر بالبال ، وأيقنا ان الاهالي سيثبتون على املاكهم ، ويعتبرون بسوابق احوالهم ، فيحرصون على تقدمهم في الثروة والغنى ، حتى يستردوا ماسلب من ايديهم قهراً ، ولو بأعلى قيمة وأعلى ثمن ، وتأخذم الغيرة على املاكهم واملاك إخوانهم التي أصبحت في ايدي غيرهم ، يتمتع بخيراتهما ، ويتلذذ بشهي ثمراتها . فيطلبون رجوعها اليهم بدفع اضعاف قيمتها الاصلية ، كما هو شأن الاحرار ذوي الشرف والهمة ، وذلك لا يكون إلا باتباع قانون الاقتصاد والاكتفاء من اللوازم بقدر الحاجة او دونها ، حرصاً على نيل الشرف الحقيقي ، وهو تخليص املاكهم ، او حفظها من تطرق يد الغير اليها

إلا إننا نأسف كل الاسف إذ لم نظفر بهذه الاثنية ، فان الحكومة لما

ارتفعت عن كواهلهم أثقال المظالم، وخفت عنهم أحمال المفارم، فتحوا على أنفسهم بابا آخر من الفقر يلجونه باختيارهم وإرادتهم بدون قاسر ولا قاهر، وهو باب السرف والتبذير والاكتثار من لوازم الرفاهية والزينة، وما يكسب الظهور الكاذب بلا طائل، فرأيانهم يتفاخرون في إعداد الولائم وإتقان أشكال الزينة، ويتنافسون في تشييد الابنية، ويتكاثرون في الملابس وأنواع الملاذ، لا يقفون فيها عند حد، ولا ينتهون إلى غاية (كما كانت الضرائب في الزمن السابق) وليتهم مع ذلك ينقدون في اجتلاب هذه الاشياء قيمتها الحقيقية، ولكنهم من الجهل يشتررون ما يساوي عشرة بعشرين إن لم تقل بمائة، فان ضاق إيراد أحدهم عن هذا المصرف الواسع أسرع إلى البنوك يرهن فيه أرضه وعقاره بفائدة ليست بقليلة، يلزم نفسه بأدائها أعواما كثيرة، ويظنها سهلة الاداء مع أنها تحت شروط شديدة عليه لطيفة على صاحب البنك، غير متدبر عاقبة الأمر، ولا متبصر في نتائج هذه الغفلة

بلغني أن بعض الاعيان في بلادنا رهن أرضه الزراعية الخصبية على خمسة وعشرين ألف جنيه يدفعها في خمسين سنة مائة ألف جنيه وكسور. أليس هو الاحق بهذه الفائدة التي هي ثلاثة أضعاف مأخذ، وهي ثمرة كسبه، ونتيجة تعب، وما عليه اذا اقتصر في مصرفه ليحفظ على نفسه ذلك المبلغ بل أكثر منه، ولعمر الحق أنه لو أنفق على قدر إرادته أو نصفه لقلنا إنه من المسرفين. ولكن أبي حاكم الشهوات الا أن يكلف هؤلاء الضعفاء النفوس المنحطية الافكار بما لا يطيقون، كأنهم يرهنون بأعمالهم هذه ونهورهم في الاسراف والانفاق على أنهم ليسوا أهلا للثروة، ولا مستحقين للغنى، ولا يعملون ثقل الخير على أنفسهم، بل يحبون أن يكونوا على الدوام فقراء مترين لا يملكون شيئا، وإن كانوا في صورة أغنياء مترين، ويرغبون أن يكونوا نحت ذل الدين وأثقاله إذ رسموا على ذواتهم أن تكون في قبضة ارباب الدين يتصرفون فيها وقت ما يشاؤون، ولا يعلمون أن نكبات الدهر كثيرة الورود شديدة البطش، فربما اجتاحت ذرع أحدهم جائحة سمارية (كال معروف عندنا بالندوة أو الهيفة) أو أصيب بموت ماشيته،

أو نزلت به حادثة غرق ، أو شرق ، أو ما شاكل ذلك من المصائب التي لا مندوحة عنها ، فيعجز عن الاداء فباع أملاكه ويصبح من الخاسرين ، ولا يبقى له سوى الحسرة في قلبه على ما فرط في شأن نفسه . وكان من الواجب على هؤلاء المساكين (الاغنياء والمتوسطين) أن ينتهزوا فرصة الراحة ليعدوا فيها ما ينفعهم من الشدة ، ويوفروا على أنفسهم شيئاً من ثروتهم لتكون بفضل الله فرجة لهم يوم الكربة ، والا فقد دلت التجارب على أن عاقبة الاسراف حسرة تملأ القلب ، وحيرة تدهش اللب ، وسنعود الى هذا الموضوع مراراً إن شاء الله

المقالة الرابعة .

(عدنا والعود احمد الى موضوع حب الفقر أو سفه الفلاح)

(٢)

الاقتصاد هو فضيلة من فضائل الانسانية الجليلة ، بل هو من أهمها مدحته جميع الشرائع وبينت فوائده ، وهو كغيره من الفضائل مركب من أمرين بذل وإمساك ، أعني أن الاقتصاد هو التوسط في الانفاق بحيث لا يسط صاحب المال يده كل البسط حتى لا يبقى فيها شيئاً ، ولا يقبضها كل القبض حتى لا يخرج منها شيئاً ، بل ينفق من ماله على حسب حاله ، يقدم الأهم فالهم ، يدفع الضرورة وقيم البنية على قدر ما يناسب درجة غناه وفقره ، مع حفظ بقية من كسبه يعدها للموارض غير المنتظرة التي قلما ينجو الانسان من ورودها عليه بغتة من حيث لا يشعر . فاذا جمع الشخص بين الامساك عما لا يلزمه ، والبذل فيما هو أحوج اليه ، فقد حاز فضيلة الاقتصاد التي قال فيها نبينا صلى الله عليه وسلم « الاقتصاد نصف المعيشة » والمعنى أن المعيشة تقوم بأمرين الكسب والاقتصاد في انفاق ثمرته ، فمن كسب مالا فقد حاز أحد الأمرين فإن لم يحز الآخر وهو حسن

نشرت في العدد ٨٨٩ الصادر في ١٦ المحرم سنة ١٢٩٨ - ١٨ ديسمبر

التدبير ، فقد فقد نصف معيشته ، أي فقد انهزم أحد ركني المعيشة . فان حاز الامر والثاني هو الاقتصاد ، فقد تمت له المعيشة .

وتوضيح الحقيقة في هذا الباب ان من اجهد نفسه في الاكتساب وتحصيل الاموال، ولم ينفق منها شيئاً على نفسه في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه وغير ذلك من لوازم معيشته أو انفق منها قليلاً جداً بحيث لا يفي بلوازمه، ولا يقضي واجباته ، فهو وإن كثر ماله وغزرت مادة ثروته ، لكنه في الحقيقة ناتق المعيشة فقير جداً . وهذا السكسب ليس إلا بمنزلة خادم حقير مكلف بالجمع والتحصيل والحفظ ، فهو خفير فقير بيده مفاتيح الخزائن ، ولكن كأنها مملوكة لغيره لا ينال منها شيئاً ولم ينل الا التعب والشقاء لاغير . وكذلك إن تجاوز في النفقة حد الواجب بأن حدد لنفسه من الأمور ما ليس بلازم وصرف جميع ما اكتسب أولاً فاولاً ، فانه يكون في غاية من الفقر وإن كثر الابراد جداً لانه في كل آن لا يملك من ثمرة كسبه شيئاً، فهو بمنزلة من يصب ماء في حوض فتح في قاعه بالوعة كبيرة لا تبقي شيئاً مما يصب في الحوض ، فالما دائم السيلا ن لكن الحوض فارغ ، فهو في الحقيقة فقير جداً ان ألمت به مصيبة أصبح مترباً في غاية الاحتياج والاضطرار يرشد الى هذا كله قوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) وهذه القاعدة الجليلة مع ظهور فائدتها في انتظام أحوال الانسان بحيث لا يعارض فيها عاقل ولا جاهل ، وترغيب الشريعة الطاهرة في اتباعها والعمل بها على ما نطقت به الآيات والآحاديث — نرى كثيراً من الناس في ديارنا منحرفين عنها كل الانحراف بعضهم يميل الى جانب الامساك بالمره ، والبعض الآخر يميل الى جانب الاسراف بالكلية ، اما الاولون فانهم يصرفون جميع أوقانهم في الكد والتعب والاخذ بأنواع الحيل لتحصيل الدينار والدرهم . ثم يودعون جميع ما يحصلون بطن الأرض ، وترتعد يد الواحد منهم عند ما يقرب من الصرة أو الوعاء المحتوي على النقود . فان وجب في ذمته لله أو للناس حق صعب عليه أداؤه فيكتسب الوزر والجرم ، وينال من الناس الاهانة والتعزير في طلب حقوقهم ، ونحيط به بالضرورات بأنواعها ، ولا يدفع شيئاً منها بشيء من

الله ، بل إن ماله المكنوز ربما كان يمكن استزادته وتنميته ، ولكنه لا يرضى بذلك ، وبمحب أن يدوم كما أودعه لا يزيد إلا بما يرضه اليه من خارج ويقتصر على نفسه في كافة لوازمه ، فلا يحافظ على صحة بدنه ، ولا يبذل شيئاً في تربية أبنائه وتهذيبهم ، وإن كان على علم بأن ذلك واجب خشية من نقص عدد النقود ، وإن كان ذا عائلة أضربها من عدم الاتفاق وأهل واجباتها وتركهم يشنون تحت آلام الاحتياج . فمثل هذا السفينة أنفس حالاً من الفقير ربما يمنعه عن قضاء حاجاته العوز والاعدام ولكن هذا يمنعه عنها حب الفقر والاضطرار والتلذذ الوهمي بأن له نقوداً في بيته فادام تركها لا يعلم بها أحد لانه اكتنزها في اخفى الامكنة ولشدها بعدا عن الاعين فيصبح أبنائه ومن كان في نفقته قراء معوزين لا يملكون شيئاً . فهذا الصنف من الناس خلقي لان يتحرك في الهواء حركات الذرات غير الشاعرة لا يدري لاي شيء يغزو ويروح وهو عاشق للافتقار والاضطرار ولحق في نهاية سيره مع إخوانه في الرذيلة المسرفين

وأما قسم المسرفين من أهالي بلادنا فأولئك شأنهم غريب : إذا خفت عنهم للعارم ، وأقالهم الحكومة من المظالم ، وتوفر لدي البعض منهم شيء من النقود ولتفعت أسعار المحصولات أو جاد موسمها ، ورأى بعضاً من النقود يرن في يديه ، قصد إلى سوق البضائع الافرنجية (التي بعد اقتناؤها تمدنا) يشتري أخسها وتدناها بأعلى القيمة وأرفعها حلية لزوجته ، وزينة لابنته وابنه ، وبهرجة لنفسه ، يظهر بها يظنها رونقا يكسبه حلية واعتباراً ، حتى يموذوق تصرف جميع ما توفر لديه ، وربما كن مع ذلك بيته مهدماً يحتاج إلى البناء ، ومضجعه خالياً من الفراش لا يستر سوى الحصار البسيط ، وزوجته التي يحليها هي المنعمسة في الاقدار ، المكلفة بأداء جميع الاعمال الخسيسة ، وليس عندها من الاوقات ما تتجمل فيه بتلك الزينة ، اللهم إلا يوم الماتم والفرح ، وأبنائه الذين حاباهم بتلك الزخرفة فاقد التربية ، متروكين في زوايا الاهمال وسره ان يراهم يلعبون ويتواثبون في مساحة بيته المفرشة بطبقات من الاتربة ، ثم إذا ازداد إرادته مرة أخرى رأته يتفنن في الولاثم وإقامة الافراح لأبنائه وأقاربه تحت مصاريف متي فتحتها على نفسه ، أخرجته عن طاقته ، وأنفق

فيها المئين والالوف بجباب الاشياء التالفة التي لا قيمة لها سوى العدم ، ويسره في كل ذلك انه فرح بابنه أو أخيه أو ابنته الذين لم يكتسبوا شيئاً من الفضائل وكان الإليق بهذا المسكين أن يتخذ له من فضل الكسب معيناً له في أعماله يخفف عنه بعضها ، فان ما ينفق على المساعدين يأتي بالريح ويفرغ صاحب الكسب لأعمال أخرى لم يكن يقدر على تعاطيها ، أو يأتي لأهل بيته بمعين على أعمالهم حتى ينالوا شيئاً من الراحة ، أو يؤدب أولاده ، ويهذبهم ، على شرط أن يكون ذلك غير مستغرق كافة الكسب ، بل لا بد أن يبقى منه ذخيرة ينفعها عند حدوث الحوادث ، وينظر للعواقب نظر الحكيم ، ويكفيه من الافراح ان ابنه مخن أو تزوج في حياته بدون احتياج إلى ما هو أزيد من ذلك ، فقد رأينا كثيراً من هؤلاء المساكين تأتيهم أراضيم بالمحصولات الجيدة ، والارزاق الوفيرة ، ثم ينفقونها عند ورودها في أمثال هذه الزخارف الباطلة ، حتى إذا مضت مدة السكرة التي أتى بها الإيراد ، وطرقته نائية من موت مواشيه ، أو فساد زرعه بمجاثق سماوية ، أو خسران تجارته ، أو كساد صناعته ، أو حدوث امراض أوقفته عن الاعمال ، وكيسه فارغ وبيته خال (إلا من الزخارف التي لا أساس لها) عمد إلى بيع مصوغات زوجته وأثاث بيته ورهن أملاكه أو بيعها حتى يصبح فقيراً معدماً ، وقد ما مكنه الزمان من الرجوع إلى مثل حالته الاولى أو ما يوازيها ، فياخذ في الانزواء قهر أعنه ، ويخلع ثياب الفخفخة والزينة ، ويلبس رداء الخول والفقر ، وترميه العقلاء بل وأمثاله من السفهاء - الذين ذاقوا مثل مذاق أو ينتظرون عاقبة - كهاقبه بالسفه وضعف الرأي وقلة العقل ، ويمسي ذليلاً محتاجاً بعد ان كان يظن نفسه غنياً عزيزاً ، فما أصعبها على النفس من حالة ، وبأيت النعمة كانت خاصة بشخصه ، ولكنها تأتي على عائلة جسيمة ينالهم من شرها أكثر مما ناله . وهذه الحالة نراها في الكثير من أوساط البلاد وأغنيائها ، وهذا كما يضر بهم وبمجاوشتهم يضر أيضاً بثروة البلاد نفسها . إذ تحصن الثروة في دوائر مخصوصة عند أشخاص قليلين ، لوازمهم ليست بالكثيرة ، فتكسد أسواق الصناعة والتجارة لقلة الراغبين في الصنائع والبضائع ، أي لقلة القادرين على اقتنائها ، وتقل الرغبة في الأعمال الزراعية ، إذ يكون الجميع كأجراء لا يهتمون اهتمام الملاك

وإن أغنى البلاد وأسعدها هي البلاد التي توزعت ثروتها على غالب أهلها ،
 ويزداد الضرر إذا وقعت الاملاك والمبيعات في أيدي الغرباء والاجانب ،
 الذين لا يسرنا أن نراهم واضعي أيديهم على غالب الاملاك العظيمة والاراضي
 الواسعة التي كانت في أيدي أبناء البلاد ، بل هذا أمر يحزن كل ذي عقل
 وإدراك ، ولا يغفل عنه إلا غبي ذني . ، محب للفقر والفاقة . وإتنا لنخجل
 من حكاية هذه الاحوال عن أهالي بلادنا ، خوفاً من وقوع بصر الاجنبي
 عليها ، فيعرفون منا ما لا نحب أن يعرف ، لكننا نظن أنهم على خبرة
 من أمورنا بحيث لا يفيدنا السكوت ، ولكننا ندعو النباه ، بل والعلماء أن
 يجتهدوا في بث هذه الافكار بين عموم الناس لعلها تنجح فيهم ، ولا أراها
 إلا ناجحة . ونرغب إلى بعض ذوي الكلمة في بلاد الفلاحين ، بل وفي المدن
 أن يلاحظوا ذلك ، وينصحوا المتوغلين في الاسراف على غير قاعدة راشدة
 بأن يكفوا عنه ، وأن يعتدوا في أحوالهم فذلك ، خير لهم من ضياع أموالهم

المقالة الخامسة .)

﴿ حب الفقر أو سفه الفلاح ﴾

(٣)

﴿ نعود اليه من وجه آخر غير الذي بدأنا به ﴾

خلق الانسان ولوعا بالمنفعة ، حريصاً على إحراز الفوائد ، نفوراً من
 مخاوف الاضطراب ، يطلب لاجتلاب رزقه قريب الوسائل وبهيدها ، ويجهد
 النفس في توفير ثمرات الكسب ، توقياً من عوارض الاحتياج ، وطواري
 الافتقار ، وهذه فطرة ألهه الله إياها لتكون له مخلصاً من تعاسة المعيشة التي
 تنشأ عن الاضطراب في حفظ الحياة ، فهو يتعب الجسم ، ويشغل الفكر ،

• نشرت في العدد ١٠٢٤ الصادر في ٢٨ صفر سنة ١٢٢٨ - ٢٩ يناير سنة ١٨٨١

ويواصل العمل ، وإن كان في ذلك ما فيه من الآلام والشقاء ، ليعتاض من تعبهِ هذا راحة كان يعسر نيلها لولا هذه الاتعاب ، وهي الاطمئنان على النفس والوئوق بصونها من التهلكة . فترى العامل يشتغل بأشق الاعمال يياض نهاره ، ويتألم ويتضجر من صعوبة العمل ، كأنما قهره عليه قاهر ، وفي الحقيقة لا قاهر له سوى علمه بأنه لو لم يشتغل لفقد اجر الاشتغال ، وهو مادة قوته ، وقوام معيشتِهِ في مسكنه وملبسه ، وكافة ما يقي حياته من الزوال ، فيستسهل هذه الاعمال البدنية ، في جنب ما تأتي به من الفائدة السكّية ، وهي حفظ الوجود ورفع ألم الاضطراب الطبيعي ، وهو الجوع والعري ، وتسلب القرى الطبيعية من الحر والبرد على بدنه . ومصداق ذلك ما نراه من السنن المقررة في أهالي المعمورة عموماً على اختلاف أصنافهم ، ومواقع أوطانهم ، يشقى كل واحد شقاء جزئياً وقتياً لينال سعادة كلية ثابتة على زعمه ، ويترك فوائد جزئية لا ثبات لها ، كلكة الراحة والبطالة ، لتحصيل فوائد أعلى وأثبت . ولو سألنا حال الصبيان في سن الرضاع لنطق بحقيقة ما قلنا ، فهل يرتاب في ذلك أحد ؟

اكتنا من العجب نرى هذا الالهام الالهي (إلهام الدأب في السهمي وارتنكاب بعض المشتات لنيل الراحة الثابتة) قد غشيه في بلادنا سحب من الجهل ، فاستتر عن النفوس ، فعاد الناس لا ينظرون إلا للغايات الوقتية ، بل الآنية التي ربما لا يكون لها امتداد أزيد من آن حصولها . وذلك بعد أن نذكره عاماً في غالب طبقات الناس ، كما يشهد به العيان من ميل جميع الطبقات إلى البطالة والكسل عن تعاطي الاعمال التي يناط بها كل واحد منهم ، استلذاذاً للراحة الوقتية ، وركونهم إلى قضاء واجبات أغراضهم وشهواتهم على أي وجه كان ، لا يحكم الواحد منهم قانوناً ، ولا يستفتي شريعة ، طلباً لمنفعة آنية ربما أعقبها نكد يمتد مع الحياة ، نذكره كذلك خاصاً في طبقة الزارعين من إخواننا الفلاحين ، فإن لهم في ذلك شؤوناً غريبة ، وأطواراً عجبية ، اقتصر منها هنا على وجه واحد من وجوه انحرافهم عن المادة المستقيمة في تحصيل أرزاقهم وحفظ حقوقهم يعلم كل زارع علم اليقين أن الزرع لا ينبت ، والنبات لا يشمر ، والنمر لا يجود ،

إلا إذا أصاب الزرع من المياه حظه القانوني ، ويوقن أن بلادنا ليست أقطاراً
يكثُر فيها نزول الأمطار ، فتعم المزارع بدون عمل منا ، فننال حظاً منها ونحن
رقود ، وليس لنا من الأمر شيء سوى انتظار ماء السماء ، فإن ييس الجومات
التبت ونزل القحط والعياذ بالله

بل يعلم حقاً أن الله منح أراضينا ماء النيل روحاً لنبتها وحيوانها ، وهو
ميسر يأتي في مواقيت الاحتياج على سبيل الاضطراب ، حاملاً من المواد المغذية
لنبت ماشاء الله أن يحمل ، غير أنه يحتاج إلى أعمال اليد في توزيعه على المزارع
وحفظها من الزيادة المفسدة لها . فتحتم لذلك شق الترع والجداول وتطهيرها ،
 وإقامة الجسور والقناطر ، وما شا كل ذلك مما هو معلوم عند الفلاحين أيضاً .
وتحقق كل فلاح أن هذه الاعمال لو أهملت وكانت الجسور ضعيفة أو قيعان
الترع غير عميقة إلى الحد الكافي لجلب المياه بسرعة ، أو سدت مسالك المياه
من أي وجه من الوجوه الطبيعية لفسد الزرع ، إما بالفرق العام أو اليبس الكلي
المعبر عنه (بالشرق) فتعطل مادة الرزق ، ويسوء حال المزارعين على العموم
جميع هذا الذي قلناه يعلمونه حق العلم ثم نراهم مع ذلك يفرون من الاعمال
العمومية التي دعت إليها ضرورة حياتهم على ما قدمنا فرار الفريسة من المفترس .
وما هذا الفرار إلا ملاحظة للأتعاب الجزئية التي تنالهم من البعد عن بلادهم
قليلاً ، وترك بعض أعمال خصوصية في البيت ، أو أرض الزراعة ، وصعوبة العمل
نوعاً . على هذه الأتعاب لاتعد شيئاً بالنسبة إلى ما ينشأ عنها من الفوائد ، وعن
تركها من المضرات الكلية ، المؤدية إلى فقد الحياة وعموم القحط . فلو أن لهم
بصيرة واعية لتسموها على أنفسهم بالتراخي ، كبيرهم يستوي مع صغيرهم في
كيفية أدائها بطيب القلب وصفاء خاطر ، استجلاباً لمادة رزقه بدون أن
يحتاجوا في ذلك إلى سائق يسوقهم ، أو قائد يقودهم ، خصوصاً في هذه الاوقات
التي توفرت فيها الأفراد توفراً تاماً بسبب ارتفاع أنواع السخرة الخصوصية
التي كانت عامة البلوى في أنحاء القطر ، فكان عدد البلد الواحد الذي لا يزيد
عدد القادرين على العمل فيه عن مائة ، يؤخذ منه عشرون للعمل في (الحقل)

(٩ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

الفلاحي المتعلق بالسنة الفلانية ، وعشرون آخرون للأوسية الفلانية التابعة للباشا الفلاني ، وعشرة لأبعادية أخرى وهكذا ، فربما أتى يوم من الأيام لا تجدد في الميلاد إلا الشياح والعجائز والصبيان . أما الآن وقد علموا أن معدل المطلوب يبلغ ثمن التعداد بالتقريب ، والباقيون يشتغلون بالأعمال الزراعية في الأراضي ، فلا يليق بهم التقاعد منها ، بل من الواجب على كل واحد المسارعة والمبادرة إليها بكل ما في قوته وإمكانه ، تعااضداً وتعاوناً واتفاقاً تاماً على جلب هذا الخير العظيم لأنفسهم عموماً . وأي سفه أعظم من أن يعلم الشخص طريق منفعة التي لا طريق له سواها ثم يتقاعد عنها ، ويحتاج إلى من يجذب إليه بالقوة القاهرة فان تعلموا بأنهم لا يفرون من العمل نفسه ، ولكنهم يفرون من الأعمال التي كانت تصدر من الحكم وتابعيهم من الضرب المؤلم والارهاق المزعج وأعمال سوط السطوة فيمن يذهب إلى مواقع الأعمال العمومية ، وتكليف العامل بما لا يطلق من العمل والظلم البين وتوزيع مقاديره على حسبه بل المأمورين والمهندسين إذ ذاك إلى بعض الجهات لغرض ما ، وانحرافهم عنها فيخفون عن بعض البلاد ما يشقون به كأهل البعض الآخر ، حتى ينال من هذه أيضاً مثل مانال من تلك فيقع التوازن والتعادل بين البلاد ، لكن يقع معه الاختلال في العمل المطلوب إذ يخفف العمل عن الجميع بواسطة مادفعوا من النقود ، فيقيمون الزمن المحدد ثم يتصرفون إلى بلادهم بدون طائل . فهذا هو الذي يوجب النفرة والفرار من الأعمال العمومية كراهة في الذين كانوا يتولون أمرها .

فأقول لهم في الجواب عن ذلك (أولاً) إن تلك الأيام قد مضت وانقضت ، وهي الأيام التي كان قدر الفلاح فيها مجهولاً ، وكان يستعمل في الأعمال كما تستعمل الدواب والماشية لا يعلم لأي شيء . يشتغل ولا لأي شخص يعمل هل لنفسه أو لغيره حتى صار يعد جميع الأعمال لغيره لأنفسه ، أما الآن فقد عرفت الحكومة قدر رعاياها ، وتقدمت إليهم بجميع الوسائل النافعة لهم ، وسارت أوامرها الشديدة في أنحاء البلاد سيراً حثيثاً ، ناطقة بأن لاسلطة لأحد من الحكم على أحد من الناس إلا فيما ينفعهم ويعود عليهم بثمرات الثروة والوقاية من موجبات الضرر وقد شاهدنا رأي العين

أن كل من ينحرف في سيره رفقته بين الحكومة التي لا تغفل حتى تتحقق سوء فعله، فتأخذه بجرمه أو تضعه تحت المحاكاة كائنًا من كان، وقد نشرت الجرائد كثيراً من مثل هذا. أفيلق بالزراعيين بعد مارأوا صدق عزيمة الحكومة في تعميم المنافع بينهم، وأنها تجد كل الجهد في تيسيرها بأي الوسائل أن يتقاعدوا عن ماعلوه منفعه لانفسهم استحضاراً للصور الماضية، وإن كانت هائلة تنزعج منها النفوس (وثانياً) إن الذي دعا أرباب السلطة في الزمن السابق الى التطاول عليهم إنما هو تبالوهم عن منافعهم بفرق الكلمة في طلب المنفعة العائدة على الجميع، فلو أنهم صدقوا جميعاً في تميم مايجب عليهم من الاعمال وكل واحد يشتغل وهو يعلم أن هذا العمل عائد اليه بالنفع كعماله في مزرعته بلا تفاوت، فهل كان يمكن لأحد أن يشغل عليه أو يحذف عنه؟ كلا إنهم كانوا جميعاً يقدرون على ردع الظالم وتبديده لو اتفقوا على منفعتهم برفع أمره الى من فوقه وإظهار حاله الرديئة فلا يستمر قدمه بينهم. ولكن ظنهم أن العمل أجني للحكومة لا لهم، هو الذي بث في نفوسهم حب التخلص منه بأي الوسائل، فيتدخل كل منهم في صرفه عن نفسه بكل مايمكنه، فيقع الظلم على البعض بل الاغلب من جهة ويختل نظام الاعمال من جهة أخرى لوقوع التهاون من البعض الذي أَرْضَى الحاكم السافل. وهذا جبل بين. فان الحكومة لاشأن لها في هذه الاعمال الا إيصال الخير الى رعاياها فهم الغاية المتصودة بثمره العمل، فليس من العتل بعد ماتحققوا هذا المقصد في عهد حكومتنا الماضرة وأن سلطة الباشوات (والستات) والمأمورين قد ارتفعت ولم يبق الا سلطة الحق والمساواة أن يتقاعد مكاف بعمل ما عن عمله اللهم الا أن يكون سفيناً يستحق المجر عليه

على اننا ننظر في أحوال الفلاحين أمراً أغرب من هذا الذي قدمنا، وهو الاعراض عن الاعمال الخصوصية المتعلقة بيد واحد كتطهير ترعة مخصوصة بأراضيه أو المحافظة على النقطة المقابلة له، فيعلم أهل البلد علم اليقين ان ترعتهم الخصوصية لو لم تطهر لتأخرت عنهم المياه، وتعطلت زراعتهم إما بتلفها كلية أو بالنقص في ثمراتها، وأن المحافظة على قنطرتها أيام النيل مثلاً أمر لا بد منه والا

اندفعت المياه على أراضيهم فافسدتها ، ثم أن عملية التطهير ربما لا تحتاج الى أكثر من أربعة ايام او خمسة ، ومع ذلك ترى كثيراً من البلدان يهملون المساقى الخصوصية التي لا طريق لري المزروعات سواها . فاذا جاء أوان فيضان النيل ارتوت الاراضي عن يمينهم وعن شمالهم وهم يتلهفون على نقطة من الماء فلا يجدونها وكلما دعاهم داع في ايام التطهير الى العمل ، يحتج كل واحد منهم بحجة أن له شغلا خصوصياً في بيته او غيظه يمنعه من ذلك حتى تمضي الايام ويأتي وقت الندم حين لا ينفع . فان لم يكن في البلاد عمدة يهتم امر زراعته لانها أكثر من زراعة الباقين ، فيلجئهم الى العمل قهراً لتعمهم الفائدة - وإن لم يبعثه الا المنفعة الخصوصية ، لكنها أوصات الى العمومية - فهذا حالهم . فانظر الى هذه الحالة الرديئة التي نشأت من تفرق القلوب ، وانقطاع التواصل بين النفوس ، فلا يهتم واحد بعمل يشترك في منفعة مع آخر ، وإن كان يتحقق الضرر لنفسه بتركه كان اشتراك الغير في المنفعة صيرها مضرة ينبغي اجتنابها ، وكان من الواجب ان الاشتراك يدعو الى التعاون والنوة بدل التهاون والانهطاط ، فكانهم سلبوا الخواص الطبيعية الي لانسان الجبال والغابات ، وقد علمت الحكومة ذلك فأرسلت الى المديريات بالتأكيدات الشديدة لتتعمم العمليات الخصوصية ، ومع ذلك لم نزل نسمع بأن بعض البلاد لم تعمل شيئاً في لوازمها الخصوصية . فكان أن المأمورين يعاملون الفلاحين بما في نيتهم ، لكن ليس هذا غرض الحكومة فالواجب على كل مأمور في جبة أن يهتم بتنفيذ أعمالها الخصوصية . فقد أرف وقت العمليات العمومية ، ولا يمكن فيه قضاء عمل خصوصي والا فكل مأمور سيسئل عن جهات مأموريته ، وإن عاقبة السؤال غير مجهولة . نسأل الله أن يصلح أحوالهم ويمتعهم بنور البصيرة فيرشدون الى حسن المال وبقوتهم لحيز الاعمال . (يقول جامع الكتاب) لله در الاستاذ كاتب هذه المقالات فقد احاط في بدايته بما لم يحط به غيره الى الآن ، فان هذه المناسد الاقتصادية لا تزال راسخة في البلاد ، ولو أنها عملت بارشاده فيها لبعثت ثروتها في أيديها ، ولما تمكن نفوذ الأجانب فيها ، ولا تزال محتاجة الى أمثال هذه النصائح ، وأين الناصحون ؟

المقالة السادسة

المعارف *

(١)

كثُرَ تحدث الناس في شأنها في هذه الاوقات ، وكثُرَ لما فرغوا من الافكار المتعلقة بالامور المالية والادارية ، وما كان فيها من الاضطراب وتنوع الاحوال ، وتقلب الاشكال ، إذ كفتهم الحكومة أمر ذلك كله بثباتها وتبصر رجالها العتلاء ، أخذوا يلتفتون الى مابه حياتهم الحقيقية ، ونموهيتهم الاجتماعية ، وظهور شأنهم بين الناس ، وحسبانهم في عداد أهل العالم ، وهو العلم النافع الذي رأينا جيراننا من الممالك نالوا به السيادة على غيرهم ، وطفقوا يتذاكرون فيما به يكون قدمه والوسائل الموصلة الى انتشاره في أقطاره ، موجبين آمالهم الى نظارة المعارف العمومية لانها ذات الشأن فيه . فقالوا كلاما كثيراً اذكره كما قيل (١)

قالوا إن المدارس ينبوع هذا الخير الجليل (العلم) وايس له من وسيلة سواها ، ولكن تحت شروط لا بد من استيفائها - ولنا الآن بصدد بيانها - وقد افتتحت المدارس في ديارنا من عهد المرحوم محمد علي باشا ، لكن كان اسمها غريباً على الآذان ، وحشياً عن القلوب ، يساق الناس اليها (كأنما يساقون الى الموت) إذ كانوا يظنون أن الدخول في المدارس هو الانتظام في العسكرية

* نشرت في العدد ٩٩٠ منها الصادر في ١٨ المحرم سنة ١٢٩٧ - ٢٠ : بسمبر سنة ١٨٨٠
(١) ان الاراء الآتية كلها للاستاذ رحمه الله تعالى وانما ذكرها بأسلوب الحكاية عن الناس لتلا نقول نظارة المعارف ان رجال الحكومة يعيونها ويشهرون بها في جريدتها على ان وزير المعارف متبرم من هذه المقالات وشكا الاستاذ الى رئيس النظار رياض باشا وطلب منه ان يامر بمنعها فقال بل لا بد من اصلاح الخلل .. وكان ذلك سبب تأليف مجلس المعارف الأعلى للاصلاح وكان للاستاذ ما كان من العمل فيه كما بيناه في الجزء الاول من هذا التاريخ

والدخول في العسكرية هو الشقاء الدائم ، والبلاء المحتم ، وبعض الناس بعد انتدبه كانوا لا يرون خطة أرفع من خطة الكتابة في ديوان أو مصلحة لما يرون للكاتب من المكانة عند الحكماء ، والتصرف في الحقوق ، فاكثفوا بإرسال أبنائهم الى الكتبة يعلمونهم ، حتى اذا كبروا انتظموا في سلكهم . وكانت لهم المنزلة المطلوبة بدون حاجة الى مدرسة ولا مكتب منتظم ، وبعض الناس ربما كان يعلم فائدة المدارس ، ولكن كانت توجد له أسباب تمنعه من تربية أبنائه فيها ولكننا لا نبديها ، وأما في أيامنا هذه ، فقد تنبّهت العقول ووقفوا على فوائد العلم وثمراته حق الوقوف ، غير أن ذلك يقضي على الآباء بتربية أبنائهم من الآن فصاعداً على الطريقة المنتظمة ، أما الشبان الذين فاتهم زمن التعليم في تلك الجبال السابقة واشتغلوا بتحصيل مادة المعاش ، إما بالتوظيف في الخدمات الميرية أو طلب الكسب من وجوه آخر ، ولهم شوق تام إلى كسب فضيلة العلم ، فلا تساعدهم أحوالهم بالضرورة على الرجوع الى التعلم في مكاتب الاطفال ، وتعطيل أسباب معاشهم ، فيود الكثير منهم أن تكون في البلاد مدارس ليلية يتداركون فيها بعض ما فاتهم في الازمنة السابقة أزمنة جهل آبائهم لعلمهم بذلك ينفعون أنفسهم وبلادهم بأكثر مما يقدرون عليه الآن . حتى اهتم بعض من الشبان من مدة نحو سنتين بتأليف جمعية لفتح مدرسة ليلية ، ثم عارضتهم بعض الموانع ، فلم تساعدهم المقادير على النجاح ، وكثروا في انتظار توفيق إلهي يسرق اليهم ذلك الخير حتى سمعوا بان نظارة المعارف تروم افتتاح مدرسة ليلية ، ففرحوا واستبشروا وقالوا نعمة من الله سيئمت اليها نؤدي له مزيد الشكر عليها ، ثم انقبضت نفوسهم عند ما سمعوا من شروط تلك المدرسة أن تكون دروسها باللغة الفرنسية خاصة ولا يقل فيها إلا من كانت عنده مبادئ الرياضيات والطبيعيات وله تقدم في اللغة الفرنسية وقالوا ياسبحان الله إن المدارس الليلية في البلاد المتقدمة تقرأ فيها العلوم الابتدائية باللغة العامية مع التزام التسهيل في التعبير والتحاشي عن ذكر الالفاظ الاصطلاحية الغريبة أو العسرة التهجيم ، وذلك لفائدتين (الاولى) أن كل من يعرف القراءة والكتابة يمكنه أن يفهم مبادئ العلوم بهذه الطريقة ، فلا تقتر

همة الذين لم ينالوا حظ التعليم في صغرهم ، وينتشر العلم حقيقة إذ لا يكون في فيه صعوبة ، ولا يمنع الشخص عن أشغاله النهارية (والثانية) أنه اذا كان التعليم على هذا النمط تكون المسائل العلمية لقربها الى الفهم كحدوثات تتسلى بها النفس ، بل الذي من ذلك إذ لا يدخل الرجل محفل العلم الا ويخرج بنور جديد ، فتجذب نفوس الناس الى مستملحات العلم ، فبدل صرف أوقات ليالهم الطويل في مضاجعهم يتقبلون من جانب الى جانب ، أو في بيوتهم بمحادثات لا طائل تحتها ، أو في أماكن أخرى نتحاشى عن ذكرها ، يهرعون الى معهد العلم ليغذوا عقولهم ويروحوا قلوبهم ، ولم نسمع أن أمة متمدنة افتتحت مدرسة عالية وجعاتها ليلية ، فلم عدل عن هذه الطريقة الجليلة في بلادنا واخترعت طريقة جديدة ، وهو جعل التدريس في المدرسة الليلية بلسان أجنبي عن لسان البلد بالكلية لا يفهمه المتقن منهم ، ولا العامي ، والعلوم التي يقرأ بها عالية لا ابتدائية ، حتى يحرم الناس الذين هم أحوج الى التعليم وأولى به ، وهم الخدمة وأرباب الكسب المحبون لنيل فضيلة العلم ولا يستطيعون ، ويتلهفون على ذلك ولا يجدون ، وهو مما يوجب الاسف خصوصاً وقد تواتر على الألسنة أن غالب من قبلوا فيها أجانب (وإن كان ذلك غير صحيح ، فعندي علم اليقين بأن الأكثر وطنيون ، لكن من الذين تعلموا في مدارس الفرير ونحوها) فهل يقال بأننا تقدمنا عن تلك الممالك فترقينا حتى صارت مدارسنا الليلية أعلى من مدارسهم ، أو أيقنا بأن العامة منا والكتاب لا يستفيدون من ذلك شيئاً ، أو لاحظت نظارة المعارف أنها بذلك تستحصل في زمن قريب على أساتذة تجعلهم معلمين في مدارسها ومكاتبها . فان كان هذا الوجه الاخير قلنا أنها ستجعل (مدرسة الخوجات) نهراً فلها أن تزيد في عدد تلامذتها ما تشاء لهذا الغرض على أنه لو سلك في المدرسة الليلية مسلك البلاد المتمدنة لتأتى لنا الوصول الى بعض هذا المقصد ، فكثير من أهل العلم كان يود أن ينتظم في تلك المدرسة ليتعلم العلوم التي فاته تحصيلها ، لكن منعه كون التدريس بلغة أجنبية وكون الدروس فوق البدايات ، وإن كان الثاني قلنا إن الاستعداد والشوق موجودان في كثير من الناس ولهم رغبة تامة في التعليم ، فكيف يصح إساءة الظن بجميع شباننا الى

هذا الحد ، وإن كان الاول قلنا الاولى أن لا نتكلم
 وإننا وحق الحق لنى حاجة كلية الى أن يكون التعليم الليلى عندنا مستديماً آخذاً من
 البداية سهل الوسائل ليسر الاسباب بلغة بلادنا عامة أو خاصة حتى تنقطع حجة الجاهل
 ويبتل برهان الكسل ، وتنبعث الغيرة فى الكل اذا أقبل البعض على التعليم ، ويقع
 التنافس فى الفضائل ، ويجد الشبان الذين استرسلوا مع هوى الشباب شغلا ،
 وتوبخهم الذمة ، وتلغهم ضائرتهم اذا تركوه ، إذ لا يجدون لهم علة يتعللون بها
 إذ ، ذاك انه لا بد أن يكون هذا التعليم الليلى اجباريا عاما لكل مستخدم وقارى .
 لم يتعلم تمام ما يجب عليه فى وظائفه إلا الضرورة تمنعه من مرض ونحوه خصوصا
 بعد ما أعلنت الحكومة أن جميع المستخدمين فى الإيرادات أو التحصيلات لا بد
 أن يكونوا من الدراية بحيث يقدرّون على تحقيق القضايا وحل المشكلات
 بأنفسهم فى مواد البناءات والحقوق والحسابات ونحو ذلك . وهذا لا ريب يستدعى
 أن يكون جميعهم على بصيرة تامة ، وذوي عقل وافر ، وهذا لا يمكن إلا بعد
 تحلية العقل بالعلوم الابتدائية التى لا بد منها لكل من يريد الاستقلال فى سيره
 هذا حاصل أقوال الناس فى شأن المدرسة الليلية التى افتتحها نظارة المعارف
 قريبا ، وربما كانت تلك الأقوال صحيحة ، لكن إن صح ما قالوا فعليهم بتقديم
 آرائهم لسعادة ناظر المعارف ليتروى فيها ، ثم يجيبهم الى مطلوبهم إن رآه
 موافقا وخاليا من الموانع والمحظورات ، والا أقنعهم بأن تعميم النفع غير ممكن
 حينئذ يعلمون الحق ، ويربحون أنفسهم من الجدل ، ولهم أقوال فى مواضع شتى
 بمنعنا من ذكرها فى هذا العدد ضيق المقام ، وربما نذكرها غداً إن شاء الله

المقالة السابعة

المعارف (*)

(٢)

مقالات الناس فيها وأفكارهم العمومية متنوعة ذكرنا بعضها في عدد سابق وتذكر بعضا منها في هذا العدد حفظا لمتفرقات الاقوال لعل شيئا منها يقارن صحة فيصادف قبولا ، وليكون ذلك دليلا على تنبيه الافكار والتفات اذهان الناس الى النافع الحقيقي قالوا

نشرت نظارة المعارف الى جميع فروعها منشورا مبسوطا العبارة مشحونا بالمعاني الرفيعة ، قاضيا على نظار المدارس والمكاتب ومعلميها بوجوب التفاهم لوظائفهم وقيامهم بواجباتهم ، مبينا لهم أن الامتحانات في العام الماضي على الطريقة الجديدة ، قد أظهرت أن في بعض المدارس قصورا في التعليم وفي بعضها كلالا وزيادة . فاستوجب موظفو الاولى التوبيخ والانذار ، وموظفو الثانية الشكر والثناء ، فعلى الجميع من الآن فصاعدا بذل الجهد في ارتقاء درجة التعليم بحيث تكون الاستفادة تعقلا وتبصرأ ، لاحفظا وقلقة ، وبين في هذا المنشور كيفية التعليم وطرق التفهيم ، وأندر من لم يحذ حذوها بوقوعه تحت مسؤولية الديوان

فانشرت صدور العامة والخاصة بهذه التنبيهات الاكيدة ، والتعليمات المفيدة ، وقالوا لو عمل بهذا المنشور لاطمأنت نفوس الكافة الى تربية أبنائهم في مدارسنا التي يصرف بها آلاف الجنيهات من خزينة الحكومة ليتربى بها على توالي الازمنة رجال يكونون فخر البلاد وحماة زمارها ، قد كانت النفوس في ريب من نجاح التعليم فيها قبل اليوم ، ولذلك كانت مدارس الفريرو والانكليز والامريكان والبروسيان وغيرها عامرة بأبناء الاهالي مسلمين ومسيحيين ، ومدارسنا ليس فيها منهم العدد اللائق بشأنها ، ولم يكن ذلك الا لما أظهرته

نشرت في العدد ٩٩٣ الصادر في ٢١ المحرم سنة ١٢٩٨ - ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٠

(١٠ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

التجربة من نجاح التعليم في تلك وقصوره في هذه مع مراعاة الآداب التي يفرح بها الولدان والاقارب في المدارس الاجنبية ، وإغفالها في مدارسنا لكن (الحمد لله) تلك أيام قد خلت . فان التفات سعادة ناظر المعارف الى كيفية التعليم وتشديده في أن تكون على وجهها الحقيقي مما يفيد الآمال ويقويها

ألا أنهم يتساءلون فيما بينهم بسؤالات كثيرة منها قولهم : هل حصلت المكافأة الحقيقية لمن أظهر الامتحان اجتهادهم من النظار والمدرسين ، وهي مكافأة الدينار والدرهم . فان مكافأة الشكر والثناء ، وإن كانت واجبة وهي من أجل المكافأة وأجلها ، ولها تأثير في جلب الرغبات وتقوية العزائم ، لكنها لا تلتصق بالقلب التصاق النقود والمساعدة المعاشية . فان من ضاق عليه العيش وكانت حاجاته أكثر من إيراده لا تنفك عنه الوسارس ، ولا يبارح ذهنه الاضطراب ، وتغلب منفصات الحاجة وآلامها على الفرح الذي أنعشه عند ما سمع كلمة الثناء عليه . ثم ذلك ينقص من اجتهاده ، ويحط من همته ، بل ربما أورث خلافا في كيفية تأديته لوظائفه ، خصوصاً إذا رأى غير المجتهد مماثلاً له في الرزق ، وأوفر راتباً منه . ولقد صدق القائل : النقص من الرواتب تقص من الاعمال ، لكن المنشور لم يذكر فيه حصول تلك المكافأة ، مع أن الموضع أن ميزانية المدارس كانت قابلة لذلك ، ونظارة المالية تسمح باستغراقها ، بل تود لو يزداد فيها

وقولهم : هل جميع من نشر عليهم هذا المنشور الجليل يدركون الغرض منه حق الإدراك ، وإذا أدركوه فهل يوجد عندهم من القوة العملية والتدريب على الطرق الجديدة ما يؤهلهم لاجرائه والسير بمقتضاه ؟ بحيث تحصل الفائدة منه بمجرد نشره ، أو أن الكثير منهم محتاج لأن يتعلم تلك الطرق ويتمرن عليها ، والبعض ربما لا يمكنه ذلك ، حتى ولا التعاليم . وهل امتحن المعلمون والنظار كما امتحنت التلامذة ؟ وعلم المستعد منهم وغير المستعد بوجه الدقة والضبط ، حتى إذا وجد منهم من لا يليق لوظيفة أنزل عنها ورزقه على الله ، ومن يليق لأعلى منها رفع إلى ما يستحق لتوجد الرغبة الحقيقية أولاً ، ونخشي عواقب الجهل والاهمال ، ويتوفر على المعارف زمان تجرب فيه المعلمين مرة أخرى ، ويكون

كله خساراً على التلامذة المساكين . ولا تقصد بالامتحان إلا السؤال في الفن الذي بعده ، فاذا تبين أنه يمكنه الاحاطة بمسائله ، ولو بمراجعة الكتب على وجه السهولة عد عارفاً ، ثم طلب الالتقاء والتدريس وكيفية التفهيم ، فرب عالم لا يستطيع البيان

يقول الناس : إنه يوجد بين المعلمين أشخاص فضلاء نجباء ، عارفين بفنونهم ، قادرين على تأديتها بالوجه اللائق ، لكن يوجد بينهم آخرون ألقوا ببعض الطرق العتيقة ، وتعودوا عليها ، فلا يستطيعون بعد طول الزمن التحول عنها ، وإن كانوا علماء بفنونهم ، والبعض منهم يستطيع تأدية القواعد علماً ، ويعجز على تمرين المتعلم عليها عملاً ، والبعض يوجد خالياً من الأمرين ، يهزأ به التلامذة ، ولا يوقرون أستاذيته ، كل ذلك يزعمون مشاهدته بالعيان ،

ويوجد بين المعلمين صنف من الزهباء لا يحب أن يجهد نفسه في التعليم ، ويكتفي في درسه بحكاية بعض ما وقع له في يومه أو ليلته ثم ينصرف ، فهل تعينت هذه الاوصاف في أربابها ، واعترف للفاضل بفضله ، وعرف الناقص بمتدار نفسه ، وأنزل كل منزلته ؟ هل اختارت نظارة المعارف لاجراء هذا المنشور أشخاصاً من العرفاء كل في فن مخصوص ليطوفوا على المكاتب الابتدائية والمدارس الخصوصية . ولا يكون لهم عمل سوى هذا ليقفوا على أحوال تلامذة جميع المدارس في كل أسبوع أو خمسة عشر يوماً مثلاً ، ويقدموا جميع ما يرونه من الملاحظات على وجه الدقة التامة ، فإن رأوا قصصاً عرفوا سببه ، ومن أي الجهات منبعه . فإن كان اعوجاجاً في طريق التعليم أرشدوا المعلم بأنفسهم ، ويبدوا له الطريق مرة بعد أخرى ، فإن اعتدل والا اعتزل ، ويكون أولئك الأشخاص تحت مسئولية شديدة اذا ظهر فيما بعد نقص ، ولم يكونوا فيها عليه ، فإن ذلك يبعث الغيرة وفضط الاجتهاد في المعلمين وغيرهم ، وتكون حركة المدارس في خط مستقيم يوصل الى المقصود بأقرب الطرق المؤدية اليه ، ويسهل تدارك الخلل اذا ظهر وازالة النقص اذا طرأ

هل دقت نظارة المعارف في معرفة أخلاق النظار والاساتذة الذين

وضع الاطفال في كفالتهم ؟ يدبرون أمورهم، ويرشدونهم الى كلهم ، وفصلت بين صاحب الاخلاق الفاضلة ، والافكار المستقيمة ، والعفة والنزاهة ، والغيرة على نفع من وكل أمرهم اليه ، وأداء ماوجب في ذمته ، حتى يكون حاله وكاله درساً آخر ، يعطى للتلامذة في كل يوم ، فتنتطب هذه السمكالات في نفوسهم بأشد من انطباع صور المعلومات في عقولهم ، وهو المعنى المقصود من التربية ، وبين من لاخلق له ، بأن يكون أحق أو دنيئاً أو عديم الغيرة والقيمة ، أو رديء الافكار ، ونحو ذلك من الذين تكون معاشره التلامذة لهم موجبة لتلوئهم بالذائل ، وتكون كلماته في الدرس ممزوجة بسم الفساد ، فتدبت أذهانهم ، وتكون عاقبة أمرهم ، إما جهلاً وقد ضاع الزمان وولى الشباب ، وإما علماء صناعياً مصحوباً بشرور تعود على صاحبها بالشقاء ، وباليتمها تكون قاصرة عليه ، ولكن تعدى الى غيره بحكم العادة المستمرة ، وعند الفصل بين العربيةين بارشاد الرقباء النباه ، ذوي الفراسة والخبرة بأحوال العالم وأخلاقهم ، والامانة في الخبر ، والصدق فيه ، يميز الخبيث من الطيب ، ويبحث عن المستقيمين على قدر الطاقة في أنحاء البلاد ، لتفوض اليهم تربية الاطفال والشبان ، ليكونوا رجالاً ينفهون أنفسهم وحكومتهم التي تصرف عايتهم المصاريف الكثيرة ، أملاً بمحصلها على رجال تقيمهم في وظائفها السكثيرة ، يؤدون واجباتها بالضبط والامانة

يقولون : إنه لاشك في كون الكتب الموجودة في العلوم العربية مثلاً ليست أساليبها سهلة المأخذ على التلامذة ، ولا موافقة لطريقة التعليم في المدارس من اشتغال التلميذ بفنون كثيرة في زمان واحد ، وإنه يلزم ايجاد طريقة جديدة في التأليف ، وازالة كثير من الصعوبات التي عاقت كثيراً من الناس عن التعليم . فهل حصلت العناية بتصنيف تلك الكتب ؟ وإن حصلت فيمن نيط تصنيفها ، وهلا شكل مجلس للنظر في مثل تلك التسهيلات ، ودعي اليه أعضاء ممن لهم سعة في الفكر والاطلاع على الطرق القديمة والجديدة ، ويكون لهذا المجلس حق في

تعيين الكتب التي ينبغي تدريسها في أي فنون ، حتى يتأتى إجراء ذلك المنشور السابق على وجه الكمال

من المحقق أن سعادة عبد الله باشا فكري وكيل عموم المدارس في سفره الى الجهات البحرية قد رأى أموراً كثيرة تستحق الالتفات ، وطلب من نظارة المعارف أشياء مهمة لا بد من تقريرها ، والاسعاف بها ، فهل أجيب طلبه؟ وحصلت المذاكرة في تلك الآراء القويمة التي أبداهها ، حتى يفرغ من تنفيذ مقتضاها الى البحث في غيرها من الجهات القبلية

هذه جملة من سؤالاتهم سردناها للاحاطة بها ، وانا نجيب عن ذلك بأن نظارة المعارف هي أعلم بما يجب عليها من جميع ذلك ، وأنها لا تقفل شيئاً مما تعلمه نافعاً ومفيداً . ومن اليقين أنها لا تشرع في شيء ثم تتركه يتم بنفسه بدون مراقبة . فالبتة قد أعدت لمقاصدها وسائل . إذ تعلم أن زماننا هذا لا يرى فيه الا الأثر الظاهر ، ولا يؤثر عن رجاله الا الأعمال الحقيقية . وأما صدور الأوامر والنطق بالألفاظ العالية بدون ترتيب فائدة عليها . فقد مضى وقته ، وأن الآمال متعلقة برجال تلك النظارة العرفاء الاجلاء ، كسعادة ناظرها الاكرم المريض على تقدم العلم ، والغيور الرفيع المهمة سعادة وكيلها عبد الله باشا فكري ، والبصير الماذق وكيل المكاتب الاهلية حضرة علي بك فهمي ، وسنرى من أعمالهم ما يرفع جميع هذه الأوهام ، ويفتح للمعارف في عصرنا هذا تاريخاً جديداً ، فهذه هي الفرصة التي نرى فيها الحكومة العالية مساعدة على نشر المعارف وتأبيدها ، فعلياً أن لا نضيعها

المقالة الثامنة

المعارف (١)

(٣)

من المحقق ان نظارة المعارف قد اهتمت وعزمت على فتح مدرسة ليلية تقرأ فيها العلوم الابتدائية لتكون عاملاً لنفع شاملة الفوائد ، يذهب اليها الرجال الذين شغلهم الكسب والضرورات المعاشية نهراً عن التعاليم مع رغبتهم فيه ، وميلهم اليه ، ولهم من أوقات الليل الطويل فرصة لا يضيعونها إذا افتح مثل هذه المدرسة إلا في تعلم ما ينفعهم ويزيدهم نوراً وبصيرة ، وسيكون التدريس فيها باللغة العربية التي هي لغة بلادنا ، ويقرأ فيها درس باللغة الفرنسية يكون قاصراً على تعليم اللغة لا غير ، يبتدأ فيه من الهجاء الفرنسي إلى نهاية ما يلزم ان يتعلم في تلك اللغة . أما دروس اللغة العربية فيها ما هو خاص بتعليم قواعد اللغة ، ومنها ما يكون في بعض علوم أخر نافعة من آداب وتاريخ أحوال الأمم ، وتاريخ طبيعي ، وبعض مبادي الرياضة (فيما سمعت) بحيث لا تنقص عن تلك المدرسة التي سبق منا الكلام عليها المسماة بمدرسة الخوجات الليلية في جوهر ما يقرأ بها وان كانت تختلف عنها بأن هذه تكون لغة التعليم فيها وطنية وتلك اجنبية ، وهذه آخذة من البدايات وتلك آتية من النهايات ، وهذه يكون معظم نفعها بل كله للوطنيين ، وتلك لا تنقسم فيها ذلك إلا يبرهان ، وهذه الاختلافات وان كانت عظيمة تلكنها لا تنضر في المقصود

ومما ينبغي ذكره انه ثبت في أذهان بعض الناس ان مجرد تعلم اللغات الاجنبية يعد فضيلة يسعى اليها ، ويهتم بشأنها ، مع أن اللغة في ذاتها لا فضيلة فيها ، ولا يصح أن تجعل غاية تقصد ، وإنما هي وسيلة لما احتوت عليه تلك اللغة من العلوم والآداب والافكار التي ربما لا تكون مبسوسة في اللغة الوطنية كما هي واضحة في اللغة الاجنبية ، فطالب تعلم اللغة الفرنسية مثلاً إذا لم تكن عنده مبادي علوم

وملكة إدراك في بعض الفنون التي يطلب التفنن فيها لا يعد مصيباً في طلبه إلا إذا طلب معها تعلم تلك المبادئ حتى أنه عند بلوغه إلى حد الاقتدار على فهم اللغة يتيسر له الوصول إلى الفائدة المقصودة فلا يصح بناء على ذلك أن يكون التعلم والتعليم الليلين قاصرين على اللغات فقط ، بل يلزم أن يكون معها بعض مبادئ العلوم كما عزمت عليه نظارة المعارف الجليلة التي لا يزال نرى مساعيها في تقديم أبناء البلاد وبث روح العلم فيهم تأتي من النجاح بما يخلد لسعادة ناظرها ووكيلها طيب الذكر وإنشاء

وبانتاج هذه المدرسة يفهم المجادلون ، وتبطل حجة اللائمين ، الذين أنصبوا إلى البحث في المدرسة الليلية وفوائدها ، وما يعود على البلاد منها ، ونشرنا وجوه أنظارهم فيها في بعض أعدادنا السابقة ، فكان هذا العمل من نظارة المعارف برهاناً فعلياً لاجدياً يقنع الناظرين ، ويفهم المحاصرين ، ويذهب بتعللات المتذللين ، ومطالباً لأصحاب تلك الأفكار بالبرهان الفعلي أيضاً وهو توجه المهم إلى التعلم ، وإفراغ الجهد في تحصيل ثمرات العلم ، حتى تظهر فوائد هذه الأثر ، وأنا على يقين من أن المستخدمين وغيرهم من ذوي الكسب الذين يعرفون قدر المعارف ويقدرونها حق قدرها يحییون نظارة المعارف إلى طلبها كما أجابتهم إلى طلبهم ، ويكون لجريدة الوقائع المصرية شرف الإخبار بخير الأخبار ، وأجر التنبيه ، على الأمر وما فيه

المقالة التاسعة

التربية في المدارس والمكاتب المبرية *

من المعلوم البين ان الغرض الحقيقي من تأسيس المدارس والمكاتب والعناية بشأن التعليم فيها إنما هو تربية العقول والنفوس وإيصالها إلى حد يمكن المربي من نيل كمال السعادة أو معظمها مادام حياً وبعد موته ، ومرادنا من تربية العقول إخراجها من حيز البساطة الصرفة والخلو من المعلومات ، وإبعادها عن التصورات والاعتقادات الرديئة ، إلى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة ، تحدث لها ملكة التمييز بين الخير والشر والنفع والضرر ، ويكون النظر بذلك سحياً لما أي يكون النور العقل نفوذ تام يفصل بين طبييات الأشياء وخبائثها ، وهذا هو الركن الأول في المدارس والمكاتب ، ومرادنا من تربية النفوس إيجاد الملكات والصفات الفاضلة في النفس وترويضها عليها ، وإبعادها عن الصفات الرذيلة ، حتى يكون المتحلي بها ناشئاً على ما يوافق قواعد الاجتماع البشري ولوازمه ومتعوداً عليه ، وهذا هو الركن الثاني ، وإذا فقد أحد الركنين بطلت الفائدة المطلوبة ، أو قلت جداً ، وانترك البرهان على ذلك إلى علم كل إنسان به ، فإذا اجتمع للشخص هذان الأمران كان إنساناً له أن يطلب ما ينفعه ، ويبعد عما يضره ، ويدخل في أي أبواب الكسب في الدنيا والآخرة إذا رآه موافقاً لاستعداده وفي قوته التهوض به ، فيختار من العلوم والصنائع ما يشاء ويبرع فيه بكل رغبة وغيره حتى يصل إلى ما تمكنه القوة منه ، ولا يتأثر منه الإهمال فيه لوجود الباعث من ذاته ، وهو غيرته وتصوره للأفانية الذي لا يفارقه

وأما إن كان الشخص ضعيف الإدراك ، أو فاسد الأخلاق ، وإن كان عالماً بجميع علوم الدنيا ، فلا ريب أن يكون شقياً في نفسه ، وسبباً في الشقاء لغيره ، ولا تقني عنه المعلومات شيئاً بل ذهب بعض الحكماء إلى أنه لا ينال العلم من أي نوع كان حقيقة

(*) نشرت في العدد ٩٥٧ من الوقائع الصادر في ٣ ذي الحجة سنة ١٢٩٧ - ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٨٠

الابعد تحلي النفس بالصفات الجميلة التي منها بل أعظمها حب الكمال الذي هو الداعي الحقيقي الى طلب العلم والبراعة فيه وان أول مبدأ يجب أن يكون أساساً لتحلية العقول بالمعلومات اللطيفة ، والنفوس بالصفات الكريمة ، هو التمايم الدينية الصحيحة أعني ترغيب القلوب بما يرضي الخالق وإرهاها بما يغضبه ، ثم يؤتى بالرغبة التي يراد حث النفس عليها على حقيقتها المقصودة للشارع بحيث لا تخرج عن مكارم الاخلاق التي حصر الشارع علة بعثته فيها كما قال عليه الصلاة والسلام « إنما بعثت لأتم مكارم الاخلاق » ويؤتى بالأمر المنفور منه كذلك على وجهه ، ثم يقال ان ذاك يرضي الله وهذا يغضبه ، وذلك لا يأتى نجاحه إلا بعد أن تكون القلوب الساذجة قد ملئت خشية من الله وتعظيماً لجلاله ، وتبجيلاً لمقام ألوهيته السامي ، بحيث لو ذكر اسم الله عند شيء ، خفق قلبه السامع ، وأضربت جوارحه خشية منه ورهبة فيكون ذلك سبباً لاقدامه على ما يرضيه من الفضائل ، ونفرة عما يغضبه من الرذائل ، فهذا هو أسهل الطرق وأقربها للتربية والتهديب ، فان الطفل في صغره ، بل والشاب في أول بلوغه ، يعسر عليه لقلة التجربة ان يفهم مضار الاشياء ومنافعها من حيث هي بطريق العقل الصرف خصوصاً مما يتعلق بالصفات النفسانية التي يكثر فيها التضارب يستحسن منها عند شخص ما يستقبح عند آخر وبالعكس ، وايداع مثل ذلك في القلوب إنما يكون بتعويد الأبدان العبادة ، وتذكر جلال الله بالركوع والسجود ومعرفة العقائد الدينية السليمة ، فهي الاساس لكل ذلك ، وطالما تشوقت النفوس لان تكون التربية في المدارس على هذا النمط المفيد الذي عول عليه جميع الامم المتقدمة في مبادئ تعاليمهم فان من تتبع قوانين التعليم في الممالك الاوربانية رآها بأسرها موجبة للابتداء بالتعاليم الدينية والاستمرار عليها إلى ما يزيد عن ست سنوات تقريباً ، ولكن لم تسمح الحوادث السابقة بنيل هذا الغرض لأسباب نضرب عن ذكرها صفحاً والآن رأينا نظارة المعارف العمومية وجهت عنايتها إلى ذلك ، وطلبت تجويده والاهتمام بشأنهم المعلمين والنظار ، وان لا يهملوا فيه كما أهملوا في سابق الامر ، وشددت عليهم في ذلك كل التشديد ، حتى أوجبت على الاساتذة ان يقوموا برسوم العبادة حق القيام أمام التلامذة ، ويدعوهم لذلك ان كانوا مسلمين

وأما المسيحيون وغيرهم من ذوي الأديان الأخر فلا يكفون بذلك أصلاً ، بل هم على حريتهم ، فلها الشكر على هذا المقصد الحسن ، غير أنه يلزم أن لا تكون هذه العبادات والتعليمات الدينية صوراً يابسة لا روح فيها كعبادة الجاهلين ، بل يجب أن تكون معنوية حقيقية تحرق حجاب الغفلة ، وتتمكن في باطن الإدراك ، وتبعث في الأشخاص روحاً من الحياة يشهد أثره الناس أجمعون ، وعلى نظارة المعارف أن تلاحظ التعليمات الدينية التي يلقيها المعلمون حتى لا تكون محشوة بأنواع من التحريف المضاد لحقيقة الدين كما جرت به عادة كثير من المعلمين الذين يظهرون بصورة العلماء ، وإن كانوا في الحقيقة من أرداء الجهلاء ، فإن ذلك يخل بالمقصود من التربية ، ويضر بتقدم التلميذ في كثير من الفنون التي يلزمه تحصيلها (وسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى عند الاقتضاء) وهذه هي صورة منشور المعارف إلى جميع نظار المدارس والمكاتب

منشور نظارة المعارف

« قد علم من جداول الامتحان العمومي المقدمة الى ديوان المعارف وما معها من النتائج والملاحظات المعروضة من طرف حضرات رؤساء الامتحان وأعضائه أن بعض المكاتب لم يحصل فيها الاعتناء بتعليم قواعد الاسلام المدرجة في المسامرة الخامسة والعشرين من كتاب التمرين حسب المقرر في الصحيفة الثالثة من ترتيب دروس المكاتب الأهلية والمدارس الملكية الابتدائية ، مع أن معرفة قواعد الاسلام بالنسبة لأطفال المسلمين من أهم ما يلزم الاعتناء به ، ولا يجوز اغفاله في حال من الأحوال مطلقاً ، فيلزم تدريسها للتلامذة بمعرفة (خوجات) القرآن مع حسن تفهيمها وتعليمها لهم بحيث يحفظونها عن ظهر القلب ، ويفهمون معناها فهم جيداً ، ويعرفون كيفية أدائها على أكمل وجه في الفرقة المقرر عليها قراءتها في الترتيب المذكور ، وهي الفرقة الثالثة من كل مكتب ، ومذاكرتها لهم كل سنة في كل فرقة يترقون إليها حتي لا ينسوها ، وإذا كانت تلامذة فرقة من الفرق المتقدمة على الفرقة الثالثة لم يسبق لها قراءتها في تلك الفرقة يحدد لهم تدريسها وتعليمها كما ذكر في الفرقة

التي هم بها بمعرفة (خوجة) النحو ، إذ من بعد الآن لا يرخص بتلقي التلامذة من فرقة الى أعلا منها من ابتداء الفرقة الثالثة الى أعلا فرقة الابداء لتحقيق بالامتحان من معرفتهم للقواعد المذكورة حفظاً وفهماً وعملاً ، ويكون من أجل بشيء من ذلك من الخوجات المنوطين به تحت المسؤولية الشديدة ، ويشترك معه في هذه المسؤولية ناظر المكتب أو المدرسة اذ يتحتم عليه رعاية القيام بما ذكر ، ويجعل ذلك (خانة) مخصوصة في جداول الامتحان العمومي والامتحانات التي تحصل في أثناء السنة ويعطى فيها (غرفة) كسائر الدروس ، وكل هذا بالنسبة لأطفال المسلمين خاصة ، وعلى خوجات القرآن الشريف والنحو حث التلامذة على الصلاة من السن الذين يؤمرون بها فيه شرعاً مع دوام وعظهم في ذلك وترغيبهم فيه ، وتحريضهم عليه ونهيهم وزجرهم عن تركها والتكاسل فيها ، وعلى ناظر المكتب رعاية ذلك وترتيب أوقات الدروس على وجه يوجد فيه وقت لأداء الصلاة مع المثل منه التلامذة عليها وحملهم على أدائها جماعة مأمومين بأحد خوجات القرآن الشريف أو النحو في المحل المعد للصلاة بالمكتب أو المدرسة ان كان موجوداً ، فان لم يكن موجوداً ففي مسجد قريب ، فان لم يكن بالمكتب أو المدرسة محل للصلاة ولم يوجد مسجد قريب فعلى الناظر المبادرة بالعرض الى الديوان عن تحديد محل للصلاة مع ارسال رسمه ومقاييسه وتكاليفه ، ومع أداء الصلاة في موضع يستحسن لذلك ولو في حوش المكتب أو المدرسة مؤقتاً الى أن يتم إنشاء المحل المطلوب . واذا لزم تدارك حصيرة للصلاة أو أكثر على حسب عدد التلامذة وسعة المحل يباذر كذلك بالعرض للديوان عن اللازم مع بيان اقياس المطلوب ، وقد كتب بما ذكر الى النظار عموماً ، وهذا لحضرتكم للاجراء على الوجه المشروح بإفادة الاهتمام والحذر من التهاون فيه بعد الآن .

المقالة العاشرة

وخامة الرشوة (*)

ورد من مديرية الجيزة في ١٩ الحجة سنة ٩٧
 «قبض على أشخاص من ناحية كومبره معهم أربع زكايب ملح براني بها
 ٥٠٧ أقة و ٢٤٠ درهما بواسطة مندوبي المديرية بارشاد متعهد المصلح بناحية
 بولاق الدكرور ، فدفعوا للمتعهد والمندوبين ٣٠٠ قرشاً وكسوراً على وجه
 الرشوة ، فورد المبلغ للخزينة ، وهاهو اللازم جار لا تمام التحقيق ومحاكمة
 الاشخاص ومبيع الحمبر التي كانت حاملة للملح لتورد أثمانها للميري حسب
 المنشورات في هذا الشأن » اهـ

قد تقرر في عقول جهلة العوام أن الرشوة هي السبب الوحيد للخلاص من
 أية جريمة يرتكبوها ، فيقدم الواحد منهم على ما يخالف الاصول المتبعة ، أو يخل
 بالامن والسكينة ، أو يهتك حرمة ا-قوق ، اتكلا على ما يضره في نفسه من
 أن الرشوة كافية للنجاة عن العقاب ، أو الحصول على غرضه بأي وجه كان ،
 وقد غلب على عقول العامة أن كل صاحب وظيفة ميرية أو غير ميرية لا يصح أن
 يقضي أمراً في مصلحته لاحد إلا بالرشوة ، ولذلك يرون أنه من الوجوب على
 من التمس إنجاز أى عمل يتعلق بمصلحته أن يقدم الى صاحب الوظيفة رشوة
 تبعثه على مباشرة ذلك العمل غير ملتفت لما تطالبه به واجبات المصلحة التي
 انطبقت بذمته على أجر يتقاضاه في رأس كل شهر ، ولذلك صار أمر الرشوة
 بينهم من قبيل العوائد التي لا تشمئز منها طباعهم ، ولا يستنكرها أحد منهم ،
 بل كادت أن تكون من الوسائل المحمودة لنجاح المقاصد ودفع الغوائل ، ومن
 الناس من تكون حقوقه بيذة جليلة الثبوت خالية عن عناد خصم أو تدليس محتمل

ولا يكتفي بذلك في اقتضاها ، فيسارع الى الرشوة يدفعها لمن يرجع اليه تخلص حقه غنيمة باردة ، وقد ينهره الحاكم العفيف ولا يرضى بقبولها وهو من سفهه يتوسل ويتضرع اليه في قبولها منه لظنه أن لانجاح بدونها ، وليس ذلك الا لرسوخ تلك العادة الشنيعة المضرّة بالدنيا والدين في طباع أدنياء المهم تقر بالذوي المناصب ، وتذلل أخيبثاً لايجوزها الشرع ولا قانون البلاد ، وتنفر منه نفس كل ذي إحساس انساني ، مع أن حفظ الاموال من الضياع فيما لا ينبغي ، وصرفها في وجوها الضرورية كالمطالب الميرية والنفقات اللازمة ، أليق بفعل العقلاء ، وأصون لحرّمات القانون ، وأبعد في طريق السلامة من الوقوع تحت أعباء المعاقبة والتهلكة ، وأحسن طريقة لردع أرباب الشره والخسة ، إذ لو كن كل ذي حق عن أداء الرشوة واعتصم بالطريق الاقوم ، وخضع الاحكام الحقة لتحصل على حتمه بدون أن يرى من خصمه أدنى محاولة أو مراوغة الا بالحق ، وبدون أن يقع في عناد من بيده زمام الحكم وتبسطه طمعاً في ما يأخذه منه .

على ان أي متوظف كان وإن بلغ ما بلغ من الزهد والعفة ، فلا أظنه يتمتع عن تناول ما يقدمه الغير اليه بالرغبة والرجاء خصوصاً اذا أكثر التردد مع ظهور الحق له . فاذا مديده اليها تعود شيئاً فشيئاً حتى يرتشي في الحق والباطل ، وبالرغبة بدل الرغبة ، فالعلة الأولى في فساد أخلاق بعض المتوظفين هو رغبة ذوي اليسار في ارضائهم بدون تأمل ، فيعودونهم على ذلك وحينئذ فما يلحق الرائي من اللوم أشد مما يلحق المرتشي ، وإن كان كل منهما مجرماً لأن الاول ضيع ماله واسترسل مع الجبن وضعيف الوهم في مقام يستوي فيه احكام والمحكوم عليه أمام القانون ، وأمال المرتشي لأخذ الرشوة ، وقوى طعمه ، ودله على الشره ، وكلف نفسه بما لم يكلف به .

ومن غوائل الرشوة مآرائها في الزمان السابق يحصل كثيراً بين الخصماء حيث يبذل الواحد منهم ما يدخل تحت طاقته من الاموال رشوة بالغة ما بلغت في سبيل إعانت خصمه والحصول على غرضه . وإن زادت النفقات عن الحق الواقع فيه الخصام أضعافاً مضاعفة ، ومثل ذلك كثير لا يمكن الشرح أن يأتي على

بعضه ، وهذه الحادثة المتقدمة تشهد بالتقريب لما قلناه . فان مادفعه الاشخاص المقبوض عليهم من الرشوة يقرب من ثمن المملح الذي كان معهم ، فلو أنهم اشتروه على الطريقة المألوفة لما وقعوا في الخسائر الجمة وأثقال المحاكمة ، ولكن ذلك أقرب الى وفرة الكسب ، وأسلم للمال والنفس ، ولكنهم ظنوا أن الزمن الحاضر هو السالف ، والحكومة هي هي . فسهل عليهم أن يتعدوا الحدود وظانهم أن الرشوة تقيهم من عواقب أعمالهم ، وقد خاب ظنهم بتيقظ المتعهد والمندوبين وأمانتهم ومن العجب بل مما يتأسف عليه غاية الأسف أن الاهالي مع علمهم بأن الحكومة تنادي بمنشوراتها وأوامرها واجرا آتيا الفعلية بأن لا يستقر في وظائفها سوى ذوي الاستقامة والعفاف ، وأنها تبادر الى عقاب المرتكبين ولو بالمظنة ، نرى البعض منهم بل الكثير لا يزال يطلب حقوقه بتلك الطريقة الفظيعة السلوك التي سكنت في أفئدة الناس بطريق السريان من الازمنة السالفة (وصعب على الانسان ما لم يعود) أليس كان من الواجب على الاهالي أن ينتهزوا هذه الفرصة (فرصة العدل وحفظ القانون) ويقوموا في طلب حقوقهم بمقتضى القوانين والمنشورات التي سهر في انشائها وتقيحها أولو الامر طالبا للعدل ورغبة في الانصاف ، ويتفق أهالي كل جهة على أن لا يدفعوا لذي وظيفة شيئا من الاشياء ، بل يسلمون أمورهم الى القوانين تحكم فيهم بما انطوت عليه . فان الحاكم اذا لم يكن له ميل الى أحد الجانبين لغرض كهذا الغرض الخبيث ، فلا يرى سبيلا ولا يجد من نفسه داعية إلا الى الحكم بالقانون . فان أخطأ ، فقد جعلت المجالس القضائية درجات ثلاثا يستأنف في كل منها النظر في القضايا من أي نوع لانشك في أن سلوك طريق الاستقامة أهدي وأقوم وأفيد للعموم والخصوص وأحكم ، وأما تلك الطرق العتيقة فهي قريبة العطب شديدة الخطر لانرى لمرتكبها نجاة خصوصا في هذه الاوقات التي أصبح بصر الحكومة فيها حديداً ومن تواري تحت التستر وقتنا ظهر بهار الفضيحة في آخر نسال الله الهداية والتوفيق لأرشد طريق

المقالة الحادية عشر

العفة ولوائرها *

سبق أننا أدرجنا في جريدتنا فصلاً معنوناً بالرشوة ووخامتها بينما فيه أن هذا الداء المميت لروح العدل ، المفسد لمزاج النظام ، أزم من في طباع الاهالي من زمن بعيد ، حتى ظنوه صحة ، وحسبوه حالاً لازمة لهم ، وصاروا يعدونه من نوع المعاملات السائرة بينهم ، ويجازفون فيه بأموالهم مع عدم التبصر والتدبر ، وانتفاء الموجب والمقتضي ، ولا يقتصرون في أداء تقوهم وعروضهم لأرباب الوظائف (إن قبلوا منهم) على حالة الضرورة ، وربما يؤدون على طريق الرشوة ما يساوي الحق المطلوب أو يزيد عليه ، وهذا يعد من سفه الرأي وقلة العقل ودناءة الطبع . وكان من الواجب على أرباب الحقوق أن يعلموا أن الوظائف ليست للموظفين مجاناً ، بل كل متوظف فله مرتب على حسب أهمية عمله في وظيفته ، يصرف له ذلك المرتب من خزانة الحكومة ، التي هي خزانة الاهالي حقيقة . فلا حق لمتوظف أياً كان أن يأخذ (بارة) من أحد من الناس في مقابلة عمل من الاعمال ، بل كل مأخذه فهو سحت . وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم « كل جسم نبت من السحت فالنار أولى به » أو كما قال . وقد أجمعت الشرائع الالهية على لعن الراشي والمرثي ، وأطبقت القوانين السياسية والقضائية على وجوب العقاب والطرده ، والحزبي واللعنة على كليهما أيضاً

غير أن كلامنا في ذلك الفصل لم يكن موضوعه أن الموظفين يتعاطون هذا الامر على العموم ، بل صرحنا فيه بأن من الحكم العفيف الذي ينهر راشيه ويبعده . وكيف يصح التعميم مع علمنا عين اليقين أن في رجال الحكومة وموظفيها الاعفاء المنزهين ؟ ولولا لم لما استقامت الاعمال ، وانتظمت الاحوال ، وم معروفون بين الناس ، تشهد لهم أعمالهم ، وتنشرح صدورهم ، وتثني عليهم

• نشرت في العدد ٩٩٥ الصادر في ٢٤ المحرم سنة ١٢٩٨ - ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨٠

سراثرهم عند ما يحسون من أنفسهم الاستقامة ، وسلامة الذمة ، حتى كآني بالرجل العفيف منهم عند ما يخلو بنفسه ، ويدخل الى مخدعه ، يحدنه ضميره وخواطره بأنه الرجل المستقيم ، الذي عرض عليه حطام الدنيا والنفس من الذهب والفضة - وربما كان محتاجا اليه ، ومع ذلك كف يده عن أخذه ، وترفع عن مد كف يد الحياة لاستلامه ، حفظا لشرفه ، وصونا لقدره عن الانحطاط والسقوط من أعين العقلاء بل والسفهاء إذا ذكر عنه أنه ارتشى ، ومراقبة للأحكام الالهيه ، والعهود الانسانية . فعند ما يرى لنفسه هذه المزية الشريفة يظهر فرحا وهو وحده ، وتكون صداقته سميأ ومحدثا له ، ينسر بموافقته وملازمتها ، ويتحكم في نفسه سلطان الافتخار ، الحق الذي لا يعارضه فيه أحد فأمثال هؤلاء (الاعزاء الوجود) هم عماد الملك ، وقوام النظام . وإن دوائر حكومتنا متشرفة بهم ، بخلاف أولئك الساقطي الهمة ، الفاسدي الأخلاق ، الذين يقبلون ما يقدم اليهم من أرباب الحاجات ، قليلا كان أو كبيرا ، أو يطلبون ذلك منهم بصريح أقوالهم ، أو بتعطيل أشغالهم ، إذ يقول الواحد منهم لصاحب الحاجة : إن شاء الله يكون قضاها . فإذا جاءه مرة ثانية قال : اذهب إلى غد ، فإن جاء في الغد عبس في وجهه وقال : إن عندي أشغالا أهم من شغلك ، ونحو ذلك من المماطلات ، وصاحب الحاجة مضطرب الفؤاد ، حريص على نيل مقصوده . فإن كانت فيه غفلة عن المعنى المقصود أخذ المتوظف يكني ويلوح ويعرض ، حتى ينتبه الطالب الى الغرض ، فيسذل ما يقصر به على نفسه مدة الطلب ، ولولا جهله ما فعل . فهؤلاء الأشرار ، وإن استروا تحت ذيل الحيل والخداع يوما ، فلا بد أن تنشر في الجور روائحهم الكريهة ، وربما غضت عنهم الأبصار زمنا ، لكن لا بد من نفوذ أشعتها اليهم في آخر اليوم فإذا أدركتهم كانت يد السطوة ضاربة على أبدانهم وأموالهم ضربة الحق انني لا تغفل ، ولعلمهم بقبح سيرتهم ، ومخالفتهم لمقتضى الطبيعة ، وشدة حرصهم على إخفاء هذا الأمر الشنيع ، تراهم إذا خلوا بأنفسهم يتذكرون ماصنعوا من الحيل لاتهم الأموال ، وأنها طرق غير منضبطة تحت قاعدة ، قرب صاحب حاجة ذكي نبيه ، يشكو

أمره لمن فوقه ، ورب رقيب من طرف المالك يقطع على وجوه جيله ، ورب ناقد بصير رأى صاحب الحاجة سائراً الى بيته ، ورب حر غيور يبصر الهدية وهي طارقة باب منزله ثم يأخذ يعامل نفسه بأن تلك الإشارة كانت غامضة على الحاضرين والناظرين ، وذلك كان خفياً على المراقبين ، وهكذا تستولى عليه الأفكار السيئة ، والأوهام الخبيثة ، فيبيت مضطرباً خائفاً مرعوباً ، لكن شقاءه يحتم عليه الرجوع الى قبيح صنعه ، فخبث السريرة يكون بمنزلة منكر ونكير ، يحاسبه ويعاقبه على ما فرط منه ، خصوصاً وان قلبه وعقله في كل وقت يحدثانه بأن هذا مضاد للانسانية ، منائر للطبيعة ، إذ لولا ذلك لما حافظ على إخفائه كالسرقة والنصب ، بل يحرص على كتمان ذلك ، فان عاره أشد ، وجرمه أعظم ، وكفى بهذا عقاباً وعذاباً لو كان له عقل وبصيرة ، طهر الله من أمثال هؤلاء دوائرنا ، وقطع من الكون دابرهم

وإنه ليسرني وبملا قلبي ابتهاجا ما سمعته من أن كثيراً من الموظفين تكذبوا من قولنا في ذلك الفصل ، على أي لاظن أن الموظف وإن بلغ ما بلغ من الزهد والصلاح يمتنع عن أخذ ما يقدم اليه بطريق الرجاء ، خصوصاً مع ظهور الحق لصاحب التقدم الخ ، خوفاً على أنفسهم من الدخول تحت هذه الكلية ، فيمسهم ولو بطريق الوهم شيء من عار هذا الوصف الشنيع أعني أخذ الرشوة على أي وجه كان ، فإن تكذبهم هذا برهان على نزاهتهم وعقمتهم ، وجبهم أن لا ينتظموا في سلك المتصفين به ولو في مفهومات الألفاظ على وجه بعيد ، وهذا غاية في المحافظة على الشرف والنفرة من هذا النقص الذي موت الانسان خير من أن يتصف به ، لكنني أقول : لو دققوا النظر لما تكذبوا من هذه الجملة لوجهين (الأول) الاستثناء المتقدم في صدر العبارة والمفهوم من السياق (والثاني) أن منطق جملتنا صادق فيمن يقدم اليه ، ويسكت حتى يحصل الرجاء ، وإنني أعلم أن العفيف لا يتجاسر أحد على أن يقدم اليه شيئاً متى اشتبه عنه ذلك ، ولو اتفق أن أحداً بذل له رشوة ولم يقبلها ، فلا يصح له السكوت عليها ، بل عليه أن ينجز في الحال جهة الاختصاص به حتى يعاقب الراشي ، وتضاف الرشوة

الى جانب الديوان ، فيكون بذلك قد برهن على استقامته بأجلى الأدلة وأوضحها . وأما إن سكت على ذلك ، واكتفى بالمنع من جهته ، فاني أراه موضعاً نقولنا في الجملة السابقة : فان كثرة الرجااء تلين الحديد اذا كانت في أمر يتكلف الشخص فيه مشقة . فما ظلك اذا كانت في اتصال منفعة الى المرجو ، وإنه ليعجبني جداً ما ذكر في قانون العقوبات من قوانين المحاكم ، الجاري عليها العمل في بلادنا في باب الرشوة منه ببند ١٠٧ حيث قال فيه : المتوظف أو المأمور الذي قدمت له أو أعطيت له عطية أو دعه بشيء ما لأجل التوصل الى الغرض السابق ذكره (أداء عمل من أعمال وظيفته ، ولو كان العمل حقاً أو لامتنائه عن عمل من الاعمال المذكورة ولو كان يظهر له أنه غير حق) ولم يخبر بذلك فوراً جهة الاقتضاء يجوز أن يحكم عليه بالعقوبات المقررة في حق الرشوة اهـ

على أن هذا الانذار لو لم يكن مثبتاً في القانون لوجب أن تثبته الذمة والغيرة فان من عرض عليه شيء على سبيل الرشوة اذا كان غيوراً وجبت عليه المبادرة بطلب مجازاة من عرض عليه لوجهين (الوجه الاول خصوصي) وهو الانتقام من الشخص الذي ظن السوء في هذا المتوظف ، بل جزم بنقصه وعدم شرفه حتى أقدم على إرشائه ، فهو حقيق بأن ينتقم منه (والثاني عمومي) وهو أنه اذا عوقب الراشي لسبب إخبار المتوظف ، وشاع ذلك بين الناس ، يقع الرعب في قلوبهم ويخافون من أن يقدموا شيئاً لمتوظف خشية أن يخبر كما أخبر ذاك ، فيقع الراشي تحت العقاب ، فيكف أرباب الحاجات عن البذل خوفاً ، حتى لو مد المتوظف يده طالباً الرشوة لظن صاحب الحاجة أنها حيلة لا يقاعه في الخطر ، هذا من جهة ذوي الحاجات . وأما من جهة أرباب الوظائف فانهم متى سمعوا أن فلاناً أخبر براشيه ، وظهر اسمه ، واتشر ذكره ، خصوصاً إذا ترتب على ذلك رفعة قدره ، اقتدوا به لينالوا مثل مانال في ظهور الشرف والفخر ، فيمتنعوا عن قبول الرشوة ، بل يتسببون في إضاعة أموال جمعة الى بيت المال ، ويقع التناثر والتسابق في فضيلة العفة والاستقامة . وقد بلغنا أن بعضاً من الموظفين أخبر الجهة الموظف من طرفها بما وقع من مثل ذلك ، لكن بمبالغ زهيدة ، ربما

يسمح بها الخاطر لظاهر العفة ، فينال شرفها بقيمة زهيدة ، ولم نسمع بأن موظفاً أخبر جهة عمومه بمبلغ وافر من تلك المبالغ التي كنا نسمعها ، وهي التي يعد التعفف عنها تعففاً حقيقياً ، ومع ذلك فانا نشكر المنزهة عن القليل والكثير وربما يتوهم بعض ذوي الاستقامة أن في الأخبار ضرراً بالراشي وفضيحة له . فالستر عليه أولى ، فهذا الوهم خطأ صرف ، لأن الله تعالى جعل في العقاب حكمة بالغة ، وهو ردع النفوس الشريرة عن الشر ، حتى يقل الشر أو ينقطع قال الله تعالى (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب) والمعنى أن قتل القاتل وإن كان فيه إعدام لنفس واحدة لكن يرتدع بسببه أشخاص كثيرون ، ربما كانوا يقدمون على قتل كثير من الناس ، إذا لم يعلموا أن جزاءهم القتل ، فترتب على قتل القاتل حفظ نفوس كثيرة ، فكان في القصاص الذي هو موت حياة ، وأن الشفقة والرأفة على من استحق العقاب غير جائزة ، بل مخالفة لأمر الله . فقد قال في سياق حد الزاني والزانية (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) وهكذا الذمة والالهام الالهي المودع في طبيعة النوع البشري يرشدنا إلى ذلك أي أن الواجبات الانسانية تطالبنا بأن من اقترف سيئة تخل بنظام العدالة ، وتؤدي الى مفسدة عامة كالرشوة ، وجبت علينا المبادرة لطلب عقابه ، فإن فيه صلاحاً له بعدم عوده ، وردعاً لغيره . وبالجملة فانا نؤمل من ذوي الاستقامة أن يكونوا قدوة للناس ، ودعاة الى مثل أخلاقهم ، وذلك لا يكون الا بظهور آثارها وإجراء ما يوجب التنافس فيها ، والمسابقة في ميدانها ، وإن داء الرشوة وإن كان لا يرب يظهر أثره على المبتلى به ، فيكون ممتوتاً ، وإن اجتهد في إخفائه باظهار عوارض أخرى يظنها تحجب ما انطوى عليه أو أخذ اليهود والمواثيق على من يقدم اليه هذا السحت ، لكن لا يظهر رسماً على وجه مطرد حتى تظهر المجازاة عليه ، وتعرف عند العامة والخاصة ، فتعود الأنفس تصور عاقبته الا بطريقة اخبار المتوظف بمن يرشيه ، فانها تظهر لنا شطر المقصود ، والمراقبة والتمعن يظهران الشطر الثاني (عند عدم الاستقامة) وإنا نسأل الله تعالى أن يكثر في بلادنا عدد هؤلاء المستقيمين المنزهاء ، ويمحق أولئك المجرمين الأشقياء .

المقالة الثانية عشرة

القوة والتأثير (٥)

قبل الكلام على خصائص هذين الركنين لميثة الوجود الانساني نريد أن نبين حقيقة كل منهما ليكون القارىء على علم بما يلحق اليه بعد ، فلا يخطئ الغرض ، ولا يجاوز المرمى ، ولا تلاحقه شبهة توقعه في ظلام الحيرة وغيب التردد أما القوة فلا نعني بها الا ما يستعمل لجلب الملائم ودفع المكروه ، سواء كان من شخص واحد ، أو جماعة متألفة ، أو شعب من الشعوب ، أو أمة من الأمم ، وسواء كانت آلة تحصيل الملائم ودفع المعاند هي القوة البدنية مجردة عن سواها ، كما تراه في السباع الضارية ، والحيوانات الكاسرة ، أو هي منظمة الى السيوف القاطعة ، والآلات المحركة ، وغير ذلك مما يستعمله الانسان في مواطن الغلبة والصيال

أما القانون فهو الناموس الحق الذي ترجع اليه الامم في هاملاتها العمومية وأحوالها الخصوصية ، وهيئتها النفسية أعم من أن يكون متعلقاً بروابط الممالك وعلاقتها ، أو منوطاً بالسياسة الداخلية ، كالادارة المدنية ، والتدابير المنزلية ، أو باحثاً عن الأخلاق الفاضلة ، وما ينبغي أن يتحلى به الانسان منها ، وما يجب أن يتعد عنه من أضرارها ، وسواء كان في أمة واحدة أو أمم متعددة

وهاتان الحقيقتان هما موضوع كلامنا الآن . أما القوة فكانت شرعة الامم الغابرة ، والشعوب السالفة ، وقت ان كان الانسان جبلي التابع ، لا يمتاز عن غيره من أنواع الحيوانات إلا بالفصل المميز ، أعني قابلية النطق المجرد عن نور المعارف ، وشعار التمدن ، فكانت له الحاكم الفيصل ، يرجع اليها في تحصيل غرضه ونيل مطلوبه ، وباختلافها وتفاوتها اشتداداً وضعفاً ، وتقدماً وتقهقراً ،

كانت يختلف الأمم وقتئذ في الشرف والضعفة والسطوة والنقر والغنى من غير نظر الى شيء من وسائل تلك الوجوه مهما كانت طرائقها ، فكان الرجل يمتاز بين قومه بصفة الاقدام والجرأة ، وكثرة السلب والنهب ، والبتك والمك ، وكانت القبيلة التي هي أشهر القبائل في هذه الصفات تعرف بالمجد الأثيل ، والشرف الباذخ ، والمكانة العالية ، فيدين لها مجاوروها ، وتخضع لسطوتها كل أمة قرع أسماؤها ما هي عليه من علو المنزلة ، وشدة الأنفة ، وقوة الشمم ، وتساق اليها الهدايا من تخوم الأقطار وشامع البلدان ، وتأتيها الغنائم أفواجا ، يقتادها رجالها الأبطال ، من ساحات الصدام والنزال ، ولم تزل الأزمان الغابرة محكومة بسلطان القوة ، تغلب الأمم على جبر الخوف والاضطراب ، وتضرب بصواباتها جرائم القلوب الضعيفة ، تتلقى بها في مهاوي التمل والهوان ، حتى خضعت لها الأمم ، ودانت لها الشعوب ، وصارت هي الديان المسيطر على كل شيء ، فإذا تمت لقوم تبعها السلطة الثابتة ، والحكم المطلق ، فيتسلطون بقدر مكنهم على ما شاء الله من الشعوب والقبائل ، ويتخيرون واحداً منهم سلطاناً أو ملكاً قد امتاز بالتهور والجرأة ، وجلالة المنظر والنفارة يملكونه زمام الحكم والسلطة . ثم ينتخبون من عشائرم رجالاً يعدونهم حفاظ الملك وأرباب النجدة ، والنصرة على العدو ، والعدة لفتح الممالك والأصهار ، ويتسلطون بهؤلاء على بقية من هم تحت سلطانهم بالرهبة والقساوة ، لا يتعاملوا من ربقته ، فيذعنون للمكهم قهراً لا طوعاً ، وينظرونه مقتلاً لا حياً ، ويحملون اليه الخراج وهم صاغرون ، وذلك دون مراعاة طرق عادلة ، أو أحكام مؤسسة على أصول المساواة ، واستعمال الشفقة والرحمة ، بل بحسب ما تقتضيه القوة التي سفكت الدماء ، وذلت الشعوب ، وانتهكت حرمان الأمم ، وسجنت حرية الانسان في مطمورة الرق والاستعباد

هذا ما ولدته القوة في تلك الأعصار الخالية ، التي كانت مشحونة بظلمات الجاهلية ، مسرولة بجلايب الغباوة ، مغمورة في بحار الوحشية . وما أظن لك الشريعة المشار اليها كانت خاصة بأمة من الأمم ، أو صنف من أصناف البشر ،

بل كانت عامة بين أبناء الانسان على اختلاف أجناسه ، وتباين موطنه ، فكنت ترى عامة القبائل وكافة الشعوب مقسمة الى ممالك متعددة ، وإمارات متباينة ، تجول فيها يد القوة ، وبحكمها مجرد الرهبة ، ويظوئها الخوف ، وينشرها الفرع ، ويشملها الاضطراب والاختلال ، وتتبادلها أيدي السلب ، يبيت ضعفاؤها غير آمنين على أنفسهم ، ويصبح أقوياءها غير مطمئنين على حياتهم ، فانبعثت في قلوب هؤلاء الأوزاع الذين ضربتهم يد السطوة بعضا القوة علة الضعف ، ودبت فيها سخائم الحقد ، فاختلفت الأغراض ، وتباينت المشارب ، وتفرقت القلوب ، وتنوعت وحدة الانسان الحقيقية الى أنواع ، لا يجمعها سوى جامعة الحيوان الناطق ، وتبدلت فطرته السليمة الى أخلاق لا مناسبة بينها وبين جوهره المقدس الشريف

ولقد تمكنت سطوة القوة في قلوب أولئك الشعوب ، وارتسمت صورها في مخيلاتهم ، وانسجت معانيها الى ذاكراتهم ، وصارت محفوظة في خزانة حافظانهم ، قائمة نصب أعينهم ، حتى توهموها مقلب القلوب والأحوال ، حافظ القوى والأكران ، اليها مرجع الحوادث ، وعليها تدبير النوازل والحوادث ، فاحتسبوها المدبر في المكونات بأجمعها ، وصوروا تماثيل على صور مختلفة وأنواع متباينة ، تشير ظواهرها الى القوة ، وتؤدي حياتها معاني العظمة والسطوة ، ووضعوها في أماكن عباداتهم ، ليؤدوا لها فرائض السجود والركوع ، ويقربوا اليها القرابين من نوع الانسان وأنواع الحيوان ، وهذه أصنام العرب والصين والعجم ، وآثار قدماء المصريين ، وآلهة اليونانيين ، المصنوعة على أشكال الحيوانات العادية ، والملوك العانية يشرح التاريخ أحوالها فلاداعي الى الاسهاب في تفاصيل شؤونها ، ومن تتبع تواريخ هذا الانسان الوحشي باعوان وتبصر ظهر له أن القوة هي التي دوخت قوى الانسان السليمة وبددتها وأحدثت به من القبايح ما أحدثت ، ولولا أن القانون كسر سورتها ، وذلل صعوبتها لما أشرق نور الحق على صفحات الوجود ، ولا تمتع الانسان في الازمان الأخيرة بلذة الراحة والسعادة ، فالحق للقانون وللحقوق

وبينا الانسان تائه في أغوار الاستعباد في هائيك الازمنة أزمنة القوة والاستبداد ، والجور والعبث والفساد ، ليس له حق يسان ، ولا عرض الا ويهتك ويهان ، اذ أشرفت عليه قرايح الذين جادت بهم مراحم الفضل ، وعرفوا بمنهج الخير ، فأبصر من طلائع أفكارهم ما يهديه الى سبيل الرشاد ، ويوظف فكرته الى التماس الصواب من أبواب السداد ، فعلم أن القوة هي منحة جليلة ، وفضة كبيرة ، يستعين بها على حاجاته الضرورية ، ولوازم معيشته المرضية ، قد عززها الله تعالى بالاتحاد والاتلاف ، حتى اذا عجز الفرد الواحد عن مالا طاقة له به من نفائس المطالب ، وجلال الرغائب ، استعان بعشيرته ، ثم بقبيلته ، ثم بأمة التي يجمعها دين أو ملك ، ثم بجميع أفراد نوعه ، وأن القوة إن لم تكن على قانون لا تتعدا ، وخط لا تتخطا ، بان استعملت على أي وجه وفي أي زمان أو مكان لا ينال ثمرتها المحبوبة وغايتها المطلوبة ، فأسف على ما كان ، ونزع من رقدة الغفلة يحاول لها هذا النظام المعبر عنه بالقانون ، فكان نوراً يهتدي به ، وقائداً وشيذاً يسلك بالانسان الى ما أهله له من الكرامة والنعيم ، فاتبع سبيله المهتدون وما ان عن سنته الضالون

أما الانسان الذي ساعده التوفيق بالالتقياد لأحكام القانون فانه حفظه باطناً وظاهراً ، وتمسك به غائباً وحاضراً ، حتى صار ركناً من لوازم حياته ، وعدة لمقاعده وغاياته ، وملهج لسانه في بكرة وعشيانه ، الى أن عرف به واجباته الحقوقية ، وفرائض معيشته العمومية والخصوصية ، وأمن به من مصائب الظلم ونوازل الجور وغوائله ، واطمأن به على نفسه وعرضه وماله ، فسكن قلبه بعد الاضطراب ، وقرت عينه برياض الامن والامان ، وتولد فيه أمل حملي على إدمان العمل ، فأعمل فكرته الخادمة ، وأجرى حركته الراكدة ، ولا زال يرتاد مواطن العلم ومعاهده ، ويقتنص بحجة الاستكشاف كل فائدة ، ويستعمل قواه في حل المبهمات ، ويستطلع ببصيرته ما خفي من مجهول الكائنات ، الى أن حده العلم الى معترض الاختراع والابداع ، فطار على جناح البخار بدل الشراع ، واستخدم النار لقضاء الاوطار ، واستعمل البرق على بعد الديار رسول الأخبار ، وجعل

المدافع والقنابل ليبد بها مضاديه ومعانديه ، وانغمس في النعيم مطعماً ومشرباً ومابساً ومسكناً ، إلى غير ذلك مما أتيح له من محاسن الحضارة ، ولطائف الرفاهة والنضارة ، ولا زال يضرب في نخوم البلاد ، وبذل بقوة عزمه أخلاق العباد ، إلى أن أصبحت البسيطة في قبضة زمانه . ولا غرو فإن فائده الاتحاد والائتلاف ، وباعته الوفاق لا الاختلاف ، وهو الآن كما بدأ يحافظ على التقانون بانسان مقلته ، ويصرف في حراسته ما يدخل تحت قوته ، فانه ملاك سعيه ، وأساس مجده ، ومنتهى جده

أما الذي ضرب عن القانون صفحاً ، وطوى عنه كشحاً ، فهو هو على رذالة أخلاقه ، وبساطة أفكاره ، يصبح مضغعة تحت أضرار الظلم ، ويمسي كرة لصوبان البغي ، فليحيي صاحب القانون على بساط النعمة الهني فيأبها الذين ينحرفون عن تقوانين ، ويعدلون عن طرق النظامات لغرور وقبي ، ارققوا بانفسكم واعتبروا بمن يماثلكم في الصورة الانسانية ، وانظروا اليهم كيف عظموا القوانين ، ورفعوا شأن الحقوق ، فاصبحوا في غاية من القوة والعزة فانهمضوا لجاراتهم في الصدق إن كنتم تعقلون ، وإياكم والتماذي فيما تسوله النفوس من الاغترار بظاهر من السلطة ، فللايام تغلب وتقلب ، لكن صراط الحق واحد وسالكه لا يضل ، إن عثر يوماً استقام أعواماً . وأما طرق الاعوجاج فهي وعرة خطرة كثيرة فرائل ، سالكها معارض لمدير العالم سبحانه وتعالى في أحكامه ، فانه عز شأنه قد أقام المكون بنظام المحكمة ، ورتب لكل شيء حدوداً هي سور بقاءه ، وسياج دوامه ، فان خرج عنه انحدر إلى مهاوي العدم والفناء ، ومن تأمل الكون الأعلى وما فيه من الكواكب والشموس والاقار ، ثم نظر إلى العالم الأسفل وما احتوى عليه من نبات وحيوان ، يشهد في الجميع لكل نوع منبها قانوناً خاصاً في سير وجوده ، تقوم البراهين القاطعة على أنه لو انحرف عنه لحكم عليه سلطان القهر الآلهي بالعدم والانتلاب ، وأنه بياهر حكمته قد جعل للهيئة الانسانية حدوداً عامة هي الشرائع وقوانين الآداب التي تحدد سير الانسان في معيشته لحاجة نفسه ، أو معاملته مع غيره ، وقد أودعها العلماء والحكماء بطون

كتب التهذيب والتربية البشرية بعد أن نطقت بها الشرائع الالهية ، وقد شهدت التجارب بالاخبار المتواترة عن الأمم الماضية ، والمشاهدة الحالية في الاوقات الماضية ، أن من تخطى حدود هذه الحقائق رماه القهر الالهي بسهام لا يخطيء مرماها ، فالقانون هو سر الحياة وعماد سعادة الأمم . وأن القوة لا تأتي بشمرتها الحقيقية إلا اذا عضدت باتباع الشرع والقانون العام الذي أقر العقلاء بوجوب اتباعه فكيف يصح لذي شوكة أو صاحب سلطة أن يغتر بعد رؤيته هذه البراهين الباهرة بقوته ، أو يعجب بصولته ، ويدع الأمور لأرادته ومشيته ، ويزدري ماللقانون من حفظ القوة ونمو الثروة في من هم تحت إمرته ، فيفعل ماتسول له نفسه ، ويأتي كل مايسوقه اليه حسه ، فيسري الاهمال في طبقات رجاله ، ويجارون حاكمهم في عوائده وأخلاقه ، وتصير الأموال لديهم مباحة ، والحقوق مبتذلة ، والاعراض منتهكة ، ووسائل الربط والضبط معطلة ، وعقد المواثيق والعهود محللة ، فيكثر فيما يليه غوائل الخسران ، وتنمو به جوائح البهتان ، حتى تصير أفراد المحكومين أخلاطا رعا لا فرق بين كبيرهم وحقيرهم الا بوفرة الشهوات ، والتمكن من وسائل اللذات ، مع توافق في الفطرة ، وتشابه في الغريزة ، ولا يطول عليهم ذلك العهد حتى يصبح الحاكم محاطا بجم غفير من الغرماء ، يتجاذبونه بايد طالما تقدمته من خزائنها ماظنه نزرأ يسيراً في جانب أسرافه وتبذيره ، وهو على كاهل الاهالي حمل ثقل العبء ، لا تقدر أن تقله ، وتسمي عمارية البلاد تنهي محاسن صبحتها أربابها طوامس المعالم مظلمة الأطراف ، ليس فيها سوى نعاب اليوم وهمس الهوام ، وحينئذ لاتسل عن العاقبة ، فانها أسرونها وبئس المآل ذلك ما يولده الغرور بالقوة والاعجاب ، بالسطوة وترك القانون الذي عليه سعادة العباد وخصب البلاد . فاذا أرادت تلك الامة انني تصرف ذوو البني والغرور فيها على خلاف القانون أن تعيد لها مجدها الاثيل وعزها الاول ، فلا يدلها من إعادة شأن القانون فتشيد منه ما هدمته يد الغرور ، وبددته سطوة الفجور ، وتأخذ الوسائل النافعة لاستمالة قومها الى التمسك بعراه ، وتابعترشده

وهدهاء ، ولا تبارح الحيل والتدابير لهذا الغرض ، وما كان أغناها عن الإصلاح بعد الفساد ، والتعمير بعد التخریب ، والكنها باعت القانون بشئ بخس ، فكان جزاؤها أن تشتريه بنفوسها العزيزة ، ودماؤها الشريفة ، حيث عرفت ماهي القوة وهو القانون . ولنا في هذا الموضوع كلام يأتي بعد إن شاء الله تعالى .

(يقول جامع هذه المنشآت) ان إنشاء هذه المقالة أعلى من كل ما قبلها ، وان السجع فيها غير متكلف ولا ملتزم ، فارتقاء أسلوب الاستاذ كان سريعاً ولكن قد سبقه ارتقاء معارفه وأفكاره كما يرى القاري . من أول مقالته

المقالة الثالثة عشرة

ما أكثر القول وما أقل العمل *

إن من أخس الأوصاف وأدناها أن يقول الانسان مالا يفعل ، وأن يدل غيره على ماضل هو عنه ، وأن يعيب على الناس مالا يعيبه هو على نفسه ، وذلك أن من كانت هذه صفته فهو جاهل من وجه ومعترف بنقصه من وجه آخر . وخيث المقصد ذني ، الهمة من الوجه الثالث .

أما جهله فلا أنه اذا ادعى بما ليس فيه من علم أو فضل مع كون الناس لا يرون أثراً ظاهراً لعلمه أو فضله بمعنى أنه لم يؤلف تأليفاً نفيساً مثلاً ينتفع به عموم الناس ، ويعترف بنفاسه ما فيه العقلاء والمبصرون من أي أمة ، ولم يكشف حقيقة ، ولم يحل مشكلة ، واعتقد أن سامعيه يصدقونه فيما يدعيه ، فقد جهل أن النفوس مجبولة على تطبيق السموعات على المشاهدات وواقع الأمر ، فان لم تجد لها مطابقة رمت بها في وجه قائلها ، فتقلب دعواه مقتاً عليه ، ويسقط من قلوب الناس أجمعين ، إذ لم يروا له أثراً

يغيدم سوى أنه يخبر عن نفسه بأوصاف لاحقيقة لها ، وكذلك اذا أرشد الى غاية هو متوجه صوب ضدها . ويظن أن الناس يسترشدون بارشاده ، فهو لا محالة مطابق الغفلة ، مركب الجهل ، إذ لا يعلم أن الافعال تؤثر في النفوس أضعاف مما تؤثر الافعال . فان القول عند النفس يحتمل التصديق والتكذيب ، فتتردد في مفهومه ، فلا يقودها الى العمل إلا بعد تكرار وتذكر . أما الفعل فهو أمر مشهور ينطبع في النفس أشد انطباع ، فتدفع اليه خصوصاً إن كانت فيه لذة معجلة ، وإن عاب على غيره وصفاً هو موجود فيه ، فقد جهل أن ذكره لعب الغير ينبه الأذهان للنقص القائم بنفسه . فان المتكبر مثلاً اذا ذم الكبر في غيره ، فقد ذم نفسه من حيث لا يشعر ، فهو جاهل بنفسه ، وبما يعود عليها وهو ظاهر .

وأما اعترافه بنقصه وعجزه فلا أنه لم يصدر منه ذلك أي الدعوى بما ليس فيه ، وترغيب الناس في ما لا يرغبه لنفسه ، أي فيما ليس بمتصف به ، بل هو منحرف عنه وما ذكره لمثالب الغير وهي فيه إلا لأجل أن يبين للسامعين كماله وفضله ، يظهر لهم وصوله لما يهديهم اليه ، وخلوه من النقص الذي يلوم عليه الغير حتى يعظموه ويقوموا له بقضاء بعض حاجاته ، حيث علم أن الكمال الذي يدعيه هو مناط التعظيم وجلب المنافع ، وكأنه بذلك ينادي على نفسه بأنه لم يبلغ من ذلك شيئاً ، لأنه لو باغ الكمال الذي يدعيه لكانت نتائج ذلك الكمال ناطقة برفعة قدره ، شاهدة بعلمه مقامه ، سواء ادعى ذلك عن نفسه أو لم يدع ، وسواء نقص غيره أو كل ، ولم يكن هناك داع لمدحه لنفسه أو ذمه لغيره ، بل تكون آثار فضله قاعة في النفوس جاذبة لها اليه بذاتها ، فمن تكاف الاطراء على نفسه بوصف من الأوصاف الفاضلة أو رام اظهار كماله بالباطل من قدر غيره فذلك معترف بأنه خال من الفضيلة حيث لم تشهد له الحقيقة ، فاضطر الى اللجوء بالكذب ليقنع السامعين بأنه كذلك .

وأما خبث مقصده ودناءة همة فلأن من هذه صفته لا يريد أن يكون ذات فضيلة قط . ولا يتغنى الوصول الى كمال ، ولا يكفيه يطلب عيشاً حينما اتفق . هكذا جلس الى بعض البسطاء أو غيرهم طالب التلبس على عقولهم ليقدر في نفوسهم

أنه بالصفة التي يذكرها عن نفسه أو يرشد إليها ، وأنه خال من العيب الذي يسب به غيره ، ليوقروه فيكتسب منهم مساعدة على بعض أغراضه الخسيسة أو يستفيد منهم حطاما يسد به بابا من أبواب نهيمته وشرهه . فهو في ذلك بمنزلة المشعبدن أو المحتلسين أو السارقين ونحو ذلك من كل ذي حيلة خسيسة جلبب الأموال . ولا يختلف عن هؤلاء الا بالاسم فقط حيث يقال إنه غش اناس بحكاية الكذب عن نفسه وهو المسمى في عرفنا (بالفشر ويقال لصاحبه فشار)

فالقول الذي لا يعضده الفعل بحسب من اردوا الأوصاف وأقبحها لأنه يشعر بوجود أوصاف تشهد البدهاة بقبحها . ومن الأسف أن هذا الوصف يوجد في كثير من أهالي بلادنا ، بل في الغالب منهم ، بل لا يوجد القائل الفاعل إلا قليلا جداً (وإنما نخجل من تسجيل مثل ذلك في الجرائد . ولكن أي فائدة في إخفاء عيب فينا عرفه الغير منا ، فحق علينا أن نذكر به لعلها تنفع الذكرى)

اننا إن طرقتنا المجالس الخصوصية في بواطن البيوت والاندية العمومية في الاماكن العامة لانعدم قائلان عن نفسه انه قرأ من العلوم معقولها ومنقولها واطالع الكتب العالية ، ووقف على المباحث الجليله ، وكشف بواطن الدقائق الخفية ، واستطلع الاسرار . وكان مع ذلك مشهوراً في زمن الاشتغال بالفتنة والذكا ، وتوقد الفكر وقوة المناظرة ، ونحو ذلك ، وآخر يقول إنه بلغ من الاقتدار على الاقتناع في الجدل ، والالهام عند المحاصمة ، وتفهم الطالب عند الاستفادة ، حد لا يصل العالمون الى غباره ، وإن له من طرق الاقتناع والافهام مالا يتيسر لغيره معرفتها ، وإنه يحكي بكلامه الازهار المية ، ويحشر اليها صور المعلومات ، ويدع فيها أسرار الكائنات ، ولو سألت كل واحد من الذين يظن فيهم وصف العلم والتعليم رأيته يحدث عن ذاته بكل الذي قلناه ، ويقول لو كان الناس يسلكون هذا المسلك الذي أسلكه لا تنتشر العلوم وعمت المعرفة

لكننا اذا رجعنا الى الواقع ونفس الامر رأينا أن التأليف والتصانيف مفقودة وإن وجد منها شيء كان ناقصاً إما من جهة المعنى وإما من جهة اللفظ بحيث لا تدل عبارته على ما قصد منه فيكون كعدمه . والطالبون للعلوم على

اختلافهم قاصرون عن إدراك ما أضعوا عمرهم فيه . ودليلنا على ذلك احتياجهم دائماً الى غيرهم وعدم قدرتهم على الاستقلال بعمل يعملونه في نفس العلم أو الصناعة التي تعلموها ، فتارة يحتاجون الى الاجانب وأخرى الى بعض من الوطنيين (وربما نين هذه الجملة في وقت آخر)

ومن الناس من اذا ذاكرته في المنافع العامة والمصالح الكلية أخذ يشرح غوامضها ويبين الواجب فيها ، والطرق الموصلة الى جلب النافع ورفع الضرر ، والوسائل المؤدية الى تقويم حال الأمم وارتفاع شأنها من رفع منار العدالة ، وبث روح العلم وتقرير المساواة وما شاكل ذلك ، ثم اذا فوض اليه أمر من تلك المصالح رأته أبعد الناس عن الخير وأقربهم الى الشر ، واستنكف عن المساواة ، واستهجن معنى العدالة ، وإن كان يعبر عن نفسه بلفظها ، وسار مع أغراضه وشهوته ، وجعلها قانوناً يتبع ، ويعد كل ذلك حقاً ، وهو في درجة وعظه الاولى لم ينجل ولم يتلعم له لسان في النصيح ودعوى معرفة الحق ، ولو أن أحداً عارضه بحق في أي جزئية عقب ترغييه في قبول النصيح والمساواة لرأيته يتذمر ويتضجر ، ويود أن يفتك بمن يناقضه في بعض آرائه ، ويهدي اليه نصيحاً في بعض أعماله

ومنهم من يقول ان كل مصيبة ألت بالنوع الانساني لم يكن منشؤها الا التباغض والتحاسد ، وتفرق الكلمة والميل الى المنافع الشخصية ، وعدم الاكتراث بمنافع العامة ، ونحو ذلك من الاقوال الصحيحة المسلمة . ولو أنك لاقيت كل يوم ألف شخص لرأيته يقر بذلك ويعترف به مدعيًا أنه يميل في كل الميل الى الاتحاد والاتلاف . وانما تأتي النفرة من غيره ، ثم لو أتى اليه مطالب بحق في وقت المذاكرة لرأيته يعد هذه المطالبة أمراً كبيراً ، وإن كانت بغاية من اللطف والانسانية ، والتوى من الغيظ التواء الثعبان . ولو دعي الى اغاثة مملوف أو إزالة مكروه عن بعض اخوانه أو الداخلين تحت أمرته رأيته يتعالم ويتعذر . أو يتجمع ويستكبر ويقول : ليس هذا من خصائصي : ولو طلب الى تأسيس أمر خير يقيد الزراعة أو الصناعة ، أو يساعد على التربية الحقة ، وجدته يستصغر ذلك

ويسفه آراء الطالبين ويقول : ماذا يعود على شخصي من ذلك ومالي وللعامّة؟ دعهم في شأنهم برزقهم الله من غيري. كأن جنابه يظن أن المحبة والاجتماع والالفة التي يدعيها ويميل إليها يجب أن تكون له من الغير لا في مقابلة منفعة ، ولا جزاء لدفع مضرة ، بل لا بد أن ينفعه الناس وهو لا ينفعهم ، وما أجبل أمثال هؤلاء السفهاء وأضل رأيهم (ومن العجيب أنهم كثير جداً)

ومنهم من يرشد إلى العدل ويدعو إلى الانصاف . ولكن إذا عرض له حق في طريق منفعة خاصة له داس الحق برجله طلباً للوصول إلى غايته . وكأنه يعد ذلك من طريق الانصاف الذي يدعيه ، أو أضرب عن النصيح والارشاد إلى وقت آخر

ومنهم من ينتقد على الظلمة ومرتكبي الجرائم ، وفاسدي الإدارة ، وسيء التدبير ، ثم تراءم واقعين فيما ينتقدونه على الغير ، كأن محل الانتقاد أن يكون الفعل صادراً عن سوامهم ، وأما إذا كان صادراً عنهم ، فقد اكتسب الحسن من ذواتهم المقدسة . فأمثال هؤلاء الذين ذكرتهم لا يعرفون في العالم قبيحاً ولا حسناً ، ولا صحيحاً ولا فاسداً ، وإنما هي ألفاظ ورثوها نطقاً ولم يفهموها حق الفهم ، وألقوا استعمالها في مواقع مخصوصة ، فهم يستعملونها كما سمعوها بدون أن يعلموا لها حقيقة ، أو يفقهوا لها على صريح وحقيقة أمرهم أنهم جهلاء أنذال عديمي الشرف الانساني حقيقة ، ووجودهم في الهيئة الاجتماعية شؤم عليها ، وهم في رتبة الحيوانية الاولى لا يعترفون بالحقائق الثابتة ، بل لا يرون حسناً الا ما يصل إلى احساساتهم الظاهرة من اللذائذ الوقتية . فإذا مضى وقتها ذهلت أذهانهم عنها ، ولا ينتبهون لحسنها الا اذا وردت عليهم مرة أخرى وهكذا . ولا يرون قبيحاً الا ما يصل إلى ادراكهم من المؤلمات الوقتية كذلك ، فإذا زال ألمها غفلوا عنها كأنها لم تمسهم . فان رأوها لاحقة بغيرهم لم يعدوها مؤلمة ، ولم ينظروا إليها نظر الاسف المستنكر ، فيختلف عندهم حسن الشيء وقبحه بالاضافة إلى أنفسهم تارة وإلى غيرهم تارة أخرى . وليس عندهم صورة ثابتة لماهية الحسن وماهية القبيح ، ولا حقيقة النافع أو حقيقة الضار ، وإنما هي أهواءهم يعبرون عنها بالألفاظ المطبطنة

كالمصلحة العامة والمنفعة العمومية ، والحقوق الوطنية ، وما شاكل ذلك من المحفوظات الحالية عن المعاني يلو كونها بالسنتهم ، ومع ذلك فهم لا يسلون من شر ما يقولون وما يفعلون ، فجهلهم لأمحاة يعود عليهم بعاقبة بش العاقبة ولكننا لانحب ذلك ، ونود أن يكون الفعل أكثر من القول ، وأن يكون ، كل شخص من أبناء بلادنا صغيراً كان أو كبيراً مجداً في نيل الفضيلة الثابتة ، التي يلجج بتحسينها وإجراء مقتضاها ، حتى تكون بذاتها شاهداً عدلاً على أهلية صاحبها لما يقول : وتنتشر الأعمال الصالحة المنطبقة على الشرائع والقوانين ، فتسير المصالح على صراط مستقيم ، وينال كل شخص حظه الحقيقي من ثمرات أنعابه الآتية على وجه منتظم ، فيعود النفع على العامة والخاصة . وأما الفخفة وكثرة اللغو فانها من شدة العجز لا تعيد ولا تبدي . وسنعود الى هذا الموضوع مرة أخرى عند الفرصة إن شاء الله

المقالة الرابعة عشرة

مسترباننا العمرية وأما دبشرا (*)

وعدنا فيما سلف بنشر ما ألفناه من الأحاديث وما عكفنا عليه من الأقاويل في مجامعنا الاعتيادية ، ومحافلنا المتتابعة ، مما هو عقبات في طريق هدمنا ، وظلمات متكاثفة في وجه انتظام هيئتنا الاجتماعية ، وحواجز دون الوصول الى محجة الرشاد ، وانتهاج خطة السداد ، وإن خاله الكثير منا عدنا ، وزعمه السواد الأعظم من شعار الأدب ، وعلامم الذوق والترف . وقد أردنا الآن أن نتكلم على هذا الموضوع ، وفاء بما وعدنا فنقول :

إن أحاديث الأئم تدور على محور أفكارها ، إذ اللسان هو المترجم عما يختلج بالضمير من الصور المحفوظة والمعاني المتخيلة على اختلاف أشكالها ،

وتنوع فنونها . فباختلاف صنوف البشر في المعارف والأمزجة ، تتباين مفاوضاتها وأحاديثها ، وتتشعب مجادلاتها ومحاوراتها ، وان تواريخ الأمم الغابرة ، وحوادث الملل الحاضرة ، لترشدنا الى ذلك بأجلى بيان . فهذه الامة العربية في صدر الاسلام وقبيله ، لما مال عنصرها الى التحجب في خلق الجرأة ، وحملت شامة النفس على الجولان في ميادين الغزو والفتوح ، قصرت أحاديث رجالها على ما يتعلق بحرب ماضية ، ومعركة آتية ، تعقد مجالسها على ذكر جياذ الخيل ومحاسنها ، شارحة معائب الأقواس وأوتارها ، منتقلة الى الكلام عن اشهر من رجالها بالاقدام والظفر والبسالة والانتصار ، وقصائد هم الشعرية مشحونة بأوصاف الحماس ، وخطبهم النثرية موقوفة على مدح التزال والبراز ، وبقيت هكذا أحاديثهم ، الى أن ضعفت تلك الحواس ، واستعيس عنها بالليل الى الراحة والانغماس في النعيم ، فتولد فيهم من ذلك المحبة والعشق ، ولهجت شعراؤهم بأوصاف الغزل بعد الحماس ، ونبعت الحاجين والخصر ، بعد الاسهاب في وصفي القوس والوتر

وهذه أمة اليونان لما كانت ديارها مهد الحكمة ، ومطلع شمس العرفان ، دارت أحاديث قومها في المجامع على تحديد العلوم ، وتبيين مهابا الأجناس والفصول ، يطلب الواحد منهم منزل صديقه ليتحاور معه في كيفية انتاج الأقيسة المنطقية مع تغاير أشكالها ، فيطول بينهما الحديث ، وهما بين مثبت وسالب ، ومعترض ومجيب . وهذا في حال كون المجالس الاخرى غاصة بجماهير النبلاء فئة تغوص في البحث عن أمزجة المواد وعناصرها ، وأخرى تطلق عنان اللسان لاستكناه حركات الأفلاك ومراكزها . فاذا عقدوا عزائمهم على المزايلة والانصراف ، ودعتهم أوقات أحاديثهم ، شاكرة لهم على ما أودعوا فيها من تقرير المسائل ، وإمالة الحجاب عن كثير من المشكلات والمعضلات ، واستقبلتهم الأيام بوجه باش وثرع باسم ، فرحة بما سيكون لها في بطون التواريخ ، مرسوما بمداد الثناء على صفحات الأعصار والدهور ، لما ستبرزه فيها أفكار هؤلاء القوم الى عالم الوجود من المطالب العالية المؤيدة بالبراهين الصحيحة والحجج السديدة ،

وهذا مع محافظتهم وقت المحاوره والجدال على رعاية الآداب ، وحرمة قوانين المباحثه وهذه أمم أوروبا تشعبت مجالسها ، وتنوعت مواضعها ، تحمل اليها الجرائد من أخبارها ما لا نكاد نصدق ، لولا علمنا بوفرة معلوماتهم ، وكثرة مخترعاتهم . فيوماً نسمع بأن ذوي الشركات التجارية اجتمعوا للمداوله فيما يلزم اتخاذه لإنشاء بنك مالي ، يكون مركزه في احدى الممالك الاسيويه مثلاً ، فتطول بينهم المحابره في ذلك ، ويعلو صوت الخلاف بين أعضائها ، فمنهم من يرجح إنشاءه في الأملاك الفلانيه من تلك القاره ، محتجاً بأن فلاحى تلك الديار يتعرضون النقود بفوائد باهظة لاحتياجهم وشده فقرهم ، فتكون الثمره أجزل ، والربح أوفر ، مما لو أنشئ هذا البنك في احدى الديار الافريقيه التي أصبحت لخصب تربتها ، ووفرة حاصلاتها ، وأخذ الأموال الأميريه منها يتقسيط عادل لاحتياج الى استقراض من مالنا ، بل ربما اذا دامت لها هذه الحال يتوفر لها كثير من ايراداتها التي تقتدر بها على انجاز مشروعات عموميه ، حتى نصير بذلك معادله لأعظم ممالك أوروبا في الثروه واليسار ، فيجابه الآخر قائلاً : إن الأجدد بنا أيها الشريك أن نعدل عن انشائه في أي مركز من مراكز آسيا مطلقاً الى اتخاذه بديار مصر . وأما ما قيل من أن تخفيف الضرائب عنها مع حسن تربتها وكثرة ايراداتها يجعلها غنيه عن الاستقراض ، فذلك انما يكون لو رجع فلاحها عن سرفه وسفهه ، والا فما دام على هذه الحال فانه يكون أبداً متقللاً بدوننا ، يقرع أبوابنا آباء الليل وأطراف النهار ، ولو أتمرت أرضه ذهباً ، وعوفي من جميع الضرائب سرمداً . فانه على ما يقال رهن عند أحد البيوت فيها ما يجاوز العشرين في المائة من أطيانها ، تأميناً على ما أخذ منه من النقود في مدة لاتزيد عن العام كثيراً . فيستحسن الحضور بيانه ، ونتمم الجلسة بالعرم على الشروع فيما قصدوا ، ليدركوا من الربح مثل من سلفوا

وبينما هم كذلك ترى فئه أخرى تروى في مد سكك حديدية في احدى الايلات المشرقيه : وإنشاء أسلاك برقيه فوق البحار وتحتها تسهيلات للمواصلات التجاريه ، وإحكاماً للعلاقات الدوليه . وأخرى مجتمعة لتخير من بينها نبيلاً

يكون رسولا من قبلها عند رجال إحدى البلاد ، فيعقد معها شروط التزام مصالح عديدة ، وأراضى فسيحة ، ومياه عذبة ، ما كانت أهل تلك الديار في حاجة الى التزاه .

وترى على مقربة من هذه الفئات جماهير متألبة ، وجماعات متضافرة ، يحسنون صنع الخطابة ، ولا يجهلون تاريخ الحلقة ، يقلبون العالم بين أصابعهم ، ويقطعون وجه البسيطة في أقل من لمح البصر وهم جلوس يتحداثون ، يعينون أوقات الفرص الملائمة للاستيلاء على تلك الجزيرة أو هذه الامارة ، أو ذلك الأقليم ، يستطلعون الرسائل المتوالية الورود من أبناء جلدتهم المنبئين في أنباء المعمورة لاستكشاف خبايا القبائل والشعوب التي هم بين ظهرانيهم يذلون المصائب ، ويمهدون طرق الاستيلاء والفتوح . ونحن عن كل ذلك غافلون ، نواصل الليل بالنهار في اللهو واللعب ، بلغت منا الخرافات والهذيان مبلغاً جسيماً حتى استحوذت علينا فأنستنا ذكر الحقائق النافعة والمصالح المهمة . وصارت تلك الأخطا الفاسدة كملكات للنفس يتعسر زوالها إلا بذهاب الأرواح والأشباح، تعقد عندنا المجالس ولكن على ذكر أنواع الخمر والمسكرات، يطرب المجتمعون فيها بذكر أوصاف الغيد الحسان . ويعرفون ثلثي الليل على قهاوين (كذا اصطلاح . والافهي مواضع رجس ودنس) يشربون فيها من المواد الممزوجة بالعقاقير المسمة قدراً لا تسوغه طباع الوحوش الضارية ولا الاسود الكلسرة . وفي خلال ذلك يتشاقون ويتخاصمون حيث إن كلا منهم يفضل مألوفه من ذلك على مألوفات أصحابه ، ويعدد أوصافه ، ويذكر محاسنه . ويشرح مزاياه: من حور عيون ، ورقة خصور ، وعذوبة منطوق ، وما شاكل ذلك . ويحتج عليه بأن فلانا لا يبيت في ذلك الخمد . ولا يطاء ذلك الموضع حتى يدفع عشرين أو ثلاثين جنياً وما شابه ذلك . والآخرون يناقضه وينافسه ويروم اقناعه في مقام الجدل . ولا يروق لهم الحديث الا اذا انتقلوا الى القذف في شرف من بينه وبينهم جامعة ديوانية، أو علاقة مجاورة منزلية . أو لا هذه ولا تلك . وإنما هدتهم شهرة ذكره الى معرفته . فيرمونه بالجبن وعدم الذوق لكونه تزيه النفس

يأنف من سلوكهم، ويرمونه بغلظ الطبع والتشفي ويسمونهم (نطاماً) وهم في خلال ذلك يهزؤون ويسخرون ويضحكون بصوت جهوري (ولا يكون وهم سامدون) يتبارون في ميادين البذاء، واستحضار كل ماقبح وخبث من الألفاظ، وهو المسمى عندهم (تنكيتاً) قسموا الألفاظ العرفية أبواباً وفصولاً ليستعملوها في هزلياتهم السخيفة، حتى كثرت الفصول وتنوعت المواضيع، وإذا تبارى اثنان منهم في باب منها استداما ساعة أو أكثر، وهما مع الحضور في خلال ذلك يرفعون أصواتهم بالضحك المزعج، فمن عجز منها قبل صاحبه أو سعه توييحاً وصفقوا للمتصر اعلاناً بظفره، وأجلسوه مكاناً علياً، ويسمونه المعلم الماهر، وهذه فئة غير قليلة في المدن، وأكثرها من أبناء الأغنياء عديمي التربية وأما مجالس ذوي الكمالات من أهل المدن، فأنها ان اتفق وتجردت عن الحديث في منكر، فهي لا تخلو عن حشو، فانه على الأقل لا بد أن يتشرف المجلس ولو زمناً قليلاً بحلول الغيبة أو النجاسة المرافقتين لنا، مرافقة الشخص لظاه الا اذا سمحت الصدقة، وكان زمن المجلس قليلاً جداً لا يسع سوى التحية دون ردها، وأنهم لن يستطيعوا أن يبرهنوا على خلاف ذلك، فاني قائل: اذا لم يجلسوا مستديمين الصمت، ومنصرفين كذلك، فبماذا ينطقون؟ هل ينطقون بعلم شرعي وقد جهلوه أو تجاهلوه؟ أم بعلم صناعي وقد عادوه، أم فن طبي وقد تناسوه، أم حديث عن منفعة عمرمية وقد أغفلوها، أم استفسار عن حوادث سياسية وقد زعموا الاشتغال بها عبثاً. فاذاً لا سبيل الا الاشتغال بالعلم المعنوي كالمطالعة والترحال وغيرها من أصناف الملاعب، وإنها دون ريب لتحملهم الى أسوأ مما فروا منه كما هو مشاهد. نعم يوجد بيننا بعض الأذكياء الذين يتحدثون عن المعارف والسياسة، ولكن فضلاً عن كونهم نزرأ يسيراً، فان أعمالهم غير منطبقة على ما يقولون، لكونها جملاً حفظوها من غير أن يعقلوها معنى، أو لكونها أموراً اجمالية ضيقة المجال لم يبحثوا في تفاصيلها هذه هي المجالس المنزلية

وأما المجالس التي تعقد على قهاوى الشعراء أو الحشاشين المخرفين فلا

نستطيع تفاصيل ما فيها من العجائب والأحاديث الجنونية لكثرتها ، وتشعب مسالكها ، سيما حديثهم فيما يتعلق بالجن والشياطين ، أو خرافات المعاتيه والمجانين ، كما اننا نكتفي في الكلام على متديات الأرياف بأنها وإن قيل فيها ما يتعلق بالزراعة ومصالحها . ولكن لا تخلو من كلمات تدل على تمكن الحسد والحقد في أفئدتهم ، وأن العداوة والبغضاء راسختان في ضمائرهم ، بحيث يعسر زوالهما ، وهذا مع مساواة غالبهم لأهل المدن في البني والفجور ، وأن بعض عمد البلاد أسوأ حالا وأقبح عملا من أهل المدن كما هو معروف

فهذه أحاديثنا في مجالسنا ، وتلك أقاويل غيرنا في مجامعهم ، سردها لنزوي النقد والبصيرة ، معرضين عن كثير مما نتفوه به وقت اجتماعنا ، ولعلنا نذكره وقتا ما ، إذا رأينا لهذه البزرة أوراقا يانعة ، وثماراً طيبة . فيقوى فينا ضعيف الأمل ، ويحيى ميت الرجاء ، ونشعر عن ساعد الاجتهاد ، ونطلق لسان العظة داعين الى طرق النجاح . وإنا لنخشى أن تقابل هذه الجملة بمثل ما قوبلت به أخواتها من قبل ، كأن يقول زيد : ما كتبت هذه الجملة الا للتنديد على أقوالي ، ويظن مثله عمرو ، فيصرفونها عما وضعت لأجله من خالص النصيح ومحض الارشاد من غير أن تناط بشخص مخصوص أو فئة معينة . فالملحوظ فيها كسابقاتها الخلق من حيث تعلقه بالأفراد أيا كانت كما هو الشأن في جميع المواضع والنصائح العمومية ، لا المرء المخصوص المتصف بتلك الأخلاق حتى تكون تنديداً وطعناً . فعسى أن لا نسمع بعد بمثل تلك التصورات من أحد من الناس . ويعلموا أن ما كتب وسيكتب صادر عن نفوس تسعى في تهذيب الأخلاق ما استطاعت ، ويسرها أن ترى أبناء الديار رافلة في حلل من الكعالات ، متحلية بالعزة والفخار ، حقق الله آمالنا ، وختم لنا بحسن ما لنا

المقالة الخامسة عشرة

مام: الانسائه الى الزواج (*)

وعدنا في أحد أعدادنا الماضية أن تسكلم في المصائب التي عرضت من تزوج النساء المتعددات عند مخالفة حكم الشرع في أمرهن . فالآن نوفي بما وعدنا ، بادئين بتمهيد تتبعه بالمقصود فنقول :

لما كان من لوازم حفظ النوع الانساني المعرض للفناء والزوال التناسل والتوالد ، أودع الحق سبحانه في طبيعة الانسان قوة شهوية تدعوه الى الاقتران ، وتحمله على طلب الازدواج كسائر أنواع الحيوانات

غير أن الانسان يمتاز عن سائر الحيوانات بقوة مذكرة ، يستحضر بها ما شهدته في الماضي ، فيطلبه إن كان لذيداً ، استحصالاً للمجرد اللذة ، وله حرص بالطبع على المدافعة عن كل ما يروم جلبه لنفسه من أن تمسه يد الغير ، ويدافع عنه ما استطاع كل من حاول مشاركته فيه . ثم إن هذا التمييز العقلي دعاه لأن يطلب من الأزواج ما هو أبهى في المنظر ، وأنعم في الملمس ، وأسلم من الآفات والمشوهات ونحو ذلك ، فلا يسمح لأحد بمقتضى الحرص الذي نسميه غيرة أن يشاركه فيه ، ويدفع ذلك بكل ما يمكنه ، حتى القتل والجرح ، وهذا بخلاف باقي الحيوانات ، فانها وإن كان يغار ذكرها على أنثاها وقت طلبه لها ، لكنها لحیظات وتنقضي ، فاذا سافدها انتقضت الغيرة بانتضاء الشهوة . والانسان لفكره ليس كذلك ، بل يلزم الحرص في جميع أحواله خوفاً على المستقبل

ومن المعلوم ان تلك القوة وهذه الخواص منتشرات في جميع الأفراد البشرية فكل واحد منهم يطلب صرف شهوته مع من اتصف بالجمال وسلم من الآفات ، حالة كون كل واحد منهم يطلب الاستئثار به ، ويدافع الغير عنه لما

(*) نشرت في العدد ١٠٥٥ الصادر في ٧ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ - ٧ مارس ١٨٨١

قدمناه من الأسباب ، وزد على ذلك ان الانسان في حاجة إلى التعاون بالضرورة وهو في فطرته لا ينظر إلى التعاون بجميع أفراد الانسان فلا بد له من تعلق خاص يوجب عقد التعاون الخاص ، فلو ترك الانسان مسترسلا مع شهوته من غير ان تقيد طرق استعمالها بتمانؤن يحفظ ثمرتها ، ويكفل سلامة تيجتها ، لاختل عقد نظام الانسان ، وفسدت أركان سعادته ، ولم يصن وجوده عن غائلة الزوال وعاديات الفناء ، وذلك من وجوه :

(الأول) ان النسوة اذا أبيحت لكل ذكر من الرجال ، وأبيح لكل أنثى ان تقترن بكل زوج في أي وقت لاشتعلت نار الغيرة في أفئدة كل واحد من البشر ، وسارع كل إلى مدافعة من يروم الاشتراك معه ولو أدى ذلك الى سفك دماء الطالبين والطالبات

(الثاني) ان المرأة عاجزة بالطبع عن القدرة على جلب لوازم معيشتها ودرء المكروهات عن ذاتها ، خصوصا في أزمنة الحمل وعقب الولادة وسني الرضاع ، وما لم يعلم الرجل اختصاصه بها لا يسعى في القيام بحاجاتها ، والمدافعة عن حقوقها فتضيع ذريتها

(الثالث) وهو أعم من هذا : أن الرجل لا يخاطر بنفسه في تحمل الأتعاب واقتحام الشدائد ، طلباً للحصول على وسائل المعيشة ، إلا اذا رأى صبية وعيالا هم عالة عليه في أمور معيشتهم ونوال مأربهم ، يؤدي اليهم ما استطاع من الرزق وقت قدرته ، مؤملا فيهم أنه اذا وهنت قواه بعد غايته بتربيتهم اذا كبروا ، يعوضون عليه أتعابه السالفة ، وتسوء هم مصيبتهم ، ويفرحون بثروته وسعادته ، بل لو لم تكن له زوجة وذرية تختص به ، وتعد نسبته اليها كنسبة الجسد للروح ، لما أمكنه الادخار لنفسه من قوته . فان ادخار العيش الذي هو من لوازم الانسان موقوف على عناية الزوجات والأبناء ، وتوجه القلوب منهم الى مساعدة هذا المكاسب العاني ، فهو يجتهد للإيجاد ، وهم يهتمون بحفظ الموجود ، وكل ذلك مفقود اذا اختلطت الأنساب ، وجهلت الأصول ، بل لو اختلط النسب لم تتوجه همة رجل للمجي في تربية ولده ، فيستأصل الموت أفراد النوع في أوائل أعمارهم

فظهر من ذلك أن سعادة الانسان في معيشته بل صيانة وجوده في هذه الدار موقوفة على تقييد تلك الشهوة بقانون يضبط استعمالها ، ويضرب لما حدوداً يقف كل شخص عندها ، وتوجب الاختصاص بين الزوج والزوجة فيمتنع التعدي ، ثم يظهر منه التعلق الخصوصي بين كل شخص وزوجته ، وكل زوجة وبعلها ، فيسعى كل لخير من اختص به حيث إن سعيه لكل البشر غير ممكن ، بل هو بعيد عن الافكار البسيطة الغالبة على أفراد النوع البشري ، وقد أتت الشرائع المنزلة بما يكفل هذا الأمر . وإن اختلفت مظاهره بالنسبة الى اختلاف طبائع الأمم لما طرأ عليها من تقلبات الاجيال والاعصار ، ولم تبح للرجل أية امرأة يريدونها الا اذا كانت خالية عن الازواج وتيقن فراغها من الحمل وخلوها عن جميع الموانع التي تخل بهذا الاختصاص وطالب العقد عليها والاجابة منها ، أو وليها بالقبول بمحضر جماعة من اناس تدفع هذا الأمر لتكشف الناس عن ارادتها اذا علموا أنها خصت برجل يقوم بحاجاتها ويدرأ عنها أي مكروه ، وأمرت الطرفين بحسن المعاشرة ، ونهت عن ارتكاب أي أمر يخل بنظام الاجتماع المنزلي الذي لا تتم سعادة العائلة الا برعاية حرمة والمحافظة على حقوقه ، كالقيام بواجبات وحاجات كل واحد من أفرادها ، وحسن الاقتصاد في المعيشة ، وأن ينظر كل واحد الى مصلحة العائلة نظره الى مصلحته الخصوصية ، وبعبارة أظهر ليس عنده ثم يعد مصلحة الا اذا كان يوجب لعائلته الثروة والتقدم ، وينقلها من خلة الشقاء الى درجات السعادة والمنا.

فتبين من ذلك أن الشهوة الحيوية المغروسة في الانسان لم تكن مقصودة لذاتها بل هي آلة لنيل الانسان ما ربه اتي لا يستطيع المقام بدونها ، كبقائه في عالم الوجود يتعاون على جلب المنافع ودفع المكروه بزوجه وأولاده وأخيه وعمه ونحو ذلك ممن ارتبط معه بالرابط المعروف بصلة النسب والقرابة الذي يعد من اقوى الروابط الانسانية اتي لولاها لاختل نظام الوجود الانساني بالمرّة كما هو ظاهر ، ولما كان التعاون على المصالح المعاشية والاتحاد والتآلف وجمع الكلمة من ثمرات الزواج لم يبح بالاجماع أن يقترب الرجل باخته أو عمته أو ابنته لأنه يضيق تلك

الفوائد ويقلل من الثمرات فضلاً عن كونه في نظر الأطباء يوجب العقم وانقطاع النسل . فلذلك أوجبت الشريعة أن يكون الزواج من عائلتين ليحصل الارتباط بينهما بعلاقة المصاهرة بل لا بد أن يقع الاقتران من بيتين (١) ليجتمع العائلتان على مصلحة واحدة وتصيران بالمصاهرة كجسم تعددت أعضاؤه فيقوم كل عضو بما فيه مصلحة الكل وتتجاذب صلات المصاهرة ورابطة النسب مصالح القبائل المتفرقة وتجعلها متجهة الى كعبة الاتحاد والائتلاف ، فيستريح الناس من ألم الشقاق ، ووخامة البغض والعناء . وأما العائلة الواحدة فيكفي في ارتباطها العلاقة النسبية هذا ما أتت به الشرائع ونطقت به علماء الدين وأوضحته العقلاء في حكمة الزواج والاقتران بقطع النظر عن كونه واحدة أو متعددة اقتصرنا عليه الآن وسنشفعه في صحيفة غد ببيان ما جاءت به شريعتنا من إباحة الزواج بأربع من النسوة وجواز مفارقتهم بالطلاق مع بيان ما كان عليه السلف الصالح في معاشره زوجاتهم وما نحن عليه الآن من سوء معاشرتهن وعدم العدل بينهما وحصول ضد المقصود إذ يكون الزواج موجباً للعداوات وتفریق الشمل بدلاً عن المحبة وجمع الكلمة كما أوجبه الشريعة . وليس لنا غرض من ذلك سوى تبين الحق وتوضيح الصراط المستقيم .

(١) لا ندري أكان الاستاذ (رح) يفرق بين كلمتي البيت والعائلة في هذا المقام أم يعدها مترادفين ولاحد كل منهما وحكم الشريعة في الزواج من غير الحلال من الاقارب الاستحباب عن الاكثر بل ماروي في الاعتبار في النكاح والنهي عن القرية لا يصح مرفوعاً بل هو أثر عن عمر (رض)

المقالة السادسة عشرة

حكم الشريعة في تعدد الزوجات (*)

قد أباحَت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربع من النسوة إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهما ، وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة قال تعالى (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) فان الرجل اذا لم يستطع إعطاء كل منهن حقهما اختل نظام المنزل وساءت معيشة العائلة إذ العماد القويم لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد واتِّمالف بين أفراد العائلة ، والرجل اذا خص واحدة منهن دون الباقيات ولو بشيء زهيد كأن يستقضيها حاجة في يوم الاخرى امتعشت تلك الاخرى وسئمت الرجل لتعديه على حقوقها بنزله الى من لاحق لها وتبدل الاتحاد بالنفرة والمحبة بالبغض ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وجماعة الصحابة رضوان الله عليهم والخلفاء الراشدون والعلماء والصالحون من كل قرن الى هذا العهد يجمعون بين النسوة مع المحافظة على حدود الله في العدل بينهما . فكان صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحون من أمته لا يأتون حجرة إحدى الزوجات في نوبة الاخرى إلا باذنها

من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطاف به وهو في حالة المرض على بيوت زوجاته محمولا على الاكتاف حفظا للعدل ، ولم يرض بالاقامة في بيت إحداهن خاصة ، فلما كان عند إحدى نسائه سأل في أي بيت أكون غداً ، فعلم نساؤه أنه يسأل عن نوبة عائشة ، فأذن له في المقام عندها مدة المرض فقال « هل رزيتن » فقلن نعم ، فلم يقم في بيت عائشة حتى علم رضاهن . وهذا الواجب الذي حافظ عليه النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي ينطبق على نصائحه ووصاياه فقد روي في الصحيح أن آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم

(*) نشرت في العدد ١٠٥٦ الصادر في ٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨

لا تكلفهم مالا يطيقون . الله الله في النساء فانهن عوان في أيديكم — أي أسراء — أخذتموهن بأمانة الله واستحلتم فروجهن بكلمة الله » وقال « من كان له امرأتان فمال الى احدهما دون الاخرى — وفي رواية ولم يعدل بينهما — جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » وكان صلى الله عليه وسلم يعتذر عن ميله القلبي بقوله « اللهم هذا (أي العدل في البيات والعطاء) جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك » (يعني الميل القلبي) وكان يقرع بينهما اذا أراد سفراً

وقد قال الفقهاء يجب على الزوج المساواة في القسم في البيوتة باجماع الأئمة وفيها وفي العطاء أعني النفقة عند غالبيتهم حتى قالوا يجب على ولي المجنون أن يطوفه على نسائه . وقالوا لا يجوز للزوج الدخول عند إحدى زوجاته في نوبة الأخرى إلا لضرورة مبيحة غايته يجوز له أن يسلم عليهما من خارج الباب والسؤال عن حالها بدون دخول . وصرحت كتب الفقه بأن الزوج اذا أراد الدخول عند صاحبة النوبة فأغلقت الباب دونه وجب عليه أن يبيت بمجرتها ولا يذهب إلى ضررتها إلا للمانع برد ونحوه . وقال علماء الحنفية ان ظاهر آية (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) ان العدل فرض في البيوتة وفي الملبوس والمأكول والصحبة لا في المجامعة لافرق في ذلك بين فحل وعنتين ومحبوب ومريض وصحيح . وقالوا ان العدل من حقوق الزوجية ، فهو واجب على الزوج كسائر الحقوق الواجبة شرعاً إذ لا تفاوت بينها ، وقالوا إذا لم يعدل ورفع إلى القاضي وجب نهيهم وزجره ، فان عاذر بالضرر لا بالمبسر وما ذلك الا محافظة على المقصد الأصلي من الزواج وهو التعاون في المعيشة : وحسن السلوك فيها

أبعد الوعيد الشرعي ، وذلك الالتزام الدقيق المجتمعي ، الذي لا يحتمل تأويلاً ولا تحويلاً ، يجوز الجمع بين الزوجات عند ثبوتهم عدم القدرة على العدل بين النسوة فضلاً عن تحققه ؟ فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يجعلنا على جمعهن الا قضاء شهوة فانية ، واستحصال لذة وقتية ، غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفساد ومخالفة للشرع الشريف ، فانا نرى انه ان بدت لاحداهن فرصة للوشاية عند الزوج في حق الأخرى صرفت جهدها ما استطاعت في تنميتها واتقانها وتحلف بالله انها

لصادقة فيما اقترت (وما هي الا من الكاذبات) فيعتقد الرجل انها اخلصت له النصيح لفرط ميله اليها ، ويوسع الأخريات ضرباً مبرحاً وسباً فظيماً ، ويسومهن طرداً ونهراً من غير أن يتبين فيما ألقى اليه ، اذ لا هداية عنده ترشده الى تمييز صحيح القول من فاسده ، ولا نور بصيرة يوقفه على الحقيقة ، فتضطرم نيران الغيظ في أفئدة هاتيك النسوة وتسي كل واحدة منهن في الانتقام من الزوج والمرأة الواشية ويكثر العراك والمشاجرة بينهما بياض النهار وسواد الليل ، ونضلاً عن اشتغالهن بالشقاق عما يجب عليهن من أعمال المنزل يكثرن من خيانة الرجل في ماله وأمنته لعدم الثقة بالمقام عنده فانهن دائماً يتوقعن منه الطلاق إمامن خبت أخلاقهن أو من رداءة أفكار الزوج . وأياً ما كان فكلاهما لا يهدأ له بال ولا يروق له عيش

ومن شدة تمكن الغيرة والحقد في أفئدتهم نزرع كل واحدة في ضمير ولدها ما يجعله من ألد الأعداء لأخوته أولاد النسوة الأخريات فانها دائماً تمقتهم وتذكركم بالسوء عنده وهو يسمع وتبين له امتيازهم عنه عند والدهم وتعدد له وجوه الامتياز . فكل ذلك وما شابهه ان ألقى الى الولد حال الطفولية يفعل في نفسه فعلاً لا يقوى على ازالته بعد تعمله فيبقى نفوراً من أخيه عدواً له (لا نصيراً وظهيراً له على اجتناء الفوائد ودفع المكروه كما هو شأن الأخ)

وان تطاول واحد من ولد تلك على آخر من ولد هذه وان لم يعقل ما لفظ ان كان خيراً أو شراً لكونه صغيراً انتصب سوق العراك بين والديها وأوسعت كل واحدة الأخرى بما في وسعها من ألفاظ الفحش ومستهجنات السب (وان كن من المحذرات في بيوت المعتبرين) كما هو مشاهد في كثير من الجهات خصوصاً الريحية واذا دخل الزوج عليهن في هذه المأمة تعسر عليه اطفاء الثورة من بينهما بحسن القول ولين الجانب اذ لا يسمع له أمراً ولا يرهبن منه وعيد لكثرة ما وقع بينهما وبينهن من المنازعات والمشاجرات لمثل هذه الأسباب أو غيرها التي أنقضت الى سقوط اعتباره وانتهاك واجباته عندهن أو لكونه ضعيف الرأي أحق الطبع فتقوده تلك الأسباب الى فض هذه المشاجرة بطلاقهن جميعاً أو طلاق من هي عنده أقل منزلة في الحب ولو كانت أم أكثر أولاده فتخرج من المنزل

سائلة الدمع حزينة الخاطر حاملة من الأطفال عديداً فتأوي بهم إلى منزل أبيها ان كان . ثم لا يمضي عليها بضعة أشهر عنده إلا ونراه ستمها فلا تجد بداً من رد الأولاد إلى أبيهم ، وان علمت ان زوجته الحالية تعاملهم بأسوأ مما عوملوا به من عشيرة أبيها ، ولا تسأل عن أم الأولاد إذا طلقت وليس لها من تأوي اليه ، فان شرح ماتعانيه من ألم الفاقة وذل النفس ليس يحزن القلب بأقل من الحزن عند العلم بما تسام به صيتها من الطرد والتفريع يثنون من الجوع ويكون من ألم المعاملة ولا يقال إن ذلك غير واقع فان الشريعة الغراء كلفت الزوج بالنفقة على مطلقته وأولاده منها حتى تحسن تربيتهم وعلى من يقوم مقامها في الحضانة إن خرجت من عدتها وزوجت — فان الزوج وإن كلفته الشريعة بذلك ، لكن لا يرضخ لأحكامها في مثل هذا الأمر الذي يكلفه نفقات كبيرة الا مكرهاً مجبوراً . والمرأة لا تستطيع أن تطالبه بحقتها عند الحاكم الشرعي إما بعد مركزه فلا تقدر على الذهاب اليه وتترك بنيتها لا يملكون شيئاً مدة أسبوع أو أسبوعين حتى يستحضر القاضي الزوج ، وربما آبت اليهم حاملة صكاً بالتزامه بالدفع لها كل شهر ما أوجبه القاضي عليه من النفقة من غير أن تقبض منه ما يسد الرمق ، أو يذهب بالعوز ، ويرجع الزوج مصرأ على عدم الوفاء بما وعد لكونه متحققاً من أن المرأة لا تقدر أن تخاطر بنفسها الى العودة للشكاية لو هن قواها واشتغالها بما يذهب الحاجة الوقية ، أو حياء من شكاية الزوج . فان كثيراً من أهل الارياض يعدون مطالبة المرأة بنفقتها عيباً فظيماً ، فهي تفضل البقاء على تحمل الاتعاب الشاقة طلباً لما تقيم به بنيتها هي وبنيتها على الشكاية التي توجب لها العار ، وربما لم تأت بالثمرة المقصودة . وغير خفي أن ارتكاب المرأة الأثم لهذه الاعمال الشاقة ومعاناة البلايا المتنوعة التي أقلها ابتذال ماء الوجه تؤثر في أخلاقها فساداً وفي طباعها قبحاً مما يذهب بكاملها ، ويؤدي الى تحقيرها عند الراغبين في الزواج ولربما أدت بها هذه الأمور الى أن تبقى أياماً مدة شبابها تتجرع غصص الفاقة والذل ، وإن خطبها رجل بعد زمن طويل من يوم الطلاق ، فلا يكون في الغالب إلا أقل منزلة وأصغر قدراً من بعلمها السابق ، أو كلاً قلت رغبة النساء فيه ،

ويمكث زمناً طويلاً يقدم رجلاً ويؤخر أخرى خشية على نفسه من عاتلة زوجها
 المسالف . فانها تبغض أي شخص يريد زواج امرأته وتضمر له السوء إن فعل
 ذلك، كأن مطلقها يريد أن تبقى أيما الى المات رغبة في نكاحها وإساءتها ان طلقها
 كارهاً لها . وأما اذا كان طلاقها ناشئاً عن حماقة الرجل لا كثاره من الحلف به عند
 أدنى الاسباب ، وأضعف المقتضيات كما هو كثير الوقوع الآن اشتد حنقه وغيرته
 عليها ، وتتمنى لو استطاع سبيلاً الى قتلها أو قتل من يريد الاقتران بها

وكانني بمن يقولون إن هذه المعاملة وتلك المعاشرة لا تصدر الا من سفلة
 الناس وأدنيائهم . وأما ذوو المقامات وأهل اليسار فلا نشاهد منهم شيئاً من ذلك
 فانهم ينفقون مالا لبدأ على مطلقاتهم وأولادهم منها ، وعلى نسوتهم العديداً
 في بيوتهم ، فلا ضير عليهم في الاكثار من الزواج الى الحد الجائز والطلاق اذا
 أرادوا ، بل هو الأجل والأليق بهم اتباعاً لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم
 « تناكحوا تناسلوا فاني مباء بكم الأثم يوم القيامة » وأما ما يقع من سفلة
 الناس فلا يصح أن يجعل قاعدة للزواج عما كان عليه عمل النبي والسلف الصالح
 من الأمة خصوصاً وآية (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع)
 لم تنسخ بالاجماع . فاذا يلزم العمل بمدلولها مادام الكتاب

تقول في الجواب عن هذا : كيف يصح هذا المقال وقد رأينا الكثير من
 الأغنياء وذوي اليسار يطردون نساءهم مع أولادهم قترى أولادهم عند أقوام
 ضير عشرتهم لا يعتنون بشأنهم ولا يلتفتون اليهم ، وكثيراً ما رأينا الآباء يطردون
 أبناءهم وهم كبار مرضاء لنسائهم الجديدات ، ويسبون الى النساء بما لا يستطيع
 حتى إنه ربما لا يحمل الرجل منهم على تزوج ثانية الا إرادة الاضرار بالاولى
 وهذا شائع كثير . وعلى فرض تسليم أن ذوي اليسار قائمون بما يلزم من النفقات
 لا يمكننا الا أن نقول كما هو الواقع إن انفاقهم على النسوة وتوفية حقوق الزوجية
 من القسم في الميث ليس على نسبة عادلة كما هو الواجب شرعاً على الرجل
 لزوجاته . فهذه النفقة تستوي مع عدمها من حيث عدم القيام بحقوق الزوجات
 الواجبة الرعاية كما أمرنا به (الشرع الشريف) فاذا لا تمايز بينهم وبين الفقراء

في أن كلا قد ارتكب ما حرّمته الشرائع ونهت عنه نهياً شديداً ، خصوصاً وإن مضرات اجتماع الزوجات عند الاغنياء أكثر منها عند الفقراء كما هو الغالب . فإن المرأة قد تبقى في بيت الغني سنة أو سنتين ، بل ثلاثاً ، بل خمساً ، بل عَشْراً لا يقربها الزوج خشية أن تغضب عليه (من يميل اليها ميلاً شديداً) وهي مع ذلك لا تستطيع أن تطلب منه أن يطلقها خوفاً على نفسها من بأسه ، فتضطر الى فعل ما لا يليق . وبقية المفاسد التي ذكرناها من تربية الابناء على عداوة اخوتهم ، بل وأبيهم أيضاً موجودة عند الاغنياء أكثر منها عند الفقراء ، ولا تصح المكابرة في إنكار هذا الأمر بعد مشاهدة آثاره في غالب الجهات والنواحي ، وتطابر شروره في أكثر البقاع من بلادنا وغيرها من الاقطار المشرقية

فهذه معاملة غالب الناس عندنا من اغنياء وفقراء في حالة التزوج بالتعددات كأنهم لم يفهموا حكمة الله في مشروعيته ، بل اتخذوه طريقاً لصرف الشهوة واستحصال اللذة لا غير ، وغفلوا عن المقصد الحقيقي منه . وهذا لا يجيزه الشريعة ولا يقبله العقل . فاللازم عليهم حينئذ إما الاقتصار على واحدة اذا لم يقدروا على العدل كما هو مشاهد عملاً بالواجب عليهم بنص قوله تعالى (فان ختمت أن لا تعدلوا فواحدة) وأما آية (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) فهي مقيدة بآية فان ختمت (١) وإما أن يتبصروا قبل طلب التعدد في الزوجات فيما يجب عليهم شرعاً من العدل وحفظ الألفة بين الاولاد ، وحفظ النساء من الفوائل التي تؤدي بهن الى الاعمال غير الثلاثة . ولا يحملونهن على الاضرار بهن وبأولادهم ، ولا يطلقونهن الا لداع ومقتضى شرعي شأن الرجال الذين يخافون الله ويوقرون شريعة العدل ، ويحافظون على حرمان النساء وحقوقهن ، ويعاشرنهن بالمعروف ويفارقنهن عند الحاجة . فهؤلاء الافاضل الاتقياء لا لوم عليهم في الجمع بين النسوة الى الحد المباح شرعاً . وهم وإن كانوا عدداً قليلاً في كل بلد وأقليم ، لكن أعمالهم واضحة الظهور تستوجب لهم الثناء العميم ، والشكر الجزيل وقرّبهم من الله العادل العزيز

المقالة السابعة عشرة

فماذا العجز؟ *

(١)

إن كثيراً من ذوي القرائح الجيدة اذا اُكثروا من دراسة الفنون الادبية ومطالعة أخبار الأمم وأحوالهم الحاضرة تتولد في عقولهم أفكار جلية ، وتنبعث في نفوسهم همم رفيعة ، تندفع الى قول الحق ، وطلب الغاية التي ينبغي أن يكون العالم عليها ، ولكونهم اكتسبوا هذه الافكار وحصلوا تلك الهمم من الكتب والاعبار ومعاشرة أرباب المعارف ونحو ذلك تراهم يظنون أن وصول غيرهم الى الحد الذي وصلوا اليه وسير العالم بأسره أو الامة التي هم فيها بتمامها على مقتضى ما علموه — هو أمر سهل مثل سهولة فهم العبارات عليهم ، وقريب الوقوع مثل قرب الكتب من أيديهم ، والالفاظ من أسماعهم ، فيطلبون من الناس طلباً حاثاً أن يكونوا على مشاربهم ، ويرغبون أن يكون نظام الأمة وناموسها العام على طبق أفكارهم . وإن كانت الأمة عدة ملايين وحضرات ، المفكرين أشخاصاً معدودين ، ويظنون أن أفكارهم العالية اذا برزت من عقولهم الى حيز الكتب والدفاتر ، ووضعت أصولاً وقواعد لسير الامة بتمامها ينقلب بها حال الامة من أسفل درك في الشقاء الى أعلى درج في السعادة ، وتتبدل العادات وتتحول الاخلاق ، وليس بين غاية النقص والكمال إلا أن ينادي على الناس باتباع آرائهم

تلك ظنونهم التي يحدتهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب والمطالعات وإنهم وإن كانوا أصابوا طرفاً من الفضل من جهة استقامة الفكر في حد ذاته وارتفاع الهمة ، وانبعثت الغيرة ، لكنهم أخطأوا خطأ عظيماً من حيث إنهم لم

يقارنوا بين ماحصلوه ، وبين طبيعة الامة التي يريدون إرشادها ، ولم يختبروا قابلية الازدهان ، واستعدادات الطباع للاتقياد الى نصائحهم واقتفاء آثارها . ولو أنهم درسوا طبائع العالم كما درسوا كتب العلم ، ودققوا النظر في سطور أخلاقه وعاداته الحقيقية الواقعية التي اقتضتها حالة وجوده ، بل لو قارنوا بين الحوادث المسطرة في الكتب . وتبينوا كيفية انتقال الأمم من بداياتها الى نهاياتها لعلوا أن الأمم في أحوالها العمومية كالاشخاص في أحوالها الخصوصية ، بل ان الاحوال العمومية هي عبارة عن مجموع الاحوال الخصوصية . وليست الامة مثلاً إلا مجموع أفرادها : وليس حال الهيئة المركبة من تلك الافراد إلا مجموع أحوالها هاته الافراد فعلى من يريد كمال أمة بتمامها أن يقيس ذلك بكمال كل فرد منها ويسلك في تكميل العموم عين الطريق التي يسلكها لتكميل الواحد . هل يسهل على صاحب الفكر الرفيع أن يودع في عقل الطفل الرضيع ، أو الصبي قبل رشده ، وقبل أن يتعلم شيئاً من مبادئ العلوم تلك الافكار العالية التي نالها بالجد والاجتهاد وكثرة المطالعات ؟ كلا بل لو أراد أن يجعل شخصاً من الاشخاص على مثل فكره احتاج الى أن يبدأ بتعليمه القراءة والكتابة ، ثم مبادئ الفنون السهلة التحصيل ، ثم يتدرج به شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بعد سنين عديدة الى بعض مطلوبه ، ثم هو في خلال ذلك محتاج الى أن يمحصر أعماله ويقيدها بقيود من الترغيب والترهيب ، وأن يراقب حرركاته في أعماله خوفاً من اختلاطه بفاسدي الاخلاق والافكار ، أو المائلين الى الكسالة والبطالة ، أو ورود موارد الشهوات ، ونحو ذلك من الملاحظات التي لا بد منها . فان اختلف شيء من الترتيب في التعليم بأن قدم الاصعب على الاسهل مثلاً ، أو أهمل ملاحظة أعماله وأحواله ، اختلفت التربية وذهبت الاتعاب سدى ، واستحال صيرورة حال ذلك الشخص مماثلة لحالة مرشده

ولو أنه أراد تحويل أفكار شخص واحد وهو في سن الرجولية هل يمكنه أن يبدلها بغيرها بمجرد إلقاء القول عليه ؟ كلا إن الذي تمكن في العقل أزماناً لا يفارقه إلا في أزمان ، فلا بد لصاحب الفكر أن يجتهد أولاً في إزالة الشبه التي

تمسك بها ذلك الشخص في اعتقاداته ، وذلك لا يكون في آن واحد ، ولا بعبارة واحدة ، ولكن بعبارات مختلفة في التقريب ، بعضها سهل المأخذ قريب المنال ، والبعض أرق منه ، وبعضها خطابي ، والآخر برهاني ، وما شابه ذلك . فان لم يتخذ تلك الوسائل في إرشاده امتنع عليه مقصوده ، بل ربما جره نصحه إلى الضرر بنفسه . تلك هي الحالة المشهودة التي لا ينكرها أحد . ثم إن نجاحه في تغيير فكر واحد مع كل هذا الاجتهاد موقوف على أن صاحب ذلك الفكر الفاسد لا يعاثر ولا يخالط في خلال تعلمه إلا مرشده صاحب الفكر السليم . فان كان يخالط غيره ممن يؤيد فكره الأول طال الزمن ، وربما لم يتجمع فيه الارشاد . وأظن أن هذا يعترف به كل من مارس الأخلاق والعادات

إن كان هذا حال شخص واحد إذا أردنا إصلاح شأنه في صغره أو كبره مع أنه سهل ضبط أعماله وأحواله ، والوقوف على كنه أوصانه ، ودرجات تقدمه في المقصود وتأخره فيه . فما ظنك بحال أمة من الأمم تختلف عناصرها ، وتباين شعوبها ، فمن الخطأ بل من الجهالة أن تكلف الأمة بالسبر على ما لا تعرف له حقيقة أو يطلب منها ما هو بعيد من مداركها بالكيفية ، كما أنه لا يليق أن يطلب من الشخص الواحد ما لا يعقله أو ما لا يجد إليه سبيلا

وإنما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها الكافية المقررة في عقول أفرادها ، ثم يطلب بعض تحسينات فيها ، لا تبعد منها بالمرة . فإذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرق بالتدريج ، حتى لا يمضي زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرق وأعلى من حيث لا يشعرون — أما إذا وضع لهم من الحدود ما لم يصلوا إلى كنهه ، أو كلفوا من العمل ما لم يهدوه ، أو خولوا من السلطة ما لم يعودوه ، رأيهم يتخبطون في السير لحفا ، المقصود عنهم ، وضلال الرأي فيما لم يكن بمرّ على خواطرهم ، فيمكن أن يخرجوا عن حالتهم الأولى ، لكن إلى ما هو أنفس منها بحكم الاستعداد القاضي عليهم بذلك

مثلا اننا نستحسن حالة الحكومة الجمهورية في أمريكا واعتدال أحكامها ، والحرية التامة في الانتخابات العمومية في رؤساء جمهورياتها وأعضاء نوابها

ومجالسها، وما شا كل ذلك . ونعرف مقدار السعادة التي نالها الاهالي من تلك الحالة ، ونعلم أن هذه السعادة إنما أتت لهم من كون أفراد الأمة هم الحاكمين في مصالحهم بأنفسهم ، لأنهم أرباب الانتخاب ، وإنما رؤساء الجمهوريات ، وأعضاء المجالس نواب عنهم في حفظ تلك المصالح والحقوق التي رأوها لأنفسهم ، وتشوق النفوس الحرة أن تكون على مثل هذه الحالة الجليلة ، لكننا لانستحسن أن تكون تلك الحالة بعينها لأفغانستان مثلاً ، حال كونها على ما نعهد من الخشونة ، فإنه لو فوض أمر المصالح الى رأي الاهالي لرأيت كل شخص وحده له مصلحة خاصة لا يرى سواها ، فلا يمكن الاتفاق على نظام عام ، ولو طلب منهم أن ينتخبوا مائة نائب مثلاً لرأيت كل شخص ينتخب صاحباً له أو نسيباً أو قريباً ، فربما ينتخبون ألافاً مؤلفة ، ثم لا ينتهي الانتخاب إلى المرغوب أصلاً ، لوقوف كل واحد عند انتخابه الأول . ولو وكل اليهم انتخاب رئيس للحكومة ، لانتخبت كل قبيلة رئيساً منها ، ثم يقع الهرج بين الرؤساء ، وهكذا حال الأمم التي تعودت على أن يكون زمامها بيد ملك أو أمير أو وزير يدير أعمالها بدون أن يكون لها دخل في رؤية مصالحها لا يمكن أن يطلب منها الدخول في أعمالها العامة ، وإلا فسدت . فإذا أردنا إبلاغ الأفغان مثلاً إلى درجة أمريكا فلا بد من قرون تبث فيها العلوم ، وتهذب العقول ، وتذلّل الشهوات الخصوصية ، وتوسع الأفكار السكائية ، حتى ينشأ في البلاد ما يسمى بالرأي العمومي ، فعند ذلك يحسن لها ما يحسن لأمريكا

وباعجباً هل الشخص الذي توارث العوائد عن آبائه وأجداده ، ومرن عليها من مهدد إلى كهولته ، وتعود تفويض مصالحته إلى إرادة غيره ، يصح أن يطلب منه في زمان واحد خلع جميع ذلك ، ويلتقي اليه زمام مصالحته ؟ وهو في جميع عمره لم يفكر فيها ؟ إن هذا خطأ ظاهر

ولكون أرباب الأفكار من البرومون أن تكون بلادنا — وهي — كبلاد أوربا — وهي — لا ينجحون في مقاصدهم ، ويضرون أنفسهم بذهاب أعابهم أدراج الرياح ، ويضرون البلاد بجمل المشروعات فيها على غير أساس صحيح ،

فلا يمر زمن قريب الا وقد بطل المشروع ، ورجع الأمر إلى أسوأ مما كان ،
 فيفوت الزمان وهم على حالهم القديم ، وكان لهم إمكان أن يكونوا على أحسن
 منه ، فمن يريد خير البلاد فلا يسعى إلا في إتقان التربية ، وبعد ذلك يأتي له
 جميع ما يطلبه إن كان طالباً حقاً بدون آتاعاب فكر ، ولا اجتهاد نفس . وفي
 الكلام بقية أذكرها فيما بعد هذا العدد

المقالة الثامنة عشرة

كلام في خطأ المقدر

(٢)

تولى أمر هذه البلاد (المصرية) أناس في أزمنة مختلفة ، تظاهر كل منهم
 بأنه يريد تقدمها ونقلها من حالة الهمجية (على ما يزعم) إلى حالة المدن التي
 عليها أبناء الأمم المتقدمة ، وجعلوا الوسيلة إلى ذلك أن تنقل عادات أولئك
 الأمم المتمدنين وأفكارهم وأطوارهم إلى هذه البلاد ، وظنوا أن تقليدنا
 لعاداتهم ، وأخذنا الآن بأفكارهم اليومية ، وتشبهنا بهم في الأطوار ، كف في أن
 نكون مثلهم ، وأن استلامنا لتلك العادات وتلقينا لتلك الأفكار أمر غير عسير
 لم ينظروا في الاسباب والوسائل التي توصل بها أولئك الأمم إلى هذه الحال
 التي هم عليها حتى يعتدوا مثلها أو قريباً منها لترقي هذه البلاد ، بل ظنوا أن
 هذه الغاية من الممكن أن تكون بداية ، مع أن ما نرى عليه جيراننا من الممالك
 الغربية لم يصلوا إليه الا بعد معاناة آتاعاب ، ومقاساة مشاق ، وسفك دماء
 شريفة ، وثل عروش ملك رفيعة ، وكانوا في كل ذلك يقربون من المقصود تارة ،
 ويبعدون عنه أخرى ، كما يرشدنا إليه تاريخهم ، حتى بدلت المآثر الدهرية

طبائع الأهالي ، وغيرت أخلاقهم ، ونهت الضرورات أفكارهم ، وهذبت
المخالطات الجهادية والتجارية عقولهم

إن بداية التقدم الأوربي في الحقيقة كان في نفوس الأهالي وأفراد الرعايا؛
علمتهم الحروب الصليبية سير البر والبحر ، وخالطوا فيها الأمم الشرقية أجيالاً
وطمعت أنظارهم لمغالبتهم ، فدققوا في سبب قوة الشرقيين (التي كانت لهم إذ
ذاك) وبحوثاً في أحوالهم فرأوا لهم عادات جميلة ، وفيما بينهم أفكار سامية ،
ورأوا في دوائر أعمالهم اتساعاً ، وأيدي الصناعة والاكتساب مطلقة الحرية .
ولذلك كان الغنى والعز مستوكراً أقطارهم ، فأخذ أهالي أوربا عند ذلك في
تقليد ، لا في البهارج والزخارف ، بل في أسبابها والموصلات إليها ، وهي
توسيع نطاق الصناعة والتجارة ونحرهما من وجوه الكسب ، فكان ذلك أساساً
للعمل ، وقر في النفوس ، وثبت في العقول ، وبنوا عليه ماشاؤا

ولو تأملنا تاريخ سير التقدم الأوربي لرأينا أسباب التقدم يجمعها سبب واحد ،
وهو إحساس نفوس الأهالي بالآلام صعبة الاحتمال من ظلم الأشراف (النبلاء) وغدر
الملوك ، وضيق وجوه الاكتساب ، ونفرة دينية (١) على المسلمين الذين استولوا
على حرمهم المقدس . وهذا الاحساس هو الذي دعا الأنفس الكثيرة العدد
إلى الخروج من هذه الآلام ، فطلبوا لذلك أسباباً متنوعة ، أتواها التعاضد
والتعاون على ترويح وسائل الكسب ، وافتتاح أبواب الرزق ، فكانت تعقد
لذلك المحالفات والمعاهدات ، وتتألف له الجمعيات ، فكان جرثومة تقدمهم أمراً
منبثاً في غالب الأفراد ، ومحرزاً في أغلب العقول ، وهو نشاط الأهالي في
اجتلاب الثروة ، وطلبهم لحرية العمل لينالوها ، ورفضهم لتلك التقيدات التي
كانت تمنعهم من طلب حقوقهم الطبيعية ، ثم تدرجوا فيه ، ينتقلون من حال إلى

(١) النفرة بالضم من نقر « كضرب » نقرأ « كقعده » نقوراً يتعدى بمن إذا
كان بمعنى الأعراض والانقباض كنفرت الرأفة من زجرها والاسم النفر - وبالي إذا
كان بمعنى النهوض إلى الزحف للقتال . فقولنا النفرة على المسلمين إنما أصله من المسلمين
أو محرف في الطبع عن النمرة بالعين المهملة وهي بضم النون وبالفتح ماله عجب
والكبرياء في النفس من الشموخ

حال والأصل ثابت لا يتغير - حتى عم التغير جميع العوائد والمشارب والقوانين .
ولم يكن ذلك كله الا من حرص الأهالي أنفسهم على الخروج من الآلام التي
كانوا يشعرون بها في كل لحظة من حياتهم ، ويتوارث هذا الشعور وذلك
الحرص أبنائهم من بعدهم

أما عقلاؤنا فقد وجهوا نظرهم الى حالة المدن الحاضرة والاهالي على غير
علم منها بأنفسهم ، فاستلقتهم العقلاء اليها لكن لا بتحريك غيرتهم الى العمل اختياراً
أو ألبائهم اليه اضطراراً وتسهيل الطرق لهم حتى يسير من جميع عناصر البلاد
وطبقاتها أشخاص مختلفون في الأفكار والأحوال إلى تلك البلاد المتقدمة ويشهدوا
عاداتها وأحوالها ويهتم العقلاء منهم بالبحث عن أسباب السعادة وموجبات الشقاء
اهتمام المضطر الذي يطلب خلاص نفسه من هلاك يتوقعه ، بل جلبوا اليهم كثير آمن أبناء
تلك البلاد تظهر عليهم الرفاهية ، وترى عليهم آثار النعمة ، يتكلمون بما لا يفهم ،
ويتفكرون فيما لا يعقل ، فشادوا بيئنا أبنية وزينوها بما لم نكن نعهده من أنواع
الزينة ، وجلبوا اليها من مصنوعاتهم مارات منظره ، وطاب مخبره ، لكننا لم
نشهد مصنعه ، ولم ندر منبعه ، ورأينا هم يزينون بهذه اللطائف التي تذهب الحزن
وتشرح الخواطر ، ويتنافسون فيها ، فأعجبنا حالهم هذه وقال لنا العقلاء كونوا
مثلهم ، واحقوا بهم في هذه السعادة ، ثم صاروا أئمة لنا في العمل ، فأخذنا نتشبه
بهم ، لكن فيما رأينا وهو الزينة والبهجة غير باحثين عن كون ذلك هو الذي
يلاحقنا بهم في الحقيقة أم لا

ومن ذلك ترى أفكار الغالب منا دائماً عند ما يجد فرصة الاقتدار موجهة
إلى تشييد الأبنية وتجويد وضعها ، وإتقان ترتيبها وتزيين باطنها وظواهرها ،
والتوسع في لوازم المأكل والمشارب وآلاتها وأوانيتها ، والتفنن فيها ، وجلب
ما هو أغلى ثمناً وأدخل في النظر وأجلب للأنس ، والأناق في الملابس ومحاذاة
الأوربيين فيها ، ومحاوله ان تكون على النمط الأعلى عندهم ، وعلى هذا النحو
تقتنا في أنواع المفروشات وتأتقنا في اقتنائها من أنواع مختلفة مما غلامته ،
وارتفعت عن الطاقة قيمه ، وتنافسنا في ذلك كتنافس أسلافنا في افتتاح البلاد

وتملك الحصون ، وبالجلة فقد سلكتنا مسالك المتمدنين في ثمرات تمدنهم التي جعلوها من زوائدهم ، فأسرفنا في الانفاق ، وصار الناظر للباسنا ومساكننا ، والذائق لمطاعمنا ومشاربنا ، يشهد بأننا في ذلك بحمد الله متمدنون فقد اشتركنا معهم في ثمرات التمدن ، أي ما ينتهي إليه حال المتمدن من طلبه للتمتع بالذائد وركونه لترويح النفس وتخفيف أتعابها

لكن من تأمل حقيقة الأمر علم أن مثلنا في ذلك كمثل الدجاجة رأت أن الأوزة تبيض بيضا كبيرا فطلبت أن تبيض مثلها فأجهدت نفسها في أن يكون ذلك غير عارفة أن ذلك لا يكون إلا باستعداد (أي بأن تكون أوزة) فحسبت نفسها واستعملت قوتها الدافعة حتى انشقت منها ما انشقت ، وتمزقت منها ما تمزقت ، فان افراطنا في تقليد الأوربيين ومجاراتهم في عاداتهم التي نظمتها فوق عاداتنا البسيطة فعل في نفوس غالب الأغنياء منافع لا غريباً صرف نظرهم إلى الذائد واستكمال لوازم الترف والنعيم ، وأحدث في نفوسهم غفلة عما يحفظ ذلك عليهم بل يوجب ازدياده لديهم وهو الوقوف على الطريق المستقيم الموصل إلى اكتساب المجد الحقيقي والشرف الذاتي الذي يتبعه الغنى والثروة والراحة المستتبعة للذة الحقيقية والنعيم الباقي في الحياة وبعدها ومن هذه الجهة (جهة الغفلة عن روح الثروة وحياتها وهو التمدن الحقيقي أعني الاحساس بوجوه الذائد والآلام والتنشط في طلب وجوه الكسب المتنوعة وطلب الأمانة على تلك الوجوه ومراعاة الحقوق والواجبات الطبيعية والشرعية) فارقوا الأمم المتمدنة فصيح أن يطلق عليهم أنهم في غاية التمدن مع أنهم إما في بدايته وإما قبلها بكثير ، وحق لهم ذلك فانهم رأوا أبواب الذات مفتحة قبل أن يجدوا عقلاً يقدر لهم ما يلزم منها وما لا يلزم

كل ذلك نشأ من جلب تلك العوائد الترفية إلى بلادنا وطلب التحلي بها بدون أن نحوز ما يوصلنا إليها من أنفسنا وليتنا قبل أن نشيد بيوتنا بالارتفاع الشاهق والترتيب المحكم ، ونزيعها بأنواع النقوش والفرش والاثاثات ، أبقيناها على بساطتها ، وشيدنا في عقولنا الهمم الرفيعة والحيلة التي لا تمتد إليها الأيدي ، وأحكمنا طرق سيرنا في حفظ حقوقنا ، ورتبنا في مداركنا جميع الوسائل والمعدات التي تحفظ

علينا ما وجدنا ، وتجنب اليينا ما فقدنا ، وزينا نفوسنا بالفضائل الانسانية والشرعية من
رحمة بالضعفاء ، ورفق بالملهوفين ، وغيره على البلاد ، وأنفة عن الصغار
لعمركم لو قدمنا هذه الزينة الجوهريّة على ذلك الرونق الصوري لكان
العالم بأسره ينظر اليينا نظر الراهب الخائف ، أو يرمقنا بلحظ المعظم المبجل ،
وكانت معيشتنا البسيطة أوقع في نفسه من معيشته الرفيعة ، وكان ذلك سهلا
لو ان الزاعمين فينا حب الترقى والتقدم ساروا بنا من البدايات ، وحجبونا عن
النهايات ، حتى لا نراها إلا من أنفسنا فنطأ بها لا لأنها أعجبت النظر ، ولكن لأنها
بنت الفكر ونتيجته ، وكانوا يعلموننا محاذاة المتمدنين في أصول أعمالهم ، لافي
زوايدها ، فكنا بذلك نصل الى ما وصلوا اليه في زمن أقل بكثير من الزمن الذي
نالوا فيه ما نالوا ، لكن ما فات الوقت ونحن الآن فيه ، فعلينا بالعمل ، غير
مقتصرين على مجرد الأمل

المقالة التاسعة عشرة

تقدم في موطأ المفسر . *

(٣)

لسنا ننكر ان بلادنا كانت في الأزمان السابقة تحت تصرف أقوام خشين
لا يعلمون للخلقة غاية إلا وجودهم الشريف ، وكانوا يعدون أفراد الأهلالي انعاماً
خلقت لهم يستعملونها كيفما يريدون (كما كان ذلك شأن سائر الأمم غربية
ومشرقية) فارغوا أنف الطبيعة ومحو أنوار الالمام الفطري الذي وضعه الله في
قوس عباده لفهم منافعهم ومضارهم حيث وقفوا سداً حصيناً بين كل شخص
ومنافعه ، فاستأثروا بجميع ثمرات الأعمال ، فلا يعمل العامل وله أمل بأن يجني
ثمرة عمله ، فانه عندما تبدو الثمرة يسرع حاكمه إلى قطعها ، وكانت حياته معتودة
بغضب ذاك الحاكم ورضاء ، فان رضي عنه فهو في أمن عليها ، وان غضب عليه فهو

ان عاش كمرىض بلغ به المرض غايته ينتظر الموت في كل لحظة ، فيكون في حالة تسليم مطلق (خائف على حياته مستسلم لقضاء حاكمه) وبالجمله لم يكن لأحد من الأهالي حركة اختيارية ناشئة عن فكره الخاص به في تحصيل منفعة أو درء مضرة ، بل كانت أعماله تابعة لارادة سيده الحاكم ، وكان يعتقد أنه وما ملكت يده حل الأمر عليه ، وليس لتصرف ذلك الأمر حد يجب ان ينتهي اليه ، وهذه حالة يصعبها تاريخ هذه البلاد أجيالا كثيرة إذا استرسلنا في طلب مبدئها قد نصل اليه وقد لانصل ، وبذلك الاسترقاق الظاهري والباطني فثبت الارادة ، ومات الاختيار ، وطغى نور الفكر بالمرءة

وكان من جملة التقييدات العنيفة التي وضعها أولئك المتسلطون المجبر على أهالي المدن وغيرها في الأعمال والأقوال الشخصية ، حتي كانوا من شدة التضييق ، يستعملون طريقة يقال لها الكبسة وهو : أن يهجم رجال الضابطة على بعض الأماكن ليلا ليقبضوا على من يظن بهم الاجتماع على فسق ، كفحش بالنساء ، أو شرب المسكرات وما شاكل هذا ، فان وجدوا شيئا من ذلك ساقوا من يجدونه الى حيث يستوفي عقابا ألما . وكذلك وضعوا في الأفواه ليلاما من الرهبة ، فلا يكاد ينطق النالق بكلمة في مطلب علمي ، أو تجادل في حال شخص الا ويرمي بكفر وزندقة ، أو طعن في حاكم ، وله عند ذلك الويل الذي لا مخلص منه ، كل ذلك سمعنا بعضه بالنقل ورأينا بعضه الآخر بالعيان

فذلك كانت حالة تعيسة يجب على عقلائنا أن ينتحلوا كل وسيلة لتخليص رقاب العباد منها ، فرزق الله هذه البلاد بأناس خالطوا الأئمة المتمدنة ، وطالعوا أحوالها ، ورأوا ما عليه أهلها من إطلاق الارادة وحرية الاختيار ، فطلبوا لبلادنا أن تكون في أحوال أهاليها الشخصية على مثال سكان تلك البلاد المتمدنة ، لكنهم أول ما بدأوا به أن أباحوا (ما أقبحها من إباحة) لكل شخص أن يعمل فيما يخص نفسه بإرادته ، ويتكلم فيما هو مقصود على ذاته بمقتضى فكره ، وشرطوا في ذلك شرطا (ما أنفسه من شرط) وهو أن تكون تلك الأعمال والأقوال غير متعلقة بارتباطاته مع حاكمه ، فان كانت كذلك فدونها ضرب

الرقاب ، أو سكن الحبوس ، أو الجلاء عن الأوطان ، وسموا تلك الإباحة حرية ، ونادوا بها على الألسنة الظالملة ، فكان حاصل تلك الحرية أن لاجتاح على من ارتكب أي جريمة ، وتطبع بأي خلق ، حسناً كان أو سيئاً ، وذهب الى أي مذهب ، صحيحاً كان أو فاسداً ، وإنما عليه أن يكون تحت أمر الحاكم ليس له حق في أن يمنع عنه مطلوباً ، أو يستقضي منه مسلوباً أي كان ، فلم يجعلوا للسلطة حداً معيناً ، وهو الذي نسميه بالقانون ، الذي يعرفه كل أحد فيقف عنده ، بل أبقوها على ما كانت عليه ، وجعلوا تلك الحرية غطاء على هذا الاستعباد ، فهم في الحقيقة لم يقلدوا الأمم المتقدمة في إطلاق الإرادة من جهة الارتباطات العمومية الثابتة ، فهذا خطأ من وجه إن كان لهم مقصد إصلاح ، وظلم إن كانوا متعمدين هذا التقييد ،

ثم إنهم قلدوها في الأحوال الجزئية الشخصية ، مع علمهم أن البلاد غير معتادة على مثل هذه الحرية فيها ، فلذلك اندفعت الناس الى انتهاب الشهوات ، وهدموا حرمة الوقار ، ونهالوا الكوا على شرب المسكرات في بلادنا الحارة الى الحد الذي لا يبلغه إلا الأوروبيون في بلادهم الباردة ، وكثرت لذلك الخانات ومخازن الشراب المهلك للعقول والأبدان ، ثم تولعوا بما يتبع السكر من اللهو واللعب ، وتنافسوا في الخطوة عند النساء الباغيات ، واتسع الأمر في ذلك حتى صارت المداعبة والملاعبة بين النساء والرجال في الطرق والشوارع ، وتعدى ذلك المرض المعدي الى الحرائر فذهب الكثير منهن الى حيث ينتغن ، واقتضحت بذلك بيوت شريفة ، وكلما طلبت لذلك منعاً ، أو رمت له دفعاً . قال المولع : هذه حرية ، فضاع شأن الآداب ، وانحطت قيمة الشرف والوقار ، حيث أصبح أبناء الاغنياء وذوي المقامات يتسابقون الى التهور في هذه الأحوال الرديئة ، ويدعون اليها من دونهم ومن فوقهم (الا قليلا) ويصرفون فيها مالا يقدر من النقود (وسأجعل لذلك موضوعاً خاصاً) وكاد فساد الأخلاق يسري الى كثير من طبقات الأهالي — هذه نتائج حرية ذلك العمل

وأما نتائج حرية الفكر (التي يزعمونها) فكانت خاصة بالاعتقادات

والمشارب الدينية ، فأخذ كثير من الناس يجهر بين العامة بألفاظ تناقض دينه الذي ولد فيه . فان قيل له : خفض من صوتك ، وأجل في قولك ، فما كل الناس يرضاه ، قال : إنا في زمان الحرية . على أن أفكاره التي يذهب اليها في مخالفة دينه ليست بأفكار مرتبة مبنية على مبادئ . ربما يقال إنه اتخذها مشرباً ، بل ألفاظ حفظها من معاشرته لو سئل عن معناها أو طلب منه أي وهم ساقه اليها لعجز عن التعبير ، والتجأ الى التهوس ، ورمى من يخاطبه بالجهل والخشونة حيث لم يوافق على مشربه الفاسد . ثم يتخذ هذه الحزبيلات الاعتقادية التي يظنها تنوراً وتبصراً ، ذريعة لاستباحة القبائح ، واستحلال المحظورات . ولقد رأيت شخصاً ينكر ألوهية الخالق والعباد بالله ثم يسأل عن حكمة المعراج ! ومنهم من ينكر النبوات ، ويعتقد بالشياطين أو ما أشبه ذلك . فهؤلاء من الجهل بمكان لا يعلمون فيه حيوان فضلاً عن إنسان

فهذه الحرية البتراء التي رمانا بها عقلاؤنا لم تدع لها أثراً يحمد . وإن كان الأورباويون يحرصون عليها ، فان استعداد بلادنا لم يكن ملائماً لمثل هذا الاطلاق ، الذي هو في الحقيقة عين الرق والاستعباد . فان الجاهل الذي لم يتعود على تصريف إرادته وأعمال اختياره إذا أطلق له العمل وقع في أشد من الرق وأضر من العبودية . نعم إنه عتق من أسر الضابطة وغل الجزاء (١) ولكن شهوراته الخبيثة تبيعه بأنحس الأثمان الى الاسراف والبطالة والكسل ، وجميع أنواع الشرور ، وتودعه سجن الفقر ، وتغله بطوق الذل والعار . وباليته بقي تحت سيادة القانون يسوسه حتى في أعماله الشخصية . فالكبسة على ما كان فيها من الخطر على الأنفس والأموال وشناعة الصورة لو أحسن فيها القصد لكانت أولى وأفضل الى زمن تتقدم فيه التربية ، فيكون لكل شخص زاجر من نفسه ، فترفع الكبسة بذاتها ، ويذهب الناس أحراراً بطبعهم ، وما كان ذلك بعسير ولا محتاج الى زمن طويل . وما ضرنا الا التقليد على غير تبصر بحال البلاد واستعدادها فتلك الحرية التي سموها إطلاق الفكر قد عتقت صاحبها من قيد العقل

وأسلمته الى الجهل الأعمى ، فهو يتصرف به كيف ما يقتضي من المضرات ، ولو أنه بقي تحت سيادة العقل ، يسوسه المذنبون ، ويقوده المتبصرون ، حتى يعلم من أين تؤذي الأفكار ، وبأي الوسائل يوفى العقل حظوظه الحقيقية - لكان ذلك خيراً وأبقى ، ولم يكن يحتاج الا لتخفيف يسير في شاعات المتعصبين ، وتعيين دائرة منتظمة ، يردد الكلام بين محيطها الى زمن معين حتى تستقيم العقول ، فتضرب لنفسها حداً تقف عنده ، ولكننا طلبنا أن نكون على مثال الأوربيين في عوائدهم حتى المضرة بأخلاقنا وأعمالنا وأفكارنا

ويا ليت العقلاء منا في الزمن السابق اقتدوا بالبلاد المتقدمة في الأزمان السابقة عند إرادتهم تأييد الاستقلال حقيقة ، حيث بدأوا بالمجالس البلدية ، فكان يمكنهم أن يصنعوا لأهل البلاد قانوناً بسيطاً ينطبق على عوائدهم وأحوالهم ويقرب فهمه من إدراكهم ، ثم يفوض الى أهل كل بلد أن تنتخب منها عدداً معيناً ليقوم بالفصل بينهم على مقتضى هذا القانون ، ثم يصنعوا مثل ذلك في المدن على حسبها ، ويذهب أشخاص من العارفين الى القرى والمدن ، ليفهموا أحوال مواد القانون السهل البسيط ، ويدربوهم على كيفية العمل به ، ثم لا يزالوا على المراقبة أزماناً ، فلا تمضي مدة حتى يكون جميع الأهالي عالمين بما يجب عليهم ولهم ، فتنمو فيهم القوة ، ونحيا فيهم روح الاختيار كما كانت عليه الجمعيات ببلاد إيطاليا وفرنسا وغيرها في مبدأ تمدنها ، ثم يتدرجوا في القوانين الى أرقى مما وضعوا أولاً مع تقييده وتعليمه لجمهور الأهالي ليعلموه فيقفوا عند حده وكان في ذلك غنية عن القوانين الضخمة التي لا يفهمها إلا الراسخون في العلم ، وهي محفوظة بين دقات الكتب وصدر بعض من النبهاء ، لكان الأهالي أنفسهم الذين قد وضعوا هذه القوانين لهم غير عالمين بها ، فكيف يطلب منهم أن يعملوا بمقتضاها ؟ (إن هذا شيء عجيب) ! غير أن العقلاء مناة ولون : لا بد أن نكون مماثلين لأوربا في القوانين والعادات رغماً عن الحق الذي يقضي علينا بأن نكون خاضعين لأحكام بقعنا ، وما تقتضيه طبيعة موقعنا الذي نشأنا فيه ، ولن يكون ذلك أبداً

وأنا نخشى لو تمادينا في هذا التقليد الأعمى، واستمر بنا الأخذ بالتهابات الزائدة قبل البدايات الضرورية الواجبة أن تموت فينا أخلاقنا وعاداتنا، وأن يكون انتقالنا عنها (لو انتقلنا) على وجه تقليدي أيضاً فلا يفيد، لكن الوقت لم يفت بعد، فعلى من يريد بنا خيراً أن يذهب بنا طريقاً قويمًا، ولا أراه إلا نشر القوانين (وإن كانت طويلة صعبة المنال في وقتنا هذا، وما لا يدرك كله لا يترك كله) (١) إنما لا يكتفي بنشرها على لسان الجرائد، فإن قارئها قليل، ولا يارسال المنشورات الى عمد البلاد، فإن كثيراً منهم قلما يفهم اذا قرأ، ولكن لابد من تشكيل جمعيات في القرى والمدن لتفاهم القوانين واللوائح والمنشورات والاضاعت الحقوق، وكثرت المشاكل، وصعب كبح صغار المأمورين عن الاجراءات المضرة بالحكومة والاهالي معاً. ثم وضع حدود قويمة للأعمال الشخصية والأخلاق والتصرفات، فإن إصلاح الأخلاق والأفكار والأعمال من أهم واجبات البلاد، وبدونه لا يمكن إصلاح شيء من أمورها، وليس بجائز أن يجعل في درجة أقل من درجة قوانين حفظ الضبط والربط ومركز النظر في جميع ذلك نهاء البلاد وذو الشأن فيها، فعليهم إن كانوا صادقين في الوطنية أن يبذلوا الجهد في طلب ذلك، والقيام بما يلزم، وإلا فانهم مقلدون فقط والله أعلم

(١) المنقول المحفوظ : ما لا يدرك كله ، لا يترك كله .

المقالة العشرون

ابطال البرع منه نظارة الاوقاف العمومية (٥)

عرض الى نظارة الاوقاف العمومية من شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين رضي الله عنه في تاريخ ٣ ذي القعدة ما مفاده: أن مجلس ذكر السعدية الذي انعقد بذلك المسجد في كل يوم ثلاثاء لا يذكر فيه اسم الله الا مصحوبا بضرب الباز (نوع من الطبل ذي الصوت المزعج معروف) ولما في ذلك من تشويش الأسماع ، نهينا عليه مراراً بابطال هذه العادة وأن يذكروا الله ذكراً مجرداً عن الطبل فلم تثمر التنبيهات أدنى ثمرة ، وحيث إن الزائرین لضريح الامام الحسين وطلبة العلم وجها للوم والاعتراض على هذه العادة يقولون : إنها من المحرمات شرعاً ، ويجب على الحاكم منعها بموجب صدور الأمر باطلاله ، فكتب من نظارة الاوقاف العمومية الى حضرة فضيلته شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية ما معناه :

قد تبين من إفادة شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين ما ذكر فيها، وحيث إن النظر في ذلك مختص بسيادتكم بعثنا بها اليكم لإفادة الحكم الشرعي فيها . فوردت إفادة حضرة الاستاذ شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الى ديوان الاوقاف ناطقة بأن ضرب طبل الباز (أي ونحوه) في المساجد مما لا يسوغ شرعاً فعل ديوان الاوقاف أن يتخذ الطرق لمنعه ، ثم زاد حضرة الاستاذ في حاشية وقيمه أن ذلك ليس مختصاً بالباز ، بل هو عام في كل ما أوجب تشويشاً على المصلين حتى صرح أئمة العلماء بأنه يحرم رفع الصوت بذكر الله في المسجد اذا ترتب عليه التشويش . وكذلك كل ما يترتب عليه اجتماع من لا يليق اجتماعه بالمسجد كاختلاط الفتيان بالفتيات ومزاحمتهم ومكاتفتهم معهن في المساجد المحترمة .

فصدر أمر نظارة الاوقاف الى مأموري أوقاف المحروسة بالزام كل مأور بمنع وقوع مثل ذلك في المساجد التابعة لقسمه ، وأرسلت الى كل منهم صورة الافتاء المحرر من قبل حضرة شيخ الجامع الازهر ونهت عليهم بالاطلاع عليه ، وفهم مأودعه من الحكم الشرعي والسير على مقتضاه ، وأخذت التعهدات القوية على خدمة المساجد وأم المراقبة والتيةظ لمنع أي لفظ يوجب تشويشاً على المصلين ، أو اخلالاً بجمرة المساجد اتباعاً لنصوص الشريعة الغراء أه

وهذه طلائع خير تبشرنا بحياة الشريعة الحقة والسنة القويمة ، وباتتصار جيش نور الهدى على كتائب ظلم البدع والضلالة ، إذ وجه أولوا الامر مناظرهم الى تخفيض شأن البدع وإزالتها . فلنشكر همة سعادتلو ناظر الاوقاف العمومية على عنايته بشأن الشرع الشريف واهتمامه باحترام أماكن العبادة وصيانتها عن وقوع اللهو وسيء الافعال . ونثني كل اثناء على حضرة سيادتلو شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الذي لاتأخذه في الحق لومة لائم ، ولايالي في نصرة دين الله بكثرة عدد الجاهلين . فلقد نسمع بعضاً من الجاهلة بل عددأوا فرأمنهم يقول هذه سنة وجدنا عليها آبائنا ، وأخذ العهد علينا باتباعها أشياخنا ، وطبعت على حبها قلوبنا ، وتمرت على القيام بها أعضاؤنا . فكيف يصح أن يحكم علينا بتركها ، إن هذا شيء . عجب : تلك حججهم الواهية كحجج غيرهم من المبتدئين يهدرون دم الشريعة طوعاً لأغراضهم وتنفيذاً لأحكام عاداتهم ولبش ماكانوا يصنعون ، ويأبى الله الا أن يحق الحق على يد نصرائه الذين يفضلون تأييده على مدحة تصدر من جاهل لاتغني من الجاه شيئاً

ولا يتوهمن مطلع على أمر نظارة الاوقاف أن المنع خاص بالباز وطريقة السعدية ، أو بالطبل على العموم ، بل هو صريح في عموم كل فعل يوجب تشويشاً على مصل أو اخلالاً بجمرة مسجد ، فيدخل في المنع طريقة المغاربة المنسوبة للسيد عبد السلام الاسمر (كذباً واقتراء) ومن شعائر أبناء تلك الطريقة اتخاذ طبول متنوعة ، بعضها مستطيل على شكل المدفع يحملونه على أعناقهم وقت الذكر وله صوت أشبه بصوت المدفع أيضاً ، وبعضها مستدير (يعرف بالطار) الا أنه كبير

ينشأ من ضربه صوت غنيف يضم الآذان ، ولا يسمعون للذكر الا وفي مركز دائرتهم موقد نار ليشدوا عليها جلد الطبل لتزداد ضخامة الصوت . فاذا قاموا الى الذكر غضوا شناعة أصوات الطبول الكثيرة بضججتهم المزججة يحأرون بألفاظ لاملول لها ، وعند ما يشتد لحر الاوهام في عقولهم يهيمون هيام المعاتيه ، ويتجرد البعض منهم عن ثيابه ، يأخذ جذوات من النار ويدخلها في فيه ويلامس بها بدنه إظهاراً للكرامة وحاشا أن تكون — من الكرامة — كل ذلك مع حر كالت شديدة واختبأ غريب . ومن عاداتهم أن يأتوا بمثل هذا العمل في مسجد سيدنا الحسين بمولده ، فيجتمع عليهم الناس ، ويزدحم المتفرجون ، ويشوشون أذهان الزائرين . وهذا حظهم ولا يعلم أية سنة تبيح أمثال هذه المنكرات التي يجرها الجملة في بيوت الله المعظمة ، ولا يخرجهم من حكم المنع أيضاً ما يفعل من نحو ذلك بأضرحة الاولياء رضي الله عنهم وإن لم تكن مساجد لمنافاتها الأدب الواجب في حقهم . على أن الشريعة المطهرة مانعة من أن يقرن ذكر الله بآلات لهو على العموم بدون استثناء ، خصوصاً وأنه لا يشك عاقل في أن قصدهم بضرب الطبول وتوقيع الذكر على نغماتها إنما هو اللهو والطرب الممنوعان شرعاً يرشد لذلك تضاحكهم وتلاعبهم في نفس محافلهم الموقرة ، ونهاقتهم فيها على مالا يليق بشأن العبادة ، ولو كلف أحدهم أن يهتف بذكر الله مرة ، وهو وحده لم تسمح نفسه بذلك ، ولكن يحركه الى هذا الذي يسميه ذكر آ حب الطرب والميل الى اللعب وأقبح شيء في هذا الباب اعتقادهم أن طاعة شهواتهم هذه طاعة لله فعوذ بالله من الزينغ . ولا ريب أن علمائنا رفع الله قدرهم سيفرحون بمنع هذه البدع فرحاً شديداً ويرجون من عدالة الحكومة إزالة أمثالها مما تنكره نصوص الشرع ، ويعاب على العقول السليمة أن تقرر ، ويشمل حكم المنع أيضاً الازدحامات التي تكون بالمساجد الشهيرة في أيام تعرف بالحضرات كيومي الأحد والاربعاء بمسجد السيدة زينب ويومي السبت والثلاثاء ويوم عاشوراء بمسجد سيدنا الحسين ، إذ يختلط فيه النساء والرجال على هيئة ينكرها الشرع والطبع جميعاً ، ويجري فيها من الفعال القبيحة مالا يليق ذكره . ولا يدع الازدحام مكاناً لمصل يصلي فيه ، ولئن وجد المكان

فقلما يستطيع أداء الاركان بدون تشويش فيها . فهذا الأمر الذي أصدرته نظارة الاوقاف متبعة فيه افتاء شيخ الاسلام حفظه الله يعتبر أساساً جليلاً لمنع كثير من البدع ، وقد فتح به باب من الخير لا بد من الوصول الى غايته إن شاء الله وسيسري ذلك من الناهرة الى بلاد الارياف ، فعلى الناهجين لطرق البدعة أن يعدلوا عنها قبل أن تمسهم يد الحق فيجبرون على العدول غير مشكورين (يقول جامع الكتاب) كان الاستاذ رحمه الله يسعى لدى الحكومة بإبطال هذه البدع والمنكرات ولطلب الفتاوى التي يعتمد عليها ، ثم ينوه بذلك في الجريدة الرسمية ويمدح العاملين

المقالة الحادية والعشرون

نفي رسمي *

بطلان الدوسة

أطلقنا في بعض أعداد جريدتنا السابقة من عهد قريب (١) لسان الشكر والثناء للجناب الخديوي وهيئة الحكومة المصرية الحاضرة والسيد البكري على عنايتهم بإبطال بدع كثيرة ليست من الدين في شيء ، بل هي مناقضة للدين المحمدي على خط مستقيم . ومن أفضح تلك البدع بدعة الدوسة ، وهي أن ينطح الناس على الارض مصطفىين أحدهم لجنب الآخر ، ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحداً بعد واحد حتى ينتهي الى آخرهم ، وهم مسلمون من أهل الايمان قد أمر الله بتكريمهم وحرمة إهانتهم إلا لحد أو تعزير شرعي ، بل قد نطق الكتاب العزيز بتكريم نبي آدم على سائر الحيوانات مطلقاً . فكيف بالمؤمنين وهم أشرف هذا النوع ، وقد جعلهم الله في الدرجة الثالثة من عزته

* نشرت في العدد ١٠٣٨ الصادر في ١٦ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨

(١) كتب ذلك في عدد ١٠٣٥ الصادر في ١٣ ربيع الاول اذ ذكر أبطال

الدوسة من حفلة المولد النبوي وكان قد مهد لمثل ذلك وسعى له سعيه

سبحانه وتعالى يقال : (والله العزة ورسوله وللمؤمنين) فهل يليق بعد هذا أن يطرح المؤمن الشريف مهانا على التراب ليطأه حافر من البهم ، وقد نعت الشريعة الغراء عن إهانة أجساد الاموات فضلا عن الاحياء

وانا لنعلم علم اليقين ان حضرة مولانا (سيادتو) شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية قد وقع لديه هذا الأمر — أعني ابطال الدوسة — موقع الاستحسان لعله أنها كانت من المنكرات الشرعية ، وكان يتمنى التفتات الحكومة الى ابطالها وهو متشكر من الحكومة التي أقرت السيد البكري على إزالتها ، ولما عاد الجنب الخديوي للمذاكرة معه في هذا الشأن بتين حفظه الله ما في هذه البدعة من المحظورات الشرعية كاهانة المؤمنين والتعرض للخطر فانه لا يؤمن أن تفلت رجل الحيوان الضخم كالحصان الذي يركبه الشيخ للدوسة قترض عضواً يابساً أو تبتك عضواً رخواً ويكون فيه تلف المصاب ، وان التعرض للخطر من المحظورات الشرعية المحرمة الارتكاب ، فأمره الجنب الخديوي أن ينبه على بعض المشايخ ليعينوا ذلك للعامة ، حتى يقتنعوا بحرمة هذه البدعة ، وقد نبه سيادته على كثير من الوعاظ والمدرسين ، وأوعز اليهم أن يشرحوا للعامة حقيقة الأمر ، وبوقفهم على ان أمثال هذه البدع مما لا أصل له في الدين (على ان أصل الدوسة فيما تقول العامة كانت كرامة للشيخ يونس بأن يدوس حصانه على آنية من الزجاج ولا تنكسر ، وهي مرة واحدة ، فكيف تبدل الزجاج بالانسان ، وصارت عادة مستمرة ؟ نعوذ بالله)

وكذلك سر كل السرور بذلك حضرات العلماء الأعلام أيدهم الله ، فانهم متضلعون من الأدلة العقلية والعقلية الناطقة بفضل المؤمنين وتحريم امتنانهم خصوصاً ، وان الدوسة وأمثالها من البدع لم يرد لها نوع مشابه ولا مماثل في السنة النبوية الغراء حتى يلتبس أحد موافقتها لشرع ولو بطريق التشبيه على بعد . وأما دعوى انها من الكرامات فهي باطلة عند أهل السنة والجماعة ، فانهم نصوا في كتب التوحيد على ان من شروط الكرامة ان لا تصير عادة يتعاطاها من يريد اظهارها على حسب إرادته فان صارت كذلك كأكل النار وضرب السلاح والدوسة (١٨ — تاريخ الاستاذ الامام — الجزء الثاني)

ونحوها التي يتعاطاها كل من (يأخذ عهداً على طريقة الرفاعي أو السعدي) أو (يتولى مشيخة السعدية) أيّاً كان فلا تكون من قبيل الكرامة ، بل تعد من الحيل المذمومة ، ومن أجل ذلك قد بادر السيد البكري وساعده أهل الشرع والعقل على ابطال هاته البدع المضرة بالدين والدنيا

فما يتفوه به العامة الجهال الذين لا يعرفون ما الشرع وما الانسانية ، ولا يميزون الحسن والقبيح من ان هذه عادة قديمة ، فكيف يسوغ ابطالها يعد من الهذيان الذي لا طائل تحته ، فان العلماء الشرعيين على العموم شاهدون بأن الدوسة ونحوها من البدع المنكرة فهل يريد الجهال بمجهلهم أن يغيروا شرع الله أو يرومون ان العلماء يتحاشون عن إنكار البدع خوفاً من جهل الجهلاء ؟ أولا يعلم الجاهلون ان مصر بل وغيرها من البلدان قد حدث فيها من البدع المضرة بالدين ما كاد يذهب بهجة الشريعة وأن ذلك كان تبعاً لأهواء الأمراء السالفين ، وان العلماء في الأزمان السابقة كانوا لا يستطيعون إعلان الحقيقة خوفاً من سطوة الظالمين ، أما الآن وقد نظر الجنب الخديوي ورجال حكومته إلى الاصول الدينية بعين الاحترام ، فلا يخشى العلماء لومة لائم في إنكار المنكر ، وإقرار المعروف ، فليس على الجاهلين بالأصول الشرعية إلا أن يتعلموا خيراً لهم من ان يصادموا أوامر الدين الحق التي اتفق عليها العلماء ، وغضب الله ورسوله على كل من خالفها ، فان المصائب لم تصب علينا ، ولم تصل أيدي الغدر والفجور البناء ، إلا من يوم نبذ المسلمون أمور دينهم وراءهم ظهرياً ، ولم يلتفتوا إلى حقيقة الشرع ، ولم يقفوا عند حدوده القويمة ، بل زادوا فيه أموراً ظنوها منه ، وهي ليست منه في شيء ، وان بطلان هذه العادة السيئة ليس إلا مفتاحاً لبطلان عادات كثيرة وسنرى البدع الضالالية تبطل شيئاً فشيئاً حتى يرجع الأمر إلى الكتاب والسنة ، ومذاهب الأئمة الراشدين ، هداًنا الله للاقتداء بهم ، وسنعود إلى الكلام في أمثال هاته البدع مراراً أخرى ان شاء الله تعالى

المقالة الثانية والعشرون

الدوسة (*)

تقدم لنا الكلام على ما يتعلق بهذه العادة المخالفة لأحكام الشريعة ونواميس الطبيعة الانسانية وأظهرنا ما شملنا من الافراح وما عمننا من المسرات عندما توجهت عناية الجنب العالي الخديوي إلى تطهير معالم الدين من دنس البدع ومستقبحات العادات المناهضة لقواعده القويمة الاساس الواضحة البيان واستضاءت بمشكاة نوره عزيمة حضرة الحسيب الاستاذ السيد البكري فاعلن أمره في السنة الاولى من تولية نقابة الأشراف (سنتنا هذه) ببطلان الدوسة وإلغائها كلياً من جميع الموالد والاحتفالات ، وقد رأينا بداية اتباع هذا الامر في مولد النبي صلى الله عليه وسلم الذي أقيم في سنتنا الحاضرة في العاصمة وجميع مدن القطر وبناדרه . فتيقنا أن جيوش البدع الضالة قد انهزمت طلائعها ، وأن أنوار القواعد الشرعية أخذت تسطع في آفاق بلادنا فتظهر مرآة العقل من رجس الخرافات ، وتحفظ هيكل الانسان (الذي كرمه الله) من وطئه بمناسم الحيوانات ، ورجونا أن يثل عرش كثير من أعمام الجبل وأضلتهم الشهوات

فبينما نحن نستشق خبراً ينبئ بآبادة تلك البدعة ، او يشعر بزجر أولئك المشعوذين وتأديب المخرفين . إذ سمعنا الآن أن نفرأ ممن ألفوا تلك العادات استغفرتهم مصالحهم الخصوصية ، وتحركت حميتهم للمحافظة على عوائدهم البالية ، والتمسوا من حضرة الحسيب النسيب السيد البكري أن يبيح لهم إعادة الدوسة في مولد الشيخ يونس المدفون بجهة باب النصر (الذي روي عنه أن الزجاج صف أمام مناسم حصانه فركبه ومر عليه من غير أن يصاب بكسر أو يعثره اختلال) محتجين على حضرة السيد المشار اليه في طلبهم هذا بأن الدوسة فضلاً عن أنها

(*) نشرت في العدد ١٠٧٨ الصادر في ٤ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ - ٣ ابريل سنة ١٨٨١

من كرامات أحد الاولياء (الشيخ يونس) فانه عمل بها منذ زمن طويل بمحض
كثير من العلماء الاعلام والسادة الفضلاء ، ولم يبد من واحد من حضراتهم
معارضة أو تنديد بها ، ومضت تلك الازمان المديدة عليها ينقلها الخلف عن
السلف ، فلا يصح بطلانها الآن اتباعا لسنة الآباء والاجداد ، ومحافضة
على العادات والمشارب .

فاسفنا لهذا الخبر ووقفنا ننتظر ماسيكون من إجابتهم وترددنا بين أن
ندخض مقام بمخيلاتهم من الشبهات التي جسمها لهم حب الصالح الخصوصي ،
أو تقتصر على مآثر حناء من ذلك في بعض الاعداد السالفة ، ولكن لعلنا بأن
تلك العادة وما شابهها متمكنة في أفكار كثير من العامة وبسطاء الادراك ،
فلا بد وأن يكون طاب تلك الفئة ملائماً لمذاق الجاهلين باحكام الشرع منهم ، ترجح
عندنا أن نذكر شيئاً مما يتعلق بطلبهم دفعا لأوهام بعض العامة الذين ربما يوقرون
أولئك البسطاء الملحين على إعادة البدع وإن كنا على يقين من أنهم لا يجابون
لما طلبوه فنقول

إذا صح ما عزوه الى الولي الشهير الشيخ يونس من أنه ركب الحصان وداس
به على ألواح الزجاج ولم تنكسر ، فتلك كرامة خصه بها المولى عز وجل ، وذلك
لا يفيد إباحة الدوسة بمعنى أن تصف الرجال منكبين على وجوههم متلاصقي
الاكتاف يظاً ظهورها حيوان من العجم لم نشم من سيمته كرامة ، ولم نتيين من
حافره منهاج الصالحين ، ويمشي أمامه وخلفه نفر من حاشيته وجم من المتفرجين
وكلمهم يطؤون بنعالهم أجساماً أعلى قدرها الحق في كتابه العزيز ، ولكن سوت
بينها وبين العناصر الصلبة شرذمة الجاهلين ، ولو توسعنا في تلك الرواية غير
الموثوق بها ، وقلنا إن ذاك الولي وطأ بمناسم فرسه ظهور الآدميين أيضاً ، ولم
يلحتمهم من ذلك ضرر ، فهذا إنما كان (لو وقع) إظهاراً لأمر خارق للعادة على
يدرجل من المتقين ، ولا يستلزم جواز وطئ أجسام الرجال بحوافر الخيل ونعال
العامة من الناس بحيث يكون ذلك عادة يقع في كل زمان ومكان . فانه لا يكون من
باب الكرامات في شيء فضلاً عما فيه من انتهاك حرمة الانسان وتعريضه للخطر والمضرات

وأما وقوعها في الازمان السالفة بمحضر العلماء والافاضل بهذه الصفة التي كانت عليها الآن فلا يستدل به على جوازها . وذلك لأن نصوص الشرع الشريف تكلفنا بالنظر في البدع والمستحدثات في الدين من حيث انطباقها وعدمه على المباحات . فان كن وجودها مخالفاً لتلك النصوص (القرآن الشريف والاحاديث الصحيحة وقول الائمة المجتهدين) أو يترتب عليها ما يخالفها كانت من المحرمات ووجب نهى فاعليها مهما طال عليها المدى في أي وقت وأي مكان وسواء نهى عن فعلها العلماء السابقون أو قضت عليهم ظروف أوقاتهم بعدم إذاعة النهي عنها وإلا فتكون من الملحقات بالمباح

وحيث إن هذه البدعة التي كلامنا الآن فيها (الدوسة) ، وجبة لانتهاك حرمة الانسان المنصوص على تكريمه ومظنة للخطر المذهبي عن التعرض له شرعاً ولا تنطبق على قواعد الشرع الشريف ، سيما وإن عملها تحت اسم كرامة من كرامات الاولياء مما يؤدي بالعقول الى سوء الظن بالمتقين والصلحاء ، فهي لهذه الاسباب من المحرمات التي يجب التضافر على إزالتها من صفة الوجوه وإن أتى عليها دور غير قليل من الزمان وهي متسلطة على عقول الجاهلين ، بل التي طال الزمن على وجودها يجب الاهتمام بإزالتها بكل ما أمكن من الوسائل خشية أن تعتدها العامة من المعالم الدينية ، ولا يخفى ما في ذلك من المضرات التي توجب اشتباه الحق بالباطل ، والخبيث بالطيب

وأما سكوت العلماء عن إزالتها وقت مشاهدتهم لها في تلك الايام الحالية فليس ناشئاً إلا عن تسلط الخرافات والبدع في أفكار معاصريهم من العامة وبأسهم من أن تساعد ولادة أمورهم على بطلانها لعدم اهتمامهم بشؤون معالم الدين والمحافظة على سلامته من الاوهام والبدع . فلو طلبوا إذ ذاك إزالتها لم يجدوا سمياً لدعوتهم ، ولا ظهيراً يعضد مقاصدهم من أولي الحل والعقد فضلاً عن أن عامة الناس تسلمهم بألسنة الجهالة وترميهم بالخروج عن الدين

أما الآن وقد رزقنا أميراً يهيمه أمر الدين ويسعى ما استطاع في تشييده معاليه وشيئت أركانها ، فلا غرو إذا رأينا الفضلاء من العلماء والأتقياء من الصالحاء

يتسابقون في وعظ العامة وزجرهم عن الاقدام على اعتناق البدع والتهافت على الخرافات المفسدة لكمال العقل ، والطامسة لنور البصيرة (وقد رأينا من حضراتهم هذه الفعال المكافين بها شرعاً رأي العين) فان ذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهم يثابون عليها إلتابتهم على الفروض العينية والواجبات . (وقد نشرنا من مدة ما كان من جناب الاستاذ مفتي الديار المصرية وشيخ الجامع الازهر من التنبيه على الوعاظ والمدرسين ببيان هذه العادة السيئة ومخالفتها للشرعية ، وكفى بهذا إقناعاً للمتعصين)

فلتعلم اذاً أهل البدع والخرافات أن نجوم طلاسهم قد أفلت ، واستعيض عنها بيزوغ شمس الحق ومصابيح الارشاد إلى طرق الدين القويم ، فليريحوا أنفسهم من طلبات لا تعود عليهم إلا بالحية والذكال ، وليعودوا نفوسهم على التمسك بعروة الشرع والاستضاءة بنور الحق . فانه عما قليل تنقشع ظلماتهم عن قلوب العامة ، فلا يصغون لكلماتهم المبهمة ، ولا يعبؤون بأعمالهم الشعوزية ، ذلك خير لهم من أن يحاولوا إعادة البدع الضالة التي صار رجوعها متعسراً ، بل متعذراً

ولنا أمل قوي في أن غيرة حضرة السيد البكري وميله إلى تعزيز شأن الشرع والمحافظة على دعائه لا تسمح له باجابة طلب هؤلاء الناس ، بل يحثهم على العدول عن هذا الأمر الذي لا يوافق مذاهب السنة ، ولا ينطبق على قواعد الشريعة (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)

المقالة الثالثة والعشرون

ماهو الفقر الحقيقي في البرد (*)

(١)

ان أرضنا خصبة طيبة التربة ، ينبت فيها غالب النباتات التي تزرع على وجه
 للسكونة ، وهوؤها ونباتها في غاية الجودة ، يصلحان لتغذية كافة الحيوانات
 للبرية ، وبنوها أصحاب كد ونصب ، وذوو صبر على العمل وجلد على التعب ،
 فهي من هذا الوجه عالم برأسه ، غنية مثرية ، لا تقنى كنوزها ولا تفرغ خزائنها ،
 ولئها بما تأتي من الثمرات لقادرة على حفظ ناموسها وتقوية شوكتها ، بل أن
 تكون سلطتها مبسوطة الى أقطار آخر

ولكن ليس كل هذا الذي ذكرته بكاف وحده في الغنى والثروة والعزة
 والشوكة وان كان من كليات أسبابها ، بل لابد أن ينضم اليه حسن استعمال
 هذه الأسباب الجليلة ، ورشاد الرأي في استخدامها ليوضع كل شيء في موضعه
 الطبيعي ، وتستعمل كل وسيلة لما يناسبها ، فان ضلت الآراء وساء الاستعمال ،
 فهذا هو الفقر المدقع الذي يعسر علاجه ، وماذا تصنع الوسائل المهيئة اذا لم نجد
 من يستعملها فيما هي وسيلة له . وأي شيء تفيد الفرص اذا لم تصادف من ينتهزها
 وهل يقطع السيف الصقيل بلا بطل ؟ كلا فما فقر البلاد الا قلة الراشدين فيها ،
 وما عناها الحقيقي الا كثرة المهتدين

فان سألنا سائل هل في بلادنا كثير من أولئك الذين هم غنى البلاد اذا
 وجدوا ، وهم فقرها اذا فقدوا . قلت : مع الأسف : لا ، إنهم قليل ، نخشى اذا
 امضى دورهم أو قضى أجلهم أن لا يوجد بدلهم ، والبرهان على ذلك أن الرجال
 تعرف بالآثار الثابتة في البلاد التي تدوم بدوامها أو على الأقل أجيالا وأحقابا ،
 وأن ذوي الآثار الحقيقية في بلادنا التي أثمرت ثمراً جناه أبناء الأوطان ،

وتمتعوا بإذنه مع الثقة بدوامه ، هم قليلون جداً ، بل ينحسرون في أوائل مراتب الأعداد ، وأن النفوس الطيبة تعرفهم ، وهم أيضاً يعرفون أنفسهم الزراعة على حالها القديم لم يوجد منا من يضع طريقة لزيادة الماصلات أو تسهيل العمل وتخفيف المشقة ، بل حصل فيها النقص بفقدان كثير من الأنواع التي كانت تزرع في الأزمان البعيدة كالسكتان والسهم وغيرهما ، والاقصا على بعض أصناف قليلة ، والصناعة قد انحطت درجتها عما كانت عليه من نحو ستين سنة ، وأظن هذا لا يحتاج الى البيان ، والتجارة لم تتغير حالتها عما كانت عليه يوم صارت مصر مصرأ ، وبيوت التجارة الواسعة من أبنائها قليلة جداً ، إن لم تقل مفقودة بالنسبة لبلاد آخر ، ورجال العلم ومصابيح الفضل لا تراهم إلا قليلا ، إذا أردنا أن نعددهم لانتحتاج الى زيادة عن عقد الأصابع ، بل ربما تقف دونها بكثير ، والمترشحون لاستلام إدارة المصالح العمومية اني هي أساس العمران ، وأداؤها حق الواجب لما على وجه العدل ، وطريق الحق الذي لا يخامره الباطل ، اللهم الا خطأ نادراً هم أيضاً كسابقيهم ، نعم يوجد عندنا من لهم استعداد للتمرن والتعلم ، وشاهدنا على ذلك الآثار والعيان على أن أولئك الأفاضل من رجال المعارف أو المحنكين في السياسة والادارة إن كانوا في هذا الوقت كثيراً ، فليس في البلاد أساس حقيقي يوجب أن يتأثرهم من بعدهم حتى لا تنقطع سلسلة الصالحين ، بل إن كانوا وجدوا فبالصدقة والاتفاق ، ثم ينثرهم الزمان ، فلا يطول الا وقد أتى عليهم بحكمه القضاء المحتوم ، وهيأت أن يأتي هذا التراب بأمثالهم . فمثل البلاد وهؤلاء الفضلاء . (إن كانوا) كمثل عاجز نبش في أرض قفر ، فوجد فيها كنزاً يكفي لنفقته مدة معينة ، فاذا مضت تلك المدة فقد المال واستسلم المسكين لأحكام الصدف ، والغالب على حاله أن يموت جوعاً ، فيكون فريسة لذئب أو طعمة لمكاب والسبب في ذلك عندنا عدم سريان روح التربية الشرعية العقلية اني تجعل إحساس الانسان بمنافع بلاده كإحساسه بمنافع نفسه ، وشعوره باضرار وطنه كشعوره باضرار ذاته ، إن لم تقل تجعل الإحساس الاول أقوى من الثاني ،

وتزيد في إحساس الانسان بمنافعه ومضاره . ولا أتكلم فيها الآن ، فان لي في مقالتي هذا مقصداً سواها . فبلادنا من هذا الوجه فقيرة واأسفاه

(تلك آثار السابقين من الذين وسد اليهم أمر البلاد فجعلوها بأهوائهم العوبة ، وتولوا أمرها فصيروها بسيء تصرفاتهم أعجوبة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله) — إن جميع النباه في أوطاننا يوافقوننا على هذا الذي قلناه ، ويشاركوننا في الأسف على مثل هذه الحال أعني فقر البلاد من الرجال ، والدليل على ذلك أن غالبهم اذا ذاكرته في مثل هذا الموضوع رأيتهم ينطقون بأنه قد بذل كل الجهد في الوصول الى ما انتهى اليه من درجات الفضل ، ويتأسف على أن بقية الناس لم يلاحقوه ، فهذه منهم شهادة على أن الفضل قليل وبنوه مثله

فان سألنا سائل : هل من مانع يحول دون وضع ذلك الأساس أساس المجد والعزة ؟ أعني به أساس الترية الحقة . وهل يوجد عنه صارف سوى الغفلة وانحطاط همم الأفراد من الناس الذين يجب عليهم طلبه والمحافظة عليه قلت : لا إننا كنا في الزمن السابق نتعلل في إغفال مصالحنا وإغماض الجفن عن رؤية نور الهداية بالخوف من ظلم الحكومة ، وكان لنا بعض الحق في ذلك ، فان السلطة في تلك الازمان كانت ضاربة على العقول والأفكار حجياً من الرعب والخشية ، فان غاياتها من التصرف في الحرق بما تشاء ونفوذ الكلمة ، واستيفاء الأغراض ، وقضاء الأوطار الذاتية لا يمكن إلا مع جهل المحكومين وعمائمهم حتى لا يعرفون حقاً فيطلبونه ، ولا باطلا فيدفعونه

وهي وإن أدخلت في البلاد أسماء كثيرة كاسم المدارس والمكاتب والمعارف والعلوم والتمدن والحرية والقوانين والنظامات والأوامر والأوامر ، وما شاكل ذلك ، إلا أنها كانت بدون مسميات ، بل تطلق عليها هذه الأسماء مجازاً بعيداً ، وانما كانت تجلب على النظر والسمع صوراً خيالية اذا امتحنها العقل ذهبت أو هاما ، فلم تكن في تلك الأيام سعة لفاعل خير أن يفعله ، بل لو ظهر أحد في ذلك الوقت من غير حواشي المتسلخين بأن له ثروة يريد أن ينفق منها في سبيل خيري أصبح لا يجد نفسه ولا ماله ، فهذه كانت أعذارنا في الأزمان

السابقة ، ولو دققنا فيها رأيناها حجة علينا لا لنا ، فكيف الاعتذار ؟
لكننا في هذه الايام والحمد لله قد أصبحنا في مأمن من هذا . لو تحققت
حكومتنا أن لا أحدنا كنوز الارض لم يسعها إلا المحافظة على روحه وماله ،
ولكانت حريصة على ازدياد ثروته ، ولئن طلب الانفاق جهده في الأعمال
الخيرية لجدت هي في مساعدته ، وتسهيل الوسائل الى بلوغ مقصده ، ولو أبصرت
شعاع فكر بدا من أي عقل لسارعت الى تقويته حتى يكون شمسا منيرة ، وإن
تنشط أقوام من رعيته الى الاجتماع والتألف والاتحاد لغاية محمودة كبث علم أو
إذاعة فضل رأيتها تقيم لبيت الألفة أعمدة ، وتوطد له أركانها ، وتحيط به سوراً
منيعاً ، كما شهدنا ذلك منها رأي العين في شأن الجمعيتين الخيريتين في القاهرة
والاسكندرية ، بل وفي سائر الجمعيات الخيرية الوطنية ، وبالجملة فإن الحكومة
قد أطلقت عنان العمل لكل طالب حق ، وقاصد صلاح ، وراغب فلاح ، فليس
من جهة الحكومة هذا المانع ، فبطل ذاك التعلل

فان سأل سائل أليس في البلاد ذوو ثروة وأولوا جاه تحوم عليهم الأفسكار
وتتوجه نحوهم القلوب ، وتنجذب اليهم النفوس ، ولهم من الاستطاعة ما يمكنهم
من الأعمال الجليلة ، التي تكون عنواناً لمجدهم ، وسيابجا حافظاً لناموسهم ،
ورفعة شأنهم ، فتحركهم الغيرة ، وتبعثهم الحمية على انضمام بعضهم إلى بعض ،
وبذل الزائد من فضلات أموالهم في سبيل حفظ الشرف في أبنائهم وأعقابهم
على ما هو شأن العقلاء في سائر أقطار الدنيا

قلت: إني أجيبك عن هذا السؤال غداً إن شاء الله وإن غداً لناظره قريب

الجواب (١)

نعم يوجد كثير من ذوي الثروة واليسار ، وهم المتمتعون بخير البلاد ،
وهو الذين ينبغي لهم أن يطلبوا لها رفعة الشأن ومنعة الجانب ، لأن الأعيان
الغادرة محمقة اليهم ، طالبة انتزاع ما بأيديهم ، وأن تسلط الدخلا ، (٢) عليها ،

(١) جاء هذا الجواب بعد عدة أعداد لكثرة المواد الرسمية (٢) بمعنى الاجانب

وتلاعب الأيدي المتغلبة بأمورها، يضر بأولئك الأغنياء أولاً وبالذات ، ولا يضر غيرهم من الفقراء الا ثانياً وبالعرض ، بل ربما لا يصل الضرر الى الفقراء الذين هم صنف العملة والصناع أصلاً ، فان الأنظار لا ترمى الا ذوي الاعتبار فهم ينتهي الاطلاع

فان سأل سائل: ألا يحب أولئك الأغنياء أن يطمشوا على أنفسهم وأموالهم؟ ألا يبتغون أن تثبت قاعدة العدل فيهم وفي أعقابهم من بعدهم؟ ألا يعلمون أن الزمان قد انقلب وضعه ، وتغير طبعه ، فصارت السلطة الحشنية لادوام لها ، وأن الطرق البسيطة التي اعتدناها لكسب المال وحفظ الناموس أصبحت غير كافية لحفظ ما حصلناه ، ولا لتحصيل ما فقدناه . أو لم ينظروا الى الأيدي الغريبة كيف تتلاعب فيما بينهم طلباً لاختلاس أرواحهم من أبدانهم؟ وأن جحافل المكر والدهاء قد زحفت عليهم ، ولن يدفعها الا حرس الحزم والبصيرة؟ ألا يعلمون أن التغالب في هذه الاوقات أصبح معظمه ان لم أقل جميعه تغالب الأفكار والآراء؟ فالامة ذات البسطة في الأفكار ، والمهارة في المعارف، هي الأقوى سلطاناً ، والأقوم سياسة ، وهي الغالبة على سواها من الأمم . أفلم يبصروا أنه لا معنى لشدة اليأس في أيامنا هذه؟ ألا تدرع الحكمة وتبطن الدهاء؟ ألم يقفوا على الأسباب التي أعدها غيرنا من جيراننا لنيل أعلى مراقي المجد في أوطانهم؟ ثم اندفع اليها لاندري ماذا يريد أن يصنع بنا؟ فان عقلوا جميع ذلك أفلا يفقهون أنهم ان لم يكونوا نصراء لجيش العلم أصبحوا على شفا الخطر؟

قلنا : بلى أن اختلاطنا بالأمم الاوربية سنين عديدة أظنه علمنا أسباب الضعف ووسائل القوة ، وعرفنا مقدار المندنية ودرجة الحشونة ، فلا يكاد أحد من أولئك الذين نحدث عنهم الا وقد وقف على الشيء من ذلك . وكثيراً ما نسمعهم يتحدثون به على أطراف ألسنتهم ، ويلوكون أمثال هذه المباحث فيما بين أشداتهم ، كأنهم يعلمونها حق العلم

لكن لا تتحرك نفوسهم مع ذلك الى ابراز الآثار ، وطالب ما علموه صلاحاً بالفعل دون القول ، كل واحد منهم يطلب الخير ، ولكن لا يجب أن يكون

البادي به ، بل يريد أن يبدأ الغير ، ثم هو يتبعه ، فان كانوا كذلك فلا بادي . ولا تابع ، وكأني بهم على احدى حالتين اما أن جميع الحوادث التي مرت على رؤسهم لم تكسبهم معرفة ، ولم تحرك فيهم غيرة ، فذلك غاية الجول نعوذ بالله واننا نغزوهم عنه ، واما انهم علموا وتفقهوا ولكن استولى اليأس على نفوسهم فذلك ليس من شأن العقلاء ، فان القنوط من رحمة الله كفر

هذه أيماننا نسمع فيها طين الأمانى صادراً من القادرين على بلوغها لكنهم يطلبونها من غير وجهها ، فيعز عايتهم منالها . يروم كثير من الناس خصوصاً من ذوي الاقتدار أن يكون ميزان العدل منتصباً لا يميل حبة ولا مثقالاً ، ولكن على شرط أن لا يؤخذ منهم ما يجب عليهم ، وان لا يكافوا بعمل يطلبه العدل ويحكم به القانون ، يودون أن تنشر العلوم في أطراف البلاد حتى يعم نورها كل نقطة من بساطها لكن على شرط أن لا يكون لهم فيها مدخل لا يبذل نقد ولا تجشم عمل ، ويرغبون أن يكون المأمورون وعمال الحكومة من ذوي الاستقامة والجد والاجتهاد ، ومراعاة المصلحة العامة ، لكن بدون أن يقف واحد منهم على باب مدرسة ، ولم يخطر بباله ما هي المصلحة العمومية ، ولم يجد من نفسه إحساساً بحلاوة الاستقامة ومرارة الاعوجاج وان ذلك لمن المحال البين ، وبالجملة فطالب الإصلاح منا لا يرضى لنفسه أن يخطو خطوة واحدة في سبيل تحصيله ، بل يحب ان يأتيه الإصلاح ساعياً اليه ويحمد نظره نحو الحكومة يطلب منها ان تخلق خلقاً جديداً ، مع ان سنة من قبلنا ومن معنا في عصرنا ان يسعى أفراد الأمة ونبلأؤها في جمع الكامة وبذل الدينار والدرهم وتعاضد الافكار والاعمال على تحصيل ما يطلبون بأسبابه ووسائله الحقيقية بدون توان في العمل ولا فتور في الهمم

فعلى الأغنياء منا الذين يخافون من تغلب الغير عايتهم وتطاول الأيدي الظالمة اليهم أكثر من الفقراء ان يأنفوا ويتحدوا ويبدلوا من أموالهم في سبيل افتتاح المدارس والكتاب واتساع دوائر التعليم حتى تعم اثاره وتثبت في البلاد جراثيم العقل والادراك ، وتنمو روح الحق والصالح ، وتهذب النفوس ويشد الإحساس بالمنافع والمضار ، فيوجد من أبناء البلاد من يضارع بني غيرها من

الأثم فتكون عند ذلك معهم في رتبة المساواة ، لهم مالنا ، وعايهم ماعلينا ، وعلى الحكومة في جميع ذلك أن تسن قوانين التعليم ، وتلاحظ أحوال المعلمين والمتعلمين أفلم يعتبروا بالجمعيات الأوربية التي لم يكن أعضاؤها إلا الزراعين والصانعين والتجار كيف يبلغ إيراد الواحدة منها نحو ثلاثين مليوناً من الجنيهات وبعضها أكثر وبعضها أقل ، وجميع ذلك يصرف في بث المعارف والعلوم واتساع دائرة الصنائع والفنون ، وتقوية روح التربية الحقة التي لا شأن للبلاد إلا إذا تحلى أبناؤها بحلها

أيظنون انه يمكن لهم نوال شرف أو حفظ ناموس إلا إذا جاهدوا في سبيل الإصلاح بأمورهم وأنفسهم وأنشأوا الآثار الظاهرة التي يحق لهم بعدها الاختيار بأنهم عرفوا مصلحة أنفسهم حقيقة فطلبوها من طريقها المؤلف

ان شأن الحكومة ليس الا أن تطلق للناس عنان العمل فيعملون لأنفسهم ما يعلمونه خيراً لهم ، فان أية حكومة قبل انبعاثها عادلة حرة لم يكن لها إلا انبعاثها وأباحت للناس أن يدخلوا في أي باب من أبواب المنافع ويطلبوا الخير الحقيقي بكل وسيلة صحيحة ، فاذ لم يكن في الناس خصوصاً الكبراء من يهتم أمر مصلحته ، وبقاء شرفه وناموسه ، فسفه منه أن يطلب من الحكومة ما لا يطلبه هو لنفسه من نفسه

اني بالاختصار أوجه كلامي هذا إلى الأغنياء الذين يتكلمون كثير أفيقولون : لو ياليت : لو ما كان : وما أشبه ذلك من أدوات الشرط والتمني ثم ينفقون النفقات الجارية فيما يسمونه بأنفسهم لهواً وفخاراً كاذباً ، ولا يبذلون درهماً أو أن بذلوا شي ، يسير جداً يقدر عليه أفقر الناس في المطلوب الذي يعدونه عظيماً

وانهم يعلمون ان عدل الجاهل ظلم ، فان صدر منه بطريق الصدقة لا عن مقصد ، فلا بد له من الخبط في ظلم ، وان غناه فقر ، فانه أتى من البخت الاتفاقي ولا بد يوماً ان يختل سيره فيفتقر ، وان كمال الجاهل تنقص ، فانه طلاء على حائط خرب عما قليل يكشط ويتناثر منه التراب ثم يهدم

فقر الجهول بلا علم إلى أدب فقر الحمار بلا رأس إلى ذنب

لا نصدقهم فيما يقولون من انهم يحبون العدل ويرغبون الإصلاح ويعرفون خير

أنفسهم وبلادهم ، بل ولا يصدقهم أحد أبداً إلا إذا برزوا إلى ميدان العمل
فحينئذ نعترف لهم بكل ما يدعون ، ونؤدي لهم جزيل الشكر كما يحبون ويشتهون ،
أما الكلام فقد شبت منه الآذان وأفعمت به القلوب والسلام

المقالة الرابعة والعشرون

وضع الشيء في غير محله *

هو تصرف مضر يدعو اليه الجهل بالعواقب أو عدم الاكتراث بما يترتب
عليه من المضار ، وانا نذكر من أمثاله بعض الأوضاع الالهية التي ألهمنا الله حكمته ،
وأرشدنا بالفطرة إلى فائدتها ، ثم أقام لنا من الحوادث برهاناً على المضار التي تأتي من
سوء التصرف فيها ، والعدول بها عن وضعها

ان الله تعالى يهب للكثير من عباده أو كلهم قرائح جيدة شديدة النفوذ في
الحقائق وفطنة زائدة سريعة الانتباه الى الدقائق ، ذلك لان تكون هذه المنحة
عدة لصاحبها ، وآلة للوقوف على مخبات الأمور ، والوصول من المقدمات الى
النتائج ، ومن المشهودات الى ما وراءها من الخفيات ليحرز من المنافع ما شاء الله أن
يحرز ، ويحذر من المضرات ما ربما يكون خبيثاً له في ضمن ما يتصوره نافعاً فيعيش
بهذا النور سعيداً يعلم الخير فيقتنيه ، ويبصر الشر فيتقيه

لكن من الأسف ان كثيراً من أرباب هذه المنح مع احساسهم من
أنفسهم هذه الصفة الجليلة فيهم (أعني شدة الادراك وجودة القرينة) ينحرفون بها
عن هذا الوضع الحق فيستعملون تلك الآلة الرفيعة للوصول الى غايات ساقطة حتى
من نظرم أيضاً ، قترى البعض من أولئك الأذكاء يعمل فكره ، ويقلب نظره ،
ليدبر حيلة في استمالة غيداء ، واستعطاف هيفاء ، أو يجد وسيلة للحظوة عند ذات
قد يهزأ بالأسل ، وأعين غنية عن الكحل بالكاء ، ويبدل هذا الجوهر النفيس
في منافسة الأتداد في ذلك ومغالبتهم وإلقاء العداوة والبغضاء بين المحبوب وبين

(نشرت في العدد ١١٠٥ الصادر في ١ جمادى الثاني سنة ١٢٩٨ - ٧ - ١٨٨١)

طالبيه ، وما شابه ذلك من الامور الدقيقة التي تحتاج (والحق يقال) الى صرف زمن واعمال فكر ، كما يشهد بذلك المجربون ، غير ان هذه الأمور مع دقتها لاداعي اليها ، والاعتاب التي تصرف فيها تفوق بألف ضعف اللذة التي تنال منها ، وهي معلومة ينجل الانسان بعد نيلها من جميع ما كان استعماله لما قبل ذلك وزيادة عن الاعتاب التي هي خسارة محضة لا يربح فيها يفوت صاحب الادراك وقت غالي الثمن عالي القيمة يطالبه باغتنام فوائده وانتهاز فرصه ، وهو في غفلة عنه بهذا اللهو ، بل العناء الذي حتمه على نفسه بنفسه ، فيمضي عليه من جميع المنافع تعرض نفسها على فطنته وذكاؤه ، فيحول عنها وجهه فتدبر عنه عازمة على أن لا تعود اليه قاطبة . هذا هو الذي يزعج كل فطن ذكي يلتفت إلى ماضيه فيجده خالياً من المنافع الثابتة التي كانت تبقى عدة لمستقبله ، ويعددها العقلاء منفعة أو شرفاً حقيقياً ، ويرى بعض من كان دونه أصبح أرفع وأرقى وأملك لناصية الدهر منه ، فيتقلب على جمر الاسف خصوصاً اذا طرقة الزمان بمطرقة المصائب ، فينتبه كأن لم يكن ذا انتباه ، ولكن يصعب عليه بعد ذلك أن يوجد قوة أوهنها في أعمال باطلة الى ما أعدت له من الاعمال الحقيقية . فاذا طلب لنفسه بعد ذلك ما يطلب العقلاء من أسباب السعادة رأي تلك القرينة قد صدأت ، والفكرة طمست بما خيم عليها من تلك الصور الكثيفة ، فيجتهد كل الاجتهاد لا مألطها عنه ليخلص من ظلماتها المكدره . وكأنه لا يستطيع أن يعيدها الى صفاتها الاولى ، ويكون له من لوم السريرة وتوبيخ العقل ما يكفي في تعذيبه وتعنيفه حتى يتدارك ما فاتته ويملك زمام الاعمال المستقيمة ، ويرشد مع الراشدين خصوصاً اذا كان من أبناء الذوات أو الاغنياء ، أو موظفي الحكومة ، أو من شابههم من الذين تحكم عليهم مكاتهم بان يكونوا أسرع الناس الى الجسد ، وأقربهم الى الحق ، وأحرصهم على نيل الشرف لحفظ الاسم الاول على رفعة ، والاستزادة من إعلاء صيته وشهرته ، ولما يراه صاحب الشرف من أنه أحق وأولى بعلو الشأن والعظمة في الانفس من غيرها . فهذا الوجدان منه يبعثه على أن يكون أعلى وأجل من غيره فيما به الرفعة والشأن في كل زمن على اختلاف

الاحوال وتقلب الهيات وهو الكمال الادراكي ، والفضل الذي ينشأ عن صحة الادراك . فهذا هو الأمر الثابت الذي يمكن للانسان أن ينال به جميع مرغوباته سواء صلحت أحوال العالم أو فسدت ، بخلاف من يفوته هذا الكمال . فإن أمره موكل الى اختلال الاحوال وفسادها ، فمادام النظام مختلاً ، والعدل ضائعاً ، والحق مستوراً ، فهو يؤمل التقدم وعلو المنزلة ، فإن لمع بارق من الحق أو استقام أمر النظام ، وأخذ في التصرف بالعدل ، أصبح هذا الذكي النبيه في زاوية من الاهمال ، وأهدر شأنه وعند في الآحاد السافلة

هذا كله اذا اقتصر في تصرفه على استعمال قوة القريحة في غير موضوعها ، وبقي حافظاً لجرثومة هذه القوة (القوة والادراك)

فان أضاف الى سوء التصرف سعياً في إطفاء نورها من أصله بأن عكف على معاطاة الارواح المسكرة والجواهر المخرقة من أنواع الخمر والحشيش والافيون والمعاجين والجوارش ونحو ذلك . فقد أضاع هذا النور الالهي الذي أودعه الله فيه ، وانقطع الامل من عودته الى ما كان عليه . فان مزاج عضو الادراك يختل بتعاطي هذه المهلكات ، فلا يعود للقوة مركز تقوم عليه . فان ظن أنه يدرك في بعض الاحيان سرّاً ، أو يفهم خطاباً أو يرد جواباً ، فليعلم أن ذلك ماهو إلا بقية تعلق خفيف لتلك القوة الشريفة بيدنه المعتل ، وأنه لو لم يكن يتناول هذه المضرات لكان الباقي عنده أضعاف ما يجده من نفسه بكثير ، وإن الذي منحه الله من هذا السر اللطيف كان عطاء جزيلاً فجعله نزرّاً قليلاً

خصوصاً وان الانهمالك في قرع الأكواب والتهالك على الشراب مما يستدعي زيادة للسهر بالليل ويتبعها فتور البدن واستيلاء الوحامة بالتهار ، ويقتضي تمادياً في الملاهي والمهذر ، ويفتح على الانسان باب الزهو واللعب ، ويستلزم رفع الحجاب عن السر ، وكشف ستار الحياء ، وعدم المبالاة بما يصدر عن الجوارح من الحركات والسكنات ، ويستوي فيه الضر والنافع ، فيختلط به الأمر ، ويكتسب صاحبه ذكراً سيئاً بما يفعل من الامور الخديسة التي لا يشعر بها حال ضياع الفكرة واستيلاء السكره ، ثم يزداد الوصف الاول وهو سوء التصرف الى

حد يهدم الشرف ، ويحط من القدر ، حتى عند أدنياء الناس وأخسائهم ، وذلك أن يفرغ ما بقي من فطنته في انتخاب كلمة تضحك الخاضرين وحركة تطرب الناظرين ، وبدل أن يستعمل مخيلته في تشخيص الاحوال الواقعية وتقريب الحقائق الى الازدهان ، وتنوير الافكار بما ينتدعه من حسن التصور يستعملها في ثلم الاعراض الطاهرة بخيل حال عالم أوصفه فاضل ، ثم يبرزها على صورة بشعة وحالة مستنكرة ، فيعجب ذلك جاساءه ، لكنه يغضب ذمته وسريته ، ولا يرضى به ما بقي من عقله

فان تمادى به هذا الحال أزماناً حتى عرفته العامة ، ووقف عليه الخاصة ونظر اليه بعين الازدراء ، من الفضلاء والعقلاء (وإن بقي مبعجلاً في أعين أصحابه فهذا لا ينفعه شيء) ثم استمر على ذلك ولم يجد لنفسه رادعاً عنه من نفسه . فهذا هو الذي يخشى على الهيئة الاجتماعية من وجوده فسدت طبيعته ، واقلبت فطرته ، وعميت بصيرته ، حتى لا يدرك هذا الذي تقول أيضاً ، فبئست الحال حاله ، فعلى حكومة البلاد أن تقتني آره ، وتضم لمن يكون على هذه الشاكلة قانوناً صعباً يخيف القلوب وإن لم تكن واعية ، ويزعج الخواطر وإن لم تكن حاضرة ، ويؤثر في العقول وإن لم تكن سليمة ، وإلا فان هذه أمراض خبيثة سريعة الانتشار لاسيما اذا بدأت في الخاصة ، فانها لا تلبث أن تسري فيما بين العامة

المقالة الخامسة والعشرون

الكسب العلمية وغيرها (*)

تنقسم المؤلفات المتداولة في أيدي المصريين الى أقسام متفاوتة بتفاوت أُميال المطالعين سواء كانت هذه الاميال غريزية أو مكتسبة من طوارئ التربية وعوارضها . وهذه الاقسام كما اختلفت في الشهرة والخفاء ، وكثرة التداول بين يدي الكثير من الناس وفي متدييات المشتغلين بمطاعتها ، ومحافلهم الخصوصية والعمومية

نشرت في العدد ١٠٩ الصادر في ١٢ جمادي الثانية سنة ١٢٩٨ - ١١ مايو سنة ١٨٨١

(٢٠ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

فمنها الكتب الثقيلة الدينية وهي ما بين فيها مسائل الدين سواء كانت من الأصول كعلم الكلام أو الفروع كالعبادات والمعاملات . ومن هذا القبيل كتب التفسير والحديث ، وكتب الاخلاق المأخوذة من قواعد الدين ككتاب الاحياء لحجة الاسلام الغزالي ، وهذا القسم نرى من المشتغلين به في بلادنا عدداً كثيراً نبع منهم الافاضل والامثال وكثرت فيهم المؤلفات وانتشرت بالنسخ والطبع في غالب الجهات

(ومنها) الكتب العقلية الحكيمة وهي ما يبحث فيها عن الحقائق الوجودية، وأحوالها ولوازمها على قدر الطاقة البشرية . وهذا القسم نادر الوجود في بلادنا والمشتغلون بكتبه أقل من القليل ، بل إنه لم يطبع منه في مطابعنا الا نزر يسير من فروعه كـ بعض كتب في الطبيعة والكيمياء والطب والرياضة غير صحيحة العبارات والكتب الموجودة منه عند البعض من الناس كلها ، إما بالنسخ وإما بالطبع الاجنبى ، ولا تشتري إلا بالتمن الجسيم

(ومنها) الكتب الادبية ، وهي ما يبحث فيها عن تنوير الافكار ، وتهذيب الاخلاق . ومن هذا القبيل كتب التاريخ ، وكتب الاخلاق العقلية ، وكتب الرومانيات ، وهي المختصرة لمقصد جليل كتعليم الادب وبيان أحوال الأمم ، والحث على الفضائل والتنفير من الرذائل ، ككتاب كايلا ، ودمنة ، وفاكة الخلقا ، والمرزبان ، والتلياك ، والقصة التي تترجم في جريدة الاهرام وغيرها من بقية المؤلفات . وهذا القسم كثير التداول في المدن والشعور ، ويكثر في أبناء وطننا وجود البارعين فيه المشتغلين بدراسته ، العاكفين على مطالعته

(ومنها) كتب الاكاذيب الصرفة وهي ما يذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع ، وتارة تكون بعبارة سخيفة مخلة بقوانين اللغة . ومن هذا القبيل كتب أبو زيد وغنر عبس ، وابراهيم بن حسن ، والظاهر بيبرس ، والمشتغلون بهذا القسم أكثر من الكثير ، وقد طبعت كتبه عندنا مئات مرات ونفق سوقها ، ولم يكن بين الطبعة والثانية إلا زمن قليل

ومنها كتب الخرافات وهي تارة تبحث عن نسبة بعض الكائنات الى

الارواح الشريرة المعبر عنها بالعفاريت ، وتارة تتكلم في ارتباط الحوادث الجوية والآثار الكونية ببعض الاسباب التي لا مناسبة بينها وبين ما زعموه ناشئا عنها ، وتارة تثبت مالا يقبله العقل ولا ينطبق على قواعد الشرع الشريف . ومن هذا القليل ما يعرف عند الناس بعلم الروحاني وعلم الكيمياء (الكاذبة) وكتب الوفق وكتب الحرف والزائرات وذلك ككتاب أبو معشر ، والكواكب السيارة ، وشمس المعارف الكبرى والصغرى ، وكتاب الحرف المنسوب للحكيم هرمس والبرهنية وشرحها والخلخلوتية وشرحها ، والجلجلوتية وشرحها ، ودعوة السباب ودعوة القمر بشروحها ، وكتب المنازل واستحضار الخادم والرسائل التي يذكر فيها أمر الكتابة بالمحبة والبغض ، وعقد الرجل عن الجماع وإرسال الهواتف والتسليط بالرجم على البيوت وغير ذلك مما لا يحصىه القلم . وهذا القسم قد اشتغل به في ديارنا كثير من الناس ، ونبغ منهم الدجالون والمحتالون ، وطبع من كتبه عندنا ما يخرج عن حد الحصر بالقلم واللسان ، وإذا تمهدت هذه المقدمة فنقول :

قد كانت جميع هذه الكتب بأصنافها تطبع في مطابع المحروسة بدون استئذان ولا تقييد ، ثم من عهد قريب (على عهد وزارتنا الحاضرة) صدرت الأوامر بأن لا يطبع كتاب في إحدى المطابع إلا بعد الحصول على رخصة تجيز الطبع ، وحجر في أثناء ذلك على طبع ما يخل بالديانة أو السياسة ليس إلا ، وكل من يصرح بطبع غير ذلك من أصناف القسمين الأخيرين (هما كتب الكاذب الصرفة ، وكتب الخرافات) على أنهما ليسا مما يخل بالدين ، ولا مما يناقض السياسة ، ولذلك كثر طبع الكتب في هذين القسمين حتى انتشرت في سائر جهات القطر ، واشتغل بمطالعتها كثير من الأهلين ، فإذا شب الولد ومالت نفسه الى المطالعة في الكتب لم يجد أمامه الا أصناف هذه الكتب الكاذبة أو الخرافية ، فيجهد نفسه في قراءتها ، فيشيب وهي بين يديه ، ويموت وهو معتقد لما فيها من الأضاليل ، ونجم عن ذلك انغماس الغالب في ظلم الجهالات ، وانحطاطهم عن درجات الكمالات ، وهذا من أضر المؤثرات في تأخر البلاد وبقائها في حفر

الهمجية والاختيشان . ولهذا قد وجهت الحكومة السنية عنايتها الى تطهير البلاد من هذه الأمراض المعدية السريعة الانتقال ، فصدرت أوامر نظارة الداخلية الجليلة بالحجر على طبع الكتب المضرة بالعقول ، المحلة بالآداب ، وهي كتب القسمين الأخيرين . فمن الآن فصاعدا لا يرخص لأية مطبعة أن تطبع من هذه الكتب شيئا ، ومن يتعد ذلك يجاز بأشد الجزاء . وستؤخذ الاحتياطات اللازمة لمنع الاختلاص في هذا الشأن ، فعلى الذين يميلون الى مطالعة مثل هذه الكتب لتسلية النفس وترويح خاطر أن يستعيضوها بغيرها من الكتب المفيدة الصحيحة . فمن كانت رغبته متجهة الى كتب (أبو زيد) وما معها من الكتب كعنتر عبس وغيرها أن يستبدلها بكتب التاريخ الصحيحة ، كتاريخ المسعودي وتاريخ (إظهار أنوار الجليل) لحضرة رفاعة بك ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ، وتاريخ الدولة العلية ، وكتب القصص الأدبية المترجمة في أعداد الاهرام والقصة التي طبعت في مطبعة العصر الجديد ، وهي المعنونة بالانتقام ، وغيرها من بقية الرومانيات العربية الأصيل ككتاب (كلية ودمنة) وما مائلها من الكتب التي جعلت على السنة الطيور والحيوانات ، وعلى من كانت فيه بقية من حب كتب الخرافات المعبر عنها بالريحاني أو غيرها من كتب الوفق والتنجيم أن يقلع عنها ، ويشغل نفسه بما يرى منه الفائدة ، وإلا فأى فائدة عادت الى من صرف نقوده وأباد بصره وأراق ماء وجهه في طلب الكيمياء الكاذبة ، وهو لم ينظر منها ما يجعله عوضاً لهذه المصاريف وتلك المشقات . وأي عائدة رجعت على من حفظ العزائم ، وأجهد نفسه في حفظ أسماء الشياطين ، وأتعب عقله وبدنه في الخلوة لاستخدام العفاريث ؟ إنا لم نر لكل ذلك من فائدة ولا عائدة ، بل رأينا أن المشتغلين بذلك كله يحسبون من الدجالين ، ويعدون مع المحتالين ، وأن العاقل لا يرضى لنفسه أن يشار اليه بأنه من إحدى هاتين الطائفتين اللتين صب عليهما المقت ، ولحقهما غضب الله والملائكة والناس أجمعين . وحينئذ فمن الواجب على كل عاقل أن يترك كل هذه الكتب الخرافية ، ويتباعد عنها على قدر الامكان وأن يشغل أوقاته بمطالعة الكتب الحقة ، ككتب الديانة المظهرة ، وكتب

الآداب والفضائل وتهذيب الاخلاق ، وكتب التواريخ الصحيحة وكتب العلوم الحقيقية ، فانها أنفع للنفس ، ويرى المشتغل بها فائدتها في أقرب زمن على أسهل وجه بدون أن يلحقه جزء من مائتمن تلك المشقات ، ولا أن يلتجىء إلى إضاعة الأموال فيما لا يفيد

وفي ظني أن كل هذا مما يقع عند إخواننا الوطنيين موقع القبول والاستحسان ، فان كل واحد منهم يذهب الى مذهبنا اليه ، ويرى مآثرنا . وسنعود إلى هذا الموضوع مرة ثانية إن دعت الحال ، ثم نأتي على ما جرت به عادة الكثير في اعتقاد الخرافات ، ونبين تأثيرها في النفوس ، ودرجتها عند أهل المدن والأرياف ، ونفصل الأصناف المتعارفة منها عند العامة ، وبالجمله نذكر كل ما يتعلق بهذا الموضوع في أعداد صحيفتنا على الاطراد إن شاء الله

المقالة السادسة والعشرون

امتدح القرائين بآفة عرف أمoral الامم *

(عدنا إلى الكلام في القانون حسبما وعدنا)

إن المبدع الأول جل شأنه أودع في الانسان قوتين عملية ونظرية ليتوصل بهما الى كماله المخصوص به ، وربط إحداهما بالأخرى ، فجعل كمال الأولى متوقفاً على كمال الثانية ، فصار الانسان مفطوراً على طلب النظريات والوقوف على الحقائق قبل أن يباشر عملاً ، فان العمل لا يقصد إلا اذا كان له من النتائج ما يبعث على مباشرته ، وليس كل عمل ينتج الفائدة المعتد بها ، بل لابد أن يكون على نهج مخصوص — ولا جرم أن تصور النتيجة ، ومعرفة أساليب العمل مما يناط بقوة النظر ، فاذا كملت جاء العمل على أحسن الوجوه ، وكانت الفائدة أعظم ، والغاية أكمل

ومن هذا صار كل إنسان حريصاً على استكمال النظريات أولاً وبالذات

ليهندي بها الى مناهج أعماله التي يقارنها للحصول على كمال حياته ، وبميز النتائج على اختلاف درجاتها في النفع ليضع بأزاء كل واحدة منها عملاً مخصوصاً ، مرتباً على وجه معلوم ، أقرب فائدة ، وأسهل تناولاً ، وأحكم وضعاً

فعلوم الانسان هي عبارة عن الحدود التي بها الفوائد النافعة ، ويضبط بها طرق الأعمال الموصلة الى تلك الفوائد ، حتى لا يخبط في سيره ، ولا يختلط عليه النافع والضار ، فيقع في الشقاء وتنتابه أيدي البلاء

وحيث إن أحوال كل أمة تابعة لمعلوماتها على نسبة بينهما كنسبة العلة والمعلول ، فهي إنما تتخذ لأعمالها حدوداً ، وتختار لأوضاعها قوانين بحسب قوتها في النظر ورتبتها في الفكر ، بحيث لا تخرج وقتاً من الأوقات عما تسنه سجيتها من التقاليد والأخلاق ، الا اذا أتاحت لها الفرص الارتقاء الى درجة أعلى في النظر وأرقى في الفكر

ولما كانت اقوانين مناط ضبط الأعمال لتكون منتجة لجلال الفوائد ، وهي ثمرة الأعمال النظرية ، وخلاصة الأبحاث الفكرية ، صارت قوانين كل أمة على نسبة درجتها في العرفان ، واختلفت القوانين باختلاف الأمم في الجهالة والعلم فلا يجوز حينئذ وضع قانون طائفة من الناس لطائفة أخرى ، تباينها في درجة العرفان أو تزيد عليها فيه ، لأنه لا يلائم حالة أفكارها ، ولا ينطبق على عوائدها وأخلاقها ، والا لاختل نظامها ، والتبس عليها سبيل الرشد ، وانسد دونها طريق الفهم ، وحسبت الصحيح فاسداً ، والصواب خطأ ، وحرفت الأوضاع ، وبدلت وغيرت ، فيقلب عليها دواء غيرها داء ، وذلك لقصر نظرها ، وعدم درايتها بوجوه تلك القوانين ، وما هي الداعية لها والحاجة اليها ؟ فان الحاجة هي الاستاذ المرشد والمعلم الأول ، متى علمها الانسان حق العلم صار حريصاً عليها ، مقيداً بها ، فلا يخالف مادعت اليه وقضت به . واذا كان وضع القوانين بين قوم داعيته حاجتهم اليها ، فلا تسمح لهم ظروف الأحوال بمخالفتها أما من لم تدعهم الحاجة اليها فلا يرونها من الضروريات ، فلا لوم عليهم اذا نبذوها ، ويكون تكليفهم بها من قبيل التكليف بالمحال ، بل الأجدر بهم أن

يعلموا أولاً ما هي الحاجة ليستووا مع غيرهم في العالمية، ويتحدوا معهم فيما يترتب عليها وقد جرت عادة المشرعين في كل زمان أن يراعوا في وضع القوانين درجة عقول الذين يراد وضعها لهم ، حتى لا تكون مبهمة عليهم ، فلا يتيسر لهم فهمها ولا معرفة الغرض منها ، وأن يلاحظوا العوائد والأخلاق ملاحظة تامة ، فلا يخرجون في تأسيس القوانين عما تقتضيه من الشدة والتمخيف ، فرب طائفة من الناس ينفع فيهم الزجر الخفيف ، ويردعهم الوعيد بالجزاء الهين ، اذا كانت طباعهم سهلة الاتقياد ، ونفوسهم شريفة ، وحواسهم سريعة التأثر ، فهؤلاء لا يسن لهم من القوانين الا ما كان منطبقاً على أحوالهم ، فلا يكافون بالقوانين الصارمة لأنها تضر بهم ، شأن من يتجاوز في استعمال الدواء الحد المخصوص مثلاً اذا فرض أن واحداً ممن وصفناهم فعل ما يستوجب العقاب ، وكان السجن بالنسبة اليه أمراً يؤثر في طبيعته ويؤلم نفسه على ما بها من العزة ولطف الحاسة المأشديداً ، ويشق على نفوس عشيرته وأهل وطنه أن يقال : فلان سجن لجناية كذا ، بحيث يكون وقوع ذلك لواحد منهم من أكبر الزواجر عن اقتراف الذنب الذي وقع منه ، فيكون الحكم على هذا المجرم حينئذ بما هو أعظم من ذلك ، كالنفي والطرء والأعمال الممتنة الشاقة ظلماً بيناً ، لأن ذلك ربما يفضي به الى الموت العاجل ، ويؤثر في نفوس عشيرته وبني جلدته انقباضاً مستمراً ، وحقداً أبدياً ، لعلمهم بخطأ الحكم ، وظلم الحاكم . وليس بعد ذلك الا أن تتقد نيران الفتن ، وتلهب حمية الغضب بين هؤلاء الناس ، وتكون عاقبتهم شراً ، أو تحمد النفوس وتذل الطباع ، وتنعمد الشهامة من الأفراد ، ويئست العاقبة هذه

ورب أمة فطرت أفرادها على الغلظة ومجافاة الرقة ، وكانت بواطنهم منطوية على الخسة والسفالة ، ونفوسهم بعيدة عن خصال الشرف . فهؤلاء لا يردعهم عن غيهم ، ولا يصدّم عن موارد بهتانهم ، الا القوانين الصارمة ، المؤسسة على الجزآت الشديدة ، فمن الخطأ البين أن يعامل مذنبهم بالسجن مثلاً اذا كانت نفسه تستخف ما هو أشد منه عقاباً . فان الغرض من وضع القوانين إنما هو

مجانبة ما يخل النظام ، ويحدد هيئة الاجتماع ، ويضر بالمصالح الشخصية والمنافع العمومية ، فإذا لم تكن مؤدية لهذا الغرض ، فليست الا مجرد تكاليف أقيت على كواهل الناس ، بل لاتعد الا توسيعاً لدائرة المفساد واكثرأراً للظالم وانا شاهد على ما ذكرناه حالة بلادنا من قبل ، فقد مر على أهلها زمن كانوا فيه همجاً لا يعرفون صالح نفوسهم لتمكن الجبل منها وقتشد ، فكانوا لا يعتدون بالزراعة مع توفر أسبابها ، وصلاحية الأراضى لها ، وكان الملاك لا يعرفون قيمة ما يمتلكونه منها ، فيود الواحد منهم أن لو انتقلت أملاكه لشخص آخر حتى لا يكلف بأداء ما فرضته عليه الحكومة من المطالب ، ولا يقيم في بلده مدة تناله فيها أيدي الحكم ، فكان أهالي البلاد يهاجرون منها الى بلاد أخرى خوفاً على نفوسهم من الزراعة ، والأخذ بوسائل الغنى والثروة ، فاضطرت الحكومة وقتشد أن تلزم الأهالي أمتلاك الأراضى وزراعتها ، وربت على المخالفين قوانين صارمة تشتمل على مواد العقاب الشديد ، فإذا جاء الوقت الذي تطالب فيه الحكومة بالمطالب الأميرية امتلأت السجون من بقايا الذين هاجروا من البلاد ، وراج سوق الكراييج ، فكنت ترى الأهالي كافة ماين فار من بلده ، ومودع في السجن ، وموجع بالضرب ، وكان لخراب البلاد وعمارها أوقات معينة في السنة لاتعدهاها ، واستمرت على هذه الحالة السيئة أمداً طويلاً الى أن توطدت نفوسهم على العمل ، وتمهدت لهم طرق الزراعة ، ودخلت في دور جديد بما أتيح لها من المعدات التي سهلت طرقها ، وثبتت الأهالي في البلاد وأخذوا خطة واحدة في فلاحه أراضيههم ، غير مباين بمطالب الحكومة لكونهم ابتدأوا يعلمون أهمية الزراعة ويعظمونها ، ويتنافسون في حاصلاتها ، فتبدلت القوانين التي كانت تتخذها الحكومة لزجر الفلاح عن الفرار ، وإهمال الزراعة ، والتقاعد عن الأداء نوعاً من التبديل ، ثم تبادلتهم الأيدي الظالمة أمداً ليس بقصير ، ولكنهم لم يزالوا ثابتين على أملاكهم ، فسثموا سوء المعاملة ، واشتاتت نفوسهم الى قانون عادل ينتظم به أمر الأداء ، فسأقت لهم يد العناية الالهية من لدن الحكومة التوفيقية من أسس لها قانوناً عادلاً في هذا الشأن دخلت به مصر

في عصر جديد ، وارتفع من بين أهلها صوت الكرباج ، وبدل جزاء التأخير عن أداء المطالبات بما لا يحيط من شرف الانسان ، ورتبت المصالح العامة على قوانين لا تخالف مشرب أهل البلاد بوجه يغير القوانين السالفة ، وذلك مرتب على تباين الحالتين ، وتباين المشربين أولاً وآخرأ ، فلو جعل جزاء التأخير في الزمن السابق هو انتزاع الأرض من يد مالكها ، لكان احب شيء اليهم هو التأخير ليستريحوا من كتابة اسمهم في دفتر الملاك ، وكان هذا الجزاء ثواباً عندهم في الحقيقة لا عقاباً ، لكنه الآن أصبح من أشد العقاب

وقد آن لحكومتنا أن تعطف عنان النظر الى قوانين المجالس القضائية لتجعلها مناسبة للحالة الراهنة ، فتختار منها مالا يصعب فهمه ، ولا تحتل عباراته معنيين أو جملة معان ، ولا تكون مواده من قبيل القواعد العمومية التي تنطبق أحكامها على جملة من الجزآت لكثير من الجنايات المتباينة ، حتى لا تكون القوانين نفسها ذريعة لأرباب الأغراض الفاسدة ، فيلعبون بالحقوق كما يشاؤون ، مع أن من بأيديهم أزمة القوانين ليسوا في رتبة المشرعين الذين يستنبطون مما يحتمل خلاف الظاهر أو من القواعد العمومية الحكم المنطبق على حقيقة الأمر والواقع ، على أن أرباب الحقوق منا ليسوا منزهين عن الشكوك والظنون الفاسدة ، فربما أساءوا الظن بمن يكون بريئاً عن الخطأ والحيانة مع خفاء الحكم من نفس المواد القانونية ، وعدم انكشاف النص منها ، وذلك يؤدي الى حرصهم على استئثار التحقيق أولاً وثانياً فيطول الأمر وتعطل المصالح ، وتزيد النفقات ، وتشتد الضغائن ، وتتسع أبواب المفسد مع كثرة الوقائع والمشاكل ، كما هو حاصل في بلادنا الآن . فيجب حينئذ أن تكون مواد القوانين نصوصها صريحة ظاهرة الاحكام منطبقة على كافة الوقائع مفصلة الابواب سهلة التراكيب

أما القوانين التي كانت متناولة في بلادنا حتى اليوم فانها (مع كونها قاصرة مجمة غير بيئة الاساليب) ليست مضبوطة ولا معروفة عند الناس ، بل بعضها يعرف بالقانون الهياوي ، وبعضها يسمى باللوائح ، وبعضها يدعى بتعليمات الحقانية والبعض يقال له قرار الخصوصي ، والبعض الآخر منشور الأحكام ، والبعض

الأمر العالي الصادر في تاريخ كذا ، وهكذا مما لا يحصى عدده ، ولا يمكن لأحدا حصره ، فكيف يعقل أن يكون هذا التشديد (لعلها التشيت) قانوناً يقف العالم عند حدوده ، على أنهم لو علموه لما تصوروه ، لكونه غريباً عن أحوالهم ، بعيداً عن مداركهم

فمن الواجب إصلاح هذا الخلل اليبين الذي أضاع الحقوق وأضر بالأمن ، ومن اللازم الإسراع به ، وعدم تفويت الوقت وإضاعة الزمن في الأقوال التي لا طائل تحتها ، ويلزم أن تكون القوانين مستوفاة جميع القيود والشروط ، ولا يحال فيها على المنشورات ولا اللوائح ، تسهلاً لضبط الأحكام وتطبيقاً لها على مقتضى الحال ، وأن تكون منطبقة على حالة الأهالي ودرجة إدراكهم ليتمكنهم دركها والعمل بمقتضاها كل على حسبه ، وإلا كانت حبراً على ورق ، فقد تقرر في مدارك العلماء والسياسيين من سابق ولا حق أن المشرعين وواضعي القوانين يضطرون دائماً إلى مراعاة العوائد والأخلاق ليتمكنوا من تأسيسها على وجه عادل نافع ، بل إن أحوال الأمم بنفسها هو المشرع الحقيقي ، والمرشد الحكيم النطاسي ، وإن القوة الحاكمة تابعة لقوة رعاياها ، فلا تخطو الأولى خطوة إلا إذا كان لها من الثانية سائق إلى ماخطت إليه ، نعم لا ننكر أن أعداد الوسائل والمعدات منوط بالقوة الحاكمة ، فهي تلزم بها رعاياها كرهاً أو اختياراً لكن على قدر طاقة المحكومين ، فاختلاف هيئات الحكومات وتبدل قوانينها تابع لما تقتضي به حقوق الوطنية التي هي في الحقيقة حالة الرعية . فإن انتقال حكومة فرنسا مثلاً من الملكية المطلقة إلى المقيدة ثم إلى الجمهورية الحرة لم يكن بارادة أولى الحل والاعتد فقط ، بل المساعد الأقوى حالة الأهالي وارتفاع أفكارهم وتنبه إحساساتهم لطلب الرقي إلى أعلى مما هم عليه فتغلبوا على جميع القوى القربية التي كانت تحول بينهم وبين الوصول إلى مطلوبهم من معرفة الواجبات الحقيقية على أنهم لم يصلوا إلى هذه الغاية الشريفة إلا بعد قطع العقبات التي هي دون الوصول إليها إذ بدون ذلك لا يمكن أن تنال الغاية ، ولا يدرك المطلوب

وحيث كانت تلك الوسائل وهذه المعدات من مزالق الافهام والعقول كانت

معرفتها ، والحصول عليها بذاتها في غاية الصعوبة ، فربما يقع في وهم طائفة من الناس أنهم تهيئوا لأن ينتقلوا الى خطة أرقى في المدنية والظلمات القانونية — وليس الأمر ما توهموه — فيتقنوا الى الورا. بأن يعدوا الى جعل التشريع حراً والمشاركة في التأسيس مباحة ، وليسوا آمنين من دسائس الاغراض ، ولا متمكنين من الوسائل التي تهيئهم لهذا الأمر ، فيفسدوهم بالاختلاف ويأخذهم دخل العناد فلا يهتدون الى الصواب ، ولا يرمون رأياً ، ولا يتبنون حكماً ، ويمضون الزمن في قيل وقال ، فتفوتهم ثمرة العزم ، وتضيع مصالحهم ، ويصدق فيهم المثل (من عجل بشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه)

وبالجملة فليست هيئة النظام المدني لأمة من الناس سوى صورة مادة الملكات التي اكتسبتها أفرادها من ألفتها وعوائدها التي نشأت عليها سواء كانت ممدوحة أو مذمومة ، وان اختلاف قوانينها في معارج صعودها ومدارك هبوطها لا ينفك عن هذه الملكات مهما تغيرت أوضاعها وتبدلت شئونها وهذا ما جعل عقلاء الناس يجتهدون أولاً في تغيير الملكات وتبديل الاخلاق عند ما يريدون أن يضعوا للهيئة الاجتماعية نظاماً محكماً فيقدمون التربية الحقيقية على ماسواها ليتسنى لهم أن يحصلوا على هذه الغاية ، بل يجعلون في نفس القوانين النظامية فصولاً وأبواباً تضبط الاخلاق ، وتحفظ الملكات الفاضلة وتكون حداً تقف عنده النفوس في أعمالها ، وتأنزله الاشخاص في سيرها حتى تنتقل الاعمال من حالة التكليف الى حالة العادة والملكة فتصبح الاخلاق فاضلة والعادات حسنة ، وتسير الأمة في طريق الاستقامة الى خير غاية .

المقالة السابعة والعشرون

تأثير التعليم في الدين والعقيدة *

من المعلوم الذي لا يشتهيه فيه أن أرباب المذاهب والاديان على العموم ، وإن اختلفت عقائدهم ، وتنوعت مشاربهم ، يحترمون اعتقاداتهم ويحلمونها وينزلونها من العلو أعلى منزلة ، ويدافعون عن حرماتها ببذل الاموال ، وفناء الارواح ، حتى ان صاحب العقيدة الثابتة في دينه لم يمت بالسيف قطعاً ، وبالنار حرقاً ، وبالحجر رضاً ، ولا يتحول عن عقيدته وذلك ظاهراً . فان كل دين يرشد متقليديه الى أن الدنيا فانية ، وأن هناك داراً باقية ، نعيمها يفوق كل نعيم ، وشقاؤها يهون دونه كل شقاء ، وكلاهما أبدي لا ينقطع ، فالرجاء والخوف يدفعانه الى الموت على أى وجه كان دون التحول عن عقيدته التي يرى النعيم جزاءها ، والنجيم عقاب العدول عنها

ثم ان التخالف بين العقائد يحكم على كل صاحب عقيدة برفض تقييدها ودحض كل حجة تخالفها وتقضي عليه بأن يرى جميع مخالفته فيها من الاشتباه الهالكين حيث ان النجاة مربوطة بعقيدته ، والهلاك معقود بمخالفتها ، وذلك يلزمه بمقتضى الطبع أن يسعى جهده في نشر عقيدته وتمكينها في القلوب ، وتثبيتها في النفوس لأحد أمرين

(الاول) سوء الظن بمن يخالفه في العقيدة وخونه من أن يسعى في ضرره لا انتقاص الرابطة الاعتقادية بينهما ، فهو يسعى في ضم جميع الناس الى نفسه في الاعتقاد حتى يكون واسطة في الاتحاد على التعاون والانتفاع الذاتي والأمن من المضار ، وأن صاحب العقيدة لهذا السبب لا يألو جهداً ، ولا يؤخر سعياً ،

ولا يترك وسيلة توصله الى الاكثار من المواضع له في الاعتقاد حتى تتوفر له المنافع ، ويكونوا له عوناً على دفع الأخطار

(الثاني) الشفقة الانسانية ، فان الذي يعلم أن عقيدته تأتي لمعتقديها بسعادة أبدية ، وأن جاحدها لا بد أن يصيبه الشقاء السرمدى ، ويعلم أن بني الانسان كلهم إخوة ، أبناء أب واحد وأم واحدة ، يجب على كل منهم أن يسعى طاقته في نفع الآخر ، كل هذا يحمله على أن يرق ويرحم الذين يخالفونه في الاعتقاد فتأخذه عليهم الشفقة والرحمة ، فيدعوهم الى أن يكونوا على مثل اعتقادهم لينجوا في التاجين ، ويستعمل كل حيلة لا تقاذهم من الاعتقادات التي يظنها مضرّة بهم مهلكة لأرواحهم بعد مفارقة أبدانهم

ولهذا نرى أرباب المذاهب والأديان منتشرين في كل جهة ، ضارين في كل أرض ، يطلبون انتشار مذاهبهم وبث معتقداتهم بكل ما يمكنهم من الوسائل ، فمنهم من يستعمل الخطابة والوعظ ، ومنهم من يستعمل الكتابة والتصنيف ، ومنهم من ينشئ المدارس والمكاتب للتعليم ، وهذا القسم الأخير هو الأكثر عدداً ، والانجح سعياً . فان العقول في سن الصغر ساذجة ، والأذهان خالية ، وهي مستعدة لقبول ما يرد إليها من الأفكار ، قابلة للتأثر والانفعال ، بما يطرأ عليها من صور الأعمال والآراء والأحوال ، خصوصاً اذا كان جميع ذلك صادراً من شخص تكبره النفس وتعظم قدره مثل الاستاذ والمؤدب والمربي ، فتنبى وجد الولد صغيراً في حجر مهدين ومعلمين يربون عقله ويعنون روحه بغذاء علومهم ومعارفهم ، فلا ريب تؤثر فيه أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ، وتنطبع في نفسه صور ما هم عليه ، فأياً كان آباؤه وأسلافه الأولون لا يحفظ عقائدهم ، ولا هيئات أحوالهم ، بل يتشكل عقله ولبه بالأشكال التي يفيضها عليه مذهبوه ومعلموه آتياً كانوا ، فان خالفت مذاهبهم مذاهب آباءه وأسلافه فلا شك في تحول مذهب الولد وانحرافه الى مذهبهم لتأثير أحوالهم عليه خصوصاً وقد بينا فيما سبق أن كل ذي دين يميل بالطبيعة الى بث دينه ، وإعلاء كلمة اعتقاده . فأني مكتب أو مدرسة يتولى التعليم فيها رسل ديانة أو

رؤساء مذهب ، بل ذوو عقيدة ثابتة في أي دين كان أو مذهب ، فلا شك أن حالمهم وقالمهم يؤثر في اعتقاد الولد ومذهبه ، ويزداد التأثير بطول المدة وحسن المعاملة والبراعة في طرق التأثير على حسب حال أولئك المعلمين ومشربرهم ، لا فرق في جميع ذلك بين دين ودين ومذهب ومذهب ، وجميع هذا لا لوم فيه على صاحب الدين أو المذهب ، فالذي دعاه إليه إما حب المنفعة والأمن من الضرر ، وإما الشفقة والرأفة على عباد الله بحسب اعتقاده الذي يراه يقيناً لا ريب فيه ، بل ان هذا التغيير الذي يظهر في اعتقاد التلامذة من تأثير حالة معلمهم ومهذبهم قد يحصل بدون قصد من المعلمين ، بل بحكم السريان والعادة من طول المعاشرة وكثرة الممارسة

وعلى هذا حال المدارس المنتشرة في أقطارنا المصرية التي أسسها وأنشأها رسل الطوائف الدينية لم يكن الغرض منها التعيش والاكتساب ، وإنما الغرض منها نشر العلوم ، وبث أنوار التمدن (على ما يقولون) كمدارس الفرير الأمريكان والانكليز وغيرها . فأننا وان فرضنا أنه لا غرض لهم في إنشائها ، وصرف المصاريف الزائدة عليها الا نشر العلوم وتقدم المعارف فقط ، لكن حيث ان رؤساءها ينسب كل واحد منهم الى مذهب من المذاهب المسيحية ، فالرئيس منهم ليس بملزم أن يفرق هيئة التعليم في مدرسته بحيث يجعل لكل قسم من التلامذة كتباً خاصة توافق مذهب التلميذ وديانته ، ولا أن يجعل التعليم في كتب تختص بمذهب غير مذهبه لا يعرفها ، وإن عرفها فربما لا يفهمها ، ولا يرى من الواجب عليه استحضار معلمين عارفين باصطلاحات الكتب الدينية المؤلفة في مذاهب أخر ، فهو على حسب معرفته وميله الطبيعي يعين للتعليم كتباً توافق مشربه ، ولذلك نرى في جميع تلك المدارس كتب التمرين والاملاء والمطالعة مما يوافق مذهب رئيس المدرسة ومشربه الديني ، فالبروتستانت يروجون بين التلامذة كتب مذهبهم والكاثوليك يترؤنهم ما يوافق مشربهم وهكذا — فالتلامذة على اختلاف مذاهب عائلاتهم يقرؤن كتباً واحدة ، توافق مشرب مؤسس المدرسة خاصة ، فاذا طال بهم زمن التعليم في مدرسة منسوبة للبروتستانت

مثلاً ، فلا شك أن عقائدهم تتحول بالتدريج من المذهب القبطي أو الكاثوليكي أو الدين الاسلامي الى مثل عقائد البروتستانت ، ومثل ذلك يكون في مدارس الكاثوليك ، أو في المكاتب الدينية الاسلامية ، كمكاتب الفقهاء مثلاً أو مدرسة الأزهر ، فإن المتعلم فيها إن كان صغيراً لا شك تحول عقائده أياً كانت الى الدين الاسلامي بتأثير الكتب فيه ، فضلاً عن تأثير هيئات العبادة وأحوال المعاشرين وأفكارهم التي تؤثر في العقول من حيث لا تشعر ، وكل هذا لا لوم فيه على أرباب المدارس والمكاتب أصلاً ، فانهم لم يعملوا شيئاً الا بحسن النية وصدق القصد ، وليس لهم من غرض سوى إفاضة العموم على حسب اعتقادهم

غير أن عزة العقائد على النفس كما يبناه في صدر مقالنا هذا تثبت في الآباء غيرة قهرية على عقائد الأبناء ، فاذا شعر الوالد بأن ولده تحول عن عقيدة عائلته أدنى تحول ، طار عقله وانبعث الى طلب الانتقام ممن تسبب في ذلك بكل حيلة ، وحدث في عائلة الولد من الاضطراب ما عساه يحدث تشويشاً في العموم وقلقاً في الأفكار . ومن ذلك ما حدث من مدة سنوات : أن أحد أولاد مصطفى افندي المنشاوي - واسمه أحمد فهمي - كانت تربيته وتعليمه في مدرسة الامريكان البروتستانتية ، وبعد مضي ثماني عشرة سنة من عمره أظهر التمهيد بالمذهب البروتستنتي ودعا أباه وأخوته الى موافقته على عقيدته الجديدة ، وكان لهذه المسئلة قصة هائلة لم نزل يتحدث بها الناس حتى اليوم ، وتداخلت فيها الحكومة وقصلاؤهم أمريكا ، وانتهى الأمر بفقد الوالد ولده ، حيث سافر الولد الى جهة لا يعلمها والده ، وهو باق في حيرة فراقه ، يتقلب على جمر القلق حتى الآن خصوصاً مع ما يراه في هذا الأمر من العار الذي يلحقه ويلحق عائلته أجيالاً وقد ذكرنا بهذا الموضوع وهذه الحادثة حادثة أخرى تشبهها في النوع ، وقعت في هذه الأيام ، وهي : أن أحد أولاد حسن افندي الحكيم من رجال الحفانية كان تلميذاً في مدرسة الفرير بالقاهرة مدة طويلة ، ثم انتقل منها الى مدرسة الطب ، غير أن المودة كانت لم تزل بينه وبين رؤساء المدرسة ، وبعد أن أقام في تعلم الطب سنتين تغيب من مدة أسابيع ، ولم يعلم أين ذهب ، ولم

يهتد والده الى السبب، حتى أخبر أخ له صغير بأن رأى رقيما من رؤساء المدرسة مبعوثا الى أخيه المنفي، يعينون له فيه يوم السفر فقط بدون زيادة، وبعد البحث والتدقيق علم أنه في مدرسة الفرير في الاسكندرية، غير أن المسئلة لم تتضح حتى الآن كحل الموضوع

فهذا أمر أفزع والده وعائلته، وأوقع بهم من المصائب ما لم يكن في حسابهم، غير أن اللوم في جميع ذلك على الآباء خاصة، حيث يرسلون أبناءهم قبل كمال الرشد الى المدارس التي يتولى التعليم والادارة فيها معلمون على غير مذهبهم أو غير دينهم، ويقعون بينهم الأزمدة الطويلة، يتلقون عنهم الأفكار والتعاليم من كل نوع حتى تنطبع أفكار المعلمين وملكاتهم في طباع التلامذة ونفوسهم فمن الواجب على كل شخص يخاف على دينه أو مذهبه، سواء كان مسلما أو مسيحيا أو يهوديا، وسواء كان قبطيا أو أرثوذكسيا أو بروتستانتيا، أو غير ذلك من المذاهب أن لا يبعث بأولاده وهم صغار، لا يعقلون ولا يفهمون إلا ما يلقي اليهم من المعلم والمؤدب الى مدارس يتولى التعليم فيها والادارة من ليسوا على مذهبه أو دينه، ومن تساهل في ذلك ثم تغير اعتقاد أبنائه، واتقلبت مذاهبهم الى مذاهب أخرى فلا يلومن إلا نفسه

وأما من لا ياتزم اعتقادا خاصا، ولا يرى لنفسه مذهباً معيناً، فله أن يرسل أولاده في أي سن الى أي مدرسة، إذ لا يبالي بأي تغيير يحدث في عقولهم، ولا تتفاوت عنده أشكال التربية وصورها، فجميعها لديه سواء

وبالجملة فانا نقول: إن كل صاحب اعتقاد يخاف عليه ويحرص على بقاءه ويحب ذلك لأولاده ونسله - فأول واجب عليه تمكين اعتقاده في عقول أولاده بحفظهم عن مخالطة من يخالفه في العقيدة، وهم في سن الصغر، فإذا بلغوا رشدهم، وعقلوا عقائدهم، وصاروا في أمن من تأثير أفكار الغير فيهم، فلا بأس باطلاق سراحهم، يعاشرون من شاؤوا، ويستفيدون العلم ممن يريدون، ومن أهل في ذلك فهو المهمل في أمر عقيدته، العديم الخبرة في حفظها، وسنعود الى هذا الموضوع عند ما يرد الينا تفصيل الحادثة الأخيرة، وما انتهى اليه الامر فيها

المقالة الثامنة والعشرون

بقايا مسألة تأثير التعليم في العقيدة (*)

نوهنا في أحد أعداد جريدتنا سابقاً بتغيب ابن حسن أفندي الحكيم بما أغراه بعض رؤساء المدارس الاجنبية واستهواه عن عقيدته ، وفيما يقال إنهم رغبوا السفر به إلى الجهات الخارجة عن القطر المصري حسب ما يوجوهونه ، وإن كفر بذلك نعمة الوالد والوالدة وجحد إحسانهما اليه بالترية البدنية ، وما أنفقا من كسب الايدي عليه لتكامل تربيته النفسية ، وجرح قلوبهما بفراقه وهو عزيز لذيهما ولهما فيه من الآمال ما يسهل نصبهما في تهذيبه وتعليمه

وأشرنا في ذلك الى أن حضرة والده الولد المحزون على ما أصابه توجه الى الاسكندرية مستقصياً خبره فبلغنا بعد ذلك أنه بعد شدة الفحص ودقة البحث لم يعثر عليه ، فرجع إلى المحروسة في حالة اليأس ، فأشير عليه بتقديم تقرير إلى قنصلاتو دولة فرنسا يشكو فيه رؤساء تلك المدارس الذين أغووه وأغروه بفراق والده وارتكاب العار الشنيع الذي لا يخصه بل يعم العائلة بتمامها كما وقع لسابقه ، فحرر تقريراً بذلك وذهب إلى الاسكندرية لهذا الغرض . فارتقبنا ورود خبر عن هذه الحادثة الى أن ورد الينا من أحد أصدقاءنا بالاسكندرية رقباً فيبدأ أن الوالد فاز بوجود ولده قبل اختطافه بأيد طالما طالت الى مثل هذا العمل (التفريق بين الوالد والولد) ولنورد عبارة هذا الرقيم ببعض تلخيص فمنها تتضح حقيقة المسئلة قال صاحبنا بعد الديباجة :

إن نجل حضرة حسن أفندي الحكيم الذي نوهتم بذكره في أحد أعداد الوقائع في الاسبوع الماضي قد أحضره خاله من الميناء الغربية بالاسكندرية (محل وجود الواورات البحرية) وعلم من كلامه (كلام الفتى) أنه كان متغيباً جهة الرمل (بالاسكندرية) يدارس مع أحد الاساتذة بعض فصول علمية . وأنه لما

علم بما ذكرته عنه الجريدة الرسمية أخذته الغيرة الدينية والحمية الإسلامية، وحضر قاصداً خاله ، ولم يكن له علم بأن والده بالاسكندرية . ولما قيل له انه موجود بهذه المدينة يقاسي من أجله الهموم والغموم سعى اليه وقابله وقبل يديه وأظهر له الخضوع والطاعة ، وأبان له أنه حريص على دينه الحمدي ، وأنه لا يرغب عنه ولم يحمله على التغيب إلا حب العلوم وتشوقه لاتمام علم الطب لشدة شغفه به ، ثم ان والده أخذ يلاطفه ويوعده بما يميل اليه ، وبأنه سيهتم في توجيهه إلى أي جهة يريدونها من الجهات الاوربية حتى آانس منه الامثال ، وقد حملت الغيرة على أن يكتب الى الجريدة الرسمية بنفي مانسب اليه إلا أن والده رغب إلي أن أكتب اليكم بذلك لتذكروه في أحد أعداد الوقائع اه

غير أنني كنت أحب أن يكتب إلي هذا الفتى بنفسه ليكون هو الكاشف عن ضميره بتعبيره ، وأرجو أن يكتب الينا بشيء من الفصول العلمية بأي عبارة كانت لنشرها تحت اسمه ويكون له الفضل ، ونؤدي له على ذلك الشكر ولنعد إلى أصل الموضوع فنقول : ان عبارة هذا الرقيم في الحقيقة وافية بكشف الواقع ، وأنه لم يخرج عن حد ما نوهنا به سابقاً إلا أنا نضرب عن يان وجوه ذلك صفحاً . فقد ظهر لنا وتحقق أن هذا الفتى النجيب قد حفته العناية الالهية بارضاء والده الحنون الشفوق والابتعاد مما يلحق به وبوالديه وعائلته من ألم الحزن والأسف ، إذ يلم بوالديه مالا يقدر من الاحزان على فراقه وبعده ويحيط به نفسه الغم والهم كلما لاحظ في فكره أو خطر بباله حالة أبويه ، وما وصل أمرهما اليه ، إذ توبخه ذمته ويلعنه ضميره ، كلما تذكر الاحسان السابق منهما اليه مع إساءته اليهما وهو قادر على مكافأة الاحسان بالاحسان ، فنحن نشكر له هذا الانتباه ومحمدته على تلك الغيرة الدينية ، بل الحمية الانسانية، ونوصيه بمراعاة حرمة الوالدين التي جعلها الله تعالى في الرتبة تالية للاقرار بربوبيته ووحدانيته إذ قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً) وقال تعالى (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) وبأن يعظم قدر الاحسان الذي أسدياه اليه صغيراً وهو فاقد القدرة والارادة واليائه بالبر ، حتى صار رجلاً ذا قدرة على الكسب ، واختيار وإرادة في الخير والشر ، فقد قرن الله شكر الوالدين

بشكره في أمره فقال تعالى (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك اليّ المصير)

وعلى هذه الوصايا المقدسة وردت الكتب السماوية بأسرها ولا ريب أن هذا هو الذي يمحو عنه كل شيء لحقه من تلك الاشاعة التي ظهر آخر الأمر على ضدها ، وفقه الله تعالى لحسن الطوية ، وفقه عقله بنور المعرفة ، ليس في إرضاء والديه وتسكين خواطرهما قياماً بأمر الله في جميع كتبه ، على لسان جميع رسله والأمل بعد هذا أن لا يتغيب عنهما إلا باذنهما سواء كان لمدرسة العلوم أو اكتساب أي فضيلة كانت حرصاً على برهما ، ثم اننا نعيد انذار الآباء هدام الله بأن لا يسلكوا بأولادهم في التربية مسالك توجب لهم قلق الفكر ، وتشويش البال ، وأن لا يبعثوا بأبنائهم الى المدارس الاجنبية التي تغير مشاربهم ومذهبهم حتى يأذن الله تعالى بمنع التعلم الديني في جميع مدارس العالم ، فتكون المدارس قاصرة على العلوم غير الدينية والصنائع ، ويكون للدين مواضع مخصوصة لتعليمه والتربية بمقتضاء . وهذا خصوصاً في مثل أقطارنا أبعد من مجيء الالف على رأس المائة . على أن ماسبق منا نشره في الاعداد الماضية يقتضي بأن نفس المعاشرة تؤثر في العقيدة فلا يؤمن على الاطفال من تغيير المذاهب الا اذا ارتفع استحسان الشخص المعتقد ، واستوى جميع الاعتقادات عنده ، وهذا محال مادام الدين ديناً ، فليتنبه من ينبه ، ولينته الآباء ان كانوا يعقلون

(يقول جامع الكتاب) ان الاستاذ رحمه الله نبه الغافلين عن مدارس دعاة

التصيرية بالطف العبارات وأبعدها عن إثارة تعصبهم وتعصب أنصارهم وتلاميذهم واحتجاج ساستهم وجرائدكم في زمن لم تكن الحرية فيه راسخة في البلاد ، والصواب أن جميع مدارسهم ومستشفياتهم لم تنشأ الا لأجل نشر دينهم وجذب الناس اليه وللمسلمون لا يزدادون إلا غفلة وعمي عما يكيد لهم الكائدون ، ولا يزالون يلقون بطفلاذ أكبادهم الى مدارس الدعاية والتبشير فان كان من يتنصر منهم نادراً فمن يخرج ملحداً أو معطلا ليس بنادر ، وكلاهما يكون ممزقاً لشملة أمته مقطوعاً لروابط ملته وبها يكون خادماً لأعدائهما من حيث لا يشعر

المقالة التاسعة والعشرون

نيل المعالي بالفضيلة

عثرنا في جريدة المقتطف على فصل مفيد يحكى تاريخ الجنرال غارفيلد رئيس جمهورية الولايات المتحدة في أمريكا . فكان هذا التاريخ شاهداً على ما للرجل من وفرة العلم وكثرة التجربة ، وتقلبه في الاعمال النافعة لبلاده ، ودليلاً على ما للبلاد أمريكاً من التقدم في المدنية ، حيث ان فضل الرجل عندم يعرف ويشهد لهم به فلا يحول بينه وبين ما يؤمله له استعداداه وضاعة أصوله ، أو خمول عشيرته ، أو فراغ يده من النقود ، أو حقارة مسكنه ، أو خشونة مأكله ، فجميع هذه الظواهر التي لا تدخل لها في جواهر الرجال ليست معتبرة عندم ولا هي المدار في ارتقاء مراتب الشرف والسيادة ، وقد استفيد من هذا التاريخ أن هذا الرجل لم يصل الى ما وصل اليه بلزوم أعتاب الكبراء ، ولا الوقوف خلف أبواب الامراء ، ولم يرفعه الى منزلة الرياسة العظمى صفاء لون الوجه ، ولا حسن تركيب الخلق ، ولا توسطه في منافع من هم أرفع منه منزلة ليجذبوه من حضيض حطته الى أوج رفعتهم . وهكذا يرتفع أبناء الأوساط والآحاد من الناس في البلاد المتمدنة بالصفات الفاضلة ، وسعة المعلومات ، وبذل الجهد فيما يعود على البلاد بالخير والفائدة

وهذا (هو) الذي يبعث كل فرد من أفراد الأمة على الجدى في كسب الفضائل الحقيقية ، واستعمال العقل الانساني فيما خلق لأجله من إصلاح أحوال المعيشة وسعادة الدارين ، وسلوك طرق الرشاد ، واستخدام جميع الوسائل الآمية التي أعدها الله تعالى لمنافع خلقه ، ووهب لهم إدراكاً يتمكنون به من اجتناء منافعهم منها

فأرباب الثروة وذوو المقامات الرفيعة يعلمون أن المناصب وارتفاع الشؤون إنما تنال بالفضائل التي ألهم الله بها عباده وهداهم إليها على لسان من اختصهم بحرايا الادراكات السامية ، ودلهم عليها بالحاجات والضرورات بما ساقه اليهم من حوادث الكون التي هي خير أستاذ ماهر للعقول الانسانية ، والنفوس البشرية ، وجعلها قواما لسعادة المعيشة ، وركناً شديداً لبيت الحياة ، وهي الفضائل التي حوت لها كتب العلماء والحكماء ، وأثبتها الصديقون والسياسيون في مؤلفاتهم ، ومجمعها طلب النفع الخاص من طريق الفائدة العامة ، أي الوقوف في السعي لكسب المعيشة عند حد ما ينفع الجمعية المعنونة باسم واحد كعمر أو الشام أو أمريكا أو ينفع عموم نوع الانسان ، ولا يجلب ضرراً على أحد من المجتمعين لافي العاجل ولا في الآجل ، إلا أن يتوقف عليه نفع جميعهم ، ويتبع هذه الفضيلة الكلية عدة فضائل هي أصناف وأنواع لها ، وكل واحدة منها أصل لفضائل لا تنحصر إلا بالذوق الظاهر ، والفكر الدقيق ، ويلزم لنيلها كلها اتساع دائرة العقل في المعلومات ، ومقارنة الحوادث بعضها ببعض في السير المدني ، ونسبة كل منها الى الآخر في المنفعة والمضرة حتى يتيسر للشخص حسن الطلب على النحو الذي ينه ، ويتبع هذا الواجب نشاط في العمل المفيد للفرد والمجموع ، واحتمال لكثير من المشاق المتعبة في أوقات ، وإن أعقبتها راحة دائمة ، ثم يعقب ذلك تحلّ بصفات كثيرة ، وتحلّ عن أغراض جمّة . تسمى الاولى باسم الفضائل وتعنون الثانية بعنوان الرذائل . فاذا تيقن الأعلون من الناس أن لارفعة ولا ثروة إلا بحوز هذه الفضائل دأبوا في تحصيلها ، وبذلوا الجهد في المحافظة عليها ، فيسعدون بما يستفيدون ، ويسعد غيرهم بما يفيدون ، إذ يحرصون على التفتن في العلوم والصنائع التي يحتاجها غيرهم ، فيطلبها منهم بالثمن الذي يرغبون ويجتهدون في منع كل ضرر يخشى وقوعه لهيئتهم الاجتماعية التي هم أعضاؤها الرئيسة فتطلبهم الافراد للسيادة عليهم جزاء لهم بحسن خصالهم ، وجميل فعالهم

وأما الوضعاء من الناس وذوو الانساب الحقيرة ومن لا اسم لهم فانهم يعلمون أن هذه الصفات الفاضلة تسوق الى السعادة ، وأن من لا قدر لهم ولا تعلم أسماؤهم

لحلول ذكركم ، وحجب ستارة الفقر ، والاعدام شواخصهم عن أعين الناظرين
يعلو ذكركم ، وتتوجه الافكار الى معرفتهم ، والقلوب الى احترامهم ، وتطلبهم
المنازل الرفيعة وهم في مساكنهم الخفية ، فيجدون ويجتهدون في اكتساب
ما يؤهلهم ويعدم للحاق بمن سبقهم في الاعمال النافعة والافاضة لينالوا
من رفعة الشأن مثل مانال السابقون ، وبذلك تكون الأمة على اختلاف طبقاتها
في حركة صعود دائماً . فان الغني وذا الجاه لا يريان لفظ غناهما وجاههما أو
الاستزادة منهما إلا بالمحافظة على منابع الخير من ذاته ، والبعد عن قواذف الشر
ومطارح الضر ، والفقر وخامل الذكر لا يجد سيلا الى الغنى ونباهة الاسم الا
المبادرة الى أسبابه الحقيقية ، وهي التشبه بالنبل والوجهاء الذين لم ينالوا النبالة
والوجاهة الا بالفضائل الحقيقية في التحلي بتلك الفضائل حتى يصبح نبيلاً وجاهياً
مثلهم ، فتقوى في الأمة دعائم العمران ، وتثبت فيها أصول السعادة التي وضعها
الله تعالى لتحسين حالة الانسان في حياته ، ووقايتها من الخطر الذي يتوقع أن
يحل به ، وعند ذلك تكون للأمة الاحوال التي نسميها بالرفاهية والعزة والسطوة
والقوة والشوكة والغنى والثروة والرئاسة والسياسة وغير ذلك من الصفات
التي تمدح بها ويعلو شأنها

وهذا بخلاف ما يوجد في كثير من البلاد التي لاعناية لها بشأن الفضائل
فلا ينظر فيها الى الشخص من حيث حليته الباطنة وزينته العقلية ، ولكن أهاليها
ينظرون الى الرونق الظاهر والحلية الصورية ، ويعدون الاعراض الساقطة في
المنزلة الاولى من الاعتبار ، فلا ينزل الواحد فيها منازل الشرف الا اذا كانت
له من أياه أو من متبوعه جهة الشرف ، ثم ان صاحب الجاه والشأن الرفيع
لا يسقط من مقامه . فان جاهه هو المانظ له ، وشأنه هو الذي يقدم أبناءه
وحواشيته الى مثل مقامه ، وإن كان فاقداً لكل فضيلة وخالياً من كل صفة
إنسانية ، فتكون الطبقات في مثل هذه البلاد على الدوام ثابتة أفرادها على
حال واحد في أزمنة كثيرة . فالفقراء يبقون على فقرهم ، والأغنياء يدومون
على غنائهم ، وقليل أن يصير الفقير غنياً ، ويلزم لذلك تمكن الاستبداد والظلم في

تقوس الطبقات العليا وثبوت جرثومة العبودية والذل في قلوب الطبقات السفلى ، وفي مثل هذه البلاد قد ينال بعض المستضعفين ، وآحاد الناس ، ومن لا شأن لهم رفعة شأن أو علو مقام ، ولكن لا من أسبابه الطبيعية التي سنها الله في خلقه بل بوسائل التذلل والمداجاة وإظهار العبودية لمن فوقه ، ولزوم أعتابهم ، والوقوف على أبوابهم ، أو بأن ينتصب لطلب منافعهم الخاصة . فإذا داوم على ذلك أزماناً وقروا له وأخذوا يده فدرجوه في مراقبي الشرف سلماً بعد سلم حتى يلحق بهم ويعد في حاشيتهم ، فيشرف بمثل شرفهم ، فبهذه الوسائل تنحرف القلوب وتميل الأفكار عن الجادة المستقيمة ، ويدخل الناس في هذه الطرق فتعدم الرغبات في الفضائل ، بل تغفل الأذهان عنها بالكلية فلا تتوجه إلا إلى تلك الرذائل

غير أن هذه الوسائل وإن أفادت في بابها وأتت بالغاية المطلوبة منها ، لكن لا يمضي زمن قليل حتى تسقط الأمة بتمامها ، وينتهي بها الحال إلى الخراب ويهم أشد جميع الأفراد

فهنيئاً للبلاد التي تعرف فيها الحقوق لأربابها ، ويدخل لها السعادة (١) من أبوابها ، وإنا ننشر هذا الفصل التاريخي ليستفيد منه المطالعون .

١٠ - لعل الاصل : ويدخل لها السعادة - جمع ساع - اوتدخل لها السعادة - الخ
على ان تذكر فعل السعادة جائز هنا

المقالة الثلاثون

العلم وتأثيره في الإرادة والاختيار *

﴿ لأحد المفكرين المشتغلين بالعلوم العقلية قال : ﴾ (١)

سألني أحد الأفاضل عن سلطة الفكر والتعقل عن الإرادة ، وسلطة الإرادة عليهما ؟ فلم أجده بداً من المذاكرة معه في هذه المسئلة ، وتوضيح ما وصل اليه عقلي تقلاً عن العلماء المحققين ، واستنباطاً من كلامهم ، ولظني أن في ذلك نوعاً من الفائدة لقراء جريدة الوقائع رأيت من اللائق نشره على لسانها حكاية لآراء العلماء ، وما أداهم اليه التدقيق في هذه المسئلة ، ولا بداً قبل الكلام في الفكر والتعقل من تقديم مقدمة في العلم ، ولا نتكلم في العلم من جهة ما نقول ويقول المرشدون من أنه نور العالم الانساني ، وشمس وجوده ، وروح حياته ، وأنه وسيلة التقدم في المدنية ، وكل الحقيقة الانسانية ، وهو سيف القوة ، وينبوع الثروة ، وما شابه ذلك من الاوصاف الحققة التي أجمع عليها العقلاء ، بعد أن صدر به النطق الالهي على لسان الرسل والأنبياء ، والصديقين والأصفياء . فان هذه الأوصاف إنما تثبت للعلم من جهة أنه مطابق للواقع ، ومثال للحقائق الثابتة ، وحاك عن الأوضاع الالهية في عالمنا الوجودي . أما كلامنا الآن فهو في مطلق الادراك المعبر عنه بالشعور الذهني الذي يشمل جميع التصورات والتصديقات من حيث هي

اختلفت كافة العلماء في مسمى لفظ العلم ، فمنهم من قال : أنه الصور المنطبعة في النفس آتية من طرقها المعلومة (الحواس الخمس) أو حاصلة من تأليف بعض تلك الصور الآتية مع بعض آخر . ومنهم من قال : انه انفعال النفس بتلك

(*) نشرت في الممدد ١٢٧١ الصادر في ١١ المحرم سنة ١٢٩٩ - ٣ سبتمبر سنة ١٨٨١

(١) المقالة بطولها له رحمه الله ولكنه أراد أن ينظر في هذا البحث المهم لذاته

الصور أي التأثير الذي يحصل فيها بورود الصور عاينها . ومنهم من قال غير ذلك من كونه نسبة بين العالم والمعلوم ، مجهولة الحقيقة أو اتحاد العالم بالمعلوم ، الى غير ذلك من الأقوال التي لا حاجة بنا الى ذكرها ، لكن القوانين الاولين هما الأقرب الى العقل ، والأشهر في النقل ، ويكاد الخلف بينهما يكون لفظيًا ، لاتفاتها على أن النفس المدركة تنطبع فيها الصور ، فهي متأثرة بها ، إلا أن الخلاف في كون العلم هل هو الصورة نفسها ، أو تأثر النفس وانفعالها بها ؟ والأقرب للحقيقة هو الرأي الثاني ، وهو ما يرشد اليه الوجدان الذي يدرك كل متعقل من نفسه

فالعلم بناء عليه انفعال في هذا الجوهر المدرك الذي نخفي علينا حقيقته ، لكننا نعرف آثاره ، وهو الروح الحيوي ، والقوة المودعة في المخ والأعصاب من الحيوان ، أو المعبر عنه بالنفس الناطقة في الانسان . فالضياء الذي قال العلماء أنه يحمل الصور الى الباصرة مثلاً ، ليس المراد أنه ينتقل صور المرئيات كما ينتقل أحدنا الشيء من المكان الى البصر فيودعها فيه . إذ هذا من الحالات الأولية . فان صورة الشيء الذي نراه لاتفارقه بالضرورة ، بل المراد أن الضياء للطفه عند مروره على الصور والاشكال يتشكل بها ، فيكون أيضاً بنفسه قد حدث فيه شكل يشاكل هيئة مامر ، وانطبق عليه على حسب حالة الانطباق ، ولما فيه من الحركة السريعة المستمرة ، ينعكس الى البصر بشكله ، فيؤثر في الروح اللطيف (أشد لطفاً من الضياء بكثير) المودع بالحكمة الالهية في مركز الادراك يمثل ما تأثر الضياء من المرئي عند انطباقه عليه . وهكذا يقال في توج الهواء بالنسبة الى المسموعات ، وفي اللبوسات والمشمومات والمذوقات يتأثر الروح المنبث في الأعصاب الادراكية من نفس الكيفيات التي تتصل به ، فيحصل فيها مثل هيئتها التي خالطته

فالعلم والادراك أثر في الجوهر الدراك يحدث فيه من المؤثرات الأخر المحيطة به كسائر الآثار التي تحدث في الأشياء من اتصال بعضها ببعض ، وانفعال كل منها بما في الآخر من الكيفيات والصفات التي يمكن أن يفعل بها

للحرارة يكتسبها الماء عند اقترابه منها ، والماء يكتسب شكل الأثناء عند وضعه فيه ، وما شابه ذلك

وهذا الأثر بحكم الوضع الإلهي الذي لا تصل إلى كنهه العقول يثبت في جوهر المدرك ، مستتباً جميع لوازمه التي لا تفارقه ، فصورة الإنسان مثلاً يتشكل بها الروح على هيئتها التي تشكل بها الضياء ، وهي في مكانها المخصوص ، ووضعها المعين ، فكما صارت تلك الصورة في الروح يكون فيه أيضاً حيزها ومكانها التي كانت حالة فيه عند الرؤية ، ومقدار البعد بينها وبين الأشياء التي أحاط بها الضياء ، وآتى بها معها ، وبالجملة فإن الشيء يكون في العقل كما هو في الوجود مع كافة لوازمه وتوابعه على حسب ما اتصف به الموصل ، وما قبل الروح المدرك بحكم استعداده القطري ، حتى ذهب كثير من المحققين إلى أن الحقائق بنفسها موجودة بذاتها في العقل كما هي موجودة في الخارج لما رأوه من البائس التام بين صورة العلم والمعلوم ، فكان عالم الإدراك وما يوجد فيه هو بعينه عالم الشهود وما احتوى عليه . وكما أن حركة الموجودات في العالم الخارج عن نفوسنا تدعو إلى اتصال بعضها ببعض ، فيتألف منها أجسام على نمط منتظم أو غير منتظم يكون لها من الخواص والصفات بعد تألفها ما لم يكن لها قبل التألف ، فإن حركة الأجزاء الغذائية مثلاً وانضمامها إلى البدن الإنساني أو الحيواني يكسبها من صفات الحياة ما لم يكن لها قبل اتصالها بالبدن ، كذلك حركة الجوهر المدرك فينا تفضي إلى انضمام بعض الأشكال الإدراكية فيه إلى بعض آخر فيتألف منها شكل ثالث يكون له من الخواص العقلية في ذلك الجوهر ما لم يكن للسكاكين الأولين ، ونريد من الأشكال أنواع المراكات الحادثة في جوهر الروح فإن انضمام بعضها إلى بعض يحدث أنواعاً أخرى من الحركة

وكما يرى في عالم الشهود أن بعض أجزاء العالم يجذب بعضاً وبعضها يطرد بعضاً آخر تمام مناسبة أو تمام منافرة بينهما ، كذلك بعض المعلومات في العقل إذا حصل يوجب انضمام معلوم آخر إليه أو انفصاله عنه ، وفي كلا الحالين أحدث في النفس أثراً جديداً ، ومن ذلك تذكر الشيء بعد الذهول عنه لوجود

ما يلائمه أو يضاده بالكلية ، وقد يكون في الحالين مع سرعة تارة ، ومع بطء تارة أخرى ، كما يحصل ذلك في الموجودات المشهودة بلافق ، ومعنى هذا أن تأرجوهر الادراك بحالة قد يوجب تأثره بحالة أخرى لرابطة بين التأثيرين ، سواء كانت تلك الرابطة ناشئة عن المناسبة أو المعاكسة

ومن المعلوم المقرر عند كل عاقل أن هذا الجوهر الروحي هو المتسلط على الأبدان التي صارت باستعدادها الطبيعي مظهرًا لآثاره ، بمعنى أن حركات هذا الروح في أجزاء الأبدان توجب مطاوعة تلك الأجزاء له ، فهذه التأثيرات والانفعالات التي تحدثها فيه حركات الموجودات الواصلة إليه ، توجب في هذا الروح حركة مخصوصة على حسبها ، شأن سائر المؤثرات الطبيعية العادية ، وبحكم حركة هذا الروح تتحرك الأجسام والأبدان بآلاتها المخصوصة على ترتيب ونظام مخصوص يشبه حركة الروح الناشئة عن تأثيرها ، وهذا ما نسميه بالحركة الإرادية ، وهي التي يندفع بها البدن إلى طلب شيء أو الهروب منه عند العلم بعلامته أو منافرتة ، أي عند انفعال الذهن بصورته مع لازمها الذي هو الملاءمة أو المنافرة حسب الشكل الذي حدث في الجوهر الروحي المعبر عنه بالذهن - يتحرك في الأجزاء المعدة لحركته فيها ، فتتحرك هي أيضاً بحركته ، إما طلباً وإما هرباً (جذبا أو طرداً)

وقد يتعارض آثران في الجوهر المدرك الذي هو الروح ، وبعبارة أخرى قد تختلف صورتان علميتان في العقل (إحداهما) تقتضي اندفاع الروح ، وحركته نوعاً من الحركة (والأخرى) تطلب نوعاً آخر منها فيقف ، وهي حالة التردد ، فإذا عرض من الآثار الإدراكية أو الصور العلية ما يقوي أحد الأثرين تحرك إلى ما يوافق ، وإلا فهو في مركز الوقوف ، ويبقى أثر ضعيف في الإدراك للصورة المرجوحة عند ما يغلب على الروح أثر الصور الأخرى

فالارادة إنما هي تابعة للأثر العلمي في الروح الإدراكي أو هي صورة أخرى لذلك الأثر ، بل الفعل الصادر عن الروح في البدن أعني الحركة البدنية نفسها إنما هو ظهور الأثر الإدراكي في الروح ، فيكون حاصل القول أن المتصل

بالروح أثر فيها أثراً وهو العلم أوجب حركتها في أجزاء البدن ، فكان عنها حركة البدن نفسها ، وإن شئت قلت : تشكل الروح ، وهو في الأجزاء بشكل ما اتصل به ، فظهر ذلك الشكل بعينه في الأعضاء بالحركة الفعلية ، وهذا ما يقول العلماء إن الإرادة تنزل العلم ، والفعل تنزل الإرادة . ومعناه أن حقيقة الأثر واحدة ظهرت في الأشياء المتعددة بمظاهر مختلفة

وقد يكون تأثير الإدراك في أعضاء البدن وأجزائه والمواد التي يتركب منها خارجاً عن الطور الذي نسميه بالإرادة ، وذلك كفعله في الدم عند ما ينتفش بصورة فعل منافر ، وفي الأمكان دفعه ، فيفور الدم ويغلي ، وينتشر في جميع العروق ، ويدور فيها دورة غير اعتيادية ، فإذا اشتدت الدورة تحرك البدن إلى الإيقاع بمن صدر عنه الفعل غير الملائم ، وهذه هي الحالة التي نسميها حالة الغضب ، فإن تأثير الأمر الم غضب في الدم ليس في حد الإرادة والاختيار ، وإن كان التحرك للإيقاع واقعاً تحت الإرادة ، لكن ربما إذا أمعنا النظر نجد أنه خارجاً عنها ، وإنما نعده داخل تحتها عند ما نلاحظ أن عندنا أثراً علمياً آخر يدافع طلب الانتقام ، ويرد النفس عنه ، وهو صورة عاقبة الفعل الانتقامي وما يخشى من خطرهما ، فوجود هذا الأثر عند الغضب نحسب الحركة الغضبية حركة إرادية ، وإلا فالغضب يمحس من نفسه أنه مغلوب لإدراكه

ومثل ذلك تصور العاشق وصل المعشوق ، فانه يفعل في الدم حركة وفي القلب خفقتان ، خصوصاً إذا كان المعشوق يبرأ منه ، وبمشهد من أعماله ، ويتبع ذلك ارتعاد خفيف في الأعصاب والأربطة البدنية ربما يفضي إلى الرعدة ، وليس هذا التأثير داخل تحت الإرادة ولا هو منها في شيء ، ولكن قد يتبعه فعل إرادي مثل الفعل الذي يتبع الغضب ، وإنما يعتبر الفعل إرادياً ما إذا كان ناشئاً عن إدراك آخر ، سواء كانت المنازعة على وجه المدافعة أو المقابلة ، ومرادنا من المقابلة تصور الشيء وضده ، وترجيح غايته على غاية الضد كتفضيل الحياة على الموت عند تصورهما

وقد يفعل الإدراك في الدم وقفة واتقاضاً ، ربما يؤدي إلى الجود وقد

الحياة كما نشهده فيمن فجع بموت ولده أو صديقه ، أو تصور خطراً وخطباً
 جسماً . فان قوة هذا الأثر الإدراكي وفعلها في جوهر الإدراك قد تتسلط على
 الدم فترده من العروق بحركة جوهر الروح وشدة انقباضه ، أو توقف دورته ،
 وربما ينشأ عن ذلك موت المفجوع والآيس ، ويتبع ذلك من الأعمال
 الإرادية قبل ذهاب الحياة سكون أو تحرك غير منتظم . وقد يؤدي إدراك
 من الإدراك كالتصور أمر مخيف — إلى ذهاب الإدراك ، وسلب الشعور
 بالكلية ، وهو ما يعبر عنه بالاغماء والغشى ، وذلك لاستيلاء أثر الصورة المخيفة
 على الجوهر المدرك في البدن ، فلا يسفله سواها ، فتضمحل جميع الانفعالات
 المعبر عنها بالإدراكات ، وتقضى في نوع هذا الإدراك والانفعال الشديد
 وهذه الأحوال التي نجدها من أنفسنا ترشدنا بلا شبهة إلى أن التأثير
 الإدراكي من الانفعالات الطبيعية التي تتأثر بها الجواهر اللطيفة من الضياء
 والكهرباء وغيرها ، وإن ما ينشأ عن التأثير الإدراكي إنما هو كيفيات تتبع الحالة
 التي صار عليها الجوهر المدرك بعد التأثير الذي عرض عليه أي مانسيه علماً وإدراكاً

المقالة الحادية والثلاثون

الملكات والادارات

إن هذا الجوهر الروحاني المتعلق بأبداننا الذي يتأثر من كل واصل إليه
 وينفعل أشكالاً من الانفعال لكل متصل به يأخذ بتوارد أنواع التأثيرات
 هيئات مخصوصة تثبت فيه ، مستتعة لوازمها حتى تصير كأنها من أصل خلقته
 لكثرة ما وردت عليه ، وهي التي نسميها ملكات إدراكية وعلومانية في
 النفس لا تزايلها ، ويتبعها السجايا والطباع والأخلاق النفسانية ، الملائمة لملك
 الملكات الإدراكية ، ويلزمها الأفاعيل البدنية المعبر عنها بالعادات

فليست الأخلاق والعادات إلا توابيع ومستلزمات للعلم والإدراك الذي
 هو أثر في جوهر الروح يتبعه الأثر الفعلي ، فان عرض للنفس مؤثر أو وقف

على أبواب الادراك وارد غريب عن ملكتها السابقة ، وبعيد عن الهيئات الادراكية التي أخذ الجوهر شكلها عسر على الذهن إدراكه ، وتعسر على النفس فهمه ، ومانعت الأعضاء البدنية أثره ، فهذه الأخلاق والملكات ناشئة عن كثرة توارد الانفعال النفسي الادراكي من نوع واحد ، حتى صارت هيئة للنفس تصدر عنها الافعال الجزئية الملائمة لها ، كلما عرض عاينها أثر جزئي من نوع الهيئة السكينة ، فسجية الكرم مثلاً تثبت في نفس الكريم ، لكثرة انفعال عقله وإدراكه بصور الغايات الشريفة التي تتبع الكرم ، والفوائد الجليلة التي يكتسبها باذل المال ، أو باذل المهمة في سد حاجات المحتاجين ، فبتكرار هذه الصور والادراكات على العقل ، وصدور الأثر الارادي عنها ، وطول الزمن على ذلك تمكنت في النفس هيئة مخصوصة إدراكية ، وهي اليقين الذي خالط الروح بأن الكرم جميل مفيد ، ويتبعها انطباع النفس بالذهي (كذا) انام لحركة الاعطاء ، وإيصال الخير إلى من يحتاج اليه . فاذا أخطر بيان الكريم وصاحب هذه السجية التي تولدت فيه عن انتقاش نفسه بصورة فائدتها فعل لبخيل مناع للخير ، رأيت عقله يبعد عن إدراك هذا الفعل ويجد من روحه انقباضاً وتعاصياً عن الانفعال به ، بل يجد جوهر عقله يطارد هذا الانفعال الذي تجلبه إحدى المحاسن ، أو يذكر به راوي العمل وحاكيه ، فاذا كلف صاحب هذا الخلق بأن يعمل عمل البخل ، رأى من نفسه بعد الاباية الادراكية والمصادرة العقلية انحطاطاً بدنياً وارتباطاً في الأعضاء حتى كأنه يجد عاقداً يعقد كل طرف بآخر ، ومانعاً يمنع من نفسه عن تحريك عضلاته ، بل يحس من ذاته كان القوة المحركة إلى هذا العمل الخبيث ، فاقدة (كذا) بالسكينة . وهكذا يقال فيمن تعودت نفسه إدراك غوائل الفقر والحاجة ، وتكاثر عاينها الانفعال بصورة العجز والضعف عن الكسب ، وتهياً جوهره الادراكي بصورة الانحذال والانهمزام من صدمات الحوادث ، فهذا الذي أحاط بادراكه جميع المزعجات ، تراه قد رسخ في قوته الروحية أشكال من هذه الانفعالات ، وانطبعت نفسه ، ومبادئ الحركة فيه على الميل إلى ما يلائم إدراكه الثابت ، فهذا الراسخ

هو ملكة العلم بفوائد البخل والامساك عنده ، وهذا المنطبع سجية البخل ،
وعنها تصدر الارادة بالاثاعيل الناقصة التي هي عنوان هذه الملكة وتلك
السجية ، ولئن ذكر لصاحبها طرف من أحاديث البر والاحسان ، وما ينشأ
عنهما من الفوائد لمن تحلى بهما ، رأيت ينفر من ذلك نفور الوحش ، ويطلب سد
أبواب الادراك على نفسه حتى لا يتكدر خاطره ويتألم بهذه الصور الرديئة المستبشرة
من جملة هذه الملكات التي ترتكز في جوهر النفس المدركة ملكات
الصناعة كالكتابة والادارة والرسم والحداثة والتجارة ، وغير ذلك من أنواع
الصنائع التي ترسم في ذهن المدرك صورها الآتية اليه من إحدى الحواس ،
مقتربة بما يلزم تلك الصنائع من الفوائد والثمرات التي يجتنيها العامل فيها ،
وتارة لا تأتي اليه صورة الصناعة من طرق الحاسة ، ولكن يضطره الاحساس
المؤلم العارض له من المؤثرات الجوية الى طلب الخلاص منه ، فيندفع إلى
التأمل في الموجودات المحيطة به لعله يجد منها ملجأ ، فينفل بصور منها على هياكل
مختلفة انفعالا يلائم الانفعال الأصلي ، أعني طلب الخلاص من الألم ، فيتحرك
للعمل فيها على غير انتظام ، ولا حالة تمام وكمال في مبدأ الأمر ، ثم يلجئه
وكرز الفائدة المقتربة بهذه الهيئة ، ولزوم الحاجة لمداومة الأعمال فيها إلى جبر
الأعضاء والآلات البدنية على حركات واهتزازات خاصة ، إن كانت الصناعة
بدنية حتى تلين تلك الأعضاء ، وتكون في غاية المطاوعة لهيئة الروح المدرك ،
أعني أنها تكون في حركاتها مثالا لما ارتسم في الروح من الهيئة التي رآها أو
لمسها مثلاً مع لازمها من الفائدة والغاية الملائمة حيث أثر ارتسامها في الروح
أثراً خاصاً ، وبه سرى في الأعضاء على هيئة وكيفية خاصة ، ويصعب أول الأمر
أن تكون على طبق ما ارتسم من كل وجه ، ولكن باستحكام الأثر ومداومة
العمل تنطبع الهيئة بتمامها في الأعضاء ، كما انطبعت في مركز الادراك ، ومثل
ذلك الهيئة المختصرة التي دعت الضرورة الى ارتسام الذهن بها

فإن كان العمل غير بدني كالادارة والسياسة مثلاً من الأعمال الفكرية التي
لا يراد من العامل فيها سوى تأليف صور فكرية معقولة تنطبق على الواقع ، ويمكن

بالسهولة الاجراء على مثانا وهو مانعبر عنه في اصطلاح الحكومة بالتنفيذ، فملكتمها إنما تثبت في العقل ، وتنطبع في الروح ، حتى تكون كهيئة فطرية له كافي سائر الملكات بتوارد صور كثيرة مختلفة الانواع والأشكال من صور المضار والمنافع والمصالح والمفاسد ، ثم يوجد عنده انفعال وتأثير بفاية وداعية تبعه على المقارنة بين تلك الصور والحركة في تطلب لوازمها الكامنة فيها . فاذا استحسنت هذه الغاية في النفس صيرت الروح كالبحر المائج والأشكال العلمية أمواجه، أو كالضياء لا ينفك عن الحركة يؤلف بين عدد من الصور ، ثم يفرق بينها ، ثم يجمع بين المتفرقات في نقطة ، ولا تسكن له حركة حتى يستقر في ملتقى المنافع ، وهي الصورة المنطبقة على غايته الملائمة له ، أي التي تأثر وانفعل بها فانبعث لطلبها بحكم ذلك الانفعال . وفي مبدأ الأمر لا تأتي هذه الحركات بالمطلوب على وجه السرعة ، لكن متى استحكم في الروح الأثر الباعث على هذا العمل الفكري استمرت الحركة العقلية مرة تلو أخرى الغاية ، وأخرى تنحرف عنها ، فتحفظ للانحراف أثرًا يبعدها عنه مرة أخرى حتى يكون الانجذاب الى وجهة الطلب كقطع جبلي فيها . وهذا إجمال في اقول ربما تأتي على تفاصيله فيما بعد

ومن تأمل حال سير الانسان بل طريق ترقيه وتدينه في أعماله واختلاف عاداته وأخلاقه واعتقاداته وكأنه شؤون ، وأنه قلما يتفق جيلان من الناس بل قبيلتان ، بل فخذان على استحسان شيء أو استقباحه ، بل اذا نظرنا إلى النظر في الجزئيات رأينا هذا الاختلاف بين كل شخص وشخص حتى المولودين في بيت واحد ، هذا يستحسن شيئاً ، وذلك يستقبحه ويستبجنه ، ومن يدقق نظره في ذلك يوافقنا على أن هذه الأحوال الإدراكية التي تتبعها الملكات والأعمال التي نسميها بالعادات . إنما منشؤها الانفعال من المؤثرات الخارجية التي تختلف على الشخص باختلاف موقعه وما يحيط به من مؤثرات الطبيعة ، ومن يكتنفه من أبناء جنسه ، وما ينشأ عليه من نوع المأكل والمشرب ، والملبس والسكن ، وما يطرأ أذنه من الأصوات ساذجة ولفظية مستعملة ومهملة ، وما يراه من الصور والأشكال متعاقبة بعضها أثر بعض ، وما يذهب إليه إدراكه من جميع

ذلك مستقباً ومستتباً لو ازمه . فان جميع ذلك يتشكل به الروح المدرك ويكون هيئة فيه ، وما تكرر منه ثبت شكله فيه ، أي انطبع الروح بطابعه ، أي صار الروح على ذلك الشكل فهو في حركته الطبيعية يكون على ذلك المثال وهو ما نعني من تقرر الملكة وثبوت العادة . وما لم يتكرر يذهب أثره بغلبة بقية الاشكال عليه ويعرف العلماء الملكة بهيئة راسخة في النفس تصدر عنها الافعال بدون فكر ولا روية ، وليس مرادهم من كونها بدون فكر ولا روية أنها غير إرادية بالمرة ، أو أنها رمي بدون رام ، تارة بخطيء ، وتارة يصيب ، ولكن مرادهم أن الروح ينطبع عليها . فالارادة موجهة الى ما يكون على مثالها بدون احتياج الى جولان بين الصور وترجيح بعضها على بعض ، وبعد تمكن الملكة في النفس وانطباع الفكر أو الاعضاء على محاذاتها في الحركة يكون من الصعب بل ربما كان من المتعذر أن يتحول الانسان عنه إلا بقاهر تشتدوطاته على النفس فيوصل اليها من المؤلمات أو يخيل لها من الخوفات ما يؤثر فيها أثراً قوياً يلويها عن الأثر الأول ويقودها الى الأثر الجديد ، ثم يستمر ذلك أزماناً وإن شئت قلت أجيالاً حتى تضمحل الهيئة الأولى ، وتثبت الهيئة الأخرى . ومن ذلك الحديث الشريف « اذا سمعتم أن جبل كذا انتقل من مكانه فصدقوا واذا سمعتم أن فلاناً تحول عن خلقه فلا تصدقوا » (١) يشير بذلك الى صعوبة الانتقال عن الاخلاق والعادات الثابتة من تلقاء النفس بدون أن يضطرها ذلك قاسر أو زاجر ، وهيئات أن ينال المطلوب مع ذلك

ومما يرشد الى أن تكرر الانفعال على النفس يحدث فيها هيئات فكرية وعملية ما حكاه عبد الوهاب (لعله عبد اللطيف) البغدادي من حوادث سنة ٥٩٥ هـ

(١) تتمه « فانه يصير الى ما جيل عليه » وهي نص في مراد الاستاذ رحمه الله تعالى ولعله كان لسيما عند الكتابة او وقف عند المداول على الالسنه . والحديث عزاء السيوطي في جامعه الى احمد عن ابي الذرداء وسكت عليه على ان سنده منقطع فهو من رواية الزهري عنه وهو لم يدركه . واني اراه لا يشبه كلام النبي « ص » وان كان معناه صحيحاً

هجرية في مصر أن شدة القحط وفقد المطعومات في الديار المصرية بذلك الوقت اضطر بعض الناس لأكل بعض آخر لسد الرمق وإلهاء كلب الجوع ، وفشا ذلك فاستبشعته النفوس ونفرت منه حتى إن بعض الناس أزعج لهيئة أكل الانسان فأت من بشاعة المنظر ، ثم لما عم ذلك غالب الافراد زالت البشاعة شيئاً فشيئاً حتى صار من المؤلفات أن يأكل الرجل أحد أقربائه ، والمرأة ابنتها أو أحد أقاربها ، وكانوا يطبخون لحم الآدمي بالتوابل والبهارات كما يطبخون لحم الحيوان . فانظر إلى الانفعال الذي حدث في النفس من غائلة الجوع كيف غلب على الاعتقاد وكان في غاية الاستحكام ، واقلب القبيح حسناً ، إلا أنه بعد زوال العارض عاد الاعتقاد الأول الى مكانه لارتفاع الضرورة لكن لم يعد الى حاله الأولى على وجه السكال إلا بعد أزمان

نظن أنك التفت فيما ألقينا اليك من المقدمات السابقة إلى أن العلم والادراك الذي يستولي على الإرادة إنما هو الانفعال بالصور الواردة إلى الروح الدراك إذا قارنها الانفعال بصور الغايات اللازمة لها ، ملائمة لذي الروح أو منافرة ، ولا يتحرك بها الروح على هيئتها الثابتة فيه منبثاً في الاعضاء أو ما تجافي مركزه الفكري لينفعل بصور مركبة من الانفعالات البسيطة أو المركبة ، إلا إذا لم يعارضها انفعال يلوي الروح إلى ضد الحركة التي تطلبها تلك الانفعالات ، إذ عند المعارضة لا يكون للهيئة الأولى تمام الثبوت والركوز في النفس ، ومتى قوى ارتسام الصورة الادراكية وتغلب على سائر الادراكات الأخرى ، وكان الارتسام بمطلوب أو مهروب منه اندفع الروح إلى الحركة كما مر بك بيانه . وعن ذلك تكون الاعمال التي باستمرارها تثبت الملكات أو العادات

ويوجد علوم يسميها أرباب الاصطلاح علوماً وأرى لهم في التسمية حقاً لأنها نوع من التأثيرات النفسية الادراكية ، وإن كانت لا أثر لها في باب الادراك يصح اعتباره إلا من وجه أنها أشكال مؤلفة من خواطر النفس لا غير ، وهي ما تخيله التعاليم والالفاظ الموضوعه بازاء معان يمثليها المعلوم للذهن بالتمثيل والتشبيه ويقربونها الى الجوهر الدرك بتذكير بعض المؤلفات ، فيحدث منها في

الحيلة أنواع من الاشكال بسائط ومركبات ، أي يتشكل الجوهر الدراك بهيئات تناسب التقريبات التعليمية تحضر عنده بالتذكر وضم بعض المذكورات إلى بعض . وذلك كما يوصف للأعمى هيئة الافلاك والكواكب وحركاتها ، ويمثل له ذلك بكرة الصبيان موضوعة في مستديرات (١) كمحيط الغربال إلا أنها في السعة على نحو كذا وفي التدوير على كيفية كذا الخ الأوصاف

وكما يقرب للبخیل حقيقة الكرم وكيفية بذل الحق لصاحبه ومنحه استحققه ، وصرف ثمرات الكسب فيما يؤثل المجد ، ويعلي شأن الحسب وأشباه ذلك . فانه يتمثل في ذهنه هيئة مركبة من مجموع الأوصاف التي كانت بسائطها ثابتة فيه ، وإنما التعريف أحدث هيئة اجتماعها مسماة باسم واحد هو الكرم مثلا الا أنها لا تتجاوز المركز الادراكي ، فهي ترسم فيه من حيث التمثيل والتعالم . فان تواردت عليها الاشباه والمذكرات من وجه التعليم والتذكر بقيت ثابتة ، ويقال لمن هي عنده أنه عالم بتلك الصفة وقادر على تعليمها كما أخذها على النحو الذي حضرت به عنده . ومن ذلك كل ما يتعلمه الشخص من القواعد العلمية قصد أن يتعلقها أي أن توجد في جوهر روجه صور مؤتلفة على نوع خاص من الائتلاف ، وترجع الى وجهة واحدة في الجنس كعلم النحو ، وعلم العروض مثلا ، أو فن الاخلاق والسياسة وقد يحصل عند الشخص من ذلك شيء يسمى بالملكة ، لكنه ليس من نوع الملكات التي يبنا كيفية حدوثها عند النفس فيما سبق من الكلام ، وإنما هو نوع من رسوخ تلك الصور في المدركة بحيث اذا وجد جزئي من الجزئيات يرد على الذهن من الخارج ، فربما ينتبه المدرك الى كون هذا من نوع بعض الصور ، وليس من نوع البعض الآخر . ويكون لصاحب هذه الملكة أنه يولد في عقله من هذه الانفعالات انفعالات أخرى تحاكيها محاكاة تامة أو غير تامة ، ويطابق بين الأصل وما تولد عنه كل ذلك في عقله لا يراعي فيه الانطباق على الواقع ، أو عدم الانطباق ، فان لاحظ ذلك فهو على شريطة أن لا يباين الأصل الذي تلقاه . فهذا إنما هو نوع من حركة الروح على مركز واحد حركات متشابهة أو

متعاكسة . ومن تأمل في المسائل الاختراعية التي استولدها بعض علماء الفنون العقلية ، وذهبت عقولهم خلفها ، فاستحدثوا لها في أذهانهم لوازم لم يقفوا فيها عند حد تبيين حقيقة ما قلنا ، فمثل هذا النوع من العلوم لا يؤثر في الإرادة شيئاً سوى أنه يحولها الى إجابة الفكر فيه ، فلا يكون له هم الا تأليف الاشكال العقلية وتفريقها ، وهذا نوع من تسلط الإرادة على الادراك بعد تسلطه عليها

مثلا الذي درس علم التهذيب لقصد الوقوف عليه ليس الا بعد أن صار كهلا بين قوم بعيدين عن التهمذ ، وتلقفت احساساته من أحوالهم ما انطبع عليه روحه الدراك وسرى به في الدم والعروق ، وجرت به الاعمال العضوية ، ومرنت عليه حتى صارت في النفس ملكة وللبدن عادة ، وحفظ جميع ما حوته الكتب الشهيرة في هذا الفن . فان قواعد الفن وصور أصوله تكون جامعة في مركز الادراك وأشكالها ثابتة فيه ، لكنها حيث لم تقترن بغاية هذا التحصيل وهو العمل ، وانما كان القصد مجرد العلم حتى يمكنه أن يعلمه ويلقيه كما تلقاه — فان العقل والنفس يقفان به عند هذا الحد فقط . فاذا انضم الى ذلك غايته وهي أن يقدر على تأليف جمل منه وفصول يعبر عنها باللسان أو بالكتابة تحرك الروح في لسانه ، وتضامت الاشكال في مخيلته على الترتيب الذي يريد في عقله فيتمكن من ذلك بالتعود حتى يصير هذا النوع من العمل ملكة له ، وتكون الإرادة تابعة للادراك هذا النوع من التبعية

ومثل هذا من يتعرف أعمال العبادة المسيحية وهو مسلم أو بالعكس لا يقصد العمل ، ولكن يقصد أن يتكلم أو يكتب ما يدل على تلك الاعمال وفروعها ، فالإرادة تابعة للانفعال الادراكي بالداعية والباعث الى الحركة . فان كانت الداعية مجرد التصور وقفت عنده أو انقمام الترتيب والتأليف في الالفاظ والارقام تجاوزت الى هذه الغاية ، وهي الى هذا الحد لا تفيد في حال الشخص وصفاته الحقيقية التي هو بها جزء من هذا الوجود شيئاً يعتد به ، وأرباب هذه الحالة يعرفون في الاصطلاح باللفظيين تشبيهاً لعلومهم بأشكال الهواء والأصوات المقطعة المسماة بالالفاظ لا أثر لها إلا بالعرض

ومن ذلك الذين يتكلمون كثيراً بالحكم العالية والأصول النظامية الجليلة لكنهم في أعمالهم لا يراعون شيئاً مما يقولون ، وما ذلك إلا لكون تصوراتهم إنما هي تأليف أشكال خيلها لهم المثلون والمقربون فوجد لتأثر أذهانهم بها نوع من الارتياح للطف الاشكال المؤلفة منها في حد ذاتها . فانبسط نفوسهم لاستثباتها ، وانضم الى ذلك احساسهم باجلال الناس لمن ينظمها في سلك العبارات أو الأرقام فوجهوا الارادة إلى ذلك فلم ينالوا سواء . وعلى هذا المثل من يعرف قواعد النحو بالتمثيل والتقريب إلا أنه اذا قرأ لا يتذكر شيئاً منها ، واذا كتب جال قلمه خارجاً عن دائرتها ، وأولئك هم المبتدئون الواقفون على عتبة التعليم . ولا يصح أن يقال لهم بالحقيقة عالمون بشيء مما يقولون ولو علم النحو ي مثلاً قواعد النحو حق العلم ، أو عرف السياسي أصول السياسة كمال المعرفة وانطبع بها روحه الإدراك على النحو الذي أسلفنا تتبع ذلك الانفعال غايته . فإن الغاية من الأصل المدرك التي ما وضع الأصل الا لها من لوازمه لانفارقه ، فعدم تمكنها في النفس دليل عدم تمكن الأصل نفسه فيها ، ومتى تمكنت الغاية انطلق الروح في الآلات العلمية لتحصيلها فيعرج في السير ويستقيم حتى ينطبع شكل الأصل وغايته في الروح المنبث في كافة الاعضاء ، فتصدر لذلك الأعمال تابعة للأصل الثابت بدون عسر وهناك تمام العلم وكأله ، أفلا يرى أن مدرس السياسة عند ما يقبض على زمامها لا جراء العمل بما علم يلتبس عليه الحال الواحد لا يدري يطبقه على أي أصل من الاصول الثابتة عنده ، أليس هذا جهلاً بنفس الأصل حيث لم يقف على نوع جزئياته لكنه بعد التطبيق وظهور العاقبة الحميدة يجد من نفسه أنه فتح له باب جديد من العلم ، وكذلك ان حدث منه أثر ردي . فهذا الارتباك الاول والارشاد الثاني شاهدان على نقص الإدراك قبل تمكن الملكة النفسية والاعمال التعويدية وكأله بعد تمكنهما . ومن هذا القبيل أحوال كثير من الناس يزعمون أنهم يعتقدون شيئاً ويعلمونه حق العلم ، بل ويدافعون عنه ، ولكنهم يعملون على خلاف ما يقتضيه مع زعمهم التيقن بأن النجاة في اتباعه ، والهلاك في العدول عنه ، وقد تبين أنهم في الحقيقة لا يعلمون

الادراك الراسخ في النفس الذي يكون هيئة ثابتة لها ، وملكة تصدر عنه الافعال بدنية كانت أو فكرية لها أثر واقعي لا مجرد الأثر التصوري هو المعروف في الاصطلاح بالاعتقاد ، لأنه بانطباعه في جوهر الروح المدرك كأنه عقد في النفس بحيث يعسر انحلاله وزواله ، والنفس بكثرة مزاويله وتكرار انفعالها به قد اعتقدته وارتبطت به ، وما عدا ذلك هو الخيل والموهوم يحوك في النفس وتظهر صورته فيها عند عروض مذكراته ، وموجبات انفعال النفس به ، فاذا هب الروح لحركته الذاتية بورود الموجب رأيت المعتقد قد احتوى على الروح فتحرك به وتوجه إلى وجهته ، وزال ذلك الموهوم كأن لم يكن ، وانما مثل الموهوم في النفس مع المعتقد كمثل جسم غريب حل في شكل الشعلة المحروطي نأثر في انحرافه عن المحروطة فاذا قويت الشعلة حتى أحرقت عادت إلى تمام الشكل ، ولا يحصل انحراف الشكل إلا عند عروض عارض آخر ، فالصور الاعتقادية في الروح تكون كالاشكال الطبيعية ، وما دونها لا يؤثر فيها أثراً حقيقياً ثابتاً ، وفي ذلك يقول نبينا صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن » (١) واست أريد تفصيل ذلك

تأمل إلى من جلس أمام منبر الخطابة يستمع الوعظ بكل انصات ، ويهز رأسه هزة الهائم بجمال ما يسمع ، وتارة يذرف الدمع من عينه لما حاك في نفسه من الانفعالات الروحية التي أحدثتها مذكرات الخطيب ، ويكون ذلك الوعظ في تخفيض شأن الدنيا وتهوين أمر الحياة ، وأن كل طويل فيها قصير ، وكل سرور فيها مشوب بمكدرات وشور ، وأن لا غنيمة فيها سوى ما يقدمه العاقل بين يديه من طيبات الأعمال ليكسب بها نعيماً مؤبداً ، حتى إذا انفض المجلس وانتشر القوم لطلب الرزق ، رأيت ذلك الباكي وهو يقترب إلى موازد الشهوات ، ويدنو من مساقط اللذنيات ، ويستعمل لذلك أنواع الخيل التي طبعها في جوهر إدراكه فواعل الاحتياطات التي ألت به ، أو وردت عليه صورها ملة بغيره

« ١ » هو جزء من حديث رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما رفيه تقييد النبي بقوله « لا يزني الزاني » حين يزني وكذا حين يسرق وحين يشرب أي الخمر

مع العجز عن افتتاح طرق الكسب من وجه يلائم مقال الواعظ ، ويتفق مع إرشاد المرشد ، فيكون عمله على ضد ما يزعم اعتقاده ، حيث إن هذه الطرق لم تألف إحسانه ، ولم تنتقش في مداركه ، على النحو الذي يثبت الروح في الأعضاء ، فيحركها على مشاكلة تلك الرسوم الجميلة .

فقد وضح لنا من هذه الآثار التابعة للادراك أن الصور التعليمية التي تحضر الذاكرة دائماً أو في بعض الأحيان غير مصحوبة بالغاية العملية لا تعد في الحقيقة معتقدات ، وإنما هي مخيلات تظهر في جوهر النفس عند عروض المذكرات فقط . ثم لا يترتب عليها أثر حقيقي في جوهر الروح ثبت فيه ، ولكن ينشأ عنها أعراض وقتية تبين من هذا الذي أوردناه من التقريبات في باب تأثير الادراك في الارادة أنه يعم جميع الادراكات والارادات ، سواء كانت مطابقة للصواب ، جالبة للسعادة الحقيقية ، مانعة من الشقاء ، أو لم تكن كذلك ، وإن ذلك تابع لما يصل إلى المدرك من المؤثرات الخارجية التي تحدث فيها آثاراً تناسب هيئتها التي وصلت بها إليه ، ولم يخرج في ذلك الانفعال الادراكي عن سائر الانفعالات الطبيعية إلا من حيث الكيفية والنوع المخصوص ، فاختلفت العادات والملكات والاخلاق والاعمال في النوع الانساني ، تشهد لنا بناء على تلك المقدمات السابقة أن منشأها هو اختلاف الآثار الواردة على مركز الادراك من الاكوان الطبيعية المكتتفة بالمدرك وعوارضها ، وهذا الاختلاف إما أن يكون لتباين الحوادث ، وتخالف الطبائع الخارجة من حيث الحلقة الأصلية والوضع الالهي . وإما أن يكون لاختلاف حالة المدركين أنفسهم في قبول التأثيرات من جهة الاستعداد المجبول عليه جوهر الادراك

أما الوجه الثاني أعني اختلاف الآثار لاختلاف الاستعداد الممنوح بأصل الحلقة لجوهر الادراك ، فهو يأتي من حيث التركيب الجسماني ، والعناصر الداخلة فيه ، والوضع الذي أبدعته يد القدرة الالهية عليه . فعناصر التركيب البدني وجودتها ورداءتها ووضعها فيه ، وكيفية تأليف الأعضاء ، ونسب الأجزاء بعضها لبعض — مما له دخل في ظهور الجوهر الادراكي بآثاره ، وبعبارة أخرى

في شدة انفعاله بالمؤثرات الواردة عليه وضعفه ، وفي قوة استثبات الصور المنفعل بها ، وضعف تلك القوة ، وغير ذلك من صفات الادراك التي لا تخفى على مدرك . وهذا الدخل مما لا يشك فيه .

وأما الوجه الأول أعني اختلاف الآثار بواسطة تباين الحوادث ، ونخاف الطبائع الخارجة عن ذات المدرك ، فهو يظهر من اختلاف العادات والأخلاق والادراكات باختلاف الأقطار والبقاع ، وتنوعها بتنوع أحوال التربة والجو الذي تنشأ وتنمو فيه ، ويمتاز بعضها عن بعض بتميز حالة العيش ، وطرق اكتساب الرزق ، ووقاية الوجود من الخطر والاحساس من الألم التي تستدعيها طبيعة الأراضي . فالذي يقتضيه كسب الرزق الضروري لحفظ الحياة من طريق الصيد البري ، وتدعو اليه المحاماة عن النفس بمدافعة الوحوش السكسرة والسباع الضارية ، أو يبعث اليه التأثير من شدة البرد ، ويؤسسة المنشأ ، وجذب المكان ، كل ذلك غير ذلك الذي يقتضيه كسب الرزق من طريق الزراعة ، والفرار من المهلكات بالاستكتمان في بعض الأكوخ لسهولة الأرض وخلوها من المقترسات ، وبعدها عن المؤثرات الجوية الشديدة ، وتوسطها في البر والبرد ، وما يلائم ذلك من موجبات السهولة في تطالب الارزاق ، فان تأثر الجوهر الدراك بالأخطار الأولى يبلغ من الشدة مبلغاً يحدث فيه سرعة الحركة الروحية التي تتبعها الحركة البدنية على أنحاء توصل إلى المطلوب أعني التخلص من تلك الأخطار ، وبكرارها وكثرة تواردها على النفس تودع فيها ملكة عملية تصدر عنها الأعمال على ذلك النحو المتقدم . مثلاً إذا نشأ الانسان في أرض جبلية كثيرة الغور والنجد ، غزيرة الغابات ، وعرة المسالك ، قليلة الخصب ، تسكنها أنواع الحيوانات المقترسة ، ومع ذلك تكون في جو شديد البرد كثير الصواعق سريع الثقلب . فلا ريب أن الانفعالات التي تعرض على إحساساته من هذه الأشياء المكتشفة به ، وكثرة ما تدعوه إلى المقاومة والمصادمة ، واحتمال المصاعب في دفع المصائب ، وتجشم المشاق ليتخلص بها من المهلكات ونحو ذلك — تجعل في الأعضاء قوة على العمل ، ثم ترسخ منها في النفس ملكة الشجاعة والاقدام ،

وتتجه بذلك قوة الادراك إلى البراعة في الكر والفر ، وفنون الدفاع والهجوم ، وثبتت فيها ملكة الحذر واليقظ ، وملكة النشاط في السعي لطلب المعيشة ، وملكة الثبات في العزائم ، وملكة حب التألف والاجتماع للتعاون على دفع المضار وجلب المنافع المشتركة . وملكة القسوة والتهاون بالدماء ، وعدم الاكتراث باتلاف النفوس وإزهاق الأرواح . وملكة الغضب الشديد الذي يحمل صاحبه على شدة الانتقام . وملكة الغدر التي تتولد دائماً من الاضطراب وعدم الاطمئنان للحوادث . ويتبع هذه الملكات ملكات أخرى . ويتبع الجميع عادات وأفعال تناسبها

وهذا بخلاف ما إذا نشأ في سهولة العيش ، وخصب الأرض ، وهشاشة التربة ، وخلوها من الغابات ، واستواء سطوحها . واعتدال هوائها . وصفاء جوها . وخلوها من الحوادث المحيفة . فان ذلك لا يحدث في النفس إلا صوراً لطيفة تتبعها ملكة اللين والمساهلة والكرم وحسن الطاعة وسلامة النية والزهادة عن الضغائن . والبعد عن الطمع . والرضا بالقليل . وما يتبع ذلك من الصفات التي لا تتخلف عن منشئها الواقعية إلا بالطوارئ العرضية التي تذكرها فيما بعد فانتظرها ﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ : إن الاستاذ وعدنا بأتمام هذه المقالات الفلسفية التي نشرت في خمسة أعداد . وقد تصفحنا سائر أعداد الوقائع المصرية التي صدرت بتوقيعه فلم نجد فيها هذه السمة . ولعله شغل عن أمثال هذه المباحث الدقيقة في الفلسفة بحوادث الثورة العرابية التي نجمت في تلك الأيام ، واضطر لمقاومتها كما علم من بعض ماسبق ، ويعلم من المقالات الآتية في الشورى وغيرها

المقالة الثانية والثلاثون

الحياة السياسية

تقرر فيما سلف أن لابد لذوي الحياة السياسية من وحدة يرجعون إليها ،
ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلباً ، وأن خير أوجه الوحدة الوطن
لامتناع الخلاف والتزاع فيه ، ونحن الآن مبينون بعون الله ماهية هذا الوطن
وبعض ما يجب على ذويه

الوطن في اللغة محل الانسان مطلقاً ، فهو والسكن بمعنى : استوطن القوم هذه
الأرض وتوطنوها أي اتخذوها سكناً ، وهو عند أهل السياسة مكانك الذي
تنسب إليه ، ويحفظ حقك فيه ، ويعلم حقه عليك ، وتأمين فيه على نفسك وآلك
ومالك . ومن أقوالهم فيه : لا وطن إلا مع الحرية . وقال لا بروير الحكيم
الفرنساوي : لا وطن في حالة الاستبداد ، ولكن هناك مصالح خصوصية ومفاخر
ذاتية ، ومناصب سمية . وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين : المكان الذي
فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية

وهذا الحد الروماني الأخير لا ينقض قولهم : لا وطن إلا مع الحرية ، بل
هما سيان . فان الحرية إنما هي حق القيام بالواجب المعلوم ، فان لم توجد فلا
وطن لعدم الحقوق . والواجبات السياسية وإن وجدت فلا بد معها من الواجب
والحق ، وهما شعار الأوطان ، التي تفتدى بالأموال والأبدان ، وتقدم على
الأهل والحلان ، ويبلغ حبها في النفوس الزكية مقام الوجد والهيان

أما السكن الذي لا حق فيه للساكن ، ولا هو آمن (فيه) على المال والروح ، فغاية
القول في تعريفه انه مأوى العاجز ، ومستقر من لا يجد إلى غيره سبيلاً ، فان
عظم فلا يسر ، وإن صغر فلا يسوء . قال لا بروير السابق الذكر : ما الفائدة

من أن يكون وطني عظيماً كبيراً ، إن كنت فيه حزيناً حقيراً ، أعيش في الذل والشقاء خائفاً أسيراً

على أن النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداب الشرف الذاتي ، فهو يغار عليه ويزود عنه كما يزود عن والده الذي ينتمي اليه ، وإن كان سيئ الخلق شديداً عليه . ولذلك قيل في مثل هذا المقام : إن ياء النسبة في قولنا مصري وإنكليزي وفرنسوي ، هي من موجبات غيرة المصري على مصر ، والفرنساوي على فرنسا ، والإنكليزي على إنكلترا ، فأنكر ذلك بعض الناس ، وكان في الأمر لاشك سوء فهم أو سوء افهام

وجملة القول ان في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه أن تكون حدوداً (الأول) أنه السكن الذي فيه الغذاء والوقاء والأهل والولد (والثاني) أنه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية ، وهما حسيان ظاهران (والثالث) أنه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان ويعز ، أو يسفل وبذل ، وهو معنوي محضاً

فاذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه ، فهو سكنه الذي يأكل فيه هنيئاً ، ويشرب مريئاً ، ويبيت في الأهل أمنيئاً ، وهو مقامه الذي ينسب اليه ، ولا يجد في النسبة عاراً ولا يخاف تعبيراً ، وهو الآن موضع حقوقه وواجباته التي حصلت له بما أوضاعه من دخوله في دور الحياة السياسية

والحب على أهله شروط محفوظة عند الأذكياء ، مجبولة عند المدعين الأغبياء ، فما تنفع فيه الشكوى ، ولا تقدم لصاحبه دعوى ، إلا ببيان من الواقع وشاهد من الفعل ، وما أحسن ما قيل :

دلائل الحب لا تخفى على أحد كحامل المسك لا يخلو من العبق وله مراتب مناسبة لموضوعه ، موافقة لمنشأه ، فهو في الكرامة كريم ، وفي النبالة شريف ، وفي المآثر حميد ، وفي العز والمجد رفيع ، وفي الوطن جامع لكل هذه الصفات ، فان قيل في حب الحسان

أحبك حباً لو تحمين مثله أصابك من وجد علي جنون
لطيفاً مع الأحشاء أما نهاره فدمع وأما ليله فأنين
فقل في حب الأوطان :

أحبك حباً لو تحمين مثله أصابك منه ياديار تغير
شديداً مع الاشواق أما نهاره فسمي وأما ليله فتفكر

ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطني عن ذوي الحقوق والواجبات في مصر وإلباسهم جميعاً لباس الجهالة والذل، ولكن أبت الحوادث إلا أن تثبت لنا وجوداً وطنياً ورأياً عمومياً ولو كره المبطلون . على أن منهم فئة لا يزالون يؤمنون أسما عنا بما يكررون من سفاسف القول، من مثل اننا تعودنا احتمال الظلم والحيث ، وألفنا الخدمة والرق ، فلن يستقل لنا رأي ، ولن نهتدي سبيل الحرية، كأننا هم لا يعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيث أعصاراً وكانوا في قديم الأيام على ضروب من الرق ، وانخفاض الجناح ، وأن العالم بأسره كان فريقين أحراراً يظلمون، وعبيداً يطعمون . أولم يكن في بلاد الفرنسيين من قبل هذا العهد صنوف من الرقيق يشتغلون في الأرض لغيرهم ، ويباعون كما تباع العجاوات . أولم يقل كاتبهم فولتير في وسط المائة السابقة : لا يزال في بلادنا ستون ألفاً أو سبعون ألفاً عبيداً للرهبان

فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيين من الوصول إلى ما أدركوه من رفعة المقام، وإن يروا أمثال تيارس وجريفي وغامبتا في أبناء الذين كانوا من قبل عبيداً أرقاء، وابن كان من فضل هذه المائة أن يكتب في صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف . فلقد رجونا وحقق الله هذا الرجاء أن يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء في هذا العصر ، وحسن ذلك ابتداء ، وحسن ذلك ختاماً

المقالة الثالثة والثلاثون

الشورى (٥)

نسكلم عليها من جهة وجوبها عقلا على الحاكم والمحكوم معا فنقول : خلق الانسان محاطا بالشهوات ، مكتنفا بالاميال ، مقيدا بالأغراض ، فهو أسيرها تدفعه إلى مقتضياتها ، وتجذبه إلى لوازمها ، بحيث تكون جميع قواء آلات لما تحركا بما يناسبها ، وتستعملها فيما يلائمها ، فلا يتصور حسنا إلا ما تستحسن ، ولا يتخيل جيلا إلا ما تستجمل . وهذا أمر يكاد أن يكون طبيعيا فطريا ، لا يمكن الانسان أن يغالبه ، ولا أن يتخلص منه . وإن أمكن في بعض الأحيان تقليل سطوته وتحديد سلطته . على أن هذا أيضا ليس في وسع كل أحد ، ولا في طاقة كل شخص فلا يستطيعه إلا من كبرت همته ، ولا يقدر عليه إلا من ذكت فطنته حتى يتمكن من ردع تلك الدوافع وكبح تلك الجواذب بما يتخذ من الوسائل المختلفة حسب اختلاف المقاصد والذرائع المتنوعة حسب تنوع الغايات وحيث كانت هذه الدوافع والجواذب قوية لدى أولي الأمر لاقتدارهم على مقتضياتها ، وتمكنهم من لوازمها ، كانوا مضطرين إلى مغالبتها ومقاومتها بما يتيسر من الوسائل المؤدية الى ذلك ، حتى يتمكنوا من النهوض بما وسد اليهم من رعاية مصالح العباد . وليس من وسيلة إلى ذلك الا مشاورة العارفين العالمين بطرقها ، فإن للرأي العام في مغالبة الأهواء مالا يخفى من القوة . ولذلك ترى أن الانسان ربما مال الى شيء ولكن يمنعه من معاطاته علمه بأن الرأي العام

• نشرت في العدد ١٢٨٩ الصادر في ٥ صفر سنة ١٢٩٩ - ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨١

ونشرنا في الطبعة الاولى مقالة قبل هذه عنوانها « الشورى والاستبداد » ثم أخبرنا صاحب الدولة سعد باشا زغلول الذي كان من محرري جريدة الوقائع انهاله وانه لم يضع اسمه في آخرها لأن الاستاذ كان أمر جميع المحررين بترك وضع امضائهم في ذيول مقالاتهم

لا يستحسنه . وأيضاً فالإنسان الواحد قاصر وإن بلغ ما بلغ من اتساع نطاق الفكر عن أن يحيط علماً بمصالح عامة ، خصوصاً إذا كانت مصالح أمة كبيرة ، فإنها حينئذ تكون بمنزلة الفنون المتنوعة المختلفة التي يعجز الإنسان الواحد أن يستوعبها ويستوفىها اطلاعا

وقد يتنبه بعض الناس من أنفسهم لهذا الأمر ، ويعلمون أنهم لو تركوا أنفسهم وشأنها فربما استرسلت مع شهواتها ، ومالت مع أغراضها ، ووقفت دون الصواب حجاباً ، فيجتهدون في منع ذلك بأن يستنصحوها الناس ويسترشدوهم ويستهدوهم ، استعانة منهم بأرائهم على كشف الحجاب ، ورفع النقاب عن وجه الصواب . وهؤلاء هم القوم الذين صفت سرائرهم وطابت نفوسهم ، فلا يرون حسناً إلا ما وافق الصواب ، ولا جميلاً إلا ما طابق الحق . ومن هذا يتبين وجوب الشورى على الحاكم

وأما وجوبها على المحكوم فيتبين مما أقول: قد علمت أن الواحد وإن بلغ من علو الفكر ورفعة الذكاء مكاناً عالياً ، قاصر عن الإحاطة بمصالح الأمة . وحينئذ يلزمها إذا ألفت إليه مقاليد مصالحها أن تمدد من آرائها بما يقتدر به على التهوض بواجباتها والقيام بحقوقها ، فليس من الانصاف أن تلتقي على كاهله أعباء هذه المصالح الجسيمة وتتخلى عنه . ثم إذا رأت ما لا بد منه من التصيير وجهت إليه سهام اللوم ، بل يجب عليها مساعدته بما تراه موافقاً لوجه الصواب . ثم إذا وجدت منه تقصيراً فيما اختص به كان لها حينئذ أن تلوم ، وكما لا يصح أن تتخلى عنه في الأعمال البدنية العمومية مثل حى البلاد ممن يريد لها بسوء ، بل لابد من مساعدته فيها ، وإن لم تفعل فقد قصرت فيما وجب عليها ، كذلك لا يصح التخلى عنه في الأعمال الفكرية العمومية ، فإن كونها فكرية لا يسلب عنها الجسامة المقتضية للمشاركة فيها . وهل من العدل أن تترك الأمة حاكماً بين أعمال مهمة مختلفة الأنواع ، متشابهة الألوان ، يصعب على أي مخلوق كان وحده أن يقوم بأعبائها ثم إذا رأت منه تقصيراً بحسب ما يبدو لأول النظر بادرت إلى تعنيفه ؟ لعمري لو فعلت ذلك أنها إذا لمن الظالمين

وأن لنا على صحة ما قدمنا من الأدلة لدليلا فيما فعل سيدنا عمر وقومه رضي الله تعالى عنهم ، حيث قام بينهم خطيباً فقال : أيها الناس من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه الخ (١) إذ ليس معنى تقوم الاعوجاج في هذا إلا التنبه على الحق ، والارشاد إلى الطريق المستقيم ، فما يدل على وجوب التشاور على الحاكم هو طلب عمر رضي الله عنه تقوم اعوجاجه ، وما يدل على وجوبه على المحكوم هو إجابة الصحابي بقوله : والله الخ . فانه لا يجوز استعمال القوة الا بعد الاعتذار بالارشاد والهدى

ولقد رأى خديونا الأتخم حفظه الله مثل مارأى سيدنا عمر مما قضى بالتشاور ، وأن بلاده قد كثرت بها خصوصاً في هذه الأيام مواد الاعمال ، واختلفت مواضع المصالح ، وتنوعت أسباب المنافع . إذ لا يخفى أن هذه البلاد قد امتازت عما سواها بكثرة الأعمال الداخلية المختلفة اختلافاً كلياً بحيث يناسب بعض البلاد منها ما لا يناسب البعض الآخر ، فندب رعاياه الى التشاور حرصاً منه على الاقتداء بالسلف الصالح ، كما هو شأنه حتى في الأمور الجزئية الخاصة ، فضلاً عن الأمور الكلية العامة ، وعلماً منه بما وراء التشاور من الفوائد الجليلة ، والمنافع الجزيلة

وكأنني بمن يقول : ان لنا فيما كان عليه السلف من طريقة التشاور لغنى عن سلوك هذه الطريقة الحالية . فأقول في جوابه : ان هذه الطريقة الحالية قد صارت دون سواها ذات الوقع العظيم والتأثير القوي في النفوس بما اتصفت به من كونها مناطاً للعدل ، ومظهرأ للاستقامة في سائر الممالك . وحينئذ فالغاية المقصودة من التشاور لا تترتب الاعليها . وأما طريقة السلف فقد كانت كافية في الغرض

« ١ » تنمة الاثر : فقام رجل او اعرابي فقال : والله لو وجدنا فيك عوجاً لقومناه بسيوفنا . فقال عمر : الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه ولم يكن عمر « رض » هو السابق إلى مطالبة الامة بحقها في السيطرة على الخلفاء والامراء بل كان السابق الى ذلك ابو بكر « رض » في خطبته الاولى بعد المباينة بالخلافة اذ قال فيها : أما بعد فقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فاذا استقمتم فأعينوني ، واذا زغت قوموني - وكتبه محمد رشيد رضا

لما أنها هي المستعملة في زعمهم . على أن هذه الهيئات ليست الا وسائل غير مصقودة لذاتها . فاذا انقطعت الرابطة بينها وبين الغايات كانت مهمة غير مقصودة ، ونحوال القصد الى ما صار بينه وبين الغاية ارتباط ووافق

المقالة الرابعة والثلاثون

الشورى والقانون (٥)

قد أسلفنا فيما سبق من أعداد الجريدة أن القوانين تختلف باختلاف أحوال الأمم ، وبيننا الأسباب الموجبة للاختلاف ، وضررنا لذلك أمثالا لتقريب المطالب من الأذهان ، وأن ذلك صريح في أن القوانين متعددة وأصنافها متنوعة لتفاوتها بحسب الغرض المقصود منها ، أعني ضبط المصالح ، وفتح سبل المنافع ، وسد طرق المفاسد . والآآن نريد أن نبين أقربها للغرض ، وأبعدها عن مساقط الاهمال ، وأمنعها عن عبث الجهل والأغراض ، فنقول :

ان القانون الصادر عن الرأي العام هو الحقيق باسم القانون المقصود بالبيان ليس الا . وبيانه : أن الاجتماع بين أمة من الناس في مبدأ أمره لا يكون له داعية سوى الصدفة ، أو أسباب أخرى قهرية لا تخرج عن الطوارق التي تلم بالانسان فتلجئه الى ملجأ من نوعه يستعين به على دفعها ، فاذا استتب الاجتماع وسكن الأمن في قلوب المجتمعين ، وانقطع كل منهم في الأسباب التي توصله الى لوازم المعيشة ، نزع فيهم حب المسابقة في كل ما يتنافس فيه كل حي ، وتولد من ذلك شدة الطمع والشره ، وجرا الأمر الى الحسد والبغض والبطر ، فأصبحوا وهم في مكان واحد ، متباعدي المقاصد ، أشتات القلوب ، لا يبالي أحدهم باقتداء مصلحته بمصلحة الآخر بأي طريق سلك ، ونسي رابطة الاجتماع وواجب

الاشترك في الوطن ، وتناول أشد مضاداً مقاليد الحكم عليهم ، وبث فيهم أعوانه وأنصاره بدون قاعدة تربط الأعمال وتبين الحدود . حينئذ لا ترى لاثنيين منهم رأيين متوافقين ، ولا قصدين متطابقين ، بل لا ترى الا نفوساً شاردة ، وأغراضاً متباينة ، تسوقهم عصا الظلم ، وتجمعهم دائرة الغرم ، فهم في هذه الحالة ليس لهم وجهة تربط أعمالهم وتوحد مقاصدهم ، بحيث تكون محوراً لدائرة أفكارهم ، وغاية تنتهي اليها حركاتهم في كافة أمورهم اذا ما نزل بهم من دواعي الاضطراب ، وأسباب تبليل الألباب ، جعل لكل منهم شأنًا خاصاً به فلا يفكر يوماً ما في حقوق الاجتماع ونسب الارتباط ، فكأنه أمة وحده ، مقطوع العلائق بغيره ، فلا يتصور أن يكون لهم حينئذ رأي عام يجمعهم

واذا استمرت بهم هذه الحال زمناً طويلاً فسدت طباعهم ، وتبدلت أخلاقهم الى ملكات رديئة تحملهم على البطالة والكسل ، وتكلمهم الى الآمال العاطلة ، والأمانى الكاذبة ، وتورثهم الخول والذل والفتور ، فاذا توالت عليهم الحوادث وعلمتهم أسفار الأخبار طرفاً من سير الأثم . تذكروا أنه قد كان لهم من حقوق الاجتماع ما يسوقهم الى العيش الرغد ، ويعصون عناصرهم الشريفة من لوث الحسة ودناسة الاتضاع ، فتحتم نفوسهم بتقويم دعائم الاجتماع على أصولها اني تطالبهم بها طبيعته ، فحانهم تلك الأخلاق التي نشأوا بها ممانعة تضعف منهم قوة العمل ، فكما قويت فيهم دواعي الاجتماع اشتدت كراهتهم للتعاقد عن الأخذ بالوسائل ، وبلغت نفوسهم تنفض عنها درن (١) الملكات الفاسدة ، وتوفرت فيهم بواعث الأعمال المختلفة ، وأصبحت المقاصد متجهة الى غاية واحدة ، وهي المعاوضة على حفظ الهيئة الاجتماعية ، فعند ذلك ترى من لم تهزه الشفقة منهم على المنافع العامة ولم يفقه حقيقة يوما يفضلها على غايته الخاصة ، ويعلمها حق العلم بدون أن يتلقى درسها من معلم ، فان الحاجة هي الاستاذ الذي لا يضيع تعليمه ، ولا يخيب إرشاده

(١) انما تنفض الغبار وأما الدرن وهو الوسخ فيفسل غسلاً فالظاهر انه سقط من الكلام شبه الغبار كالكسلى لسرته زواله فاعمل اصله : تنفض عنها غبار الكسل وتفصل درن الملكات الخ

ومن هنا يذشأ بين الناس ما يعبر عنه بالرأى العام ، وهو الأساس الذي بدونه لا يمكن أن تتوجه الكلمة في أمر ما يراد التداول فيه ، ونقطة التلاقي التي تجتمع بها أطراف الأفكار المتشعبة ، وتنمحي فيها الأغراض المتعددة ، إذ ليست في الحقيقة أغراضاً ذاتية وإن تلبست بصورها ، وإنما هي طرق متخالفة تؤدي الى مقصد لا يخرج عن الرأى العام ، وسالكوها بلغوا درجة الاجتهاد ، وكل عامل للامة مسخر لا تنقأ ، أقرب الطرق الخالية عن أعباء الكلفة كما يشهده من وقف على مشارب القدماء والمتأخرين من السياسيين ، حيث يتفرقون أحزاباً ، وينصبون حلبة الجدل في البحث عن الصالح العام

فاذا بلغت أمة من الناس هذه الدرجة من النور ، وأصبحوا جميعاً على رأى واحد في وجوب ضبط المصالح ، وتقييد الأعمال بحدود مقدسة ، تصان ولا تهان ، اندفعوا جميعاً الى طلب هذه الحقوق الشريفة ، بدون أن يخشوا لومة لائم ، ولا يكتفون دون أن يروا بين أيديهم قانوناً عادلاً لا نقاً بحالهم ، منطبقاً على أخلاقهم وعواندهم كفلاً بمصالحهم ، يرجعون اليه في أمر المساواة والأمن على العباد والبلاد ، ولا يعجبهم أن يكأوا وضعه لواحد منهم يتولاه بنفسه ، إذ الواحد لا يتأتى له أن يشخص مصالح الجميع مع تباينها . وهذا أمر ينبني عليه صحة القوانين وما يترتب عليها من الفوائد ، ولا يمكنهم أن يباشروا وضعه جميعاً إذ فيهم من تمنعه موانع قوية عن ذلك ، فلم يبق إلا أن ينتخبوا منهم نواباً بقدر الحاجة للقيام بهذا الواجب من كل جهة ، ومن كل ذوي حرقة ، ليكونوا جميعاً على علم بأحوال موكلهم عموماً وطبائع أمكتهم .

فاذا آتموا هذا القانون على وجه كامل شامل بعد البحث الدقيق — وإن استغرق عملهم أمداً — كان هو القانون المعول عليه علماً وعملاً . أما علماً فلأن أحكامه كلها صارت معلومة لدى أفراد الناس جميعاً لأن من وضعها هم نوابهم . ولا يخفى أن نفس المنوب عنهم لا يغفلون طرفة عين عن كل أمر من أموره ، يشرع الزواب في المداولة فيه ليقفوا على طريق الجدل في كل مبحث ، ويعلموا ما تم عليه الرأى فيه على أن صحف الأخبار ، التي لا يخلو منها قطر من الأقطار ، تسكفل بنشر

المفاوضات والاحكام في كل مسألة ، فتكون هي السفراء بين مجلس النواب وبين
الرايا على اختلافهم ولا يضر عدم العلم لأفراد منها كالسوقة والرعاع والعملة
وإن كثروا ، فانهم كالألات الصماء ، الموقوفة على الأعمال البدنية ليس إلا ،
فتبين من ذلك أن العلم بأحكام القانون الذي يضعه جملة النواب لا بد أن يتحقق
بين الأفراد ، فبعد إتمامه لا يحتاج الأمر إلى المدارس فيه إلا لمن هو حديث
عهد به . وأما عملاً فلأن القانون عادل منطبق على المصالح ، ومثله حقيق بأن يرسم
في صفحات القلوب ، خصوصاً وأن واضعيه هم النواب ، والنائب لسان المذوب عنه ،
فكان من وضع الأمة بنامها ، وتلك حجة عليهم بأنهم جميعاً متعاهدون عليه ، سيما
وأنتهم هم الذين تقاسموا باليمين على الأخذ بالأحسن من كل شيء نافع ، وأن
قلوبهم طويت على المحافظة على الرأي العام ، وأنهم جميعاً سائرون إلى غاية
واحدة ، فكيف بعد هذا كله يتركون القانون حبراً على ورق بدون علم ولا عمل ؟
فقد وضح مما ذكرناه أن أفضل القوانين وأعظمها فائدة هو القانون الصادر
عن رأي الأمة العام أعني المؤسس على مبادئ الشورى ، وأن الشورى لا تنجح
إلا بين من كان لهم رأي عام يجمعهم في دائرة واحدة ، كأن يكونوا جميعاً طلابين
تعزيز شأن مصالح بلادهم ، فيطلبونها من وجوهها وأبوابها . فما داموا طلابين
هذه الوجوه فهم طلاب الحق ونصراؤه ، فلا يلتبس عليهم بالباطل ، ولا لوم
عليهم إذا لم يأت مطلوبهم على غاية ما يمكن من الكمال . فإن الحصول على أقصى
المراد يستحيل أن يكون دفعة واحدة ، كما قضت حكمة الله تعالى في خلقه أن الشيء
لا يبلغ حده في الكمال إلا بالتدريج ، بل اللوم كل اللوم أن يضرب الطالب
صفحة عن مطلبه ويقصر في السعي ويرضى بمآله فيقف عندها وقد هيا الله له
الاسباب ومهد له الوسائل ، إذ ذلك ضرب من الجهل المركب القبح الذي يجعل
صاحبه أدنى درجة من الحيوانات العجم

وأن استعداد الناس لأن يتهجوا المنهج الشوري غير متوقف على أن يكونوا
متدربين في البحث والنظر على أصول الجدل المقررة لدى أهله ، بل يكفي كونهم
صبوا أنفسهم وطمحت أبصارهم للحق وضبط المصالح على نظام موافق

لمصالح البلاد وأحوال العباد ، ولا يتوهم أن اتقانون العادل المؤسس على الحرية هو الذي يكون منطبقاً على الأصول المدنية ، واتقواعد السياسية في البلاد الأخرى انطباقاً تاماً ، فإن البلاد تختلف باختلاف المواقع وتباين أحوال التجارة والزراعة وكذلك سكانها يختلفون في العوائد والأخلاق والمعتقدات الى غير ذلك ، فرب قانون يلائم مصالح قوم ولا يلائم مصالح آخرين فينفع أولئك ويضر هؤلاء ، إذ على مؤسس القوانين أن يراعي أخلاق الناس على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم وطبيعتهم أراضيهم ومعتقداتهم وكافة عوائدهم ليتسنى له أن يحدد مصالحهم ، ويربط أعمالهم بحدود تجر عليهم جلائل الفوائد ، وتسد عليهم أبواب المفساد ، وحينئذ لا يدعون لأرباب الشورى أن يجاروا غير بلادهم في سن القوانين ، بل عليهم أن يجعلوا أوضاع بلادهم وأحوال الأهالي الحاضرة نصب أعينهم حتى يتبين لهم حينئذ أن يرسموا مالا بد منه من الأحكام الملائمة . فإذا أمعنوا النظر ودققوا في البحث وطلبوا الحق حيث كان وإن من صغير ، وكان هذا المقصد السائق للجميع على البحث والتنقيب ، انفتحت لهم عيون المسائل ، وسهلت عليهم صعاب المطالب ، وحوست أفكارهم على ما كان يحسب أبعد خطوراً بالبال ، فتغافل أفكارهم في ما وراء ذلك من الأمور التي لا يكاد يكشف الحجاب عنها في مبدأ الأمر حتى يصلوا على مبادئ أولية يتخذونها قواعد كلية لما يرد عليهم من الابهات ، كأن يستعملوا قاعدة القياس والحكم على النظائر والاستدلال بالأصل والعادة والعرف وأمثال ذلك في محاورتهم بعد أن صارت لديهم من المسلمات الأولية ، وقد كانت في بداية الأمر من الغوامض التي يحتاجون في حلها الى تفكير وبحث ، وهكذا يتدرجون من الوسائل الى المقاصد ، ثم ينساقون من المقاصد التي لديهم بديهية المبادي الى مقاصد أعلا وأسمى حتى يثبت تدميمهم في الشورى كل الثبات ومما تقدم سرده تعلم أن أهالي بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد ، وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأي العام ، وأخذوا يتصلون من جرم الإهمال ، ويستيقظون من نومة الإغفال ، وقد مرت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم ، ثم تشعت عنهم فطاعوا من سماء الحق ما كحل عيونهم بنور الاستبصار ،

حتى اشرايت مطامعهم إلى بث أفكارهم في ما يصلح الشأن ، ويلم الشعب ،
ويجمع المتفرق من الامور ، ليكونوا أمة متمتعة بجزاياها الحقيقية ، فهم بهذا الاستعداد
العظيم أهل لأن يسلكوا الطريق الاقوم طريق الشورى والتعاقد في الرأي .
فقد أزف الوقت ولم تسمح لهم ظروف الاحوال بأن يتأخروا عن سن قانون
يراعى فيه ضبط المصالح على وجه ملائم يتبادلون فيه الافكار الحرة ، والآراء
الصائبة ، فلذا أجمعوا رأيهم على تأليف مجلس الشورى ممن لهم دربة ودراية تامة
بشؤون البلاد ، وصدرت الاوامر السامية بانتخابهم نوابا حسب ما قضت به
نواميس الحرية ، وانشرت صدور الناس عامة بهذا ، واستبشروا بما يكون من
عافية هذا المسعى الجليل سيما وقد عهدوا من الحضرة الخديوية ارتياحاتا مألما يؤيد
شأن البلاد ويعلي كلمة الوطن . ولنا أمل لا يخيب في أهل البلاد وحضرات
النواب فهم أجل من أن يعدلوا عن طريق النجاح ، أو يكون سعيهم إلا في حب
الاصلاح ، وهذه هي خطوة نعدّها إن شاء الله في سبيل تقدمنا فاتحة الاطراف

المقالة الخامسة والثلاثون

النفس والاعتبار

حصول صورة الشيء في النفس علم ، وميلها الى طلبه أو تركه إرادة ، والتصميم
على أحد الأمرين عزم ، وليس بعده الا الطلب بالفعل أو الترك ، والترك لا يحمل
النفس كبير مشقة سوى الوقوف على كون المتروك من الامور التي تكلف بها
النفس تكليفاً ضرورياً أو كمالياً كان من الامور المباحة أو المحظورة . فاذا وقفت
على حقيقته انصرفت عنه انصرافاً

وأما الطلب فهو أحد الأمرين الذي يحمل النفس عن اثنين أحدهما يتعلق بها

من جهة قوتها الفكرية ، والثاني من جهة القوة العملية المودعة في أعضاء البدن ، والاول مقدمة الثاني وسابق عليه ونسبته اليه لدى أرباب الحل والعقد ورجال النقد نسبة الأمرين المتضايين لا يوجد أحدهما بدون الآخر

أما الاول فهو البحث في أصل الطلب واستقصاء ما يعود منه على الطالب أو غيره من المنافع والتنقيب عن الوسائل التي توصل الى الغاية بلا مشقة ولا فوات منفعة ، وتقدير الاعمال إزاء الفائدة لتكون المنفعة مساوية على حكم التبادل في الاعمال البشرية ، أو زائدة عنها على أصل التفاضل وذلك كله إنما يكون بعد أن تعرف نسبة الطلب الى غيره من المطالب ليرجح عما سواه بخاصية من الخواص حتى لا يلزم على الشروع فيه الترجيح بلامرجح . هذا شرح حال العناء الاول . . . ليس بعده الا الشروع في العناء الثاني عناء الاعمال البدنية

أما فوائد الاعمال فهي وان كانت جزئياتها غير قابلة للدوام والاستمرار اذ هي نتيجة أعمال متجددة وكل متجدد فتتأخر كذا ، ولكنها تقبل الدوام بكليات أنواعها دواماً غير مطلق والطالب لا يستغني عن هذه الفوائد وقتاً من الاوقات ، وكيف يستغني مع أن الحامل له على العمل حاجته الى فوائده سواء كانت من الضروريات أو الكماليات فهو محتاج الى دوام الفوائد ودوامها يتوقف على دوام الاعمال وهو أمر موقوف على العامل ، وليس ادمانه العمل المطلوب في موضوعنا هذا أمراً من لوازم وجود ذاته فيحتاج الى صفة زائدة تقضي عليه أن يكون دائماً العمل بقدر الحاجة ، وليس احتياجه كافيًا لهذا الاقتضاء ، إذ ربما تحققت الحاجة بدون أن يتحقق دوام العمل ، وإلا لم نسمع بذكر التهاون والكسل والاهمال وما شاكلها . على أن الحاجة متفاوتة ، فما كان منها في الدرجة الاولى درجة الاضرار بالبحث فهو بنفسه كاف لادمان العمل بخلاف ما كان منها في الدرجات الثانوية فما فوق ، والصفة القاضية بالادمان أي المتممة لعلته هي التمرن والاعتیاد

وبعبارة أوفق بالغرض : إن مالا تدعو اليه الحاجة أصلا في زمن من الأزمان قد تدعو اليه في زمن آخر لالسد الاضرار بالبحث ، بل لما زاد عنه من الحاجات

الثأوية كالكاليات والحسنات ، وقد تدعو اليه بعد زمن طويل أو قصير لسد الاضطراب البحث ، فلا يجد الانسان عنه فراراً فيتكافه مقهوراً مقسوراً يتصور المنفعة على بعد ، ولكنه غائب في دهشة الآلام الاعمال التي لم يتكافها يوماً من الايام لولا حكم الصروف والحادثات التي تقلبه على بساط القهر تقلب العصفور في يدي الطفل ، فلا يزال يحس بالآلم ويدمن العمل حتى يهون عليه شيئاً فشيئاً إلى أن يزول الآلم بالكلية ، ولا يجد إلا عملاً بدون ألم . فاذا مضت برهة بعد الابتداء يحس من نفسه بعض الميل الى العمل فكأن الآلم الاول استحال الى ضده (على حكم تلاقي الطرفين) ويجد منه باعثاً طبعياً اليه ، وهكذا يزداد الميل ويشد العشق حتى لا يميل به الكسل يوماً ما الى إهمال العمل ، وهذا هو المقصود من التمرن والاعتياد .

أما كون الشيء ربما يكون ضرورياً في وقت دون وقت ، فالأمر فيه وإن كان على ما أظن لا يحتاج إلى البيان غير أنني بحكم الحاجة لتوضيحه لبعض الناظرين أقول :

إن الانسان من حيث هو مفكر لا يقف عند حد محدود فيما يتعلق بواجبات حياته وهو في ذاته غير مكلف بكل فرض مطلوب يعده من قبيل التمدن أو الحضارة أو الترف في المعيشة أو غير ذلك ، بل يكفيه ما يسد الرمق من القوت ويقيه الحر أو البرد من اللباس ، ويكفيه وقت الايواء من البيوت ، غير أنه لما تأتق في هذه الضروريات بعض التأتق ، ورأى أنها تقبل التحسين شيئاً فشيئاً أخذ على نفسه أن لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له جأش ، حتى يستخرج من دائرة الامكان كل ما تأدى اليه فكرته ، فجد واجتهد واستطلع بقوته النظرية خواص العناصر فحسبها عند ما اكتشف منها معدات تساعده على غرضه أنها لم تخلق الا له ففسلها عليها بصفة التحليل والتركيب حتى فتح أبواب التجارة والزراعة والصناعة ووصل الى ما وصل اليه الآن وهو في هذا السير الطويل يتحمل أثقالاً على أكتاف كلما وصل منه الى درجة ظنها آخر الدرجات وحسب نفسه فيها غريباً ، فيتخذ نتائج تقاليدها الغريبة زينة شأن كل أمر غريب نادر الوجود ، إذ كل نادر

عزیز قال الشاعر

سبحان من خص القليل بعزه والناس مستغنون عن أجناسه

وأذل أنفاس الهواء وكل ذي نفس لمحتاج الى أنفاسه

فاذا توطنت نفسه على هذه الغرائب زمنا استزاد منها حتى يبالغ بها حد
الكثرة فيستعملها في لوازمه الضرورية في كافة أحواله ، ولا يخص بها وقتاً دون
وقت ، الى أن تصير من قبيل الأمور المعتادة التي لا يستغني عنها بحيث يعتبر كل
ما كان أقدم منها وفي درجة قبلها من التقاليد ساقطاً عن درجة الاعتبار وغير
جائز الاستعمال ، ويتوهم أن استعماله في المسألة التي وصل اليها يزري بمقامه المنيف ،
ويحط بمقداره الشريف ، ولا يتذكر أنه هو هو الانسان أيام كان يقتات بسائط
النبات ، ويستتر بأوراق الاشجار ، ويأوي الكهوف والأغوار ، فبان بما ذكر
أن الشيء قد يكون ضرورياً في وقت دون آخر

ومن وجه آخر تقول انا اذا سيرنا أخبار الأمم نعلم يقيناً أن الهيئة الاجتماعية
البشرية ما وصلت إلى درجة من درجات التمدن والحضارة في وقت من الأوقات
دفعه ، بل لا بد كما يشهد العيان أن تسبق أمة من الأمم إلى غاية في المدنية . فاذا
نظرت إلى جارتها وقد بقيت في مركزها متأخرة عنها والانسان (قتل الانسان
ما أكفره) بحكم الحيوانية مطبوع على التعدي والشره ، فتفاخرها بما يدهش
العقول ويهيب النواظر من صناعاتها الغربية ، وأوضاعها الجميلة ، فترمق تلك بعين
الذاهل المدهش ، وتتوهم أن ضعفها واقعي فتنبض نوعاً من الانقباض . فاذا
نوسمت هذه فيها الانكماش والدعر (الخوف) أخذت تهددها بما تقلب عليها
من ضروب الحيل والدهاء ، وبما تتظاهر به من قوة الجند وكثرة العتاد ، فتقف
تلك وقفة الحائر المتفكر إلى أن يرشدها التأمل إلى أن هذه ما وصلت الى
ما وصلت إلا بالعلم والعمل المتوقفين على الكد والاجتهاد ، فتندفع وراء الجسد
بحكم الاضطرار ، حتى تصل الى ما وصلت اليه أو تكاد ، غير أن تلك أيضاً بعد
أن تذوق لذة التقدم ، وتنسبها سكرة تيه طعم الدل الذي كانت تقاسيه تحت رهبة
جارتها الأولى تعامل الأمة المجاورة لها أيضاً بمثل ما كانت تعامل به في مبدأ

الامر حتى تضطرها كذلك الى أن تركب متن الاجتهاد في السير وراء من قدمها . وهكذا كلما دخلت أمة من باب كلفت به من يجاورها من الأمم حتى تنتظم الأمم جميعاً في سلك واحد في هذا الباب ، ولكن حيث إن حب التسابق طبيعة في الناس ، فلا ترام يقفون لدى نقطة ، بل متى وصلوا إلى حد مامن حدود التقدم ، فلا يمضي زمن طويل حتى يقال إن أمة كذا انتهزت فرصة عظيمة وفتحت باباً من أبواب التقدم عاد عليها بالنماء في الأموال والانس والثمرات ، وبأن مجاورها يخشون بأسها ، ويرقبون حركاتها ، فتضطرب الهيئة الاجتماعية البشرية من هذا النازل الذي لم يكن في الحسبان ، ولا تسكن خواطر بقية الأمم والممالك حتى ينساقوا الى هذه الخطوة التي خطاها غيرهم على غفلة منهم وهم كارهون . فبان أن الأمم قد يحتاجون في زمن مالا يحتاجونه في آخر ، فصدق القول أن الشيء قد يكون ضرورياً وقد لا يكون

وما ذكرناه من انتقليات والتنقلات يحكي حال الجمعية الانسانية من يوم أن تفرقت شعوباً وقبائل يتخالفون في العوائد والاخلاق ، فيذافسون ويتحاسدون على التقير والتقطير ، ويغلب عليهم حب الذات والميل إلى الخصوصيات ، فيدعون أنهم أجناس شتى ، ولا يزال حالهم كذلك يتقلبون على جمر الشحناء ويعذبون بعوامل البغضاء ، فتارة ترمي بهم الاطماع في مخالب التكلف ، ومشاق التنقل من حال الى حال ، فيضطربون لهذا الامر اضطراباً ، وينقبضون منه انقباضاً ، وآونة يلقي بهم الجهد الجهميد بعد أن يروا من الصعوبات ألواناً في بوادي الراحة عند ما يصلون الى نقطة التمرن والاعتياد ، ولكنها نقطة غير ثابتة كما أن درجات تقدمهم غير متناهية ، فلا يزالون يترددون من التعب الى الراحة حتى يرجعوا إلى المجرى الطبيعي ، فيلتئمون بعد التفرق ، ويرفعون عن أعينهم حجاب هذا التشتت

وباليت شعري ماهو النازل الذي حل بالانسان فغير معالمة الطبيعة ، وبدل أخلاقه السلية ، وحل رابطته النوعية ، وإلا فعهدينا به — إن لم نقل إنه من أم وأب تسليماً جديلاً — فهو من نوع واحد يشف مرآه عن الوحدة التامة الناطقة بأن الانسان

من جرثومة واحدة نشأ عنها عائلة واحدة حواها بسيط واحد ربطتها عادات وأخلاق متحدة الصفة ، ولقد رمزت تعاليمه الماضرة — التي منها وهو أكبرها تعميم المواصلات وتأكد الروابط بين الممالك وحركة الاجتماع والتألف — الى هذا السر المكنون ، وبشرتنا المحافظة العامة على دعائم السلام والراحة العموميين حفظ الحقوق الانسان وصوناً لذمة الشرف بان الحركة العمومية موجهة الى النقطة الاولى وكلما قربت الى المركز زادت سرعتها شأن كل حركة طبيعية ، ولقد أثرت هذه الحال تأثيراً خفياً في الجم الغفير من عقلاء الناس فمالوا الى خدمة الانسانية من غير أن يتعصبوا لجنس ولا دين ولا مذهب . فاذا رجع الانسان الى مركزه الطبيعي لا ترى الجمعية البشرية بعد إلا كما كني منزل واحد يرتفقون بمنافعهم على السواء ، ويجدون من بركات الارض ما يكفيهم مؤنة التعب ويكفهم عن الشقاق والعناد ، اذا أصاب قبيل منهم منفعة عادت على الجميع بدون اختصاص على حكم تبادل الاعمال . واذا نزل بقبيل نازل توجه الكل الى اقتاذه مما ألم به ، وساروا جميعاً على وفق القانون الطبيعي المودع في فطرة الانسان ، يهديه اليه من علم الطير النياحة ، ومرنه على السباحة ، ثم لا ترى فيهم إذ ذاك ما يحتاج معه الانسان الى كلفة وعناء بل لا ترى إلا أعمالاً جارية على منهج السهولة منهج القمن والاعتقاد

المقالة السادسة والثلاثون

التمرد (*)

مارصت اليه أمة الا وحط عن كاهلها جميع الأتعاب والبلايا ، والاضطهادات والرزايا ، ولا رقي اليه شعب إلا وأمن غائلة الاعنات والاعتساف ، وتحصنت أعماله من جائحة السلب والاعتداء ، فصاحبه هو الساكن في منازل الرغد والهناء ، واللابس حلة الاسعاد ، تقول ولا مغالاة في الحق : إنه هو الضامن لتوطيد

أركان العمران، والكفيل بتشييد دعائم الاجتماع . كيف لا وهو الحقيقة الجامعة لكل فرد من أفراد الكالات ؟ من غير فرق بين أن يكون أديباً أو مادياً ، حسيّاً أو معنوياً ، فالتفنن في الصنائع فصل من فصوله . والتسابق في ميادين العلوم باب من أبوابه ، والتجاني عن مواضع النقيصة جزء منه ، والتجمل بالأخلاق الفاضلة نبذ من جواهره . فإذا لا بدع إذا قلنا إن صاحبه هو السعيد ، والواطي ، بنعله غرف النعيم ، جد في طلبه من أدرك نتيجته من الأثم ، فجنى ثمره اليانع ، تراه يتقلب على بساط العز ، ويتدرج في معارج الاجلال والجمال ، عمرت دياره بعد أن كانت قاعاً صفصفاً بالأبنية العالية ، وتزينت بالأسواق الفسيحة ، والصنائع العديدة ، وصارت محط رجال السياسة ، ومطمح أنظار النبلاء ، ضاق بسيطها عن القيام بنفقاته الواسعات ، فطار على جناح العلم يستطلع بتاعا ربتها الجمالة ، وثلمتها يد البني ، ليكون فيها هو الوارث بعد بنينا ، يستخرج منها الكنوز بحكمته ، ويفجر منها ينابيع بقدرته ، ليحني وأهلها الغارسون ، ويقضي وهم المطيعون ، تسمع أهل تلك الديار صدى صوته في العشي والابكار ، والغدو والآصال . ولكن يغالطون الحس ، ويكابرون بانكار البداة ، ويسلون أنفسهم بأن هذا الأجنبي لا سطوة له ولا حكم ، وإنما هو غريب دعت الحاجة لتجول في البلاد لطلب الرزق . ثم تحدثهم خواطرهم بأننا أرفع شأنًا من أولئك الغرباء ، وأسبق منهم يدًا في المدينة ، ولئن تأخرنا عنهم حينًا من الزمن لكنا لحقنا بهم في انتظام الهيئة وحسن السلوك ، وهذه قصورنا المشيدة ، وثيابنا الملونة ، وقودونا الجملة ، وأطعمتنا المتنوعة ، تشهد بأننا قوم غمسينا في الترف ، وحظينا بالثروة ، ونهجننا الصراط المستقيم

يحسبون تلك الأوهام حقائق تجعلهم من ذوي النعمة واليسار ، والعزة والكمال ، اعتماداً على كونها سنة الأمم المثرية ، والشعوب المتتورة ، وأيم الله إنها بالنسبة الى أولئك البسطاء لداعية الفقر المدقع ومجلبة الشر . وإن هذه الصور الظاهرية التي يظنونها تمدنا كسحابة حشيت بالصواعق ، يتوهم الغافل من طريقها ولعائنها أنها تأتي بوابل ينعش القلب ، ويحيي الموات ، ولكن اذا حل الأجل

أمطرت ما يذهب بالحياة ، ويبدد الأجسام . وذلك لأن الأمم المتمدنة وإن أنفقت الأموال الكثيرة في تشييد القصور ، وتزيين الملابس ، وتحسين الأثاث ، إلى غير ذلك من المصارف ، فأنما يكون على نسبة مخصوصة من إيراداتهم ، الحائزين لها بالكد والتعب في إبراز المصنوعات الجميلة ، والمخترعات الجمة التي تكسب صاحبها في قليل من الزمن ثروة واسعة ، وقدرأ رفيعاً ، ولا يجيزون الانفاق من رأس المال الا اذا مست ضرورة لا يحصى عنها . ومع ذلك فنفقاتهم هذه لا تتجاوز حد اللزوم ، ولا تخرج عن دائرة احتياجاتهم ، فكماها مؤسسة على قاعدة جلب المصلحة ودفع الحاجة . تدخل منزل الرجل منهم قترى غرفه ومخادعه مشغولات بأمتعته وبضائعه وتقوده ، وليس فيها قدر شبر عمر لغير حاجة حتى حديقته ، ولا يشتري ثوباً له أو لزوجه وأولاده إلا بقدر العوز ، وحلي آل بيته ثلاثة أرباعه من النحاس ، وهما كثرت ثروته ، وليس في اصطبله سوى عربة أو حمار للركوب ، لا يجمع بينهما الا نادراً ، وفرشه وغطاؤه لا يخرج عن نوعي القطن والصوف كشيابه

وأما أهل تلك الديار الذين يزعمون أنهم قوم متمدنون (وهم في ذلك مخطئون) فقد ركبوا الشطط ، وحملوا أنفسهم مالا يطيقون من النفقات الباهظة ، يصرف الواحد منهم آلافاً من النقود في سبيل تعمير أرض فسيحة ، وربما كفاء مالا يبلغ العشر من مساحتها ، ويفرشها من أعلى أنواع الفرش ، ويزينها بأبهج أصناف الزينة ، فتبقى غرف المنزل بلا ساكن ، يعلو التراب على ما فيها من الأثاث والفرش المغطاة بالفضة والذهب حتى يبيدها ، وربما لا يستعملها مرة في العام ، يتختم في أصبعه بما تتجاوز قيمته عقد الألوف من الفرنكلت ، ولدى زوجته من الألباس والجوهر ما يكفي ربحه لنفقات بيته أو يزيد ، لو استعمل ثمنه في شيء . يتجرب به (اذا كان ممن يفقهون) الى غير ذلك من المصارف التي يضيق بنا المقام عن تفصيلها ، وما حمله عليها سوى الطيش والانهماك في الشهوات ، والسفه المفرط الذي بلغ مرتبة الجنون . فان رجعنا الى سيرهم في طرق جلب المنافع ، وتخفيف آتاع المعيشة ، وتحسين وسائل الاكتساب ، رأيناهم واقفين على

نقطة واحدة من آلاف من السنين . فإبراداتهم الآن واقفة عند الحد الذي كانت عليه قبل أن كانوا يسكنون المنازل المصنوعة من اللبن الأخضر، المفروشة بقصب (الحلفاء) المفروشة (١) بقضبان شجر (الجيز) وجذوع النخل ، مكتفين من الثياب بما يستر البشرة ، ومن الطعام بما يذهب النهمة ، فمزروعاتهم الآن هي على ما كانت عليه في تلك الأيام لم تتغير أشكالها ، ولم تتبدل أصنافها . نعم قد زادت حاصلاتها نظراً للتسهيلات التي ربما أجريت في طرق الري، ولكن هذا النمو لا يعادل في الحقيقة الضعف الذي يلح بتجارة أبناء البلاد ، فقد كان يوجد قبل ورود الغريب اليهم في القرية الصغيرة أشخاص عديدون يتجرون في جميع أصناف المزروعات ، وغيرها من الأقمشة والمأكولات ، ويربحون من ذلك أجراً عظيماً ، أما بعد ذلك فلا ترى بنهم الا يتضورون جوعاً ، ويثنون تحت أحمال المشقات لبوار التجارة وكسادها ، واختصاصها بيد النزول . ويتبع ذلك سقوط صنعة التجارة والحدادة والحياكة ، وغيرها من الحرف اللاتي نسختها مستحدثات الامم المتمدنين ، وربما ينتهي بهم الأمر لو استمروا على الجهالة والسفه الى خلوة أيديهم من الزراعة أيضاً ، لوجود من يحسنها سوامهم ، ولا عجب بعدهذا اذا رأينا هؤلاء السفهاء واقعين في وهدة الفاقة والاضمحلال ، يثنون تحت أثقال الديون التي تستغرق جميع مافي حوزتهم من الأملاك ، وهذا ما يجعلهم حقراء أذلاء في قبضة الدائن الذي يكونون رهنوه أملاكهم يتصرف فيهم بما يريد ، فيلاقون منه شماً لا تقدر على تحمله النفوس ، ولا تستطيعه الطباع ، وربما كان الدائن من سفلة قومه ، والمدين من أعيان بلاده ، ولا تغني عنه يومئذ قصوره العالية ، ولا ثيابه المزركشة ، ولا آثاناه الخزية والمريرية ، فضلاً عما يعتربه من البلبال ، وكثرة الوساووس والأفكار ، يبيت ليله يتقلب على الفراش ولا قلبه على جمر الغضا ، يقدر محصولات زراعته قبل بذرها ، وينسبها لمقدار المطلوب في إبان المصاد ، فإذا وجدها على قدره حصل له نوع من الاطمئنان ، ذاهلاً عما عساه يحدث من الغرق أو الشرق أو الأندية

(١) تكرر هنا لفظ المفروشة ولعل إحداها محرفة عن المعروشة أو المسقوفة

المتساقطة من الجو ، حتى اذا حلّ الاجل ولم يجد لديه ما يبي المطلوب لاصابة
الزرع بأحد الأسباب التي ذكرناها ضرب كفّاً على كف ، واسود وجهه ،
وساءت حالته ، وتسوّّل الناس ليكفلوه عند عميله إذا لم يف ما عنده بارهن ،
فلا يجد مجيباً ولا نصيراً . لعمر الحق إن المقترش للحصى المتوسد على الصخر ،
المستكن في منازل الحيوانات ، المتكفف في معيشته ، خير من هؤلاء الناس ،
الذين لا يقر لهم قرار ، ولا يهدأ لهم بال (ومما يسوئنا ان نراهم أكثر من
الكثير في بلادنا) أهذا ما حسبه تمدنا ، وزعموه نعيماً مقيماً بل أنه هو الشقاء
الابدّي ، الجالب للفقر المدقع والعذاب الاليم

هذه مشاربهم في الأحوال المشية ، تحزن المحب ، وتفرح قلب الرقيب ،
ولعلمنا بأن تلك الحالة لا يرضاها الشرع ولا القانون ، لم تقصر في النصيح فيما
مضى ، ولم تقصر في البيان الآن — وسنأتي بعد على هذا الموضوع كما أتينا
عليه سابقاً ، مبينين علة الميل الى الانهماك في السرف الذي نعده تمدنا ، وتبعه
إن شاء الله بشرح بعض ما ألفناه من العادات المستهجنة في الأفراح والميائم ،
والموالد والضيافات . وبيان ما نتحدث به في متدياتنا مما هو عقبات في طريق
تقدمنا ، ونمو ثروتنا ، مفردين في البيان كل موضوع على حدته ، إنذاراً من
سوء عاقبته ، اعلنا نعتاض بما هو خير منه ، فلتستبشر بانتهاجنا صراطاً قويمًا ،
وطريقاً مستقيماً ، وما ذلك على الله بعزيز

(يقول جامع الكتاب) قد كان ينبغي أن توضع هذه المقالة بين مقالة
(ما أكثر القول وما أقل العمل) ومقالة (متدياتنا العمومية وأحاديثها)

وهذا ما علمناه من مقالات الاستاذ في جريدة الوقائع المصرية الرسمية . وله فيها
كتابة أخرى في ضروب من الاصلاح كان يكتبها بمناسبة الاخبار والحوادث ،

الفصل الثالث

مقالات العروة الوثقى

الاصولية

أنشئت جريدة العروة الوثقى في باريس وصدر العدد الاول منها في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين الأفغاني ورئيس تحريرها قديدنا الاستاذ الامام (رحمهما الله تعالى) فالآراء والافكار فيها كانت مشتركة بين هذين الحكيمين والمحرر لجميع مقالاتها هو الثاني، وهماؤم فاتحة العدد الاول منها وهو

المقالة الاولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير) هذا مانعده العناية الالهية من قول الحق، متعلقا بأحوال الشرق، وعلى الله المتكفل، في نجاح العمل، خفيت مذاهب الطامعين أزمانا ثم ظهرت، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الانفس ثم التوت، أوغل الاقوياء من الأثم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا يدياء الفكر، وسحروا ألبابهم حتى أذهلهم عن انفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام، وبلغوا بهم من الضيم حدا لا تحتمله النفوس البشرية ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم، ويغري به شيطان الخيال، فظنوا أن القوة الآلية وان قل عملها، بدوم لها السلطان على الكثرة العددية وان اتفقت

آحادها ، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير ، في النزر اليسير ، وهو زعم ياباه القياس بل يبطله البرهان ، فإن تقلبات الحوادث في الأزمان البعيدة والقرية ناطقة بأنه ان ساع أن عشيرة قليلة العدد فنيت في سواد أمة عظيمة ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها فلم يجز في زمن من الأزمان امتحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة ، وان بلغت القوة أقصى ما يمثله الخيال .

والذي يحكم به العقل الصريح ويشهده سير الاجتماع الانساني من يوم علم تاريخه الى اليوم أن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف لا قراق في السكامة ، أو غفلة عن عاقبة لا محمد ، أو ركون الى راحة لا تدوم ، أو افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها قوة أجنبية ، أزعمتها ونهبتها بعض التنبيه ، فإذا توالى عليها وخزات الحوادث وأفلقتها آلامها فرغت إلى استبقاء الموجود ورد المفقود ، ولم تجد بداً من طلب النجاة من أي سبيل وعند ذلك نحس بقوةها الحقيقية وهي ماتكون بالتنام أفرادها ، والتمحام آحادها ، وان الالهام الآلهي والاحساس الفطري والتعليم الشرعي ، ترشدها إلى ان لا حاجة لها إلى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شي عليها . ان النفوس الانسانية وان بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت اذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتل الضميمة إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الامكان فاذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس الى قواها ، واستأسد ذئبها ، وتتمر نعلها وانتمست خلاصها ، وان تعمد عند الطلب رشاداً .

ربما نخطي ، مرة فتكون عايتها الدائرة لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراس من الوقوع في مثله فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة . وان الحركة التي تبعث لدفع مالا يطاق اذا قام بتدبيرها قيم عليها ومدبر سيرها ، لا يكفي في توقيف سرياتها أو محو آثارها قهر ذاك القيم واهلاك ذاك المدبر ، فان العلة مادامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها ، فان ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة ، نعم يمكن تخفيف الاثر أو إزالته بإزالة علته ورفع أسبابه

جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الأخلاق والعادات والمشارب، وإن لم يكافئها بزائد عما كانت تدن به لمن هو على شاكلتها، فكيف بها إذا حملها مالا طاقة لها به، لا ريب أنها تستنكره، وإن كانت تستكبره، وكلما أنكرته بعدت عن الميل اليه، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريباً تقرب بعضها من بعض، فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب

ان مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الأمم ما بينها من الاختلاف في الجنسية والمشرّب، قرى الاتحاد لدفع مايعمها من الخطر ألزم من التحزب للجنس والمذهب، وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية الى الاتفاق أشد من دعوتها اليه للاشتراك في طلب المنفعة. أبعد هذا يأخذنا العجب اذا أحسنا بحركة فكرية في أغلب أنحاء المشرق في هذه الايام؟ كل يطلب خلاصاً ويتنغي نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والاسباب ما يصل اليه فكره على درجته من الجودة والافن، وان العقلاء في كثير من اصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل

بلى، كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وان عمي عنه الطامع وليس في الامكان اقناع الطامعين بالبرهان ولكن ما يأتي به الزمان من عاداته في ابناؤه بل ما يجري به القضاء الآهي من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون

بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته، ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرك للتغلب منهم نكايته، خصوصاً في المسلمين منهم، فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جوراً، وذووا حقوق في الامرة حرموا حقوقهم ظلماً، وأغزاء باتوا أذلاء، وأجلاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمسوا فقراء، وأحباء أضحوا سقماً، وأسود تحولت أنعاماً، ولم تبق طبقة من الطبقات الا وقد مسها الضر من افراط الطامعين في اطماعهم، خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الاراضي المصرية من نحو خمس سنوات بأيدي ذوي المطامع فيها

حملوا الى البلاد مالا تعرفه فدهشت عقولها، وشدوا عليها بما لا تألفه فخارت

ألبابها ، وألزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها ، وخضدوا من شوكة
الوازع تحت اسم العدالة ايهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع ، فكانت الحركة
العرايية العشواء ، فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالين ، فاندفع بهم سيل المصاعب ،
بل طوفان المصائب ، على تلك البلاد ، وظنوا بلوغ الأرب ، ولكن أخطأ
الظن وهما بما لم ينالوا

لم تكد تحمد تلك الحركة في بادي النظر حتى خلفتها حركة أخرى ، وفتح
باب كان مسدوداً ، وقام قائم بدعوة لها المكنة الاولى في نفوس المسلمين ، بل
هي بقية آمالهم ، ولا ندري الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة . وربما
يوجد من يدري أن مسببها في حيرة من تلافيها ، نعم إنهم غرسوا غرساً إلا أنهم
سيجنون أو هم الآن يجنون منه حظلاً ، ويطعمون منه زقوماً . لاجرم هذه هي
العواقب التي لا يحصى عنها لمن يغالي في طمعه ، ويغفل في حرصه ، ولو أنهم
تركوا الأمر من ذلك الوقت لأربابه ، وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به ،
والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعته ، أو اقتناء فائدته ، لحفظوا بذلك مصالحهم ،
ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة ، بدون أن تزل لهم قدم ، أو ينكس لهم علم
غير أنهم ركبوا الشطط ، وغرهم ما وجدوا من تفرق السكامة وتشتت الاهواء ،
وهو أنفذ عوامليهم وأقتلها ، وما علموا أنه وإن كان ذريع الفتك إلا أنه سريع
العطب ، وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحيدة يسدد
لقلوب المعتدين ، فان بلاء الجور اذا حل بشر من الأمة وعوفي منه باقيها ،
كانت سلامة البعض تعزية للمصابين ، وحجاب عقلة للسامين ، يحول بينهم وبين
الاحساس بما أصاب اخوانهم ، أما اذا عم الضرر ، فلا محالة يحيط بهم المضجر ،
ويعز عليهم الصبر ، فيندفعون الى ما فيه خيرهم ، ولا خير فيه لغيرهم

ان الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسبل احتمالها على نفوس المسلمين
عموماً ، إن مصر تعتبر عندهم من الاراضي المقدسة ، ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها
سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلامية ، ولأنها باب الحرمين الشريفين . فان
كان هذا الباب آميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، وإلا اضطربت

أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الاسلامية
 إن الخطر الذي ألم بمصر نفرت له أحشاء المسلمين ، وتكلمت به قلوبهم ،
 ولن تزال آلامه تستفزهم ما دام الجرح نفاراً . وما هذا بغريب على المسلمين ،
 فان رابطتهم المليية أقوى من روابط الجنسية واللغة . وما دام القرآن يتلى بينهم ،
 وفي آياته ما لا يذهب على أفهام قارئيه ، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم .

إن الفجيعة بمصر حركت أشجاننا كانت كامنة ، وجددت أحزاننا لم تكن في
 الحسبان ، وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم ، وهم
 من تذكّار الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ، ولا تأمن أن يصير
 التنفس زفيراً ، بل نفسيراً عاماً ، بل يكون صاخة تمزق مسامع من أصمه الطمع
 إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب
 له في فتوحاته الا المداواة ، ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ، ولا
 أسنة يحفظ بها مآمئد اليه يده إلا المراضاة ، يظهر بصور مختلفة الألوان ، متاربة
 الأشكال ، كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ، ومثبت مراكز الامراء
 ومسكن الفتن ، ومخلص الحكومات من غوائل العصيان ، وواقى مصالح المغلوبين ،
 فكان أول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا أن لا يأتي من أعماله بما يهتك
 هذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجع البصر ، وكر النظر . وأن يتحاشى
 العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها اذا حققت خنقت ، وليس له أن يغتر بعدم
 مكنتهم ، وهو يعلم أن الكلمة اذا اتحدت لا تعوزها الوسائط ، ولا يعدم
 المتحدون قوياً شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته ، وأن المغيظ
 لا يبالي في الايقاع بما ناولته أسلم أو عطب ، فهو يضر ليضر ، وإن مسه الضر

الا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين ، ووقرت أسماعهم عن حسيس
 الهمسات المتراسلة من الهند الى مكة ، ومن مكة الى مصر ، والكريبر (١) المتمد
 (١) الكريبر صوت في الصدر كصوت الخنثق او المجهود وقد استعارها هنا
 للدراسلات الخفية الصادرة عن شدة ضغط العدواني الاجنبي . ولا يوجد في
 لغات العالم كلمة أليق بهذا المقام وأحسز وقعا وأشد تأثيرا فيه من هذه الكلمة وهي
 من الدلائل على ان البلاغة تكون في المقدرات كالمركبات لكن عند وقوعها في التركيب

من مصر الى مكة ، ومن مكة إلى الهند ، وكأها تتلاقى بين تراقي المغرورين بقوتهم ، المسترسلين في جفوتهم

إن الرزايا الاخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق جدت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بمحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، مع ملاحظة العلل التي أدت بهم إلى ما هم فيه ، فتقاربوا في النظر ، وتواصلوا في طلب الحق ، وعمدوا إلى معالجة الحق وعلل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف ، وإن في الحاضر منها لنهزة تغتم ، واليها بسطوا أكتفهم ولا يخالونها تفوتهم ، ولئن فأتت فكم في الغيب من مثاها ، وإلى الله عاقبة الامور تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار خصوصا البلاد الهندية والمصرية ، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ، ويوحدون كلمة الحق في كل صقع ، لا ينون في السعي ، ولا يقصرون في الجهد ، ولو أفضى بهم ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حي على حياته

ولما كانت بدايتهم تستدعي مساعدة من يضارعهم في مثل حالهم ، رأوا أن يعقدوا الروابط الاكيدة مع الذين يتعلمون من مصابهم ، ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالي أوربا ، وكتبوا على أنفسهم النظر في أمر السلطنة العامة الاسلامية وفروض القيام بها . وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين ، وفيها موسم الحج العام في كل عام ، يجتمع اليه الشرقي والغربي ، ويتآخى في مواقيها الطاهرة الجليل والحقير ، والغني والفقير ، كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات ، والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر ، وأقرب الى الظفر ، يستدعي أن يكون للداعي في كل قلب سليم نفثة حق ، ودعوة صدق ، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم ، بين من خفي عنه شأنهم من إخوانهم . واختاروا أن يكون لهم في هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربي ، وأن تكون

في مدينة حرة كمدينة باريس، ايتسكنوا بواسطتها من بث آرائهم، وتوصل أصواتهم إلى الأقطار القاصية، تنبيهاً للغانل، وتذكيراً للذاهل، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني أن ينشئ تلك الجريدة، بحيث تتبع مشربهم، وتذهب مذهبهم، فلبى رغبتهم، بل أدى حقاً واجباً عليه لدينه ووطنه، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها، فكان ما حمل الأول على الاجابة حمل الثاني على الامتثال، وعلى الله الاتسكال في جميع الأحوال

الجزيرة ومزيجها

سيأتي في خدمة الشرقيين على ما في الامكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات، والاحتراس من غوائل ما هو آت

ويستتبع ذلك البحث في أصول الأسباب ومنشأ العلل التي قصرت بهم إلى جانب التفريط والبواث التي دفعت بهم إلى مهام حيرة عميت فيها السبل، واشتبهت بها المضارب، وتاء فيها الخرب (١) وضل المرشد، حتى لا يدري السالكون من أين تنفجهم الطوارق المفزعة، والمزججات المدهشة، والمدهشات القاتلة وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين، ولبت عليهم مسالك الرشد، وتزيح الوسوس التي أخذت بقول اللذنين، حتى أورتهم اليأس من مداواة علائهم وشفاء أدوائهم، وظنوا أن زمان انتدرك قد فات، وأن العناية بلغت حدها

وتحاول إشراك الأفهام أن لا حاجة في الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة، تصورها بوجوب فتور الهمم وأنحطاط العزائم. وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الادبار عن المطلوب وهو تحت الميناح، ويمكن في الوصول إليه عطفة نظر، وقطع بعض خطوات قصيرة

(١) الحرب بكسر الخاء وتشديد الراء الدليل الحاذق بخرت الارض وهو معرفة طرقها ومضايقتها

وأن الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الاصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهي ما تمسكت به أعز دولة أوربية وأمنعها (١) ولا ضرورة في إيجاد المنفعة الى اجتماع الوسائط ، وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الاخرى ، ولا ملجئ للشرقي في بدايته أن يقف موقف الاوربي في نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك ، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أقر نفسه وأته وقرأ أعجزها وأعوزها وتنبه على أن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة ، هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية . فان قد التكافؤ لم تكن الرابطة الا وسيلة القوي لا ابتلاع الضعيف . وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطمة ، المديح بأشكال المجاملة ، شغافا ينم عما وراءه ، وتنقب عن المسالك الدقيقة ، التي يسري بها الظالمون في دياجر الغفلات

وتتهم بدفع ما يرمي به الشرقيون عموما والمسلمين خصوصا من التهم الباطلة التي يوجهها اليهم من لا خبرة له بمحلمهم ، ولا وقوف على حقائق أمورهم ، وابطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون الى المدنية ما داموا على أصولهم التي فاز بها آباؤهم الأولون .

ولا تن في تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية ، وما يتداوله السياسيون في شؤونهم ، مع اختيار الصادق ، وانتقاء الثابت وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها ، والسياسات القومية التي لا تميل الى الحيف والاجحاف بحق الشرقيين

ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين اليها ، والماملين عليها ، لا تظهر اذا أدجوا ، ولا تنجد اذا غوروا . وتذهب مذاهب الرشد ، وتصيب

« ١ » يريد الدولة الروسية التي جمعت كلمة شعوبها وعنيت بمعلمهم امة حرية مسلحة أحدثت آلات القتال وأخذت بأحدث نظمها اقتياسا ومحاكاة لمن سبقوها بالعلم والاختراع والابتعاة

بحول الله موافقه عند من سبق في أزلي علم الله هدايته . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

وترسل الى الذين نعرف أسماءهم مجاتا بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير ، والغني والفقير . ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه الا أن يكتب الى ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل اقامته على النهج الذي يريده والله الموفق

المقالة الثانية

الجنسية والريانة الاسلمية *

إن استقراء حال الأفراد من كل أمة واستطلاع أهوائها يثبت لجلي النظر ودقيقه وجود تعصب للجنس وفترة عليه عند الاغلب منهم، وأن المتعصب لجنسه منهم ليتيه بمفاخر ينيه ، ويفضض لما يمسه حتى يقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب ، ولا بحث في علة هذا الوجدان ، حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية، إلا أنه يبعد ظنهم ما تراه في حال طفل ولد في أمة من الأمم ، ثم نقل قبل التمييز الى أرض أمة أخرى وربى فيها الى أن عقل ولم يذكر له مولده فانا لا نرى في طبعه ميلا اليه ، بل يكون خالي من قبه ، ويكون مع سائر الاقطار سواء ، بل ربما كان ألف لمرباه وأميل اليه ، والطبيعي لا يتغير . ولهذا لا نذهب الى أنه طبيعي ، ولكن قد يكون من الملكت العارضة على الأنفس ترسمها على ألواحها الضرورات . فان الانسان في أي أرض له حاجات جمة ، وفي أفراد ميل الى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة اذا لم يصبغوا بتربية ذكية . وسعة المطمع اذا صحبها اقتدار يطبعها على الهدوان ، فلهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر ، فاضطروا بعد منازلة الشرور أحقاباً طوالا الى الاعتصاب بلحمة النسيب على درجات متفاوتة

* نشرت في العدد الثاني من العروة الوثقى بتاريخ ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١

حتى وصلوا الى الأجناس فتوزعوا أنما كالهندي والانجليزي والروسي والتركاني ونحو ذلك ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادراً على صيانة منافعه وحفظ حقوقه من تعدي القبيل الآخر . ثم تجاوزوا في ذلك حد الضرورة كما هي عادة الانسان في أوارده فذهبوا الى حد أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه علماً بأنه لا بد أن يكون جائراً اذا حكم ، ولئن عدل فإن في قبول حكمه ذلاً تحس به النفس ، وينفعل له القلب ، فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية تبع هو الضرورة في الزوال كما تبعها في الحدوث بلا ريب ، وتبطل الضرورة بالاعتماد على حاكم تصاغر لديه القوى ، وتضائل لعظمته القدر ، وتخضع لسلطته النفوس بالطبع ، وتكون بالنسبة اليه متساوية الاقدام ، وهو مبدأ الكل ، وقهار السموات والارض . ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه ، مساهماً للكافة في الاستكانة والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين . فاذا أذغنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه لعامتهم في النظام لما أمر به ، اطأنت في حفظ الحق ودفع الشر الى صاحب هذه السلطة المقدسة ، واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة إليها ، فمحي أثرها من النفوس ، والحكم لله العلي الكبير

هذا هو السر في إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أي نوع من أنواع العصبيات ماعدا عصبية الإسلامية . فإن المتدين بالدين الاسلامي متى رسخ فيه اعتقاده يلبو عن جنسه وشعبه ، ويلتفت عن الرابطة الخاصة إلى العلاقة العامة وهي علاقة المعتد لأن الدين الاسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق ، وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى الى عالم أعلى ، بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد ، وبيان الحقوق كلياتها وجزئياتها ، وتحديد السلطة الوازنة التي تقوم بتنفيذ المشروعات ، وإقامة الحدود ، وتعيين شروطها ، حتى لا يكون القابض على زمامها إلا من أشد الناس خضوعاً لها ، ولن ينالها بوراثته ولا امتياز في جنس أو قبيلة أو قوة بدنية ، أو ثروة مالية ، وإنما ينالها بالتوقف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضا الأمة . فيكون

وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الالهية التي لا تميز بين جنس و جنس ، واجتماع آراء الأمة . وليس للوازع أدنى امتياز عنهم إلا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها

وكل فخر تكسبه الانساب ، وكل امتياز تفيده الأحساب ، لم يجعل له الشارع أثراً في وقاية الحقوق ، وحماية الارواح والاموال والاعراض ، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة ، فهي ممقوتة على لسان الشارع والمعتمد عليها مذموم ، والمتعصب لها ملوم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية » (١) والاحاديث النبوية ، والآيات المنزلة متضافرة على هذا ، ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكفاة في التقوى - اتباع الشريعة - (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الازمان على اختلاف الأجيال من لاشرف في جنسه ، ولا امتياز له في قبيله ، ولا ورث الملك عن آبائه ، ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه ، وما رفعه الى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع ، وعنايته بالمحافظة عليه .

وإن بسطة ملك الوازعين في المسلمين كان يسديها اليهم على حسب امثالهم للأحكام الالهية واهتدائهم بهديها ، وتجردهم من الاعتلاء الشخصي ، وكما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره في أبيته ورفاهة معيشته ، وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد ، رجعت الأجاس الى تعصبها ، ووقع الاختلاف وانقبضت سلطة ذلك الوازع

هذا ما أوردنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم الى الآن لا يعتقدون برابطة الشعوب وعصبات الأجناس . وإنما ينظرون إلى جامعة الدين ، لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي ، والفارسي يقبل سيادة العربي ، والهندي يدعن لرياسة الافغاني ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض . وإن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى

(١) رواد ابو داود من حديث جبير بن مطعم مرفوعا

(٢٩) — تاريخ الاستاذ الامام — الجزء الثاني)

قبيل مادام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذاهبها . نعم اذا نبأ في سيره عنها ، وجار في حكمه عما نصت عليه ، وطلب الأثرة بما ليس من حقه انصدعت منه القلوب ، وانحرفت عن محبته الانفس ، وأصبح وإن كان وطنياً فيهم ، أشنع حالاً من الاجنبي عنهم (١)

إن المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثر والأسف عند ما يسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامي بدون التفات إلى جنسها وقبيلها ، ولو أن حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين من أي جنس كان تبع الأوامر الالهية وثابر على رعايتها ، وأخذ الدهماء بحدودها ، وضرب بسهمهم مع المحكومين في الخضوع لها وتجاوى عن الاختصاص بمزايا الفخفة الباطلة لأنه أن يحوز بسطة في الملك وعظمة في السلطان . وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الاقطار المعمورة بارباب هذا الدين ، ولا يتجشم في ذلك اتعاباً ، ولا يحتاج إلى بذل النفقات ، ولا تكثير الجيوش ، ولا مظاهرة الدول العظيمة ، ولا مداخل أعوان التمدن وأنصار الحرية . . . ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الاصول الاولى من الديانة الاسلامية القويمة . ومن سيره هذا تنبعث القوة وتتجدد لوازم المنفعة .

أكرر عليك القول بأن السبب هو أن الدين الاسلامي لم تكن وجهته كوجهة سائر الأديان إلى الآخرة فقط ، ولكنه مع ذلك أتى بما فيه مصالحة العباد في دنياهم ، وما يكسبهم السعادة في الدنيا والتعظيم في الآخرة . وهو المعبر عنه في الاصطلاح الشرعي بسعادة الدارين ، وجاء بالمساواة في أحكامه بين الاجناس المتباينة ، والأأمم المختلفة

ايضت عين الدهر وامتع لون الزمان حتى أصاب أن بعضاً من المسلمين على حكم الندرة يهز عليهم الصبر ، ويضيق منهم الصدر ، لجور محكمهم وخروجهم

« ٢ » آخر امثاله رجوع العرب الى تصبئهم الجنسية وانقباضهم من الترك حين شرعوا يميزون أنفسهم من حيث انهم ترك ... بعد ان ظلوا قروناً لا يفرون من سلطة الترك اذ كانت باسم الاسلام لا باسم « الحاكمية التركية الملية »

في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية ، فيلجئون للدخول تحت سلطة أجنبية ، على أن الندم يأخذ بارواحهم عند أول خطوة بخطونها في هذا الطريق ، فمثلهم مثل من يريد الفتك بنفسه حتى إذا أحس بالألم رجع واسترجع . وإن بعض ما يطرأ على الممالك الإسلامية من الانقسام والتفريق إنما يكون منشأه قصور الوازعين وحيدانهم عن الأصول القوية التي بنيت عليها الديانة الإسلامية ، وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الأقدمين . فإن منابذة الأصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد ما يكون ضررها بالسلطة العليا ، فإذا رجع الوازعون في الإسلام إلى قواعد شرعهم ، وساروا سيرة الأولين السابقين لم يمض قليل من الزمان إلا وقد آتاهم الله بسطة في الملك ، وألقاهم في العزة بالراشدين من أئمة الدين ، وفقنا الله للسداد ، وهدانا لطريق الرشاد

المقالة الثالثة

ماضى الامة وماضرها وعبرج عليها •

(سنة الله في الدين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)

أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم انشق عنها عمام العدم ، فإذ هي بحمبة كل واحد منها كون بديع النظام ، قوي الأركان ، شديد البنيان عليها سياج من شدة البأس ، ويحيطها سور من منعة المم ، تخدم في ساحاتها عاصفات التوازل ، وتتحل بأيدي مديريها عقد المشاكل ، تمت فيها أفنان العزة بعد ما تبنت أصولها ، ورسخت جذورها ، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني إليها ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الكلمة ، وكملت القوة ، فاستعلت آدابها على الآداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها ،

نشرت في العدد الثالث من "المروءة الوثقى" في ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٠٣١

وأحست مشاعر سواها من الالم بان لا سعادة إلا في انتهاج منهجها، وورود شريعتها، وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساحات، كأنها للعالم روح مديرة وهو لها بدن عامل .

وبعد هذا كله وهي بناؤها، وانتثر منظومها، وتفرقت فيها الاهواء، وانشقت العصا، وتبدد ما كان مجتمعاً، وانحل ما كان منعقداً، وانفصمت عري التعاون، واتقطعت روابط التعاضد، وانصرف عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها، ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه لا يلح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية، وهو في غيبة عن أن ضروريات حاجاته لا تنال إلا على أيدي الملتحمين معه بلحمة الامة، وأنه أحوج الى شد عضدهم من تقوية ساعده، وإلى توفير خيرهم من تنمية رزقه، وكأنه بهذه الغيبة في سبات يخيله الناظر اليه صحواً، وذبول يظنه المغرور زهواً، وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فابادها، وحدثت فيهم قناعة التهم، والرضا بكل حال، وإن تنبه خاطر للحق في خيال أحدهم، أو استفزه داع من قلبه الى ما يكسب ملته شرفاً، أو يعيد لها مجداً، عده هوساً وهذياناً أصيب به من ضعف في المزاج، أو خلل في البنية، أو حسب أنه لو أجاب داعي الذمة لمعاد عليه بالوبال، وأورده موارد الهلكة، أو اصار من أقرب الاسباب لزوال نعمته، ونكد معيشته، وبحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالا من اليأس، فتغل يدها عن العمل، وتقف قدماء عن السبي، ويمس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه، ويقصر نظره عن درك ما آتى أسلافه من قبله، وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا، وقبلا على ما أورثوه لآعقابهم، ويبلغ هذا المرض من الامة حداً يشرف بها على الهلاك، وي طرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد، وطعمة لكل طاعم .

نعم رأيت كثيراً من الالم لم تكن ثم كانت، وارتفعت ثم انحطت، وقويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذلت، وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة دواء؟ بلى وأسفاً ما أصعب الداء، وما أعز الدواء! وما أقل العارفين بطرق العلاج!

كيف يمكن جمع الكامة بعد اقتراقها، وهي لم تفتق إلا لأن كلا عكف على شأنه؟
استغفر الله ، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه
اتصالا به ، ولكنه صرف لشؤون غيره وهو يظنها من شؤون نفسه ، فمهما
التفت كل الى ما هو في فطرة كل حي من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه ، وهو
لا يدري من أي وجه يحصلها ، ولا بأية طريقة يكون في أمن عليها ؟ كيف تبعث
الهمم بعد موتها ، وما ماتت إلا بعد ما سكنت زمانا غير قصير إلى ما ليس من
معاليها ؟ هل من السهل رد الثأته الى الصراط المستقيم ؟ وهو يعتقد أن الفوز في
سلوك سواه ، خصوصا بعد ما استدبر المقصد ، وفي كل خطوة يظن أنه على مقربة
من الخطوة ؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه ، المتهيج بأحلامه ، وفي أذنه
وقر وفي ملامسه خدر ؟

هل من صيحة تفرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد انحواؤها ،
وتتناهى أطرافها ، وتتباين عاداتها وطبائعها ؟ هل من نبأ تجمع أهواءها المتفرقة ،
وتوحد آراءها المتخالفة ، بعد ما تراكم جهل وران غيب ، وخيل للعقول أن كل
قريب بعيد ، وكل سهل وعر ؟ أيم الله أنه شيء عسير ، يعيا في علاجه النطاسي ،
ويحار فيه الحكيم البصير . هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على أصل
الداء ، وأسبابه الأولى والعوارض التي طرأت عليه ؟ ان كان المرض في أمة
فكيف يمكن الوصول الى علاه وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من
تنقل الاحوال وتنوع الاطوار ؟ أيمكن لطبيب يعالج شخصا بعينه أن يختار له
نوعا من العلاج قبل أن يعرف ما عرض له من قبل في حياته ليكون على بينة
من حقيقة المرض ؟ وإلا فان كثيرا من الامراض تتولد جراثيمها في طور
من أطوار العمر ، ثم لا تظهر إلا في طور آخر ، لتغلب قوة الطبيعة على مادة
المرض فلا يبدو أثرها .

كلا إنه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنة وعمره
محدودة ، وعوارض حياته محصورة ، فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل
وافرة العدد ؟ لهذا يندر في أجيال وجود بعض رجال يقومون بأحياء أمة أو

ارجاح شرفها ومعددها اليها ، وإن كان المشبهون بهم كثيرين . وكما أن المتطلب القاصر في الامراض البدنية لا يزيد علاجه المرض إلا شدة ، لولا مساعدة الاتفاق والصدقة ، بل ربما يفضي بالمريض إلى الموت . كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم على غير خبرة تامة بشأنها ، ووجب اعتلاؤها ، ووجوه العلة فيها وأنواعها ، وما يكتنف ذلك من العادات ، وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات ، وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الأرض ، ومكانتها الأولى من الرفعة ، ودرجتها الحالية من الضعة ، وتدرجها فيما بين المنزليين . فإن أخطأ طالب اصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء ، والوجود دواء ، فمن له حظ من الكمال الانساني ، ولم يطمس من قلبه موضع الالهام الالهي ، لا يجراً على القيام بما يسمونه تربية الأمم واصلاح مافسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصور في أداء هذا الامر العظيم علماً أو عملاً . نعم يكون ذلك من محبي الفخفة الباطلة ، وطلاب العيش في ظل وظائف ليسوا من حقوقها في شيء .

ظن أقوام في هذه الأزمان أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد ، وأنها تكفل أنماض الهمم ، وتنبيه الافكار ، وتقوم الاخلاق . كيف يصدق هذا الظن وإنا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون إلا نجاح الأمم مع التمتع عن الاغراض ؟ فبعد ماعم الذهول ، واستولت الدهشة على العقول ، وقل القارئون والكتابون . لا تجد لها قارئاً ، ولئن وجدت القاريء قلما تجد الفاهم ، والفاهم قد يحمل ما يجده على غير ما يراد منه لضيق في التصور ، أو ميل مع الهوى ، فلا يكون منه إلا سوء التأثير ، فيشبهه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافاً . على أن الامة اذا كانت في درك الهبوط . فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع مافيهها مع قصر المدة ، وتدقيق سيول الحوادث ؟ إن هذا وحقق لعزير .

ويظن أقوام آخرون أن الامة المنبثة في أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها وأخلاقها إلى مادون رتبها بدرجات لا تحصر ، ورضاها بالدون من العيش ، والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا مشربها ، بل لمن كان

خاضعاً لسيادتها ، راضخاً لأحكامها ، مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الأمراض القاتلة بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها ، وتكون على الطرز الجديد المعروف بأوروبا ، حتى تعم المعارف جميع الأفراد في زمن قريب . ومتى عمت المعارف كملت الأخلاق ، واتحدت الكلمة ، واجتمعت القوة . وما أبعد ما يظنون ؟ فان غذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوي قاهر ، يحمل الأمة على ما نكره أزماناً حتى تذوق لذته وتجني ثمرته ، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائباً عن سلطته في تنفيذ ما أراد من خيرها ، ويلزم له ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة . وموضوع كلامنا في الضعف ودوائه ، فويل مع الضعف سلطة تقهر ، وثروة تغني ؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين .

فان قالوا : يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات ، واقنعهم على الامكان لولا ما يكون من طمع الأقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلاً ، لأن يستمشقوا نسيم القوة ، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر ؟ ... على أما لو فرضنا مسالة الدهر ، ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفي لبث تلك العلوم في بعض الأفراد ، والاستزادة منها شيئاً فشيئاً ، فهل يصح الحكم بأن هذا المدرج يفيدها فائدة جوهرية ، وأن ما يصيبه البعض منها يهيؤه للكمال اللائق به ، ويمكنه من القيام بارشاد الباقي من أبناء أمته ؟ واعجبا كيف يكون هذا وإن الأمة في بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها ؟ وكيف بذرت بذورها ؟ وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وآثرت ؟ وبأي ماء سقيت ، وبأي تربة غذيت ؟ ولا وقوف لها على الغاية التي قصدت منها في مناشئها ، ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات ، وإن وصل إليها طرف من ذلك ، فأما يكون ظاهراً من القول لانبأ عن الحقيقة . فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بها ، وسوقها إلى أذهانهم المشحونة بغيرها ، يقوم من أفكارهم ، ويعدل من أخلاقهم ، ويهديهم طرق الرشاد في إفادة إخوانهم . لعل الأقرب أن ناقل تلك العلوم — وهم من أمة هذا شأنها مع ما ينعكس اليهم من الأوهام

المألوفة فيها ، وما رسخ في نفوسهم على عهد الصبا ، وما يعظمونه من أمر الامة التي تلقوا عنها علومهم — يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها إلا فساداً ماذا يكون من أولئك الناشئين في علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ، ولو صدقوا في خدمة أوطانهم ؟ يكون منهم ما تعطيه حالهم ، يؤدون ما تعلموه كما سمعوه ، لا براعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الامة وطبائعها ، وما صرنت عليه من عاداتها ، فيستعملونه على غير وضعه ، ولبعدهم عن أصله وهوهم بحاضره عن ماضيه ، وغفلتهم عن آتية ، يظنون على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس ، والحياة لكل روح ، فيرومون من الصغير ما لا يرام إلا من الكبير ، وبالعكس ، غير ناظرين إلا إلى صور ما تعلموه ، ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم وهل يكون له من طبائعهم مكان يحمد ؟ أو يزيدا على ما بها أضعافاً ؟ وما هذا إلا لكونهم ليسوا أربابها ، وإنما هم لها قلة وحمة . فهؤلاء الصادقون إلا من وقفه الله منهم بعنايته الالهية يكون مثلهم كمثل والددة حنون يلد لها غذاء ، فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها في اللذة ، وسنه سن اللبان لا يقبل سواه ، فيسرع اليه المرض ، وينتهي به إلى التلف ، فتكون منزلتهم من الامة منزلة الآلة المحللة ، يشتون بقية الجمع ، ويددون أخريات الالتئام إن كان الفساد أبقي للقوم بعض الروابط فهؤلاء المفرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها ، وما قصدوا إلا خيراً إن كانوا مخلصين ، ويوسعون بذلك الخصاص (الخرق في باب ونحوه) حتى تعود أبوابا ، ويباعدون ما بين الضفاف ، حتى تصير ميادين لتدخل الأجانب تحت اسم النصحاء ، وعنوان المصلحين ، ويذهبون بأمتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير

شديد العثمانيون والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا اليهم ما يحتاجون اليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب ، وكل ما يسمونه تمدناً ، وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة ، وسير الاجتماع الانساني . هل انتفع المصريون والعمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ هل صاروا

أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الجبل الجديد ؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة ؟ هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم اليه الأجانب بتصرفاتهم ؟ هل أحكوا الحصون وسدوا الثغور ؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الأعداء عليهم ؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف في الأفكار حداً يميل عزائم الطامعين عنهم ؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية ؟ فهي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها ، وإن تجاوزت محيط الحياة الدنيا ، وإن بادت في سبيلها خلفها وارث على شاكلتها كما كان في كثير من الأمم نعم ربما يوجد بينهم أفراد يتفهبون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها في عبارات متقطعة بتراء ، لا تعرف غايتها ، ولا تعلم بدايتها ، ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون ووقفوا عند هذا الحد ، ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل اليهم من العلم ، فقلبوا أوضاع المباني والمساكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والأنية وسائر الماعون ، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم ، وعرضوها معرض المباهاة ، فنفسوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره ، فأماوا أرباب الصنائع من قومهم . وأهلكوا العاملين في المهن لغدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة والكاليات الجديدة ، لأن مصانعهم لم تتحول إلى الطرز الجديد ، وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد ، وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة ، وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوة وجهها ، ويحط بشأنها ، وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها

علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بأن المقلدين من كل أمة المشتغلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء اليها ، وتكون مداركهم مهابط الوسوس ومخازن الدسائس . بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واحتقار من لم يكن على مثالهم ، شؤماً على أبناء أمتهم ، يذلونهم (٣٠ - تاريخ الامتاز الامام - الجزء الثاني)

ويحرقون أمرهم ، ويستهيئون بجميع أعمالهم وإن جلت ، وإن بقي في بعض رجال الأمة بقية من الشمس ، أو نزوع إلى معالي الهمم ، انصبوا عليه وأرغموا من أنفه ، حتي يمحى أثر الشهامة ، وتخمد حرارة الغيرة ، ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات يهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلاً لغيرهم ، ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم

أقول ولا أخشى لوماً : لو كان في البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عند ما تغلب على بعض أراضيها الانكايز؟ لما بارحوها أبد الآبدين . فإن نتيجة العلم عند هؤلاء ليست إلا توطيد المسالك ، والركون إلى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم ، فيبالغون في تطمين النفوس ؟ وتسكين القلوب ، حتي يزيلون الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم ، ويحفظون بها استقلالهم . ولهذا لو طرق الأجانب أرضاً لا أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدمهم ، ويكونون بطانة لهم ومواقع لتقتهم كأنما هم منهم ، ويعدون الغلبة الأجنبية في بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم

فما الحيلة وما الوسيلة ، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها ، والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها ، والوقت ضيق والخطب شديد ؟ أي جهوري من الأصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات ؟ أي قاصفة تزعج الطباع الجامدة ، وتحرك الأفكار الخاملة ؟ أي نفخة تبعث هذه الأرواح في أجسادها ، وتحشرها إلى مواقف صلاحها وفلاحها ؟ الأقطار فسيحة الجوانب ، بعيدة المناكب ، المواصلات عسرة بين الشرقي والغربي والجنوبي والشمالي ، الرؤوس مطرقة إلى ماتحت القدم أو منفضة إلى ما فوق السماء ، ليس للأبصار جولان إلى الأمام والخلف واليمين والشمال ، ولا للأسماع إصغاء ، ولا للنفوس رغبات ، وللأهواء تحكم ، وللوساوس سلطان .

ماذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير ؟ ماذا يحاولون والخطار محدقة بهم ؟ بأي سبب يتمسكون ورسل المنايا على أبوابهم ؟

لا أطيل عليك بحثاً ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان ، ولكنني أستلفت نظرك الى سبب يجمع الأسباب ، ووسيلة تحيط بالوسائل : أرسل طرفك إلى نشأة الأمة التي خملت بعد النباهة ، وضعفت بعد القوة ، واسترقت بعد السيادة ، وضيمت بعد المنعة ، وتبين أسباب نهوضها الأول ، حتى تتبين مضارب الخلل وجرائم العلل ، فقد يكون ما جمع كلمتها ، وأنهمض همم آحادها ، ولحم ما بين أفرادها ، وصعد بها إلى مكانة تشرف منها على رؤوس الأمم ، وتسوسهم وهي في مقامها بدقيق حكمتها ، إنما هو دين قويم الأصول ، بحكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم ، باعث على الألفة ، داع إلى المحبة ، مزك للنفوس ، مطهر للقلوب من أدران الخسائس ، منور للعقول بأشراق الحق من مطالع قضاياه ، كافل لكل ما يحتاج اليه الانسان من مباني الاجتماعات البشرية وحافظ وجودها ، وينادي بمعتقديه إلى جميع فروع المدينة .

فان كانت هذه شرعتها ، ولها وردت ، وغنها صدرت . فما تراه من عارض خللها ، وهبوطها عن مكانتها ، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهرياً ، وحدث بدع ليست منها في شيء ، أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة ، وأعرضوا عما يرشد اليه الدين وعما أتى لأجله ، وما أعدته الحكمة الالهية له ، حتى لم يبق منه الا أسما ، تذكر ، وعبارات تقرأ . فتكون هذه المحدثات حجاً بين الأمة وبين الحق الذي تشعر بندااته أحياناً بين جوانحها فعلاجها الناجع إنما يكون برجعها الى قواعد دينها ، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته ، وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق ، وإيقاد نيران الفيرة ، وجمع الكلمة ، وبيع الأرواح لشرف الأمة ، ولأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثه من أحقاب طويلة ، والقلوب مطمئنة اليه ، وفي زواياها نور خفي من محبته ، فلا يحتاج القائم بالحياء الأمة الا الى نفخة واحدة يسري نفعها في جميع الأرواح لا قرب وقت . فاذا قاموا لشؤونهم ، ووضعوا أقدامهم على

طريق نجاحهم ، وجعلوا أصول دينهم الحجة نصب أعينهم ، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانساني ومن طلب اصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه ، فقد ركب بها شططا ، وجعل النهاية بداية ، وانعكست التربية ، وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ، ولا يزيد الامة الانحسار ، ولا يكسبها الا تعسا .

هل تعجب أيها القارىء من قولي إن الأصول الدينية الحققة، المبرأة عن محدثات البدع، تنشىء للائم قوة الاتحاد، وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهي بها الى أقصى غاية في المدنية؟! ان عجبت فان عجبى من عجبك أشد!! هل نسيت تاريخ الامة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات ، واتيان الدنيا والمنكرات ، حتى اذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهدبها ، ونور عقولها ، وقوم أخلاقها ، وسد دأحكامها . فسادت على العالم ، وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف . وبعد أن كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نهبتها شريعنها وآيات دينها الى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها . ونقلوا الى بلادهم طب بقراط وجالينوس ، وهندسة أقليدس ، وهيئة بطليموس ، وحكمة أفلاطون وأرسطو ، وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا ، وكل أمة سادت تحت هذا اللواء إنما كانت قوتها ومدنيتها في التمسك بأصول دينها . .

وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك ، وافتتاح الأقطار ، وطلب السيادة على الأمصار ، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم ، وارتفاع النفوس عن الدنيا وبعد الغايات ، وعلو المقاصد هي التي هذبت أخلاقهم ، وقومت أفكارهم ، وكفقتهم عن معاطاة الرذائل وخسائس الامور وسوافلها . ثم بعد ما مضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها . فبيان أسباب الخلل فيها وعلاته نفرد له فصلا مستقلا في عدد آخر إن شاء الله وهو الموفق للصواب

المقالة الرابعة

النصرانية والاسلام وأماهما *

(مقابلة بينهما في طلب العزة والسيادة نشرت بالعنوان الآتي)

﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾

خلق الله الانسان عالماً صناعياً ، ويسر له سبيل العمل لنفسه ، وهداه للابداع والاختراع ، وقدر له الرزق من صنع يديه . بل جعله ركن وجوده ، ودعامة بقاءه . فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة ، وخشونة ورفاهة ، وتبد وحضارة ، صنعة أعماله : أقواته من معالجة الارض بالزراعة أو قيامه على الماشية ، وسراييله وما يقيه الحرأو البرد والوجى من عمل يديه نسجاً أو خصفاً ، وأكثانه ومساكنه ليست الا مظاهر تقديره وتفكيره . وجميع ما يتفنن فيه من دواعي ترفه ونعيمه إنما هي صور أعماله ومجالي أفكاره ، ولو نفى يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسط أكفه للطبيعة ليستجديها نفساً من حياة لشحت به عليه ، بل دفعته الى هاوية العدم ، وهو في صنعه وابداعه محتاج الى أستاذ يثق به وهاد يرشده . فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته يعمل ليعلم كيف يعمل ، وليقدر على أن يعمل . فصنعه أيضاً من صنعه . فهو في جميع شؤونه الحيوية عالم صناعي كأنه منفصل عن الطبيعة ، بعيد من آثارها ، حاجته اليها كحاجة العامل لآلة العمل . هذا هو الانسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه . دته في هذه الحاة وخذ طريقاً من النظر إلى أحواله النفسية من الادراك والتعقل والأخلاق والملكات والانفعالات الروحية تجده فيها أيضاً عالماً صناعياً :

* نشرت في العدد الرابع من المودة الوثقى الذي صدر في ٧ جمادى الآخرة

سنة ١٣٠١ الموافق ٣ إبريل سنة ١٨٨٤

شجاعته وجبنه ، جزعه وصبره ، كرمه وبخله ، شهامته ونذالته ، قسوته ولينه ، عفته وشرهه ، وما يشبهها من الكمالات والنقائص جميعها تابع لما يصادفه في تربيته الأولى . وما يودع في نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم وتربى بينهم ، ومرامي أفكاره ، ومناهج تفكره ، ومذاهب ميله ، ومطامح رغباته ، ونزوعه الى الاسرار الالهية ، أو ركونه الى البحث في الخواص الطبيعية . وعنايته باكتشاف الحقيقة في كل شيء ، أو وقوفه عند بادية الرأي فيه وكل ما يرتبط بالحركات الفكرية - إنما هي ودائع اختزنها لديه الآباء والأمهات ، والاقوام والعشائر والمخالطون وأما هواء المولد والمربي ونوع المزاج ، وشكل الدماغ ، وتركيب البدن وسائر الغواشي الطبيعية فلا أثر له في الأعراض النفسية ، والصفات الروحانية ، إلا ما يكون في الاستعداد والقابلية ، على ضعف في ذلك الأثر . فان التربية وما ينطبع في النفس من أحوال المعاشرين وأفكار المثقفين تذهب به كأن لم يكن أودع في الطبع . نعم إن أفكاراً تتجدد ، ومعقولات من أخرى تتولد ، وصفات تسمو ، وهما تعلو ، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين . ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب ، ولكن الحق فيه أن ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب ، فهو مصنوع يتبع مصنوعاً . فالإنسان في عقله وصفات روحه عالم صناعي

هذا مما لا يرتاب عليه العقلاء والسذج ، ولكن هل تذكرت مع هذا أن الأعمال البدنية ، إنما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ، وأن الروح هي السلطان القاهر على البدن ؟ أظنك لا تحتاج فيه الى تذكير ، لأنه مما لا يعزب عن الأذهان — إنما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ، ولا أظن منكراً يجحدها :

إن الدين وضع إلهي ، ومعلمه والداعي اليه البشر ، تتلقاه العقول عن المبشرين المنذرين ، فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي ، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين ، وهو عند جميع الأمم أول ما يخرج بالقلوب ، ويرسخ في الأفتدة ، وتصبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتتمرن

الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة الاولى على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والارادات ، فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها . وكأنما الانسان في نشأته لوح صقيل ، وأول ما يخطط فيه رسم الدين . ثم ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده ، وما يطرأ على النفوس من غيره ، فانما هو نادر شاذ ، حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال

•

وبعد هذا الموضوع بحثنا الآن الملة المسيحية والملة الاسلامية ، وهو بحث طويل الذيل . وإنما تأتي به على إجمال ينبثق عن تفصيل : إن الديانة المسيحية بنيت على المسألة والمياسرة في كل شيء ، وجاءت برفع القصاص وإطراح الملك والسلطة ، ونبد الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها ، وترك أموال السلاطين للسلاطين ، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية ، بل والدينية — ومن وصايا الانجيل : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر — ومن أخباره أن الملك أنما ولايتهم على الأجساد وهي فانية . والولاية الحقيقية الباقية على الأرواح وهي لله وحده . فمن يقف على مباني هذه الديانة ، ويلاحظ ما قلنا من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الأفكار ، مع ملاحظة أن لكل خيال آثراً في الارادة يتبعه حركة في البدن على حسبه . يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي المتنسين في عقائدهم اليه . فهم يتسابقون في المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها ، ولا يقفون عند حد في استيفاء لذاتها ، ويسارعون الى افتتاح الممالك ، والتغلب على الاقطار الشاسعة ، ويخترعون كل يوم فناً جديداً من فنون الحرب ، ويبدعون في اختراع الآلات الحربية القاتلة ، ويستعملها بعضهم في بعض ، ويصولون بها على غيرهم ، ويبالغون في ترتيب الجيوش وتدير سوقها في ميادين القتال ، ويصرفون عقولهم في إحكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكري من أوسع الفنون وأصعبها ، وإن أصول دينهم صارفة لعقولهم

عن العناية بحفظ أملاكهم ، فضلا عن الالتفات الى طلب غيرها
الديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة
ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبتذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب
الولاية على تنفيذ أحكامها . فالناظر في أصول هذه الديانة ، ومن يقرأ سورة من
كتابها المنزل ، يحكم حكما لا ريبه فيه بأن المعتقدين بها لابد أن يكونوا أول ملة
حرية في العالم ، وأن يسبقوا جميع الملل الى اختراع الآلات القتالية ، وإتقان
العلوم العسكرية ، والتبحر فيما يلزمها من الفنون — كالطبيعة والكيمياء وجر الاثقال
والهندسة وغيرها — ومن تأمل في آية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)
أيقن أن من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة ، وطلب كل وسيلة الى
ما يسهل له سبيلها ، والسعي اليها بقدر الطاقة البشرية ، فضلا عن الاعتصام
بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه . ومن لاحظ أن الشرع الاسلامي حرم
المراهنة إلا في السبابة والزماية انكشف مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون
العسكرية واتمرن عليها . ولكن مع كل ذلك تأخذ الدهشة من أحوال المتمسكين
بهذا الدين لهذه الأوقات ، إذ يراهم يتهاونون بالقوة ، ويتساهلون في طلب
لوازمها . وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال ، ولا في اختراع الآلات ،
حتى فاقهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم . واضطروا لتقليدها فيما
يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات ، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفهم
واستكانوا لها ، ورضخوا (١) لأحكامها . ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف
اخترع مدفع الكروب والمتراليوز وغيرها بأيدي أبناء الديانة الاولى قبل
الثانية ؟ وكيف وجدت بندقية مرتين في ديار الأولين ، قبل وجودها عند
الآخرين ؟ وكيف أحكت الحصون ، ودرعت البواخر ، وأخذت مغالق البحار
بسواعد أهل السلامة والسلم ، دون أهل الغلبة والحرب ؟
لم لا يحار الحكيم وإن كان نطاسيا ؟ لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه

« ١ » وضع هذه الكلمة هنا ، مما سبق الى قلم الاستاذ من انشاء الجرائد ،
والصواب أن يقال خضعوا أو خضعوا — وأما الرضوخ فمعناه العطاء اقليل

الحقيقة ؟ هل القرون الحالية والأحتماب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المستمسين بعراهما ؟ هل نبذت كل مائة من الملتين عقائد دينها ظهريا من أجيال بعيدة ؟ هل انتضر النصرى في دينهم على الأخذ بشريعة موسى ، واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدري ولا يدري بين الخطب والمواظ التي تتلى على منابر المسلمين ، أو ألقى شيء منها في أماني معلمهم وناشري شريعتهم عند ما يتربعون في محافل دروسهم ؟ هل تبدلت سنة الله في الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الابدان فيهما على الأرواح ، أو وجد للأرواح دبير سوى الفكر والخيال ، أو انفلتت الأفكار من سلطة الدين ، أو تعاصت النفوس عن الانتقاش بنقشته ، وهو أول حاكم عليها وأقوى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف العلل عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الأسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه يرشد العقول الى كشف المسانير وحل المعميات ؟

أينسب هذا إلى اختلاف الأجناس . وكثير من أبناء الملتين يرجعون إلى أصول واحدة ، ويتقاربون في الأنساب الدانية ، أينسب هذا إلى اختلاف الأقطار ، وكثير من القبيلين يتشابهون في طبائع البلدان ، ويتجاورون في مواقع الأمكنة ؟ ألم يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم أعمال بهرت الابصار وأدهشت الألباب ؟ ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوخوا الممالك واستولوا على كرسي السيادة فيها . كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع ، فزع لها المسيحيون ، وغابوا عن معرفة أسبابها — ذكر ملكهم سرجم (انكليزي) في تاريخ فارس أن محموداً الغزنوي كان يحارب وثني الهند بالمدافع ، وكانت هي السبب في انهزامهم بين يديه (سنة ٤٠٠) من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئا منها . فأبي عون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية فقدمها إلى ما لم يكن في قواعد دينها ؟ وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخترتهم عن تعاليم الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم ؟ مقام للحيرة

وموضع للعجب ! ويظن أن لا بدّ لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول .
ولكن نجمل على ما شرطنا :

إن الدين المسيحي إنما امتدّ ظله وعتت دعوته في الممالك الاوربية من
أبناء الرومانيين ، وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن
أديانهم السابقة ، وعلومهم وشرائعهم الاولى ، وجاء الدين المسيحي اليهم
مسالماً لعواندهم ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الاقناع ومسارقة الخواطر
لا من مطارق البأس والقوة ، فكان كالطراز على مطارفهم ، ولم يسلبهم ماورثوه
عن أسلافهم . ومع هذا فان صحف الانجيل الداعية الى السلامة والسلم لم تكن لسابق
العهد مما يتناول السكافة من الناس ، بل كانت مذكورة عند الرؤساء الروحانيين
ثم ان الاحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع ، وسنوا محاربة
الصليب ، ودعوا اليهادعوة الدين ، التحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية ،
وجرت منها مجرى الاصول ، ولحقها على الأثر تزعزع عقائد المسيحيين في أوروبا ،
واقترحوا شيعاً ، وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلطته ، وعادا وميض ماودعه
أجدادهم في جرائم وجودهم ضراماً ، وتوسعوا في فنون كثيرة ، وانفسخ لهم
مجال الفكر فيها ، وكانت براعتهم في الفن العسكري ، واختراع آلات الحرب
والدفاع مساوقة لبراعتهم في سائر الفنون

أما المسلمون فبعد أن نالوا في نشأة دينهم مانالوا ، وأخذوا من كل كمال
حربي حظاً ، وضربوا في كل فخار عسكري بسهم ، بل تقدموا سائر الملل في
فنون المقارعة ، وعلوم التزال والمكافحة ، ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا
فيه ، وخلطوا بأصوله ما ليس منها ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ، وضربت
في الأذهان حتى اخترقتها ، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بهنائها عن
الأعمال . هذا الى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع ، وما أحدثه
السوفسطائية الذين أنكروا مظاهر الوجود وعلوها خيالات تبدو للنظر ، ولا
تثبتها الحقائق ، وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ينسبونها الى صاحب
الشرع صلى الله عليه وسلم ، ويثبتونها في السكتب وفيها السم القاتل لروح الفيرة ،

وإن ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفاً في الهمم ، وفثوراً في العزائم . وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة ، خصوصاً بعد حصول النقص في التعليم ، والتقصير في إرشاد الكفاية إلى أصول دينهم الحق ومبانيه الثابتة التي دعا إليها النبي وأصحابه . فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم الا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة . لعل هذا هو العلة في وقوفهم ، بل الموجب لتقهقرهم ، وهو الذي نعاني من عنايه اليوم ما نسأل الله السلامة منه

إلا إن هذه العوارض التي غشيت الدين ، وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته وإن كان حجابها كثيفاً لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يجرموها بالمرّة تدافع دائم وتغالّب لا ينقطع ، والمنازعة بين الحق والباطل كالدافعة بين المرض وقوة المزاج . وحيث إن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ، ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة ، فلا بد يوماً أن يسطع ضياؤها ويقشع سحب الاغيان . وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل ، وإمامهم الحق وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ، ومغالبة المعتدين ، وطلب المنعة من كل سبيل لا يعين لها وجهاً ، ولا يخص لها طريقاً ، فأننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم ، ونهوضهم إلى مقامات الزمان ماسلب منهم ، فيتقدمون على من سواهم في فنون الملاحة والمنازلة والمصاولة حفظاً لحقوقهم ، وضناً بأنفسهم عن الذل ، وملتهم عن الضياع ، وإلى الله تصير الأمور .

المقالة الخامسة

انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك *

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)

إن المسلمين شدة في دينهم ، وقوة في إيمانهم ، وثباتاً على يقينهم ، يباهون بها من عدايم من الملل ، وإن في عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض ، ومما رسخ في نفوسهم أن في الإيمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين . ومن حرم الإيمان فقد حرم السعادتين ، ويشفقون على أحدكم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء ، وهذه الحالة كما هي في عدايمهم متبينة في عامتهم ، حتى لو سمع أي شخص منهم في أي بقعة من بقاع الأرض عالماً كان أو جاهلاً أن واحداً ممن رسم بسملة الإسلام في أي قطر ومن أي جنس صبا عن دينه رأيت من يصل إليه هذا الخبر في تحرق وتأسف يلجج بالحققة والاسترجاع ، وبعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به ، بل وعلى جميع من يشاركه في دينه ، ولو ذكرت مثل هذه الحادثة في تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئتين من السنين لا يتألك قلبه من الاضطراب ، ودمه من الغليان ، ويستغفره الغضب ويدفعه لمكابية ما رأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكي عن عجيب .

المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها المبرحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ولايتهم من البلدان ، وكلهم أمور بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحددين في الجانس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كل على الجميع أعظم الآثام . ومن

* نشرت في العدد الخامس من جريدة العروة الوثقى في ١٤ جمادى الآخرة

سنة ١٣٣١ و ١٠ أبريل ١٨٨٤

فروضهم في سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الاموال والارواح، وارتكاب كل صعب، واقتحام كل خطر، ولا يباح لهم المسألة مع من يغالبهم في حال من الاحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم، وبالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التماس من سلطة غيره، لوجبت عليه الهجرة من دار حربه — وهذه قواعد مثبتة في الشريعة الاسلامية يعرفها أهل الحق، ولا يغير منها تأويلات أهل الاهواء وأعوان الشهوات في كل زمان.

المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة، وما يفرض عليه الايمان، وهو هاتف الحق الذي بقي له من إلهامات دينه، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين في هذه الايام بعضهم في غفلة عما يلم بالبعض الآخر، ولا يألمون لما يألم له بعضهم، فأهل بلوجستان كانوا يرون حركات الانكيز في أفغانستان على مواقع أنظارهم، ولا يجيش لهم جاش ولا تكون لهم نعة على اخوانهم، والافغانيون كانوا يشهدون تداخل الانكيز في بلاد فارس، ولا يضجرون ولا يتعلمون، وإن جنود الانكيز تضرب في الاراضي المصرية ذهاباً واياباً تقتل وتفتك، ولا ترى نجدة في نفوس اخوانهم المشرفين على مجاري دماهم، بل السامعين لخبرها من حلاقيمهم، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدتها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم تمسك المسلمين بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق في نفوسهم مع هذه الحالة التي هم عليها مما يقضي بالعجب ويدعو إلى الحيرة، ويسبق إلى بيان السبب فخذ مجرماً منه: إن الافكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدرجات والوجدانيات النفسية وإن كانت هي الباعثة على الاعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم، لكن الاعمال تثبتها وتقويها وتطبعها في الانفس وتطبع الانفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق، وتترتب عليه الآثار التي تلائمها.

نعم أن الانسان انسان بفكره وعقائده إلا أن ما ينعكس الى مرآة عقله من

مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير ، فكل شهود يحدث فكراً وكل فكر يكون له أثر في دأية ، وعن كل دأية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل إلى الفكر ، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الأعمال والافكار ، مادامت الارواح في الاجساد ، وكل قبيل هو للآخر عماد .

إن للاخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها في الاعتصاب والاتحام لولا ما تبعث عليه الضرورات ، وتلجى اليه المآجات ، عن تعاون الانسباء والعصبة على نيل المنافع ، وتضافرهم على دفع المضار ، وبعد كرور الايام على المضاهرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذاً يصرفه في آثارها بقية الاجل ويكون انبساط النفس لعون القريب ، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جارياً مجرى الوجدانيات الطبيعية ، كالحساس بالجوع والعطش والري والشبع ، بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعده طبيعياً . فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها ، ولم تدع ضرورات الحياة في وقت من الاوقات إلى ما يمكن تلك الصلة ويؤكددها ، أو وجد صاحب النسب من يظاها في غير نسبه أو ألجأته ضرورة الى ذلك ، ذهب أثر تلك الرابطة النسبية ، ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمثولات . وعلى مثال ما ذكرنا في رابطة النسب وهي أقوى رابطة بين البشر يكون الأمر في سائر الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الانساني من حيث ارتباط بعضها ببعض . اذا لم يصحب العقد الفكري ملجى ، الضرورة أو قوة الدأية الى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلاً من أشكالها ، فلن يكون منشأ لآثاره ، وإنما يعد في الصور العلمية له رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات اليه كما قدمنا .

بعد تدبر هذه الاصول البينة ، والنظر فيها بعين الحكمة ، يظهر لك السبب في سكون المسلمين الى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم ، والعلة في تباطؤهم عن نصرة اخوانهم وهم أثبت الناس في عقائدهم ، فانه لم يبق من جامعة بين المسلمين في الأغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال ، واقطع التعارف بينهم

وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل ، فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس اليها لا تواصل بينهم ولا تراسل ، فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي فضلاً عما يبعد عنهم ، والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الافغاني وهكذا ، بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ، ولا صلة بمجتمعهم إلا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم وآخر . أما في هيتهم الكلية فلا وحدة لهم ، بل لأنساب بينهم وكل ينظر الى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه .

كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين . أليس بعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين في مرا كش ولا لمرا كش عند العثمانيين ؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الافغانين وغيرهم من طوائف المسلمين في الشرق ؟

هذا التدابر والتقاطع وارسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صبح أن يقال لأعلاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد وبلد الا طفيف من الاحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتمادهم ، وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة إذا التقى بعضهم ببعض في موسم الحجيج العام وهذا النوع من الاحساس هو الداعي إلى الأسف وانقباض الصدر إذا شعر مسلم بضياح حق مسلم على يد أجنبي عن ملته ، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعارضته . كانت الملة كجسم عظيم قوي البنية صحيح للتراج ، فنزل بمن العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم .

بدا هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم . كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة إلى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان ، ثم انثلت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام خلافة عباسية في بغداد ، وفاطمية في مصر والمغرب ، وأموية في أطراف

الأندلس . تفرقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة الى وظيفة الملك ، فسقطت هيبتها من النفوس ، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون اليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة .

وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيز خان وأولاده وتيمور لنگ وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلا واذلالا حتى أذهلوهم عن أنفسهم ففرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعاً ، وانفرد كل بشأنه وانصرف الى ما يليه ، فتبدد الجمع الى آحاد ، واقترب الناس فرقا كل فرقة تتبع داعياً إما الى ملك أو مذهب ، فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو الى الوحدة ، وتبعث على اشتباك الشيعة ، وصار ما في العقول منها صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال وتلاحظها الذكرة عند عرض ما في خزائن النفس من المعلومات ، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل المضائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر الى المسامع على طول من الزمان ، وما هو الا نوع من الحزن على الفاتت ، كما يكون على الاموات من الأقارب ، لا يدعو الى حركة لتدارك النازلة ، ولا دفع الغائلة .

وكان من الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لاهياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين ، ويجعلوا معاهد هذا الاتفاق في مساجد ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهيطة الروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ، ويرتبط العلماء والخطباء والائمة والوعاظ في جميع انحاء الارض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون اليها في شؤون وحدتهم ويأخذون بأيدي العامة الى حيث يرشدون بالتنزيل وصحيح الأثر ، ويجمعوا أطراف الوشائج الي معقد واحد يكون مركزه في الأقطار المقدسة وأشرفها معبد بيت الله الحرام ، حتى يتمكنوا بذلك شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان ، والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل وتطرق الاجانب للتدخل فيها

بما يحيط من شأنها ويكون كذلك ادعى لتشر العلوم وتوير الافهام وصيانة الدين من البدع ، فان احكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف ، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة ، وليس بخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الامة وعلو كرامتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل

الا إنا نأسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين الى هذه الوسيلة هي أقرب الوسائل وإن التفت اليها في هذه الايام طائفة من أرباب الغيرة ، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شقيتهم ، فقد دارسهم التجارب ببيان لا مزيد عليه ، وما هو بالعسير عليهم أن يثبوا الدعاة الى من يبعد عنهم ، ويصاغخوا بالأكف من هو على مقربة منهم ، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بمنائدة أو ما يخشى أن يمسها بضرر ، ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة ، والرمق باق والآمال مقبلة ، والى الله المصير

المقالة السادسة

التعصب (*)

(اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء)

لفظ شغل مناطق الناس خصوصاً في البلاد الشرقية تلوكه الالسن وترمي به الأفواه في المحافل والجامع ، حتى صار تكأة للتمككين ، يلجأ اليه العبي في تهنته ، والذملقاني في تفهنته (١) أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير قلما تكون عبارة إلا

« نشرت في المرد السادس من جريدة العروة الوثقى في ٢٨ جمادى الآخرة سنة ٣٠١ هـ »
« ١ » التكأة بضم ففتح كهزة ما يتوكأ عليه كالعصا والعيبي الذي لا يبين فهو فعيل من العبي وهو المعجز عن الكلام والتهنته ضرب من الاكنة ورجل ذملقاني سريع الكلام والتفهيق في المنطق التوسع والتنطم فيه

(٢٢ — تاريخ الاستاذ الامام — الجزء الثاني)

وهو فاتحتها أو حشوها أو خاتمها، يعدون مسماة لعل لكل بلاء، ومنبعا لكل عناء،
 ويزعمونه حجابا كثيفا وسدا منيعا بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح، ويجهلون
 عنوانا على النقص وعلما للردائل. والمتسربلون بسراويل الافرنج الذاهبون في
 تقليد مذهب الخبط والخلط لا يميزون بين حق وباطل هم أحرص الناس على
 التشديق بهذا البدع الجديد، قراهم في بيان مفاسد التعصب يمزون الرؤس ويعبثون
 بالحي ويبرمون السبال وإذا رموا به شخصا للخط من شأنه أردفوه للتوضيح
 بلفظ أفرنجي (فنايك) فإن عهدوا بشخص نوعا من الخالقة لمشر بهم عدوه
 متعصبا، وهمزوا به وغزوا ولمزوا، وإذا رأوه عبسوا وبسروا، وشتموا
 بأنوفهم كبرا، وولوه دبرا، ونادوا عليه بالويل والثبور. ماذا سبق إلى أفهامهم
 من هذا اللفظ؟ وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدأ لكل شناعة،
 ومصدرا لكل تقيصة؟ وهل لهم وقوف على شيء من حقيقة؟

التعصب قيام بالعصبية، والعصبية من المصادر النسبية، نسبة إلى العصب،
 وهي قوم الرجل الذين يعززون قوته، ويدفعون عنه الضيم والعداء. فالتعصب
 وصف للنفس الانسانية، تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه،
 ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس في معلوماتها ومعارفها

هذا الوصف هو الذي شكل الله به الشعوب، وأقام بناء الأمم وهو
 عقد الربط في كل أمة، بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم
 واحد، وينشئها بتقدير الله خلقا واحدا، كبسند تألف من أجزاء وعناصر،
 تدبره روح واحدة، فتكون ككشخص يمتاز في أطواره وشؤونه وسعادته
 وشقائه عن سائر الأشخاص. وهذه الوحدة هي مبعث المباراة بين أمة وأمة،
 وقبيل وقبيل، ومباهاة كل من الأمتين المتقابلتين بما يتوفر لها من أسباب الرفاهة
 وهناء العيش، وما يجمعه قواها من وسائل العزة والمهزة، وسمو المقام ونفاذ
 الكلمة. والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأشخاص أعظم باعث على بلوغ
 أقصى درجات الكمال في جميع لوازم الحياة بقدر ماتهه الطاقة
 التعصب روح كل مهيطة هيئة الأمة وصورتها، وسائر أرواح الأفراد

حواسه ومشاعره ، فاذا ألم بأحد المشاعر مالا يلاعه من أجنبي عنه انفعل الروح الكلي ، وجاشت طبيعته لدفعه ، فهو لهذا مثار الحية العامة ، ومسرعة النهرة الجنسية . هذا هو الذي يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدنيا وارتركاب الخيانات فيما يعود على الأمة بضرر ، أو يؤول بها الى سوء عاقبة ، وإن استقامة الطبع ورسوخ الفضيلة في أمة تكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها . يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حي ، لا يجرد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ، ولا يرى القدمان في تطرفهما انحطاطا في رتبة الوجود وإنما كل يؤدي وظائفه لحفظ البدن وبقائه ، وكلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمة بضعف التعصب فيهم استرخت الأعصاب ، ورثت الأطناب ، ورقت الاوتار ، وتداعى بناء الأمة الى الانحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية الى الفناء ، بعد هذا يموت الروح الكلي ، وتبطل هيئة الأمة وان بقيت آحادها ، فما هي الا كالأجزاء المتناثرة ، إما أن تتصل بأبدان أخرى بحكم ضرورة الكون ، وإما أن تبقى في قبضة الموت إلى أن ينفخ فيها روح النشأة الأخرى (سنة الله في خلقه) إذا ضعفت العصبية في قوم رمام الله بالفشل ، وغفل بعضهم عن بعض ، وأعقب الغفلة تقطع في الروابط ، وتبعه تقاطع وتدابر ، فيتسع للأجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم ، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بأفاضة روح التعصب في نشأة ثانية

نعم إن التعصب وصف كسائر الأوصاف ، له حد اعتدال ، وطرفا إفراط وتفریط ، واعتداله هو الكمال الذي يدينا مزاياء ، والتفریط فيه هو النقص الذي أشرنا لرزايا ، والافراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء . فالمفرط في تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة ، وينظر الى الأجنبي عنه كما ينظر الى الهمل ، لا يعترف له بحق ، ولا يراعي له ذمة ، فيخرج بذلك عن جادة العدل ، فتقلب منفعة التعصب الى مضرة ويذهب بها الألة ، بل يتقوض مجدها ، فإن العدل قوام الاجتماع الانساني ، وبه حياة الأمم . وكل قوة لا تخضع للعدل فصريرها الى الزوال .

وهذا الحد من الافراط في التعصب هو المقتوت على لسان صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في قوله « ليس منا من دعا إلى عصبية »

التعصب كما يطلق ويراد به النعرة على الجنس ، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد ، كذلك توسع أهل العرف فيه ، فأطلقوه على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً ، وانتطعون من مقلدة الافرنج يخلصون هذا النوع منه بالملت ، ويرمونه بالتعس ، ولا نخال مذهبه هذا مذهب العقل . فان لمة يصير بها المتفرقون الى وحدة ، تندفع عنها قوة لدفع الغائلات ، وكسب الكمالات ، لا يختلف شأنها اذا كان مرجعها الدين أو النسب . وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطين في أقوام مختلفة من البشر ، وعن كل منها صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الانساني ، وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ، ومعاوته على حاجات معيشته ، وبين ما يصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب . فتعصب المشتركين في الدين المتوافقين في أصول العقائد بعضهم لبعض ، اذا وقف عند الاعتدال ، ولم يدفع الى جور في المعاملة ، ولا انتهاك لحرمات المخالف لهم أو تقص لدمته ، فهو فضيلة من أجل الفضائل الانسانية ، وأوفرها نفعا وأجزلها فائدة ، بل هو أقدس رابطة وأعلاها ، اذا استحسنت صعدت بذوي المكنة فيها الى أوج السيادة وذروة المجد ، خصوصاً ان كانوا من قبيل قوي فيهم سلطان الدين ، واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها على الزوال كما في أهل الديانة الاسلامية . ولا يؤخذ علينا في القول بأنه من أقدس الروابط . فانه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة ، ويصل ما بينهم في المقاصد والعزائم والأعمال ، كذلك يحوثر المناظرة والمناظرة بين القبائل والعشائر ، بل الأجناس المتخالفة في المذات واللغات والعادات ، بل المتباعدة في الصور والأشكال ، ويحول أهواها المتضاربة الى قصد واحد ، وهو تأصيل المجد ، وتأيد الشرف ، وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم — هذا الاثر الجليل عهد لقوة التعصب الديني ، وشهد عليه التاريخ بعد ما أرشد

اليه العقل الصحيح . وما كانت رابطة الجنس لتتوى على شيء منه .
 تفتع جماعة من متزندقة هذه الأوقات في بيان مفاسد التعصب الديني .
 وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به اخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع
 ما يلهم بدنيهم من غاشية الوهن والضعف ، هو الذي يصدح عن السير الى كمال
 المدنية . ومحجهم عن نور العلم والمعرفة ، ويرمي بهم في ظلمات الجهل ، ومحملهم
 على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم . ومن رأي أولئك
 المثقفين أن لاسبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح الا بالحلل العصبية الدينية
 ومحو أثرها ، وتخليص العقول من سلطة العقائد . وكثيراً ما يرجفون بأهل
 الدين الاسلامي ، ويخوضون في نسبة مذام التعصب اليهم

كذب الخراصون، إن الدين أول معلم وأرشد أستاذ وأهدى قائد للأفئس
 الى اكتساب العلوم والتوسع في المعارف ، وأرحم مؤدب وأبهر مروض يطبع
 الارواح على الآداب الحسنة والخلائق الكريمة ، وقيمها على جادة العدل ،
 وينبه فيها حاسة الشفقة والرحمة ، خصوصاً دين الاسلام . فهو الذي رفع أمة كانت
 من أعرق الأمم في التوحش والقسوة والخشونة ، وسما بها الى أرق مراقي الحكمة
 والمدنية في أقرب مدة ، وهي الامة العربية

قد يطرأ على التعصب الديني من التفاخي والافراط مثل ما يعرض على
 التعصب الجنسي فيفضي الى ظلم وجور ، بل ربما يؤدي الى قيام أهل الدين
 لآبادة مخالفينهم ومحو وجودهم ، وكما قامت الامم الغربية اندفعت على بلاد الشرق
 لمحض الفتك والابادة لا للفتح ولا للدعوة الى الدين في الحرب الماثلة المعروفة
 بحرب الصليب ، وكما فعل الاسبانيوليون بمسلمي الاندلس ، وكما وقع قبل هذا
 وذلك في بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحي ، إن صاحب السلطان من
 المسيحيين جمع اليهود في القدس وأحرقهم ، إلا أن هذا العارض لمخالفته لأصول
 الدين قلما يمتد له مدة ، ثم يرجع أبواب الدين الى أصوله القائمة على قواعد
 السلم والرحمة والعدل .

أما أهل الدين الاسلامي فمنهم طوائف شطت في تعصبها في الاجيال

الماضية إلا أنه لم يصل بهم الافراط الى حد يقصدون فيه الابادة واخلاء الارض من مخالفينهم في دينهم ، وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنا الدليل الاقوم على ما نقول ، وهو وجود الملل المختلفة في ديارهم الى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم في عنفوان القوة وهي في وهن الضعف . نعم كان المسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم ، إلا أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الاديان ، ويرعون حق الذمة ، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه ويدفعون عنه غائلة العدوان . ومن العتائد الراسخة في نفوسهم (أن من رضي بذمتنا فله مالنا وعليه ما علينا) ولم يعدلوا في معاملتهم لغيرهم عن أمر الله في قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين) اللهم إلا مالا تخلو عنه الطباع البشرية .

ومن نشأة المسلمين الى اليوم لم يدفعوا أحداً من مخالفينهم عن التقدم الى ما يستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة ، ولقد سما في دول المسلمين على اختلافها الى المراتب العالية كثير من أرباب الاديان المختلفة . وكان ذلك في شيببتها وكمال قوتها ، ولم يزل الأمر على ما كان . وفي الظن أن الأمم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل الى اليوم (فسحقاً لقوم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفينهم من حقوقهم)

لم يسلك المسلمون من عهد قوتهم ممالك الا لزام بدينهم والاجبار على قبوله مع شدة بأسهم في بدايات دولهم وتغافلهم في افتتاح الاقطار ، واندفاع مهمهم للسلطة في الملك والسلطة ، وإنما كانت لهم دعوة يباغونها ، فإن قبلت . إلا استبدلوا بها رسماً مالياً يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الاسلامي . هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين أيام شوكتهم الاولى ، فانهم ما كانوا يطأون أرضاً إلا ويلزمون أهلها بجمع أديانهم ، والتطوق بدين أولئك المسلمين وهو الدين المسيحي كما فعلوا في مصر وسورية ، بل وفي البلاد الافرنجية نفسها .

هذا فصل من الكلام ساق اليه البيان وفيه تبصرة لمن يتبصر ، وتذكرة لمن يتذكر ، ثم أعود بك الى سابق الحديث فيما كنا بصدده — هل لعقل لم يصب برزينة في عقله أن يعد الاعتدال من التعصب الديني تقيصة . وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي إلا بما يكون به التعصب الديني أقدر وأظهر وأعم فائدة . لانخال عقلا يرتاب في صحة ما نقررناه ، فما لأولئك القوم يهذرون بما لا يدرون ؟ أي أصل من أصول العقل يستندون اليه في المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط ، واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل ، ويعبرون عنه بمحبة الوطن ؟ وأي قاعدة من قواعد العمران البشري يعتمدون عليها في التهاون بالتعصب الديني المعتدل وحسبانه تقيصة يجب الترفع عنها ؟

نعم إن الافرنج تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين إنما هي الرابطة الدينية ، وأدركوا أن قوتهم لا تكون إلا بالعصبية الاعتقادية . ولأولئك الافرنج مطامع في ديار المسلمين وأوطانهم ، فتوجهت عنايتهم الى بث هذه الافكار الساقطة بين أرباب الديانة الاسلامية ، وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة ونصم جبالها ، لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً ، فانهم علموا كما علمنا ، وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم وتسنى للمفسدين نجاح في بعض الاقطار الاسلامية ، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلاً وتقليداً فساعدوا على التنفير من العصبية الدينية بعدما تقدموها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) التي يباليون في تعظيمها واحترامها حقاً منهم وسفاهة ، فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهوى لنفسه مسكناً سواء فاضطر للاقامة بالعراء معرضاً لقواصل الجو وما تصول به على حياته

من هذا ماسلك الانكاي في الهند لما أحسوا بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم لقرب عهدهما بهم وفي دينهم ما يعشهم على الحركة الى استرداد ماسلب منهم ، وأرشدوا البحث في طبائع الملل الى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية . وما دام الاعتقاد المحمدي والعصبة المليية سائدة فيهم فلا تؤمن بعقائدهم الى طلب حقوقهم فاستهوا طائفة ممن يتسمون بسمه الاسلام ،

ويلبسون لباس المسلمين ، وفي صدورهم غل وفاق ، وفي قلوبهم زيغ وزندقة ، وهم المعروفون في البلاد الهندية بالنيجربة أي الدهريين فاتخذهم الانكايز أعواناً لهم على افساد عقائد المسلمين ، وتوهين علائق التعصب الديني ليطفئوا بذلك نار حيتهم ويخمدوا نائرة غيرتهم ، وينددوا بجمعهم ، ويمزقوا شملهم ، وساعدوا تلك الطائفة على انشاء مدرسة كبيرة في (عليكر) ونشر جريدة لبث هذه الاباطيل بين الهنديين حتى يعم الضعف في العقائد ، وترث أطاب الصلات بين المسلمين فيستريح الانكايز في التسلط عليهم ، وتطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمانت من جهة غيرهم ، وغر أولئك الغفل المتزندان أن رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية ، ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسة — تعس من يبيع ملته بلقمة — وذمته برذال العيش (١)

هذا أسلوب من السياسة الاوربية أجادت الدول اختباره ، وجنت ثماره ، فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم ، فكثير من تلك الدول نصبت الجبال في البلاد العثمانية والمصرية وغيرهما من الممالك الاسلامية ، ولم تعد صيداً من الامراء والمنتسبين الى العلم والمدينة الجديدة ، واستعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم ، وليس عجيبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام أن يميلوا مع هذه الاهواء الباطلة ولكننا نعجب من أن بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في إيمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني ، ويهجرون في رمي المتعصبين بالخشونة ، والبعد عن معدات المدينة الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ، ويفسدون شأنهم ، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المارقين . يطلبون محو التعصب المعتدل ، وفي محوه محو الملة ودفعها الى أيدي الاجانب يستعبدونها مادامت الارض أرضاً والسماء سماء . والله ما عجيبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من (١) كان السيد جمال الدين الذي أملى هذا الكلام على الاستاذ الحرر « رحمهما الله » سيي الظن بمدرسة عليكرة ومؤسستها ولا شك في الانكايز كانوا يساعدونها لما ذلوه ولكنها كانت لعمرة على المسلمين وتخرج كثير من كبار الوطنيين الصادقين

العجب لأحوال الغريين من الانتم الافرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الافكار بين الشرقيين ، ولا ينجعلون من تبشيع التعصب الديني ورمي المتعصبين بالخشونة ، الافرنج أشد الناس في هذا النوع من التعصب وأحرصهم على اقيام بدواعيه . ومن القواعد الاساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ، واذا عدت عادية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشري على واحد من على دينهم ومذهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صياحاً وعويلاً، وهيئات ونبآت تتلاقى أمواجهها في جوبلاد المدينة الغربية وينادي جميعهم : ألا قد أملت ملعة، وحدثت حادثة مهمة، فأجمعوا الأمر وخذوا الالهة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها، حتى لاتتخذش الجامعة الدينية، وترام على اختلافهم في الاجناس ، وتباغضهم وتحادهم وتنازحهم في السياسات، وترقب كل دولة منهم لعثرة الاخرى حتى توقع بها السوء، يتقاربون ويتآلفون ويتحدون في توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم في الدين وإن كان في أقصى قاصية من الارض ، ولو تقطعت بينه وبينهم الانساب الجنسية . أما لو فاض طوفان الفتن وطم وجه الارض وغمر وجه البسيطة من دماء المخالفين لهم في الدين والمذهب ، فلا ينبض فيهم عرق ، ولا يتنبه لهم احساس ، بل يتغافلون عنه ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية من حده ، ويذهلون عما أودع في الفطر البشرية من الشفقة الانسانية والمرحة الطبيعية ، كلما يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائقة والهمل الراعية . وليسوا من نوع الانسان الذي يزعم الأوريون أنهم حماة وأنصاره . وليس هذا خاصاً بالمثنين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني، ولا يألون جهداً في تقوية عصيتهم وليتهم يقفون عند الحق ، ولكن كثيراً ماتجاوزوه . أما ان شأن الافرنج في تمسكهم بالعصية الدينية لغريب .

يبلغ الرجل منهم أعلى درجة في الحرية كغلاستون وأضرابه ، ثم لاتجد كلمة تصدر عنه إلا وفيها نفثة من روح بطرس الراهب (١) بل لاترى روحه إلا

(١) هو داعية الحرب الصليبية وموقد نارها

نسخة من روحه (انظر الى كتب غلادستون وخطبه السابقة)
 فيأيتها الامة المرحومة هذه حياتكم فاحفظوها ، ودمائكم فلا تريقوها ،
 وأرواحكم فلا نزهقوها ، وسعادتكم فلا تبيعوها بضمن دون الموت . هذه هي
 روابطكم الدينية لا تفرنكم الوسوس ، ولا تستهوينكم الترهات ، ولا تدهشكم
 زخارف الباطل ، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بجبال الرابطة
 الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها التركي بالعربي ، والفارسي بالهندي ،
 والمصري بالمغربي ، وقامت لهم مقام الرابطة الانسية ، حتى إن الرجل منهم ليألم لما
 يصيب أخاه من عاديات الدهر وإن تناءت دياره ، وتقاصت أقطاره

هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله اليكم ، وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم
 وسيادتكم ، فلا توهنها ، ولكن عليكم في رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل ،
 فالعدل أساس الكون وبه قوامه ، ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم ، وعليكم
 أن تتقوا الله وتلزموا أوامره في حفظ الذمم ومعرفة الحقوق لاربابها ، وحسن
 المعاملة وإحكام الالفة في المنافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطانكم وجيرانكم من
 أرباب الاديان المختلفة ، فان مصالحكم لا تقوم إلا بمصالحهم كما لا تقوم مصالحهم
 إلا بمصالحكم ، وعليكم أن لا تجعلوا عصبية الدين وسيلة للعدوان ، وذريعة لانتهاك
 الحقوق ، فان دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه بأشد العقاب . هذا ولا
 تجعلوا عصبيتكم قاصرة على مجرد ميل بعضكم لبعض ، بل تضافروا بها على
 مباراة الأمم في القوة والمنعة والشوكة والسلطان ، ومنافستهم في اكتساب العلوم
 النافعة والفضائل والكمالات الانسانية . اجعلوا عصبيتكم سبيلا لتوحيد كائنتكم
 واجتماع شملكم ، وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص الى ذروة
 الكمال (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان)

المقالة السابعة

الفناء والفرار *

مضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطاناً على الاعمال البدنية، فما يكون في الاعمال من صلاح أو فساد، فانما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على ماينما في بعض الاعداد الماضية، ورب عقيدة واحدة تأخذ باطراف الافكار فيتبعها عقائد ومدرجات أخرى، ثم تظهر على البدن باعمال تلائم أثرها في النفس ورب أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال اذا عرضت على الانفس في تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع فتلبس عليه بما ليس من قبيلها أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه، وفي كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها، وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم، أو على خبث الاستعداد، فتنشأ عنها أعمال غير صالحة، وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد، ولا كيف يصرفه اعتقاده، والمنعور بالظواهر يظن أن تلك الاعمال انما نشأت عن الاعتماد بذلك الاصل وتلك القاعدة. ومن مثل هذا الانحراف في الفهم وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الاديان غالباً، بل هو علة البدع في كل دين على الاغلب. وكثيراً ماكان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الاعمال، حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به الى الهلاك وبئس المصير. وهذا ما يحمل بعض من لاختبره لهم على الطعن في دين من الاديان، أو عقيدة من العقائد الحققة، استناداً الى أعمال بعض السذج المنتسبين الى الدين أو العقيدة.

من ذلك عقيدة القضاء والقدر التي تعد من أصول العتائد في الديانة

«١» نشرت في العدد السابع من جريدة العروة الوثقى بتاريخ ٤ رجب سنة

١٣٠١ أول مايو سنة ١٨٨٤

الاسلامية الحقة . كثر فيها لفظ المغفلين من الافرنج وظنوا بها الخانون ، وزعموا أنها ما عكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف والضعفة ، ورموا المسلمين بصفات ونسبوا اليهم أطواراً ، ثم حصروا علتها في الاعتقاد بالقدر فقالوا: أن المسلمين في فقر وفاقة وتأخر في اقوى الحربية والسياسية عن سائر الأمم ، وقد فشا فيهم فساد الاخلاق فكثرت الكذب والنفاق والحياة والتحاقد والتباغض ، وتفرقت كلمتهم وجعلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلية ، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم ، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة ، ولكن متى أمكن لاحدهم أن يضر أخاه لا يقصر في إلحاق الضرر به ، فجعلوا بأسهم بينهم والأثم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى ، رضوا بكل عارض ، واستعدوا لقبول كل حادث ، وركنوا الى السكون في كسور بيوتهم ، يسرحون في مرعاهم ، ثم يعودون الى مأواهم ، الامراء فيهم يقطعون أزمته في اللهو واللعب ومعاينة الشهوات ، وعليهم فروض وواجبات تستغرق في أدائها أعمارهم ولا يؤدون منها شيئاً . يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم اسرافاً وتبذيراً . نفقاتهم واسعة ، ولكن لا يدخل في حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة ، يتخاذلون ويتنافرون ، وينوطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية ، قرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة . كل منهما يخذل صاحبه ، ويستعدي عليه جاره ، فيجد الاجنبي فيها قوة فانية وضعة فائتلا ، فينال من بلادها مالا يكافئه عدداً ولا عدة . شملهم الخوف وعمهم الجبن والخور ، يفرعون من الهمس ، ويألمون من اللمس . قعدوا عن الحركة ، الى ما يلدحتون به الأثم في العزة والشوكة ، وخالفوا في ذلك أوامر دينهم ، مع رؤيتهم لجيرانهم بل الذين تحت سلطتهم يتقدمون عليهم ويباهونهم بما يكسبون ، واذا أصاب قوماً من اخوانهم مصيبة أو عدت عليهم عادية لا يسعون في تخفيف مصابهم ، ولا ينبعثون لمناصرتهم ، ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لاجبرية ولا سرية ، يكون من مقاصدها إحياء الغيرة ، وتنبيه الحمية ، ومساعدة الضعفاء ، وحفظ الحق من بني الاقوياء وتسليط الغرباء .

هكذا نسبوا الى المسلمين هذه الصفات وتلك الاطوار ، وزعموا أن لاننشأها

إلا اعتقادهم بالقضاء والتقدير ، وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الالهية ، وحكموا بأن المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ، ولن ينالوا عزاً ولن يعيدوا مجداً ، ولا يأخذون بحق ، ولا يدفعون تعدياً ، ولا ينهضون بتقوية سلطان أو تأييد ملك ، ولا يزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم ، ويركس من طباعهم ، حتى يؤدي بهم الى الفناء والزوال (والحياء بالله) يفتي بعضهم بعضاً بالمنازعات الخاصة ، وما يسلم من أيدي بعضهم يحصده الاجانب .

واعتمد أولئك الافرنج انه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والتقدير وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين : بأن الانسان مجبور محض في جميع أفعاله . وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقابلها الرياح كيفما تميل . ومتي رسخ في نفوس قوم أنه لا اختيار لهم في قول ولا عمل ، ولا حركة ولا سكون ، وإنما جميع ذلك بقوة جابرة ، وقدرة قاسرة ، فلا ريب تتعطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى ، وتمحى من خواطرم داعية السعي والكسب . وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم .

هكذا ظنت طائفة من الافرنج ، وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول في المشرق . ولست أخشى أن أقول : كذب الظان ، وأخطأ الواهم ، ريطل الزاعم ، واقترروا على الله والمسلمين كذباً — لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني وشيعي وإسماعيلي (١) وزيدي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة ، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءاً اختيارياً في أعمالهم ، ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر والآهية ، والنواهي الربانية ،

« ١ » عد الاسماعيلية من المسلمين سبق فلم يظهر وعد الوهابية فرقة تقابل باهل السنة جرى على المشهور عند العامة والذي عرفناه من الاستاذ أنه بعد الوهابيين سلفيين ودعاة لإصلاح في الاسلام

الداعية الى كل خير ، الهادية الى كل فلاح ، وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكاليف الشرعي ، وبه تتم الحكمة والعدل .
نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت إلى أن الانسان مضطر في جميع أفعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار ، وزعمت أن لا فرق بين أن يتحرك الشخص فكه للأكل والمضغ ، وبين أن يتحرك بقفقة البرد عند شدته . ومذهب هذه الطائفة بعده المسلمون من منازع السفطة الفاسدة . وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ، ولم يبق لهم أثر . وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع ، بل ترشد اليه الفطرة ، وسهل على من له فكر أن يلتفت إلى أن كل حادث له سبب يقارنه في الزمان ، وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه ، ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها ، وأن لكل منها مدخلا ظاهراً فيما بعده بتقدير العزيز العليم . وإرادة الانسان إنما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة ، وليست الإرادة إلا آثراً من آثار الإدراك ، والإدراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس ، وشعورها بما أودع في الفطرة من الحاجات ، فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والإرادة مالا ينكره أبه ، فضلاً عن عاقل . وأن مبدأ هذه الأسباب التي ترى في الظاهر مؤثرة إنما هو بيد مديبر الكون الأعظم الذي أبدع الأشياء على وفق حكمته ، وجعل كل حادث تابعاً لشبهه كأنه جزء له ، خصوصاً في العالم الانساني

ولو فرضنا أن جاهلاً ضلّ عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم ، فليس في إمكانه أن يتخلص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية في الارادات البشرية ، فهل يستطيع إنسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنّة التي سنّها الله في خلقه ؟ هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلاً عن الواصلين — وإن بعضاً من حكماء الافرنج وعلماء سياستهم التجؤا إلى الخضوع لسلطة القضاء ، وأطالوا البيان في إثباتها . ولسنا في حاجة الى الاستشهاد بأرائهم

إن للتاريخ علماً فوق الرواية غني بالبحث فيه العلماء من كل أمة ، وهو العلم الباحث عن سير الأمم في صعودها وهبوطها ، وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها ، وما ينشأ عنها من التغير والتبديل في العادات والأخلاق والأفكار ، بل في خصائص الاحساس الباطن والوجدان ، وما يتبع ذلك كله من نشأة الأمم ، وتكون الدول ، أو فناء بعضها وانداس أثره

هذا الفن الذي عدّوه من أجل الفنون الأدبية وأجزلها فائدة بناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر ، والاذعان بأن قوى البشر في قبضة مدبر الكائنات ، ومصرف للحادثات . ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ، ولا ضعف قوي ، ولا انهدم مجد ، ولا تقوض سلطان

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة . ويبعث على اقتحام المهالك التي توجف لها قلوب الاسود ، وتنشق منها مرائر النمر . هذا الاعتقاد يطبع النفس على الثبات ، واحتمال المسكاره ، ومقارعة الأهوال ، ويحليها بحلي الجود والسخاء . ويدعوها الى الخروج من كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح ، والتخلي عن نضرة الحياة . كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذي يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء . كيف يهرب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ، وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشيد المجد ، على حسب الأوامر والآية ، وأصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق (الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم) اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم الى الممالك

والأقطار يفتحونها ، ويتسلطون عليها ، فأدهشوا العقول وحيروا الألباب بما
دوخوا الدول وقهروا الأثم . وامتدت سلطتهم من جبال بيرني الفاصلة بين
أسبانيا وفرنسا الى جدار الصين ، مع قلة عددهم وعددهم ، وعدم اعتيادهم على
الأهوية المختلفة ، وطبائع الأقطار المتنوعة ، أرغموا الملوك ، وأذلوا القياصرة
والأكسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة . ان هذا يعد من خوارق العادات
وعظائم المعجزات .

دمروا بلاداً ، ودكدكوا أطواداً ، ورفعوا فوق الأرض أرضاً ثانية من
القسطل ، وطبقة أخرى من النقع ، وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم ،
وأقاموا بدلها جبالاً وتلالاً من رؤوس النابذيين لسلطانهم ، وأرجفوا كل قلب ،
وأرعدوا كل فريضة وما كان قائدهم وسائقهم الى جميع هذا الاعتقاد بالقضاء . واقدر
هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام
جيوش يغص بها القضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء ، فكشفوهم عن مواقعهم ،
وردوهم على أعقابهم

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق ، وانقضت شهبها على الخياري في
هبوات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع
ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم ، لا يخشون فقراً ولا يخافون فاقة .
هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في
حجورهم الى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم ، كأنما يسرون الى الحدائق
والرياض ، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أماناً من كل غادرة ،
وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة ، وكان نساؤهم
وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم ، وخدمتها فيما تحتاج اليه ، لا يترق النساء
والأولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح ، ولا تأخذ النساء رهبة ، ولا
تغشى الأولاد مهابة

هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب
ويبدد أفلاذ الكباد ، حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب أعدائهم

فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم ، بل قبل أن تصل الى تخومهم أطراف جحافلهم

(بكائي على السالفين ونحيبي على السابقين ، أين أنتم يا عصابة الرحمة وأولياء الشفقة أين أنتم يا أعلام المروءة ، وشوامخ القوة ؟ أين أنتم يا آل النجدة ، وغوث المضيض يوم الشدة ؟ أين أنتم يا خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ؟ أين أنتم أيها الامجاد الانجاد القوامون بالقسط ، الآخذون بالعدل ، الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الامة ؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ، ومن ينتحل نحلثكم !! انصرفوا عن سنتكم ، وجاروا عن طريقكم ، فضلوا عن سبيلكم ، وتفرقوا فرقا وأشياء ، حتى أصبحوا من الضعف على حال تدوب لها القلوب أسفاً ، وتحترق الأكباد حزناً ، أضحوا فريسة للامم الاجنبية لا يستطيعون ذوداً عن حوضهم ، ولا دفاعاً عن حوزتهم ، ألا يصيح من برازكم صائح منكم ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدي الضال الى سواء السبيل ؟ (انا لله وانا اليه راجعون)

أقول وربما لأخشى وإهما ينازعني فيما أقول : إنه من بداية تاريخ الاجتماع البشري الى اليوم ما وجد فاتح عظيم ، ولا محارب شهير ، نبت في أوسط الطبقات ، ثم رقي بهمته في أعلى الدرجات ، فذلت له الصعاب ، وخضعت الرقاب ، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو الى العجب ، ويبعث الفكر لطلب السبب ، إلا كان معتقداً بالقضاء والقدر . سبحان الله !! الانسان حريص على حياته ، شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجليلة ، فما الذي يهون عليه اقتحام المخاطر وخوض المهالك ومصارعة المنايا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر ؟ وركون قلبه إلى أن المقدر كائن ، ولا أثر لهول المظاهر ؟

أثبتت لنا التواريخ أن كورش الفارسي (كيخسرو) وهو أول فاتح يعرف في تاريخ الأقدمين ما تسنى له الظفر في فتوحاته الواسعة ، إلا لأنه كان معتقداً بالقضاء والقدر ، فكان لهذا الاعتقاد لايهوله هول ، ولا توهن عزيمته شدة . وأن الاسكندر الاكبر اليوناني كان ممن رسخ في نفوسهم هذه العقيدة الجليلة .

وجنكيز خان التتري صاحب الفتوحات المشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد، بل كان نابليون الأول بونابرت الفرنسي من أشد الناس تمسكا بعقيدة القضاء، وهي التي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة، فيتبيأ له الظفر، وينال بغيته من النصر.

فنعمة الاعتقاد الذي يطهر النفوس الانسانية من رذيلة الجبن وهو أول عائق للمتدس به عن بلوغ كماله في طبقته أيا كانت. نعم اننا لانكر أن هذه العقيدة قد خالطها في نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر. وربما كان هذا سبباً في رزيتهم ببعض المصائب التي أخذتهم بها في الأعصر الأخيرة. ورجاؤنا في الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع، ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون وينشروا بينهم ما أثبتته أئمتنا رضي الله عنهم كالشيخ الغزالي وأمثاله من أن التوكل والركون إلى القضاء إنما طلبه الشرع منافي العمل، لافي البطالة والكسل وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا ونبتذ ما أوجب علينا بحجة التوكل عليه، فتلك حجة المارقين عن الدين، الخائدين عن الصراط المستقيم، ولا يرتاب أحد من أهل الدين الاسلامي في أن الدفاع عن الملة في هذه الأوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف، وليس بين المسلمين وبين الالتفات الى عقائدهم الحقبة التي تجمع كلمتهم، وترد اليهم عزيمتهم، وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الأول، إلا دعوة خير من علمائهم، وإن جميع ذلك موكل إلى ذمتهم.

وأما ما زعموه في المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيدة (ولا غيرها من العقائد الاسلامية) ونسبته اليها كنسبة النقيض إلى تقيضه بل أشبه ما يكون بنسبة الحرارة إلى الثلج والبرودة إلى النار.

نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر، وتعل من العز والغلب وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان، صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتر من جنكيز خان وأحفاده، وصدمة من جهة الغرب وهي زحف الأثم الأوربية بأسرها على ديارهم، وإن الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي، وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة، وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة، ووسد الامر فيهم الى غير

أهلُه، وولي على أمورهم من لا يحسن سياستها، فكان حكمهم وأمرؤهم من جرائم الفساد في أخلاقهم وطباعهم، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم، فتمكن الضعف من نفوسهم وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التي لا تتجاوز لذته الآنية، وأخذ كل منهم بناصية الآخر، يطلب لها الضرر ويلتمس له السوء من كل باب، لا لالة صحيحة ولا داع قوي وجعلوا هذائمة الحياة، قال الأمر بهم إلى الضعف والتقنوط وأدى إلى ماصاروا إليه .

ولكنني أقول - وحق ما أقول - إن هذه الملة لن تموت مادامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم، ورسومها تلوح في أذهانهم، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم، وكل ما عرض عليهم من الأمراض النفسية والاعتلال العقلي فلا بد أن تدفعه قوة العقائد الحقة، ويعود الأمر كما بدا وينشطوا من عقالمهم، ويذهبوا مذاهب الحكمة والتبصر في انتقاد بلادهم، وارهاب الأمم الطامعة فيهم، وإيقافها عند حدها، وما ذلك ببعيد، والحوادث التاريخية تؤيده، فانظر إلى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك العدميات القوية (حروب التترو والحروب الصليبية) وساقوا الجيوش إلى أرجاء العالم، واتسعت لهم ميادين الفتوحات، ودوخوا البلاد، وأرغموا آتوف الملوك، ودانت لسلطانهم الدول الإفريقية، حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول بالسلطان الأكبر

ثم أرجع البصر تجد هزة في نفوسهم، وحركة في طباعهم، أحدثها فيهم ما توقعدهم به الحوادث الأخيرة من ردائة العاقبة وسوء المنقلب. حركة سرت في أفكار ذوي البصيرة منهم في أغلب الإنحاء شرقاً وغرباً، وتألفت من خيارهم عصبات للحق كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع، والسعي بغاية الجهد لبث أفكارها، وجمع الكلمة المقتربة، وضم الاشتات المتبددة، وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية، لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتثقل اليهم يحسن ما يضره الأجانب لهم، وأنا نرى عدد الجمعية الصالحة يزداد يوماً بعد يوم، قال الله تعالى نجاح أعمالها، وتأيد مقصدها الحق، ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً .

المقالة الثامنة

الفضائل والذائل وأثرهما *

(وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)

قالوا للإنسان كمال مفروض عليه أن يسعى إليه ، وقالوا أنه عرضة لنقص
يجب عليه الترفع عنه ، وقالوا كماله في استيفاء ما يمكن من الفضائل ، ونقصه في التلوث
برذيلة من الرذائل ، فإما هي الفضائل وما هي الرذائل ؟ الفضائل سجايا للنفس من
مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها ، كالسخاء والعفة والحياء ونحوها ،
فالسخيان لا يتشاحان ولا يتنازعان في التعامل ، فإن من سجية كل منهما البذل في
الحق ، والمنع إذا اقتضاه الحق ، فكل يعرف حده فيقف عنده ، فلا يوجد موضوع
للنزاع عند معاونة الأعمال المالية . والاعفاء لا يتزاحمون على مشتهى من المشتهيات ،
فإن من خلق كل منهم التجاني عن الشهوة ، وفي طبيعته الايثار بالرغائب ، وهكذا
إذا استقرت جميع ماعده علماء التهذيب من الصفات الفاضلة تجد أن من لوازم
كل فضيلة منها التأليف بين المتصفين بها في متعلق الأثر النائي ، عن تلك الفضيلة ،
فاذا اجتمعت الفضائل أو غلبت في شخصين مالت نفوسهما إلى الاتحاد والالتئام
في جميع الأعمال والمقاصد أو جلبها ، ودامت الوحدة بينهما بمقدار رسوخ الفضيلة فيهما
وعلى هذا النحو يكون الأمر في الأشخاص الكثيرة ، فالفضائل هي مناط الوحدة
بين الهيئة الاجتماعية ، وعروة الاتحاد بين الأفراد ، تميل بكل منهما إلى الآخر ،
وتجذب الآخر إلى من يشاكله ، حتى يكون الجمهور من الناس كواحد منهم ، يتحرك
بارادة واحدة ، ويطلب في حركته غاية واحدة

مجموع الفضائل هو العدل في جميع الأعمال ، فإذا شمل طائفة من نوع الإنسان

* نشرت في العدد الثامن من جريدة العروة الوثقى في ١٨ رجب سنة ١٣٠١

١٥ مايو سنة ١٨٨٤

وقف بكل من آحادها عند حده في عمله ، لا يتجاوزه بما يمس حقاً للآخر فيه
يكون التكافؤ والتوازن

لكل شخص من أفراد الانسان وجود خاص به ، وأودعت فيه العناية
الآسية من القوى ما به يحفظ وجوده ، وما به التناسل لبقاء النوع ، وهو في
هذا يساوي سائر أفراد الحيوان ، لكن قضت حكمة الله أن يكون الانسان
ممتازاً عن بقية الانواع الحيوانية بكون آخر ، ووجود أرقى وأعلى ، وهو كون
الاجتماع ، حتى يتألف من أفراد الكثرة بنية واحدة يعمرها اسم واحد ، والأفراد
فيها كأعضاء تختلف في الوظائف والأشكال ، وإنما كل يؤدي عمله لبقاء البنية
الجامعة وتقويتها وتوفير حظها من الوجود ليعود اليه نصيب من عملها الكلي ،
مما أودع الله في أعضاء أبداننا وبنيتنا الشخصية . والفضائل في المجتمع الانساني
كقوة الحياة المستكملة في كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عند حد
وظيفته كاليد بها البطش والتناول ، وليس من خصائصها الابصار ، والعين بها
الابصار وتميز الأشكال والألوان ، وليس من وظائفها البطش ، والكل حي
بحياة واحدة ، وإن شئت قلت الفضائل في عالم الانسان كالجذبة العامة في العالم
الكبير ، فكما أن الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات ، وبالتوازن
في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه ، وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب
الآخر وانتظم بها سيره في مداره الخاص بتقدير العزيز العليم ، حتى تمت
حكمة الله في وجود الأكوان وبقائها . كذلك شأن الفضائل في الاجتماع
الانساني ، بها يحفظ الله الوجود الشخصي إلى الأجل المحدود ، ويثبت البقاء
النوعي إلى أن يأتي أمر الله

أي أمة يكون الواضع فيها والرافع ، والممارس والوازع ، والجالب الدافع ،
وجميع من يدبر أمورها ، ويسوسها في شؤونها ، إنما هم أفراد منها من هلماتها أو
من لهازمها (من الأعلياء أو الأواسط ، بل سائر الأطراف) ويكون كل واحد
منها قائماً بحق الكل ، ولا يختار مقصداً يعكس مقصد الكل ، ولا يسعى إلى
غاية تميل به عن غاية الكل ، ولا يهمل عملاً يتعاق بالآمة ، حتى يكون الجميع

كالبنیان المتین لاتزعزعه العواصف ، ولا تدكه الزلازل ، وبقوة كل منهم يجتمع للأمة قوة تحفظ بها موقعها ، وتدفع بها عن شرفها ومجدها ، وترد غارة الاغيار عليها ، فهي الأمة التي سادت فيها الفضائل ، واستعلت فيها مكارم الاخلاق
 إن أمة هذا شأنها لا يتخالف أفرادها إلا للتآلف ، ولا يتغايرون إلا للاتحاد ، فمثلهم في اختلاف أعمالهم كمثل المتدابرین على محیط دائرة يتفارقان في مبدأ السير ایتلاقيا على نقطة من المحيط ، ومثلهم في تغاير ما أخذهم لجلب منافعهم كجاذبي طرف خیطة واحدة (جبل واحد) كل أخذ بطرف مع تعادل القوتين ، فنی جذب أحدهما لصاحبه إبعاد لنفسه عنه من وجه ، وحفظ لمكان قربه منه من وجه آخر ، فلا یفترقان ولا یتباينان ، ولا تفنى منفعة أحدهما في منفعة الآخر . أما ان مسائلک الأفراد من مثل هذه الأمة بما منحوه من الارتباط بينهم كانصاف دائرة مركزها حياة الأمة وعظمتها ، ولا یخرج ولا واحد منهم عن محیط الجنسية ، وأنهم في جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجداول تمد البحر لتستمد منه

یرى كل واحد منهم أن ماتبتهج به النفوس البشرية ، وتمتاز باللیل اليه عن سائر الحيوانات من رفعة المکانة والغلب وبسط الجاه ونفاذ الکامة ، إنما یمكن نیله إذا توفر للأمة حظها من هذه المزايا ، فیسعی جهده لا بلاغ كل واحد من الأمة أقصى ما یؤمله استعدادا لیاخذ بسهم مما یناله ، فلا یهمل ولا یخون في الدفاع عن فرد من أفرادها ، فضلا عن هیئتها العامة ، وإلا فقد خان نفسه ، لأنه أبطل آلة من آلات عمله ، وقطع سببا من أسباب غايته ، ولا یحتقر واحداً من الآحاد ، ولا یزدري بعمله ، وبحسب الشخص من الأمة وإن کان صغيراً بمنزلة مسمار صغير في آلة كبيرة لو سقط منها تعطلت الآلة بسقوطه

عليک أن تنظر في حقائق هذه الصفات الفاضلة لتحکم بما ینشأ عنها من الأثر الذي ینناه : التعقل والتروي وانطلاق الفکر من قيود الأوهام والعفة والسخاء والتناعة والدمائة (این الجانب) والوقار والتواضع وعظم الهمة والصبر والحلم والشجاعة والایثار (تقديم الغير بالمنفعة على النفس) والنجدة والسماحة

والصدق والوفاء والأمانة وسلامة الصدر من الحقد والحسد والعنفو والرفق
والمرورة والحمية وحب العدالة والشفقة — ألا ترى لو عمت هذه الصفات الجليله
أمة من الأمم أو غلبت في أفرادها يكون بينها سوى الاتحاد والاتسام التام ؟
هل يوجد مثار للتناحر والخلاف بين عاقلين حريين صادقين وفين كريمين
شجاعين رقيقين صابرين حليمين متواضعين وقورين عفيفين رحيمين ؟ أما والله
لو نفخت نسمة من أرواح هذه الفضائل على أرض قوم وكانت موافقاً لأحتيها ،
أو قفراً لأنبثها ، أو جذباً لأمطرتها من غيث الرحمة ما يسبغ نعمة الله عليها ،
ولأقامت لها من الوحدة سياجاً لا يخرق ، وحرزاً أميناً لا يهتك ، وإن أولى
الأمم بأن تبلغ الكمال في هذه السجاياء الشريفة أمة قال نبيهم « إنما بعثت
لأتمم مكارم الاخلاق » (١) الفضيلة حياة الأمم تصون أجسامها عن تداخل العناصر
الغريبة ، وتحفظها من الانحلال المؤدي الى الزوال (وما كان ربك ليهلك
القرى بظلم وأهلها مصاحون)

وأما الرذائل فهي كفيات خبيثة تعرض للأفئس ، من طبيعتها التحليل
والتفريق بين النفوس المتكيفة بها ، كالقحة (قلة الحياء) والبذاء (التطاول على
الأعراض بما لا تقتضيه الحشمة والادب من الكلام) والسفه والبله والطيش
والتهور والجبن والدناءة والجزع والحقد والحسد والكبرياء والعجب واللجاج
والسخرية والغدر والخيانة والكذب والنفاق ، فأى صفة من هذه الصفات تلوث
بها نفسان ألفت بينهما العداوة والبغضاء ، وذهبت بهما مذاهب الخلاف
الى حيث لا يبقى أمل في الوفاق . فان طبيعة كل واحدة منها إما مجاوزة الحدود
في التعدي على الحقوق ، وإما السقوط الى مالا يمكن معه للشخص أداء الواجب
عليه لمن يشاركه في الجنسية أو الملية أو القبيلة أو العشيرة ، أو بأي نوع من أنواع

(١) هذا الحديث ذكره الامام مالك في الموطأ بلاغا عن النبي «ص» وقال
الحافظ ابن عبد البر هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعا .
وذكره السيوطي في جامعته بلفظ «صالح الاخلاق» وعزاه الى ابن سعد والادب
المفرد للبخاري والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة وعلم عليه بالصحة

التعامل ، والانسان مجبول بالطبع على النفرة ممن يتعدى على حقوقه أو يمنعه
حقها منها ، وإن شئت فتخيل وقحين بذئشين سفيين جبانين بخيلين (كل يمنع
الآخر حقه) شرهين حاقدين حاسدين متكبرين (كل لا يستحسن الا فعل نفسه)
لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين هل يمكن أن يجمعها مقصد أو توحيد
بينها غاية ؟ أليس كل وصف على حدته قاضياً بانتباز كل من صاحبه وإن لم
تكن داعية ، وكفى بخلقه وصفته باعثاً قويا للتنايد

هذه الرذائل اذا فشت في أمة نقضت بناءها ونثرت أعضائها ، وبددتها
شذر مذر . واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه
الامة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر ، وتصرفها في أعمال الحياة بالقسر . فان
حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع ، وهو لا يمكن مع هذه الأوصاف ، ولا بد
من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة .

هذه صفات اذارسخت في فرس قوم صار بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً
وقلوبهم شتى ، تراهم أعزة بعضهم على بعض ، أدلة الأجنبي عنهم ، يدعون أعداءهم
للسيادة عليهم ، ويفتخرون بالانتماء اليهم ، يهدون السبل للغالبيين الى النكالية بهم ،
ويمكنون مخالب المفتائين من أحشائهم ، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم
قيحاً ، وكل جليل منهم حقيراً ، اذا نطق أجنبي بما يدور على السنة صيانتهم
عدوه من جوامع الحكم ونفائس الحكم ، واذا عاص أحدهم بحر الوجود
واستخرج لهم درد الحقائق وكشفت لهم دقائق الاسرار عدوه من سقط المتاع
وقالوا بلسان حالهم أو مقالهم : ليس في الامكان أن يكون منا عارف ، ومن
الحال أن يوجد بيننا خبير ، ويغلب عليهم حب الفخفة والفخر الكاذب ،
ويتنافسون في سفاسف الامور ودنيائتها ، يرتابون في نصيح الناصحين ، وان قامت
على صدقهم أقطع البراهين ، يسخرون بالواعظين ، وان كانوا في طالب خيرهم
من أخلص المخلصين ، يذلون جهدهم لحية من يسمي لاعلاء شأنهم وجمع كرامتهم
ويقعدون له بكل سبيل ، يقيمون في طريقة العقبات ، ويهيئون له أسباب العثار ،
تراهم بتضارب أخلاقهم وتعاكس أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج ، لا تنتظم

لأعضائه حركة ، ولا يمكن تحريك عضو منه على وجه مخصوص لمقصود معلوم ، فتملت أعمالهم عن حد الضبط ، وتخرج عن قواعد الربط ، فساد طبائعهم بهذه الأخلاق يجعلهم منبعاً ومبعثاً للضرر ، يصير الواحد منهم كالكلاب الكلاب ، أول ما يبدأ بعض صاحبه قبل الأجنبي ، بل كالمبتلي بجنون مطبق ، أول ما يفتك بمزيهه ومهذبه ، ثم يثني بطيبه ومعالج دائه ، تكون الآحاد منهم كالأفراط الأكل من نحو الجذام والآكلة ، يمزقون الأمة قطعاً وجذازات بعد ما يشوهون وجهها ويشوشون هيئتها ، أوائل قوم يسامون في مراعي الدنيا والخصائس لتقلب النذالة على سائر أوصافهم ، فينتفخون على أبناء جلدتهم ويدلون لقزم الأجانب فضلاً عن عليتهم ، وبهذا يمكنون الذلة في نفوسهم لمن دونهم ، ويطبعونها على الخضوع للغرباء ، بل الإعداء الألداء ، من طبقة الى طبقة حتى تضلح الأمة وتنسخ هيئتها وتفتى في أمة أو ملة أخرى ، سنة الله في تبدل الدول وفناء الأمم ، (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) أعاذنا الله من هذه العاقبة ، وحرس أمتنا وملتنا من المصير الى هذه النهاية .

بقيت لنا لمحة نظر الى مابه تقتنى الفضائل ، وتمحص النفوس من الرذائل ، حتى تسعد الجمعيات البشرية بالاتحاد ، وتصون به أكوانها من الفساد « كل مولود يولد على الفطرة » مادة مستعدة لقبول كل شكل والتلون بأي لون ، فهل ينال كمال الفضيلة من آباءه وأسلافه ؟ انى يكون لهم حظ منها . وقد كانوا ناشئين على مثل مانسأ عليه وليدهم ؟

برشدنا رائد الحق الى أن الاعتدال في أصول الأخلاق والتحلي بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها انما يكون بالدين ، ولن يتم أثر الدين في نفوس الآخذين به فيصيبوا حظاً وافراً مما يرشد اليه فيمتنعوا بحياة طيبة وعيشة مرضية إلا اذا قام رؤساء الدين وحملته وحفظته بأداء وظائفهم من تبين أوامره ونواهيه وثبيتها في العقول ودعوة الناس الى العمل بها ، وتنبيه الغافلين عن رعايتها ، وتذكير الساهين عن هديها . أما اذا أهمل خدمة الدين ووظائفهم أو تهاونوا في تأدية أعمالها ضعف اليقين في

النفوس ، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية ، وأظلمت البصائر بالغفلة وتحكمت الشهوات البهيمية ، وتسلمت الحاجات المعاشية ، ومال ميزان الاختيار مع الهوى ، فحشدت الى الانفس أوفاد الردائل ، فيحق على الناس كلمة العذاب ويحل بهم من الشقاء ما أشرنا اليه سابقا .

هذه علل الخراب في كل أمة ولقد ظهر أثرهما في أئمة لا تحصى عدداً من بداية كون الانسان الى الآن ، ولم يزل بقايا بعضها يشهد على ما فتكت به الردائل فيهم بعد ما بدلوا وغيروا كما في طائفة الدهيرو (منك) من سكنة الأقطار الهندية المعروفين عند الأوربيين بطائفة « ياريا » (قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم) . فالدين هو السائق الى السعادة في الدنيا كما يسوق اليها في الآخرة .

تقلب قلب الدهر على بعض طوائف من المسلمين في أقطار مختلفة من الأرض ، وسلبهم تيجان عزمهم وألقاها على هامات قوم آخرين ، واليوم ينازع طوائف أخرى ولا نخاله يتغلب عليهم ، فكشف هذا عن نوع من الضعف ، ولا يكون ناشئاً إلا عن شيء من الاهمال في اتباع أوامر الشرع الاسلامي ونواهيها بحكم قول الله في كتابه (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقد يكون ذلك ، وربما لا ينكر الآن أن كثيراً من عامة المسلمين وإن سحت عقائدهم من حيث ما تعلق به الاعتقاد إلا أنهم لا يتهجون في بعض أعمالهم منهاج الشريعة الفراء . وهذا مما يحدث ضعفاً في قوة الأئمة بقدر الميل عن جادة الاعتدال في الفضائل والأعمال (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) .

إلا أن المسلمين لم يزالوا على أصول الفضائل الموروثة عن أسلافهم ، ولهم حسن الاذعان لما جاء به شرعهم ، وكتاب الله متلو على ألسنتهم ، وسنة نبيم يتناقلونها رواية ودراية ، وسير الخلفاء الراشدين والسلف الصالح مرسومة على صفحات نفوس الخاصة منهم ، فليس ما طرأ على بعضهم من الغفلة عن متابعة الشرع وما تسبب عنه من الضعف في القوة إلا عرضاً لا يبتلى وحالاً لا يدوم . انظر نظرة انصاف الى ما أودعته آيات القرآن من غرر الفضائل وكرائم

الشيم ، والى حرص المسلمين على احترام كتابهم وتبجيله ، نجد من نفسك حكماً
باتاً بأن علماء الديانة الاسلامية لو نشطوا لأداء وظائفهم المفروضة عليهم بحكم
ورائتهم لصاحب الشرع ، والمختومة على ذمتهم بأمر الله الموجه الى الذين يعقلونه
وهم هم في قوله الحق (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وبالحض الالهي المفهوم من قوله (فلولا
نفر من كل فرقة منهم « المؤمنين » طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا
رجعوا اليهم لعلمهم يحذرون) ولو قاموا يعظون العامة بما ينطق به القرآن
ويذكرونهم بما كان عليه صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الناهجون
على سنته من الاخلاق المحمودة والاعمال المبرورة ، لرأيت الامة الاسلامية ناشطة
من عقلمها ، متضافرة على إعادة مجدها وصيانة ولايتها العامة من الضعف ، وبيضة
دينها من الصدع ، كل ذلك في أقرب وقت ، ولن تكون إلا صحيحة واحدة
فاذا هم قيام ينظرون .

ولا ريب أن الراسخين في العلم من أهل الدين الاسلامي يعلمون أن
ما أصيب به المسلمون في هذه الازمان الاخيرة ، إنما هو مما امتحنهم الله به جزاء
على بعض ما فرطوا ، وليس للناس على الله حجة ، فالرجاء في همهم وغيرتهم
الدينية وحميتهم المالية أن يوجهوا العناية إلى رتق الفتق قبل اتساعه ، ومداواة
العلة قبل استحكامها ، فيذكروا أبناء الملة بأحكام الله ، ويحكموا بينهم روابط
الاخوة والالفة كما أمر الله في كتابه وعلى لسان نبيه ، ويبدلوا الجهد نحو اليأس
والقنوط الذي ملك أفئدة البعض منهم ، ويقنعوهم بأنه لا يأس من لطف الله
إلا الذين في قلوبهم مرض وفي عقائدهم زيغ ، ويسيروا بهم في سبيل يجمع
كلمتهم ، ويوحد وجهتهم ، ويقوي فيهم إباء الضيم والنفرة من الذل ، ويحرك
فيهم روح الالفة ، حتى لا تسمح نفس أحدهم أن يأتي الدنيا في دينه ، ويكشفوا
لهم حقيقة وعد الله ووعد الحق في قوله : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

المقالة التاسعة

الوحدة الاسلمية (*)

(وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)

أظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الاقصى الى تونكاني على حدود الصين في عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء. أقطار متصلة، وديار متجاورة، يسكنها المسلمون، وكان لهم فيها السلطان الذي لا يغالب. أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام، فأداروا بشوكتهم كرة الارض إلا قليلا. ما كان يهزم لهم جيش، ولا ينكس لهم علم، ولا يرد قول على قائلهم. قلاعهم وصياصبيهم متلاقية، ومنابتهم ومغارسهم في سهوبهم (أراضيهم السهلة الواسعة) وأخياضهم (الاراضي المنحدرة عن الجبل) راية مزدهية بأنواع النبات، حالية بأصناف الاشجار، صنع أيدي المسلمين، ومدنهم كانت آهلة مؤسسة على أمتن قواعد العمران، تباهي مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم وتفاخرها، بشموس الفضل، وبدور العلم، ونجوم الهداية، من رجال كان لهم المكان الاعلى في العلوم والآداب.

كان في نقطة الشرق من حكمائهم مثل ابن سينا والفارابي والرازي ومن يشاكلهم. وفي الغرب ابن باجه وابن رشد وابن الطفيل ومماثلوهم، وما بين ذلك أمصار تتراحم فيها أقدام العلماء في الحكمة والطلب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية، هذا فضلا عن العلوم الشرعية التي كانت عامة في جميع طبقات الملة. كان خليفتهم العباسي ينطق بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين (١). وترتعد منها فرائص أعظم الملوك في أوربا. ومن ملوكهم في قرونها المتوسطة

(*) نشرت في العدد التاسع من العروة الوثقى الذي صدر في ٢٥ رجب سنة ١٣٠١ — ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤ في بيان مفاسد أمراء المسلمين وفي دعوتهم الى الوحدة (١) كلمة فغفور بوزن عصه فوراقب ملوك الصين ككسرى وقيصر الملوك الفرس واروم

مثل محمود الغزنوي وملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الايوبي ، وكان منهم في المشرق مثل تيمور الكوركان ، وفي الغرب مثل السلطان محمد الفاتح ، والسلطان سليم ، والسلطان سليمان العثماني ، أولئك رجال قضوا ولم يطر الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم .

كانت لأساطيل المسلمين سلطة لا تبارى في البحر الابيض والاحمر والمحيط الهندي ولها الكلمة العليا في تلك البلاد إلى زمن غير بعيد . كان مخالفوهم يدينون للكموت فضلهم كما يذلون لسلطان غلبهم . والمسلمون اليوم هم هم يملئون تلك الاقطار التي ورثوها عن آباءهم وعديدهم لا ينقص عن مئتي مليون (*) وأفرادهم في كل قطر بما أشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداماً على الموت ممن يجاورهم ، وهم بذلك أشد الناس ازدراء بالحياة الدنيا ، وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل ، جاءهم القرآن بحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام ، ويدعو إلى الفضائل وعقائل الصفات ، وأودع في أفكارهم جراثيم الحق وبذر في نفوسهم بذور الفضل ، فهم بأصول دينهم أنور عقلاً وأنبه ذهنًا وأشد استعداداً لنيل الكالات الانسانية ، وأقرب إلى الاستقامة في الاخلاق ، وبما يرون لأنفسهم من الاختصاص بالشرف ، وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من اظهار شأنهم على شؤون العالم أجمع ولو كره المبطلون ، لا يرغبون بسلطة لغيرهم عليهم : ولا يحوم بفكر واحد منهم ان يخضع لذي سطوة من سواهم وان بلغت من الشدة واللين ما بلغت . ولما بينهم من الاخاء المؤزر بمنطق العقائد ، يحسب كل واحد منهم ان سقوط طائفة من بني ملته تحت سلطة الاجانب سقوط لنفسه ، ذلك احساس يشعر به وجدانه ولا يجده عنه مسلياً ، وبما ساخ (غاص ورسب) في نفوسهم من جذور المعارف التي أرشدتهم اليها دينهم ، ونالوا منها النصيب الأعلى في عنفوان دولتهم يعدون أنفسهم أولى الناس بالعالم وأجدرهم بالفضل ذلك شأنهم الأول وهذا وصفهم للآن ، ولكنهم مع هذا كله وقفوا في صيرهم ، بل تأخروا عن غيرهم في المعارف والصنائع ، بعد ان كانوا فيها أساتذة

(*) هذا بحسب الاحصاء لذلك المهد وقد تبين أخيراً انهم ٣٠٠ مليون أو يزيدون

العالم وأخذت ممالكهم تنقص من أطرافها وتتمزق حواشيها مع ان دينهم يرسم عليهم أن لا يدينوا لسلطة من يخالفهم بل الركن الاعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته (١) هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الارض وهم العباد الصالحون ؟ هل غفلوا عن تكفل الله لهم باظهار شأنهم على سائر الشؤون ولو كره المجرمون ؟ هل سهوا عن ان الله اشترى منهم لاعلاء كلمته أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؟ لا لا . ان العقائد الاسلامية مالكة لقلوب المسلمين ، حاكمة في اراداتهم ، وسواء في العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم . نعم يوجد للتقصير في إيمان العلوم والضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم ، لأننا بينا ان لاجنسية للمسلمين الا في دينهم ، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة ، والسلطين في جنس واحد ، مع تباين الاغراض وتعارض الغايات ، فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم خصمه ، وأهلوا العامة بتهينة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض ، فأدت هذه المغالبات وهي أشبه شيء بالمنازعات الداخلية إلى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع ، فضلا عن التقصير في طلب ما لم ينالوا منها ، والاعسار دون الترقى في عواليها ، ونشأ من هذا ما نراه من الفاقة والاحتياج ، وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام ، وجلب تنازع الامراء على المسلمين تفرق الكامة وانشقاق العصا ، فلهوا بأنفسهم من تعرض الاجانب بالعدوان عليهم

هذا كان من أمراء المسلمين مع ما فيه من الضرر الفادح عند ما كانوا منفردين في ميادين الوغي ، لا يجاريهم فيها سواهم من الملل ، ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الامراء بمرور الزمان ، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فاقبلوا مع الهوى ، وضلت عنهم غايات المجد المؤثر ، وقنعوا بألقاب الامارة وأسماء السلطنة

(١) جامع الكتاب : كل أمة وكل دولة تتمنى لو يكون العالم كله تابعاً لها في جنسيتها ودينها وأحكامها ولكن الاوربيين ينقمون علينا هذا الاعتقاد الذي لا نعمل بمقتضاه وعم يعملون ويسموننا متعصبين وما التمسبب المرسوم الا هضم حقوق الخائف في الدين واذاؤه لانه يخاف أو اكرهه على ترك دينه وكل هذا يحظره الاسلام ويذمه

وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان، واختاروا موالاة الأجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس، ولجؤا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم، استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل هذا الذي أباد مسلمي الاندلس، وهدم أركان السلطنة التيمورية في الهند ومحا أطلالها، وعلى رسومها شيد الانكليز ملكهم بتلك الديار. هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالملك الاسلامية، ودهورتها أمانتهم الكاذبة في مهاوي الضعف والوهن، قبح ما صنعوا وبش ما كانوا يعملون. أولئك اللاهون بذاتهم، العاكفون على شهواتهم، الذين بددوا شمل الملة، وأضاعوا شأنها، وأوقفوا مسير العلوم فيها، وأوجبوا الفترة في الأعمال النافعة، من صناعة وتجارة وزراعة، بما غلوا من أيدي بنيها. ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهالك على الخسائس ما أشد ضررها وما أسوأ أثرها نبذوا كلام الله خلف ظهورهم، وجحدوا فرضا من أعظم فروضه، فاختلفوا والعدو على أبوابهم، وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكلمة الجامعة، حتى يدفعوا غارة الأبعاد عنهم، ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم. ماذا أفادتهم المغالة في الطمع والمنافسة في السفاسف؟ أفادتهم حسرة دائمة في الحياة، وشقاء أبديا بعد المات، وسوء ذكر لا تمحوه الأيام.

أما وعزة الحق وسر العدل، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم، لتعارفت أرواحهم، واثلت آحادهم، ولكن وأسفا تظلمهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير أو ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهي. هؤلاء الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله وخرجوا على ملوكهم وخلقاتهم، حتى تناكرت الوجوه، وتباينت الرغائب الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الاسلامية، من أشد أركان الديانة المحمدية والاعتقاد به من أوليات العتائد عند المسلمين، لا يحتاجون فيه إلى أستاذ يعلم، ولا كتاب يثبت، ولا رسائل تنشر.

ان رعاية المسلمين فضلا عن علام تتصاعد زفراتهم وتفيض أعينهم من الدمع حزنا وبكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء، وتضارب الأهواء، ولولا

وجود الفواة من الأمراء ذوي المطامع في السلطة بينهم لا اجتماع شرقيهم بغربيهم ،
 وشمالهم بجنوبيهم ، ولبي جميعهم نداء واحدا . ان المسلمين لا يحتاجون في صيانة
 حقوقهم إلا الى تنبه أفسكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع واتفاق آرائهم على القيام به
 عند لزومه وارتباط قلوبهم الناشئ عن إحساس بما يطرأ على الملة من الاخطار .
 ألم تر أمة الروس هل تجد فيها ما يزيد على هذه الاصول الثلاثة ؟ هي أمة متأخرة
 في الفنون والصنائع عن سائر أمم أوروبا ، وليس في ممالكها ينابيع للثروة ، ولئن
 كانت فليس هناك ما يستفيضها من الاعمال الصناعية ، فهي مصابة بالحاجة
 والاعواز ، غير أن تنبه أفسكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمتهم واتفاقهم
 في النهوض به وارتباط قلوبهم صير لها دولة تميد لسلطوتها وراسي أوروبا . لم
 يكن للروسيا مصانع لمعظم الآلات الحربية ، ولكن لم يمنعها ذلك عن اقتنائها ،
 ولم يرتق فيها الفن العسكري الى حد ما عليه جيرانها ، إلا أن هذا لم يقعدها عن
 جلب ضباط من الأمم الأخرى لتعليم عساكرها ، حتى صار لجيشها صولة تخيف
 وحلة تخشاه دول أوروبا

فما الذي أقعدنا عن مشاكة غيرنا فيما هو أيسر الأشياء علينا ونحن
 أشد الناس ميلا اليه : من رعاية شرف الملة والتألم بما يحط منه والتعاون على
 صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلها ؟ ما رد الافكار عن الحركة ، وما
 أقعد الهمم عن النهوض ، إلا أولئك المترفون ، يحرصون على طيب في المطعم ، ولين
 في المضجع ، وتطاول في البنيان ، وتفاخر بالخدم والخول ، ولا يراعون في حرصهم
 ما بعد يومهم ، ويحافظون على لقب موضوع ، ورسم متبوع ، يقنعون منه بالاحتفال
 لهم في المواسم والأعياد ، وهز الروس وثني الأعطاف ، تعظيما وتبجيلا ، ثم
 تذييل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسببات . هؤلاء الساقطون برضون
 لتخيل هذه الموائل (جمع مائل من الرسوم ما ذهب أثره) بكل دينية ، هؤلاء
 يقبلون من تصرف أعدائهم في بيوتهم مالا يقبله واحد من آحاد الناس دون
 موته ، أولئك صاروا في أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا ، يحبسون هذه الأسود
 عن فريستها ، بل يجعلونها طعمة للشعالب ، لا حول ولا قوة إلا بالله

أيا بقية الرجال ، وياخلف الأبطال ، ويا نسل الأقيال ! هل ولى بكم الزمان ؟ هل مضى وقت التدارك ؟ هل آن أوان اليأس ؟ لا . لا . معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم . إن من أدركه إلى ييشاور دولا إسلامية ، متصلة الأراضى ، متحدة العقيدة ، بجمعهم القرآن ، لا ينقص عددهم عن خمسين مليوناً ، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة . أليس لهم أن يتفوقوا على المذبذبات والاقدام كما اتفق عليه سائر الأمم ؟ ولو اتفقوا فليس ذلك بيدع منهم ، فلا اتفاق من أصول دينهم . هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم لبعض ؟ أليس لكل واحد منهم أن ينظر الى أخيه بما حكم الله في قوله (إنما المؤمنون إخوة) فيقيمون بالوحدة سداً يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب

لا ألتبس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ، فان هذا ربما كان عسيراً ، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بمجده لحفظ الآخر ما استطاع ، فان حياته بحياته ، وبقائه ببقائه . ألا أن هذا يعد كونه أساساً لدينهم تقضي به الضرورة ، وتحكم به الحاجة في هذه الاوقات ،

هذا أن الاتفاق . هذا أن الاتفاق . ألا أن الزمان يواسيكم بالفرص وهي لكم غنائم فلا تفرطوا . إن البكاء لا يحیی الميت . إن الأسف لا يرد الفائت . إن الحزن لا يدفع المصيبة . إن العمل مفتاح النجاح . إن الصدق والاخلاص سلم الفلاح . إن الوجل ، يقرب الاجل . إن اليأس وضعف الهمة من أسباب الخلف (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون * ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) ألا لا تكونوا ممن كره الله انبعاثهم فبططهم وقيل اقمعدوا مع القاعدين . احذروا أن تقعوا تحت قول الله (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون) إن القرآن حي لا يموت ، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن أصيب بسهم من مقتله

فهو ممقوت . كتاب الله لم ينسخ فأرجعوا اليه ، وحكموه في أحوالكم وطباعكم
(وما الله بغافل عما تعملون)

ولعل أمراء المسلمين ، قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين ، وهموا
بملافاة أمرهم قبل أن يقضى عليهم بما رزى به المفرطون من قبلهم ، ورجاؤنا
أن أول صيحة تبعث الى الوحدة ، وتوقظ من الرقدة ، تصدر عن أعلاهم مرتبة
وأقوامهم شوكة . ولا نرتاب في أن العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى في هذا
العمل الشريف ، والله يهدي من يشاء ، والله الأمر من قبل ومن بعد

المقالة العاشرة

الوحدة والسيادة — أو الوفاق والغلب (*)

﴿ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بمضا ﴾

أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة ، ويهدي اليهما الدين تارة
أخرى . وقد تفيدهما الترية وممارسة الآداب ، وكل منهما يطلب الآخر
ويستصعبه ، بل يستلزمه ، وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعها واعتلاؤها ، وهما
الميل الى وحدة تجمع ، والكاف بسيادة لا توضع . وإذا أراد الله بشعب أن
يوجد ويلقي بوائيه (يثبت ويقيم) الى أجل مسمى أودع في ضئاضئه (أصوله)
هذين الوصفين الجليلين ، فأنشأ خلقاً سوياً ، ثم استبقى له حياته بقدر ما مكن
فيه من الصفتين الى منتهى أجله

كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها ،
ويشتد به بناؤها ، فلا بد يوماً أن تقضم وتمضم وتضمحل ويمحى أثرها من
بسيط الأرض . إن التغلب في الأمم كالتغذي في الحياة الشخصية ، فإذا أهمل
البدن من الغذاء وقفت حركة النمو ، ثم ارتدت الى الذبول وال انحول ، ثم أفضت

(*) نشرت في العدد العاشر من جريدة العروة الوثقى في ١٠ شعبان سنة ١٣٠١

و ٥ يونيو ١٨٨٤

إلى الموت والهلاك . وليس من الممكن لامة أن تحفظ قوامها ، وتصول على من يليها لتخترل منه ما يكون مادة لنمائها ، الا أن تكون متفقة في تحصيل ما تحتاج اليه هيئتها . اذا أحسست من أمة ميلا الى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها في مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأئمة — اذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرينا أحوال الشعوب في وجودها وفنائها وجدنا هذه سنة الله في الجمعيات البشرية ، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة ، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها في الغلب ، وما انحط شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم الا عند هومهم بما في أيديهم ، وقناعتهم بما تسنى لهم ، ووقوفهم على أبواب ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء ، وما أهلك الله قبيلة الا بعد مارزئوا بالاقتراق ، وابتلوا بالشقاق ، فأورثهم ذلا طويلا ، وعذابا ويلا ، ثم فناء سرمديا الوفاق تواصل وتقارب يحذنه احساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها ، وشعور جميع الآحاد في جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان ، فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم ، وبما تفقده من ذلك ، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به ، وهذا الاحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر في أحوال أمته ، فيجعل جزءاً من زمنه للبحث فيما يرجع اليها بالشرف والسودد وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة ، ولا يكون همه بالفكر في هذا أقل من همه بالنظر في أحواله الخاصة ، ثم لا يكون نظراً عقيماً حائراً بين جدران الخيلة ، دائراً على أطراف الألسنة ، بل يكون استبصاراً تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكماله بما يمكن من السعة ، وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون في استحصال مواد المعيشة بلا فرق ، بل تجدد الأ نفس أن شأن الأمة في المكان الأول من النظر ، والدرجة الأولى من الاعتبار ، والشؤون الخاصة في المرتلة الثانية منها . ولا تقف فيما تجدد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة ، بل يأخذ العقلاء منها سبلا من التفكير ، ويختارون سيوفاً من الهمة ، ليصيروا من معهم شوارد من القوة ، ونوادٍ من المكنة ، ويستخرجوا دفائن من الثروة ، ويجمعوا ذلك للأمة ، لصيانة حياتها الى حد العمر اللائق بها ، كما يسبي الحازم جده

لتوفير ما يلزم لمعيشته ، وما يطمئن به قلبه في دفع حاجته مدة العمر الغالب ، بل يزيد عليه ما فيه الكفاية لأبنائه من بعده . وإن الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون ثم تتلوه سائر الادوار وأولها أقصرها وهوسن الطفولية ، وبدء الكمال فيما يليه ، فما أرفع هم العقلاء في الأمم المستبصرة .

إذا بلغ الاحساس من مشاعر أفراد الأمة الى الحد الذي يبناه ، رأيت في الدهماء منهم والخاصة هما تعلو ، وشيا تسمو ، واقداما يقود ، وعزما يسوق ، كل يطلب السيادة والغلب ، فتتلاقى همهم ، وتتلاحق عزائمهم في سبيل الطلب فيندفعون للغلب على الذين يلونهم ، كما تندفع السيول على الوهاد ، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا اليه ، ويكون نزوم على الأمم بعد الغلب الاول تدفقاً من الطبع لا يحتاج الى فكر وروية إلا في إعداد وسائل الفوز والظفر . هذان الأمران الوفاق والغلب عمادان قويان وركان شديدان من أركان الديانة الاسلامية ، وفرضان محتومان على من يستمسك بهما ، ومن يخالف أمر الله فيما فرض منها عوقب من مقتته بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة . جاء في قول صاحب الشرع أن « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »^(١) وأن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه اذا مس أحدها ألم تأثر له الآخر^(٢) وجاء في نهيه « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخواناً »^(٣) وأخذ من شذ عن الجماعة بالحران والهلكة ، وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب .

هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله ، ونهاهم عن التفرق والتغابن وأمن عليهم بنعمة الاخوة بعد أن كانوا أعداء ، ونطق الكتاب الالهي (إنما

(١) حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان » الخ رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما
(٢) لفظ الحديث في هذا المعنى « مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه أحمد ومسلم في الصحيحين

(٣) لفظه في الصحيحين « لا تباعدوا ولا تدابروا ولا تنافسوا » الخ مذكوره وله ألفاظ أخرى عندها وعند غيرها

المؤمنون إخوة) وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا باصلاح ذات البين عند التخالف، ثم شدد في وجوب الاصلاح وإن أدى الى مقاتلة الباغى نقال (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله) وإنما أمر الله الدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليينات) وأوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم، فحكم بأن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله ما تولى، ويوصله جهنم وساءت مصيراً.

وفي أمره الصريح بإيجاب التعاون على البر والتقوى، ولا برأحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق وإعلاء منار الأئمة، وأخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أن «يد الله مع الجماعة»^(١) وكفى بالقدرة الالهية عوناً اذا صاح الاجتماع وصدقت الألفة، وقد بلغت مكانة الاتفاق في الشريعة الاسلامية أسى درجة في الرعاية الدينية حتى جعل إجماع الأئمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفاً عن حكم الله وما في علمه، وأوجب الشرع الاخذ به على عموم المسلمين، وعده ججوده مروقا من الدين، وانسلاخا عن الايمان^(٢) ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله صلى الله عليه وسلم «لو دعيت الى حلف الفضول لفعلت» (حلف الفضول ماكان من هائم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبدالله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم، وسمي حلف الفضول لانهم تحالفوا على أن لا يدعوا عند أحد فضلاً يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم إلا أخذوه منه وردوه لمستحقه) فهو من حلف الجاهلية، وقد صرح الشارع بقبوله لو دعي اليه. هذا

(١) رواه الترمذي بلفظ «مع الجماعة»

(٢) إجماع الأمة الاسلامية كلها بالعمل على أمر من أمور الدين المراد هنا غير الاجماع الاصولي الذي هو اتفاق المجتهدين وان قل عددهم في أي عصر بعد عصر النبي (ص) على أمر - فهذا من المسائل الاجتهادية التي وقع فيها الخلاف من عدة وجوه. والاول يستلزم كون المجمع عايه معلوماً من الدين بالضرورة لعدم خلاف احد فيه واعلم يعذرني جهله حديث العهد بالاسلام وهن لم «ش بين الأمة

إجمال الأدلة على وجوب الاتفاق وحظر المنابذة والمغابنة بين المسلمين ، بل وبينهم وبين غيرهم ممن رضي بدمتهم وقبل جوارهم بالمعروف في شرعهم ، فإن سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه *

وأما السعي لاعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة ، فلا تجدد آية من آيات القرآن الشريف ألا وهي داعية اليه ، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه ، حاضرة عليهم أن يتوانوا في أداء المفروض منه . ومن الأوامر الشرعية أن لا بدع المسلمون تنمية ملتهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وفي السنة المحمدية والسيرة النبوية مما يضافر آيات القرآن ما جمعه العلماء في مجلدات يطول عددها - هذا حكم ديننا لا يرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته .

هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون الى الضيم أن ندعي القيام بفروض ديننا ؟ كيف ومعظم الاحكام الدينية موقوف اجراؤه على قوة الولاية الشرعية ، فان لم يكن الوفاق والميل الى الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب إلا به ؟ فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا ؟ هل لنا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين ؟ وأيسر شيء علينا إقامتهما وعديدنا متنا مليون أو يزيد ؟ هل يتيسر لنا اذا خلونا بأنفسنا وجادلنا ضمائرنا أن نمنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن ؟

كل هذه الرزايا التي حطت باقطارنا ، ووضعت من أقدارنا ، ما كن قاذفنا ببلاتها ورامينا بسهامها إلا اقتراقنا وتدابرتنا والتقاطع الذي نهانا الله ونبيه عنه . لو أدينا حقوقاً تطالبنا بها تلك الكلمة التي تهمل بها ألسنتنا ، وتطمئن قلوبنا بذكرها ، وهي كلمة الله العليا ، هل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق ، وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا ، وهل كنا نشيم نيران الاعداء إلا وأقدامنا في صياصيمهم ، وأيدينا على نواصيمهم ، ؟ ان لأبناء الملة الاسلامية يقيناً بما جاء به شرعهم ، لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله

عليه في ذلك الدين ؟ (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون)
 (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ولا
 ريبة في أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقا لا كاذبا ، وأي صدق تظهره الفتنة
 ويمتاز به الصادق من الكاذب إلا الصدق في العمل ؟ هل يود المسلم لو يعمر ألف
 سنة في النذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة الدنيا دليل الايمان ؟ أنرضى
 ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ،
 وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبا ، ولا يرد مشربنا ، ولا يحترم
 شريعتنا ، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة ، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش
 الفناء حتى يخلي منا أوطاننا ، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته والجالية من أمته ؟
 لا . لا . إن المحلصين في إيمانهم الواثقين بوعده الله في نصر من ينصر الله الثابت
 في قوله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) لا يتخلفون عز مذل أمواهم
 وبيع أرواحهم ، والحق داع والله حاكم والضرورة قاصية ، فابن المهر ، المبصر ببور
 الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المحلصين من
 المؤمنين . هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة ، وأعلامنا ممزقة ، والقرعة
 تضرب بين الغرباء على ما بقي في أيدينا ثم لا نبدي حركة ، ولا نجتمع على كلمة ،
 وندعي مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد ؟ واخجلناه لو خطر هذا بنا
 ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجري على لسانه شاهد الاسلام

إن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الاسلام كل
 هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة ، ولكن دهام بعض ما أشرنا اليه
 في أعداد ماضية فألهام عما يوحى به الدين في قلوبهم وأذهلهم أزمانا عن سماع
 صوت الحق يناديه من بين جوانحهم ، فسهبوا وما غرّوا ، وزلوا وما ضلّوا ،
 ولكنهم دهشوا وتاهوا ، فمثلهم مثل جوارب المجاهيل من الارض في الليالي
 المظلمة ، كل يطلب عوناً وهو معه ولكن لا يهتدي اليه ، وأرى أن العلماء العاملين
 لوجهوا فكرتهم لا يصلح أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض لا يمكنهم أن
 يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت وليس بعسير عليهم ذلك بعد ما اختص الله من

بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام وفرض على كل مسلم ان يحجه ما استطاع وفي تلك البقعة يحشر الله من جميع أجيال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم فها هي إلا كلمة تقال بينهم من ذي مكانة في نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض وتضطرب لها سواكن القلوب . هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية فان أضفت اليه ما أذاب قلوبهم من تعديت الأجانب وما ضاقت به صدورهم من غارات الغرباء على بلادهم حتى بلغت أرواحهم التراقي ذهبت إلى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حداً يوشك أن يكون فعلاً وهو مما يؤيد الساعين في هذا المقصد ويهيء لهم فوزاً ونجاحاً بعون الله الذي ما خاب قاصده وهو ربي اليه أدعوا واليه أنيب

المقالة الحادية عشرة

استعانة الفاتحين على الأمم بأمرائها ورؤسائها*)

(ان في ذلك ابرة لاولي الابصار)

كيف يمكن لقوة أجنبية تصول على أمة من الأمم ان تسود عليها وتستعبد لها وتذللها للعمل في منافعها مع التخالف في الطباع والعوائد والأفكار ووجود المقاومة الطبيعية فضلاً عن الارادية . ان الوحشة المتمكنة في نفس كل واحد من الأمة وظن كل فرد انه في خطر على روحه وماله إذا غلبه الغالبون تحمله على المدافعة كما يدافع عن بيته وحرمة فلا يتسنى للقوة المغيرة ان تذلل الأمة إلا بافنائها عن آخرها أو افساء الأغلب حتى لا يبق إلا العجزة والزمنى . هذا أمر طبيعي وحكم بديهي متى كانت الغارة على الأمة . نعم يسهل للقوة الأجنبية ان تغلب على أمة عظيمة بدون تناحر ان كان لهذه الأمة حاكم أو رئيس روحاني تجتمع عليه قلوبها وتدين له رقابها المنزلة له في افئدة أبنائها ولما كان أبائهم من الكرامة في

نفوسهم فلا تحتاج القوة الغالبة إلا لايقاع الرعب في قلبه فيجبن ويقبل ماتحكماً به أو نصب حباله الحيل له فتخذه بالأمانى والآمال فيذعن لما تقضي به فاذا خضع للقوة الغريبة خضعت الأمة تبعاً له . ولهذا ترى طلاب الفتح وبغاة الغلب ينصبون قبل سوق الجيوش وقود الجنود على قلوب الأمراء وأرباب السيادة في الأمة التي يريدون التغلب عليها فيخلعونها بالتهديد والتخويف أو يملكونها بالخدعة وتزيين الأمانى فينالون بغيتهم ويأخذون أراضى الأمم . وهذا الطريق هو الذي سلكه الانكليز مع السلطان التيموري في الهند ولولا ما كان للهنديين من عقدة الارتباط بسلطانهم التيموري وقبض الانكليز أول الامر على تلك العقدة لما تيسر للبريطانيين ان يخضعوا الأمم الهندية في أحقاب طويلة .

هذه قبائل الافغان عندما انحلت ثقفتها بأمرها وصار الامر إلى الأمة قامت كل عشيرة بل كل فرد للدفاع عن نفسه بعد ما عكنت عساكر الانكليز في قلاعهم وحصونهم واستولت على قاعدة ملكهم وفتكوا بالعساكر الانكليزية وهزموا قوتها وأجلوها عن بلادهم وهي ستون الفاً من الجيوش المنتظمة مسلحة بالأسلحة الجديدة واضطر الانكليز ان يتركوا تلك البلاد لأهلها .

لاريب انه سهل على الانسان ان يأخذ شخصاً واحداً أو أشخاصاً محصورين بالترغيب والتهديد ويتيسر له أن يقف على طباعهم ويدخل عليهم من مواقع أهوائهم ويأتيهم من أبواب رغائبهم ، لكن يتعسر بل يتعذر عليه أن يأخذ أمة بتمامها وعقولها مختلفة عليه نفوسها في وحشة منهم اللهم إلا بالابادة والتدمير . من هذا يجد الملوك العظام لا يرهبون الاشتباك في حرب مع اقاتلهم بل ومن هو أشد منهم قوة ، ولكنهم يفرقون بل تذهب أفئدتهم هواء إذا أحسوا بميل الأمة عنهم ، وما هذا إلا لأن قوة المغالين داخلية تحت الضبط

واما آحاد الامم وقواها فلا تضبط ولا تستطاع مقاولتنا اذا تعاصت وشحت بنفسها عن الذل لسواها

ان الامراء كما يكونون في دور من أدوار الأمة قوى فعالة لنموها وعلوها وعظمتها واشتداد عضدها كذلك يكونون في بعض أطوارها علة فاعلة في سقوطها

وهبوطها وانحلالها، وانا نخاف ولا حول ولا قوة الا بالله ان يكون أمرنا والأعلن
منا آلة في اضمحلالنا وفنائنا لما غلب عليهم من اتلف والانهمك في الذائد
والانكباب على الشهوات مع سقوط الهمة وتغلب الجبن والحرص والطمع على
طباعهم فانا لله وانا اليه راجعون

المقالة الثانية عشرة

الامل وطلب المجد (*)

(انه لا يئس من روح الله الا القوم الكافرون • ومن يقنط من
رحمة ربه الا الضالون)

تلك آيات الكتاب الحكيم ، تنبيء عن سر عظيم ، اختص الله به الانسان ،
ورفعه به على سائر الالكوان ، ليلبغ به المقام المحمود ، وبحوز ما أعدته له العناية
الالهية من الكمال اللائق به . راجع نفسك ، واصغ لمناجاة سرك ، تجد في
وجدانك ميلا قويا وحرصا شديدا يدفعك الى طلب المجد وعلو المنزلة في قلوب
أبناء جنسك ، ثم ارفع بصرك الى سواد أمة بتمامها تجد مثل ذلك في كايها كهمو
في آحادها ، تتبغى رفعة المسكنة في نفوس الأئمة سواها . ذلك أمر فطري جبل
الله عليه طبيعة هذا النوع منفردا ومجتمعا : ليس من السهل على طالب المجد أن
يصل الى ما يطلب ولكنه يلاقى في الوصول اليه وعرا في السبل ، وعقبات تصد
عن المسير ، ومع هذا فلا يضعف حرصه ، ولا ينقص ميله . يقطع شعابا ، ويعاني
صعابا ، حتى يرقى ذروة المجد ، ويتسنى شاطئ العزة ، ولو قام في وجهه مانع عن
الاسترسال في مسيره والتجأ للسكون رأته يتمل وتضجر كأنما يتقلب على
الرمضاء . لو سبر الحكيم الخير أعمال البشر ، ونسب كل عمل الى غاية العامل

(*) نشرت في العدد الحادي عشر من جريدة العروة الوثقى في ٢٥ شعبان

سنة ١٣٠١ و ١٩ يونيو سنة ١٨٨٤

منه ، رأى أن معظمها في طلب الكرامة وعلو المقام ، كل على حسبه وما يتعلق منها بتقويم المعيشة ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يتعلق بشؤون الشرف . هذه خلة ثابتة في الكفاية من كل شعب على اختلاف الطبقات من أرباب المهن الى أصحاب الأمر والنهي ، كل ينافس أهل طبقته في أسباب الكرامة بينهم ، ويأنف من وضعته فيهم ، ويحرص على ما يحصله في قلوبهم محل الاعتبار ، حتى اذا بلغ الغاية مما به الرفعة عندهم ، تخطى حدود تلك الطبقة ودخل في طبقة أخرى ، ونافس أهلها في الجاه ، ولا يزال يتبع سيره مادام حيا يخاطر في بساط الارض ذلك لأن الكمال الانساني ليس له حد ، ولا تحدة نهائية . وليس في استطاعة أحد من الناس أن يقنع نفسه ويعتقد أنه بلغ من الكمال حداً ليست بعده غاية سبحانه الله ، ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الانسان ، وماذا ملكت من أهوائه ؟ بعده ثمرة حياته وغاية وجوده ، حتى إنه يحتقر الحياة عند فقدده والعجز عن دركه ، أو عند مسه والخوف من سلبه - أرايت أن فقيراً ذا أسمال لا يؤبه له اذا اعتدى عليه من تطول يده اليه بفعلة تهيئه أو قدفة تشينه يغلبه الغضب للدفاع عن المنزلة التي هو فيها ، فيرتكب مخاطرة ربما تفضي به الى الموت ، وأن القذف أو الاهانة ما نقصت من طعامه ولا شرابه ، ولا خشنت مضجعه في ميته - آلاف مؤلفة من الناس في الأجيال المختلفة والأجناس المتنوعة ألقوا بأنفسهم الى المهالك ، وماتوا دفاعاً عن الشرف أو طلباً للكرامة والمجد - جل شأن الله لا يهنا للانسان طعام ولا شراب ، ولا يابن له مضجع ، إلا أن يلحظ فيه أن مانال منه أعلى مما نال سواه ، مع وقوف بعض من الناس على ذلك ليعترفوا له بالأعلوية فيه ، كأن لذة التغذية والتوليد انما وضعت لتكون وسيلة للذة المباهاة والمفاخرة . فما ظنك بسائر الذائد ؟

كم يعاني الانسان من التعب البدني ، وكم يقاسي من مشاق الأسفار ، وكم يخاطر بروحه في اقتحام الحروب والمكائحات ، وكم يحتمل في الانقطاع عن اللذات مع التمكن منها ، كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخراً أو ليحفظ ما آتاه الله منه . ما أجل عناية الله بالانسان ، لا يعيش الا ليشرف فيشرف به العالم ، وكل

لذة له دون الشرف فهي وسيلة اليه ، بل الحياة الدنيا هي السبيل الموعرة يسلكها الحي الى ما يستطيع من المجد ، وفي نهاية الأجل يفارقها قربة العين بما قارب منه ، آسف الفؤاد على ما قصر عنه

ما هو المجد الذي يسعى اليه الانسان بالالهام الآلهي ، ويخوض الاخطار في طلبه ، ويقارع الخطوب في تحصيله ؟ هو شأن تعترف النفوس لصاحبه بالسودد ، وتدعن له بالاعتلاء ، وتلقي اليه قياد الطاعة ، يكون هذا له ولكل من يدخل في نسبته اليه من ذوي قرابته وعشيرته وسائر أمته ، فتتخذ كلمته وكلمة المتصلين به ، والملتحمين معه في شؤون من سواهم ، وهو أعظم مكافأة من العزيز الحكيم على معاناة الأوصاب لتحصيل ذلك الشأن في هذه الحياة الاولى . فما كان يحسبه طالب المجد عائداً الى نفسه بالمنفعة ، يبارك فيه مدبر الكون ، فيفيض خيره على بني جلدته أجمعين . واها ! تلك حكمة بالغة : اذا نال الواحد من الأمة مطلبه من المجد نالت الأمة حظها من السودد . نعم وهل نال ما نال الا بمعونة سائر الآحاد منها (ذلك تقدير العزيز العليم) ماذا يستطيع الجاهد وحده ؟ وماذا يكسبه من سعيه ، إن لم يكن له أعضاء من بني قبيله ؟ فن كان همه أن يصعد الى عرش العزة ، ويرقى الى ذروة السيادة ، فعليه أن يهيئ نفسه والمنتسبين اليه لتحصيل كل ما يعد في العالم فضيلة وكلا . ما أصعب القيام بخدمة هذا الميل الفطري والالهام الآلهي ! وما أشد ما تحتمل النفوس في قضاء بعض الوطرمما يتصل به ! وما أعظم الحامل للأنفس على تجشم المضاعب لنيل ما تميل اليه من هذا الأمر الرفيع ! ما هذا الباعث الشريف الذي يسهل على الأرواح كل صعب ، ويقرب كل بعيد ، ويصغر كل عظيم ، ويلين كل خشن ، ويسلبها عن جميع الآلام ، ويرضيها بالتعرض للهلكة ومفارقة الحياة ، فضلاً عن بذل كل نفيس ، والسماح بكل عزيز ؟ هذا الباعث الجليل ، وهذا الموجب الفعال هو :

الامل

الامل ضياء ساطع في ظلام الخطوب، ومرشد حاذق في بهاء الكروب، وعلم هادئ في مجاهيل المشكلات، وحاكم قاهر للعزائم اذا اعترتها قفرة، ومستغفر للهمم ان عرض لها سكون، ليس الامل هو الأمنية والتشهي اللذان يلحقهما الذهن تارة بعد أخرى، ويعبر عنهما بليت لي كذا من الملك وكذا من الفضل، مع الركون الى الراحة والاستلقاء على الفراش، واللهو بما يبعد عن المرغوب، كأن صاحبها يريد أن يبدل الله سنته في سير الانسان عناية بنفسه الشريفة أو الخسيسة، فيسوق اليه ما يهيج بخاطره بدون أن يصيب تعباً أو يلاقى مشقة. إنما الامل رجاء يتبعه عمل، ويصعبه حمل للنفس على المكاره، وعرك لها في المشاق والمتاعب، وتوطئها للملافة البلاء بالصبر، والشدائد بالجلد، وتهوين كل ملم يعرض لها في سبيل الغرض من الحياة، حتى يرسخ في مداركها أن الحياة لغو اذا لم تغدّ بنيل الأرب، فيكون بذل الروح أول خطوة بخطوها القاصد، فضلاً عن المال الذي لا يقصد منه الا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون. وكما كان الميل للرفعة أمراً فطرياً، كذلك كان الامل وثقة النفس بالوصول الى غاية سعيها من ودائع الفطرة، غير أن ثبوتها في فطرة عموم البشر كان داعياً للزاحات والممانعات، فان كل واحد بما أودع في جبلته يطلب الكرامة والتمكن في قلب الآخر، فكل طالب مطلوب، ولم يبلغ سعة العقل الانساني الى درجة تعيين لكل فرد من الأفراد عملاً تكون له به المنزلة العليا في جميع النفوس، غير ما يكون به للآخر مثل تلك المنزلة، حتى يكون جميعهم انجذاباً شرفاء بما يأتون من أعمالهم، ولكنهم نزاحوا في الأعمال، كما نزاحوا في الآمال والأهواء، ومسالكهم ضيقة، ومشارعهم ضنكة، فنشأت تلك المقاومات والمصادمات بين النوع البشري، حكمة من الله ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين — فاذا توالى الصدام على شخص أو قوم حدث في الهمم ضعف

وأصابها انحطاط ، وحصل الفساد في هاتين الخلتين الشريفتين (الرجاء وطلب المجد) كما يحصل الفساد في سائر الأخلاق الفاضلة بسوء التربية . وربما يؤول الضعف الى اليأس والقنوط (نعوذ بالله منها)

ماذا يكون حال القانطين المنقطعة آمالهم ؛ يحكمون على أنفسهم بالخطية ، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة ، فيأتون الدنيا ويتعاطون الرذائل ، ولا ينفرون من الاهانة والتحقير ، بل يوطنون أنفسهم على قبول ما يوجه اليهم من ذلك أياً كان ، فتسلب منهم جميع الاحساسات والوجدانات الانسانية التي يمتاز بها الانسان على الانعام ، فيرضون بما ترضى به البهائم ، فلا يهتمون إلا بحاجات قبحهم وذنبهم ، ثم ياليتهم يكونون هملاً وسوائب يرعون الثبات ، ويتبعون مواقع الغيث ، ولكنهم وإن تركوا العمل لأنفسهم ، فالله تعالى يسلب عليهم من يكافهم بالعمل لغيرهم ، فيكونون كالنمال الحاملة لا تستفيد مما تحمل شيئاً ، وظيقتها أن تسقى وتشقى ليسعد غيرها ويستريح ، فيعالجون العمل في الفلاحة والصناعة وغيرها من الاعمال الشاقة ، ويدأبون بأشد مما يدأب العامل لنفسه ، ثم لا ينالون مما يعملون شيئاً . ثم مات كسبهم بأسرها محمولة الى الذين سادوا عليهم بهمهم (هذا الذي يتجشمه الدليل في ذله من مشاق الاعمال ومعاناة المكاره لو تحمل بعضاً منه في طلب العزة لاصاب حظه منها) بل تصير درجة القانطين عند من سادوا عليهم أدنى من درجة الحيوانات العاملة ، فان السائدين يشعرون بحكم البدهاة أن هؤلاء أسقطوا أنفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الانسانية ورضوا لها بما دون حقها ، بل بما لا يصح أن يكون من شأنها وكفروا نعمة الله في تكوينهم على الشكل الانساني وإيداعهم ما أودع في أفراد الانسان فيعاملهم أوائك السادات بما لا يعاملون به ما يقتنون من الحيوانات ، ولنا على ذلك شاهد البيان في الأثم التي أدركها اليأس وسقطت في أيدي الاجانب

ونظن أن يوجد أقوام آخرون سامهم ساداتهم في الزمن السابق ويسومونهم الآن ملا تسام به السوائم الراعية وهم على القرب منا وليسوا ببعيد عنا .
عجبا كيف تتبدل أحكام الجيلة وكيف يمحي أثر الفطرة ؛ كيف تسفل النفس

حتى لا تطلب رفعة ، وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل ، والامل وحب الكرامة طبعيان في الانسان ؟ بعد إيمان النظر نجد السبب في ذلك ظن الانسان أن جميع أعماله إنما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال وأن قوته هي سلطان أعماله وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصده بالقهر ، فإذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول رجع الى قدرته فوجدناها قانية ، وقوته فراها واهنة ، فيعترف بوهنه ، ويسكن الى عجزه ، فيئأس ويقنط ، وبذل ويسفل ، اعتقاداً منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التي تعاصت على قدرته ، ومتى كانت قوة المانع أعظم من قوته فلا سبيل الى العمل لاستحالة قهر المانع ، فينقطع الأمل فيقع في الشقاء الابدي .

أما لو أيقن بان لهذا الكون مدبراً عظيم القدرة تخضع كل قوة لعظمته ، وتدين كل سطوة لجبروته الاعلى ، وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عباده كيف يشاء لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس ، وتقتال آماله غائلة القنوط ، فان صاحب اليقين لو نظر الى ضعف قدرته لا يفوته النظر الى قوة الله التي هي أعلى من كل قوة فيركن اليها في أعماله ، ولا يجد اليأس الى نفسه طريقاً ، فكلما تعالجت عليه الشدائد زادت همته انبعاثاً في مدافعتها معتمداً على أن قدرة الله أعظم منها . وكلما أغلق في وجهه باب فتحت له من الركون الى الله أبواب ، فلا يعمل ولا يكل ، ولا تدركه السآمة ، لا اعتقاده أن في قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعداء ، ويلقي قيادهم الى الازلاء ، وأن يدك الجبال ، ويشق البحار ، ويمكن الضعفاء ، من نواصي الاقوياء . - وم كانت لقدرة الله من هذه الآثار ؟ - فتشدد عزيمته ويدأب فيما كافه الله من السهي لنيل الكمال والفوز بما أعد الله له من السعادة في الاولى والآخرة . وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته أن يقنط ويئأس ، ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التي لاربية فيها بما قال وهو أصدق القائلين (انه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون) وبما حكى من قول نبيه ابراهيم (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلاً على الكفر والضلال ، ومن أين

يطرق اليأس قلباً عقد على الايمان بالله وبقدرته الكاملة .

لهذا نقول أن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أن يقنطوا من رحمة ربهم في إعادة مجدهم مع كثرة عددهم ، ولا يسوغ لهم إيمانهم أن يرضخوا^(١) للذل ويرضوا بالضميم ، ويتقاعدوا عن إعلاء كلمتهم وهم إلى الآن محفوظون مما ابتلي به كثير من الأمم ، فإن لهم ملوكاً عظاماً ، ولا يزال في أيديهم ملك عظيم على بسيط الأرض ، وإن من الحق أن نقول : إن أبواب رحمة الله مفتحة لديهم وما عليهم سوى أن يلجوها ، وإن روح الله نافذة عليهم وما يلزمهم سوى أن يستنشقوها ، والفرص دائماً تمد أيديها اليهم تطلب منها ضمهم وتنبه غافلهم وتوقظ نائمهم ، وليس عليهم في استرجاع مكائبتهم الأولى والصعود إلى مقامهم الأول إلا أن يجمعوا كلمتهم ، ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم ، وذلك أيسر ما يكون عليهم ، بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم ، فأني موجب لليأس وأي داع للقنوط وبين أيديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين ؟ وهل توجد واسطة بين الرشد والغي ؟ (فماذا بعد الحق إلا الضلال) هل يكون للقائمين فيهم من عذر ؟ أيرضون بالعبودية للأجانب بعد تلك السيادة العليا ؟ ماذا يبتغون من الحياة إن كانت في ذل وإهانة وفقر وفاقة وشقاء دائم بيد عدو غاشم ؟ أيطمئنون وهم بين أجنبي حاكم ، وبغيض شامت ، ومقبح غبي ، ومشنع ذني ، ومعير خسيس ، يرمونهم بضعف العقول ونقص الاستعداد ، ويحكمون بأن محالاً عليهم أن يصيروا أمة في عداد الأمم ؟ إذا لم ينسلخ الإنسان عن كل خاصة انسانية كيف يرضى بحياة مكتتفة بكل هذه التعاسات والمكدرات ؟ أينسون أنهم كانوا الأعلين في الأرض وما طال على ذلك الزمان ، ولا محيت التواريخ ولا عفت الآثار ، ولا اضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الأرض ؟

إن كان للعامة عذر في الغفلة عما أوجب الله عليهم فأني عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون في علومه ؟ لم لا يسمعون في توحيد متفرق المسلمين ؟ لم لا يذلون الجهد في جمع شملهم ؟ لم لا يفرغون الوسع لاصلاح ما فسد من ذات بينهم ؟

(١) الوجه ان يقال يخضوا أو يخضعوا

لم لا يأتون على ما في الطاقة لتقوية المسلمين وتذكيرهم بوعود الله التي لا تخلف لمن صدق في طاعته واليقين به ، وتبشيرهم بهبوب روح الله على أرواحهم ؟ بلى إن قوماً شرح الله صدورهم للأيمان قاموا بهذا الأمر في مواقع مختلفة من الأرض ، يجمع التواصل بينها عقدة واحدة ، إلا أن أملنا في بقية المسلمين أن يتفقوا معهم ويقوموا بتعظيمهم ، ليتمكن الجميع من نصر الله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)

المقالة الثانية عشرة

رجال الرونة وبطانة الملك

كيف يجب أن يكونوا (*)

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون)

قالوا تصان البلاد ومحرم الملك بالبروج المشيدة ، والقلاع المنيعة ، والجيوش العاملة ، والأهب الوفيرة ، والأسلحة الجيدة ، قلنا نعم هي أحرار وآلات لا بد منها للعمل فيما بقي البلاد ولكنها لا تعمل بنفسها ، ولا تحرس بذاتها ، فلا صيانة بها ولا حراسة إلا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة ، وأولوا رأي وحكمة ، يتعهدونها بالاصلاح زمن السلم ، ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب ، وليس بكاف حتى يكون رجال من ذوي التدبير والحزم وأصحاب الحنق والدراية يقومون على سائر شؤون المملكة ، يوطئون طرق الأمن ، ويسيطون بساط الراحة ، ويرفعون بناء الملك على قواعد العدل ويوقفون الرعية عند حدود الشريعة ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها بينها ، بل يحملوها

(*) نشرت في العدد الحادي عشر ايضا

على أجنحة السياسة القويمة إلى أسمى مكانة تمكن لها، ولن يكونوا أهلاً للقيام على هذه الشؤون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالمرحة والشفقة على سكانها، وحتى تكون الحمية ضاربة في نفوسهم آخذة بطباعهم، يجدون في أنفسهم منها على ما يجب عليهم، وزاجراً عما لا يليق بهم، وغضاضة وألماً موجعاً عند ما يمس مصلحة المملكة ضرر، ويوجس عليها من خطر، ليتيسر لهم بهذا الاحساس وتلك الصفات أن يؤديوا أعمال وظائفهم كما ينبغي ويصونوها من الخلل الذي ربما يفضي قليله إلى فساد كبير في الملك. ف هؤلاء الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة. يسهل على أي حاكم في أي قبيل أن يكتب الكتابات ويجمع الجنود ويوفر العدد من كل نوع بنقد النقود وبذل النفقات؟ ولكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين أشرنا إليهم: عقلاء، رحماء، أباء أصفياء، فهمهم حاجات الملك كما فهمهم ضرورات حياتهم؟ لا بد أن يتبع في هذا الأمر الخطير قانون الفطرة، وبراغي ناموس الطبيعة، فإن متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق، وقلما يخطئ. في رأيه أو يتأوّد في عمله من أخذ به دليلاً، وجعل لمن هديه مرشداً. وإذا نظر العاقل في أنواع الخطأ التي وقعت في العالم الانساني من كلفة وجزئية وطلب أسبابها لا يجد لها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنة الله في خلقه.

من أحكام هذا الناموس الثابت أن الشفقة والمرحة والحمية، والنمرة على الملك والرعية، إنما تكون لمن له في الأمة أصل راسخ ووشيع يشد صلته بها. هذه فطرة فطر الله الناس عليها: أن الملتحم مع الأمة بعلاقة الجنس والمشرّب براعي نسبته إليها ونسبتها إليه ويراها لا يخرج عن سائر نسبة الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه في تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه (راجع رأيك فيما تشهد كثيراً حتى بين العامة عند ما يرمي أحدهم أهل البلد الآخر أودينه بسوء على وجه عام كسوري ينتقد المصريين أو مصري ينتقد السوريين) هذا إلى ما يعلّمه كل واحد من الأمة أن ماتناله أمته من الفوائد يلحقه حظ منها وما يصيبها من الآراء يصيبه سهم منه، خصوصاً أن كان بيده هامات أمورها، وفي قبضته زمام التصرف

فيها، فان حظه (حينئذ) من المنفعة أوفر، ومصيبته بالمضرة أعظم، وسهمه من العار الذي يلحق الأمة أكبر، فيكون اهتمامه بشؤون الامة التي هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار ما يؤمله من المنفعة أو يخشاه من المضرة .

فعلى ولي الامر في مملكة أن لا يكل شيئاً من عمله الا الى أحد رجلين إما رجل يتصل به في جنسية سالمة من الضعف والتزيق موقرة في نفوس المتظمين فيها محترمة في قلوبهم يحملهم توقيرها واحترامها على التغالي في وقايتها من كل شين يدنو منها ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والاديان وإما رجل يجتمع معه في دين قامت جامعته مقام الجنسية بل فاقت منزلته من اقلوب منزلتها كالدين الاسلامي الذي حل عند المسلمين وان اختلفت شعوبهم محل كل رابطة نسبية فان كلا من الجامعتين (الجنسية على النحو السابق والدينية) مبدآن للحمية على الملك ومنشآن للغيرة عليه .

وأما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطة مقام الجنس، فمثلهم في المملكة كمثل الأجير في بناء بيت لا يهيمه الا استيفاء أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت أو جرته السيل أو دكته الزلازل. هذا اذا صدقوا في أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الأجر واقفين فيها عند الرسم الظاهر، فان الواحد منهم لا يشرف بشرف الامة الذي هو خادم فيها ولا يهيمه شيء مما يهيمها من الضعة لانه منفصل عنها اذا فقد العيش فيها فارقها واراد الى منبته الذي ينتسب اليه، بل هو في حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته في جميع شؤونه ماعدا الأجر الذي يأخذه وهذا معلوم ببداهة العقل فلا يجد في طبيعته ولا في خواطر قلبه ما يبعثه على الخذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على ما يعلي شأنه، بل لا يجد باعثاً على الفكر فيما يقوم مصلحته من أي وجه . هذه حالهم هي لهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا صدقهم وبراءتهم من أغراض أخرى، فما ظنك بالأجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فراراً من الفقر والفاقة، وضربوا في أرض غيرهم طلباً للعيش من أي طريق وسواء عليهم في تحصيله صدقوا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا، وسواء راعوا الذمة أو خانوا، أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد

لا أنهم يمدون لها طرق الولاية والسيادة على الاقطار التي يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الأجانب في الممالك الاسلامية لا يمدون في أنفسهم حاملا على الصدق والأمانة ولكن يمدون منها الباعث على الغش والخيانة) ومن تتبع التواريخ التي تمثل لنا أحوال الأمم الماضية وتحكي لنا عن سنة الله في خلقته وتصريفه لشؤون عباده رأى أن الدول في نموها وبسطها ما كانت مصونة إلا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وما كان شيء من أعمالها يبدأ أجني عنها وان تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت في هوة الانحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها، وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية في أعمالها، فان ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار، خصوصاً إذا كان بين الغرباء وبين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم، وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة

نعم كما يحصل الفساد في بعض الاخلاق والسجاياء الطبيعية بسبب العوارض الخارجية كذلك يحصل الضعف والفتور في حمية أبناء الدين أو الأمة ويطرأ النقص على شفتهم ومرتحمهم فينقص بذلك اهتمام العظماء منهم بمصالح الملك إذا كان ولي الأمر لا يقدر أعمالهم حق قدرها، وفي هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة، فيقع الخلل في نظام الأمة ويضرب فيها الفساد، ولكن ما يكون من ضرره أخف وأقرب إلى التلافي من الضرر الذي يكون سببه استلام الأجانب لهلمات الأمور في البلاد، لأن صاحب اللحمة في الأمة وإن مرضت أخلاقه واعتلت صفاته إلا أن ما أودعته الفطرة وثبت في الجبلة لا يمكن محوه بالكالية فإذا أساء في عمله مرة أزعجه من نفسه صائح الوشيعة الدينية أو الجنسية فيرجع إلى الاحسان مرة أخرى، وإن ما شد بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه أونة بعد أونة لمراعاتها والالتفات إليها، ويميله إلى المتصلين معه بتلك العلائق وإن بعدوا.

لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق وأخص من بينهم أمراء المسلمين حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وإدارة وحماية للأجانب عنهم، بل زادوا في موالة الغرباء والثقة بهم حتى ولو هم خدمتهم الخاصة بهم في

بطون بيوتهم ، بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم في ممالكهم بعد مارأوا كثرة المطامع فيهم لهذا الزمان ، وأحسوا بالضغائن والاحقاد الموروثة من أجيال بعيدة ، وبعد ما علمتهم التجارب أنهم اذا ائتمنوا خانوا ، واذا عززوا أهانوا ، يقابلون الاحسان بالاساءة ، والتوقير بالتحقير ، والنعمة بالكفران ، ويجازون على اللقمة باللطمة ، والركون اليهم بالجفوة ، والصلة بالقطيعة ، والثقة فيهم بالخديعة أما آن لأمرء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التي لا تنقص ؟ ألم يأن لهم أن يرجعوا الى حسم ووجدانهم ؟ ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب ؟ ألم يحن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم .

ألا أيها الأمراء العظام مالكم وللأجانب عنكم (ها انتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) قد علمتم شأنهم ولم تبق ريبة في أمرهم (إن تمسكتم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) سارعوا الى أبناء أوطانكم وإخوان دينكم وملتكم ، وأقبلوا عليهم ببعض ما تقبلون به على غيرهم تجددوا فيهم خير عون وأفضل نصير . اتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس أجمعين ، وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم وما نهاكم كيلا تضلوا ويهوي بكم الخطل الى أسفل سافلين ، ألم تروا ، ألم تعلموا ، ألم تحسوا ، ألم تجربوا ؟ إلى متى إلى متى ؟ إنا لله وإنا اليه راجعون .

المقالة الثالثة عشرة

كم حكمة لله في حب المحمرة الحقة (*)

العالم الانساني كتاب المعبر ، وسفر المستبصر ، وكل قرن من قرونه صفحة ، وكل جيل من الناس سطر فيه أو جملة ، ولنا في كل ماخطه القلم الالهي عبرة ،

أول ما يفيدنا النظر فيه وقوفنا على أحوال الشعوب في أطوارها المختلفة ، وأدوارها المتبدلة ، فترى أنما علت وسمت وحلقت في جو المعالي وجازت في الرفعة مسارح النظر ، ثم انحدرت بعد هذا وتدهورت وعفت رسومها ، ولم يبق لها أثر إلا في الروايات والأحاديث . ومنها أجيال كانت في ثني العدم ، ثم اكتست حلية الوجود ، وأخذت من الاجتماع الانساني مكان الهامة من الجسد ثم انطوت وأخت عليها أمهات قشع . ومنها ما نراه الى اليوم يسحب مطارف العزة ، ويشرف على العالم بالأمر والنهي من شواهد القوة

فمن الناس من تتجلى له هذه الشؤون وتلك الأطوار كما تعرض عليه الصور والتمثيل ينسبط لبعضها إذا أعجبه ، وينقبض للآخر إذا أنكره ، وهو في غفلة من منشأ ظهورها وعلل انقلابها . فان سئل عن السبب قال : سبحانه الله ! هكذا كان وهكذا يكون ، وما هو إلا بخت يسعد فيسعد به السعداء ، وينحس فيتعس به الاشقياء .

ومنهم من تنفذ بصيرته الى الحقيقة فيقف على ماهيأه الله من الاسباب التي تتبعها أحوال الأمم في صعودها وهبوطها ، ويعلم أن ماسيق من الخير لأمة إنما كان بأيدي آحاد من أمثالها جدوا وجاهدوا ، وبما بذلوا من نفائسهم وأنفسهم فازوا بتأصيل المجد لشعوبهم وبني جنسهم ، ويرى لأولئك الأعلام ذكر أبرفم ،

(*) نشرت في العدد الثاني عشر من جريدة العروة الوثقى في ١٠ رمضان ١٣٠١

٣ يونيه سنة ١٨٨٤

ومكانة من القلوب تحمد ، وتميزاً عند الخلف بالكرامة ، وهم لم يخالفوا الناس في
جسومهم ودمائهم وإنما تقدموهم بهمهم ، وقد يسوقه الاعتبار الى الاقتداء بهم
رغبة في اقتطاف ثمار الثناء وتخليد الذكر ، فاذا أخذ مأخذهم واستقام على طريقهم
فلا يكاد يخطو بعض خطوات ومبدأ المسير تحت نظره ، حتى تتعثر أقدامه في أياد
مقطعة ، وروس مجذوزة ، وأشلاء مبددة ، وشعور منشورة ، وصدور مدقوقة ،
ويشهد الطريق مضرسة بقبور الشهداء من طلاب الحق والناهجين في منهاجه ،
ولا يحيص له عن سلوكها ، وتبدو له غابات وأدغال يرجع اليه منها صدى زئير
الآساد وزججرة الضراغم ، ولا بد له من اختراقها

هكذا تنكشف لطالب المعالي موحشات مدهشات مصاوله ، المخاطر أدناها ،
والموت الشريف أقصاها وأعلاها ، فتارة يخور عزمه ، ويضعف همه ، فينكص
على عقبيه ، ويرتد الى أسوأ حاله ، ويرتفع في مراتع أمثاله حتى يروح الى عطنه
الاولى به وهو العدم ، وتارة يوحى اليه الالهام الالهي ، أن الشخص في خاصته
والأثم في هيئاتها ، ونوع الانسان في مجموعه ، تطايبها صورة الابداع بأعمال شريفة
دونها اجهاد الانفس في السعي وحملها على مالا تهوى ، ومغالبة الاهوال والغوائل ،
وفيما أودع الله الانسان من القوى العالية ، والخواص السامية ، أكبر مساعد على
ما تندفع اليه الهمة ، وتتبعث له العزيمة .

ان من أحياء الله بالحياة الانسانية كلما حاجته المصاعب لا يزداد إلا حرصاً
على قهرها ، كما أن صاحب الشم لا يزيده الخصام إلا حدة في الجدال واصراراً
على اقناع المخاصم . وكثير ممن على شكل الانسان يحيا حياته هذه بروح
حيوان آخر وهو يعاني فيها من الشقاء أشد ما يعانيه الانسان في ابراز مزايانا الانسان
إن صاعد الجبل ربما يجد شيئاً من التعب ويخشى مقترسة الكواسر ولكن
قد ينجو منها ويستريح على القنة ، ويعتصم بمكانة من الرفة ، وتقتصر عنه
بد المتناول . وأما من أخذ الى السفلى فحظه من الحياة خوف لا ينقطع واشفاق
لا يزول . كل لحظة توعده بالسقوط في صيد الصائد ، والوقوع بين أنياب الغائل .
مات من الناس كثير في طلب العلاء ولم ينالوا ، وبلغ كثير من الطالبين غاية ما

أملوا ، ولكن هلك بالفتك أضعاف هؤلاء ، وهؤلاء ممن رموا الخول ، ورضوا بالحياة الحيوانية — هذه أحاديث الحق ونفثات الروح الزكية تبعث من أيده الله ووهبه نعمة العقل الى مداومة السير واقتفاء أثر الماضين إلى أشرف المقاصد ، فاما وصل وإمامات كما يموت الكرام

لم تنل أمة من الأئمة مزية من المزايا المحمودّة عند بني البشر ، سواء في العلوم والمعارف ، أو الآداب والفضائل ، أو القوانين والنواميس العادلة ، أو العسكرية وقوة الحماية ، حتى خرج آحاد منها الى ماتخشاء النفوس وتمابه القلوب ، وسلوكوا تلك المسالك الوعرة ، فبلغوا بأهمهم ، أقصى ما بلغت بهم همهم ، مع الاعتماد على العناية الإلهية في جميع سيرهم

ماذا يريد العاؤون في خدمة الأئمة أو النوع الانساني ، والمنفقون لحياتهم في أعمال فادحة يعود نفعها على من يجمعه معهم جامعة الأئمة أو الملة أو يشاركهم في النوع ؟ أليس قد جعل الله لكل شيء سبباً ؟ أليس من سنة الله في عباده أن لا تتبعه الإرادة البشرية إلى حركة تصدر عن المرید الا بعد تصوّر غاية تعود الى ذاته ، وبعد اليقين أو راجح الظن بأنه يستفيد الغاية من العمل ؟ فان كان الأجل يذهب في مساورة الآلام الروحية ، والعمر ينفد في مناهضة الأوصاب البدنية . فماذا يقصدون من أعمالهم ؟ إن كان يوجد في أبناء جلدتهم ، وذوي ملتهم ، من يساعد حوادث الكون على إيلاهم ، وممانعتهم في مقاصدهم ، وصدّهم عن السعي فيما يرجع خيره الى أنفس المعارضين ، ويشخن فيهم جراح اللوم والتقريع ، والشتمة والتشنيع ، أو يدافعهم بالمسكافحة والمنازلة ، فما الذي ينتغون من جدم وكدم ؟ لا لذة تجتني ، ولا ألم يتقي . فما هذا الباعث القوي الذي غلب الأهواء ، ولم يضعفه جهد البلاء ؟

نعم أودع الله في الانسان ميلا أقوى من كل ميل ، وهو أخص خاصة فيه يمتاز بها عن غيره من الأنواع — وهو حب المحمودة الحقّة وحسن الذكر من وجوه الحق أقول هذا تفاديا من حب المحمودة من أي وجه حقا كان أو باطلا ، وطلب الثناء بالزور والغش والرياء ، والظهور بمظاهر الأخيار ، مع تبطن سرائر

الأشرار ، فإن هذا من أسوأ الخلال ، وإنما يعرض بعد اعتلال الفطرة وفساد الطبيعة . المحمدة هي الغذاء الروحاني ، والمقوم النفساني ، وكلما قرب الشخص من الكمال الانساني تهاون بالشهوات ، وازدري اللذائذ الحسية ، وقوي فيه الميل الى المحمدة الباقية ، وبذل الوسع فيما يفيدها من جلائل الأعمال ، تأمل ، إن الفاضل يرى له في هذا العالم أجلين ، أقصاهما الأجل المحدود من يوم ولادته إلى نهاية العمر المقدر ، والآخر أبعد من هذا نهاية ، وبدايته عند ما ينجم من عمله الصالح أثر لمنفعة تشمل أمته أو تعم النوع الانساني . وغاية هذا الأجل عند ما يمحي أثره من ألواح النفوس وصفحات التاريخ . فللروح الفاضلة وجودان وجود في بدنها الخاص ، ووجود في جميع الأبدان ، وهو ما يكون مجلوها من كل روح محل الكرامة والتبجيل . ولا ريب أن هذا الأجل الطويل ، وهذا الوجود العريض ، خير من ذلك الأجل القصير ، والوجود الكثر^(١) وحقيق بالانسان أن يبيع ما هو أدنى بالذي هو خير

يطول بي الكلام فأقصر . إن الله الذي وهب كل نوع ما به كماله وضع في جبة البشر ميلا الى الحمد ، وألهمهم تأدية حقه لمستحقه . ألم تر انطلاق الألسن في كل أمة بالثناء على من كان سبباً لها في مجد ورفعة ، أو نهوض من سقطة ، أو توحيد كلمة ، أو تجديد قوة ، أو كمال في فضيلة ، أو تقدم في علم أو صنعة ، ويرسونه في الألواح ، ويسجلون مدحته في بطون التواريخ ، ويرفعون لها الهياكل والتماثيل ، ويحفظون له ذكراً حميداً يتناقله الأبناء عن الآباء ، حتى ينقرضوا أو ينقرض العالم ؟ إذا جمعت الأمة حق العامل لها أو قصرت في استحسان عمله ، ضعفت الهمة ، وقلّ السعي في المصالح العامة ، وانقبضت الأيدي عن تعاطيها ، فهبطت شؤون الأمة ، فافترقت وماتت

إن الله جل شأنه قرن كل حادث بسبب ، فإذا استوى لدى الأمة الحسن والقبيح ، والطيب والخبيث ، والفضيلة والرذيلة ، والمصلحة والمفسدة ، وفقد منها التمييز ، ولم تقدر أعمال العاملين حق قدرها ، ولم تعرف معروفها ، ولم تنكر

(١) الكثر اليابس والمنقبض . وكثر اليدنين بخيل والمراد هنا مالا خيراً فيه

منكرأ ، سلبت آحادها الميل الى المعالي والكمالات ، وكان هذا أشد نكايّة بها من جور الظالمين ، وتغلب الغالبين ، ظلم الظالمين لا يدوم ، وسطوة الغالب لا تثبت إذا كان جمهور الامة يقابل الاحسان بالاعتراف ، والفضل بالحمد ، فانه يوجد منها من يشتري هذه المكافأة بتخليصها وإتقادها . وأما فقد هذا الاحساس الشريف ، فهو أشبه علة بالهرم لاعتقبي له الا الموت والهلاك

كيف لاتكون المحمودة الحقّة نعمة على النفوس الانسانية ، يسعى لها الأعلون من بني الانسان . وقد امتن الله بها على نبيه فيما يقول له (ورفعنا لك ذكرك) وكيف لاتكون حقاً تطالب به الطبيعة وقد سمح الله لمستحقها بالتحدث بنعم الأعمال الصالحات ؟ كما سوغ ذلك لنبيه في قوله (وأما بنعمة ربك فحدث) قلب طرفك في تواريخ الأمم أقصاها وأدناها ، تجد برهاناً قاطعاً على أن الامة متى بنحت قيم الاعمال العالية ، وازدري فيها بشأن الفضيلة ، فقدت ما به قوامها وانهدم بناؤها ، وذهبت كما ذهب أمس . ولا جرم إن الكفران مقرون بزوال النعم يمكنني أن أختم كلامي هذا بكلمة شكر لهذه العصابة الطاهرة التي أقدمت في هذه الأوقات النحسة ، ووقفت على شفير الخطر ، وكتبت على نفسها السعي في توحيد المسلمين . ويسرنا أن نرى عددها كل يوم في ازدياد ، نسأل الله نجاح أعمالها وتأيد مقاصدها ، إنه نعم المولى ونعم النصير

المقالة الرابعة عشرة

الشرف (١)

كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس ، الا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون : فئة ترى الشرف في تشييد القصور ، والتعالي في البنيان ، وزخرفة الحوائط والجدران ، ووفرة الخدم والحشم ، واقتناء الجياد ، وركوب العربات . وفئة أخرى تتوهم أن الشرف في لبس الفاخر من الثياب ، والتزين بألوان الألبسة وأنواعها ، والتجلي بحلي الجواهر الثمينة ، مرصعة بالأحجار الكريمة ، كالألماس والياقوت والزمرد ونحوها . وفئة تتخيل الشرف في الألقاب والرتب كإليك والباشا ، أو في الوسامات المعروفة بالنيشين وعلو أسمائها كالأول من الصنف الفلاني ، والثاني من الدرجة الفلانية . حتى إنك ترى الرجل يسلب مال أخيه ، وينهب ثروة أقاربه وذويه ، أو بني ملته ومواطنيه ، ليشيد بما يصيب من السحت قصرأ ، ويرفع ويزخرف بيتأ ، ويقيم له حراسأ من الممالك ، وخفراء من الغلمان ، ويظن بذلك أنه نال مجداً أبدياً وفخاراً سرمدياً . وصح لحاله أن يعنون بعنوان الشرف . وتجد الآخر يذهب في الكسب أشنع مما يذهب الأول ليكتسي برفيع الثياب ، ويتزين بأجل الحلي ، أو ليكون له من ذلك ما يفاخر به أمثاله ، ويتخيل أنه بلغ به درجة من الرفعة لا يداني فيها . ويعبر عن حاله هذا بلفظ الشرف ، ويتوهم أنه وصل الحقيقة من معناه — ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع نهاره بالفكر في وسيلة ينال بها لقبأ من تلك الألقاب ، أو يحصل بها وسامأ أو يستفيد وشاحا . وسواء عنده الوسائل يطلبها أيا كان نوعها، وإن

(*) نشرت في العدد الثالث عشر من جريدة الروة الوتقى بتوقيع محمد نجيب الاسكندري الحسيني وقد سألت الاستاذ الامام رحمه الله عن محمد نجيب هذا فقال انه اسم مستعار فالمقالة من انشائه رحمه الله تعالى

أفضت الى خراب بلاده أو تذليل أمته أو تمزيق ملته . وعنده أنه رقي الذروة من معنى الشرف

نحن نرى هذه الأوهام قائمة مقام الحقائق في أذهان كثير من الناس ، ولكن لا نراها طمست عين الحق فيهم ، حتى عموا عن ادراك خطتهم وانحرافهم عن الصواب في وهمهم ؟ ماذا يجد من نفسه المباهي بقصوره ، وولداه وحوره ؟ ألا يحس من نفسه أنه وإن حاز منها أعلى ما يتصوره العقل ، فذاته التي هي أعز لديه من جميع ما كسب لم تستند شيئاً من الكمال ، وأن جميع ما حصله فهو أجنبي عنه . وليس له نسبة اليه الانسبة العناء في تحصيله ؟ ألا يرى أن كثيراً ممن بلغ مبلغه أو فاقه ، سلبتهم صروف الدهر ما بأيديهم ، فأصبحوا بصفاتهم وجواهر ذاتهم ، فإن لم تكن على جانب من الكمال الانساني انخرطت في سلك الطبقات السافلة ، ولم يبق لهم في القلوب منزلة ولا في النفوس مكانة ماذا يشعر به المفاخر بحليته ولباسه اذا مجرد منه وخلي بنفسه ان لم يكن لذاته حلية من الفضيلة وزينة من الكمال ؟ ألا يكون هو وعرة الفقراء سواء ؟ ألا يجد من سره عند المفاخرة أنه يجول مع الغانيات وربات الخدور في ميدان واحد ؟ ماذا يتصور الزاهي برتبته ، المعجب بوسامه ، ان لم يكن قبل وسمته أو الصعود لرتبته على حال تجل أو كمال يبجل . أليس يشعر أنه لو سلب الوسام أو نزع عنه الوشاح يعود الى منزلته من الاحتقار ؟ فان نال الكرامة عند بعض السذج واللقب معلق عليه ، أليس ذلك تعظيماً للقب لا للملقب به ؟ ألا تكون هذه الكرامة عارضاً سريع الزوال ، بل رسماً ظاهراً لا يمس بواطن القلوب ؟

نعم لهذه الألقاب الشريفة شأن يرتفع به النظر اذا سبق بعمل يعترف عموم العالم بشرفه ، وكان اللقب دليلاً عليه أو مشيراً اليه ، كما يكون لمثلها حال يسقط به الاعتبار اذا تقدمها فعلة يمتنها العقلاء من النوع البشري ، وكان الوسام واللقب عنواناً على ما افترف كاسبه ، وعلامة على ما اجترم .

انظر وتدبر ولا تخطي فما أنت من الصواب ببعيد . إن عثمان الغازي الذي لقبه أعداؤه بأسد (بلاونه) نال رتبة ، ومنح لقباً ، وحظي بمكانة رفيعة بين

الطبقة العليا من العظاماء في دولته ، بعد ما دفع بروحه للموت في المدافعة عن ملته ،
وجاهد في إعلاء كلمة دينه بما شهد له به الأعداء والأصدقاء — وأن بعض
الامراء في ديار اسلامية علمت عليهم القاب شريفة من دولة كدولة الانكايز
جزاء لهم على ما تقدموا أمام جيوش أعدائهم لافتتاح بلادهم ، حتى مكثوا الانكايز
من ديارهم . وجميع المسلمين الآن يكابدون الجهد في إيجاد الوسائل لخروجهم
منها — أين موقع النيشان من صدر عثمان باشا الغازي من موقعه على صدر
أولئك المحدودين ، أظن رجح النظر بين الموقعين يثبت لك أن النيشان يشرف
بشرف العمل الذي جعل دليلا عليه ويسقط بسقوطه .

ماذا غرّ أولئك الواهين على اختلافهم ؟ ألا يعلمون أن الثياب المعلقة بالدم ،
الموشاة بالنجس ، الملوثة بالمج ، هي التي حفظت للاسيها ذكرآ حسنا لا ينقطع ،
وأثرا مجيدا لا يمحي . إن الذين ضُرجوا بدمائهم في طلب المجد ملتهم ، هم الذين
خشعت لذكرهم الأصوات ، وأجمعت على فضيلهم خواطر القلوب . ألم يصل اليهم
أن الذين قضوا نحبهم في غيابات الحب ، وانتهت حياتهم في ظلمات السجن ،
لطلب حق مسلوب ، أو حفظ مجد موجود ، هم الذين سما ذكرهم الى شرف
الشمس الأعلى ، وعالت أسماؤهم على جميع الأسماء . أظن أن الذين كانوا في
الغرفات العالية ينظرون الى جناتهم وحدائقهم ، ويشرفون على الناس من شرفات
قصورهم ، وقصروا حياتهم على التمتع بما نالوا ، لم يبق لهم ذكر ، ولم يكن لهم
في حياتهم شأن ، إلا ما هو محصور في دوائر بيوتهم . ولا يختلف عنهم أولئك
الذين كانوا يسحبون مطارف الرفة ويكتسون حلال الخبز والديباج ، ذهبوا وذهبت
معهم أكسينهم ، وارتدوا من حيث أتوا لا يعلم متى جاؤا الى الدنيا ، ومتى
انكشفوا عنها

هل سمعنا أن أحدا يذكر بين بني البشر بأنه نال نيشان كذا وحصل رتبة
كذا ؟ نعم يقولون : علم وعمل ، وأعطى وبذل ، ورفع ووضع ، وجاهد وكافح ،
وآباد وأبقى ، وما يشاكل ذلك من الاعمال التي لها أثر ثابت . إذا ذكر
الاسكندر الأكبر هل يخطر بالبال إن كان له قصر أولا ؟ أي أبله يطلب سيرة

نابليون الأول في آثار قصر كان يسكنه ، أو في خرق ثياب كان يلبسها ؟ وهل بلغ عظماء العالم ما بلغوا من مقامات الشرف بعد ما شيدوا وزينوا وترفها وتعموا ، أم كان جميع ما ينالون من ذلك بعد أن يسودوا ويفتحوا ويغلبوا أو يأخذوا بالنواصي ؟ خدع قوم بالاحلام وغرتهم الأوهام ، ففرطوا في شؤون بلادهم ، وباعوا مجدها الشامخ بتلك الاسماء التي لا مسمى لها ، وزعموا وإن لم تطاوعهم ضمائرهم أنهم رقوا من مكانة الشرف وإن كان خاصا بهم بعد ما علموا أن الرتب والنياشين جاوزت حدتها ، ونالها غير أهلها ، فلو أنهم أصغوا لما يتحدثهم به سرائرهم ، وتعنفهم به خواطر أفئدتهم ، ورمقوا بأبصارهم ما يحيط بهم ، لعلموا أنهم في أخس المنازل وأبعد المراكز ، وأدركوا خطأهم في معنى الشرف وجورهم عن جادة الصواب في طلبه .

— لو أحسوا بما رزئت به أوطانهم ، وما لصق من الذل والعار بذرايرهم لطحوا الوشاحات ، وتبدوا الوسامات ، ولبسوا أبواب الحداد ، ونفروا خفافا وثقالا لطلب الشرف الحقيقي

— الشرف حقيقة محدودة كشفها الشرائع ، وحدتها عقول الكاملين من البشر . وليس لذي شاكلة إنسانية أن يرتاب في فهمها ، إلا من ختم الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

— الشرف بهاء للشخص ، يحوم عليه بالأبصار ، ويوجه إليه الخواطر والأفكار ، وجمال يروق حسنه في البصائر والابصار .

ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه ، يكون له أثر حسن في أمته أو بني ملته ، أو في النوع الانساني عامة ، كاتقاذ من تهلكة ، أو كشف لجهالة ، أو تنبيه لطلب حق سلب ، أو تذكير بمجد سبق ، وسؤدد سلب^(١) أو إنهاض من عثرة ، أو إيقاظ من غفلة ، أو إرشاد لخير يعم ، أو تحذير من شر يعم ، أو

(١) في الاصل سلق باللام فهو محرف عن سلب أو عن سلق بالميم بمعنى علا وارتفع وهذا اقرب الى اللفظ وذلك الابق بالاسلوب

تهذيب أخلاق ، أو تثقيف عقول ، أو جمع كلمة وتجميد رابطة ، أو إعادة قوة ، وانتشال^(١) من ضعف أو إيقاد حية أو حضو لغيرة .

من أتى عملاً من الأعمال له أثر من هذه الآثار فهو الشريف وإن كان يسكن الخصاص والأكواخ ، ويلبس الدلوق والأسمال ، ويقتات بنبات البر ، ويبيت على تراب القفر ، ويتوسد نشز الأرض ، ويضرب في كل واد ، ويتردد بين الربا والوهاد ، هذا له حلية من عمله ، وزينة من فضله ، وبهاء من كماله ، وضياء من جده ، يهدي اليه ضالة الألباب ، وتأنثاة الافئدة ، تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره ، وتكتنفه ذرات القلوب المتطائرة اليه ولا تنفصل عنه . له من روحه قصور شاهقة ، وغرفات شائقة ، ومناظر رائقة ، وجمال باهر ، ونور زاهر ، لا يكاد يخفى حتى يظهر ، ولا يكاد يستتر حتى يبصر ، اليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه الى أعلى عليين . حياة طيبة في القلوب ، وعزة مشرقة في جبهة الزمان (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)

نعم قد ينبعث غليه من أرباب الطباع الفاسدة بعض الكرائه ، فيسلقونه بالالسنة ، ويرشقونه بسهام اللوم ، ولا تروق في أنظارهم أزهار أعماله . ولا أوامر مزاهره ، لبعدها عن فهمهم ، وغرابتها على حواسهم ، لما ألفوه من الانكباب على تلك السفاسف الساقطة ، التي عدوها شرفاً ، وحسبوها مجداً . وقد بينها كما كشفتها الشرائع وآراء العقلاء . وإنما مثلهم مثل الجعل ينغم من رائحة الورد ويألف روائح القدر . لا يبعد أن يسخر بالعامل الفاضل أناس لاخلق لهم ، أو يقصده بالاضرار من لازمة له ، ولكنهم بأنفسهم يهزؤون ، وبمصالحهم يضررون ، ولا يطول عليهم الزمان في هذا العمى ، بل لا يلبثون اذا بدت الثمرة الشبيهة أن يهرعوا لاقتطافها ، ويطعموا من جناها . ولا يسمعون بعد ذلك الا الحمد لغارس الشجرة وحافظ الثمرة ، وإن كان دونهم في تلك الزخارف التي لا قيمة لها في

(١) الانتشال اخذ اللحم عن العظام او نشله من القدر بالمنشال « حديدة مقوفة لأجل النشل » واستعمله المتأخرون من الكتاب بمعنى الانتياش وهو الاقاز من التهلكة . ومعنى الساتين في الاصل متقارب

نظر العاقل . ثم يكون عقابهم على ما فرط منهم ندم على الخطيئة ، وأسف على السيئة ، وألم في قلوبهم ، تهيج ذكري ما قدموا من سوء عملهم ، وانكشاف نقصهم لدى وجدانهم . هكذا تمنح العناية الالهية هذه الكرامة لصاحب العمل الشريف مادام حيا . فاذا غابت شمس عن أفق هذا العالم لم تحجب أشعة ضيائه التي فاضت منه على نجوم هاديات ، وبدور منيرات . نعم انه يموت ويتواري خلف حجاب العدم بجسمه ، ولكنه قائم في الأفتدة ، شاهد على الألسنة ، حي يرزق عند ربه ، ونعمت الحياة حياته . ولمثل هذا فليعمل العاملون

المقالة الخامسة عشرة

دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الافغانه *

إذا أراد الله بقوم خيرا جمع كلمتهم

سرنا من الجرائد الفارسية صدقها في خدمة أوطانها واعتدالها في مشاربها ، وزادنا مسرة اهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدتنا ، ونقلها الى اللسان العذب الفارسي مما تظن فيه تنبيها لأفكار المسلمين ، واستلفانا لعقولهم الى ما فيه خيرهم ، فلها منا ومن كل مخلص في محبة ملته أوفر الشكر خصوصا جريدة (اطلاع) التي تطبع في مدينة طهران . وهذا المنهج القويم مما تعم به الفائدة في جميع الاقطار الاسلامية ، فان جميعها بعد بلاد العرب وان اختلفت ألسنة سكانها باختلاف شعوبهم ، الا أنهم ينطقون باللغة الفارسية ، فهي في الشرق كاللسان الفرنسي في الغرب ، وكان بودنا أن يعززوا أفكارنا بما تجود به قرائهم السليمة ، وأذهانهم الصافية ، وترشدهم اليه عقولهم العالية ، خصوصا فيما يتعلق بالدعاء للوحدة الاسلامية ، واحياء الرابطة المليية بين المسلمين ، لاسيما في الاتفاق بين الايرانيين والافغانين .

(*) نشرت في العدد الرابع عشر من جريدة العروة الوثقى في ٢٢ شوال سنة

١٣٠١ و ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤

هانان طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة ، وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الاصل الفارسي القديم . وقد زادهما ارتباطا اجتماعيا في الديانة الحقبة الاسلامية ، ولا يوجد بينهما النوع من الاختلاف الجزئي لا يدعو الى شق العصا ، وتمزيق نسيج الاتحاد ، وليس بسائع عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التغاير الخفيف سبباً في تخالف شديد

ليس ببعيد على همم الايرانيين وعلو افكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الاسلامية ، وتقوية الصلات الدينية ، كما قاموا في بداية الاسلام بنشر علومه ، وحفظ أحكامه ، وكشف أسرارهِ . وما قصرُوا في خدمة الشرع الشريف بأي وسيلة .

نعم البخاري ومسلم والنيسابوري والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو داود والبغوي وأبو جعفر البلخي والكايني وغيرهم ممن أنبتهم اراضي ايران . أبو بكر الرازي الطبيب الشهير والامام فخر الدين الرازي ممن نشأوا في طهران ، أبو حامد الغزالي حجة الاسلام وأبو اسحق الاسفرايني والبيضاوي وخواجه نصير الدين الطوسي والأبهري وعضد الملة والدين وغيرهم من علماء الكلام والأصول ممن تفتخر بهم بلاد فارس وهم فخار المسلمين . الفيلسوف الشهير أبو علي ابن سينا وشهاب الدين المقتول ومن على شاكلتهم ممن جبلوا من تراب فارس أن أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربي وضبط أصوله ، وتأسيس فنونه ، منهم سيويو وأبو علي الفارسي والرضي ، ومنهم عبد القاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة لبيان إعجاز القرآن وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية . وصاحب صحاح الجوهري من إحدى قراهم ، ومجد الدين الفيروز آبادي من إحدى بلدانهم

الزنجشيري والسكاكي وأبو الفرج الاصفهاني وبدیع الزمان الهمداني وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن وشيدوا معالم الدين كلهم من أرض فارس . الطبري أول المؤرخين ، والاصطخري والقزويني أول الجغرافيين ، كانوا من بلاد فارس

الشبلي كان من نهاوند ، وأبو يزيد البسطامي كان من بسطام ، والاستاذ الهروي وهو الاستاذ الحقيقي للشيخ محيي الدين بن العربي كان من هراة ، وكلها بلاد ايران هل ينسب صدر الشريعة وفخر الاسلام البزدوي والآمدي والمرغيناني والسرخسي والسعد التفتازاني والسيد الشريف والأيوردي وكلهم من أبناء فارس . من أين كان القطب الشيرازي والصدر الشيرازي ورأس الحكمة في المتأخرين ميرباقر الداماد ومير فندرکسي وغيرهم ؟ كانوا من بلاد فارس ^(١) أي فضل كان ، ولم يكن لهم فيه اليد الطولى ، أي مزينة من الله بها على الاسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها ، نعم وفيهم جاء من قول النبي صلى الله عليه وسلم « لو كان العلم في الثريا لنالته رجال من فارس » ^(٢)

(١) أن كثيراً من هؤلاء العلماء كانوا من العرب فنسبتهم الى بلاد الفرس نسبة بلد وتربة لاجنس ولا لغة ، وكان منهم الفارسي المعروف الاصل كسيبويه والجوهري ... والعربي المعروف النسب كعبد القاهر الجرجاني والسيد الجرجاني والمجد الفيروزبادي وابوالمرج الاسفهاني وأبو اسماعيل الهروي الانصاري ... ومنهم المجهول النسب كالغزالي . وذلك ان الاسلام مزج بعضهم ببعض فكانوا أمة واحدة لا تفاضل بينها إلا بالعلم والعمل الصالح . ثم فرقت السياسة بين العرب والفرس . وستجمع بينهم السياسة التي جمعت الجميع مهددين باستمباد الافرنج لهم (٢) الحديث مروي عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ « لو كان الايمان عند الثريا لتناوله رجال من فارس » هكذا ذكر في الجامع الصغير وعليه رمز اتفاق البخاري ومسلم (ق) ورمز الترمذي وبجانبه الاشارة إلى ضعفه وهي غلط من الطبع . ثم ذكره عنه بلفظ « لو كان العلم معلقاً بالثريا لتناوله قوم من أبناء فارس » وعزاه إلى الحلية لابن نعيم واللقاب للشيرازي مع علامة الضعف . وسبب ذلك انه من طريق شهر بن حوشب وهو مختلف فيه وثقه جماعة وضمه آخرون . ولعل أعدل الاقوال فيه ما ذكره الترمذي عن البخاري قال عنه : شهر حسن الحديث ، وقوى أمره اه وروى عنه مسلم وأصحاب السنن الاربعة . وأما الحديث الاول المتفق عليه فروي بلفظ الدين ولفظ الايمان وروى في سببه انه لما نزلت سورة الجمعة وقرأ النبي (ص) قوله تعالى بعد آية بمثته في الاميين - أي العرب - (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قال أبو هريرة الرواي قلت من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً (قال) وفيما سلمان الفارسي وضع رسول الله (ص) يده على سلمان ثم قال « لو كان الايمان عند الثريا لنالته رجال من هؤلاء »

فيأيتها الفارسيون تذكروا أياديكم في العلم وانظروا الى آثاركم في الاسلام
وكونوا للوحدة الدينية دعامة ، كما كنتم للنشأة الاسلامية وقاية .

أنتم بما سبق لكم أحق الناس بالسعي في استرجاع ما كان لكم في فتوة
الاسلام ، أنتم أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الاسلامية وما ذلك بعيد على
طيب عناصركم وقوة عزائمكم . أظن أنه لا يخفى عليكم أن هذا الوقت هو أحسن
الافاق لتدائلكم بالوحدة مع الافغانيين ، والتحالف معهم على مقاومة العادين ،
لتكونوا بالاتحاد معهم حصناً حصيناً وحرزاً منيعاً تقف دونه أقدام الطامعين .
أنظركم لم تنسوا أن استيلاء الانكايز على الممالك الهندية إنما تم بوقوع الخلاف
بينكم وبين الافغانيين

هل يخفى عليكم أن كل مسلم في الهند شاخص بصره الى طرف بنجاب ينتظر
قدمكم اذا اتحدتم مع اخوانكم الافغانيين . ؟ حصلت لكم تجارب كثيرة ، وشهدتم
من مظاهر الحوادث ما فيه أكمل عبرة ، فهل يصح بعد هذا أن تستمروا على التجافي
والتباعد مع علمكم أن الوحدة منبت الشوكة .

هذا آن التآخي والتوافق ، هذه اوقات التحالف والتوافق ، أحاط
الاعداء ببلادكم ، شرقاً وغرباً وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه ، حتى تتمكنه الفرصة
من شن الغارة على أطراف بلادكم ، فلو ضاعت الفرصة في هذا الوقت
فربما لاتصادفونها في غيره . الانكايز في ارتباك شديد في المسئلة المصرية مع ضعفهم
في القوة العسكرية ، ومتورطون باختلاف الدول عليهم ومعاكساتها لمقاصدهم

الامير عبد الرحمن خان أمير أفغانستان على ما نعهده من أول شبوبيته أشد
الناس عداوة للانكايز ، وبينه وبينهم حزازات لاتزول ، بل نقول إن عداوة
الانكايز سارية في عروق الافغانيين عموماً ممتزجة بدمائهم . فلو حصل الاتفاق
الآن بين سلطنة الشاه وبين إمارة الافغان لوجدت قوة اسلامية جديدة في
المشرق بين سائر الطوائف الاسلامية ، وينبعث فيهم وفي سائر المسلمين حياة
جديدة ، وتتجدد لهم آمال جليلة ، وتتغش بذلك أرواح المؤمنين . هذا وقت
تجهت فيه أفكار الافغانيين الى أعمال جبراتهم في المسئلة المصرية ، وتحركت

فيهم السواكن، وهي أعظم فرصة لأهل فارس في دعوتهم للاتحاد معهم هذا عمل من أجل الاعمال وأجزؤها فائدة، وإن من أكبر الفضل أن يقوم أهل الفضل من أهالي ايران بتحرير الفصول ونشر الرسائل في بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين، وإن لذلك لا تراً عظيماً في النفوس خصوصاً إن كانت من أقلام العلماء الاعلام، والمجاهدين الكرام.

العالم الانساني عالم الفكر والكلام فاحكام الفكر الصالح ونشره في الكتب والرسائل والجرائد مما يؤثر أجل الأثر في تهذيب النامس وتنقيف عقولهم، وإزالة الضغائن المفسدة لمعاشهم ومعادهم، فاذا قام المستبصرون وخطبوا ووعظوا، وكتبوا ونشروا، مع الوقوف عند الحدود الدينية والاصول الشرعية، كان فضل الله كفافاً لهم النجاح. أي فرق بين الافغانيين واخوانهم الايرانيين؟ كل يؤمن بالله وبما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. عبد الرحمن خان بما أكسبته التجارب أول من يتقدم لهذا الاتفاق، ولا نشك أن شاه ايران لما اطلع عليه في سياحاته وشاهده في أسفاره لا يأبى المبادرة اليه والسعي فيه. إن البادى بالعمل في هذا المقصد الاسمي هو صاحب الفضل الاعظم بين المسلمين خصوصاً وبين العالم عموماً ويحني ثمرته في وقت قريب. كان الألمانيون يختلفون في الدين المسيحي على نحو ما يختلف الايرانيون مع الافغانيين في مذاهب الديانة الاسلامية، فلما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية ظهر الضعف في الأئمة الألمانية، وكثرت عليها عدايات جيرانها، ولم يكن لها كلمة في سياسة أوروبا، وعند ما رجعوا الى أنفسهم وأخذوا بالاصول الجهورية، وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة، أرجع اليهم من القوة والشوكة ما صاروا به حكام أوروبا ويدهم ميزان سياستها.

رجاؤنا في الافاضل الكرام صاحب جريدة (فرهنگ) الأصفهانية وصاحب جريدة (اطلاع) الطهرانية وسائر أرباب الجرائد الايرانية، أن يوجهوا أفكارهم الى هذا المطلب الرفيع ويجعلوا له محلاً فسيحاً في جرائدهم وينشروها في بلادهم وبلاد الافغان باللسان الفارسي وهو لسان الطائفتين. وما هي إلا أيام ثم نرى علام النجاح إن شاء الله رب العالمين.

المقالة السادسة عشرة

امتحان الله للمؤمنين (*)

آلم . أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين

من الناس بل أغلب الناس يقول : آمنا : وللايمان آثار . ثم يحسبون أن الله يتركهم وما يقولون ، ويدعهم وما يتوهمون ، ويعاملهم سبحانه وهو الحكم العدل بما يظنون في أنفسهم قبل ان يتليهم أيهم احسن عملا ، حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم ، ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هذه دعوى سواها النفس ، وغرت بها الاثماني ، وأنهم تأنهون في أوهامهم يحسبون أنهم على كل شيء ، وهم خلوم من كل شيء ، ولما يدخل الايمان في قلوبهم . ألا انهم في حساباتهم لمخطئون ، فلن يدع الله الغرور في غيه حتى يتليه في دعوى الايمان ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين . ولئلا تكون للناس على الله حجة . حاشا حكيما أنزل الكتب وأرسل الرسل ، ووعد وأوعد ، وبشر وأنذر ، وقوله الصدق ، ووعد الحق ، أن يجازي من بنى عقيدته على خيال ليس له أثر وظن ليس له أساس بالسعادة السرمدية والنعيم الأبدى . إن المغتر بزعمه الخائر في ظلمات أوهامه ، الذي لا يسهل عليه الايمان احتمال المشاق ، تجشم المصاعب في سبيله ليس بمعزل عن المنافقين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الأبدى والعذاب المخلد . الايمان يغلب كل هوى ، ويقهر كل أمنية ، ويدفع بالنفس إلى طلب مرضاة الله بلا سائق ولا قائد سواه .

يقول الله وهو أصدق القائلين (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم

(*) نشرت في العدد الخامس عشر من جريدة العروة الوثقى في يوم الخميس

في ٦ ذي القعدة سنة ١٣٠١ و ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٤

الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون (هذا قضاء الله وهما حكمه على الذين يستأذنون في بذل أرواحهم وأموالهم في أداء فريضة الايمان . حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون

صدق الله وصدقت كتبه ورسوله ، إن للعقائد الراسخة آثاراً تظهر في العزائم والأعمال ، وتأثيراً في الأفكار والارادات ، لا يمكن للمعتقدين أن يزحموها عن أنفسهم ماداموا معتقدين . هكذا الايمان في جميع شؤونهم وأطواره ، له خواص لا تفارقه ، ونزعات لا تزايله ، وصفات جليلة لا تنفك عنه ، وخلائق عالية سامية لا تباينه ، بها كان يمتاز المؤمنون في الصدر الأول وكان يعترف بمزيتهم وعلو منزلتهم من كانوا يجحدون عقيدتهم

نعم هم الذين صبروا في نيران امتحان الله وابتلائه حتى ظهر إيمانهم ذهباً ابرزاً صافياً من كل غش ، وأعد الله لهم جزاء على صبرهم نعيماً مقبلاً . ما أصعب ابتلاء الله وما أشد فنتته وما أدق حكمته في ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب . نعم ان دون ابتلاء الله خلع العادات ، وتحمل الصعوبات ، وبذل الأموال ، وبيع الأرواح . كل خطر فهو تهلكة ينبغي البعد عنها إلا في الايمان ، فكل تهلكة فيه فهي نجاة ، وكل موت في المحاماة عن الايمان فهو بقاء أبدي ، وكل شقاء في أداء حقوق الايمان فهو سعادة سرمدية . المؤمن يبذل ماله فيما يقتضيه إيمانه ولا يخشى الفقر ، وإن كان الشيطان يعدّه الفقر . ليس في النفقة لأداء حق الايمان تبذير ولو أتت على كل مافي أيدي المؤمنين . ان المؤمن حياة وراء هذه الحياة ، وان له لذة وراء لذتها ، وان له سعادة غير ما يزينه الشيطان من سعادتها . هكذا يرى المؤمن إن كان الايمان مس قلبه ولو لم يبلغ الغاية من كماله

إن الفرار من محنة الله في الايمان مجلبة للخزي الأبدي . ان الفرار من صدمة جيش الضلال وإن بلغت أقصى ما يتصور . موجب للشقاء السرمدية . لا سعادة إلا بالديز ودون حفظ الدين أطاير الأعتاق . ان اللابان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الاداء . الا على الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى . ان القيام بفرائض الايمان

محفوف بالمخاطر مكتنف بالمكارة كيف لا وأول ما يوجبها الايمان خروج الانسان عن نفسه وماله وشهوته ووضع جميع ذلك تحت أوامر ربه . لن يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه . أول احساس يلم بنفس المؤمن انه في هذه الدنيا عابر سبيل الى دار أخرى خير من هذه الحياة وأبقى ، وأول خطوة بخطورها المؤمن بذل روحه اذا دعاه داعي الايمان ، ولا داعي أرفع صوتاً وأين حجة من نداء الحق على لسان أنبيائه . لا يقبل الله في صيانة الايمان عذراً ولا تعالاة ، مادامت الرجل تمشي ، والعين تنظر ، واليد تعمل . ان امتحان الله للمؤمن سنة من سنته ، يميز بها الصادقين من المنافقين قرناً بعد قرن ، الى أن تنقضي الدنيا . في كل قرن يدعو الله المؤمنين الى قوم أولي بأس شديد ، فان يطيعوا يؤتهم الله أجراً حسناً ، وإن يتولوا يعذبهم عذاباً أليماً . فميزان عدل الله منصوب الى يوم القيامة ، وهناك الجزاء الأوفى ، فلا يحسبن الواسمون أنفسهم بسمة الايمان ، القانعون منه برسم يلوح في مخيلاتهم ، ان عدل الله يتركهم وما يظنون . كلا انهم في كل عام يفتنون ، فلينظر المفرطون في دينهم ضناً بأموالهم ، أو صوتاً لأرواحهم ، ماذا يكون موقعهم من علم الله ؟ هل من الذين صدقوا أو من الكاذبين ؟ أرشد الله المؤمنين الى وسائل خيرهم ، وبصرهم بمقاييس أمرهم .

المقالة السابعة عشرة

أسباب حفظ الملك (*)

أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها؟ فإنها لا تسمي إلا بصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور

أهلك الله تعالى شعوباً ، وأباد قبائل ، ودمر بلاداً ، ولا يزال عدل الله يبدل قوماً بقوم ويأتي لكل حين بأناس آخرين * حكيم سبقت رحمته غضبه ، جعل لكل عمل جزاء ، وعين بحكمته لكل حادث سبباً ، (ولا يظلم ربك أحداً) وليست أفعاله جزافاً ، ولا يصدر عنه شيء عبثاً * أمر الله عباده بالسير في الأرض فقال (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ليرى قضاة الحق وحكمه العدل فيمن سلف ومن خلف ، فيطيعوا أوامره ، ويقفوا عند حدود شرائعه ، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة * من كان له قلب يعقل وعين تبصر ، وعقل يفقه ، وتتبع حوادث العالم ، وتدبر كيفية انقلاب الأمم وخاض في توارخ الأجيال الماضية ، واعتبر بما قص الله عليه في كتابه المنزل يحكم حكماً لا يخاطه ريب ، بأنه ماحق السوء بأمة وما نزلت لها نازلة البلاء ، وما مسها الضر في شيء ، إلا وكانت هي الظالمة لنفسها بما تجاوزت حدود الله ، وانتهكت حرمانه ، ونبذت أوامره العادلة ، وانحرفت عن شرائعه الحقة ، وحرفت الكلم عن مواضعه ، وأولت من كلامه تعالى على حسب الأهواء والشهوات ، كما أن للأغنية واختلاف الفصول والأهوية أثرًا ظاهرًا في الأثرجة بتقدير العزيز العليم ، كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الإنسانية ولكل طور من أطوار البشر أثر في الهيئة الاجتماعية . ولهذا كان من رحمته بعباده

(* نشرت في العدد السادس عشر من جريدة العروة الوثقى في يوم الخميس

في ٢١ ذي القعدة سنة ١٣٠١ و ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤

تحميد الحدود ، وتقرير الاحكام ليتبين الخير من الشر ، ويتميز النفع من الضر ، فأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، فمن خالف الأوامر الالهية فقد ظلم نفسه ، فليستعد لحزني الدنيا وعذاب الآخرة .

أن تأثير الفواعل الكونية في اطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر . وأما تأثير أحوال بني الانسان في هيئة اجتماعهم ، فيسهل الوقوف على سره لكل ذي ادراك، إن لم تكن عين بصيرته عمياء .

ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأي في المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة في المنافع الكلية سبباً للقوة واستكمال لوازم الراحة في هذه الحياة الدنيا ، والتمكن من الوصول لخير الابد في الآخرة . وجعل التنازع والتغابن علة للضعف وداعياً للسقوط في هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية ، ومهيئاً لوقوع المتنازعين في مخالب العاديات من الامم . فمن نظر نظرة في أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها ، ولم يكن مصاباً بمرض القلب ، وعمي البصيرة ، أدرك سر أمر الله في قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً) وسر نهيه في قوله (ولا تفرقوا — وقوله — ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبريحكم) أي جاهكم وعظمتكم وعالو كلمتكم ان الله تعالى جعل الركون الى من لا يصح الركون اليه ، والثقة بمن لا ينبغي الثقة به ، سبباً في اختلال الامن وفساد الحال ، فمن وثق في عمله بمن ليس منه في شيء ، ولا تجمع معه جامعة حقيقية ، ولا تصل به رابطة صحيحة ، وليس في طبعه ما يعينه على رعاية مصلحته ، أو كتم سره ، ولا ما يحمله على بذل الجهد في جلب منفعة ، ودفع المضار عنه ، فلا ريب يفسد حاله ، ويسوء مآله ، وإن كان ملكاً ضاع ملكه ، أو أميراً بطل أمره ، والحوادث شاهدة ، وأحوال المغرورين ناطقة . فمن لم يرزأ بعى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهى الله تعالى في قوله (لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالموودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) وقوله (لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) وسائر نواهيه المبينة على الحكمة البالغة المرشدة إلى مصالح الدارين .

لكل شخص في طبقته من أمته عمل مفروض عليه ، وواجب يلزمه القيام به ، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة في هذه الدنيا ، ويعدها ما لا صالحا في الآخرة . وهو انسان له قلب واحد ، لو جعل معظم همه في شيء ، فاته سائر الاشياء ، فلو توغل في الشهوات ، وبالغ في الترف ، وبطرفيا أنعم عليه ، فقد أغفل فرائضه ، وأضر بنفسه ، وحرّم من منافعه ، وحلّ به من عقاب الله أشد الوبال ، وخسر الدنيا والآخرة معاً . وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره ، واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه في بلدته ، أو يوطنه في مدينته . وهذه آثار المترفين في كل أمة تنطق بما لا يعجز إلا على أذن صماء ، وتشهد بما لا يخفى الا على بصيرة كهاء ، وان فيما قص الله علينا من أحوال المترفين لا كبر عبرة (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين ^(١)) حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون * لا تجأروا اليوم أنكم مالا تنصرون ^(٢) * ذلکم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون) ^(٣) هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب الله عليهم (ومن أعرض عن ذكرى فان لمعيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) ما أوتي الانسان من العلم إلا قليلا . لا يمكن الانسان وحده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه ، ولا أن يطلع على منابع فوائده ليكسبها ، أو يكشف مكامن مضاره فينتقيها ، خلق الانسان ضعيفا فأرشده الله للاستعانة بغيره من بني جنسه (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) خلقنا محتاجين للعون مضطرين للنصير وهدانا ربنا للتعاون والتناصر .

هذا مما يحكم به العقل في المصالح الخاصة ، فكيف لو كان شخص ولاء الله رعاية أمة ، وألقى اليه بزمام شعب مصالحه العامة تحت ارادته ، وهو الوازع فيه والواضع والرافع . لا ريب أن مثل هذا الشخص أحوج الى المشورة والاستفادة

(١) الآية من سورة الفصص (٢٨ : ٥٨) (٢) هما من سورة المؤمنين (٢٣ : ٦٥ و ٦٦) (٣) هي من سورة غافر (٤٠ : ٧٤) والاقباس لا يشترط فيه الترتيب

من آراء العقلاء ، وهو أشد افتقاراً الى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته ، وتكون سعة دائرة افتقاره الى التشاور على مقدار سعة سلطانه ، وقد أمر الله نبيه وهو المعصوم من الخطأ تعليماً وارشاداً فقال (وشاورهم في الامر) وقال فيما امتدح به المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) أي بصر يزوع عن هذا الصراط المستقيم ؟ وأي بصيرة لا تهدي الى هذا المنهج القويم ؟ (أنتم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين)

ان وازع البلاد والقائم على الملك لو لمح لحظة الى نفسه لرأى أن بلاده في كل وقت معرضة لاطاع الطامعين ، وأن الحرص المودع في طباع البشر يحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليدلوا قومه ، ويستعبدوا أهله ، ويستأثروا بمنافع أرضهم ، وثمار كدم ، ويمنحوها أبناء جلدتهم . فعليه وعلى من يشركه في أمره من عماله ، والحكام النائبين عنه في إيالاته ، وقواد جيشه ، وعلى كل أرباب الرأي ، ومن بهم قوام الملك ، أن يستعدوا للدفع طوارئ العدوان ، ورفع نوازل الغارات الاجنبية . فلو فرطوا في اعداد لوازم الدفاع ، أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الاطاع ، أو تهاونوا فيما بشد قوتهم ، ويقوي شوكتهم ، بأي وجه كان ، ومن أي نوع كان ، فقد عرضوا ملكهم للهلاك ، وألقوا بأنفسهم في مهاوي الاخطار هذا مما يفهمه الابله والحكيم ، ويصل اليه ادراك الجاهل والعليم . وهو سر الافصاح والابهام في قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أمر باعداد القوة ووكاها الى الطاقة وحكم الاستطاعة ، على حسب ما يقتضيه الزمان . وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم ، هذا أمر الله بنبيه الغافل ، ويذكر الذاهل ، (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً)

اعطاء كل ذي حق حقه ، ووضع الاشياء في مواضعها ، وتفويض أعمال الملك لقادرين على أدائها ، مما يوجب صيانة الملك وقوة الساطان ، ويشيد بناء الساططة ، ويحكم دعائم السطوة ، ويحفظ نظام الداخل من الخلل ، ويشفي نفوس الأمة من العلل . هذا مما تحكم به بداهة العقل ، وهو عنوان الحكمة التي قامت بها السموات والارض ، وثبت نظام كل موجود ، وهو العدل المأمور به على لسان الشريعة في قوله

تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة في كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناء واضمحلاله . كذلك الجور في الجمعيات البشرية بسبب دمارها . لهذا حثت الأوامر الالهية على العدل ، وكثير النهي في الكتاب المجيد عن الظلم والجور . والحكم أولى من توجه اليهم الأوامر والنواهي في هذا الباب . العدل هو الحكمة التي أمتن الله بها على عباده ، وقرنها بالخير الكثير فقال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) . هي مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية ، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير

من سار في الأرض ، وتتبع توارخ الأمم ، وكان بصير القلب ، علم أنه ما تهدم بناء ملك ، ولا انقلب عرش مجد ، إلا اشقاق واختلاف ، أو ثقة بمن لا يوثق به ، وتخلل العنصر الاجنبي ، أو استبداد في الرأي ، واستنكف عن المشورة ، وإهمال في اعداد القوة ، والدفاع عن الحوزة ، أو تفويض الاعمال لمن لا يحسن أداءها ، ووضع الاشياء في غير مواضعها ، فيكون جور في الحكم ، واختلال في النظام ، وفي كل ذلك حيد عن سنن الله ، فيحل غضبه بالخاطئين وهو أحكم الحاكمين .

لو تدبرنا آيات القرآن ، واعتبرنا بالحوادث التي ألمت بالممالك الاسلامية ، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه ، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا وأرشدنا اليه ، وبيننا من اتبع أهواء الانفس وخطوات الشيطان ، (ذلك بأن الله لم يك غيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإن الله سميع عليم) فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة ، وقواد الملة المحمدية ، أن يهتموا بتقبيه الغافلين عن ما أوجب الله ، وإيقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين ، ويعلموا الجاهل ، ويزعجوا نفس الداهل ، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم ، ويستلقتهم إلى ما أعد الله لهم لو استقاموا ، ويحذروهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه (رضي الله عنهم) ، ورنض كل بدعة ، والخروج عن كل عادة سيئة ، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز ، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية ، وما نزل بها من قضاء الله عند ما حادت عن شرائعه ، ونبذت أوامره (نأذاقهم الله

الحزبي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)
 على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكير وعد الله ووعد الحق في قوله تعالى (وعد الله
 الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم
 وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً) هذه وظيفة
 العلماء الراسخين ، ومأمم بقليل بين المسلمين ، ولا نظنهم يتهاونون فيما فوض الله
 اليهم ، ووكل الي ذمتهم ، وهم أمناء الدين وحمله الشرع ، ورافعوا لواء الاسلام ،
 وأوصياء الله على المؤمنين ، أعانهم الله على خير أعمالهم ونفع المؤمنين بإرشادهم .

المقالة الثامنة عشرة

سنة الله في الامم

وتطبيقها على المسلمين (*)

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . ذلك بأن الله لم يك
 مفيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

تلك آيات الكتاب الحكيم ، تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ولا
 يرتاب فيها إلا القوم الضالون ، هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من
 وعد وأقدر من أوعده ؟ هل كذب الله رسله ؟ هل ودع أنبياءه وقلامه ؟ هل غش
 خلقه وسلك بهم طريق الضلال ؟ نعوذ بالله !! هل أنزل الآيات البينات لغواً
 وعشياً ؟ هل اقترت عليه رسله كذباً ؟ هل اختلقوا عليه أفكاً ؟ هل خاطب الله
 عبده برموز لا يفهمونها وإشارات لا يدركونها ؟ هل دعاهم إليه بما لا يعقلون ؟
 فستغفر الله ! أليس قد أنزل القرآن عربياً غير ذي عوج ، وفصل فيه كل أمر ،

(* نشرت في العدد السابع عشر من جريدة العروة الوثقى في يوم الخميس

في ٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ و ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤

وأودعه تبياناً لكل شيء ؟ تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً . هو الصادق في وعده ووعيده ، ما اتخذ رسولا كذاباً ، ولا آتى شيئاً عبثاً ، وما هدانا إلا سبيل الرشاد ، ولا تبديل لآياته ، تنزل السموات والارض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

يقول الله (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون — ويقول — والله العزة والرسولة للمؤمنين — وقال — وكان حقاً علينا نصر المؤمنين — وقال — ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً) هذا ما وعد الله في محكم الآيات مما لا يقبل تأويلاً ، ولا ينال هذه الآيات بالتأويل ، إلا من ضل عن السبيل ، ورام تحريف الكلام عن مواضعه . هذا عهده الى تلك الأمة المرحومة ، ولن يخلف الله عهده ، وعدّها بالنصر والعزة وعلو الكلمة ، ومهد لها سبيل ما وعدّها إلى يوم القيامة ، وما جعل الله لمجدّها أمداً ، ولا لعزتها حداً .

هذه أمة أنشأها الله عن قلة ، وورفع شأنها الى ذروة العلى ، حتى ثبتت أقدامها على قن الشاخصات ، ودكت اعظمها عوالي الراسيات ، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات ، وذابت للرعب منها أعشار القلوب ، هال ظهورها الهائل كل نفس ، وتحير في سببه كل عقل ، واهتدى الى السبب أهل الحق فقالوا : قوم كانوا مع الله فكان الله معهم ، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده . هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الدخائر ، معوزة من الأسلحة وعدد القتال ، فاخترقت صفوف الأئم واختطت ديارها ، ولا دفعتها أبراج المجوس وخنادقهم ، ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلمهم ، ولا عاقها صعوبة المسالك ، ولا أثر في همها اختلاف الاهوية ، ولا فعل في نفوسها غزارة الثروة عند من سواها ، ولا راعها جلالة ملوكهم ، وقدم بيوتهم ، ولا تنوع صنائعهم ، ولا سعة دائرة فنونهم ، ولا عاق سيرها أحكام القوانين ولا تنظيم الشرائع ، ولا تقلب غيرها من الأئم في فنون السياسة . كانت تطرق ديار القوم فيحرقون أمرها ، ويستبيحون بها ، وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تزعزع أركان تلك الدول العظيمة

وتمحو أسماءها من لوح المجد . وما كان يحتاج بصدر أن هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الأئمة الكبيرة وتمكن في نفوسها عقائد دينها ، وتخضعها لأوامرها وعاداتها وشرائعها ، لكن كان كل ذلك ونالت تلك ، الأئمة المرحومة على ضعفها ما لم تنله أمة سواها . نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجداً في الدنيا ، وسعادة في الآخرة .

هذه الأئمة يبلغ عددها اليوم زهاء مئتي مليون من النفوس ، وأراضيها آخذة من المحيط الاثلاثينيكي الى أحشاء بلاد الصين — تربة طيبة ، ومنابت خصبة ، وديار رحبة ، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة ، وأموالها مسلوبة ، تغلب الاجانب على شعوب هذه الأئمة شعباً شعباً ، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة ، ولم يبق لها كلمة تسمع ، ولا أمر يطاع ، حتى إن الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم في مله ، ويمسسون في كربة مدلهمة ، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التي تلم بهم ، وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم

هذه هي الأئمة التي كان الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يدهن صاغرات ، استبقاء لحياتهم ، وملوكها في هذه الايام يرون بقاءهم في التزلف إلى تلك الدول الأجنبية . بالامصية وباللرزبة !!

أليس هذا بخطب جلل ، أليس هذا بلاء نزل ما سبب هذا الهبوط ، وما علة هذا الانحطاط ؟ هل نسي ، الظن باليهود الالهية ؟ معاذ الله ! هل نستئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا ؟ نعوذ بالله ! هل نرتاب في وعده بنصرنا بعد ما كده لنا ؟ حاشاه سبحانه ! لا كان شيء من ذلك ولن يكون ، فعلياً أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا إلا عليها ، ان الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأئمة سنناً متبعة ثم قال (ولن تجد لسنة الله تبديلاً)

أرشدنا سبحانه في محكم آياته الى أن الامم ماسقطت من عرش عزها ، ولا بدلت ومحى اسمها من لوح الوجود ، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سننها الله على أساس الحكمة البالغة . ان الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة حتي يغير اولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل

وصحة الفكر ، وإشراق البصيرة ، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة ، والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحلّ بهم الدمار ، ثم لعدوهم عن سنة العدل ، وخرجهم عن طريق البصيرة والحكمة ، حادوا عن الاستقامة في الرأي ، والصدق في القول ، والسلامة في الصدر ، والعفة عن الشهوات ، والحية على الحق ، والقيام بنصره ، والتعاون على حمايته ، خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على إعلاء كلمته ، واتبعوا الأهواء الباطلة ، وانكبوا على الشهوات الفانية وآثروا عظام المنكرات ، خارت عزائمهم ، فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة ، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصره الحق ، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين

هكذا جعل الله بقاء الأمم ونمائها في التحلي بالفضائل التي أشرنا إليها ، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها . سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم ، ولا تبدل بتبدل الأجيال ، كسنته تعالى في الخلق والابحاد ، وتقدير الأرزاق ، وتحديد الآجال .

علينا أن نرجع إلى قلوبنا ، ونمتحن مداركنا ، ونسبر أخلاقنا ، ونلاحظ مسالك سيرنا ، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالإيمان ؟ هل نحن نقتفي أثر السلف الصالح ؟ هل غير الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا ، وخالف فينا حكمه ، وبذل في أمرنا سنته ؟ حاشاه وتعالى عما يصفون ، بل صدقنا الله وعده ، حتى إذا فشلنا وتنازعنا في الأمر وعصيناه من بعد ما أرى أسلافنا ما يحبون ، وأعجبنا كثرتنا فلم تغرنّا عنا شيئاً ، فبدّل عزنا بالذل ، وسموّنا بالانحطاط ، وغنانا بالفقر ، وسيادتنا بالعبودية . نبذنا أوامر الله ظهرياً ، واتخذنا عن نصره ، فجازانا بسوء أعمالنا ، ولم يبق لنا سبيل إلى النجاة والانباة إليه . كيف لانلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا ويستذلون أهلها ، ويسفكون دماء الأبرياء من اخواننا ، ولا نرى في أحد منا حراكاً ؟

هذا العدد الوافر والسواد الأعظم من هذه الملة لا يبذلون في الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم ، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ،

كل واحد منهم يودّ لو يعيش ألف سنة ، وإن كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة ، ومسكنه الهوان . تفرقت كلمتنا شرقا وغربا ، وكاد يتقطع ما بيننا ، لا يمنح أخ لأخيه ، ولا يهتتم جار بشأن جاره ، ولا يرقب أحدنا في الآخر إلاّ ولا ذمة ، ولا نحترم شعائر ديننا ، ولا ندافع عن حوزته ، ولا نعززه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا

أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة ولا يمس سواد القلوب ؟ هل يرضى منهم بأن يعبدوه على حرف ؟ فإن أصابهم خير اطمانوا به ، وإن أصابهم فتنة اتقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة ؟ هل ظنوا أن لا يتلي الله ما في صدورهم ، ولا يمحس ما في قلوبهم ؟ ألا يعلمون أن الله لا يندر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ؟ هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته لا يدخلون في سبيله بمال ، ولا يشحون بنفس ؟ فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمنا وهو لم يخط خطوة في سبيل الإيمان ، لا بماله ولا بروحه ؟

إنما المؤمنون هم الذين إذا قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك الا ايمانا وثباتا ، ويقولون في اقدامهم : حسبنا الله ونعم الوكيل . كيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقتول في سبيل الله حي يرزق عند ربه ؟ تمتع بالسعادة الأبدية في نعمة من الله ورضوان كيف يخاف مؤمن من غير الله ، والله يقول (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)

فلينظر كل إلى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان ، ولتبحث كل واحد قلبه قبل أن يأتي يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة ، وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين ، وما جعله من خصائص الإيمان ، فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا . يا سبحان الله ، إن هذه أمتنا أمة واحدة ، والعمل في صيانتها من الأعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء . ثبت ذلك نص الكتاب العزيز ، وإجماع الأمة سلفا وخلفا ، فمالنا نرى الأجانب

يصولون على البلاد الاسلامية صولة بعد صولة ، ويستولون عليها دولة بعد دولة ،
والمتمسكون بسمة الايمان آهلون لكل أرض ، متمكنون بكل قطر ، ولا تأخذهم
على الدين نغرة ، ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية ؟ ألا يا أهل القرآن لستم على
شيء حتى تقيموا القرآن ، وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي ، وتتخذوه
إماما لكم في جميع أعمالكم مع مراعاة الحكم في العمل كما كان سلفكم الصالح .
ألا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقروا منه (فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها
القتال رأيتم الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليكم نظر المغشي عليه من الموت)
ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية ؟ نزلت في وصف من لا إيمان لهم . هل
يسر مؤمناً أن يتناوله هذا الوصف المشار اليه بالآية الكريمة ، أو غر كثيرين
من المدعين للإيمان ما زين لهم من سوء أعمالهم ، وما حسنته لديهم أهواؤهم
(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

أقول ولا أخشى تكبراً : لا يمس الايمان قلب شخص إلا ويكون أول
أعماله تقديم ماله وروحه في سبيل الايمان ، لا يراعي في ذلك عذراً ولا تعلقة ،
وكل اعتذار في القعود عن نصره الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله

مع هذا كله نقول : إن الخير في هذه الأمة الى يوم القيامة كما جاء نابه نبأ
النبوة ، وهذا الانحراف الذي نراه اليوم نرجو أن يكون عارضاً يزول ، ولو قام
العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأحيوا
روح القرآن ، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة ، واستلفتوهم الى عهد الله الذي
لا يخلف لرأيت الحق يسمو والباطل يسفل ، ولرأيت نوراً يبهز الأبصار ،
وأعمالاً تحار فيها الأفسكار . وإن الحركة التي نحسها من نفوس المسلمين في
أغلب الأقطار هذه الأيام تبشرنا بأن الله تعالى قد أعد النفوس لصيحة حق
تجمع بها كلمة المسلمين ، ويوحد بها بين جميع الموحدين ، ونرجو أن يكون
العمل قريباً ، فإن فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم ،
محت لهم الأوبة ، ونصحت منهم التوبة ، وعفا الله عنهم ، والله ذو فضل على
المؤمنين ، فعلي العلماء أن يسارعوا الى هذا الخير ، وهو الخير كله : جمع كلمة

المسلمين ، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل و (من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له وليا مرشداً)

المقالة التاسعة عشرة

الخير (٥)

(أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة — قل ان

الموت الذي تفرون منه فانه ملائكم)

شهد العيان ودات الآثار على ما صدر من بعض أفراد الانسان من أعمال تحير الألباب ، وتدهش الأفكار ، ينظر اليها ضعفاء العقول فيعدونها معجزات ، وان لم تكن في أزمنة النبوات ، ويحسبونها خوارق عادات ، وان لم تكن من تحدي الرسالات ، وقد ينسبها الغفل الى حركات الأفلاك ، وأرواح السكواكب وموافقة الطوالع . ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف وقذفات الاتفاق ، عجزاً عن درك الأسباب وفهم الصواب . وأما من أتاه الله الحكمة ، ومنحه الهداية ، فيعلم أن الحكيم الخبير جل شأنه وعظمت قدرته ، أناط كل حادث بسبب ، وكل مكسوب بعمل . وأنه قد اختص الانسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ، ومقدرة روحانية ، يكون بهما مظهراً لعجائب الأمور ، وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعية ، وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء ، والثواب أو العقاب عند واسع الكرم سريع الحساب

إذا رجع البصير الى القياس الصحيح رأى في تشابه القوى الانسانية وتماثل الفطرة البشرية ما يدل على تقارب العقول ، بل على استواء المدارك ، وأرشدته الفكر

* نشرت في العدد الثامن عشر من جريدة العروة الوثقى في ٢٦ ذي الحجة - سنة

١٣٠١ - ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤

السليم الى ان فضل الله قد اعد كل انسان للكمال ، ومنحه ما يكون به مصدراً لفضائل الأعمال ، على تفاوت لا يظهر به الاختلاف بينهما الا للنظر الدقيق * هنا وقفة الحيرة: استعداد فطري للكمال في خلقه الانسان. ميل كلي في كل فرد لأن يتفرد بالفخار، ويمتاز بجلال الآثاء، وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى، لا يخيّب طالباً، ولا يرد سائلاً، اذا صدق القاصد في قصده، واخلص السالك في جده . فما العلة في اخلاء الجمهور الأعظم من بني الانسان الى دنيات المنازل وقصورهم عن الوصول الى ما أعدته لهم العناية ويستفهم اليه الميل الغريزي، خصوصاً إن كانت النفوس مؤمنة بعهد الله مصدقة بوعده ووعيده ، ترجو ثواباً على الباقيات الصالحات ، وتخشى عقاباً على ارتكاب الخطيئات ، وتعترف بيوم العرض الأكبر — يوم تجزي كل نفس بما كسبت (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ماذا يقعد بالنفوس عن العمل ؟ ماذا ينحدر بها في مزالق الزلل ؟ اذا ردت المسببات الى أسبابها، وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها، وجدنا لهذا علة هي أم العلل ، ومنشأ يقرن به كل خلل : الجبن *

الجبن هو الذي أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها ، هو الذي قطع روابط الامم فخل نظامها ، هو الذي أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم ، وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم ، هو الذي يغلق ابواب الخير في وجود الطالبين ، ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين ، يسهل على النفوس احتمال الذلة ، ويخفف عليها مضض المسكنة ، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل . يوطن النفس على تلقي الاهانة بالصبر والتذليل بالجلد، ويوطئ الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب اثقل مما كان يتوهم عروضة عند التحلي بالشجاعة والاقدام . الجبن يلبس النفس عاراً دون القرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمة عليّة . يرى الجبان وعراً المذلات سهلاً ، وشظف العيش في المسكنات رفهاً ونعماً .

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايسلام
لا بل يتجرع مرارات الموت في كل لحظة واكنه راض بكل حال وإن لم

يبقى له إلا عين تبصر الأعداء، ولا ترى الاحياء، ونفس لا يصعد إلا بالصعداء، واحساس لا يلح به إلا ألم اللأواء . هذه حياته : اضاع كل شيء، في القناعة إلا شيء، وهو يظن انه أدرك البغية، وحصل المنية

ماهو الجبن ؟ انخدال في النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها، وهو مرض من الامراض الروحية، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية ، وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع الى الخوف من الموت . الموت مآل كل حي ومصير كل ذي روح . ليس للموت وقت يعرف ولا ساعة تعلم ، ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر في كل لحظة، ولا يعلمه إلا مقدر الآجال جل شأنه (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت) يشتد الخوف من الموت الى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم، والذهول عما أعد الله للانسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة اذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله . نعم يغفل الانسان عن نفسه فيظن ما جعله واقعاً للحياة - وهو الشجاعة والاقدام سبباً في الفناء . بحسب الجاهل أن في كل خطوة حقناً، ويتوهم أن في كل خطوة خطراً، مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الانسانية، وما ناله طالب المعالي من الفوز بآمالهم، وما ذلوا من المصاعب في سيرهم، تكشف له أن تلك المخاوف إنما هي أوهام وأصوات غيلان ، ووساوس شياطين ، غشيتة فأدهشته ، وعن سبيل الله صدته ، ومن كل خير حرمته .

الجبن فخر تنصبه صروف الدهر وغوائل الايام ، لتغتنل به نفوس الانسان، وتلتهم به الامم والشعوب ، هو حباله الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدم عن سبيله ، هو علة لكل رذيلة ، ومنشأ لكل خجلة ذميمة ، لاشعة إلا وهو مبدؤه، ولا فساد إلا وهو جرثومته ، ولا كفر الا وهو باعته وموجهه ، ممزق الجماعات ، ومقطع روابط الصلات، هازم الجيوش، ومنكس الاعلام ، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة الى أرض المهانة . ماذا يحمل الخائنين على الحياة في الحروب الوطنية؟ أليس هو الجبن ؟ ماذا ييسر أيدي الادنيا، لدنيئة الارتشاء؟ أليس هو الجبن ؟

ربما تتوهم بعد المثال فتأمل ، فان الخوف من الفقر ، يرجع بالحقيقة الى الخوف من الموت ، وهو علة الجبن . سهل عليك أن تعتبر هذا في الكذب والنفاق وسائر أنواع الامراض المفسدة لمعيشة الانسان * الجبن عار وشنار على كل ذي فطرة إنسانية خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ، ويؤمنون أن ينالوا جزاء لأعمالهم أجراً حسناً ومقاماً كريماً .

ينبغي ان يكون أبناء الملة الاسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن) فانها أشد الموانع عن اداء ما يرضي الله ، وانهم لا يبتغون إلا رضاه . يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت علامة الايمان ، وامتنحن الله به قلوب المعاندين ، ويقول في ذم من ليسوا بمؤمنين (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا ربنا لم كتببت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب ؟) الخ الآيات ، الاقدام في سبيل الحق ، وبذل الاموال والأرواح في إعلاء كلمته ، أول سمة يتسم بها المؤمنون . لم يكتف الكتاب الالهي بأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الايدي ، وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون المنافقون ، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في إعلاء كلمة الحق والعدل الالهي ، بل عده الركن الوحيد الذي لا يعتد بغيره عند فقده . لا يظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الاسلامي وبين الجبن في قلب واحد . كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الاقدام وان عماده الأخلاص لله والتخلي عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه .

المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ، ولا يفيد التباطؤ عن أداء الفروض زيادة في الأجل ، ولا ينقصه الاقدام دقيقة منه . المؤمن من لا ينتظر بنفسه الا احدى الحسنين ، اما أن يعيش سيداً عزيزاً ، وإما أن يموت مقرباً سعيداً ، وتصدر روحه الى أعلى عالمين ، ويلتحق بالكروبيين ، والملائكة المقربين ، من يتوهم انه يجمع بين الجبن والايمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الايمان في شيء . كل

آية من القرآن تشهد على الجبان بكذبه في دعوى الايمان . لهذا نؤمل من ورثة الانبياء أن يصدعوا بالحق ويذكروا بآيات الله وما أودع الله فيها من الأمر بالاقدام لاعلاء كلمته والنهي عن التباطىء والتقاعد في أداء ما أوجب الله من ذلك وفي الظن أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الأمر بذالك المعروف والنهي عن هذا المنكر) زمناً قليلاً ووعظوا الكافة بتبيين معاني القرآن الشريف وحياتها في أنفس المؤمنين رأينا لذلك أثرآ في هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر وشهدنا لها يوماً تسترجع فيه مجدها في هذه الدنيا وهو مجد الله الاكبر ، فالؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكن في أفئدتهم من آثار العقائد لا يحتاجون إلا لقبيل من التنبيه ويسير من التذكير فينهضون نهضة الاسود فيستردوا مفقوداً ، ويحفظوا موجوداً ، وينالوا عند الله مقاماً محموداً .

المقالة العشر ون

الامة وسلطة الحاكم المستبدر (١)

وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

ان الامة التي ليس لها في شؤونها حل ولا عقد ، ولا تستشار في مصالحها ولا أثر لارادتها في منافعها العمومية ، وإنما هي خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون ومشيتته نظام ، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد . فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ولا ينضبط لها سير ، فتعورها السعادة والشقاء ، ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر ، ويتناوبها العز والذل ، وكل ما يعرض عليها من

١٠ نشرت في العدد الرابع عشر من جريدة المروة الوثقى في ٢٢ شوال سنة

١٣٠١ و ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤

هذه الاحوال خيرها وشرها ، فهو تابع لحال الحاكم . فان كان حاكمها عالما حازما ، أصيل الرأي ، عليّ الهمة ، رفيع المقصد ، قويم الطبع ، ساس الأمة بسياسة العدل ، ورفع فيها منار العلم ، ومهد لها طرق اليسار والثروة ، وفتح لها أبوابا للتفنن في الصنائع ، والحدق في جميع لوازم الحياة ، وبعث في أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلي بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة وإيلاء الضيم ، والأنفة من الذل ، ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة ، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهة ، وتقدم بهم الى كل وجه من وجوه الخير

وإن كان حاكمها جاهلا ، سيء الطبع ، سافل الهمة ، شرها ، مغتلا ، جباناً ، ضعيف الرأي ، أحق الجنان ، خسيس النفس ، معوج الطبيعة ، أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوي الخسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل ، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر ، وجار في سلطته عن جادة العدل ، وفتح أبوابا للعدوان ، فیتغلب القوي على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد الأخلاق ، وتخفّض الكلمة ، ويغلب اليأس ، فتمتد إليها أنظار الطامعين ، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الأمة ، عند ذلك إن كان في الأمة رفق من الحياة ، وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيراً اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها ، وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخيثة ، واستئصال جذورها قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الأمة ، فتميتها وينقطع الأمل من العلاج ، وبادروا إلى قطع هذا العضو المجذم قبل أن يسري فسادُه الى جميع البدن فيعزّقه ، وغرسوا لهم شجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وجددوا لهم بنية صحيحة ، سالمة من الآفات (استبدلوا الخبيث بالطيب) وان انحطت الأمة عن هذه الدرجة ، وتركت شؤونها بيد الحاكم الأبله الغاشم يصرفها كيف يصرفها ، فأنذرها بمحض العبودية ، وعناء الذلة ، ووصمة العار بين الأمم ، جزاء على ما فرطوا في أمورهم ، وما ربك بظلام للعبيد

المقالة الحادية والعشرون

الوهم (*)

ألا قاتل الله الوهم ، الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات ، ومجلى المفزعات ، وطوراً يكون ممثلاً للمسررات ، حاكياً للمنعشات ، وهو في جميع أطواره حجاب الحقيقة ، وغشاء عن عين البصيرة ، لكن له سلطان على الادارة ، وحكم على العزيمة ، فهو مجلبة الشر ، ومنفاة الخير

الوهم يمثل الضعيف قوياً ، والقريب بعيداً ، والمأمّن مخافة ، والموئل مهلكاً . الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه ، يخيل الموجود معدوماً ، والمعدوم موجوداً ، الواهم في كون غير موجود ، وعالم غير مشهود ، يخطط فيه خبط المصروع ، لا يدري ما اذا أدركه وماذا تركه ، الوهم روح خبيث يلبس النفس الانسانية وهي في ظلام الجهل ، اذا خفيت الحقائق تحمكت الأوهام ، وتسلمت على الارادات ، فتقود الواهمين الى يبداء الضلالة ، فيخبطون في مجاهيل ، لا يهتدون إلى سبيل ، ولا يستقيمون على طريق اه المراد منه

« صدر مقالة سياسية في مسألة السودان وهصر نشرت في العدد السابع عشر من العروة الوثقى الذي صدر بباريس في ٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ الموافق ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ولم ننشرها برمتها لالتزامنا في هذا الفصل نشر مقالات العروة الاصلاحية من دينية واجتماعية ، دون السياسة ، كده المقالة . جميع مقالات العروة الافتتاحية ، وتلك سياسة السيد جمال الدين رحمهما الله تعالى

استدراك على الفصل الاول

(جامع الكتاب) إننا بعد أن طبعنا ما كان لدينا من مقالات الأستاذ الامام التي كتبها قبل دخوله في أعمال الحكومة الرسمية، وبعد طبع مقالات الوقائع المصرية أيضاً أرسل اليها الأديب المصري الشهير سليم بك العنحوري الدمشقي صاحب ديوان (سحر هاروت) مقالة من قلم الأستاذ الامام نشرت في إحدى الجرائد في ٣١ يوليو سنة ١٨٧٩ الموافق ١٢ شعبان سنة ١٢٩٦ موضوعها انتقاد رجال الدولة العثمانية على ما كانوا يرومونه من العبث باستقلال تونس الاداري ، ومن محاولة إبطال حقوق مصر وامتيازاتها عقب سقوط اسماعيل باشا انني أفضت الى تدخل الدول وإلجائها الباب العالي الى جعل فرمان تولية توفيق باشا كفرمان والده ، وفيها اثناء على توفيق باشا ووزرائه ، وبيان مايجب على حكومته بأسلوب بيان مايرجى منها

جلس محمد توفيق باشا على كرسي الخديوية في رجب سنة ١٢٩٦ وكتب الأستاذ هذه المقالة في تأييده وتأييد حكومته في شعبان ، تنفيذاً لخطه الحزب الوطني الذي أسسه السيد جمال الدين وهو الذي سعى لاستقاط اسماعيل وتولية توفيق إذ كان مشايعاً له ومنتظماً في سلكه ، وصدر أمر توفيق في رمضان بنفي السيد جمال الدين من مصر باغراء قنصل الانكليز ، وب عزل الشيخ محمد عبده من وظيفة التدريس في مدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن ، وإلزامه الإقامة في قريته (محلة نصر) لايفارقها - كما شرحن ذلك في الجزء الأول من هذا التاريخ . فقد كتبت هذه المقالة بعد كتابة مةالة التربية بشهرين فقط وقد رأينا وضعها هنا استدراكاً ولما كانت قصاصة الجريدة التي نشر الشيخ فيها هذه المقالة خالية من العنوان وضعنا لها العنوان الآتي

المقالة الثالثة

الدولة العثمانية، والتدريبية المصرية

لم يكف رجال الدولة ما ألمّ بها من الضعف والاختلال ، حتى راموا تجريدتها عن الأولياء والنصراء ، بما يتخذون من تنفير النفوس ، وأسباب إفساد القلوب . فمن ذلك ما روت بعض الجرائد من محاولتهم إزالة الاستقلال الإداري عن تونس وإرسالهم الى فرنسا من يستميلها الى ذلك اقصد ، فان هذا الأمر (ان صح خبره) يوجب لامحالة انتقايض الحكومة التونسية ، وبيعها على الالتجاء الى الدول الأجنبية ، تلتبس منهم المساعدة ، وترجوم الحماية ، ويسومونها بذلك ما يرومون ، فلا تعصي لهم أمراً ، ولا تخالف لهم رأياً .

ومن ذلك ما بدا منهم في المسألة المصرية مما أوجب أسف انصريين عموماً وحكومتهم خصوصاً ، فانهم قد راموا في بادئ الأمر أن يظلوا ما تقرر لها من الحقوق ، وما ثبت من الامتيازات ، غير ذاكرين ما تقدم لها من الخدمة ، وما سبق من المساعدة والنجدة ، فدعتهم الدول الى العدول عن ذلك ، فلجأوا الى المماطلة والمدافعة شأنهم في غالب الأمور والأوقات ، على علمهم بما ينشأ عن ذلك من تعطيل المصالح وتأخير الاصلاح المالي والإداري ، وما يترتب عليه من تداخل الاجانب فيما لا ينبغي لهم التداخل فيه من أمورنا الخصوصية ، وأحوالنا الداخلية حتى وقع ذلك بالفعل ، اذ تداخلت الدول في الأمر بالصورة الرسمية ، وألجأت الباب العالي الى اصدار فرمان ، مثبتاً لما تقرر في الفرائين السالفة من حقوق مصر وامتيازاتها — أفلم يكن الأجمل بالدولة أن تفعل اختياراً ، ما ألجئت الى فعله اضطراراً ، فتستبقي بذلك ولأء قوم فدوها بالاموال ، وأهرقوا في مساعدتها دم الرجال ؟ على أن المصريين لا يعدلون عن ذلك الولاء ، ولا يطلبون به بديلاً ، علماً منهم بأن تلك المعارضه لم تقع من الجانب السلطاني ، وانما صدر بها عن رأي المصدر السابق (يريد به خير الدين التونسي) فان هذا الوزير على سعة علمه ،

وحسن نظره وذكاء نفسه ، لم يستطع مقاومة ميله الذاتي في هذا الأمر ، بل أخذته فيه المودة الخصوصية لمن اصطنعه ، وكان علة رفعه الى ذلك المقام الأسنى ، فبذل المجهود في القيام بأمره والانتصار له ، على علمه بأن ذلك لا يفي عنه شيئاً ، لوجود القوة فيما يخالفه ، فان القوة لا تقاوم مع الحق ، فكيف نرجى مقاومتها بغير حق ؟

ولقد استعفى الوزير المشار اليه من منصبه كما أنبأنا التلغراف ، وكتب العرمان السلطاني مثبتاً لفرمان سنة ١٨٦٣ فلم يبق لنا في هذا الأمر ما يدعو الى النظر فيه . ولكننا نرجو أن يكون من آثاره انتظام أحوال الدولة العلية ، وترتب شؤون الحكومة المصرية

فأما الأول فلا يكون إلا بالاصلاح المستمر ، مبنياً على قانون يحفظ نظامه ، وترعى أحكامه ، ليستقيم به أمر العدل الموجب للنجاح ، وتنحسم أسباب الظلم المؤذن بخراب العمران ، ولا يحصل ذلك إلا بالحرية الذاتية ، والمساواة التي ترفع العدوان عن الناس ، فلا يتقبضون عن السعي في الاكتساب والمصالح فانه لا عزاً للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل الى المال إلا بالعمارة ، ولا تحصل العمارة الا بالعدل ، وما العدل الا الحرية والمساواة . قال أحد الحكماء : كل من أخذ ملك أحد أو غصبه في علمه ، أو طالبه بغير حق ، أو فرض عليه حتماً لم يفرضه القانون ، فقد ظلمه ، فحياة الأموال بغير حقها ظلمة ، والمعتدون عليها ظلمة ، والناهبون لها ظلمة ، والمبايعون لحقوق الناس ظلمة ، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو علة قوتها ، بل مادة وجودها ، فاذا سلمت الدولة من هذه المعاييب ، أمنت المصائب والمعاطب ، ولا سبيل الى ذلك الا برفع الاستبداد ، وتقرير أمر الشورى

وأما اقامة أمور الحكومة المصرية ، فهي الآن في عالم اقوة ، تعدّها معدّات حسن القصد وصفاء النية ، وسنراها بعناية أميرنا الجديد ووزرائه الكرام ، بارزة الى عالم الفعل ، يتقدمها نظام الشورى ، معيناً للأمة حقوقها ، مبيناً لها واجباتها ، فتتظم بذلك الأحوال المالية ، والأمور الادارية ،

وتنجوبه من ربة التداخل الأجنبي ، الذي جعل في كل مملكة شرقية دولا مستقلة ،
 وحكومات مختلفة ، وألجأ أهلها الناطقين بلغتها ، المستظلين بحمايتها ، النابتين في
 أرضها ، المسترزقين من خيرها ، الى الانحراف عنها ، والانتفاء الى غيرها ،
 يتفاخرون بذلك ولا يحسبونه عاراً ، بل يعدّون البقاء على ولاء الحكومة
 المالكة عجزاً وضعفاً ، لما هو ظاهر من امتياز أهل العتوق بالسطوة والقوة
 والمنعة ، وإن دولة المطيعين صارت لهم كتباً وعاراً وذلاً وصغاراً ، وللأجنبي
 عزاً ورفعة وسعة ومنعة

وكيف لانرجو ذلك وقد علمنا علم اليقين أن أميرنا الفتى منزه النفس عما
 يوجب هرم الدولة من الترف والاستبداد ، بدليل تعفنه عن معظم الراتب
 المعين له ، وإثباته لقانون شورى النواب ، الماسم لأسباب الاستبداد ، فلا
 شك أن سيكون من أعظم سيرته ، وأفضل رغبته ، ما كان لله رضى ، وللحق
 قواماً ، وللأمة عدلاً ، والدولة نظاماً

الفصل الرابع

﴿ ما نشر له بعد النفي من المقالات في الصحف السورية والمصرية ﴾

المقالة الاولى

مصر وجريدة الجنة *

(كتب الينا بعض أهل الفضل ممن له مزيد اطلاع في أحوال مصر بما يأتي)
وقفت بالصدفة على نسخة من جريدة (الجنة) الغناء المؤرخة في الحادي عشر من شهر رجب ، فاذا فصل في فاتحتها يبحث في شؤون القطر المصري وعلائق سكانه مع حضرة خديويهم المعظم ومعاملتهم لذوي المصاحبة فيه من الاجانب فأنحى على المصريين بالتقريع والتعنيف ووجه اللائمة عليهم في ذنوب كأنهم كانوا اقترفوها ، ودعاهم الى طاعة خديويهم كأنهم معه في عصيان ، ونبيههم على مزايا الجنب الخديوي وفضائله كأنهم عنها في غفلة . وكنت رأيت جريدة الجنان قد سبقت الجنة الى مثل ذلك من قبل بأيام فشكرت لصاحب القلم ما أخلص من نصيحته وحمده على عنايته بأمر المصريين

غير أنني وجدت حال المصريين في ماضيهم وحاضرهم ينطق بخلاف ما تفهمه عبارته من أنهم منحرفون عن الخديوي المعظم وأن حضرة نزل في أعينهم عن المقام الذي يستحقه من الاجلال . والحوادث المصرية شاهدة على أن أسباب المشاكل في القطر المصري غير ما ذكره حضرة الكاتب . والسجلات الرسمية والاعمال الثابتة حاكمة بنقيض ما أثبتته من جنابة المصريين على الاجانب أو تطاولهم الى مس المصالح الدواية . وجميع السياسيين من أهل المسكونة (ماعدا بعض

* نشرت في العدد ٥٧٨ من جريدة ثمرات المنور التي كانت تصدر في بيروت بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٣٠٣ هـ وهي مما زنادنا في الطبعة الثانية

رجال الانكاييز) في اتفاق على خلاف ماذكره من أن دولة الانكاييز مستمسكة بالحق في تعرق الديار المصرية . لهذا رأيت أن أكتب اليكم بمجمل من القول لتنبيه من لم يقف على الحقيقة أو طال عهده باخبارها فندسيها ، فان رأيتم الفائدة في نشره فذلك اليكم

الجناب الخديوي كان أعرف الناس بأهل بلاده ودرجة استعدادهم فنظر اليهم بعين المرحمة ، وافتتح ولايته الميمونة بأمر كريم أصدره في أوائل رجب سنة ١٢٩٦ هجرية بعد استوائه على كرسي الخديوية بايام ووجه به إلى دولتو شريف باشا ، وكان من فصوله ما يحدث عن مقاصد سموه في حكم بلاده فجعل منها توسيع نطاق الشورى وتخويل النواب حق النظر في برنامج المالية ولم ينسخ هذا الأمر بغيره . وثابر دولتو شريف باشا على انفاذه وسعى لذلك سعيًا بليغًا حتى في زمن انغزاله عن الحكومة إلى أن عرف برجل الحرية ، ثم إن جناب الخديوي هو الذي أصدر الأمر بانتخاب النواب واجتماع مجلسهم في سنة ١٢٩٩ ونفذ الأمر بتأييد من شريف باشا . وأشد الناس كانوا حرصاً على الحقوق الوطنية وتوسيع دائرة الشورى هم أكرم الناس منزلة لدى الحضرة الخديوية في هذه الأيام ، ولو أراد مرئيد أن يصرح بأسمائهم لفعل ولكن ظهور الأمر غني عن البيان . فلو قال قائل إن طلاب تلك الحقوق أخفض شأنًا من أن تناط بهم الأعمال في أقل الأمور كما أثبتته الكاتب لكأن ذلك تطاولاً على الجناب الخديوي وعقلاء رعيته مثل دولتو شريف باشا ، ولو كانت إجابة غلب أولئك الطالبين تعدُّ مشايعة للفساد وتقريراً بالبلاد لما صدرت به الأوامر الخديوية مع تقرر مالم الخديوي من أصالة الرأي وحسن الرعاية لمصالح بلاده . ودعوى أن البلاد صارت حكومتها إلى الفوضى جرأة على المقام الخديوي بنسبة الضعف اليه ، ورمي له بعدم القدرة على تلافي الأمر في بدايته ، وإنا نجعل مقام الحضرة الخديوية عن مثل هذه الظنون ، ومن ظنهما به فقد مس مقامه بأشد ما قدح به في حاكم من جهة كونه حاكماً . برأه الله مما قالوا

فقد كانت منزلة الخديوي في نفوس رعيته هي المنزلة التي نالها من يوم

توليته ورعاياه كانوا من أشد الناس محبة له ومن أخشعهم خضوعاً لأوامره ،
وجميع نظمات الحكومة وأعمالها التي نفذت وأجريت فيما بين الخامس عشر
من شوال سنة ٩٨ والسادس والعشرين من شعبان سنة ٩٩ كلها بأوامره العلية
ولم يدرك سلطته أدنى ضعف . وأما ما تقدم ذلك من حركات الجند فلم يخرج عن
حد نزاع خاص بين بعض كبار الضباط وبين بعض رجال الحكومة لكن الجانب
الخديوي كان في منزلة الاجلال من نفوس العامة والخاصة ، ولولا خيفة التطويل
لسردت كل قول شاهداً على التعضيد

غير أن الحكومة الانكليزية على عادتها في اختلاق العائل وارتجال المساءات
قلبت وجوه المسائل ، واستدبرت طالع الحق ، واستقبلت وجهه مطمئناً ، واتخذت
مجرد التغيير في بعض نظمات الحكومة الخديوية سبباً للمناوأة ، واندفعت
لتسير مراكبها إلى مياه الاسكندرية تهديداً للحكومة الخديوي وعدواناً عليه ،
ثم نفخ بعض رجالها في أنوف ضففة العقول من الاجانب المقيمين بالثغر حتى
أوقدوا فتنة هلاك فيها المساكين قضاء لشبهة انكليزية ، وأقامت منها حكومة
انكلترا حجة في العدوان على الأراضي الخديوية ، ولو أن بصيراً نظراً إلى أحوال
القطر المصري بعين صحيحة من مرض الغرض لعلم أن بداءة الخلل في ذلك القطر
من يوم ورود المراكب الانكليزية لثغر الاسكندرية . ولا نسبة بين ما كان
قبل ذلك من عموم الأمن ورواج الاعمال وانتظام المصالح وبين ما كان بعده .
المصريون لم يتطاولوا لمس المصالح الدولية ولا في وقت من الاوقات فقد قرروا
في مجلس نوابهم أن يكون العمل على قانون التصفية الذي أسسه دولتلو رياض
باشا في سنة ١٢٩٧ بالاشتراك مع وكلاء الدول ، وأخذوا على أنفسهم بالقول والفعل
أن لا يبحثوا في أمر رابطة من روابط الحكومة مع الدول العظيمة مما تقرر في
عقود الحكومة ، وقد مضى ذلك الزمن ومخصصات الديون تؤدي مستوفاة في
آجالها ، وحقوق الاجانب في مكانها من الرعاية ، إلا أن الحكومة الانكليزية
نهأت لها فرصة للتقدم إلى بعض ما كانت تنزع اليه من زمن طويل فتجنت على
المصريين بما لم يجنوه

ولم يزل المصريون على وفاق في تعظيم خديويهم وتعظيم سموه في رعاية المصالح الدولية مع المحافظة على حقوق البلاد إلى أن حال الانكاييز بحريهم الظالمة بين جنباه العالي وبين رعيته فسأت ظنون قوم من كبار ضباط الجند لعدم عن حقيقة أمر خديويهم ، فاستمروا على المقاومة ظناً منهم أنهم لا يقاومون إلا الانكاييز ، ولا يدافعون إلا جيشاً أجنبياً يغير على البلاد ، وواقفهم على ذلك عامة المصريين لهذا الظن نفسه ، فلما طالت المدة وفشا ما كان من أوامر الجناح الخديوي وإرادة الحضرة السلطانية فيما بينهم كان ما كان من تراجع الناس ، وتسليم القيادة إلى حاكمهم الشرعي ، وخضع له المصريون كافة خضوعاً غمر أفتدتهم ، وخالط ألبابهم ، وهذا شأنهم إلى اليوم . ثم حالهم مع المسيطرين عليهم من الانكاييز لم يتعد حدود المسالمة والامثال لأوامرهم ، رجاء التخلص من غوائلهم ، وانتظاراً لوفائهم بوعودهم ، ولو كان المصريون قوماً شرس الطباع صعب المراكب ، جفاة الجوانب ، لما سكنت لهم ثائرة ، ولما جنحوا إلى مسالمة ، ولما رسخت قدم الانكاييز فيهم على قلة جيشهم ، وشدة ملاقوا من عنتهم ، أما فضائل الجناح الخديوي من العفة والاستقامة والشفقة على الرعية والسعي في مصالحها ، فهو مما ذاق المصريون لذته ، ووجدوا فائدته ، فلا يرتابون في شيء منه ، والتنبية عليه اعلان لحفائه على أعين مشاهديه سنين عديدة ، فهو إلى الطعن أقرب منه إلى المدح . ورضاء الحضرة السلطانية عن الخديو المعظم وإقامة الشواهد على الرضاء باهداء النياشين والتحف مما نشرته الجرائد المصرية وشهد المصريون رونق الاحتفال له وبلغ شاهد غائبهم ، فأبى أثر للاحتجاج به بعد سبق علمه بأزمان عند من تقام الحجة به عليهم ؟

وبالجملة فالمصريون قوم عرفوا بالطاعة لحضرة سلطانهم المعظم أمير المؤمنين أيده الله ، وعلموا أن الجناح الخديوي نائبه في بلادهم ، ومظهر سلطته عليهم ، فهم له خاضعون ، وعلى محبته متفقون ، فان تقل ناقل خلاف ذلك فهو إبطال فساد ، أو منخدع بوسوسة أجنبية ، فقد تبين أن من حظ الانكاييز إيقاع النفرة بين الخديوي ورعيته ليتهم لهم ما يريدون منها ، كما مرنا عليه في كل بلد دخلوه

هذه هي الحقيقة التي ينكرها الجهلاء ، ويعرفها العقلاء ، فلم تكن أسباب المشاكل ما ذكره حضرة الكاتب وإنما سببها الجشع الانكائزي كما اتفق عليه سياسيو العالم . ولم يكن تداخل الانكائز حقاً مفروضاً في بداية الأمر ، ولا حلولهم اليوم يعدّ من حسناتهم ، فانا لم نسمع بأن الديون تخول للدائن حق التغلب على الممالك ، وأتم العالم بين أيدينا تهتف بنا أحوالها ولو شاء حاكم أن يحكم بحق لأحد في التداخل لأصلاح أمر من أمور مصر فليحكم به للدولة العلية فهي حاکمة البلاد ، ولا تعجز عن تقرير النظام فيها بالكلام ، فضلاً عن تجريد الحسام ، ورحم الله أمراً عرف حده ، فوقف عنده ، والله الموفق لما فيه الصلاح

المقالة الثانية

كتب المغازي وأحاديث القصاصين *

سألني سائل عن الرأي فيما يوجد بأيدي الناس من كتب الغزوات الإسلامية وأخبار الفتوح الاولى ، وعمّا حشيت به تلك الكتب من أقوال وأعمال تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى كبار أصحابه رضي الله عنهم ، وهل يصح الاعتماد على شيء منها ، ثم خص في السؤال كتاب الشيخ الواقدي الموضوع في فتوح الشام ، وذكر لي أن بعضاً من معربة هذه الأيام المعتدين على مقام التصنيف ، قد جعلوا هذا الكتاب عمدة قلمهم ، ومثابة يرجعون إليها في روايتهم ، ليتخذوا منه حجة على ما يروّجونه من تشويه سيرة المسلمين الأولين ، وليسلكوا منه سبيلاً إلى إذاعة المثالب ، ونشر المعاييب وأن بعضاً آخر من ضعفة العقول من المسلمين ، ظنوا هذا الكتاب من أنفس ما ذكر الأولون للآخرين ، وأنه جدير أن يحرز في خزائن الكتب السياسية ، وحقائق أن ينقل من اللغة العربية إلى غير هامن

(*) نشرت في العدد ٥٨٧ من جريدة ثمرات الفنون البيروتية في ٢٦ رمضان

اللغات، فأجبت السائل بجواب أحبت لو ينشر، على ظن أن تكون فيه ذكرى لمن يتذكر لم يرزأ الاسلام بأعظم مما ابتدعه المنتسبون اليه ، وما أحدثه الغلاة من المفتريات عليه ، فذلك مما جلب الفساد على عقول المسلمين ، وأساء ظنون غيرهم فيما بني عليه الدين ، وقد فشت للكذب فاشية على الدين المحمدي في قرونه الاولى ، حتى عرف ذلك في عهد الصحابة رضي الله عنهم ، بل عهد الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم في حياته ، حتى خطب في الناس قائلا : « أيها الناس قد كثرت علي الكذابة ، ألا من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » أو كما قال (١)

إلا أن عموم البلوى بالأكاذيب حق على الناس بلاؤه في دولة الامويين ، فكثر الناقلون ، وقل الصادقون ، وامتنع كثير من أجلة الصحابة عن الحديث إلا لمن يثقون بحفظه ، خوفاً من التحريف فيما يؤخذ عنهم ، حتى سئل عبد الله ابن عباس رضي الله عنه : لم لا تحدث ؟ فقال : لكثرة المحدثين . وروى عنه الامام مسلم في مقدمة صحيحه أنه قال : مارأيت اهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث (٢) ثم اتسع شر الاقتراء ، وتفاقم خطب الاختلاق ، وامتد بامتداد الزمان ، إلى أن نهض أئمة الدين من المحدثين ، والعلماء العاملين ، ووضعوا للحديث أصولاً ، وشرطوا في صحة الرواية شروطاً ، وبينوا درجات الرواة وأوصافهم ، ومن يوثق به ومن لا يوثق به منهم ، وصار ذلك فناً من أهم الفنون سموه فن الاسناد ، وأتبعوه بفن آخر سموه فن مصطلح الحديث ، فامتاز بذلك الصحيح من الفاسد ، وامتاز الحق من الباطل ، وعرفت الكتب الموثوق بها من غيرها ، وثبت علم ذلك عند كل ذي إلمام بالديانة الاسلامية

وقد روي عن الامام مالك رضي الله عنه أنه كان قد كتب كتابه الموطأ

(١) لا أذكر اني رأيت الحديث بهذا اللفظ وظاهر انه مروي بالمعنى بقوله أو كما قال (٢) روى مسلم هذه العبارة في مقدمة صحيحه عن يحيى بن سعيد القطان بهذا اللفظ وبلفظ الصالحين بدل اهل الخير ولم يذكر ابن عباس وأوله بان الكذب يجري على لسانهم ولا يتعمدون الكذب يعني يرون الاحاديث الموضوعة ولا يعلمون لحسن ظنهم وعدم تقدم

حاويا أربعة عشر ألف حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع حديث « قد كثرت علي الكذابة فطابقوا بين كلامي والقرآن ، فان واقعته والا فاطر حوه » عاد إلى تحرير كتابه ، فلم يثبت له من الأربعة عشر ألفاً أكثر من ألف ومن راجع مقدمة الامام مسلم علم ما لحقه من التعب والعناء في تصنيف صحيحه ، واطلع على ما أدخله الدخلاء في الدين وليس منه في شيء لم يخف على أهل النظر في التاريخ أن الدين الاسلامي غشي أبصار العالم بلامع القوة ، وعلا رؤوس الأمم بسلطان السطوة ، وفاض في الناس فيضان السيول المتحدرة ، ولاحت لهم فيه رغبات ، وتمثلت لهم منه مرهبات ، وقامت لأولي الألباب عليه آيات بينات . فكان الداخلون في الدين على هذه الأقسام : قوم اعتقدوا به إذعانا لحجته واستضاءة بنوره ، وأولئك الصادقون . وقوم من ملل مختلفة انتحلوا لقبه ، واتسموا بسمته ، إما لرغبة في مغامره ، أو لرغبة من سطوات أهله ، أو لتعزيز بالانتساب اليه ، فتدثروا بدثاره ، لكنهم لم يستشعروا بشعاره . لبسوا الاسلام على ظواهر أحوالهم ، إلا أنه لم يمس أعشار قلوبهم ، فهم كانوا على أديانهم في بواطنهم ، ويضارعون المسلمين في ظواهرهم . وقد قال الله في قوم من أشباههم (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) فمن هؤلاء ، من كان يبالغ في الرياء ، حتى يظن الناس أنه من الاتقياء ، فإذا أحس من قوم ثقة بقوله أخذ بروي لهم أحاديث دينه القديم ، مسنداً لما إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو بعض أصحابه ، ولهذا نرى جميع الاسرائيليات وما حوته شروح التوراة قد تقل إلى الكتب الاسلامية ، على أنه أحاديث نبوية ، إلا أن أئمة الدين عرفوا ذلك فنصوا على عدم صحتها ، ونهوا عن النظر فيها . ومنهم من تعمد وضع الأحاديث التي لو رسخت معانيها في العقول أفسدت الأخلاق ، وحملت على التهاون بالأعمال الشرعية ، وفترت الهمم عن الانتصار للحق ، كالأحاديث الدالة على انقضاء عمر الاسلام (والعياذ بالله) أو المطمعة في عفو الله مع الانحراف عن شرعه ، أو الحاملة على التسليم للقدر بترك العقل فيما يصلح الدين والدنيا . كل ذلك يضعه الموضعون قصداً لافساد المسلمين ،

وتحويلهم عن أصول دينهم ، ليختل نظامهم ، ويضعف حولهم .

ومن السكاذبين قوم ظنوا أن التزيد في الاخبار والاكثر من القول برفع من شأن الدين ، فهدروا بما شاؤا ، ينتغون بذلك الاجر والثواب ، ولن ينالهم إلا الوزر والعقاب ، وهم الذين قال فيهم ابن عباس : ما رأيت أهل الخير في شيء أ كذب منهم في الحديث . ويريد بأهل الخير أولئك الذين يطيلون سبهم ، ويوسعون سربهم ، ويطأطئون رؤوسهم ، ويخفتون من أصواتهم ، ويغدون ويروحون إلى المساجد بأشباحهم ، وهم أبعد الناس عنها بأرواحهم ، يحركون بالذكر شفاههم ، ويلحقون بها في الحركة سبهم ، ولكنهم كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : منقادون لحمة الحق ، لا بصيرة لهم في أخائه ، ينقدح الشك في قلوبهم لأول عارض من شبهة ، جعلوا الدين من أقفال البصيرة ومغاليق العقل ، فهم أغرار مرحومون ، يسيئون ويحسبون أنهم يحسنون . اهـ فهؤلاء قد يخيل لهم الظلم عدلا ، والغدر فضلا ، فيرون أن نسبة ما يظنون إلى أصحاب النبي مما يزيد في فضلهم ، ويعلي في النفوس منزلتهم ، فيصح فيهم ما قيل : عدو عاقل ، خير من محب جاهل . ومن هؤلاء وضاع كعب المغازي والفتوح وما شاكلها

أما الشيخ الواقدي فكان من علماء الدولة العباسية ، ولده المأمون القضاء في عسكر المهدي ، وكان تولى القضاء في شرقي بغداد . قال ابن خلدون : وضعفه في الحديث وتكلموا فيه اهـ أي عدوه ضعيف الرواية ليس من أهل الثقة . ولذا نص الامام الرمي من علماء الشافعية : على أنه لا يؤخذ بروايته في المغازي^(١) فان كان هذا الكتاب المطبوع الموجود في أيدي الناس من تصنيفه ، فهذه منزلته من الضعف عند علماء المسلمين ، على أني لو حكمت بأنه مكذوب عليه ، مخترع النسبة اليه ، لم أكن مخطئا

(١) أقل ما قيل فيه انه ضعيف وقد كذبه الشافعي وأحمد وروى البيهقي عن الشافعي انه قال كتب الواقدي كلها كذب ، ووثقه آخرون ولا خلاف في كونه من أعلم علماء الأمة . كما في تهذيب التهذيب

وذلك لأن الواقدي كان من أهل المائة الثانية بعد الهجرة ، وكان من العلم بحيث يعرفه مثل المأمون بن هرون الرشيد ، ويواصله ويكتبه ، وصاحب هذه المنزلة في تلك القرون إذا نطق في العربية فأنما ينطق بلغتها ، وقد كانت اللغة لتلك الأجيال على المعبود فيها من متانة التأليف ، وجزالة اللفظ ، وبدواة التعبير . والناظر في كتاب الواقدي ينكشف له بأول النظر أن عبارته من صناعات المتأخرين في أساليبها ، وما ينقل فيها من كلام الصحابة مثل خالد بن الوليد وأبي عبيدة وغيرهم رضي الله عنهم لا ينطبق على مذاهبهم في النطق ، بل كلما دقق المطالع في أحشاء قوله يجد أسلوبه من أساليب القصاصين في الديار المصرية من أبناء المائة الثامنة والتاسعة ، ولا يرى عليه لهجة المدنيين ولا العراقيين ، والرجل كان مدني المذنب عراقي المقام ، ولولا خوف التطويل لأتيت بكثير من عباراته ، وبينت وجه المخالفة بينها وبين مناهج أبناء القرون الأولى في التعبير ، على أن ذلك لا يحتاج إلى البيان عند العارفين بأطوار اللغة العربية فهذا الكتاب لا تصح الثقة به ، إما لأنه مكذوب النسبة على الواقدي وهو الأظهر ، وإما لضعف الواقدي نفسه في رواية المغازي كما صرح به العلماء ، فلا تقوم به حجة المتحذلقين ، ولا يصلح ذخراً للسياسيين ، ومثل هذا الكتاب كتب كثيرة كقصص الأنبياء المنسوب لأبي منصور الثعالبي ، وكثير من الكتب المتعلقة بأحوال الآخرة ، أو بدء العالم ، أو بعض حقائق المخلوقات المنسوبة إلى الشيخ السيوطي ، وقصص روايات تنسب إلى كعب الأخبار أو الأصمعي ، وما شا كلاهما ممن عرفوا بالرواية ، فأولع الناس بالنسبة إليهم من غير تفريق بين صحيح وباطل ، فجميع ذلك مما لا اعتداد به عند العلماء ، ولا ثقة بما يندرج فيه . والعمدة في النقل التاريخي كتب الحديث كصحيح البخاري ومسلم وغيرهما من الصحاح ، وتلونها كتب المحققين من المؤرخين كابن الأثير والمسعودي وابن خلدون وأبي الفدا وأمثالهم . وعلى أي حال فلا يستغني مطالع التاريخ عن قوة حكمة يميز بها بين ما ينطبق على الواقع وما ينبو عنه هذا ما أردنا اليوم إجماله ، فإن دعا إلى التفصيل داع عدنا إليه ، والله الموفق للصواب

المقالة الثالثة

مراحم (*)

(ملخص خطاب له كان القاء في المدرسة السلطانية ببيروت وكان من مدرسيها وكان بعض جواسيس فيها بلغ الساطران طامنا فيه وفي الاستاذ، وكتبت جريدة ثمرات الفنون ثناء عليه تبغي به الدفاع عنه فأرسل اليها رحمه الله تعالى ما يأتي :)

طالعت في جريدتكم جملة تتعلق بالخطاب الذي دعيت اليه وأقيته في احتفال المدرسة السلطانية ، ولقد مننتم بذكر صفات أثبتوها لهذا العاجز ، وعندي أن نفسي تقصر عن القليل منها فضلا عن كثيرها ، فليشكركم الأدب ولتحمدكم الفضيلة . ثم إن أحد الادباء سألني أن أثبت ما بني عليه الخطاب بالمكتابة لينشر ، فرأيت أن أكتب به اليكم ، فان رأيتم الفائدة في نشره فدونكم وما تشاؤون

فت بين يدي الحاضرين فحمدت الله وصليت على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم اعترفت بالقصور ، واستجدت العفو من الحاضرين ثم قلت ما معناه : أفتتح كلامي بالدعاء لمولانا أمير المؤمنين ، وخليفة رسول رب العالمين ، السلطان عبد الحميد خان ، فمقام هذا الخليفة الأعظم فينا ، هو الحافظ لنظامنا ، والمحمي عن مجدنا ، والآخذ بميزان القسط بيننا ، وهو هادينا إلى أفضل سبلنا ، فهو ولي النعمة علينا ، ولو أفرغنا جميع أوقاتنا في الدعاء لعظمته ما أدينا أدنى حقه علينا ، فاللهم أيد شوكته ، وأبد دولته ، وامتع بوجوده رعاياه الصادقين . ثم أتبع ذلك بالدعاء لوزرائه الذين فوض اليهم النظر في شؤون رعيته ، والقيام بتنفيذ إرادته . ثم أثبتت على حضرة ملجأ الولاية السورية ، وعلى سعادة

(*) نشرت في عدد ٩١ من جريدة ثمرات الفنون في ٢٥ شوال سنة ١٣٠٣

متصرف بيروت ، وذكرت فضل دولة الوالي الأتخم ، وسعادة المتصرف الأكرم في ترويج سوق العلم ، وتعزيز جانب الفضل . ثم شكرت الحاضرين على الاحتفال في ذلك المعهد العلمي . وقلت : إن الحامل لهم عليه إنما هو تعظيم المعارف ، واجلال مقامها ، علماً منهم بأن العلم عزيز ، والعزیز اذا حل دار قوم فلم يجلبوا منزلته هاجرم وارتحل عنهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون . فليحمد الله العلم ، ولتفض عليهم بركانه ان شاء الله

ثم أعقبت ذلك بما معناه :

إن حرصنا معاشر العثمانيين على انتشار المعارف منشؤه أمر في نفوسنا ، فاتنا اذا خالطنا سكان الأقطار الشرقية على اختلاف مواقعها نجد في كل واحد منهم احساساً بفقد شيء ، كان له فهو آسف على فواته ، وفيه ميل لطلبه رغبة الوصول اليه ، غير أن النفوس في حيرة من هذا المفقود المطلوب كأنها لا تهتدي اليه . ويزيدنا أسفاً وشوقاً لمخالطتنا لأقوام يدعون أنافي المنزلة المتأخرة عنهم ، وسواء أصابوا في دعواهم أم أخطأوا ، فإن الجمهور مناقد صدقهم ، ولم تزل الحيرة آخذة بالعقول حتى قامت الدولة العلية بصوت خليفتها الأعظم تنادي على الأمة أن مطلوبكم المحبوب هو العلم . كان العلم فيكم وكان الحق معه ، وكان الحق فيكم ، وكان المجد معه . كل مفقود يققد بفقد العلم ، وكل موجود يوجد بوجود العلم . ثم أنشأت المدارس ، وأقامت بناء المكتاب ، وحملت رعاياها من كل طبقة على الدراسة ، وطالبهم باقتناء العلوم ، فاستجاب لها أقوام منحهم الفطرة قوة في الاستعداد ، وسيتبعهم غيرهم ان شاء الله

أما العلم الذي نحس بحاجةنا اليه ، فيظن قوم أنه علم الصناعة وما به اصلاح مادة العمل في الزراعة والتجارة مثلاً . وهذا ظن باطل فانا لو رجعنا إلى ما يشكوه كل منا نجد أمراً وراء الجهل بالصناعات وما يتبعها . إن الصناعة لو وجدت بأيدينا نجد فينا عجزاً عن حفظها ، وإن المنفعة قد تنهت لنا ثم تنفلت منا شيء في نفوسنا ، فنحن نشكو ضعف الهمم ، ونخاذل الايدي ، وتفرق الأهواء ، والغفلة عن المصلحة الثابتة ، وعلوم الصناعات لا تفيدها دفعاً لما

نشتكيه ، فطلوبنا علم وراء هذه العلوم ، ألا وهو العلم الذي يمس النفس ، وهو علم الحياة البشرية

إذا نفخت الحياة في جسم نبيهته لجميع ضروراته ، وهدته لحاجاته ، واستحفظته ما يصل اليه ، وصرفته في سبيل الحصول عليه ، والعلم المحيي للنفوس هو علم أدب النفس ، وكل أدب لها فهو في الدين ، فما فقدناه هو التبحر في آداب الدين ، وما نحس من أنفسنا طلبه هو التفقه في الدين ، ولا أريد أن نطلب علماً محفوظاً ، ولكننا نطلب علماً مرعياً ملحوظاً . وما أودعته الديانة من الآداب النفسية والكمالات الروحية لم يختلف في صحته أحد من البشر ، حتى من يظن نفسه غير آخذ بالدين ، فإذا استكملت النفس بآدابها عرفت مقامها من الوجود ، وأدركت منزلة الحق في صلاح العالم ، فانتصبت لنصره ، وأيقنت بمحاجتها إلى مشاركتها في الوطن والملة ، فأخذت بالفضيلة الجامعة للفضائل ، وهي ما يعبر عنها بحب الوطن والدولة والملة ، ولا نريد من الحب ميلاً خيالياً ، ولكننا نريد منه ميلاً يبعث على العمل ، كما يرشد إليه الدين والأدب ، فتمت تحلت النفوس بهذه الفضيلة أبصرت مواقع حاجاتها فاندفعت إلى طلبها ، وطرقت لها كل باب ، لا ترجع حتى تظفر أو يدركها الأجل أما دعوى أننا فقراء فهي باطلة ، فانا لو نظرنا إلى ثروة بلادنا لا نجد لها قاصرة عن حاجتنا ، ولكن القاصر عن الحاجات هو ادراكنا لاحتياجنا ، فقد نرى الغني ينفذ أموالاً جمة في زخارف زينة لا مقام لها في نظر العاقل ، ولا يرى في بذله هذا مغرمًا ، ثم اذا دعي إلى مساعدة وطنه وملته ودولته يستكثر القليل ، ويعطي وهو كاره ، ولو كان حي القلب بحياة العلم الحق لجعل الأفضل من ماله ونفسه مبذولاً في تأييد دولته ورفعة أوطانه ، (ثم أتيت على ذلك بشواهد وضربت له أمثالا كلها يرجع الى هذا الأصل) ثم قلت :

واننا في تحصيل هذا العلم الحيوي لا نحتاج الى الاستفادة من البعداء عنا ، بل يكفيننا فيه الرجوع لما تركنا ، وتخليص ما خلطنا ، فهذه كتبنا الدينية والأدبية حاوية لما فوق الكفاية مما نطلب ، وليس في كتب غيرنا ما يزيد عنها الا بما لا حاجة بنا اليه ، وكما وصل اليها وجودنا بالتناسل عن آباءنا ، فلتصل اليها حياة (٤٥) - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني

نفوسنا بما أوردونا من علومهم وآدابهم ، ولا يتيسر لنا ذلك الا بعلم اللغات التي أودعوها معارفهم ، وأهمها لدينا لغتان : اللغة التركية لأنها لغة دولة قامت بشأن الممالك الاسلامية ما يقرب من سبعة قرون ، وقد تكلم فيها من الأفاضل والعلماء جم غفير نحن في حاجة الى الاستفادة من معارفهم ، ثم هي اللغة الرسمية في الممالك العثمانية ، فيها حياننا السياسية ، وبها نقف على هدي مولانا الخليفة الاعظم أيده الله بنصره ، واللغة العربية وهي لغة القرآن الشريف ، وكتب الشرع المنيف ، فعلى الناس أن يطلبوا البراعة في اللغتين ، لا لأن يقال كاتب ومنشئ ، ولكن ليدرك أسرار ما أودع فيهما ، ويتمكن من افادة ما قد ينكشف له . أما اللغة الفرنسية وغيرها من اللغات فاحاجة اليها خاصة ، والاشتغال بها ولا بد أن يكون منحصراً في طبقات من الناس ، إما عالم يطلب ترجمة ما فيها من العلوم الطبيعية مثلاً الى لغته ، وإما منتهي ، لأن يخدم دولته في معاملة سياسية بينها وبين الدول الأجنبية ، وإما تاجر يحتاج الى معاملة أناس من غير جنسه وما شابه ذلك . وليس بمحمود في نظر العملاء أن تطلب اللغات الأجنبية لذاتها فان اللغة طريق الى ما أودع فيها ، وليس في علمها نفسها أدنى فضيحة .

ثم استطلت الكلام وطلبت الوقوف عند هذا الحد ، وختمت كلامي بالدعاء لمولانا أمير المؤمنين ، وطلبت من الحاضرين أن يؤمنوا ، فارتفعت الأيدي بالدعاء لعظمته بتأييد الملك وتحليلد السلطان ، هذا ماوسع الوقت إجماله ، والله الموفق للصواب (يقول جامع الكتاب) ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى كان في بيروت يخدم الاسلام والدولة العثمانية والشعب السوري الذي أحبه وعرف له قدره ، وكان كبار الطوائف من جميع الملل والنحل تنجبه وتكبره ، وما كان يمكنه أن يقيم في البلاد العثمانية متمتعاً بهذا الاحترام إلا إذا لهج بمثل هذا الثناء والدعاء للسلطان

المقالة الرابعة

رسالة السير صمويل باكر في السودان ومصر وانكاذرة *

وردت اليينا الكتابة الآتية تحت العنوان المذكور أعلاه ونصها :

أبعث اليكم بسطور أظن في نشرها مايسر مطالعي جريدتكم ، فان رأيتم
كما رأيتم فاليكم الاختيار في درجها بصحيفتكم

طلعت في إحدى الجرائد رسالة بعث بها السير صمويل باكر الانكليزي
الى جريدة التيمس موضوعها السودان ومصر وانكاذرة ، فأجلت مقام الرجل
من الخبرة بأحوال السودان ومصر ، ومن الاحاطة بمنزلة دولته الانكليزية من
قلوب المصريين والسودانيين ، وبمكانة الدولة العثمانية من نفوس الفريقين ، إلا
أنني وجدت ضعفاً في رأيه عند ما أخذ في بيان الوسائل التي يظنها موصلة لحل
مشاكل السودان ، وتخليص مصر من الاضطراب العارض أو ما سيعرض في
مستقبل الزمان، قال :

« عظمت رزايا السودان من قسود الرجال وإشغال الأفكار والأيدي
بالمحاربات وسفك الدماء عن تعاطي أعمال الزراعة والتجارة ، حتى أصبح أهاليه
في فقر أعوزهم معه حفظ الحياة ، وأصيبت مصر بالافلاس ، وابتلى أهاليها
بالفاقة وضيق المعيشة . ولم يكن نصيب الانكليز من الرزية أقل من نصيب تلك
البلاذ ، فأنفقوا أموالاً وافرة ، وقعدوا رجلاً من أعز أبطالهم ، وأشجع رجالهم ،
وهتكوا أستار قوتهم الحربية ، ثم عادوا بالخيانة والفشل ، ولصق بهم عار الهزيمة
وسوء المفرد . فهذا الذي أصاب البلاد المصرية ، والأقطار السودانية ، ونال
رجال الانكليز كله من عواقب تدخل انكاذرة في المسائل المصرية ، فكان
مثلاً كمثل من « سقط العشاء به على سرحان » ثم قال :

« إن القبائل المنتقضة على الحكومة المصرية من أهالي السودان لا يحتمل

خضوعها لسلطة الانكليز ، وإن ساقوا عليها من اقوى ما ساقوا ، أو دخلوا عليها من أبواب الحيل ما دخلوا . أما الحيل فلا تروج على تلك القبائل بعد ما عرفت ختل الانكليز ، ومما ظلمتهم في المواعيد ، وقعودهم عن نصره من يلتصون ولا هم من غيرهم ، بل عن إغاثته من يتولاهم من بني جنسهم ، كما فعلوا بالجنرال كوردون ، والسودانيون والمصريون في اتفاق على أن الانكليز قوم متغلبون ، معتدون على البلاد ، طالبون لملكها ، وهم مخافون للأهالي في الدين ، فلا يسوغ الخضوع لهم ، وإن أقاموا العدل ، ونصبوا ميزان القسط . وأما القوة فقد شهدت التجربة الماضية بعدم نجاحها في مراغمة السودانيين ، ولم ننس ما كان من الجيش الانكليزي في كل المواقع الحربية حيث فشل في جميعها ، ورجع بالعار عن كل موطن ، ولا قدرة لدولة على تطويع السودان ، وتقرير سلطة نظامية في إغاثته إلا للدولة العثمانية . فهي صاحبة السيادة الدينية على مصر والسودان ولها الحق الشرعي في الولاية عليهما ، فإن صح أن السودانيين لا يميلون اليها (ولا صحة له) فمن الحق أنهم يهابونها ، ويخشون بأسها ، لما تعودوه من سيادتها عليهم ، ولما عرفوه لها من الحق الشرعي . والتاريخ شاهد بأن العثمانيين هم الذين دوخوا بلاد السودان بعد المعارك الدموية ، ولم يؤثر عنهم أنهم تقهقروا في معركة مع تقارب الأساحة في تلك الأوقات . وأما عناكرنا (الانكليزية) فقد انهزمت بعدافعها المهلكة ، وبنداقها المغنية ، وأرغمتها رماح العربان وحرابهم على الرجوع القهقري »

هذه معلومات السير صمويل باكر في هذه الحوادث ، وأنا لا مخالفه في شيء منها ، بل لا يوجد ذو عقل صحيح الا يرى رأيه فيها . أما وسائل الخلاص من هذه البلايا فنذكرها منقولة عنه ، ونأتي مع كل وسيلة ببيان الصواب فيها ، وإن كنا لا تتبع ترتيبه في رسالته لغرض لنا في التقديم والتأخير

رأى هذا السياسي كما رأى غيره من أبناء جلدته الانكليز أن من الواجب الختامي لتقرير الراحة في مصر وحمايتها من غارات الأجانب إلغاء الجيش المصري المؤلف من الفلاحين المصريين ، وتأليف جيش من الأرناؤوط ونحوهم ، وفي

ذلك مسرة للجند الملني بذهابه لزراعة الأراضي كما يشتهي
أما المصريون فهم كغيرهم من العثمانيين لا يفرقون بين طائفة من الطوائف
العثمانية وطائفة أخرى لتكون حامية البلاد ، ومانة لها من اضطراب داخلي
أو عدوان أجنبي . ولكننا لم نعلم ما حمل هذا الرجل وغيره على التفرقة ، وهو
يعلم أن المصريين هم طبقة من طبقات العثمانيين ؟ وما اعترف به للعثمانيين في
تدويم السودان يصيب المصريين منه حظ وافر ، فانهم كانوا ولم يزالوا منهم ،
والجند المصري كان فرقة من العثماني في الفتوحات السودانية ، وقد كان للجند
العثماني المصري وحده عمل في فتح أقاصي السودان على عهد الحديوي السابق ،
ولهذا الجند يد في حفظ بلاده داخلا ، ومدافعة المغيرين عليها زمناً طويلاً ، وهذا
الجند هو المحاصر في كسلا وسنار والتناكلا ، فان كان المصريون وهم عثمانيون لم
لم يصيبوا ظفراً في بعض المواقع لهذه الأزمان الأخيرة ، فليس من ضعف
استعدادهم للمغالبة أو من جبن في طباعهم كما يتوهمه المتوهمون ، وإنما كان
لنقص في بعض قادتهم ، أو لكون الصدمة كانت أعظم من القوة ، أو لشيء
في طبيعة الحادثة ، وقد أوفى الزمان لهم بأمثال أصابهم مثل ما نزل بهم . فالجنرال
غراهم انهزم في سواحل البحر الأحمر مرتين وجبن جيشه ، أو ضعف عن مقاومة أشباه
من العربان ، واللورد ولسلي فشل بجيشه في السودان الغربية ، وخسر في كل
مشاهده مع عراة السودان . والمصريون لم يزالوا في مواقعهم — سنار والتكلا
وكسلا — يهاجمهم الموت ولا يفرون ، فان كان هذا لم يؤثر نقصاً في الجيش
الانكليزي ، فن الحق أن لا يؤخذ على المصريين مالا يخلو منه جيش في أي
أمة ، على أن الألبانيين وأمثالهم إن كانوا قزماً يجلبون من الأطراف على غير
نظام فن المتعذر أن يتألف منهم جيش منتظم يقوى على ما يريد حضرة الكاتب ،
وقد جرب ذلك في حملة السودان الأخيرة ، وإن لوحظ في تأليفه النظام المعروف
في الممالك العثمانية ، فذلك جيش عثماني وأهلاً به وسهلاً . ولعل الكاتب رأى
من الواجب أن يبدل جيش عثماني مصري بجيش عثماني تحت اسم آخر ، ويكون
جلوله في مصر عوضاً عن حلول الجيش الانكليزي ، فان كان ذلك واقفناه في رأيه ،

ورجونا أن يعجل الله بتنفيذه

ثم أشار على حكومته (الانكليزية) بأن تأخذ بأتمجج الوسائل وأقربها لحلّ مسألة السودان ، وإرجاع تلك البلاد إلى ما كانت عليه قبل الفتنة ، فانه لا غنى لمصر عن شمول الراحة في تلك الأقطار ، ولا أتمجج من توسط الدولة العثمانية ، وسوق فريق من جنودها لمحاربة السودانيين ، وكسر سورتهم . فمن الواجب على دولة انكلترة أن تسعى في اعداد جيش عثماني ينزل من بلاد السودان على سواكن ، فاذا وصل اليها انقسم الى فرقتين ، تتوجه احدهما من طريق كسلا لاخضاع الأقطار الشرقية ، واتخاذ الحامية المصرية ، والأخرى تزحف من طريق بربر . والجنود الانكليزية والمصرية تحل في وادي حلفا ومديرية دقلا ، ويكون ذلك الزحف من ٢٠ أكتوبر الآتي

ولما كانت الدولة الانكليزية قد غاضبت الدولة العثمانية بالعدوان على حقوقها في مصر أخلص لها النصيحة بتجديد الوداد بين الدولتين ، وطلب من دولة بريطانيا أن تعرض اخلاصها على الدولة العلية ، وتؤكد لها المحافظة على المعاهدة المنعقدة بينهما على يد اللورد سالسبورى ، ومن مقتضاها أن تكون انكلترة عوناً للدولة العثمانية بالسلاح والرجال اذا تعرضت دولة أخرى لشيء من الممالك العثمانية . فاذا تجددت المحالفة بين الدولتين في هذا الوقت تصبح انكلترا حامية لقطر المصري ، ومتفرغة لمسئلة أهم من المسئلة المصرية : **(المسئلة الأفغانية)**

أما نحن فنخال الدولة العثمانية تقول : « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ؟ » ان المعاهدة التي يشير اليها ان صح القصد فيها لحماية شيء من الممالك العثمانية ، فأهم مقصود منها هو مصر ، فانها هي البلاد التي يمكن لانكلترا أن تشترك مع الدولة في الدفاع عنها لاكتنافها بالمياه من أغلب جوانبها . وأما سائر الولايات الاسيوية فهي بعيدة عن البحر ولا قدرة لانكلترة على سوق جيش في الأراضي اليابسة اللهم إلا عدداً قليلاً يمكن للدولة أن تستغني عنه . وإذا وصلت أذنان الحرب إلى البحر فأتت فرصة المدافعة . فالبلاد التي يصح التحالف مع انكلترة

على صيانتها قد أغارت عليها انكلترا نفسها فصار الخليف على صون شيء هو السالب له ، فكيف يوثق بمحالفته ؟ فان قيل تقض المحالفة كان من وزارة غلادستون فلتحافظ عليها وزارة سالسبوري . قلنا الدولة التي تكون عهدها تابعة لهوى رجالها لا يعتمد على محالفتها فلتترك وشأنها ، وان الدولة العثمانية أحرص من أن تسهل لانكلترا طريق حمايتها لمصر كما زعم حضرة الكاتب في آخر نصيحته فان ذلك أعظم الضرر على سائر ممالكها

وليس من مصلحة الدولة العثمانية أن تسير جنودها لاختصاص السودان — وعساكر الانكليز في مصر — فان الجند العثماني إذا ظفر بالسودانيين وأزهمهم الطاعة ، فلا يخلو حاله إما أن يرجع بعد ذلك ويسلم البلاد لطلاب الحلول فيها من الانكليز والمصريين القائمين بخدمة مصر ، فتكون الدولة قد استعملت سيفها في رعاياها قصد ادخالهم في قهر غيرها ، ومحال على الدولة أن تفعل ذلك . وأما أن يبقى الجند العثماني في السودان ، وتكون البلاد ولاية عثمانية ، وجيش الانكليز حال بمصر ، فهذا غير ممكن من وجهين ، (الأول) أن رضا الدولة بها بذلك اختيار لأخس القسمين وأبعدهما عن مركز القوة الحربية العمومية ، خصوصاً وطريق مواصلة الولايات السودانية مع قاعدة الملك لا تكون إلا من البحر ، فتكون عرضة للنزاع في أي وقت تتفرغ انكساراً من منازعاتها الاسيوية ، وتلتفت لاستخلاص السودان . (والوجه الثاني) ان انكلترا لا تأمن أن تكون قوة عثمانية دائمة الجوار لقواها الحربية في مصر ، وهي تعلم ان المصريين والسودانيين على وفاق في الميل للدولة العثمانية ، وقرب المكان يقويه وطول الزمان يظهر أثره في الاجماع على طرد الجيش الانكليزي من أرض مصر وما حله من مواقع السودان ، فلا واحدة من الدولتين ترضى بجعل السودان ولاية عثمانية مع العزم على استمرار الحلول الانكليزي زمناً طويلاً

فلم يبق من الوجوه الممكنة إلا وجه واحد وهو انجلاء الجنود الانكليزية عن القطر المصري ، وحلول الجيوش العثمانية فيه ، وسوق فرقة منها إلى أطراف السودان ، وهذا أيسر الوجوه وأدناها من الصواب ، فانه لما لزم الاعتراف بسيادة الدولة العلية على السودان ومصر ، وان المصريين والسودانيين ينظرون إلى الانكليز

نظرهم إلى الأعداء المتغلبين ولا يخضعون لهم خضوعاً ثابتاً — وعلى هذا تستقر الراحة في مصر ولا تتأيد سلطة الخديوي مادام وافقها — وجب أن يطلب إلى الدولة تقرير الراحة في الديار المصرية كما يطلب ذلك منها السودان، وهذا أسهل على انكلترة أن تتفق مع الدولة عليه وتقم من أعمالها السابقة ببعض الامتيازات في إدارة المالية أو فيها مع إدارة أخرى وبعض الخصوصيات في قناة السويس، هذا إلى أن يتألف جيش عماني مصري ثم تعود مصر إلى ما كانت عليه أن كان لابد من ذلك، وبهذا تفرغ انكلترا من أعمال مصر إلى أعمال أهم منها في آسيا لما تم لها من مخالفة الدولة العثمانية على وجه صحيح ثابت

أما ما أطرى به على سعادة حسن باشا خليفه من انه الرجل الذي يجمع بوجهانه كلمة السودانين، وانه يعسوب القبائل متى رآه التفت عليه، وانه هو الذي يسلب بغض الانكليز من قلوب عرب السودان، وينشئ فيها ثقة بهم، فهو المثل المعروف (تري فتيانا كأنخل، وما أدراك ما اندخل) فان حسن باشا خليفه ان كان رجلاً في قبيلة فليس رجلاً في قبائل، وبرهان ما تقول ما كان من أمره أولاً وآخرأ. ولولا خيفة ان أمس بأحواله الشخصية لذكرت من أعماله مالا وقوف للحكومة المصرية عليه (ولا يثبتك مثل خير)

هذا ما قصدنا ايراده في هذه الأسطر والله يهدينا جميعاً طريق الرشاد

(م. ع.)

(جامع الكتاب) هكذا يكون الدفاع واقامة الحجج: أرضى رحمه الله به الدولة العثمانية — وهو نزيل بلادها — ودافع عن الجيش المصري وعن حق أهل مصر في تأليف جيشهم منهم، وكشف الستار عن دسائس الانكليز ومحاولتهم استخدام الدولة لتذلل لهم السودان بجيشها في الوقت الذي كانوا يريدون فيه توجيه قوتهم إلى الافغان، حتى لا تتسع النفقات عليهم. ومن أصول سياستهم قطع الشجرة بفرع منها، والاستعانة على الرعية بحكومتها، وضرب بعض الأمم ببعض، كالسبل يقذف جلوداً بجلود.

المقالة الخامسة

مصر - المحاكم الأهلية (*)

(وردت إلينا الرسالة الآتية من أحد الفضلاء في مصر تحت العنوان المذكور)
 رأينا بين عدة من الجرائد المصرية منافسة في هذا الموضوع وكنتم ألهم
 بشيء من الكلام فيه رواية عن مكاتبكم في القاهرة فمن حقوق الانصاف أن
 قبلوا مني ما أبعث به إليكم مما خطر ببالي ولكم بعد ذلك الرأي الأعلى
 أنت جريدة على ذكر ما يشاع من الخلل في المحاكم الأهلية بمصر ، وتذرعت
 بذلك إلى الكلام في وكيل الختانية ، وناطت جميع الخلل بأثره وتطرفة في الليل
 إلى أبناء طائفته (القبط) حيث أقام منهم في مناصب القضاء وما يتعلق به من
 لأهلية فيه لاجادة العمل ، واسترسلت من ذلك إلى دعوى أن المسلمين قد
 نظروا إلى هذا التصرف بعين الناقم . فعارضتها جريدة أخرى ودفعت مادعته
 من وقوع الضغائن بين المسلمين وبين اخوانهم في الوطنية من الاقباط ، وأقامت
 الادلة على التحامهم بالالفة والمحبة ، وأخذ كل منهم بعضد أخيه عند الشدة ،
 ورسوخ ذلك في نفوسهم بالتوراث عن أسلافهم ، وأقوى برهان على ذلك
 وقوفهم مواقف القتال مع اخوانهم المسلمين في مواطن الحروب في فتنة كريد
 وحرب الحبش والمواقع السودانية ، وما سبق ذلك وما لحقه ، يناصرونهم
 ويوازررونهم ، فكانوا حرباً لمن حاربهم ، وسالماً لمن سالهم ، وأن الخلاف المذهبي
 لم يحدث في البلاد شقاقاً وطنياً في زمن من الأزمان . ولهذا لا نرى للقبط في مصر
 مسألة سياسية تعني بها دول أوروبا كما نرى لغيرهم في غير مصر مسائل . وأيدت هذه
 الجريدة جريدة أخرى جاءت بتاريخ القبط في الاحقاب الماضية ، وما وصلوا اليه
 في الاوقات الحاضرة ، ثم فصلت القول تفصيلاً فيمن عهدت اليهم وظائف في
 المحاكم الأهلية من الطائفة القبطية وذكرت أسماءهم وسوابق خدمهم فكان أعضاء
 المحاكم منهم عشرة من سبعة وستين عضواً والذين في أقاليم النيابة منهم ثلاثة من

(*) نشرت في العدد ٦٥٨ من ثمرات الفنون بتاريخ ١٣ ربيع الاول سنة ١٣٠٥

وذكر فيها انه ارسلته من مصر للايهام ولم يكن الاستاذ قد عاد الى مصر

(٤٦) - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

عدد كثير من النواب ومتعلقهم والكل في قولها من أهل الاستحقاق لا يغمز على أحد منهم في العلم بما فيه ، ولا يرمي بالقصور عن تأدية ما عهد اليه عمله ، ثم رأينا في مواضع متعددة من جريدة جديدة تطبع في القاهرة تلويحاً وتصريحاً بالخلل الواقع في المحاكم ، وأن معظمه بل كله من تداخل وكيل الحقانية بطرس باشا غالي في أعمال تلك المحاكم . ونقلت تلك الجريدة إجماع الناس على أن السبب في نزول النازلة الهائلة وهي استعفاء عزتو شفيق بك منصور إنما هو الخلاف الذي وقع بين بطرس باشا وبينه ووقوف الباشا مانعاً بين البيك وبين الاصلاح . هذا إجمال ما رأيناه فرويناه

وعندنا أن التحامل على شخص بعينه لا ينبغي أن يتخذ ذريعة للطعن في طائفة أو أمة أو ملة ، فإن ذلك اعتداء على غير معتد ومحاربة لغير محارب ، أو كما يقال جهاد في غير عدو ، وهو مما ضرره أكثر من نفعه ان كان له نفع ، فانه يثير الساكن ، وينطق الساكت ، ويؤلب القلوب المتفرقة على مقاومة رأي الطاعن ومخالفته الى عكس ما يريد ، فليس من اللائق باصحاب الجرائد أن يعمدوا الى إحدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشيء من الطعن ، أو ينسبوا الى شائن من العمل ، تعليلاً بأن رجلاً أو رجالاً منهم قد استهدفوا لذلك ، فانه مما يرسل العداوات إلى عمائق القلوب ، ويدلى بالضغائن الى بواطن الافئدة ، فاذا تنافرت الطوائف تشاغلت كل منها بما يحيط شأن الأخرى ، فكانت كل مساعيهم ضرراً على أوطانهم ، فالتوى على الطاعن قصده ، وبعدت عنه غايته ، فقد كان يريد بقوله انتقاص شخص واحد تأدياً له أو استصراًفاً لدفع شره ، فأدى سوء استعماله الى خيبة آماله . فنحن نرى رأي الجريدة من المحاميتين خصوصاً عن طائفة الاقباط في مصر ، فانها أظهرت بحسن سيرها مع المسلمين من مواطنيها ما أهلها لوجوب المحافظة على وصية النبي صلى الله عليه وسلم فقد عهد الى أصحابه اذا فتحوا مصر أن يستوصوا بتبطلها خيراً ، وقد كان حسن حال الاقباط مظهرأ لصدق نبأه عليه الصلاة والسلام . على أن كثيراً من أسلاف هذه الطائفة كانوا أمناء على مال الحكومة المصرية في الدول الاسلامية المتعاقبة بما أجادوا من صناعتي الحساب والكتابة في تلك الاوقات ، ولم تعهد لهم فتنة ، ولم تذكر لهم على

البلاد غائلة ، فلا ينبغي لمبتغي الحق أن يمس شأنهم بالعنوان العام . وأما ما لا تخلو منه طائفة من وجود أشخاص ضعاف العقول أو ميالين الى الشر ، فعلى الناقدين أن يقصروا تقدمهم على حال أولئك الاشخاص ، ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم ، أو تحويلهم عن القبيح من أعمالهم ، ويجب أن يكون النقد خاصاً بالعمل الذي ظهر فيه الخلل لا يتعدى إلى أوصاف خاصة لا تنقد في البحث . نعم إن كانت الطائفة أو الأمة من قوم أجانب على البلاد ومتغلبين عليها بقوة قاهرة ، أو حيلة غادرة ، وكانت أعمال آحادها مبنية على أصول سننها المتغلبون ، فيكون عمل الواحد كأنه صادر عن الجملة كما في أعمال الانكايير بمصر ، جاز للناقد أن يأخذ الجماعة بأثم الواحد منهم ، ويستصرخ أبناء الوطن جميعاً لكشفهم عن بلاده ، واستخلاص الحق منهم لأربابه

أما بطرس باشا غالي فهو رجل ذكي حاذق في عمله ، بصير بأمره ، قلب في وظائف الحكومة من عنفوان شببته ، ورتقى به اجتهاده الى ما وصل اليه من سامي وظيفته ، وكان (باشكاتب) الحقانية زمناً طويلاً ، ثم صار وكيل الحقانية من نحو ست سنوات ، ووثقت به الحكومة الخديوية في كثير من أعمالها المهمة ، ونال منها مكافآت على ما أدى من الاعمال التي نيطت به ، فمن الظن به أن لا تضيق معرفته عن الاحاطة بما توجب عليه أحكام وظيفته ، وأن لا يصدر عنه ما يبعث عليه لأئمة من مصيب في رأيه محق في حكمه . واننا إلى الآن لم نزلنا نقدين ذكرنا عملاً مما أخذوا عليه يستحق أن نبث فيه سوى الخلاف الذي وقع بينه وبين شفيق بك منصور وافضاء هذا الخلاف إلى استعفاء البيك المومي اليه ومحاباة الباشا لبني طائفته : أما الاخيرة فدفعتها الجرائد المحامية بما لا سبيل إلى معارضته إلا بآثبات تقيضه ، وهو مما لا يتيسر لنا التهدي اليه حتى نرى ما لا نرتاب فيه من الادلة ، وأما الاولى فالخلاف قد يكون بين عاقلين ومستقيمين ومختلفين في الصفتين ، ولا طريق للحكم بخطأ أحدهما إلا النظر في مواد الاختلاف وأدلة كل من المختلفين ، وهي الآن لم تحضرنا بوجه ظني فضلاً عن قطعي ، على أن الذائع على ألسنة البصراء من المصريين أن النيابة العمومية لحرصها على تقوية نفوذها

وإعلاء سطوتها، قد تتجاوز الحد المحدود لها عند الاجراء في بعض دوائر المحاكم، والانتقاد عليها كان أشد من الانتقاد على القضاة، حتى قيل ان سبب استعفاء الاستاذ العلامة الشيخ العباسي من الافتاء كان عدواناً من بعض خدمة النيابة ممن لاخلاق له اضطر الشيخ للمداخلة في دفع عواقبه فلم ينجح، ولا ريب أن هذا كان معروفا لعزتو شقيق بك منصور وكان الظن به وهو في وظيفته أن لا يغفل عن ذلك، وأن يرد الأعمال إلى حدود أحكامها، ولا نظنه أهمل فريضة العمل فيه، لكن ربما كان الأمر أصعب من أن يلافي دفعة واحدة، والرجاء في حمايته أن يداوم على إرشاده لأهل القضاء وعمال النيابة بما ينشره من آرائه في صفحات الجرائد، فوطني مثله لا يحجب فوائد أفكاره عن أبناء وطنه حاجب وأما تأدية الخلاف إلى استعفائه فلا نعهده جريمة لبطرس باشا لأن الاستعفاء عمل اختياري لا يؤخذ به المنسب فيه، على أن جريدة الأحكام ذكرت أن سبب الاستعفاء تعيين أحد البلجيكيين في وظيفته كان من رغبة البيك أن لا يكون فيها وهو أمر يتعلق بدولة ناظر الحقانية لا بوكيلها، وعهدنا باخواننا المصريين أن يوجد بينهم من أهل المعارف الشرعية والادارية من يمكنهم بسعة اقتدارهم إصلاح محاكمهم وتقويم مآثروا منها، وأن لا يكون تخلي رجل أو رجلين من وظيفة من التوازل المهمة، أو الخطوب المدامة، فإن ذلك لا يكون إلا في بلاد بلغت من فقر الرجال غاية قصوى، ونسأل الله تعالى أن ينير بصائر أهل الحل والعقد في بلادنا المصرية حتى يعرفوا المصيب إصابته، ويلزموا الخطي. خطيته، ويؤلف بين قلوبهم، ويجمعها على مصالح بلادهم

كنتم ذكرت في بعض أعدادكم أن أمين بك غالي انتقل إلى وظيفة أرق من وظيفته راتباً والحقيقة أن ذلك لم يكن والراتب واحد والوظيفة مؤقتة، وكنتم ذكرت أن باش محضر محكمة مصر الابتدائية عزل برأي وكيل الحقانية في اليوم الثامن لاستعفاء شقيق بك وعين مكانه أحد أقارب الوكيل، والحق أن عزله كان بناء على طلب رئيس المحكمة ولم يعين بدله أحد إلى الآن، ويؤدي أعماله أحد المحضرين الموجودين بالقلم. هذا ماشافنا إليه العدل والله الهادي إلى الصواب

المقالة السادسة

اللغة الرسمية في المحاكم الأهلية بمصر (*)

كتب الينا من مصر تحت العنوان المذكور ما يأتي
انظر إلى المادة ٢٣ من لائحة ترتيب المحاكم الأهلية تجدها صريحة في أن
اللغة الرسمية في المحاكم الأهلية هي اللغة العربية ويجوز أن تنقل خلاصة المرافعة
وحجج الدعوى إلى لغة أخرى كتابة وتقدم إلى المحكمة ، فمن الواجب بناء على
هذه المادة أن لا يتكلم أحد الخصمين أو وكيلها إلا باللغة العربية ، فإذا شاء أحد
المذكورين أن يؤيد ذلك بترجمة ماقال إلى اللغة الفرنسية مثلاً تحريراً لم يمنع من
ذلك ، ونظرت الحكومة المصرية في إيجاب التكلم باللغة العربية في المرافعة عند
تلك المحاكم إلى تقرير حق لو أغفل بطل المقصود من تشكيل هذه المحاكم بالمرّة ،
واقبلت المنفعة المطلوبة بها مضرة ، فان الغرض من تشكيلها الفصل بين الأهالي
فيما يقع بينهم من الخصامات والزام كل جان عقوبة جنائية على وجه هو للعدل
أدنى منه إلى الظلم ، وجعلت جلساتها علنية لتكون مدافعة كل من الخصمين عن
نفسه معروفة عند العامة والخاصة ممن يحب الوقوف على ما أخذ الحق ، ويكون
في ذلك حكم عام لا يخفى أثره فيما يصدر عن المحاكم من الحكم الخاص .
والمتخاصمون (من أهالي مصر) لسانهم واحد وهو المعروف (باللسان العربي)
وكذلك المأخوذون بتهمة الوقوع فيما يوجب العقوبة ، فإذا ترفع المتخاصمان إلى
المحكمة أو وجهت الحكومة تهمة على جان وطلبته المدافعة عن نفسه كان من
الضروري أن يفهم كل من الخصمين ما يقول الآخر حتى يتمكن من دفعه
وكذلك يكون حال وكلاء الخصوم فان تكلم متكلم منهم بلغة لا يفهمها الآخر
تعد على غير الفهم أن يلع بحجة ومعارضة أدلة خصمه . ثم إن أعضاء المحاكم
لم يشترط فيهم العلم بلغة أجنبية البتة فلو كان في المترافعين من يتكلم بلغة غير

(*) نشرت في العدد ٧١١ من عمّات الفنون بتاريخ ١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٠٦

وذلك بعد عودته من سورية إلى مصر في هذه السنة

العربية لكان القائمون للفصل في المحاصمة غير عارفين بوجوه الحكم إن لم يكن عندهم علم بغير اللغة العربية ، فمن هذا يظهر أن وكلاء الخصوم (الافوكاتيه) عند المحاكم الأهلية يجب عليهم أن يتكلموا باللغة العربية لا غير سواء كانوا عرباً أو عجماء ، ولا يجوز لأحد منهم أن يخاطب بلغة أخرى

فان قال قائل اذا كان الخصمان عارفين بلغة أجنبية ورضي كل منهما بأن تكون المحاصمة بها ، فلم لا يجوز أن تسمع المحكمة مرافعتها باللغة التي اختاراهما ؟ فجوابه أن ذلك لو فرض وقوعه يكون نادراً ولا موقع له في نظر القانون ، على أنه لا يكون هذا الفرض سائغ القبول إلا اذا اتفق أن أعضاء المحكمة جميعاً من العارفين باللغة التي تراضى الأخصام على المرافعة بها حتى يتمكن كل منهم أن يحكم في الخصومة كما هو شرط النظام ، وأن رؤساء المحاكم وأعضاءها الذين هم حفاظ القانون والقوام عليه لا يصاله إلى الغاية المطلوبة منه يجب عليهم أن يراعوا حكم هذه المادة حفظاً لشأنهم ، وصوناً للقانون ، وتأيداً لقصد الحكومة وحياطة للحقوق

في مثل هذا اليوم من الاسبوع الماضي ٢٣ ربيع الاول انعقدت جلسة الجمنح الاستثنائية تحت رئاسة صاحب العزة أمين بك سيد احمد وكيل المحكمة ووجد في وكلاء المتهمين رجل أوروباي لا يعرف اللسان العربي ومعه ترجمانه فلما أفضت النوبة اليه طلب أن يتكلم باللغة الفرنسية فوضع طلبه هذا موضع المداولة في الجلسة . وكان حكم الاغلبية أن لا يتكلم إلا باللغة العربية فأعلن له الرئيس ذلك فأخذ في الكلام بالفرنساوية فمنعه الرئيس فانتصر للفرنساوي أحد القضاة الوطنيين ممن يدعون نجباء ، أو فضلاء ، أو مشاغل ذلك . وسأل الرئيس أن يدهه يتكلم فاحتد الرئيس وقال : بصفة كوني رئيساً قضائياً أدلب منه أن يتكلم بالعربية ، فان لم يفعل أمرت بطرده من الجلسة ، وكان كما قال فانصرف الابوكاتو وعادت المحكمة لأعمالها . أما الرئيس أمين بك سيد احمد فقد أدى الواجب عليه للقانون ، وللحكومة ، وللأهالي ، ولنفسه من جهة أنه مصري عربي وأن عرف الفرنسية ، ولو تساهل مع الفرنسية وأجاب طلبه لماز لغيره أن

يطلب مثل طلبه واندفع الاجانب ينوبون عن بعض الخصوم على رغم من البعض الآخر ويضيع قصد الحكومة ، وتبطل حقوق الأهالي بعماء المحاصصة على من لم يعرف لغة المحاصص منهم ، ولا يجوز للرئيس ولا لغيره منع الطالبين مما يطلبون إلا أن العادة تكون قانوناً وهي عند الأوروبيين تثبت بمرّة

بقي الكلام في ذلك القاضي النجيب : هو مصري ولا يعرف له صلة بالفرنساويين برأه الله من ذلك ، غاية أمره أنه يعرف الفرنسية كما يعرف كثير من أمثاله - هو حاكم مصري يجب عليه مراعاة مصلحة المصريين والمحافظة على مابنه صون حقوقهم - هو قيم على القانون وبمحكم القانون صار قاضياً ، ولولاه لم يكن شيئاً ، فمن الواجب عليه شكر القانون واحترام مواده والمحافظة على أحكامه بما استطاع - هو موظف للحكومة المصرية ، يفرض عليه الامانة في خدمتها ، وموافاة مقصدها الصالح ، وغايتها النبيلة - هو انسان والانسان ، مجبول على حب وطنه وترجيح ما يؤيد جانبه ، فلو فرض أن القانون جواز أن يكون الكلام بغير العربية ، لوجب عليه أن يستعمل الجواز موجباً للخطر ، فيقول يجوز هذا ويجوز غيره ، ولي الخيار في القبول ، فلا أقبل إلا لسان بلدي - هو متعلم قرأ الكتب ودرس الفنون . وهو أجدر أن يسبق الناس في محبة الاحساس ، ليكون قدوة حسنة لهم - هو محدود في نخباء الفتيان المصريين ، فكان الواجب عليه اذا وجد من نفسه ميلاً إلى سماع الفرنسية في المرافعة ، اللذة له في رتتها ، أن يكتم ذلك الميل المضاد للقانون ، ولما يوجبه الحق الاهلي ، كيلا يؤخذ عليه . ومع ذلك كله فقد بلغني عنه أنه يحب أن تكون المرافعة بالفرنساوية ، وانه قد سبق له عند ما كان رئيس جلسة إباحته ذلك لمحام فرنساوي ، وانه يتمنى لو أن الحكومة تلغي مادة ٢٣ من القانون حتى يكون القانون مسوغاً للفرنساوي أن يترافع بصفته انه نائب عن المصري باللغة الفرنسية ، وحكي أنه لما شاع (وغالب ما يشاع كذب) أن الحكومة من نيتها أن تسمح للاجانب بالمحاصصة عن الاهلين بغير العربية فرح ذلك القاضي حتى شرب في أحد مجالس لهوه على سرّ تلك الاشاعة على نحو ما يفعل الاوربايون ولا أقول انه شرب مسكراً ولكنه قلد الفعل تقليداً ، كذا يقال . ولما سئل عن

سبب ميله إلى ذلك أجاب بأن المحامين الفرنسيين يعرفون الحيل الشرعية ويجيدون في نسجها ، فكان ذلك مثار تهمة عليه بأنه يود أن يكون للفرنساويين مثلاً حق في المحاماة ليصح له الاتفاق معهم في محاولة القانون ويكون في حماية من ألسن الوطنيين وسلطة الحكام بميل الأوروبيين ، واني أعيده من ذلك وإن قامت القرينة من كلامه عليه ، وغاية مايمكنني أن أقول في سبب هذا الفرح ، وعلة ذلك الميل ، انه طيش شببية يسؤل له أن في سماعه كلام الفرنسي والاقبال عليه عند المحاماة — والمتفرجون مزدحمون — والتفاتهم إلى انه عارف بمايقول الفرنسيون ومدرک لدقائقه بما يلوح على وجهه عند ذلك من علامات الفهم ، وأن في معرفة المتفرجين انه من المدققين في اللغة الفرنسية بلذة بما ينال من الشهرة عنده ماينتقل الحاضرون حاله . لكن خفي عليه أن من لم يعرف لايصح حكمه ولا قيمة للشهرة عنده ، وقليل من الحاضرين من يعرف اللغة التي يميل إلى الاشتهار بعرفتها وقد بلغني أن ذلك الفاضل على ذكائه وسعة اطلاعه في القوانين كثيراً مايعتمد على شدة فهمه فيلهم عن سماع المحاماة اكتفاء منه بالاشراف على الضمائر بغير سماع ، وأحياناً يأتي ببعض القضايا يلخصها في الجلسة ويترك المترافعين يناقض بعضهم بعضاً ، وهو مع ذلك يُدِلُّ على المحامين الوطنيين ، ولو كان بين يديه محامون أوريون لما سهل عليه إثبات شيء من ذلك ، ولكان خوفه منهم إذ ذاك أشد من ميله اليهم الآن ، فعليه أن يعقل مايفعل ، وعلى الناس أن ينبهوه عند مايفعل ، وأملنا في نجابة المصريين أن لا يكون هذا الميل شائعاً في كثير منهم ثم بلغني بعد ذلك أن مرافعة وقعت في المحكمة الابتدائية في مصر باللغة الفرنسية وأن رئيسها مع أنه من أهل التقى والاستقامة وذوي الدراية قد أذن في ذلك ، ولم أعلم كيف كان منه هذا الاذن ؟ ثم لم أدر كيف سكنت نظارة الحقانية على ذلك ، ولم تصدر أمرها بالتحذير من تكرار الوقوع في مثله ؟ ولعل نشر ذلك في جريدتك ينبه غافلاً ، أو يستلفت من يجب عليه الالتفات . وأملنا أن هذه الوزارة الرفيعة الشأن تراقب مايقع في المحاكم من مثل هذه الهفوات ، وتنبه الاعضاء والرؤساء على ماينخالطون منها ، وتعرفهم مواضع الخطأ فيها ، فأنها

قد تكون في نظر بعض الناس جزئيات ، لكنها في نظر العارفين منازع لكليات ، وأن يوقننا جميعاً لما فيه صلاحنا ، ويرشدنا إلى سبيل فلاحنا ، اه
(جامع الكتاب) ليتأمل القارىء غيره الاستاذ رحمه الله على وطنه ولقته ومقاومته لتيار التفرنج ، وكبحه لجراح المتفرنجين الذين كانوا وما زالوا يفسدون عليها جميع مقوماتها المليية والقومية ، وأعلاها الدين واللغة - وجميع مشخصاتها الوطنية كالعادات والازياء مثلاً . وأين تجد مثل هذه الحمية عند غيره كما كانت عنده ؟

المقالة السابعة

الانتقاد *

(ما وعظك مثل لائم * وما قومك مثل مقاوم)

الانتقاد نفثة من الروح الالهي في صدور البشر تظهر في مناطقهم ، سوقاً للناقص إلى الكمال ، وتنبهياً يزعج الكامل عن موقفه إلى طلب الغاية مما يليق به . الانتقاد قاصف من اللائمة تنفّس عنه القلوب ، وتفتق به الألسنة ، لتقرع الناقصين في اعمالهم ، ودفع طلاب الكمال الى متهى ما يمكن لهم
جعل الله للحياة قواماً وقوام الحياة بالادراك

انما الانسان كون عقلي سلطان وجوده العقل ، فان صلح السلطان ونفذ حكمه ، صلح ذلك الكون وتم أمره . إن الله لم يهمل العقل من ناصرين عزيزين حاذقين أحدهما له والثاني له وعليه ، أما الاول فما قرن الله به من غريزة الميل للافضل ، والاضطفاء للأمثل ، وأما الثاني فما ألزمه الصانع من الانقباض عن الدون ، والنفور عن منازل الهون ، فذاك يحذوه ، وهذا يسوقه ، وذاك يزين له الطلب ، وهذا يزعمه إلى الهرب ، وكل منازل العقل صعود إلا أدناها ، فمعجز يقف بأهلها على شفير العدم ، وكل منزلة بعد الأدنى دنوً من الكمال ، غير أن

(* نشرت في جريدة ثمرات الفنون البيروتية وكنا ظفروا بنسخة منها فنشرناها في المجلد الرابع من المنار ولم نقف على تاريخ نشرها في الثمرات)
(٤٧) — تاريخ الاستاذ الامام — الجزء الثاني)

ما يسمو اليه العقل ، أشبه بما ينبسط اليه الوجود ، يمتد الى غير نهاية ، ويرتفع دون الوقوف عند غاية ، فليس يصل منتج الكمال الى مقام إلا ويرمي بطرفه إلى أبعد منه ، ومساقط العجز وبيثة المقام ، كثيرة الآلام ، تستوكرها أفاعي الهموم ، وغائلات الغموم ، وقد جعلها الله من وراء العقل ، كلما التفت اليها رآه هول منظرها ، فتحفز عنها ، الى منجاة منها ، ولا يزال يزجيه الخوف ، وتطير به الرغبة ، حتى يدنو من رفرف السعادة الأعلى

ولكن كلال البصائر البشرية قد يقف بها عند مظاهر غرارة ، وظواهر ختارة ، فتخالط طلبتها ، وتحسبها منيتها ، ولا تدري أن بها هلكتها ، وفيها مآزيتها ، فتشله مثل الطير ينظر الى الحب المنشور ، ويغبي عن الفخ المنصوب ، فاذا سقط للالتقاط وقع في يد الحابل ، أو مثل المفترس يلوح له لأمح الفريسة ، ولا يشعر بما أعد له صائده ، فاذا وثب عليها أتاه الصائد من مقتله ، وأنجمله عن مأكله

لهذا وكل الله بالعقل منها لا يفعل ، وحسباً لا يهمل ، وكأننا لا ننام ، يزعج الواقع ، ويحسث التريث ، ويمسك الواجب ، ماسكن ساكن الى حال ، ولا قنع قانع بمنال ، الا هتف به : إن ما تطلب أمامك . ولا أوغل أوغل فيما لا ينفعه ، ولا أوضع موضع الى ما يضره ، إلا صاح به : تعست الجدود ، وأضرعت الحدود ، فحفض من سيرك ، وقوم من سيرك ، وإلا فالذل مقيك ، والهلكة مصيرك ، ذلك الواعظ الحكيم ، والمؤدب العليم هو (الانتقاد) ، يثبت في الفؤاد ، ثم يتجلى في البيان ، على أسلة اللسان ، فيفقهه العالمون ، ولا يهمله العاملون ، (فطرة الله التي فطر الناس عليها) : أودع في كل ناطق بصراً بشأن غيره ، أشد احاطة من بصره بشأن نفسه ، ومكن كلا من تمييز أحوال الآخر حسنها من قبيحها ، وفاسدها من صحيحها ، ثم دفعه للنطق بما ألهمه ، والقضاء بما أحكمه ، فكان لكل انسان أبصار بعدد الناظرين اليه ، والعارفين بما عليه عمله ، كلها كبصره تريه الخير فيطلبه ، وتكشف له الشر فيجتنبه ،

وجعل الله الناقدين أقساماً فمنهم ناظر الى الفضل لا يعدوه فهو يذكّر المنقبة ، ويغض عن المثوبة ، ومن هذا القسم المفرطون في الوفاء من الاصدقاء . ومنهم رقباء النقاص

وجواسيس العيوب، يروون المساآت، ويسكتون عن الحسنات، وفيهم الحساد، وأهل الاحقاد، ومنهم ناظرون بالعينين، عارفون بالوجهين، يذكرون للكمال نبله، ويلزمون النقص وبيله، وهؤلاء في أعلى المنازل، وفيهم الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله. ومن الناقدين فاسقون يكتُمون ما يعرفون، ويهرفون بما لا يعلمون، وهم في أخس المنازل. وليس في الناس إلا من تجتمع هذه الاقسام له وعليه. وما جعل الله بشراً يسلم منها، ويحرم من بعضها، فكأنها التي قال فيها (وإن منكم إلا واردة) وكلها صدى صوت الكمال الالهي الأعلى، ينادي الكاملين أن يستزيدوا، والناقصين أن يستجيدوا.

هل لجاحد أن يصغر قدر الحبيب على أي وجه كان حسابه؟ أو لجاهل ينكر حكمة الله في تقيضه لنا؟ أو لواهم أن يذهب الى انه ليس من نظام الفطرة؟ واني أحيلك على خواطر نفسك اذا بلغك، وأنت غربي مثلاً أن ملك الصين غدر بأحد أوليائه، أو استصفي أموال رعيته، أو كفهم مالا يطيقون احتماله، أو أهل في مصلحة بلاده حتى تجرأ عليها أعداؤها، أو جبن عن حادث ألم به، وكان يستطيع دفعه، ألا ترى من قلبك امتعاضاً عليه، ومن نفسك ازدراء لعمله، وفي لسانك لجة بلومه، وهو منك على بعد المشرقين؟ واثق وصلت اليك روايات عدله، ورعايته حقوق بلاده، وحفظه لذمائه، وجدت اليمن فؤادك ميلاً، ومن رأيك لعمله استحساناً، ومن لسانك عليه ثناء. —

ولو شئت حاكمتك الى مذاهب ميلك عند ما تنظر في تاريخ لمن سبقك، فان مثل لك النظر فضلاً في سيرة، أو خزية في جريرة، ألت تجد من نفسك انبساطاً الى فواضل العرر، وانقباضاً عن مخازي العرر، ثم انطلاقاً الى نشر ما وجدت، ثم رأيت عضداً منك لأحدهما، كأنه قائم يستنصر فانت تنصره، وتغيظاً على الآخر، كأنما يدعوك لعونه فانت تحذله؟

لا جرم أن النقد نائرة غريزية تقدح شررها على السابقين واللاحقين، وكل قد فحشوه لوم، حتى ما كان منه قاصراً عند بث المحمدة والاقرار بالفضيلة، فان حمد الكامل عدل للناقص على التقصير، وازعاج للمحمود، وزجر له عن الملاسة

الاعياء، فكأنني وصاحب الثناء يقول : ألا أيها القاعدون انهضوا، وبأيها المبرزون اركضوا ، واحذروا الوقفة فانها بداية القهقري : تلك أقلام الحق ، في السنة الخلق ، لا يصم عن نداءها إلا أصم ، ولا يغبي عن انذارها إلا أيهم^(١) على ذلك قام النظام الانساني، فلولاً الانتقاد ماشب علم عن نشأته، ولا امتد ملك عن منبته ، أترى لو أشغل العلماء نقد الآراء ، وأهملوا البحث في وجود المزاعم ، أكانت تتسع دائرة العلم ، وتتجلى الحقائق للفهم ، ويعلم الحق من المبطل ؟ أو لو أغمض الاصدقاء والاولياء عن سياسة السائس ، وتدبير الحاكم ، وهجروا النظر في قوة الملك ، ولم يقرعوا كل عمل بمقاييس النقد ، أكانت تستقيم محجة ، وتعتدل حجة ، أو تعظم قوة ؟ كلا بل كان يتحكم الغرور ، وتتسلط الغفلة ، ويعود الصواب خطلاً ، والنظام خللاً ، تلك سنة الله في الأولين . وهي كذلك في الآخرين

فالمغبوط في حاله من يستمع قول اللامئين ، ويستطلع خواطر المعارضين ، ويتصفح وجوه المتكبرين ، ذلك روح الحياة فيه يطلب حاجاته ، ويتحفظ من آفاته ، وليس فيما يملك المازمون أنفس لديهم ، من الانحاء عليهم بما ينبههم اذا غفلوا ، ويعلمهم اذا جهلوا ، ويهديهم اذا ضلوا ، وينعشهم اذا زلوا ، وكما توجد نقائس الارشاد هذه عند الاولياء ، توجد عند الاعداء ، بل هي عندهؤلاء أجود ، فانهم يرفعون المعايير أعلاماً بينة ، حتى لا تعود فيها شبهة لناظر ، وأحجى بالعقل أن لا يمج من الانتقاد شيئاً ، حتى أكاذيب أهل الضغينة ، ورجوم ذوي السخيمة ، على مخالفتها للحقيقة ، فان أباطيل اللوم تكون للعقل بمنزلة المساح ، تقام في الثغور زمن السلم حذراً مما عساه بطرقها من عدوان المغيرين عليها ، وأقل ما يكون من العاقل فيها أن يقول : قيل فينا ولم نعمل فكيف بنا لو عملنا : فهي ان لم تهده الى مطلب ضل عنه ، ولم ترد اليه فائتاً كان ينفلت منه ، فقد تحفظه من السقوط فيما يجعل الكذب صدقا ، والباطل حقاً ، فمن فسق لسانه ، وخالف بيانه جنانه ، وجاء بغير الحق في ثلب غيره ، فقد أقسد نفسه لصلاح

عدوه ، والله ما يقول بعض الصوفية : جزى الله الاعداء عنا كل خير ، فلولاهم ما نزلنا منازل القرب ، ولا حللنا حظائر القدس . *

هذا وقد كفر قوم نعمة الانتقاد ، فظنوا صنع الله فيه عبثاً « نعوذ بالله » فوقروا عنه آذانهم ، وعطلوا من ناحيته سمعهم ، وجعلوا أصابعهم في صماليخهم ^(١) من صواعق زجره ، وقواصف نهييه وأمره ، وضربوا بينهم وبين أهل النقد حجياً ، وأقاموا دونهم استاراً وخيل لهم الجهل أن صممهم عنه ، يقيهم منه ، وأن قبوعهم في أهب الغفلة ^(٢) ، يدر أعينهم سهام اللوآثم ، كأنهم لا يعلمون أن ذلك وقوع في أشد مما خافوا ، واندفاع الى شر مما رهبوا ، فمثلهم كمثل بعض الطيور اذا رأى الصائد غمس رأسه في الماء ، ظناً منه انه متى أغمض عن طالبه أغمض الطالب عنه ، فيكون بذلك قد يسر للصائد صيده ، وسهل عليه كيده ، ومن ثم تجدهم في عى عن شؤونهم ، وتخبطي أعمالهم ، قد لزموا خطة من الهون ، لو أبصر عقلم بعض أطرافها ، لما توار جزعاً من هول ما فيها ، كل ذلك وأسلات اللسن واسنة الاقلام ، لا تألوا في تزيينهم ، بل وصوت الحق الصريح يناديهم من عمائق ضمائرهم : بئس ما اشتريتم لأنفسكم لو كنتم تعلمون ، وإيهم عائب ، وعدوهم عائب ، وهم في غفلة عن هذا ، بل لا يشعرون

أولئك الذين ختم الله على سمعهم ، وطبع على قلوبهم ، ففرقوا من ناموس الفطرة الالهية ، فهم أموات الارواح . مضطربو الاشباح . ولا تنشق عنهم قبور الخمول ، حتى يذشرهم الله في حياة أخرى ، ينحضون فيها للأحكام الكونية ، ويعملون على السنن الالهية ، فلينتظروا وأنا معهم من المنتظرين

(*) في ممتناه قول الشاعر :

عداتي لهم فضل علي ومنسة فلا أذهب الرحمن عني الاعاديا
هو تجنوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المماليا

(١) الصماليخ ج صملاخ وصملوخ وهو داخل خرق الاذن ويطلق على وسخها

(٢) الاهب بضم تين جمع أهاب ككتاب وهو الجلد الذي لم يدبغ أو أعم

المقالة الثامنة

المسألة الهندية (*)

وردت إلينا هذه الرسالة من أحد أفاضل الكتّاب البلغاء فنشرناها بحروفها كما ترى

أكسبني الاطلاع على جريدتكم علماً برغبتكم في البحث عن دقائق السياسة في البلاد الشرقية وإقدامكم على نشر مائة فون عليه منها خدمة لأوطانكم وأياداً لا اعتدال سيركم وهذا ما بعثني أن أكتب اليكم بعض ما وصل إليّ في مسألة من أهم المسائل المنظور فيها لهذا الوقت وهي المسألة الهندية ، وربما ترون من المفيد نشر ما أقدم لكم من ذلك

كأنني بالحال في بلاد الهند وقد اشبهت الحال في كثير من البلاد الشرقية عند ما تضرب راسياتها ، وتهتز ثوابتها ، وتنفس صوامتها ، أعداداً لزلزال يوجب الانقلاب فيها ، غير أن المؤلف في تلك الأحوال أن تكون متألف الانقلاب ومضاره مهلكة للشرقي لتساهله وسوء تصرفه ، وفوائده وثمراته غنيمة للأوربي لحزمه وتجويد الرأي فيما يفعله . والمتنظر في الهند على خلاف المؤلف فقد تسقط بتبدل الأحوال فيه دولة من أعظم الدول الأوربية ، وأخذتها في السياسة الخارجية ، وتنهض دولة أو دول شرقية تعضدها دولة أوربية . هذا ما تمترق به هذه المسألة عن سائر المسائل

لا يفوتكم العلم بأن البلاد الهندية على سعتها تسكنها طوائف مختلفة تباين في العقائد والأخلاق حتى يحيل للناظر في أطوارها أنها اجناس متباينة ، غير أن هذا الاختلاف قلما كان يظهر أثره في الروابط السياسية إذا تولت طائفة منهم أمر الحكومة في باقيها مادامت خصائص الطوائف محفوظة . ومادالت الدولة للانكياز

(*) نشرت في العدد ٤٧٣ من جريدة الاهرام الأسبوعية الذي صدر في الاسكندرية في ٢ ذي القعدة سنة ١٣٠٢ و ١٣ أغسطس سنة ١٨٨٥ وقد وجدنا هذا العدد في محفوظات الاستاذ رحمه الله

فيهم سكنوا اليها زمناً ثم نبذتها طباعهم فبموا بالتملص منها فلم يمنعهم الاختلاف الفكري والديني من الاجتماع تحت لواء الجنسية العامة وحملوا بغارة واحدة على الانكليز في سنة ١٨٥٧ غير أنهم لم يوفقوا للنجاح فيما هموا به ، بل ظفرت بهم الدولة الحاكمة

ومن ذلك الوقت أخذت الدولة الانكليزية حذرهما فرفعت بناء سياستها على أساسين الأول توليد الشقاق بين الطوائف وإبغار صدور كل طائفة من الأخرى وآلتها في ذلك أصل الخلاف الموجود بينهم وأدركت بعض النجاح في سعيها هذا وظهر بعض أثره في بلاد البنجاله بين الوثنيين وبين المسلمين ، وفي أواسط الهند بين الطوائف الوثنية بعضها مع بعض . والاساس الثاني سد نوافذ الاخبار عن الهنديين قاطبة حتى لا يقفوا على المشاكل السياسية والورطات الحربية التي تقع فيها انكسرا ، ولا تكون بينهم وبين الأوربيين صلة سياسية يلجأون اليها اذا هموا بمثل عملهم السابق ، ولا يطرق آذانهم صيحة من صيحات الحوادث التي تنبههم لطلب حال خير مما هم فيه . قطعتم عن العالم فهم بمعزل عن معرفة شي من أحواله ليستمر بهم الاذعان بأن لا قوة إلا بانكسرا ، ولا ملجأ منها إلا اليها ، ولا حيلة في الادبار عنها إلا الاقبال عليها ، ولا شفيع من جورها إلا جبروتها الأعلى . وهذه أحكم سياسة يقوم بها سلطان الغالب على المغلوب ، وليس في نظر العقلاء أجود منها لولا تصاريف القدرة الالهية مما لا يطاق له بناء ، ولا يعاجله دهاء .

وي انتقض الأساس الثاني فانصدع له ركن عظيم من قوة الدولة . لم يكن في حساب أحد من حكام الهند ان يزحف جيش الروس على حدود الافغان ، بل كانوا في غرة الأمن من وقوع مثله ، فاذا الحادث فاجأهم فطار طائر الأخبار بغتة حتى جثم على قم جبال الهند ، وصاح بالخبر المفزع فلم يبق هندي إلا وبلغ منه الخبر حد اليقين ، فذلك قد أعجل الدولة عن التدبير في كتمانها ، قتراجعت العقول من غيبتها ، وانطلقت الآمال من محابسها ، وخيل للنفس أن المعارك أصبحت على حدود بلاد الهند

علم ذوو الرأي من أهل الهند أن دولة أوربية شديدة البأس سامية القوة ستصبح جارة لهم ولها من المصلحة في بلادهم ما يضارع مصلحة الدولة الحاكمة، فلو تقربوا منها شبراً لتقربت منهم ذراعاً . ومذاهب المتغلبين في السيادة على المغلوبين وإن كانت مشابهة إلا أن من أحكام العادة أن يكون في سيرة الجديد لين إلى أمد حتى يتمكن من السلطة، ويكون من أحوال البلاد على خبرة، فلهم في قلب الحمال متنفس. بل تعالت أفكارهم إلى أسمى من ذلك فظنوا أن لاطاقة للروسية لو تقدمت إلى الهند أن تضبطها بقوة السلاح دفعة واحدة، فمن المحتوم عليها أول العمل أن تعيد الملك لطلابيه من أهالي البلاد وتقدم بالمعونة على سالبه منهم لتكون البلاد عوناً لها على بلوغ غايتها من فتح أبواب التجارة الهندية لأبناء جلدتها، ثم إن شئت بعد ذلك غالبتهم، وفي هذا متاع من الاستقلال إلى حين، وفسحة من الزمان ربما تمكنهم من صون ما يصل إليهم. هذا ما يرتفع إليه الخيال في رؤس الهندين على اختلاف طوائفهم ولا أظنهم يخطئون فيما يظنون، ولا تجد طائفة منهم عوناً على ما تؤمل إلا في الاتحاد مع الأخرى

وقد ضعف الأساس الأول فيوشك أن يتضعض البناء. همدت نيران الضغائن التي كان يسعها الحكم في البنجال بين المسلمين والوثنيين، وبعد أن كانوا متدبرين يذهب كل منهم إلى حيث لا يلتقي مع الآخر أبد الأبد، انعطفت كل في سيره إلى ما يقارب الآخر فلا يمضي كثير من الزمن إلا وقد عادوا متقابلين.

لا يفتقر الحكم عن امداد اللبيب بوقود الفتن كأنهم خلفاء الفرس الاقدمين في عبادة النار إلا أن الآمال المقبلة تصب عليها ماء بارداً فلا تلبث أن تصير برداً وسلاماً. وقبائل (المرتة) في أواسط الهند هزت من كبتها نحو مطلوبها القديم هذه من أقوى قبائل الهند وأشدّها تمسكاً بعوائدها وأحرصها على الاستقلال. أرغموا من زمن على الدخول تحت السلطة الانكليزية، ولكنهم لم يؤدوا من رسوم الطاعة شيئاً سوى الخراج، فقد تحالفت هذه القبائل على وفرة عددها أن لا ترفع من أمرها شيئاً جزئياً كان أو كلياً إلى حاكم انكليزي، واتفقت على

أن يكون تدبير شؤونها مفوضاً لرجال منها ينتخبون بالاقتراع ، وما كان عاملاً من شؤونها خصته بمجلس عام يشبه مجالس النواب في البلاد المتعدنة ، وما كان خاصاً كالفصل في الخصومات جنائية كانت أو قضائية ناطقة بقضاة منها لا ينازع في حكمهم ، ولا يدافعون في قضائهم ، ولو أن مرتباً رفع أمره في خصومة إلى القاضي الإنكليزي لأعدموه حياته وذهب دمه هدرأ لا يطالب به أحد . كل ذلك ولا يستطيع حاكم من حكام الإنكليز أن يقف على شيء من أحوالهم الداخلية . بل حرموا على أنفسهم الانتفاع بشيء من مصنوعات أوربا وثبتوا على صنائعهم وروجوها بينهم ، وبذلوا الجهد في ترقيتها حتى صار لهم من الصنائع ما يشبه صنائع الأوربيين في كل نوع ، ولا يوجد في بيت واحد منهم أو على بدنه مصنوع إلا من عمل أيديهم

فهذه القبائل الرفيعة الهمة الآتية النفس أخذت الإهبة في هذه الأيام لما أعده لها استعدادها . ولست بالوأم إن قلت بتواتر رسالتها وكتبها إلى الحدود الشمالية لتجاذب حبال الصلة بينها وبين رؤساء المنفذين في زعمها

حكومة حيدرآباد ملّت سيطرة الإنكليز عليها ، ونظرت إلى قوتها العسكرية واجتماع رعاياها على بغض المتحكمين في شأنها ، الآخذين على يديها ، وجاءها خبر الزحف الروسي ، فشدد عزيمتها ، وزاد في حرصها على الخلاص من عنف السيطرة الإنكليزية ، وقبائل (السيك) في بنجاب من شمال الهند شمروا للخوض في لجج الفتنة متى اشتبكت حرب في بلاد الأفغان ، ليعيدوا مجدهم الأول ، ويأخذوا بالحق لأنفسهم ممن أباح دماءهم ، وفتك بأشرافهم . ولم يمض على ذلك الزمن الطويل فينسى ، ولم يأتهم عوض عما فقدوا فيتسلوا عنه

أحست حكومة الهند بمبادئ الاضطراب ، فأخذت الطرق على كل سائر إلى جهة الشمال ، منعاً للمواصلات بين الهنديين والروس ، ومنعت تجار الأفغانين من الجولان في البلاد الهندية ، وصدّت كل عربي يدخل إلى الهند من الشخص إلى حيدرآباد لكثرة أبناء العرب فيها ، واشتدّت في التضييق على كل طارق غريب يرد إلى أرض الهند ، وعلى كل وطني يصل إلى الحدود

الشمالية ، وأخرست الجرائد عن التكلم في حوادث التقدم الروسي ، وأنطقها قهراً بما يفشي وجه الحقيقة ، ويصرف الأفكار عما شغلت به من أعداد العدد وتحويل مراكز الجند ، وحشد الجيوش ، وتوفير الذخائر في مواقع المحاجة ، وأرسلت عيونها على موارد البريد ، ورسمت بفتح المغلقات ، وأخذت بكل احتياط . ومع هذا كله ضاقت سلطة الحكومة عن سد أبواب الهند المفتوحة ، وقطع طرقها الواسعة ، وتسوير حدودها الممتدة . فالأخبار بين أمراء الهند وبين الروسية متواصلة ، وقد علم رجال الحكومة أن الحال في هذه الأزمان الأخيرة غيرها في سنة ١٨٥٧ (*) حيث أمكن للحكام في تلك الأوقات كتمان سر الفتنة عند اشتباكهم في الحرب مع دولة إيران ، وكتمان خبر الحرب عن رؤساء الفتنة ، حتى تم الأمر للحكومة انكثرا في إهماد اثورة وإنهاء الحرب على شروط توافقها . أما الآن فليس يخفى على الروسية أدنى حركة تكون في الهند ، ولا يخفى على الهنديين أقل عمل يكون من الروسية .

وإن الأخبار الخصوصية الواردة من الهند تفيد أن الأمر في تلك الأقطار أشد مما تدل عليه أخبار الجرائد . أما مازعموا من أن بعض النوابين والرجوات عرضوا أنفسهم وجيوشهم لمساعدة انكثرا عند ما طاش ميزانها مع الروسية ، فذلك مما يعجب خبره ! ويضحك معجبه . فإن رجالا من الانكيز سعوا عند بعض الضعفاء من الأمراء وأغروهم أن يتقدموا بعرض أنفسهم لمساعدة الحكومة لتوم بذلك أنها معضدة من رعاياها ، ففعلوا على أن ينالوا أجراً على فعلهم ثم خابت آمالهم فاقبلوا على أعقابهم . ولو فرض صحة مازعموا فهو كثير الوقوع في كثير من البلاد عند بداية الحوادث يظهر الضعيف أنه نصير اقوي ، فاذا حم الصدام كان أول خاذل له ، خصوصاً إذا أحس بل توم الانقلاب بالهزيمة بقي شيء في مجمل خبرنا نذكره تيميا للبحث وهو : أن للدولة العثمانية شأنًا في المسألة الهندية لا يسوغ إنكاره ، فإن لها عدة كافية ، وقوة وافية ، يمكنها أن تستخدمها لأرائها السياسية متى شاءت ، ويسهل عليها أن تستفيد منها اذا

أقبلت عليها بشيء من التدبير . تلك قوة خمسة واربعين مليوناً من المسلمين أهل السنة يعتقدون أنها دولة الخلافة ، وأنها مرمى آمالهم في تخليصهم من أيدي الأجانب ، ومكانتها من قلوبهم أعلى من مكانة حاكبيهم ، وأوصال أعمالهم معقودة بأوامرها . ولو أن لدولة أخرى قوة مثل هذه القوة لرأينا جوادها المجلي في هذه المجارة . ولكن مما يوجب الأسف أن هذه العدة ربما تتبدد ، وتلك القوة تضيع ، ولا يكسب رجال الدولة من إهمالها إلا ما يكسبه باذل ماله أعدوه وفقهم الله لاسداد في آرائهم ، والصالح في أعمالهم

(يقول جامع الكتاب) لم نثر للاستاذ رحمه الله تعالى على مقالة في جريدة مصرية بعد عودته من باريس الى سورية وترك جريدة العروة الوثقى الا هذه المقالة ، وهي تشبه مقالات العروة الوثقى السياسية التي كانت من نقشات السيد جمال الدين في قلم الاستاذ . وكان الحكيمان يرجوان من تحرش الروسية بالهند في تلك السنين أن يفضي الى ترك الانكاز لمصر والسودان فلذلك كانا يعظمان شأن ذلك التحرش

هذا واننا رأينا أن نغير في هذه الطبعة ترتيب ما نشرناه في الطبعة الاولى لهذا التاريخ فنقدم ما كتبه من المقالات المعاصرة في الصحف ، ونؤخر اللوائح الاصلاحية والمناظرة الدينية السياسية ، ورحلة صقلية

المقالة التاسعة

بسمارك والدين

(نبذة نشرت في العدد ٤٤ من السنة الأولى من المنار وكانت جريدة اسبوعية في ٩ رمضان سنة ١٣١٦ - ٢١ يناير سنة ١٨٩٩)

رأيت في وقائع بسمارك التي نشرت بعد موته بقلم كاتم أسرارهِ مسيو بوش كلاما جاء به البرنس وهو على مائدة الطعام مع جلسائه يتعلق بالدين فاستحسنَت ترجمته ليطلع عليه من لم يعن بقراءة هذا الكتاب من شباننا الذين يعدون النسبة الى دينهم سبة ، والظهور بالمحافظة عليه معرّة ، وليعلموا أن الايمان بالله وبالوحي الالهي إلى أنبيائه ليس تقصّصاً في الفكر ، ولا ضلّة عن صحيح العلم ، ولا عيباً في الرياسة ، ولا ضعفاً في السياسة

جلس البرنس بسمارك على مائدة الطعام فرأى بقعة من الدهن على غطاء المائدة فقال لأصحابه : « كما تنتشر هذه البقعة في النسيج شيئاً فشيئاً ، كذلك ينفذ الشعور باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الوطن في أعماق قلوب الشعب ولو لم يكن هناك أمل في الأجر والمكافأة ، ذلك لما استكن في الضمائر من بقايا الايمان ، ذلك لما يشعر به كل أحد من أن واحداً مهيناً يراه وهو يجالديجهاهد ويموت ، وان لم يكن قائده براء » فقال بعض المرتابين : انتظن سعادتك ان العساكر يلاحظون في اعمالهم تلك الملاحظة ؟ فأجابه البرنس :

« ليس هذا من قبيل الملاحظات وإنما هو شعور ووجدان ، هو بواذر تسبق الفكر ، هو ميل في النفس وهوى فيها كأنه غريزة لها ، ولو أنهم لاحظوا لفقدوا ذلك الميل ، وأضلوا ذلك الوجدان . هل تعلمون انني لا افهم كيف يعيش قوم ؟ وكيف يمكن لهم ان يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات ؟ او كيف يحملون غيرهم على اداء ما يجب عليه ؟ ان لم يكن لهم ايمان بدين جاء به وحي سماوي واعتقاد بالله يحب الخير ، وحاكم ينتهي اليه الفصل في الأعمال في حياة بعد هذه الحياة » ثم ساق الوزير كلامه على هذا النمط بأسلوب آخر فقال :

« لو تقضت عقيدتي بديني لم اخدم بعد ذلك سلطاني ساعة من زمان . اذا لم اضع ثقتي في الله لم اضعبها في سيد من اهل الأرض قاطبة ، لكن انظروا اليّ تجدونني قد ملكت من موارد الرزق ما يكفيني ، وارتقيت من المناصب ما لا مطمع بعده ، فلماذا اشتغل ؟ ولم اجهد نفسي في العمل ؟ ولم اعرضها للهوم والآلام ؟ لا يبعثني على شيء من هذا الا شعوري بأنني في جميع ذلك اعمل عملي لوجه الله . لو لم يكن لي ايمان بالعناية الالهية التي قضت بأن يكون لهذه الأمة الألمانية شأن كبير ، وأثر في الخير عظيم ، لطرحت لساعتي ماحله من أقالوظائف الحكومة . ماذا أقول ؟ بل لولا ذلك الايمان لما قبلت شيئاً من هذه الوظائف ، لأن الرتب والألقاب لا بها ، لها في نظري ، لولا يقيني بحياة بعد الموت ما كنت من حزب الملكية . لو لم يكن هذا اليقين لكنت جمهورياً . نعم أنا جمهوري بالفطرة ، يتبين ذلك من العبارات التي أشنها على هنات (خصال الشز) رجال الحاشية من مدة تزيد على عشر سنين ، من هذا يظهر أن ايماني قد بلغ من القوة أعلاها ، حتى حملني بقوته على أن أكون ملكياً ، اسلبوني هذا الايمان تسلبوني محبتي لوطني . اعلّموا أنني لو لم أكن مسيحياً مخلصاً لم يكن لكم وزير كبير مثلي يدبر أمر الاتحاد الألماني . لو لم أكن مخلصاً في ديني لوليت ظهري جميع الحاشية ، ولو وجدتم لي في الغد خلفاً يكون أخلص مني في يقينه لانقلت من المنصب في الحال . ما أعظم مسرتي بهجر الوظائف لو تعلمون . إني أحب المعيشة في القرى والحقول ، أحب الآجام ومناظر الخليقة ، انزعوا مني هذه الرابطة التي تصلني بالله تجدونني من الغد رجلاً يأخذ اهبتة للسفر الى (وارزين) ليستغل بحرارة ارضه وتنمية غرسه ، إن لم أكن خاضعاً لأمر الهي فلم أضع نفسي تحت طاعة هذه العائلة المالكية ، مع انها تتصل بأصل ليس بالأعلى ولا بالأنبل من الأصل الذي تتصل به عشيرتي ؟ »

هذا كلام بسمارك وهو يدلنا على ان هذا الرجل العظيم كان يعتقد ان عظام أعماله انما كانت من مظاهر ايمانه ، وان الاعتقاد بالله والتصديق باليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما إلى ما لم يدركه فيه مفاخر ، ولم يكثره مكائز

المقالة العاشرة

آثار محمد علي في مصر

(نشرت في الجزء الخامس من مجلد المنار الخامس المؤرخ في غرة ربيع الاول سنة ١٣٢٠ - ٢ يونية سنة ١٩٠٢)

لفظ الناس هذه الأيام في محمد علي وماله من الآثار في مصر وأهلها وأكثر الجرائد من الخوض في ذلك^(١) والله أعلم ماذا بعث المادح على الأطراف ، وما ذا حمل القادح على الهجاء ، غير أنه لم يبحث باحث في حالة مصر التي وجدها عليها محمد علي وما كانت تعير بالبلاد اليه لو بقيت وما نشأ عن محوها واستبدال غيرها بها على يد محمد علي . اذكر الآن شيئا في ذلك ينتفع به من عساه ينتفع ، ويندفع به من الوهم ماربما يندفع ،

كانت حكومة البلاد المصرية قبل دخول الجيش الفرنسي فيها من أنواع الحكومات التي كانت تسمى في اصطلاح الغربيين حكومات الأشراف وتسمى في عرف المصريين حكومات الالتزام وتعرف عند الخاصة بحكومات الأقطاع . وأساس هذا النوع من الحكومات تقسيم البلاد بين جماعة من الأمراء يملك كل أمير منهم قسما يتصرف في أرضه وقوى ساكنيها وأبدانهم وأموالهم كما

« ١ » سبب ذلك الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على تأسيس محمد علي للدولة المصرية . وكنا كتبنا في الجزء الرابع الذي قبل هذا الجزء مقالا انتقدنا فيه جمل الاحتفال في المساجد وبيننا سببنا محمد علي وأكبرها قتاله للوهابية ، قضائه على ذلك الإصلاح ومن اللطائف أن الخديو أرسل جزء المنار الرابع الى الاستاذ الامام مع بعض رجال حاشيته وأمره أن يشكونا فيه اليه راجيا منه أن ينهانا عن المود الى القدرح في جده وكان قد صدر الجزء الخامس الذي فيه مقالة الاستاذ فلما بلغه الرسول ما أمر به قال له الاستاذ : يظهر ان أفندينا لم يطلع على الجزء الخامس فان فيه مقالة شرا من تلك المقالة التي يشكونا منها (١)

يريد ، فهو حاكمهم السياسي والاداري والتضائى وسيدهم المالك لرقابهم . ومن طبيعة هذا النوع من الحكومة أن تنمو فيه الأثرة وتعاظ فيه أصول الاستبداد وفروعه ، وتنزع نفس كل أمير إلى توسيع دائرة ملكه بالاستيلاء على مافي يد جاره من الأمراء . فكان من مقتضى الطبيعة ان كل أمير لا ينفك عن التدبير والتفكر فيما تعظم فيه شوكته ، وما يدفع به عن حوزته ، وان يكون الجميع دائماً في استعداد إما للوثوب وإما للدفاع . ولكن الأمراء في مجموعهم كانوا يقاومون سلطة الملوك فيضطر الملك لاستماتهم ومحابة بعضهم للاستعانة به على البعض الآخر ، فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم

حاجة الأمراء إلى المال كانت تسوقهم إلى ظلم رعاياهم ، وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم إلى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم ، ظهر ذلك في خصوماتهم المرة بعد المرة ، فاضطر الأمراء أن يخففوا من ظلمهم ، وأن يتخذوا من الأهلين أنصاراً يضبطونهم عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم ، أحس الأهليون بحاجة الأمراء اليهم فزادوا في الدالة على الأمراء واضطروهم إلى قبول مطالبهم ، فعظمت قوة الارادة عند أولئك الذين كانوا عبيداً بمقتضى الحكومة ، وانتهى بهم الأمر ان قيدوا الأمراء والملوك معاً ، ولم يكن ذلك في يوم أو عام ولكنه كان في عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة

نعم كانت الحكومة في مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات المشرقية ، وكانت البلاد متوزعة بين أمراء كل منهم يستغل قسماً منها ويتصرف فيه كما يهوى ، وكان كل يطلب من القوة ما يسمح له بمد يده إلى مافي يد الآخر أو يدفع به صولته ، فالخصام كان دأبهم ، والحرب كانت أهم عملهم . لذلك كان كل منهم يستكثر من الممالك ما استطاع ليعدهم جنده ولكن كانت تعوزه مؤنتهم اذا كثروا فاضطروا إلى اتخاذ أعوان من أهالي البلاد فوجدوا من العرب أحزاباً كما وجدوا منهم خصوصاً . ثم رجعوا إلى سكان القرى فوجدوا فيهم ما يحتاجون اليه فالتخذوا بيوتاً منها أنصاراً لهم عند الحاجة ، وعرف هؤلاء حاجة الأمراء اليهم فارتفعوا في أعينهم وصار لهم من الأمر مثل ما لهم أو ما يقرب من ذلك . لهذا كنت ترى في البلاد

المصرية بيوتاً كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلو جاههم ذلك كان يقضي على كل أمير من أولئك الأمراء أن يصرف زمنه في التدبير ، واستجلاب النصير ، واعداد ما يستطيع من قوة لحفظ ما في يده ، والتمكن من اخضاع غيره . أنصاره من الأهالي كانوا يجارونه في ذلك خوفاً من تعدي أعوان خصمه عليهم ، ف وقعت القسمة بين الأهالي ، ولا تزال أسماء الأقسام معروفة إلى اليوم : سعد وحرام . هذا يحدث بطبعه في النفوس شماً ، وفي العزائم قوة ، ويكسب القوى البدنية والمعنوية حياة حقيقية .هما احتقرت نوعها . فكانت العناصر جميعها في استعداد لأن يتكون منها جسم حي واحد يحفظ كونه ويعرف العالم بمكانته

جاء الجيش الفرنسي والبلاد في هذه الحالة ، دخل البلاد بسهولة لم يكن ينتظرها . احتل عاصمتها واستقر له السلطان فيها . لم تكن إلا أيام قلائل حتى ظهر فيه القلق ، وعظمت حوله الفلاقل ، أخذت القوى الحيوية الكامنة في البلاد تظهر ، فكثرت الفتن ولم تنقطع الحروب والمناوشات ، ولم يهدأ لرؤساء العساكر بال . يدلك على ذلك شكوى نابليون نفسه في تقاريره التي كان يرسلها إلى حكومة الجمهورية من اصطيداد العربان لعساكره من كل طريق . وسلبهم أرواحهم بكل سبيل . واضطر نابليون أن يسير في حكومة البلاد بمشورة أهلها ، وانتخب من أعيانها من يشركه في الرأي لتدبيرها طوعاً لحكم الطبيعة التي وجدها

قتل بعض رؤساء الجيش واضطربت عليه البلاد وجاء الجيش العثماني وعاونوه الجيش الانكليزي ، وخرجت عساكر الفرنسيين من مصر ، ولا أطيل الكلام فقد ظهر محمد علي بالوسائل التي هيأها له القدر

والذي كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها ؟ كانت تنتظر أن يشرق نور مدنية يضيء لرؤساء الأحزاب طرقهم في سيرهم لبلوغ آمالهم ، وقد كان ذلك يكون لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم ما بلغ به غيره الغاية التي كان يقصدها في بلاد غير بلاده . وما كان بينهم وبين ذلك إلا أن يختلطوا بأهل البلاد الغربية ، ويرتفع الحجاب الذي أسد له الجهل دونهم . أو كانت تنتظر أن يأتي

أمير عالم بصير فيضم تلك العناصر الحية بعضها إلى بعض ويؤلف منها أمة تحكمها حكومة منها، ويأخذ في تقوية مصباح العلم بينها، حتى ترتقي بحكم التدرج الطبيعي وتبلغ ما أعدته لها تلك الحياة الأولى

مالذي صنع محمد علي؟ لم يستطع أن يحجي ولكن استطاع أن يميت. كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على اعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه، وهكذا حتى إذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين وتكرر ذلك منه مراراً حتى فسد بأس الأهالي، وزالت ملكة الشجاعة منهم، وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها، فلم يبق في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه، أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه

أخذ يرفع الأسافل ويعلمهم في البلاد والقرى كأنه كان يحسن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم، حتى انحط الكرام، وساد اللئام، ولم يبق في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال، وجمع العساكر بأية طريقة، وعلى أي وجه، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة واستقلال نفس، ليصير البلاد المصرية جميعها أقطاعاً واحداً له ولأولاده، على أثر أقطاعات كثيرة كانت لأمرأ عدة

ماذا صنع بعد ذلك؟ اشترأت نفسه لأن يكون ملكاً غير تابع لاسلطان العثماني، فجعل من العلة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين، فافوسع لهم في المجاملة، وزاد لهم في الامتياز خارجاً عن حدود المعاهدات المنقذة بينهم وبين الدولة العثمانية، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكاً من الملوكة في بلادنا يفعل ما يشاء ولا يسئل عما يفعل. وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم، وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حرم منها، وانقلب الوطني

(٤٩) — تاريخ الاستاذ الامام — الجزء الثاني

غريباً في داره ، غير مطمئن في قراره ، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان — ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة ، وذل سامهم الأجنبي إياه ليصل الى مايريد منهم غير واقف عند حد أو مردود الى شريعة

قالوا : أنه اطلع نجم العلم في سماء البلاد . نعم غني بالطب لأجل الجيش والكشف على المجني عليهم في بعض الأحياء عند مايراد إيقاع الظلم بمتهم . وبالمهندسة لأجل الري حتي يدبر مياه النيل بعض التدبير ، ليستغل أقطاعه الكبير .

هل تفكر يوماً في اصلاح اللغة عربية ، أو تركية ، أو أرثوذية ؟ هل تفكر في بناء التربية على قاعدة من الدين أو الأدب ؟ هل خطر في باله أن يجعل للأهالي رأياً في الحكومة في عاصمة البلاد أو أمهات الاقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل ؟ لم يكن شيء من ذلك . بل كان رجال الحكومة إما من الارنؤد ، أو الجراكسة ، أو الأرمن المورلية ، أو ماأشبه هذه الأوشاب ، وهم الذين يسميهم بعض الأحداث من أنصاره اليوم دخلاء . وكانوا يحكمون بما يهون لا يرجعون الى شريعة ولا قانون . وإنما ينتفون مرضاة الأمير ، صاحب الاقطاع الكبير

أين البيوت المصرية التي أقيمت في عهده على قواعد التربية الحسنة ؟ أين البيوت المصرية التي كانت لها القدم السابقة في إدارة حكومته أو سياستها أو سياسة جندها ، مع كثرة ماكان في مصر من البيوت الرفيعة العمد الثابتة الاوتاد ؟ أرسل جماعة من طلاب العلم الى أوروبا ليتعلموا فيها ، فهل أطلق لهم الحرية أن ينشوا في البلاد مااستفادوا ؟ كلا ولكنه استعملهم آلات تصنع له مايريد ، وليس لها ارادة فيما تصنع . وجد بعض الأطباء المتأزين وهم قليل . ووجد بعض المهندسين الماهرين ولبسوا بكثير ، والسبب في ذلك أن محمد علي ومن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس فاحتاجوا الى بعض المصريين ولم يكن أحد من الأعوان مسلطاً على المهندس عند رسم مايلزمه من الأعمال ، ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج ، فظهر أثر استقلال الارادة في الصناعة عند أولئك النفر

القليل من النابغين ، وكان ذلك مما لا تخشى عاقبته على المستبدين
هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية ؟ أين هي وأين الدين
نبغوا من طلابها ؟ فان وجد أحد نابغ قبل هو من المصريين ؟ عدوا إن شتم
أحياء أو أمواتاً

وجد كثير من الكتب المترجمة في فنون شتى من التاريخ والفلسفة والادب
ولكن هذه الكتب أودعت في الخازن من يوم طبعت وأغلقت عليها الابواب
إلى أواخر عهد اسماعيل باشا فأرادت الحكومة تفريغ الخازن منها ، وتخفيف
ثقلها عنها ، فنترتها بين الناس فتناول منها من تناول . وهذا يدلنا على أنها
ترجمت برغبة بعض الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد
لكنهم لم ينجحوا لأن حكومة محمد علي لم توجد في البلاد قراء ، ولا متفهمين
بتلك الكتب والفنون

كانوا يتخطفون تلامذة المدارس من الطرق وافناء القرى (الأفتاء الناس
الجهولون) كما يتخطفون عساكر الجيش ، فهل هذا مما يجب القوم في العلم ويرغبهم
في ارسال أولادهم الى المدارس ؟ لا بل كان يخوفهم من المدرسة كما كان
يخيفهم من الجيش

حمل الأهالي على الزراعة ولكن ليأخذ الغلات ولذلك كانوا يهربون من
ملك الاطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر والموت الأحمر ، وقوانين
الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك

يقولون انه أنشأ المعامل والمصانع ، ولكن هل حجب إلى المصريين العمل
والصناعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم ؟ وهل أوجد أساتذة يحفظون
علوم الصناعة وينشرونها في البلاد ؟ أين هم ؟ ومن كانوا ؟ وأين آثارهم ؟ لا بل
بغض الى المصريين العمل والصناعة بتسخيرهم في العمل والاستبداد بثمرته .
فكانوا يتربصون يوماً لا يعاقبون فيه على هجر المعمل والمصنع لينصرفوا عنه
ساخطين عليه ، لا عين الساعة التي جاءت بهم اليه .

يقولون انه أنشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك ودوخ به الملوك ، وأنشأ أسطولاً

ضخماً تنقل به ظهور البحار ، وتفتخر به مصر على سائر الأمصار ، فـ لم علم المصريين حب التجند ، وأنشأ فيهم الرغبة في الفتح والغلب ، وحب اليهم الخدمة في الجندية وعلمهم الافتخار بها ؛ لابل علمهم الهروب منها ، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون إلى الموت ، بعد أن كانوا ينتظمون في أحزاب الأمراء ، ومحاربون ولا يبالون بالموت أيام حكم المماليك ، وكان من ينتظم في الجندية على عهد محمّر مصر لا يخرج منها إلا بالموت ! هل شعر مصري بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه ، وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك اليه بأن يقول هذا جيشي وأسطولي أو جيش بلدي أو أسطوله ؟ كلا لم يكن شيء من ذلك فقد كان المصري يعد ذلك الجيش وتلك القوة عوناً لظالمه فهي قوة خصمه . كذلك كان بعدها كل عثماني في مصر أو في غير مصر . ليقول لنا أنصار الاستبداد كم كان في الجيش من المصريين الذين بلغوا في رتب الجندية إلى رتبة البكباشي على الأقل ؟ فما أثر ذلك في حياة مصر والمصريين إلا أسوأ الأثر — أثر كله شر في شر ، لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت

ظهر الأثر العظيم عند مجاء الانكليز لأخذ ثورة عرابي . دخل الانكليز مصر بأسهل ما يدخل به دامر^(١) على قوم ثم استقروا ولم توجد في البلاد نخوة في رأس تثبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنسيين إلى مصر ، وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى والموت الأخير ، وجهله الأحداث فهم يسألون أنفسهم عنه ولا يهتمون اليه

لا يستحي بعض الأحداث من أن يقول أن محمد علي جعل من جدران سلطانه بنية من الدين . أي دين كان دعامة للسلطان محمد علي ؟ دين التحصيل ؟ دين الكرباج ، دين من لا دين له إلا ما بهواه ويريده . وإلا فليقل لنا أحد من الناس أي عمل من أعماله ظهرت فيه راحة للدين الاسلامي الجميل ؟ لا يذكرن إلا مسألة الوهاية . وأهل الدين يعلمون أن الاغارة فيها كانت على

الدين للدين . نعم أن الوهاية غلوا في بعض المسائل غلوا أنكره عليهم سائر المسلمين ، وما كان محمد علي يفهم هذا ولا صفك دماءهم لارجاعهم الى الاعتدال وإنما كانت مسألة سياسية محضه تبعها جراءة محمد علي على سلطانه العثماني وكان معه ما كان مما هو معروف

نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدلها بشيء من النقدي يسمى «فائض رزنامة» لا يساوي جزءاً من الألف من إيرادها . وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة

وقصاري أمره في الدين انه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو اجلاسهم على الموائد، لينقي من يريد منهم اذا اقتضت الحال ذلك وأفاضل العلماء كانوا عليه في سخط ما أتوا عليه

ولا أظن أن أحداً يرتاب بعد عرض تاريخ محمد علي على بصيرته أن هذا الرجل كان تاجراً زارعاً ، وجندياً بأسلاً ، ومستبداً ماهراً ، لكنه كان لمصر قاهرأ ، ولحياتها الحقيقية معدماً ، وكل ما رآه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره ، متعنا الله بغيره ، وحمانا من شره ، والسلام

المقالة الحادية عشرة

أما ينهض بالشرق مستبد عادل (*)

مستبد يكره المتناكرين على التعارف ، ويلجئ الأهل إلى التراجع ، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة ، إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة ، عادل لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذي يحكمه ، فإن عرض حظ لنفسه فليقع دائما تحت النظرة الثانية ، فهو لهم أكثر مما هو لنفسه

يكفي لا بلاغهم غاية لا يسقطون بعدها خمس عشرة سنة ، وهي سن مولود يبلغ الحلم ، يولد فيها الفكر الصالح ، وينمو تحت رعاية الولي الصالح ، ويشد حتى يصرع من بصارعه . خمس عشرة سنة يثني أعناق الكبار إلى ما هو خير لهم ولأعقابهم ، ويعالج ما اعتل من طباعهم بأنجع أنواع العلاج ، ومنها البتر والكي إذا اقتضت الحال ، وينشئ فيها نفوس الصغار على ما وجه العزيمة نحوه ويسدد نياتهم بالثقیف ، يتعهدا كما يتعهد الغار من شجره بضم أعواد مستقيمة إلى سوقها لتنمو على الاستقامة ، خمس عشرة سنة تحشد له جمهوراً عظيماً من أعوان الإصلاح من صالحين كانوا ينتظرونه ، وناشئين شبوا وهم ينظرونه ، وآخرين وهبوه فاتبعوه ، وغيرهم رغبوا في فضله فجاروه

حتى إذا عرفت الأفكار مجاريها بالتعريف ، وانصرفت إلى ما أعدت له بالتصريف ، وصح الشعور بالتعليل ، واستقامت الأهواء بالتعديل ، أباح لهم من غذاء الحرية ما يستطيع ضعيف السن قطعه ، والناقة من المرض هضمه ، وأول ما يكون ذلك بتشكيل المجالس البلدية ، ثم بعد سنين تأتي مجالس الإدارة لأعلى أن تكون آلات تدار ، بل على أن تكون مصادر للآراء والأفكار . ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية ، نعم ربما لا يتيسر لرجل واحد أن يشهد (*) نشرت في السنة الأولى من مجلة الجامعة العثمانية التي كانت تصدر في الإسكندرية

هذا الأمر من بدايته إلى نهايته ، ولكن الخطوة الأولى هي التي لها ما بعدها ،
ويكفي لمدة خمس عشرة سنة ، وما هي بكثير في تربية أمة فضلا عن أمة
هل يعدم الشرق كله مستبدًا من أهله ، عادلا في قومه ، يتمكن به العدل
أن يصنع في خمس عشرة سنة مالا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرناً ١٢

المقالة الثانية عشرة

القضاء والقدر *

حضر صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ،
حفلة الامتحان لتلامذة مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بالاسكندرية يوم السبت
الماضي . وقد جرى ذكر (القضاء والقدر) على لسان أحد التلامذة في مقولة
ألقاها ، فرأى فضيلته مناسبة للكلام على هذه العقيدة بين مئات من الناس ،
جلبهم إن لم يكن كلهم يخطئ ، في فهم معناها ، وربما كان أصل هذا الخطأ أصل
بلاء الاسلام والمسلمين فقال حفظه الله :

جرى في كلام بعض التلامذة ذكر للقضاء والقدر ، والاتكال على الله في
نيل الارزاق ، وأن الحيلة في ترك الحيلة ، والتدبير في ترك التدبير ، ونحو هذه
الكلمات ، مما عساه أن يؤثر في النفوس الأثر الذي يجدونه دائماً في تماس العذر
للكسل ، وترك العمل ، والامساك عن البذل ، ونحو ذلك ، تهللاً بالمقادير ، ولكن
تروون أن التلامذة من جهة أخرى كما ذكرنا ذلك ذكرنا الحزم والعزم والجد
والنشاط في الأعمال ونحو ذلك ،

عقيدة الاذعان للقدر حسبت من أسباب الانحطاط عند الشرقيين عموماً ،
وعند المسلمين خصوصاً ، لأنها نزعتم بالأثم المعتقد بها إلى الكسل ، انتظاراً
لما يأتيهم من الغيب ، وبسطت أيدي أغنيائهم في الاسراف اتكالا على ما يسوقه
علم الغيب . ولكن ذلك سوء فهم ، سببه سوء فهم أهل هذه العقيدة .

(* نشرت في العدد ٣٩٧ المؤرخ في ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣١٩ من جريدة المؤيد

الاعتقاد بالقدر مما يلهمك الصبر على ما نزل ، ويدللك إلى ما ستعمل — خلق الانسان وخلق معه عدو يلزمه ، فلا يزال يهاجمه ويحاصر قواه حتى يهلكها ، ويكافح عزائمه حتى يمحطها . فعلى الانسان أن يعد لمقاومته من العدد ما استطاع . ويتخذ من الوسائل لكف غائلته ما قدر ، فان غفل عنه طرفة عين أحل به الحين . ولكن ذلك العدو محتال وخصم محبوب

ذلك العدو الطبيعي هو الكسل وحب الراحة ، ومن عادة الأنفس أن تلتبس الوسائل ، وتمهد الاغذار لمساعدة هذا العدو الخداع ، فكما وجدت وسيلة للاتصار له أخذت بها وهي لا تعلم أن في نصرته هلكتها . فكان من حكمة الله تعالى أن يدعو الأنفس البشرية للإيمان بقضائه وقدره ، ليكون مخففاً لجزعها إذا نزلت النوائب ، مثبتاً لها عند ملاقات المصائب ، وتجشم المصاعب ، فيحصل من ذلك عون لها على ذلك العدو المحبوب . فاذا هاجم اليأس قلب امرئ ، من مطلوب يطلبه ، أو قامت العقبات دون مرغوب برعبه ، قام الإيمان بالقضاء والقدر ، والاعتماد على معونة صاحب الحول والقوة ، يفتح له الأبواب المغلقة ، ويدلل المصاعب الشديدة ، فيأخذ العدة من حيث أمر الله باتخاذها . فالتاجر الذي يخشى الخسران ، أو تلف البضائع في البحار ، أو يخاف الخطر في الأسفار ، أو ما أشبه ذلك . إذا تصوّر أن كل شيء بقضاء وقدر ، وأن الرزق مقسوم ، والأجل محتوم ، نهض إلى العمل ، بعد أن يهيئ وسائله . ويسأل عما يجبل منها من له علم بها . ويتبع سنة الله سبحانه وتعالى في استعمال العقل وجميع قوى النفس فيما وهبت له ، فيقوى بعقيدة القدر على الكسل ، وينزع إلى العمل . وكذلك من يخوفه الشيطان من البذل في سبيل الخير ، ويهدده الفقر ، يقوم له الاعتقاد بالقدر نصيراً على الشيطان ، يلهمه أن الأرزاق محدودة ، وأنه لا ينتص مال من صدقة ، ونحو ذلك ، فتفيض يداه بالعطاء مع مراعاة ما يثمره الجود من الفوائد ، وما يعود به على العامة من العوائد .

الانسان عامل بالطبع ، فانه مادامت له حياة فهو في حاجة الى تقويمها ، ولا محيص له عن أن يعمل لنفسه ولغيره ، فانه لا يستقل بما يكفي لحفظ بقائه ، ولا

بدّ له من الاستعانة بغيره ، ولن يعينه الغير حتى يرى من عمله ما يعود عليه بمنفعة ما . وإنما يخرجّه عن سلطان هذه الفطرة ذلك العدو الذي أشرنا اليه ، فهو في حاجة الى ما يعينه عليه ويرجع به الى فطرته : ولا معين له أفضل من الاتكال على الله والاعتماد على قوته ، بعد استيفاء ما أمر به من اتباع سنته . فهذه العقيدة الصالحة انقلب أثر ما في أنفس المعتقدين بها الى فساد عظيم . وليس العيب فيها ، ولكن العيب في الأذهان التي تلقتها . كما قال جلال الدين الرومي : كل ما يتناوله العليل يتحوّل إلى علة ، فاللحم مع غزارة المادة التغذية فيه وتقويته لبنية المتغذي به لو تناوله المريض بحمى التيفوس مثلاً فإنه يقتله . ولا عيب في اللحم ، ولكن العيب في معدة المريض الآكل

فإن كان سرى لبعض أذهان الحاضرين شيء مما أشرنا اليه ، من أثر المقال الذي جاء على السنة التلامذة . فأرجو أن ينفي عنه ذلك الأثر بما سمعه من الكلام الذي جاور الكلام الأول في مقامهم أيضاً . ومن شرع ليسلي نفسه عن بعض أعمال البر بما فهمه من القول الأول ، رجوت أن ينشط بها الى البذل في سبيل الخير بما تحقّقه من القول الآخر . وأسأل الله أن يوفقكم جميعاً لأعمال الخير ، وكل عام وانتم بخير اه ملخصاً

المقالة الثالثة عشرة

الرجل الكبير في الشرق *

قرأت اليوم سطوراً تحت عنوان (رجال الشرق) كتبها قلم كاتبها عند ذكر موت (لي هونغ تشنغ) رجل الصين ، وقارن فيها بين الرجل الكبير في نفسه يظهر في بلاد الغرب ، ومثله في عقله وهمته يوجد في أرض الشرق ، وكيف يشرق النور من عقل الأول في أفق بلاده ، فيكون شمساً في الفائدة والشهرة ، وتظلم الآفاق في عين الثاني فينطمس ما فيه من نور ، ويخمد ما يطويه من نار ، ويموت غير معروف ، أو مشيعاً من اللغات بألوف

ما كان لساني لينطلق بشيء في هذا الموضوع ، ولقد كان يبقى كل معنى فيه مقبوراً في نفسي ، لولا أنك بما قلت وصلت شرارة بنار كامنة لم تطفأ بعد ، فهجت ساكناً ، وآثرت كامنًا ، فطارت إليك هذه الكلمات القلائل لعلها تجد في بعض صفحاتك ما يحملها إلى من ظننت أنهم يقرؤون كلماتك

حقاً ما قلت ، فهل لك في شيء من تفصيل ما أجملت ؟ إن الكبار من الرجال هداة في أمهم . وإنما يظهر أثرهم في إرشادها ، والسير بها في الطريق المؤدية إلى الغاية التي تطلبها ، وليسوا بخالقين ولا ناشرين من موت . وإنما تنجح الهداية فيمن رمى بفكره إلى المطلب ، وعرف أنه أبعد عما هو فيه ، فتهياً للسفر ، وتحفز للرحلة ، وأخذ لأمره أهبطه ، وأعد له عدته ، واستقام على أول الطريق ، فاذا السبل متفرقة ، والأعلام كثيرة ، والصوئ متعددة ، فيقف المسافر ، وقفة الحائر ، فيأتيه البصير بالمسالك ، فيدله على خيرها ويختار له أقربها وأبعدها عن المهالك ، فيقع في نفسه صدقه لا لأنه قلده ووثق بخبرته ، ولكن لأنه رسم له الغاية التي يطلبها ، والطريق التي يختارها لها ، وبقية الطرق

* نشرت في العدد ٣٥٠٩ من المؤيد في غرة شعبان سنة ١٣١٩ و ٢١ نوفمبر سنة ١٩٠١ ونسبت إلى «أحد أفاضل الكتاب المجيدين» لتكثير الكتاب

على جوانبها ، فرأى الدليل قويمًا ، والصراط مستقيمًا ، فيسير والرجل الرشيد أمامه ، إلى أن يمس الغاية بيده ، ويلبس الطلب بأصبعه ، نعم : الرجل الكبير موقظ من نوم ، أو منبه من غفلة ، وليس بمحيي الموتى ، ولا بسميع من في القبور . فان كانت الأمة في منخفض من المنازل ، قد ضاق أُنْفُها ، فلا تعرف جواً غير جوتها ، ولا دواً غير دوتها ، ولا بواً غير بوتها — بوها رئيسها — فان كان هواها منزلها وبيتها ، وكان مسكنها وبيلا ، فهي تتأمل في مكانها ، وتعتقد أن لا منقلها من هوانها ، وإذا هاجمها الطامعون ليستصاحوا لأنفسهم ما أفسدته ، ويستجيدوا لها ما استوبأته ، تقاصت من الاطراف ظناً منها أن لا متسع لها في الأرض ، وان ليس بعد طول مكانها طول ولا وراء عرضها عرض ، فاذا وجد فيها الرجل الكبير ، فأول ما يخطر له أن يفعل هو أن يمد بصره إلى ما وراء أنفها ، حتى يعرفها ان وراء منزلتها مذهباً لمن يريد النجاة مما هوفيه . وكيف يمكن لطبيب أن يحدث في البصر امتداداً ان كان قد خلق قصيراً ؟ وكيف يتيسر له أن يجد له حدة ان كان قد جبل حسيراً ؟

الرجل الكبير يحس ويتألم ، ويدفعه الألم إلى أن يتكلم ، بل تحمله شدة الألم على أن يجاهد في قومه وهم أحب الناس اليه ، ويقا تلهم ليدفعهم عن موارد الهلكة وهم أئز الخلق عليه ، ولكن قد يبلغ بهم العمى أو قصر البصر أن يعدوه عدواً لهم ، وكما دعاهم إلى الحركة دعوته إلى السكون ، وكما أخذ بهم إلى الفرع جذبه إلى الركون ، وهم أكثر منه عدداً ، وأوفر عدداً ، فلا يمضي طويل من الزمن حتى يخفت صوته من كثرة الصياح ، وينقطع نفسه من الدعوة إلى الإصلاح ، وتضعف عزيمته ، وتضمحل همته ، فاذا جاءهم عدوهم ، وقد خدعهم بوهم ، وأحسوا بشدة الصدمة ، صاحوا ولكن صياح الثاكلة العاجزة ، تنفس الصعداء : وحسرة تصعد إلى السماء ، مع القعود في المساكن ، والخلود إلى أخس المنازل ، فينتهي بهم الأمر إلى الاضمحلال ، وما بعد الاضمحلال الا الزوال .

إن كان ما بالامة ليس نوما فيزول بالايقاظ ، ولا غفلة فتذهب بالتنبيه . وانما هو خدر شلت به الأعصاب ، وذبلت به العروق ، فماذا يكون فعل الرجل الكبير ؟ يجهد عقله في البحث عن الدواء ، ويستعمل ما لديه من قوة في

معالجة الداء ، وهيبات أن يشعر به المريض ، بل هو تارة يضحك ضحك المستهزئ ، وأخرى يبكي بكاء اليأس ، وثالثة يضرب الطبيب بما حضر لديه ، أو يديه ورجليه . حتى يقضى عليه

هذا إذا ذهب الطبيب نحو الأمة يستعين بها عليها ، ويشفع لها لديها ، فإذا حملة اليأس منها ، على الانصراف عنها ، وتوجه إلى صاحب السلطة عاينها ، والحكم النافذ فيها ، لعله أنه يتمكن من ازعاجها عن موطنها ، وسوقها إلى ما ينجيها من هلكتها . وذلك قد يكون - فان الملوك والرؤساء لهم في الأمم ما لا جهل فيها ، فكما أن للجهل فيها حكماً لا معارض له ، فالسلطان عليها قول لا يرد ، فيمكن للحاكم أن يداويها بدائها . والاستبداد الذي يستعمله ليسوقها إلى الشر ، يمكنه أن يستعمله فيها ليقودها به إلى الخير ، والرتب والمناصب التي يمنحها لمحض الشهوة وطاعة الهوى ، يسهل عليه أن ينوط بها ما يريد من وسائل المنفعة الثابتة ، والمصلحة القائمة — إذا حدثت الرجل الكبير نفسه بذلك فماذا يجد ؟ يجد مالا سبيل إلى شرحه الآن ... (*)

إذا فما الذي يصنعه الرجل الكبير ؟ يسعى ويجد ، ويدأب ويكد ، ثم يموت محروماً من ثمرة عمله ، بائساً على خيبة أمله ، ومن للرجل الكبير في أمة مثل أمم المشرق يمثل امبراطور اليابان ، أو الأمير عبدالرحمن خان ، إن صح ما جاءت به الانباء ، وصدق ما روت عنه صحف الأخبار ؟

ولكن هل ذلك كله يقضي على الكبير بأن يصغر ، وهل يحكم على العظيم في نفسه بأن يحقر ، كلا فهو انما يؤدي واجباً عليه ، وعلى الله ما وراء ذلك والمرجع اليه . أكتب اليك هذا ولا أجد من الوقت ما أثبت به ما أجد ، فان سمح لي الحال بأوسع من دقائق هذه ، فسأوافيك بأوسع من هذا ، في بيان أسباب ما المشرق فيه من مساواة الكبار للصغار ، في ضياع العمر وفساد الآثار

(*) قد حذف المؤيد ههنا كلاماً من الاصل في وصف أمرائنا هو أباغ ما كتب في سوء حالهم على اجماله وسبب حذفه له انه كان يؤيد الامير والسلطان ويدافع عنهما ولو بالباطل ، ولكن فاته اطلاق لقب ابو عليهم أو أغمض فيه

المقالة الرابعة عشرة

الحث على اذاعة منسكوبي مربع ميت غمر (*)

(وتأليف لجنة في الجمعية الخيرية الاسلامية لجمع الاعانات)

عرض لي ما منعني من قراءة الجرائد نحو أسبوع كنت أسمع فيه بمحادثة ميت غمر من بعض الأقواء كأنها من الحوادث المعتاد حدوثها ، حتى تمكنت من مراجعة الجرائد ليلة الخميس الماضي ، فاذا لهب ذلك الحريق يأكل قلبي أكله لجسوم أولئك المساكين - سكان ميت غمر - ويصهر من فؤادي ما يصهره من لحومهم . أرقّت تلك الليلة ولم تغض عينايا إلا قليلا . وكيف ينام من بيت يتقلب في نعم الله وله هذا العدد الجم من اخوة وأخوات ، يتقلبون في الشدة والبأساء . أردت أن أبادر بما أستطيع من المعونة ، وما أستطيع قليل لا يغني من الحاجة ، ولا يكشف البلاء . ثم رأيت أن أدعو جمعا من أعيان العاصمة ليشاركوني في أفضل أعمال البر في أقرب وقت ، وكان يوم السبت ، فحضر منهم سابقون ، وتأخر آخرون ، وكتب بعضهم يعتذرون ، فشكر الله سعي من حضر ، وجزى خيرا من اعتذر ، وغفر لمن تأخر .

اجتمعت اللجنة وقررت التماس أن تكون تحت رعاية الحضرة الخديوية . وكنت كئبت من قبل إلى سعادة السر تشريفاتي ، فوجدت رقبا منه بعد الانصراف يفيد أن الجنب العالي قبل ذلك . سبق السابقون من أرباب الجرائد الى الدعوة ، وفتحوا باب الاكتتاب في الخير ، فجزاهم الله أفضل الجزاء . ولكن الكثير إذا تفرق قليل ، والوافر إذا تشتت يسير ، لهذا كان من قرارات اللجنة المجتمعة في مركز

(* نشرت في العدد ٣٦٥٤ من جريدة المؤيد في صفر سنة ١٣٢٠ - ١٢

مايو سنة ١٩٠٢

الجمعية الخيرية الاسلامية أن يكتب إلى حضرات المكتتين الأواين بالانضمام الى إخوانهم، وأن يرسلوا مندوبين منهم الى لجنة الادارة العاملة إذا شاؤوا . شكلت لجان لجمع المال بأسرع ما يمكن ، ودعي أناس كرماء في بعض مرا كز الشرقية لأن يقوموا بمثل هذا العمل في نواحيهم ، وسيكتب الى غيرهم من أعيان المديرية الآخر .

ليس الحادث بذى الخطب اليسير ، فالمصابون خمسة آلاف وبضع مئتين ، منهم الأطفال الذين فقدوا عائلهم ، والتجار والصناع الذين هلك آلاتهم وروس أموالهم ، ويتعذر عليهم أن يبتدأوا الحياة مرة أخرى ، إلا بمعونة من إخوانهم، وإلا أصبحوا متشردين متلصصين أو سائلين ، والذين فقدوا بيوتهم ولا يجدون ما يأوون اليه ، ولا مال لهم يقيمون به مايؤويهم من مثل بيوتهم المتخربة . لهذا رأيت ورأى كل من تفكر في الأمر أن يجمع مبلغ وافر يمكن منه تخفيف المصاب على جميع أولئك المنكوبين . كتبت الى حضرة مأمور مركز ميت غمر ليفيدني برأيه فيما يجتمع لديهم من مركزي ميت غمر وزفتى هل يكفي لدفع الضرورة الحاضرة ، ولغذاء الناس ، وستر عوراتهم ، ووقايتهم من الموت؟ ثم طلبت إحصاء، وقتياً لأصناف المصابين وطبقاتهم ، حتى ذلك يكون التوزيع على قاعدة صحيحة . وسنرسل من تعظم فيهم الثقة للقيام بالتوزيع على أكل وجه، وأفاد بالمقصود متى اجتمع مبلغ واف بالحاجة

سيودع مايجتمع في خزانة محافظة العاصمة حسب ماراه المجتمعون بالاتفاق، وفي ذلك ضمانة من الضياع ، وبعد عن مراي الظنون ، وما بقي من تفصيل يحضر اللجنة فهو على ماتراه بعد.

هذا مارأيت أن أكتبه عن سبب الاجتماع وخبره، وأختم ذلك بالمنشور الذي أوجه به الى أهل المروءة ليجودوا بما تسمح به سجاياهم الكريمة، من بذل مال وبذل سعي

مفتوح

قد بلغكم ولا ريب من أخبار الجرائد ما عليه أهل ميت غمر بعد الحريق الذي أصاب بلدتهم ، فهم بلا قوت ، ولا ساتر ، ولا مأوى ، فليتصور أحدكم أن الأمر نزل بساحته ، أفما كان يتمنى أن يكون كل الناس في معونته ؟ فليطالب كل منا نفسه بما كان يطالب به الناس لو نزل به ما نزل بهم ، ولينفق من ماله ومهته ما يدفع الله به عنه مكروه الدهر ، إن شاء الله (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون * يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخيث منه تنفقون * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم) فكذبوا وعد الشيطان ، وثقوا بوعده الله ، فكلكم يؤمن الله ، وكلكم يوقن أنه أصدق القائلين ، وأقدر القادرين . فأرجو من همتمكم أن تدفعوا شيئا من مالكم في مساعدة اخوانكم ، وأن تبذلوا ما في وسعكم لحث من عندكم على مشاركتكم في هذا العمل ، وترسلوا بما تجمعون الى الداعي

رئيس الجمعية الخيرية الاسلامية

محمد عبده

(يقول جامع الكتاب) كان من غناية الاستاذ رحمه الله بالسعي لهذه الاعانة انه كان يطرق أبواب الأغنياء بنفسه ويطلب منهم التبرع للمنكوبين ، وقد جمع لديه ألوف كثيرة من الجنيهاات وبلغ من غنائه في توزيعها على مستحقيها ان سافر إلى الجهة التي وقع فيها الحريق وأشرف على التوزيع بنفسه مع مساعدة رجال الحكومة له . وقد قال له صديقه المرحوم حسن باشا عاصم بعد عودته وكنت معها : لو أعطيتني هذا المال الذي جمعته لأجل مدارس الجمعية ... قال : ما جمع شيء . وجب صرفه فيه ، واننا نقرص الحوادث الموجهة لتعلم الناس البذل في سبيل البر ومتى اعتادوا البذل في بعضها هان عليهم البذل في سائرها

الفصل الخامس

(بعض ما كتبه في المناظرات الدينية وغيرها)

أشهر ما كتبه في هذا الموضوع رده على موسيو هانوتو - أحد وزراء فرنسة وكتابها في الاسلام والعقائد السامية والآرية، وما يتعلق منها بالاسلام والنصرانية. ثم ما كتبه في الرد على مجلة الجامعة في فلسفة ابن رشد والمقابلة بين الاسلام والنصرانية في التسامح الديني والعلم والمدنية. وإنا نكتفي في هذا الكتاب بالمناظرة الأولى لأن الثانية قد نشرناها في المنار ثم جمعناها في كتاب مستقل طبع مراراً.

الرد على هانوتو

هو الرد الذي سارت به الركبان، وانتشر ذكره في كل مكان، وعده له المؤيدون الغربيون والشرقيون، وأطنب في مدحه عليه الشعراء الرأثون، وسببه ان موسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا من قبل كتب في جريدة الجرنال الباريسية مقالا في الاسلام والمسألة الاسلامية ترجمته جريدة المؤيد ونشرته بالعربية، وكان من عادة الأستاذ الامام عليه الرضوان أن يتصفح الجرائد في القطار بين القاهرة وعين شمس التي فيها داره غدواً ورواحاً فلما كان راحاً بعد العشاء من الأزهر وقد قرأ درس المساء فيه نظر في المؤيد فاذا فيه قسم من مقال هانوتو فقرأه في القطار والانفعال يساوره فما اتم بعد وصوله إلى الدار أن شرع في الرد على ما قرأ في فرصة تهيئة طعام العشاء، وأتم المقالة الأولى بعد تناول الطعام وأرسلها إلى المؤيد صباحاً فنشرت فيه. وانا ننشر مقال هانوتو قبل الرد عليه ليفهمه القاري حق الفهم وهو:

ترجمة مقال هانوتو

بقلم محمد مسمود (بك) اذ كان أحد محرري جريدة المؤيد ونشر فيها سنة ١٣١٧هـ

قد أصبحنا اليوم ازاء الاسلام والمسألة الاسلامية

اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الافريقية بسرعة لا تجارى ، حاملين في حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين « يونان الشرق » ثم تراموا بها على أوروبا ولكنهم وجدوا في نهاية انبعاثهم هذا مدينة يرجع أصلها إلى آسيا بل أقرب في الوصلة إلى المدينة البيزنطية مما حملوه معهم ألا وهي المدينة الآرية المسيحية ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذي اليه وصلوا ، وأكروا على الرجوع إلى افريقية حيث ثبتت أقدامهم أحقابا متعاقبة ولكن كان لا يزال الهلال ينتهي طرفاه من جهة بمدينة (القسطنطينية) ومن أخرى ببلدة (فاس) في الغرب الأقصى معانقا بذلك الغرب كله

في تلك البقعة الافريقية التي أصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة الفرنسية لمباغتته . جاء القديس (لويس) الذي ينتمي إلى اسبانيا بوالدته ليضرم نيران القتال في مصر وتونس ، وتلاه لويس الرابع عشر في تهديده بالايالات الافريقية الاسلامية ، وعاود هذا الخاطر (نابليون الأول) فلم يوفق إلى تحقيقه الفرنسيون إلا في القرن التاسع عشر حيث أخذوا على دولة الاسلام التي كانت لا تقي في متابعة الغارات على القارة الأوربية فأصبحت الجزائر في أيديهم منذ ٧٠ عاماً وكذلك القطر التونسي منذ عشرين عاماً

قد وصلت طلائع قوانا الآن إلى أصقاع من الصحراء تنتهي إليها كتباتها الرملية ، فعظم اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم لأنهم بعد اندفاعهم شيئاً فشيئاً في الغياي وبطن الجبوت وظنهم أنهم صاروا في أمنع موئل شعروا بأنفسهم وقد حلق عليهم الأوربيون من جميع الجهات وكانت القبائل الواردة اليهم من (السنغال) أخبرتهم بأن الأوربيين امتلكوها وتقدموا منها إلى (باقل)

(وباما كوا) (وسيجو سيكورو) وتوغلوا في جهات أخرى حتى وصلوا الى (النيجر) وبحيرة (شاد) وان مدينة (نمبكتو) المقدسة قد سقطت في أيديهم منذ أعوام وأكد لهم هذه الأخبار أيضاً رسلهم الذين يخترقون أفريقية الوسطى ويجوبون نواحيها بما ذكروه لهم من أن جهات (صانفا) و (تجاوندرة) قد وطأنها أقدام الحاملين للعلم المثلث الا لوان الذين يصعدون الأنهار لتنظيم البلاد وترقية شؤونها وأن وابوراتهم (في الأصل بابور على التحريف الشائع عند الأمم الشرقية من تسمية البواخر النهرية أو البحرية بالبابورات بدلا من البواخر) تشق عباب نهري (الكونغو) و (الشاري) وتنعكس على سطحها صورة الدخان الأسود المسترسل خلفها، عندئذ كان يطرق الاذان صوت اليانسين وقد جلسوا أمام دورهم واضعين رؤسهم بين أخذاهم لكثرة الغم والكدر وهم يدعون الله ويكررون قولهم عن (فرنسا) يشبهونها بسراق كبير اذا حاول الانسان قلعه فلا يزال له السمو عليه ويختمون كلامهم بقولهم (قد كان هذا قدراً مقدوراً)

إذا فقد صارت (فرنسا) بكل مكان في صلة مع الاسلام بل صارت في صدر الاسلام وكبده حيث فتحت أراضيه وأخضعت لسلطوتها شعوبه وقامت مجاهه مقام رؤسائه الأولين، وهي تدبر اليوم شؤونه وتجي ضرائبه وتحمشد شبابه لخدمة الجندية، وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها في مواقف الطعان، ومواطن القتال. تلك المملكة الفسيحة الارحاء التي أنشأتها في باطن القارة الافريقية هي الوارثة لما أبقتة الدول السابقة والأثم البائدة من (قرطاجين) (ورومانيين) (وعرب) من آثار المدينة التي كانت القارة الافريقية منبتاً لثمارها البانعة

ان شعباً جمهوري المبادي، يبلغ عدد نفوسه أربعين مليوناً لا مرشد له الا نفسه، لا عائلات ملوكية فيه يتنازع الحكم، ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة، هو الذي تقلد زمام ادارة شعب آخر لا يلبث أن ينمو حتى يساويه في العدد وهو ذلك الشعب المنتشر في الارحاء الفسيحة والاصقاع المجهولة والمتبع لتقاليد وعادات

غير التي نغنى لها ونحترمها هو الشعب الاسلامي السامي الاصل الذي يحمل اليه الشعب الآري المسيحي الجمهوري الآن ملح وروح المدنية ، نعم ان ظروف وشروط هذه المعضلة نادرة ، ولكن ليس على الشعب الغالب أن يحاول جهده لمعرفة والاطلاع عليها

ليس الاسلام فينا فقط بل هو خارج عنا أيضاً قريب منا في (مراكش) تلك البلاد الخفية الاسرار التي يشبه وجودها الحاضر مقدور الابد في الغموض والاشتباء - قريب منا في (طرابلس الغرب) التي تتم بها المواصلات الاخيرة بين مركز الاسلام في البحر الابيض المتوسط وبين الطوائف الاسلامية في باطن القارة الافريقية - قريب منا في (مصر) حيث تصادمت (الدولة البريطانية) فصادماتها اياها في الافطار الهندية ، وهو موجود وشائع في (آسيا) حيث لا يزال قائماً في (بيت المقدس) وناسراً اعلامه على مهد الانسانية ، وبحسب أنصاره وأشباعه في قارات الأرض القديمة بالملايين ، وقد انبعثت منه شعبة في بلاد (الصين) فانتشر فيه انتشاراً هائلاً حتى ذهب البعض إلى القول بأن العشرين مليوناً مسلماً الموجودين في الصين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء (إساكياموني) وليس هذا بالأمر الغريب فانه لا يوجد مكان على سطح المعمورة إلا واجتاز الاسلام فيه حدوده منتشراً في الآفاق ، فهو الدين الوحيد الذي أمكن انتحال الناس له زمراً وأفواجا ، وهو الدين الوحيد الذي تفوق شدة الميل إلى الدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه ، ففي البقاع الافريقية ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون إلى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار قواعد الحياة ومبادئ السلوك في هذه الدنيا كإن أمثالهم في القارة الاسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر الألوان قواعد الدين الاسلامي ، ثم هو - أي هذا الدين - قائم الدعائم ثابت الأركان في أوربا عينها أعني في الأستانة العلية حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية ، ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض شطرين

في باحات قصر يلديز ترى العلماء والدرائش وقد تدثروا بشباب الصوف وتعمموا بالعمائم الكبيرة جالسين على الارائك بجانب سفراء الدول . هم هناك يمثلون في الخاطر أشخاص ألف ليلة وليلة لا يحركون من مقاعدهم ، ينبسون بكلمات تطابق تحريك أيديهم حبات السبح منتظرين مجيء دورهم في المقابلات لعرض طلب أو توجيه لوم . وكل المسلمين من مقيم في (الاستانة) أو في (مراش) في أرجاء آسيا أو اصقاع افريقية من بدو كانوا أو حضر ، واقفين في أماكنهم أو سارين مع القوافل ، يركعون مع الزاكعين : اذا حانت الصلاة يتوضئون أو يقيمون بالتراب ، موالين وجوههم جميعاً شطر الكعبة ، وسواء منهم الذين يلبسون الثياب الواسعة أو يتزبون بالسترة الاسلامبولية ، والذين يلبسون الطربوش أو العمام على رؤوسهم ، والذين يضعون السيف واليطلقان في نطاقهم ، أو يتلقون العلوم في مدرسة برلين الجامعة ، أو يدرسون علوم السياسة في باريس ، فانهم يولون وجوههم شطر مكان واحد ، هي الأرض المقدسة ، هي الأرض التي تكنفها الصحراء ، هي الأرض التي عاش فيها محمد ، هي الأرض التي تتضمن جسمه المبارك في قبر لا يجسر أحد على الوصول اليه إلا مغطى الوجه حياء وهيبة ، هي الأرض التي جاء منها الالباء ويعود اليها الالبناء بحركة مستمرة ، هي الحج الأبدى الى بيت الله الحرام . وجميع المسلمين عن بكرة أبيهم يرون بطرفهم الى هذا المكان المقدس ويمدون اليه أعناقهم ، ولا يجدون لذة في الحياة إلا بأمل العودة اليه ، ومن مات منهم ولم يكن أدى فريضة الحج مات على أسف وحسرة .

وخلاصة القول ان جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة بها يدبرون أعمالهم ، ويوجهون أفكارهم الى الوجهة التي يتفنونها . وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذي تتصل به أشياء تتحرك بحركته ، وتسكن بسكونه ، بل هي القطب الذي تنتهي اليه قوة المغناطيسية . ومتى اقتربوا من الكعبة — من البيت الحرام — من بئر زمزم الذي ينبع منه الماء المقدس — من الحجر الاسود المحاط بأغار من فضة — من الركن الذي يقولون عنه إنه سررة العالم ، وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التي استحثتهم على مبارحة بلادهم في أقصى مدى من العالم

للفوز بجوار الخالق في بيته الحرام — اشتعلت جذوة الحمية الدينية في أفئدتهم فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفًا ، وتقدمهم الامام مستفتحًا العبادة بقوله « باسم الله » فيعم السكون والسكوت وينشران أجنحتهما على عشرات الالوف من المصلين في تلك الصفوف ، ويملاً الخشوع قلوبهم ، ثم يقولون بصوت واحد « الله أكبر » ثم تعنوا جباههم بعد ذلك قائلين « الله أكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبادة

لا تظنوا أن هذا الاسلام الخارجي الذي تجمعه جامعة فكر واحد غريب عن اسلامنا ولا علاقة له به لأنه وإن كانت البلاد التي يحكمها شعوب مسيحية ليست في الحقيقة « بدار اسلام » وإنما هي « دار حرب » فانها لاتزال عزيزة وموقرة في قلب كل مسلم صحيح الايمان . والغضب لايزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الاسد حول قفص حبست فيه صغارها ، وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقارنة ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول اليهم من بينها ترى في قرانا وبلداننا درويشاً فقيراً شاحب اللون ، مدثراً بأرديته البيضاء المعلقة بخطوط سوداء ، يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه ، لايلويه عن ذلك شيء — هذا الدرويش الذي يتنقل من خيمة الى خيمة ، ومن قرية الى قرية ، راوياً حوادث الأقطاب والأولياء من مشايخ الاسلام ، إنما يندري القلوب حينما حل وأينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا .

إن العالم الاسلامي منقسم الى طوائف وطرائق لاعداد لها ينخرط في سلكها الألوف من رعايانا المسلمين ، ولكن ليس لها في الغالب مراكز ولازوايا بالاراضي الداخلة في دائرة نفوذنا ، وغاية الأمر أن العاملين في هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يحترقون بلا انقطاع ولا توان مستعمراتنا الافريقية فيستقبلهم أهلها بالترحاب ، ويحسنون وفادتهم ويكرمون مشواهم ، حتى إن الفقير منهم لا يرى في إكرامه له أقل من أن ينحر له شاة . هذا عدا ما يجمعه له من صدقات ذوي البر والاحسان ، أو من المرتبات المالية السنوية التي يبلغ ما يدفعه أهالي الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام ، وهذا مما يستوجب العجب والدهشة لأن مقدار ما يجنيه من

الضرائب كل سنة من أهالي الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ ومن بين تلك الطوائف والطوائف ما يخذل أعضاءه الى السكون وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا في الجزائر وتونس على أحسن مايرام . وما ذلك إلا لأن الرابطة التي تربط بعضهم ببعض قد اعتراها الوهن ، ولأن الفوضى التي أصابت الاسلام الافريقي قد أخذت نصيبها منهم . ولكن توجد طوائف غيرها بلغت شدة العصبية منها مبلغاً عظيماً لأنها مؤسسة على مبدأ كفاح غير المؤمنين وعلى كراهة المدنية الحاضرة . وقد أسس الشيخ السنوسي في جهة ليست بعيدة عن الاصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر مذهباً خطيراً له أشياع وأنصار ، ومقر هذا الشيخ بلدة جفجوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائماً بها هيكل البرجيس آمون ، وقد هاجر أولاده الى (كوفرة) ومن مذهبهم التشديد في رعاية القواعد الدينية . وقد لبثوا زمناً مديداً لا يرتبطون بعلاقة مامع الدولة العلية بسبب ما بينها وبين الدول المسيحية من العلاقات ، ولكن يظهر أن أخلاقهم الشديدة قد تلطفت ، فتقربوا أخيراً من الدولة العلية ، غير أن هذا لم يمنعهم من طرح حباتل الدساس التي أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في افريقية الجنوبية ، ولم يكن الأمر قاصراً على وسط القارة الافريقية ، فانه توجد بالاستانة نفسها وبالشام ، وبلاد العرب ، ومراكش عصاة خفية ، ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها ، وتضغط علينا من قرب ، ويخشى أنها تقتربنا اذا غمضنا الطرف

كنا نرى من زمن حديث رعايانا الوطنيين في الجزائر يتقادون لأوامر سرية تناقلوها بالافواه ، وكانت تقضي عليهم بتأليف الزمر والافواج منهم لمهاجرة أوطانهم والذهاب الى آسيا الصغرى حيث يجدون الأمن المرجو

يؤخذ مما تقدم أن جرائم الخطر لا تزال موجودة في ثنيات الفتوح وطي أفكار المقهورين الذين اتبعتهم النكبات التي حاقت بهم ، ولكن لم تثبطهمهم . نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يدبرون هذه المقاومة ، ولكن رابطة الاخاء الجامعة لأفراد العالم الاسلامي بأسره كافلة بالرئاسة في مسألة علاقتنا مع الاسلام تجد

المسألة الاسلامية والمسألة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال والارتباط بعضها ببعض، وهذا ما يجعل حلها صعباً ومتعزراً كما سنبينه.

المسائل الاساسية في كل دين هي التي ترتبط بالقدر والمغفرة والحساب . وهي كلمات ثلاث مصبوغة بصبغة دينية تلقي في النفس الاعتقاد بوعورة المسلك في تفهمها مع أنها من الأمور التي ينبغي الوقوف عليها والعلم بها مهما صعب منالها وتعذر مراهاها . إن الدين هو الوسيلة التي تمهد للانسان طريق الوصول الى الحضرة الالهية أو هو بعبارة أخرى الواسطة في وقوف الخلق بين يدي الخالق (اذا تقرر ذلك فهل الخالق بقدرته المطلقة يودع في نفس الخلق استعداد العمل بمقتضى إرادته السرمدية بحيث لا يجحد عما تأمره به هذه الارادة أم للانسان متى تم خلقه إرادة خاصة يعمل بحسبها واختيار مستقل لا يستمد من اختيار أسى منه ؟ وهل للانسان الذي خلقه الله وسواه إرادة مطلقة من نفسه وتصرف مطلق في ذاته ؟ أم ترجع جميع أعماله من خير وشر الى القدرة الربانية القابضة على زمام الكون والمسبية لوجوده فيه ؟

في دائرة هذا البحث تنحصر الخلافات الدينية والفلسفية التي لم يوفق دين من الاديان ولا مذهب فلسفي الى حسمها بكيفية يقتنع بها الادراك وبرضاها العقل، مع أن البحث فيها لأصابة هذا الغرض السامي لم يكن بالامر الحديث إذ طالما بحث فيها فلاسفة الاقدمين فلم يجدوا لها حلا ، وكان حظهم منها كحفظ فلاسفة وعلماء المتأخرين

وغاية ما عرف منذ اعصر السالفة إلى الآن انه وجد مذهبان تشاطرافهما بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة المهمة ، فالاول منهما يقول بتناهي الربوبية في العظمة والعلو ، وجعل الانسان في حضيض الضعف ودرك الوهن ، ويذهب الثاني إلى رفع مرتبة الانسان وتحويله حق القربي من الذات الالهية بما فطر عليه من إيمان وإرادة ، وبما أتاه من أعمال صالحات وحسنات

والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الاول هي تحريض الانسان على اغفال شؤون نفسه ، وبث القنوط في فؤاده وتثييط همته ، وإيهان عزيمته ، بينا

تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثاني إلى ميدان الجلال والعمل ، وتلقي به في غمرات التنافس الحيوي ، ومن الأمثال على الفريقين البوذية الذين يدينون بدين يقضي عليهم بالتجرد إذ من قواعده أن الانسان والكون يفتيان في الذات الالهية . وقدماء اليونان الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه الآله بالانسان في أوصافه المادية يقضي عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بأن الانسان أو « البطل » يمكنه أن يصير في عداد الآلهة بحسناته وخيراته

وقد ظهرت على أطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان احدهما ربانية، والثانية بشرية، تمثلان دينك المذهبين المتناقضين ، ولكن بتلطيف في التناقض . أما الأولى فهي الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين، والمقطوعة الصلات بالمرعة مع مذهب السامية، وإن كانت مشتقة منه، وغصناً من دوحته ومن خصائص هذه الديانة ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الالهية، على حين أن الديانة الثانية وهي الاسلام المشوبة بتأثير مذهب السامية تحط بالانسان إلى أسفل الدرك وترفع الآله عنه في علاء لانهاية له «

هذان الميلان المختلفان يظهران ظهوراً واضحاً في الاعتقاد الاساسي لكثا الديانتين وهو أصل الالهية . أما المسيحي فيذهب في هذا الأصل الى الثلاث أي أن الآله الاب أوجد الاله الابن واتصل الاثنان بصلة هي روح القدس وعليه فيكون يسوع المسيح إلهاً وبشراً — هذا الثلاث السري المشتقة أصوله من ضرورة وجود إله بشري يمحو ذنب الجنس البشري ، ويفديه من الخطيئة التي اقترفها، يرفضه المسلم الذي يعتقد بوحدانية الرب ، ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكاً شديداً حيث يقول « لا إله إلا الله »

غير أن إدراك المسيحيين من هذا القليل هو أخف وأعلى وأجلب للثقة، إذ هو يجعلهم على اتیان الأعمال التي تقربهم الى الله، حيث الوسائط بينهم وبين ذاته العلية موصولة ، في حين أن المسلمين يجعلهم ديانتهم كمن يهوى في الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ، ولا يتبدل ، ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات ، والاستغاث بالله الاحد الذي هو مستودع الآمال ، وافظة الاسلام

معناها « الاستسلام المطلق لأرادة الله »

نرى الديانتين (أو بعبارة أخرى) المدينتين المسيحية والاسلامية احدهما بازاء الاخرى ، وتتصل الاثنتان بعضهما ببعض من حيث المنشأ العام لهما ، إذ هما مشتقتان من الأصول اليونانية والسامية ، ومنهما استمدتا جانباً من العقائد والمذاهب والآداب ، فهما إذاً متداخلتان من وجوه عدة ، واكن مسافة الخلف بينهما شاسعة في الحقيقة ، من حيث البحث في القدرة الالهية والحرية البشرية.

وقد كانت هذه المناقضات وتلك الاشباه نقطة تفرع الطريقتين المختلفتين اللذين اتبعناهما فيما يربطنا من العلائق بالاسلام والمسلمين . قصر فريق منا بحثه وحكمه على مشاهدته من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحي والاسلامي ، فرأى في الاسلام العدو الالذ ، والخصم الأشد ، قال المسيو كيمون في كتابه (باثولوجيا الاسلام) إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعاً ، بل هي مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولي ، يبعث الانسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ، ويدمن على معاقره الخمر ، وبجمل في القبائح ، وما قبر محمد في مكة (؟) إلا عمود كهربائي يث الجنون في رؤوس المسلمين ، ويلجئهم إلى الاتيان بمظاهر المستيريا (الصرع) العامة والذهول العقلي ، وتكرار لفظة الله إلى مالا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ككراهة لحم الخنزير ، والنبذ ، والموسيقى ، والجنون الروحاني ، والليانيا ، أو المايلخوليا ، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور في الذات الخ الخ

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية ، وحيوانات مفترسة (كالفهد والضبع كما يقول المسيو كيمون) وأن الواجب ابادة خمسهم (كما يقول أيضاً) والحكم على الباقيين بالاشغال الشاقة وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر (وهذا أيضاً قوله) وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشري .. أليس كذلك ؟ . ولكن قد برح عن خاطر الكاتب

أنه يوجد نحو (١٣٠) مليون مسلماً ، وأن من الجائز أن يهب هؤلاء « المجازين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم

ويذهب غير أصحاب هذا الرأي إلى أن الاسلام دين ومدنية يتصلان مع ديننا ومدنيتنا بعروة الاخاء والتصاحب ، وتطرف البعض منهم فاعتبروا الاسلام أرقى مبدأ وأسمى كعباً من الدين المسيحي . قال المسيو لوازون (القس ياسنت سابقاً) معترفاً ومقرراً بأن الاسلام هو الدين المسيحي محسناً ومحوراً ، ونصح للفرنسيين الذين يلتمسون دينهم المفقود أن يستعينوا بالاسلام للثور على ضالته المنيعة ، ويذهب قوم غير الذين سبقت الإشارة اليهم إلى وجوب احترام الاسلام وتبجيله مستندين في ذلك على مادونه أحد مؤرخي الكنيسة الذي صار فيما بعد كرينالا حيث قال « أن الاسلام فطرة للأمم الافريقية ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية ، فليس الواجب والحالة هذه قاصراً على معاملة الاسلام بالتساهل والتسامح ، بل لابد من رعايته وتعضيده بأن نسي في توسيع نطاقه وترتيب الارزاق على المساجد والمدارس ، وجعله رائداً لمدينة فرنسا وآلة تستعين به على فتوح البلاد »

هذان هما الرأيان السائدان بما بينهما من درجات الاعتدال والتلطف والسلمة ، ولكنهما وإن ائقرا متصل بعضهما ببعض ، وموجودان في حيز واحد ، وقد لوحظ كثيراً أن كل فرد من أفراد موظفينا أو وكلائنا ، أو أبنائنا المستعمرين قد حار بين المبدئين ، وسلك الخطة التي رسمها لنفسه تجاه المسلمين ، طبقاً لامياله^(١) نحو قطب من القطبين المتناقضين الذين يوجد باحدهما المتطرفون ، وبالأخر المتعصبون ، ولا وسط بينهما

وتلك الأُميال^(١) المتعاكسة التي برزت من مكان الاعتقاد إلى مجالي الفعل والتنفيذ ، هي التي أحدثت التناقض في أعمالنا الاجتماعية ، والسياسية والادارية ، وأدت إلى الشكوك والريب ، وتقض مأبرم وابرام مانقصر ، إلى غير ذلك مما جرت عليه حكومتنا ، ولا سيما في البلاد الافريقية ، من عدم السير على وتيرة

(١) المراد بالاميال أنواع الميول أي جمع ميل بالفتح وهو مصدر مال يميل

واحدة . هذا الخلل ينمو شيئاً فشيئاً ، ويتضاعف خطره كل يوم ، اذا فكر الانسان في أنه لا يصيب بسوئه بلاد الجزائر مع سكانها الوطنيين الذين يبلغ عددهم أربعة أو خمسة ملايين فقط ، بل يسري على نصف قارة بأكملها عديدة السكان ، ويزداد ويتضاعف عددها بامتداد رواق الامان على الأهالي ، وإبطال التجارة في الرقيق

فالمسئلة اذاً خطيرة جداً ، ولا بد من الاعتماد على أمر واحد في حلها ، إذ لا يكفي للوصول إلى هذا الحل تنميق عبارات ، وتسطير كلمات ، ولذلك خبرت أن أعرضها على محك الرأي العام ، مييناً أحكم الوسائل وأكثرها انطباقاً على العقل والصواب ، للوصول إلى نتيجة فعلية ، ومورداً شيئاً واحداً هو من أزم الأشياء لموضوع تلك المسئلة وأشدّها ارتباطاً به

قد سبق لي وقماتم تشكيل مملكتنا الافريقية تشكيلاً تاماً أن سألت — ولا زلت أكرر هذا السؤال — الحكومة أن تبحث بحثاً علمياً في علاقاتنا مع الاسلام والمسلمين بمعرفة أناس خبيرين ، وعلماء عارفين ، لينجلي هذا البحث عن الخطوة التي يتحتم على الجميع اتباعها من حاكم منا ومحكوم عليه

إن الراغب في الاستعمار من أبناء بلادنا يصل إلى الجزائر ، أو تونس ، أو السنغال ، فيجد نفسه في اتصال مع العربي ، أو بعبارة أعم مع المسلم ، إذ منه يشتري الأرض التي يريد استنباتها ، ومنه يطلب اليد العاملة ، ومع يدبر شؤون المعيشية ، فبالرغم عن هذا الاتصال وعن هذا الجوار والتلاصق تراهما يجهل أحدهما الآخر ، وتنفرج مسافة هذا الجهل ، وتكون عواقبه أكثر خطراً اذا كانت العلاقة بين الاهالي وبين الموظف ، أو الحاكم ، أو القاضي ، أو الضابط ، أو غيرهم ممن هو منوط بالفصل في خصوماتهم والقيام على شؤونهم ، وتنفيذ قوانيننا بينهم ، وما أسوأ مغبة ذلك الجهل اذا كانت العلاقة بينهم ووزارة مستعمراتنا ، أو رجال حكومتنا المركزية التي يديرها أحد عشر وزيراً ، ربما لا يوجد من بينهم سوى واحد أو اثنين أمعنا النظر في خريطة الانحاء الواسعة والاصقاع القصية التي عهد اليهم أمر ادارتها وتنظيمها

مع أن الواجب - متى رضينا باحتمال هذه المسؤولية على عواقتنا ، ولنا هذه السلطة - أن نطيل البحث ونعمّن النظر في طرق استخدام هذه السلطة ، وأن نسأل الخبيرين والعارفين ، ونستفيد ممن شاهدوا واختبروا ، ونستمد من معلوماتهم مانستعين به على تحرير متن سياسي وجيز يتضمن أصول ومبادئ ، علاقاتنا مع العالم الاسلامي . إن فريقاً كبيراً من العلماء النظريين والعمليين من موظفين وضباط وأساتذة ومهندسين ومزارعين ومستعمرين - قد كانوا ولا يزالون في اتصال بالمسلم ، وجعلوا أحوال معيشته وطرق أعماله موضوع بحثهم ودراستهم ، ولكن المسلمين أنفسهم قد ينبؤنا بما نجعله من يقين أخبارهم ، فهم اذا سئلوا أجابوا ، واذا أجابوا أفاضوا ، وقد كثرت الابحاث في كل موضوع حتى في الموضوعات الصريحة الواضحة ، ولم يفكر أحد في الأمر الذي نحن بصددده وهو من أكثرها غموضاً والتباساً ، فلماذا لانستعين بالوسيلة التي تفيض علينا أنوار الحقيقة ، ونطرح من هذه الانوار شعاعاً على من يريدون اتباع الصراط المستقيم ، حتى اذا ماتم التحقيق والبحث ، حررنا بما ينبعث عنهما من الحقائق رسالة تذايع على الألسنة ، وتداولها أيدي الموظفين والمستعمرين ، وتنتشر بين الطلاب في المدارس ، فتتمحي بها آثار الاضاليل والترهات الكثيرة ، وتزول العقبات القائمة ، وتقال الاقدام من العثرات ، وتكون تلك الرسالة بمثابة قانون ثابت لفرنسا الاستعمارية ، يجري على نهجها كل عامل ، فيعم نفعه ، وتجثي ثماره ، وربما كان سبباً في أن نعيش مدة نصف جيل على أساس اختبار الفرنسيين المستعمرين الذين انتشروا في عرض البلاد وطولها لارابطة بينهم ولا صلة ، يواصلون الصباح بالمساء في الندم والحسرة من عواقب هفوة هفوها ، أو زلة سقطوا فيها ، وكانت كلمة واحدة كافية لأقالتهم من عثرتهم ، واصلاح هفوتهم .

ولست أظن أحداً يرتاب في نتائج ذلك التحقيق . وانما قبل ختام هذا الفصل ، أورد بعض اعتبارات إخلالها ضرورية للوصول إلى الغاية المقصودة من أقوم طرقها : أشرت سابقاً إلى الصلة الاكيدة بين السياسة والدين في العالم الاسلامي ، والمسلمون في الاحوال الراهنة شاعرون شعوراً قوياً بايمانهم العام ، غير أن ادراكهم

مبهم من حيث الجامعة السياسية ، وما كان يسميه القديما ، بالرابطة المدنية أو الوطنية ، إذ ينحصر الوطن عندهم في الاسلام . وهم يقولون إن السلطة مستمدة من الالهية ، فلا يجوز أن يتولاها إلا من كان من عقيدتهم ، ولم تدخل في دءوسهم حتى الآن فكرة سوى هذه التي تمكنت من أفئدتهم ، وأخذت من قلوبهم أمتن مأخذ ، فكان ذلك سبباً في حدوث سوء التفاهم بين الحاكمين والمحكومين في البلاد الاسلامية الخاضعة لحكومات مسيحية

على أنه بالرغم من ذلك قد حصل انقلاب عظيم في بلد من هذه البلاد ، فصلت فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون جلبه ولا ضوضاء ، نريد به القطر التونسي الذي وضعت عليه الحماية التي مؤداها احترام النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس ، والحفاظة على مركز الباي ، وقد بالغنا في ذلك بحيث تمكنا بواسطة ما أذخناه من التعديلات الطفيفة شيئاً فشيئاً وأجريناه من المراقبة على الأمور الادارية والسياسية من التداخل في شؤون البلاد ، والقبض على أزماتها ، بدون شعور من أهلها

تم هذا الانقلاب بسرعة واين ، فلم يتألم منه الاهلون ، ولم تنخدش له احساساتهم ، إذ لبثت المساجد مغلقة في أوجه المسيحيين ، والاملاك الموقوفة محبوسة على السبل التي خصصت لها ، وتركت أزمة الاحكام بأيدي القواد والقضاة ، ولم يغير شيء من القوازين الاهلية إلا برضى وتصديق من الاهالي ، وربما كان بطلب منهم ، وقام بأعمال هذا التغير والتبديل ، وهذا النسخ والتحويل ، عدد قليل من الموظفين ، أكثرهم من التونسيين . وجملة القول أن انقلاباً عظيماً حصل بدون أن يجر وراءه ألاماً أو توجعاً أو شكوى ، بحيث وطدت الآن دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس ، وتسربت الافكار الاوربية بين السكان بدون أن يتألم منها الايمان المحمدي ، واقترنت السلطة الفرنسية بالسلطة الوطنية اقتراناً لم تغشه سحابة كدر .

إذاً يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى ، بل انقسم الجبل بينه وبين البلاد الاسلامية الاخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض ، إذاً توجد أرض

تفتت شيئاً فشيئاً من مكة ومن الماضي الاسيوي . أرض نشأت فيها نشأة جديدة
انبثت في قضائها ، وادارتها ، وعاداتها ، وأخلاقيها . أرض يصح أن تتخذ مثلاً
يقاس عليه ونموذجاً ينسج على منواله ، ألا وهي البلاد التونسية

كانت هذه البلاد ميدان التنافس والجلاد ، إذ حكمت فيها قرطاجة ، ورومية
وبيزنطية ، والعرب ، وسان لويس ، وشارلكن . فأصبحت الآن مهيبة المسالمة ،
ومعهد التصالح والوئام ، ففيها الديانتان ، بل المدينتان متلاصقتان ، بل متداخلتان ،
حتى تأكدت تقط التشابه بينهما ، وانحسرت فرجة الخلاف ، وارتفعت الاحقاد
من الصدور ، رغبة من الفريقين في التمتع بمزايا الأراضي الخصبة ، والسماء الصافية
الادبم ، التي ينزل منها على القلوب برد وسلام يلطفانها . ولعل الاطلاع العديدة
الشاهدة على ما تعاقب في الاقطار التونسية من المدينيات القديمة لم تندثر تماماً ،
ولم ينمح أثرها ، كي تهتز لاستقبالنا ، ويوصل بعضها ببعض ما تقطع من حلقات سلسلة
الدهر الماضي والزمن الغابر

إن مسجد القيروان الجامع ، شيدت عقودها على الأعمدة القديمة ، وبنيت
كنيسة الكردينال لافيغري الكاتدرائية تجاه أكمة (بيرسا) التي عبت فيها
(تانيت) وخلاصة القول أن مزيجاً من التاريخ يركب في هذه الأرض تحت رعاية
فرنسا وإنسانيتها ، ومن المحتمل أن تنبعث تلك الآثار من قبور الماضي فتعيش
في خلال الجيل الذي نطرق الآن أبوابه للرؤى في واسع رحابه

هذه ترجمة مقال هانوتو وقد نشرت في عدد من المؤيد ، والعبر
فيه كثيرة ، وقد أتى الامام أحسن الله جزاءه على أهمها كما نرى

رد الاستاذ الامام

١

قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو المترجم في جريدتكم تقلا عن جريدة
« الجورنال » الباريسية تنميا لبحثه السابق

ببحثه السابق، وشيء من تتمته، إنما هو دافق من غيرته على شؤون دولته، يريد
أن يدعو قومه إلى التبصر في وضع قاعدة لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت
ولايتهم، أو يجاورونهم في ممالكهم. وذلك لا يتم على مذهبه إلا بالبحث في
طبيعة الأمر الذي صار به المسلمون غير مسيحيين، وبه يفضل المسلمون سلطة
إسلامية، على سلطة فرنساوية. فإن أمكن تلقيح ماعليه المسلمون بالولاء الفرنساوي
وسهل الجمع بين ما وقر في نفوسهم، وبين الخضوع الأعمى لسلطان فرنسا، وطاب
الجوار في قلوب الأمة الإسلامية لعقيدة الاسلام، والطاعة لكل أمر يصدر من
آخر فرنساوي في طبقته، صح للدولة الفرنساوية أن تمن على المسلمين بالبقاء في
الأرض، والواجب عليها أن تحمل عليهم فتبيد من البسيطة، أو تجلبهم
إلى قارة أخرى

ولهذا جره البحث إلى النظر في أصول دين المسلمين، والمضاهاة بينه وبين
الدين المسيحي، بل بينه وبين أديان كثيرة أشار اليها في كلامه، ثم الحكم في
تفضيل أحد الدينين على الآخر بأثار كل منهما في نفوس معتقديه

أما غايته من البحث، وتناوله بيده محضاء يحرك به نيران العداوة في قلوب
الفرنساوين، لتثير عزائمهم إلى حرب المسلمين، وليكون مسيو هانوتو الأمة
الفرنساوية اليوم مثل ذلك الراهب الذي أثار تلك الحروب المعروفة، فذلك أمر
فكل قائده اليه وإلى علمه بمكان دولته من القوة، ومنزلة تمدنه من المرحمة
والإنسانية، ونلفت اليه ذكاء بعض شباننا من المسلمين الذين يعرفون اللغة
الفرنساوية ويتجملون بآداب الأمة الفرنساوية ويطربون اذا ذكرت المدينة الفرنساوية

ولو لم يتعرض مسيو هانوتو الى الطعن في أصل من أصول الدين، ما حركت قلبي لذكر اسمه، وكان حظي من النظر في مقاله هو العظة والاعتبار - حظ الناظر في أحوال الأمم وأعمال رجالها - حظ المؤرخ الذي يقرأ ليفهم، ويفهم ليعلم ويحكم. ولا يهيمه أخطأ القائل أو أصاب

أما ما جاء به في التحكك بأصول الدين، فهو الذي أغرزه بما أكتب اليوم. يرى الناظر في كلام مسيو هانوتو لأول وهلة أنه مقلد في التاريخ كما هو مقلد في العقائد، وأنه جمع خليطاً من الصور وحشرها إلى ذهنه. ثم هو سلط عليها قلبه ينثرها كما يشاء القدر ليدش بهامن لا يعرف الاسلام من الفرنسيين وهو جمهورم أكثر من ذكر التمدن الآري والتمدن السامي والتفريق بينهما، وأن أحدهما قهر الآخر، وأن التمدن الآري هو الذي ظفر بقرنه التمدن السامي، وما يشبه ذلك إن مهد التمدن الآري - ومنبت غراسه (الهند) - لا يزال إلى اليوم على الوثنية التي يحبها مسيو هانوتو في أغلب أبحاثه، ولكن أهله هم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا إلى أقسام لا يمكن الخلط بينها، بل يدوم تباينها مادامت الارض أرضاً، ومن طبقاتهم من قضي عليه بالانحطاط في العقل والخلق والصناعة، ولا يباح له أن يرتقي إلى طبقة مافوقه إلى اقتضاء العالم، وهو الجمهور الأغلب منهم. وفيهم من حكم عليه بالنجاسة، حتى لا يباح لأهل طبقة أخرى أن تمسه. والاعتقاد بفناء العالم، وأنه لا يليق بالإنسان أن يهتم بشؤون العيش فيه هو مبنى عقائدهم

فهل جاء هذا للآخذين بدين البراهمة من التمدن السامي، وهو لم يعرفهم إلا في آخر الزمان، ولم يخالط إلا قلوب القليل منهم، كما لا يخفى على من له إلمام بجغرافية البلاد الهندية؟

ثم هل يظن مسيو هانوتو أن التمدن الذي وصل إليه الأوربيون حمل إلى أوربا مع المهاجرين الأولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية إلى الاقطار الغربية؟ ألم يخطر بباله تلك العظائم التي انتفخ بها بطن التاريخ، وما كانت عليه أوربا الآرية من الهمجية، وأن العلم والمدينة لم ينبعا من معيها، وإنما جاءها

بمخالطة الأثم السامية، كما يعلمه المطالع على تاريخ اليونان الأقدمين، وهم أساتذة
الاوريين الآخرين، كما يزعم مسيو هانوتو

ما هذا القمدن الآري الذي كانت عليه أوربا عند ما انتقص أطرافها المسلمون؟
هل كانت تلك المدنية هي التسافك في الدماء، وإشهار الحرب بين الدين
والعلم، وبين عبادة الله والاعتراف بالعمل؟ نعم!!! هذا هو الذي كان معروفا
عند الغربيين وقت مظهر الاسلام

ماذا حل الاسلام الى أوربا، وما هي المدنية التي زحف عليهم بها فردوها؟
زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس، وسكان آسيا من الآريين، زحف
عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين، نظف جميع ذلك
ونقاها من الأدران والأوساخ التي تراكت عليه بأيدي الرؤساء في الأثم الغربية
لذلك التاريخ، وذهب به أبلج ناصعاً، يهر به أعين أولئك الغافلين المتسكمين
الذين كانوا في ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون

إني أكيل لمسيو هانوتو اجمالاً باجمال، والتفصيل لا يجمله قومه، وكثير
من منصفهم لم يستطع الا الاعتراف به

ان أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدنية الحاضرة
كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطم ضوءها من بلاد الاندلس على
ما جاورها، وعمل رجال الدين المسيحي على اطفائها مدة قرون فما استطاعوا
الى ذلك سيلاً. واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت في أرضهم بعد ماسقيت بدماء
أسلافهم المسفوكه بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوال
المدنية الحاضرة

بحار القارىء لكلام مسيو هانوتو في معنى المدنية السامية التي جاء بها
الاسلام، وتصادم بها مع المدنية الآرية

ولعل عنايته بالالفاظ التاريخية مع قصوره عن النفوذ الى حقائق ما أودعته
هو الذي قصر به عن النجاح في أعماله في السياسة الخارجية بين أمة مثل الأمة
الفرنساوية التي تنقاد بذكائها الى الأذكياء. والعارف بطباع الأثم لا يعسر عليه

أن يقودها الى ما يضمن لها الفوز على جيرانها . وأما العسر كل العسر أن يوجد فيها ذلك العارف اليوم

ان الناظر في التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الازمان ، ذلك مما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدينة الآرية ، ليقاوموا دعاة تلك المدينة السامية ويخمدوا نارها

ان صح الحكم على الأديان بما يشاهد في أحوال أهلها وقت الحكم جاز لنا أن نحكم بأن لاعلاقة بين الدين المسيحي والمدينة الحاضرة ، فإن الانجيل بين أيدينا نقرأ ونفهمه ولا يغيب عنا شيء من دقائق معناه ، يأمر الانجيل أهله بالانسلاخ عن الدنيا ، والزهادة فيها ، ويوجب عليهم اذا سلمهم السالب قيصاً أن يعطوه الرداء أيضاً ، واذا ضربهم الضارب على خدم الأيمن أن يدبروا له خدماً الايسر ، وأن يفنوا بكاييتهم في الآب ، ويقص عليهم أن دخول الجمل في سم الحياط ، أيسر من دخول الغني ملكوت السموات ، وما شابه ذلك من الوصايا الملكوتية ، التي تليق برسول إلهي رباني يدعو الناس الى الانقطاع عن هذا العالم الفاني ، ليليقوا بالانتظام في أهل ذلك العالم الباقي

هل خطر ببال مسيو هانوتو أن يجعل ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر ، كما أوصى الانجيل ؟ وهل رأى مثالا لذلك في المدينة الآرية التي تأخت مع الدين المسيحي؟ العيان يدلنا على أن شيئاً من ذلك لم يكن . فإن هذه المدينة إنما هي مدينة الملك والسلطان ، مدينة الذهب والفضة ، مدينة الفخفخة والبهرج ، مدينة الخمر والنفاق وحاكمها الأعلى هو الجنيه عند قوم والليرا (الفرنك) عند قوم آخرين ، ولا دخل للانجيل في شيء من ذلك

أوصى المسيح بأن يترك ما لقيصر لقيصر حتى لا يشغب المسيحيون على ملوكهم من غيرهم ، فاقبلت الحال بهم وأصبحوا لا يحتملون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم فضلاً عن ملوك

نعم يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الانجيل وهم جماعة من الاميركان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم وجاؤا إلى القدس الشريف ينتظرون نزول

المسيح ليستقبلوه لأول هبوطه على المنارة المشهورة ، وليكونوا أول من يقبل قدميه ويديه . وهم من طهارة القلب وسلامة النفس ونزاهتها عن الطمع بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر في الكتب المقدسة . فان كانت هذه هي المدينة الآرية التي صارها الدين الاسلامي فانما أول من يسلم لحججه ويقتنع بأدلتها

من الساميين الفينيقيون وهم أساتذة القوم في الصناعة والتجارة ، بل والقراءة والكتابة ، ومنهم الآراميون وقد كانت لهم مدينة لا تنكر أيام الرومانيين ، وما كان الغرييون لينكروا فضلهم في ذلك . ومبادئ الصناعة والعمل عند جميع الاقوام المرتقية في سلم الانسانية واحدة ، وإنما يختلف قوم عن قوم بما تحدثه في نفوسهم ضرورات المعيشة ، وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث ، وما تطبعه فيهم طبائع الاقاليم . ولا زالت الأمم يأخذ بعضها عن بعض في المدينة لافرق عندهم بين آري وسامي متى مست الحاجة إلى تناول عمل ، أو مادة ، أو ضرب من ضروب العرفان ، لدفع ضرورة من ضرورة الحياة ، أو استكمال شأن من شؤونها . وقد أخذ الغرب الآري عن الشرق السامي أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل ، عن الغرب المستقل ، فلم يبق من معنى للمدينة يريد به حضرة الكاتب إلا الدين ، وقد ظهر في كلامه أن الدين السامي يراد منه التوحيد والدين الآري يعنى به ما يقابله

وإني أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب وهي أن دين التوحيد ليس ديناً سامياً ، بل هو دين عبراني فقط عرف به ابراهيم عليه السلام وبنوه ، ومنهم عيسى من جهة أمه وأصحابه وأنصاره الأولون . أما بقية الساميين من عرب ، وفينقيين ، وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة في الكتاب المقدس وهو يعرفها فقد كانوا وثنيين مشبهين ، ولم يخالفوا في ذلك بني عمهم أو أعداءهم الآريين . وقد خاض الكاتب في تفضيل التشبيه والتجسيم على التوحيد ، وذكر لذلك عللاً وأسباباً أدته إليها سعة اطلاعه في الفلسفة وأحوال الاجتماع الانساني . وسنأتي على الكلام فيها وهي المقصد من مقالنا غداً إن شاء الله تعالى

وقبل إلقاء القلم أذكر الذين يتفانون في اجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسلم في الله على رأيه أتى إن صغرت شأن هانوتو في معارفه التاريخية فذلك لأنه صغير فيها حقيقة ، وكثير من قومه يعرف ذلك منه ، ولأنه لا أمير في العلم إلا العلم والسلام .

المقالة الثانية

في الرد على هانوتو

(وفيها تحرير الكلام في مسائل القدر والجبر عند الآريين
والساميين ، أو النصارى والمسلمين)

تمرحش مسيو هانوتو بمسئلتين من أمهات مسائل الدين — القدر والتوحيد أو التنزيه ، وبعد أن خلط في بيان وجه الاشكال في المسئلة الاولى واختلاف الناس فيها قديماً ، وأنهم انقسموا إلى فريقين قائل بأن العبد مسير بقدره الله لاعمل لارادته في فعله ، وذاهب الى أن خالقه وهبه اختياراً يتصرف به ، فله ما كسب وعليه ما اكتسب ، قال إن الرأي الاول يحط الانسان الى حضيض الضعف ، والثاني يرفعه الى ذروة القوة ، ثم وصل الاول بمذهب البوذيين القائلين بفناء الموجودات في الوجود الأزلي ، والثاني بمذاهب اليونانيين القدماء الذين يدينون بتشبيه الآلهة بالانسان في أوصافه المادية ، وأن الاول قعد باهله ، والثاني ارتفع بمعتقديه الى مراتب السمكالات الانسانية !! وهو خلط وخط لم يعهد لهما مثيل .

ثم انصب على الديانتين المسيحية والاسلامية وقال انهما تمثلان ذينك المذهبين أي مذهبي الناس في القدر . وأن الأولى ربانية تورثت ماترك الآريون ، والثانية بشرية أخذت ماترك الساميون ، وأن الأولى ترقى بالانسان إلى المقام

الالهى ، والاخرى تنزل به إلى أسفل درك حيواني ، ويظهر ميل كل من الدينين ظهوراً ييناً في الأصل الذي بني عليه كل منهما . فأصل الأول هو ايجاد الاله الاب للاله الابن حتى كان إلهاً بشراً واتصال الالهين بروح القدس . وأصل الثانية تنزيه الاله عن البشرية وتقديسه إلى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الانسان ، ثم رجع بعد هذا إلى الخلط بين الدينين وردهما إلى أصول واحدة وعقد التشابه بينهما، الى آخر ماأطال به على غير جدوى

هل عهد بين الكتاب وأهل النظر تشويش في الفكر ، وخلل في المقال ، يشبه ما جاء به هذا الكاتب ؟ أدع الحكم في ذلك لمن له أدنى إلمام بمذاهب الأئمة وآرائهم

لم يختص الكلام في القدر بجملة من الملل مشبهين أو منزهين ، ولادخل للتشبيه والتنزيه في شيء من ذلك ، بل كان منشأ الكلام في ذلك الاعتقاد باحاطة علم الله بكل شيء وشمول قدرته لكل ممكن

وقد عظم الخلاف في المسئلة بين المسيحيين أنفسهم وهم مشبهة في رأي مسيو هانوتو ، وبدأ النزاع بينهم قبل الاسلام ، واستمر الى هذه الأيام ، ولعل هانوتو اطلع على مذهب التوميين — اتباع القديس توما — أو اللومينيكيين وهم جبرية ، وأشباع (لويولا) وهم قدرية اختيارية . ولكل من المذهبين شيعة بين أهل الملة المسيحية . وليس هذا بمذهب سامي كما يزعم ، بل لم تثبت أصوله ولم تشعب فروعه إلا بين الآريين ثم انتقلت عدواه الى غيرهم

هل سمعت بيهودي استلقى على قفاه وترك العمل اتكالا على القدر ؟ هل سمعت بأحد من الفيينيقيين (وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاذيف إلى جزائر بريطانيا) أنه كان ينام ويتلذذ بالاحلام اعتماداً على مايسوقه اليه الغيب ؟ لكن سمعنا بذلك في الاديار وبين الرهبان ، وعرفنا أخبار ذلك الجيش العرمهم من للتكدين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت منهم أوربا في زمن من الأزمان ، وطلبت الخلاص منهم بالصارم البتار

وقد اشتهر مذهب أهل البخت والاتفاق بين اليونانيين ولم يخف أمره على

صغار المتعلمين لمبادئ الفلسفة - ذلك المذهب الذي يتدثون كتب الفلسفة بابطاه ، وهو مذهب اثنائين أن الاشياء توجد بالاتفاق أو بالمصادفة ، ولا يحتاج الممكن في وجوده الى سبب . أليس هذا أدخل في باب الجبرية من اسناد كل أمر الى خالق الكون ؟ وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقد الآري إلى منازل الرفعة ومكانات الشرف ؟

جاء القرآن الشريف - وهو الكتاب المنزل بالاسلام - يعيب على أهل الجبر رأيهم وينكر عليهم قولهم (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا ولا حرمنا من شيء) بقوله (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تحرّصون) وأثبت الكسب والاختيار في نحو أربع وستين آية . وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه ما يخالف ذلك فأنما جاء في تقرير السنن الالهية العامة المعروفة بنواميس الكون كما في آية (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة) الخ ونحوها

والعاقل يرى الفرق الجلي بين مسألة اختيار العبد في أفعاله وبين آثار القدرة الالهية في أخلاق الأمم ، أو في تعزيز الغرائز مثلاً . فاختيار العبد في أفعاله مما يقرر به الوجدان ، ولا ينكره إلا من جهل نفسه ، لكن ما عليه الأمم من الاختلاف في الطبائع والغرائز والسجاياء ليس لأحد من خلق الله فيه اختيار ، بل خلقه كخلق السموات والأرض وما بينهما

وجاء النبي صلى الله عليه وسلم في عمله وقوله بما يؤيد ذلك ، فكان العامل الذي لا يكل ، والدائب الذي لا يمتلئ ، والساهر الذي لا ينام ، والجاد الذي لم يلغ شأوه أحد من الأنعام ، هل نقل عنه أنه اتكأ يوماً على وسادته واكتفى بالتسليم للقدر في إتمام دعوته قائلاً : الذي كف لي النصر يكتفيني التعب ، وضمان الله لأعلاء كلمة دينه تغنيني عن النصب ؟ كلا بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة إلا نشاطاً ، ولا تجمد العصمة الالهية من نفسه إلا حرماً واحتياطاً

جاء أصحابه على أثره وتبعهم من جاء بعده من السلف الأولين ، وكانوا أكمل الناس إيماناً بأحاطة علم الله وشمول قدرته ، وأعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من

قوتي العقل والاختيار ، وكانوا أسوة في السعي ، ومثلا في الدأب والكسب ، حتى كن من آثارهم في نشر الاسلام ما يتألم منه اليوم هانوتو وأمثاله

هذه هي العقيدة السامية ، أو الدعوة المحمدية ، أو المدنية الاسلامية ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة في قاصية من الأرض لم يتلظوا بشيء من نعيم الحضرة ، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة ، حتى بلغت بهم ما بلغت ، واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل ، مبلغاً مكسبهم من التلطف بالآثم حتى وقفوا على ما كان خفياً لديها ، وكشفوا ما كان مستوراً عندها ، واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الأوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية

ولكن وأسفاه! نتأت رءوس بين المسلمين ، كأنها رءوس الشياطين ، واحتملت غشاء من قش الآريين ، وقذفت به في الأرض الطاهرة فتدنس به أديمها ، وانتشر قدره ، وعظم ضرره .

جاء الموالي من عجم الفرس والرومان^(١) ولبسوا لباس الاسلام وحملوا إليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق ، وأحدثوا في الدين بدعة الجدل في العقائد ، وخالفوا الله ورسوله في النهي عن الخوض في القدر ، وخدعوا المسلمين بهرج القول وزور الكلام ، حتى كان ما كان من تفرقهم شيعاً ، والله يقول لنبيه (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء)

وجد بين المسلمين طائفة تعرف بالجبرية ، ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يقذفها الحق ، ويطردها العقل ، وينبذها الدين ، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ولم تبق بينهم بقاء التوهميين بين النصاري . وغلب على المسلمين مذهب التوسطيين الجبر والاختيار ، وهو مذهب الجد والعمل ، وصدق الايمان ، وأخذ من المسلمين في أخريات الايام أهل النظر من النصرانية مثل « بوسويه » ومن مال ميله وتبعهم الجمهور الاعظم منهم

ولكن لا أنكر أن الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم ، وابتلاهم

بمفسد من المتصوفة من عدة قرون فبشوا فيهم أو هلمأ لانسبة بينها وبين أصول دينهم ، فلصقت بأذهانهم لا على أنها عقائد ، ولكنها وساوس قد يملك الجاهل ، وترك العاقل ، اذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح فتشأ الكسل ، بين المسلمين يفشو الجهل بأصول دينهم ، وعاون على ذلك ميل الاعلياء منهم الى توريطهم فيما هم فيه كما هو شأنهم في كل أمة

وهذا الضرب من المتصوفة أيضاً من حسنات الآريين فانه جاء نامن الفرس والهنود بما بقي فيهم من عقائدهم الأولى

ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر إلا أولئك الدروايش الحباء أو البله الذين يغشون أطراف الجزائر وتونس ، ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الاسلام ، ممن اتخذ دينه متجراً يكسب به الحطام ، وجعل من ذكر الله آلة لسلب الأموال من الطعام

أما لو رجع المسلمون الى الحقيقة من دينهم لأدوا فرضهم ، واستنبتوا أرضهم واستغزروا من الثروة ، وأعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة ، واعتمدوا في نجاح أعمالهم على معونة القدر ، وأيقنوا في صولتهم علماً أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ، ونال ما ينال القوي من الضعيف ، والعزیز من الذليل ، ولا تقلب جنونهم لدى هانوتو عقلاً ، وبحول هذيانهم حكمة وعلماً هذا ما يتعلق برأيه الضئيل في مسألة القدر عند المسلمين . أما التنزيه والتشبيه فانا نؤفيه حقه في تمة لهذا المقال ، ونشفق على القارىء اليوم من الاملال . والسلام «

المقالة الثالثة

في الرد على فانونو

(وفيها تحرير القول في التوحيد والتنزيه ، وتجسد الالهية والتشبيه)

اليوم آتي على آخر القول لكسر شرّة هانوتو في توثبه على الاسلام ، وما
فني بالكلام فيه اليوم هو التوحيد والتنزيه وخصمه التشبيه والتجسيد (الاعتقاد
بتجسد الالهية) ونبدأ بالكلام في الثاني ، ونختم بالحديث عن الاول

ان كان مسيو هانوتو قرأ شيئاً في أحوال الانم ونشأة العقائد ، وعقله يعلم
أن الوثنية وتوهم السلطان الالهي ظاهراً في بعض الموجودات المادية كانت عقيدة
الواقفين على أبواب الانسانية لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها ، وكانت ولا تزال
دليلاً على انحطاط عقول أهلها ، مع تفاوت في درجات ذلك الانحطاط ، بتتدى
من وثني أفريقية وتنتهي إلى بوذي الصين وبرهمن الهند

كلما ارتقى الانسان في العلم ، ولطف وجدانه بالفهم ، وفنذ عقله في أسرار
الكون ، تمزقت دون روحه حجب المادة ، وانجلي له الوجود الأعلى ، على تفاوت
كذلك في درجات الظهور والانجلاء ، تنتهي إلى الاعتقاد بوجود واحد واجب
يستحيل عليه أن يلبس لبس المادة على النحو الذي يظنه مسيو هانوتو وأمثاله ،
لأن ما لا حد له محال أن تحيط بوجوده الحدود

وقد كان هذا شأن اليونانيين الذين يقتخر هانوتو بمدنيتهم : نشوا وثنين ،
ولا زالت الوثنية ترق وتترث بارتقائهم في العلوم ، وبحث فلاسفتهم في طبائع
الكائنات حتى انتهوا وهم في ذرى مدنيتهم إلى التوحيد وتنزيه واجب الوجود
عن مخالطة المادة . وقف فيثاغورس على عتبة التقديس ، وجاء بعده سقراط
وأفلاطون وأرسطو مجاهدين في كشف الغمة عن عيون شعوبهم ، باذلين الوسع

في محو ما غشي نفوسهم من ظلمات الوثنية الأولى ، ومن قرأ جمهورية أفلاطون التي نقلت إلى العربية أيام المأمون تحت اسم (المدينة الفاضلة) علم كيف كان يقارع أفلاطون ما بقي من آثار الوثنية من الآراء السخيفة ، والعادات الرديئة ، التي كانت تحول بين الأمة اليونانية وما ينبغي لها من الفضائل التي كان يطعم الفيلسوف أن تكون عليها

وبعد أن أوصلهم العلم إلى التوحيد لم يرتد بهم التنزيه إلى الجهل ، بل بقيت شمس مدينتهم تشرق في العالم قرونا متعددة ، وكانت أشد صفاء وأبهر سطوعا كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيد غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات الأولى ، وألبسوا التنزيه ثوب التشبيه ، استشاراً منهم بشرف العقيدة على من دونهم

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الإدراك تقف بصاحبها عند الوسائط . وقوة العقل ، ونفوذ البصيرة ، وسعة العلم ، تصعدها كلها إلى مشهد الوجود الأعلى ، وتشرق بهم من هنالك على العالم بأسره ، فيرونه عظيمه وحقيقه سواء في النسبة إلى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالبة — الفاضل والمفضول ، والفروع والأصول ، وما ظهر للأبصار ، وما نفذت إليه العقول ، كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود على مراتب قدرتها الحكمة ، وتمت بها النعمة ، فأى مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهداً على الكون بجملة ، ما فصل منه في فهمه ، وما أجمل في كليات علمه ، يحكم عليه بأنه مربوب لرب واحد هو رب العالمين ، وأن لاسلطان لشيء من هذا جميعه على نفسه لافي الإيجاد ولا في الإمداد ، بل هو وحده يمكنه بما سن له الشرع الآلهي أن يصل بنفسه إلى تلك الحضرة ، وأن يستمد منها المعونة في كل شأنه

يتقسم أهل التشبيه إلى قسمين أحدهما من يعتقد الألوهية في بعض الموجودات المشهودة ، ويقف منها عند ما يعتقد منها . والآخر يعتقد بأن باري الكون يظهر في بعضها

أما الأولون فهم الذين ضعف الإدراك فيهم عن الإحاطة بحقائق الأكران

فاذا ظهرت عليهم آثار قوة من القوى أو سلطة حيوان من الحيوانات ظنوه المنفرد
بالقدرة عليهم ، وأنهم اليه يرجعون في جميع أمورهم ، فهؤلاء يسلطون على أنفسهم
ماشاءوا وشاء لهم الجهل من جماد وحيوان وانسان ، ولا يزالون حيارى في شؤون
حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم ، ثم هم يقيدون معبوداتهم بأنفسهم لأنها ليست
بأبعد منهم في النوع أو الجنس ، ويقدرّون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم
وشهواتهم ، يسارعون في إرضائها بما يعين لهم ، ولما تشرعه لهم أهواؤهم ، ومن
ذلك كانت ترتكب القبائح في هياكل الآلهة ، وتنهك حرمت الفضائل في
محاريبها ، وتقدس الذبائح الانسانية، بين يدي التماثيل الحجرية ، وأي درك ينحط
اليه الانسان أنزل من هذا ، وأمر ذلك معروف في التاريخ ، ولا تزال مشاهدته
إلى اليوم معروفة

وأما الآخرون فهم أرقى درجة من أولئك في الإدراك ولكن ماذا أصابهم
ويصيبهم من ذلك الاعتقاد ؟ كانوا اذا فاتهم انسان في عقل أو شجاعة ، أو صدر
منه مالا يألّفون من الاعمال ، أو ظهر بما لا يعرفون من الاحوال ، ظنوه مظهرأ
للوجود الالهي، فدأوا لسلطانه ، واستكانوا لقهره ، وأخذوا أنفسهم بالخضوع
لارادته ، فسلمهم كل ما كانوا يملكونه من عقل و ارادة وعزم ، وحق عليهم الصغار
ماداموا على تلك العقيدة

وقد سهل هذا الوم على كثير من أهل الدهاء أن ينزلوا من الناس منازل الآلهة
طمعاً في استعبادهم . وكما قاست الأمم من الرزايا التي جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة
وقرب من هؤلاء قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين وهم
المعتقدون بالوسائط . ماقدروا الله حق قدره ، فحاسبوه على الكبرياء وأهل السمو
منهم ، فظنوا أنه في ملكوته ، كلك في جبروته ، يصطفي لنفسه مدبرين من خلقه ،
ويستصنع عمالاً للتصرف في شؤون عبادته ، فاذا امتاز أحدهم بما يعتقدونه زلي
إلى الله ، أو صدر منه ما يظنونه دليلاً على أنه من المقربين اليه ، رفعوه الى تلك
المرتلة — منزلة الاصطفا، للتصرف في الكون — فآخذوه شفيحاً لديه ، يلجؤون اليه
في معات أعمالهم ، ويستجدون منه المعونة بما له من الدالة على ربه . واذا سئلوا

عما يفعلون ، وما به يدينونا ، قالوا « مانعبدكم إلا ايقربون اليه زلنى »
 ماذا أصاب هؤلاء من شر ما اعتقدوا ؟ استعبدوا للسادن والكاهن ، والزعماء
 ووارثيهم ، واستسلموا لهم في جميع شؤونهم ، فكانت علومهم من أوهامهم ،
 وافهامهم واثقة عند خيالاتهم ، ينكرون الأوليات من المعلومات ، اذا توهوا
 أنها تخالف تلك الموهومات التي تلقوها من زعمائهم . ثم كانوا يتركون وسائل
 العمل اتكالا على ما يستمدونه منهم ، ولا يزال التاريخ يشهد على ما قاسته الانسانية
 من بلايا هذه العقائد ، والعيان يؤيده في كثير من الامم في الشرق والغرب الى اليوم
 هذه مفاسد الوثنية وما جاورها لا ينكر . ما مطلع على مبادئ العلوم الصحيحة ،

بل يعرفها كثيرون من العامة الذين لم ينشؤا في جوها الفاسد
 أما زعم هاتونو أن وثنية اليونانيين كانت ترقى بالافراد في سلم الفضائل
 طمعاً في نيل مرتبة الالهية ، فهو زعم لم يقل به من المسيحيين سواء فيما أعلم . ولم
 يقل أحد من اليونانيين أنفسهم إنهم كانوا يسعون في كسب الفضائل من طريق
 التوصل إلى مقام الالهية ، ولا إن الالهية البشرية تركت فيهم آثراً صالحاً ،
 بل لم تورثهم إلا تلك الرذائل التي قام سقراط وأفلاطون لمحاربتها . وأما السعي
 إلى الفضائل فكان للتقرب لاربابها كما هو معلوم

وأما حكمه على المسيحية بأنها من ناحية الديانة اليونانية فذلك أدع الكلام فيه
 إلى المسيحيين أنفسهم . ولكني أقول إن المسيحية بذلت وسعها في بداية أمرها
 لتطهير الارض من الوثنية التي كان الناس عليها في عيدها ، وجاهدت من تلوث
 بعقائدها من اليهود والرومانين ، واثبت رجالها بين الوثنيين يدعونهم إلى الاله
 الواحد . وكان التنزيه قوام دعوتهم ، كما يعلمه المدقق في فهم كلامهم ، ولم تظهر
 آثار التشبيه فيها إلا بعد قرون من نشأتها ، وتاريخ الامبراطور قسطنطين
 معروف عند أهل التاريخ وغيرهم لاجابة إلى تفصيل ما كان منه

ثم لما امتد الغلو في التشبيه ظهرت المظالم ، وعظمت المغارم ، واختفى العلم ،
 وخسى العقل ، وتهدمت أركان النظام ، واستشرى الفساد في الأمم النصرانية
 حتى ظهر الاصلاح وقضى على ماسبقه ، واستقامت أوربا في طريقها المعروفة اليوم ،

وقد أشرنا إلى شيء من أسباب ذلك

لم نسمع أن أحداً من المسيحيين يعبد الله لينال رتبة المسيح فيكون إلهاً بشراً كما يؤخذ من عبارته . ولم نرَ آثراً لأحدٍ يدل على أنه عقل عقيدة التثليث على هذا النحو الذي ذكره . ولكنهم يصرحون بأنها عقيدة لا مجال للعقل فيها ، فلا مكنة له في أن يجتذبها ، وقد قامت طوائف منهم في أزمان مختلفة تصرح بأن فرقائين مالا يصل إليه العقل وما يناقض حكم العقل ، وذهبت إلى أن المسيح لم يكن الا نبياً مختاراً بعثه الله لخلاص البشر من سلطان الشيطان ، وحلوا الابن على المصطفى (المختار) أو الأب على الرب الرحيم * وأعرف بعض طوائف البروتستانت اليوم وان كانت قليلة العدد يذهب إلى تأويل الكلمة بالعلم وروح القدس بالحياة وقد لاقيت بعضهم في بعض أسفاري وأكد لي أن لم شيعة تدين بذلك

وهل كانت المسيحية في سالف الأزمان تجاهد من حولها من الوثنيين لتخرجهم من وثنية إلى وثنية ؟ نعوذ بالله من هذا الخبط الصادر من محب غير عالم اني أرفع أدبا من أن أظن في عقائد المسيحية في جريدة ، وقد أمرت أن أجادل بالتي هي أحسن ، ولكنني أرجع إلى الكلام في الآثار التي غني هانوتو باتخاذها دليلاً

جاء الاسلام يدعو العالم بأسره إلى التوحيد ، وصرح بأن دين التنزيه هو دين الله من لدن آدم ونوح وإبراهيم إلى موسى . ثم هو دين الانبياء بعد موسى ، ودين خاتم رسل اسرائيل عيسى عليه السلام ، ولم ينكر أن في اليهود وفي المسيحيين خصوصاً أهل تنزيه ، وذكر أن منهم من مال إلى التشبيه ودعاه إلى الرجعة إلى أصل دينه حتى يقوم بالعبادة لله وحده ، ويعتق من سلطة الرؤسا والزعماء الذين اغتصبوا عقله ، وملكوا هوامهم

هبت الوثنية واليهودية والنصرانية لمناواة الاسلام ، وكانت أكثر عدداً ، وأوفر عدداً ، وأعظم قوة ، وأشد بأساً ، فلم يكن الا قليل من الزمن ثم ظهر الحق ونفذ شعاعه إلى القلوب ، فدخل الناس فيه أفواجا من كل ملة من هذه الملل ، فاعتقت الهمم ، وافتكت العزائم من أسرها ، وأخذ كل يطلب من الكمال

ما يُعدّه له استعداد الممنوح له من واجب الوجود . وأخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من شرفات الايمان على أسرار الوجود ، ومزقوا تلك الحجب والاوهام ، واتصلوا بمنابع العلم من الفكر والنظر والدين ، ولم يكد أهل الملة يستريحون من الشغب الذي هبت ريمحه بينهم ، حتى سطعت أنوار العلم فيهم ، ولم يبق باب من أبوابه الا دخلوه ، ولا مرتقى من مراقبه الا علوه ، ولم يبق متروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان الا استخرجوه من زوايا النسيان ، وجلوا صداه وأبرزوه للأبصار

هذا أثر الاسلام وهو دين التنزيه . ولم يكد ينتهي القرن الثاني من ظهوره حتى جال المسلمون في علوم السموات والأرض ، وصححوا الأغاليط ، وتقحوا القواعد ، وحرروا الأصول . وفي مفتتح القرن الثالث أقاموا المراصد ، ومسحوا الأرض ، وآتوا في ذلك بما هو معهود لأهل العلم في ديارنا وديار موسيو هانوتو . اني أكتفي فيما يقابل هذا بقول جماعة من أهل النظر في الامم الغربية اليوم : أقامت النصرانية في الارض ستة عشر قرنا ولم تأت بفلكي واحد . وأخذ المسلمون يبحثون في هذه العلوم بعد وفاة نبيهم بيضم سنين ، ومع هذا لا يعدّ ذلك طعنا في أصول الديانة المسيحية ، وانما هو طعن في تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت له

يظن هانوتو أن الاسلام قطع الصلة بين العبد وربّه ، ولكنه وهم في ذلك ، فان الاسلام أنضى بالعبد الى ربّه ، وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاه — قضى الاسلام بأن لا يكون للكون الا قاهر واحد ، يدين له بالعبودية كل مخلوق ، وحظر على الناس مقامين لا يمكن الرقي اليها ، مقام الألوهية التي تفرد بها ، ومقام النبوة التي اختص بمنحها من شاء ثم أغلق بابها ، وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهي بين يدي الانسان ، وينالها استعدادا ، لا يحول دونها حجاب الا ما كان من تقصيره في عمله ، أو قصوره في نظره

اذا اعتقدت بقصور فضل الله عنك وقفت نفسك حيث وضعتها ، ولن تستطيع إلى التقدم سبيلا ، هكذا يرفع الاسلام الصحيح نفس صاحبه ، وهذا

هو معنى الاسلام والاستسلام الذي أخطأ في فهمه (مسيو هانوتو) فهل بقي الانسان مع هذا المعنى من الاسلام في درك من الحيوانية ، وفي هجرة عن التوسل بالاسباب إلى مسبباتها في كسب الفضائل والكمالات

يجب على الباحث في الاسلام أن يطلبه في كتابه كما يجب عليه أن يطلب آثاره والاسلام إسلام ، والمسلمون مسلمون . ولو استشتم مسيو (كيون) الذي استشهد (هانوتو) بكلامه ربح العلم ما استفرغ ذلك القدر من فيه ، ولا حاجة إلى الكلام فيه ، فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه

من أين أتى المسلمون؟ وكيف دخل عليهم في عقائدهم بالتشبيه، وفي عوائدهم بالتقوية؟ ومن تعلموا الاقتراس؟ وعن أخذوا الضراء بالشهوات؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون ، والله من ورائهم محيط:

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى سقطوا في مساقطهم، وطارحهم الأوهام حتى انجروا إلى مطارحهم، وباؤا بما كان لهم وما عليهم حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل، وحصدت العقائل، وترامت بالناس إلى حيث يُصَبُّ عليهم ما استفرغه (كيون)

أما لو رجع المسلمون إلى كتابهم ، واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم ، سلمت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله إليه في تنزيله ، وعلى لسان نبيه ، ومهد لهم سلفهم ، وخطه لهم أهل الصلاح منهم ، واستجمعت لهم القوة ، ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاد (هانوتو وكيون) من دين صحيح ، شرأ عليها مما يخشونه من دين شوهته البدع

يرى (كيون) أن يخلو وجه الأرض من الاسلام والمسلمين ، ويستحسن رأيه هانوتو لولا ما يقف في طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين، وبشما اختاراً لسياسة بلادها: أن يظهر اِضعفها ، ويعلنا خطر رأيها وضعف حلمها

أما فليعلموا وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمها أن الاسلام إن طالت به حمية، فله أوبة ، وإن صدعته النوائب فله نوبة . وقد يقول فيه المنصفون اليوم من الانكليز مثل سحق طيلر وهو قس شهير ورئيس في كنيسة:

« إنه يمتد في أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والاقدام من أنصاره »

ويأسف أشد الأسف من أن السكر والفحش والقمار انتشرت بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم . وقال « إنه يختار إسلاماً لا سكر فيه على مسيحية فيها سكر » ثم هو لا يزال ينتشر في الصين وغيره من أطراف آسيا . وسترشده الحوادث إلى طريق الرجوع الى طهارته ، وتنثي به الملمات الى ما كان عليه لأول نشأته ، وتذكر عند ذلك الأثم منه خير ماترجو ان شاء الله .

لو أسلمت الأمة الفرنسية بأسرها وفي مقدمتها مسيو هانوتو ، وكانت معاملتها لغير الفرنسيين على مانهده في الجزائر ومدغشكر هل ترجو من سكان مستعمراتها أن يميلوا اليها ، وأن لا ينتهزوا الفرص للثورة عليها ؟ كلا . فما ظنك بالمسلمين وهم يسمعون قصص هذا الرعد ، ولا يرون من المتغلبين عليهم إلا الجدد في اهلاكم ، والدأب في افنائهم .

إن العدل ورعاية الحقوق ، واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هي التي تخفف على المغلوب سلطة الغالب ، وتدنو به منه ، وتهون عليه الرضاء عنه ، ولكن هانوتو وأتباعه من سياسة الفرنسيين لا يعرفون شيئاً من هذه الأركان الثلاثة ، ولا يزالون يهرفون بما لا يعرفون ، حتى يصلوا الى ما كانوا يحسبون ، فلينتظروا انا معهم من المنتظرين اه .

(يقول جامع الكتاب) لما نشر هذا المقال انبرت جريدة الاهرام للمناقشة فيه والرد على كاتبه ، زاعمة أنه مبني على تحريف في ترجمة مقال هانوتو ولكن شهد كثيرون من العارفين بالفرنسية أن الترجمة صحيحة ، ومنهم صاحب جريدة اللواء . ولما اطلع مسيو جبرائيل هانوتو على ما كتب في الاهرام الفرنسية كتب مقالة أخرى في جريدة (الجرنال) موضوعها (الاسلام أيضاً) وترجمتها جريدة المؤيد في عددها (٣٠٦٦) الصادر في ٢٢ المحرم سنة ١٣١٨ (٢١ مايو سنة ١٩٠٠) حاول فيها الاعتذار عما رمي به من ناحية السياسة التي تغري دولته بالمسلمين ، ولم يستطع الجواب عما خطأه به الامام من المسائل الاعتقادية والتاريخية

ثم زاره صاحب الاهرام (بشارة باشا تقيلا) الذي تولى الدفاع عنه أو تخطيطه
الامام في الرد عليه فيما ذكر آنفا ودار بينهما حديث في هذا الموضوع نشره في
العدد ٦٧٨٥ من الاهرام الذي صدر في ١٦ يوليو سنة ١٩٠٠
وقد رأينا أن تنشر المقالين وتفتي عليهما برد الامام الاخير وهذا
نص مقال ثانو :

الاسلام أيضا

من المسلم أنه يتعذر علي الرد في هذه الجريدة على جميع الرسائل التي ترد
الي بشأن ما أنشره فيها من الفصول والمقالات ، ولذا أشكر جميع الذين
راسلوني شكراً جزيلاً . وأرجوهم أن يعتقدوا ويثقوا بأن ما أشاروا به عليّ
وأبأنوه لي محفوظ في مخيلتي ، ولا يبرح ذاكرتي . واتي أجد في تبادل
الأفكار على هذا المثال خير معوان وأحسن مشجع . وبالرغم مما يخالفني من
الميل الى عدم قصر البحث في نوع خاص من الموضوعات ، أرى أن لامتدوحة
لي من العود الى بعض المناقشات التي أثار عجاها الفصلان اللذان نشرتهما
حديثاً في مسألة الاسلام . والحق يقال انني أصبحت بسببها — كما يقال —
بين نارين . فالمسيحيون أمحوا عليّ بالتعنيف واللوم قائلين انني تظاهرت بالليل
للالسلام ، واتخذني المسلمون خصماً لدوداً لدينهم ، وهو ما يشبط همه الانسان
عن اتباع خطة المسألة والتوفيق لو لم يعرف من قديم الزمان أن الذين يتصدون
الى بيان الحقائق بالتصور والتعقل إنما يشبهون سندان الحداد تتلاقى فيه
ضربات المطرقتين

ويجب قبل الدخول في الموضوع أن أشير الى طريقة من الجدل كان الجهل
بلقنا — وهو في نظري أكثر تأثيراً من سوء القصد — سببا في اتباع بعض
الجرائد الاسلامية لها وسيرها على سننها . فان جريدة المؤيد التي تظهر في
مصر القاهرة قد نشرت ترجمة أو بالاحرى خلاصة فاسدة من الفصلين اللذين
(٥٥ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

كتبتهما على الاسلام . ولعل القراء يذكرون أنني أوردت فيها آراء (كيمون) التي أبداهها في كتابه (باتولوجيا الاسلام) وان ايرادي لها كان على سبيل الحكاية والنقل ، اذ اشرت الى خطر شدتها ، وابنت العواقب الضارة التي يفضي اليها الجدال السياسي في الخواطر السريعة التأثير والانفعال ، ولكيلا يختلط على الذهن شيء من اقوال كيمون التي اوردتها وضعت في آخر كل عبارة من عباراته كلمتي (انا انقل ، انا انقل) محصورتين بين قوسين دفعاً للالتباس ومنع اللشك بالرغم من هذه الاحتياطات نسبت إلي تلك الأفكار التي عمدت إلى دحضها ، وإظهار فسادها ، حتى إن أحد كبار أئمة الدين الاسلامي كلف نفسه مؤنة الاجابة في جريدة المؤيد على أفكار ليست أفكارى ، بل هي تقيض مذهبتي الى تعضيده واستحسانه في بحني . ولذلك أرى أن ذلك الامام العظيم صار في بحثه أشبه بمن يدفع باباً مفتوحاً من ذاته ، سواء قرأ ما سطرته في الاصل الفرنسي أو وقف عليه من الترجمة ، إما أنه لم يفهم مرادي ، وإما أن الترجمة كانت فاسدة ، لم تتوفر فيها شروط الأمانة ، لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأتمرون بأمره ويصيخون لأقواله على حقيقة فكري التي كشفت النقاب عنها في آخر مقالتي وكلها احترام واعتدال ، ومسألة وتوفيق ، على أن احدى الجرائد العربية التي تنشر بمصر ، ولها شهرة فائقة في جميع العالم الاسلامي ألا وهي جريدة الاهرام قد أنت بتلك الملحوظات أحسن مما استطيع ايرادها به فان محررها (المسيو تقيلا) الكاتب الشهير الذي يدير في آن واحد جريدة البيراميد الفرنسية قد اقتني أثر ملحوظات الامام فرد عليها نقطة نقطة ، ولم يبق لي بعد مناقشته التي روعيت فيها أساليب اللطف والحدق بمجال الكلام ، أو شيء كثير من القول أضمه الى قوله . على أنني أستنتج من هذا الحادث عبرة تزداد قوتها في نظري كلما تقدمت في طريق العمر ، وحبوت نحو الشيخوخة ، وهي أن منشأ المشاكل والصعوبات التي تقوم بين الناس سوء التفاهم ، والخطأ في معرفة بعضهم مقاصد بعض إذ كثيراً ما كان الغلط الناشئ من سوء تلاوة كلمة ، أو القصور عن ادراك معنى جملة ، أو فهم مغزى رأي ، أو مراعي حيلة من حيل المناظرة ،

سبباً في جرّ ما لا يحصى من المصائب ، بل سبباً في انشقاق قوم كانت تجمعهم
لحمة الاتحاد ، ورابطة الجوار ، وكانوا إلى الالتئام والاتفاق أقرب منهم
إلى الخلاف والانشقاق

ولو أمكن محوما تراكم شيئاً فشيئاً حول ما يقع بشأنه سوء التفاهم من العواقب
الضارة ، والشدائد التي لا فائدة منها ، وتيسر العود إلى النقطة الأولى التي كانت
مبدأ النزاع ، وسبب الاختلاف ، لاندھش الانسان من السهولة في تذليل
الصعاب ، وتمهيد المشاكل التي جعلت الفارق عظيماً ، ومسافة الخلاف بعيدة . ولقد
قل إن العالم ميدان يتنازع فيه بنو الانسان ، وهو قدر مقدور لولاه لتعذر على
الفهم أن يدرك كيف تكون مقدمات أمثال تلك النتائج البالغة في الرداءة والسوء
مبلغاً عظيماً تافه ، وأسبابها بسيطة إلى هذا الحد ، حتى لقد تمر على الانسان لحظات
يسائل فيها نفسه عما إذا كان في الامكان اصلاح ما اتلم من حوادث التاريخ
باجتهاد الناس في فهم بعضهم مقاصد بعض على فرض أن تبادل المودة فيما بينهم
لم يكن من الأمور المتاحة لهم

ومن الأمور التي كان لا يزال خاطري منصرفاً إليها أن المسائل المشككة ولو
كانت من أهم المسائل وأخطرها ، تتضمن في ذاتها الحل الملائم لها ، والمطابق
للانصاف والسلام . وكنت ولا زلت على اعتقاد وطيء في البحوث المتعلقة
بمصلحة من المصالح وفكرة من الأفكار بأنه متى كان الطرفان على جانب من
طهارة الذمة وحسن النية ، وجعلاً غايتها القصوي المسالمة والاتفاق ، واتخذوا
لذلك وسائل الحكمة والتدبر ، وصدق اجتهادهما في التجرد عن الأهواء ، فانهما
يصلان إلى نقطة تتفق فيها مقاصدهما ، وتتطابق رغائيهما

اعتقدت دائماً أن للسياسة على الخصوص مهمة في هذا المعنى ينحصر فيها
شرفها ، وترجع إليها كرامتها ، ليس بما تعلنه الشعوب من الشكر والاعتراف
بالجميل فقط ، بل بحسن العمل العقلي الذي يقوم به السياسيون بدون لغط ، ولا
ضوضاء في سكون قاعات أعمالهم أيضاً . وأما الاعتماد على القوة والركون إلى العنف

الذي هو أخص ما يلتجىء إليه القوي ، فهو من أخريات الوسائل وأخطرها ، وهو حيلة من لاحيلة له

ويظن الناس في الغالب أن الواجب التخلي بين الاتفاق والمجاهرة بالشقاق ، وهو خطأ بين وغلط ظاهر ، إذ بين السلم والحرب ميدان فسيح يمكن للسياسة أن تجول فيه جولتها . وكما انطبقت هذه الطريقة على السياسة تنطبق أيضاً على المناقشات الفلسفية والدينية ، إذ للأفكار والعقائد سياسة مرجعها التسامح والاحتمال ، وليس التسامح من مخترعات هذا العصر ، بل تقيضه من مخترعاته ، لأننا إذا نظرنا في أصول المشاكل البشرية الكبرى يكون اندهاشنا من التشابه بين الآراء التي تعذر التوفيق بعد فيما بينها أعظم من الانفراج المستحکم بينها . وخلاصة القول أن معيشة بني الانسان بعضهم مع بعض بسلام ميسورة لمن يريدون ذلك ويقصدونه برغبتهم ، وحسن ارادتهم

وقد حدا بي هذا البحث الى نوع آخر من الانتقاد صوبه نحوي بعض المسلمين وليس المقصود به السياسة في هذه المرة ، بل المتصود به الفلسفة والعلوم الدينية ، وقد انتهت إلي رسالتان غريبتان في هذا الباب احدهما من رجل مشهور الاسم في فرنسا وهو (احمد رضا) مدير جريدة مشورت الذي جمع ملحوظاته في رسالة سماها (التسامح الاسلامي) وقصد بها الرد على الكتاب الغريبين الذين يهتمون العالم الاسلامي بالتعصب الديني ، واستشهد في خاتمها بكلمات قالها الكردي نال لافي جري وهي : « أجاهر علانية بانني اعتبر اثاره خواطر الشعوب الاسلامية بعدم التدبر في دعوتهم الى الدين المسيحي إثماً من الآثام وضرباً من ضرور الجنون » وانه يفيض بي الكلام على الوصف الذي وصف به صاحب الرسالة تسامح المسلمين ولكنني على ثقة من أن تبادل الشكوى أو الشتم لا يحدو بنا الى الغاية السليمة التي تقصدها ، وأن الاجتهاد في فهم بعضنا مقاصد بعض أولى وأحسن من الصياح والعيول لمنع الناس من الاتفاق والوثام

ووردت إلي رسالة ثانية من أحد عظماء المسلمين وهو حضرة (احمد افندي مدحت) أكبر كتاب الترك في الوقت الحاضر ، وأني آسف شديد الأسف من

عدم إمكاني نشر مضمونها بأكمله في هذا المقام لطولها وغروض مباحثها، ولا ريب في أن القراء الفرنسيين كان يسرهم أن يتلذذوا ابتلاوة انشاء شرقي مكتوب بلغة فرنسوية صحيحة، غير أن في المباحث الدينية ولو كانت متعلقة بالاسلام شيئاً من الاكفرار والتجهم .

على أن هذا لا يمنعني عن ايراد شذرة قصيرة يبين فيها الكاتب مبدأ الدين الاسلامي وهامي ذي « فيما يتعلق بالايمان والضمير كل مسلم قس نفسه فهو لا يقدم لأحد سوى الخالق جل وعلا بدون واسطة حسابه عن أقواله وأعماله ، ولم ير النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، ولم تسمح له فرصة رأي فيها لنفسه حقاً أو سلطة مما يخوله لانفسهم رجال الاكليروس في الديانة المسيحية ، بل لم يفرقه فارق عن بقية العالمين أمام عدالة الحق سبحانه وتعالى ، وهو ما يؤخذ منه أنه لو سأل أحدهم ماهو الاسلام ؟ لاجاب المسلمون قاطبة على اختلاف مذاهبهم بأنه العمل بما قرره القرآن الشريف — فالديانة القرآنية لا تهوي بالانسان باقصاء الاله عنه في نهاية الفضاء — إذ جاء في القرآن الشريف : (ونحن أقرب اليه من جبل الوريد) . هذا الدين فرق بين الانسان من وجهتيه الادبية والمادية ، فحدد أحواله فيها بكيفية موافقة للادراك البشري »

ثم استنبط الكاتب من هذا الفرق دفاعاً عن الدين الاسلامي براه إرقى وأحسن ما يدافع عنه به ، وأخذ يعتب عليّ لكوني اختصرت البحث في المسئلة الفلسفية ، ذريعة الى قصر الكلام على المسئلة السياسية

وأنتي اعترف بأنني انصرفت أثناء سياحتي في الجزائر وتونس الى الوجهة التاريخية السياسية أكثر منها الى غيرها ، واذا كن القاريء لا يمل حديثي ، فأنني أورد هنا بالابحاز كيفية الاسباب التي حملتني على هذه السياحة ، وقصر مباحثي مؤقتاً على أعظم مشكلة قامت منذ قرون بين الديانتين المسيحية والاسلامية

لما كنت أقرر مباحثي في تاريخ (الكردينال ريشليو) وصلت إلى النقطة التي أفضت الظروف به فيها إلى اتخاذ طريقة من الطرق المختلفة التي حومت حوله ، واستلقت أنظاره . ففي أواخر عام ١٦٢٢ وأوائل عام ١٦٢٣ أي في إبان

استلامه زما. الأحكام كانت ظهرت المسئلة البروتستانية ، وسوف أورد كيفية حله لها . ولكن ما يعرفه القليل هو أنه عرض عليه الحكم في المسئلة المحمدية ، أو بعبارة أهل ذلك الوقت : في المسئلة الصليبية

وكان يوجد في فرنسا وقتئذ جم غفير من الناس يجاهرون بضرورة استئناف الحروب الدينية التي اشتهرت بها القرون الوسطى ، واسترسل في هذا الموضوع كثيرون من أخص أصحاباء (الكردينال ريشليو) الذين أخذوا بناصره في خطاه الأولى ، وواله بنصائحهم وسطوتهم . ومنهم (الدوق دي نيفير والأب جوزيف) صديق ريشليو الحميم ومشيره الخاص الذي انطوى معهم في أفكارهم قلباً وقالبا حتى لقد بدى ، في ذلك الحين بتجهيز الحرب الصليبية ، ويمكن القول بأن حزب الملكة ماري دي متديسي — الذي أجلس ريشليو على منصة الأحكام وكان يسمى بحزب الكاثوليكيين — حزب من الصليبيين

فما كان من الكردينال ريشليو الا أن قطع كل صلة مع أصدقائه ، رافضاً أن يكون آلة بأيديهم ، بل كان منه أن جذب الأب جوزيف الى ناحيته ، ثم ولى وجهه عن الاسلام فخارب — كما هو مشهور — الأسيرة النمساوية . والحق يقال أن الكردينال كان من أقل الناس تعصباً ، فانه قبل أن يأتي بما عمل به بني عمله على أسباب تأمل لها طويلا واستخبر وقارن . وأن هذه الأسباب هي التي كنت أروم الوقوف عليها لاظهارها وإيقاف غيري عليها

وقد تابعت البحث والتنقيب على هذا المثال في أسبانيا وأفريقية إلى حيث تلك البقعة التي تم بها الاقتران بين العالمين الشرقي والغربي ، أريد بها تونس ، هذا هو السبب الذي استحثني مع أسباب أخرى على النقلة الى تلك الأضواء باحثاً ومفكراً ، شاهدت فيها أطلال قرطاجنة أي أطلالها في عهد انيال واتمديس أوغستيان ، وفي عهد سان لويس وشارلكن ، فتحلى لي وأنا واقف على تلك الطول أن الارض التي كانت ميدان النزال والجلاد يمكن أن تكون أيضاً مهبط السكينة والسلام

وأما الأسباب التي حملت ريشليو على العدول عن الحروب الصليبية فلسوف

أينها في يوم ما . ولكنني بالبحث في الماضي والمشاهدة العيانية في الحاضر، قد توصلت إلى البحث عن مبادئ الاتفاق والوثام في عين المكان الذي اشتهر بأسباب الشحنة والبغضاء ، بحثت عن أصول هذه الأسباب فاشرت إلى السلم الناشئ من الحماية ، ونوهت بذكر أمر مهم وهو معيشة فريقين من الناس كان لا يظن أنهما يجتمعان في وثام واتفاق باحترام كل منهما معتقدات الآخر ، لما لاحظت هذه الامور كنت أود مداراة العواطف والاقتصار على عبارات التسامح والمسالمة والاكتفاء بالكلام على الحياة الفعلية ، ولكن يظهر أن هذا صعب المرام ، إذ الجميع لم يفهموا مرادي ، ولم يقفوا تمام الوقوف على مقصدي ، ومهما يكن من الأمر فإن من الامور المهمة قيام الأفكار في البلاد المسيحية والاسلامية قياماً اذا تحركت فيه بالحركة الطبيعية المبنية على حسن النية ، وطهارة الضمير ، كانت نتيجة التقريب والتوفيق ، لا الابعاد والتفريق

(يقول جامع الكتاب) هذا ما كتبه هانوتو وليس فيه رد شيء مما خطاه به الاستاذ الامام من المسائل الدينية والتاريخية ، ولكنه تنسم من الكلام أن الترجمة تشعر بأنه مستحسن لما نقله عن كيمن وما هو بمستحسنه وهذا صحيح . وقد كان بشارة باشا تقلاً يدافع عنه وينحي على المؤيد وعلى الامام ، ثم سافر الى باريس ولقيه ونقل عنه الحديث الآتي فنشر في العدد ٦٧٨٥ من الاهرام الصادر في ١٦ يوليو سنة ١٩٠٠ بالعنوان الآتي ونلخص مقدمة صاحب الاهرام للحديث قال :

حديث مع المسيو هانوتو

رأيت وأنا في باريس أن أقابل المسيو هانوتو واقف منه على حقيقة الاحوال بوجه عام ، وعلى الغاية التي قصدها ويقصدها من كتاباته الاخيرة عن الشرقيين والمسلمين بوجه خاص ولما كان هذا الموضوع من أهم المباحث لدينا مع رجل مثل هانوتو الكاتب البعيد الصيت والسياسي الواقف على أحوال أوروبا والشرق وكنا نعتقد كما قالت الاهرام مراراً وتكراراً أن تقدم الشرق يكون بتقدم الامة الاسلامية توخيت أن أنشر أقواله وآراءه فاستأذنته بذلك فأذن لي . قال :

أنتم تعرفون من تاريخ أوروبا ان أممها ما تقدمت علماً ومدنية واختراعاً إلا يوم تقيدت السلطة المدنية وعرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة وأنالم أكتب إلا إلى أبناء وطني الفرنسيين ولم أستشهد بكيمن وهو يوناني الجنس إلا لأفند أقواله التي لم ينفرد بها فان كثيرين من الكتاب الالمانيين والفرنسيين والانكليز وغيرهم حذوا حذوه وقالوا قوله ، وخلاصة كتاباتهم ان تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد ، لأن الاسلام معتقدم بحول دون ذلك ، وحجة هؤلاء ، واحدة وهي : انه كلما تقدمت أوروبا تأخر الشرق ، لأن الواقف يتأخر بقدر ما يسير الماثي ، وان كل حكومة انفصلت عن الشرق سارت على منهاج أوروبا علماً ومدنية فنجحت مع ان العثمانية وأفغانستان ومراكش والعجم لانزال على ما كانت عليه في السنين الغابرة ، وأنا ذكرت من هؤلاء الكتاب كيمن وحده ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ، ولأفند مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رأيه ، لا اعتقادي ان الاسلام لا يحول دون الاصلاح والمدنية ، واستشهدت على صحة معتقدي هذا بتونس فذكرتها مثلاً لأؤيد به أقوالي وسياسي . هذه هي روح كتابتي السابقة ، وانها ستكون روح اللاحقة

والذي دعاني إلى ذلك ما كان من هؤلاء الكتاب الذين لا يخرج مغزى كتاباتهم عن اعادة الكرات النصليية كما كان في الأعصر الحالية ، وما دفعهم في

الأيام الأخيرة إلى ذلك إلا الحوادث الأرمنية وغيرها ، ولما كنت قدوقفت نفسي لدرس حياة ريشليه السياسي الشهير ، وسرت في أكثر أعماله وكتاباته على منهاجه ، وعرفت ان هذا الرجل مع انه كاثوليكي وكردينال من أعمدة الكنيسة الرومانية رفض على عهد وزارته تلك السياسة العوجاء - سياسة الصليبيين - وحال دونها بدهائه المعروف ، مع انه كان قابض على سياسة فرنسا وأوروبا معا ، فإذا كان هذا السياسي الكاثوليكي قد امتنع عن تأييد سياسة أقرب المقرين اليه في تلك الأعصر أي السياسة الصليبية فهل مثل هذه السياسة يجوز اليوم انفاذها ؟ لا لعمري فلهذا عارضت بالأمر ولهذا أعارض اليوم ، ولحسن الحظ إن الرأي العام إذا قال بوجوب مساعدة الضعيف ضد الظالم فهو لا يريد حربا تشب نارها اعتداء ، ولا سيما الحرب الدينية فهي عدوة المدنية بل هي أفظع الأعمال

على ان معارضي لا أمثال هؤلاء الكتاب أي تقضي لأقوالهم لا يمنعني عن أن أقول لكم الحقيقة لأنه يستحيل علي أن أقول ان شرقكم سائر على منهاج حكومات أوروبا في العدل والحرية وال المدنية كما انه يستحيل علي أن أقول ان في حالتكم الحاضرة ضمانا لمستقبلكم السياسي ، فاعلم ان أوروبا حاربت السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون لاعن عدم اعتقاد بل لتفصلها عن السلطة المدنية فان المتحارين كانوا من معتقد واحد ولكن أراد أفراد أممها أولا ولغيف شعوبها ثانيا ان تكون الكلمة الأولى للسلطة المدنية في أحوال الحكومات وشؤون الشعب وان يكون للمعتقد حق الادبيات الدينية بأن يعطي ما تقصر تقصر ومالله لله

واعلم ان الذي أيد هذه السياسة أيضا في بلادنا فرنسا هو أعظم تلامذة رومة وأحد أقطاب الكنيسة الكاثوليكية أي الكردينال ريشليه فهو الذي قال بفصل السلطين ولم تنسه واجباته الكنيسة الدينية معرفة الحقيقة وهو بهذه السياسة خدم السلطين أشرف خدمة ، إذ أيد السلام بينهما فتأيدت سطوة الحكومات ، وتقدمت شعوب أوروبا قدما عجيبا ، واعتزت السلطة الدينية أيضا ، وعاشت السلطان بوفاق وسلام

وهذا ما أريد تأييده نحن الفرنسيين في مستعمراتنا بأن يكون الأمر المطلق

للسلطة الحاكمة مع احترام عقائد الشعوب الذين تحت حكمنا وسلطتنا وهو ما سرنا عليه في الجزائر وتونس وغيرها من المستعمرات الفرنسية واني لا أكلّمك كمسيحي بل كمؤرخ أو كاتب حر الضمير لا شأن لغيره في معتقده الخاص ، ولكنني أحترم أديبات كل دين ومعتقد ، وأقدر تلك الأديبات قدرها ، ولكن الماديات غير الأديبات ، والأولى من شؤون عالمنا هذا الذي نعيش فيه ونحيا به ، وكل أمة لم تتقدم في مادياتها لا بد أن تموت إذ لا حياة بلا مادة ، واللهم أنتم الشرقيين الله أوروبا والله أميركا إذ أن الله الجميع واحد ، ولا يمكن أن يكون أكثر إعطافاً على الأوروبي منه على الأميركي ، فالشرقي بل أن الشرقيين عموماً أكثر تمسكاً بعقائدهم من الغربيين ، وقد علمنا أن أوروبا فاقت شرقكم بمراحل ، ونرى اليوم أميركا تراحم أوروبا وكثيراً ما فاقتها في اختراعاتها وفنونها ولم يكن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى أميل إلى الأميركي منه إلى الأوروبي أو الشرقي ، ولكن لأن الأخير مستميت والأول حي ، هذا يشتغل مجتهداً وكلما زادت أرباحه زاد نشاطاً وإقداماً ، وذاك يقضي حياته بين القنوط واليأس مستسلماً ، ولهذا تقدم الأوروبي وتأخر الشرقي ، وضيق أوروبا بأهلها دفعها إلى الاستعمار في كل صوب ، فصادف أبنائها أرضاً واسعة ، وشعوباً لا حراك بها ، فقبضوا على الأعمال السياسية والاقتصادية فيها

وهنا استمحت حضرة المسيو هانوتو وقلت له : إذا كنت تحب مصلحة المسلمين وتعتقد أنهم راضون في تونس فهل تعتقد ذلك في أهل الجزائر ؟ ولماذا لانسأل الحكومة الفرنسية ان ترى في احوال هؤلاء .

قال : أما التونسيون فلا خلاف في أنهم مسرورون بحالتهم ^(١) ونحن قد دخلنا بلادهم وهي قاع صفصف مرق شملها أفراد حكموها ، وأما نحن فقد تركنا للسكان حقوقهم المذهبية ، فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم وأحوالهم الشخصية ، ولم نسألم إلا أمراً واحداً أي احترام سلطتنا السياسية ، فأدركوا هذه الحقيقة وعملوا بها ، ولهذا كان النجاح عظيماً في مدة قريبة ، وأنت تعلم أن مذهبي في الاستعمار وضع

الحماية كـهو في تونس ، لأضم المستعمرة إلى فرنسا كما فعلنا في مدغشكر بالرغم عن معارضي ذلك ، وقد رضيت به منقاداً لأوامر أكثرية دار الندوة ، ولا أنكر أنه يجب تعديل بعض قوانين الجزائر ، وقد شرعنا في ذلك ، وسأكتب كثيراً في هذا الموضوع لأنني ذهبت بنفسني إلى تلك البلاد ودرست أحوالها ، وأمل أن لا يمضي طويل زمن حتى ترى ذلك الإصلاح الذي طلبه غيري قبلي ، وشرعت حكومتنا في انفاذه^(١)

قلت إني أعرف مأسرته لي عن تاريخ السلطين الدينية والسياسية في أوروبا وعن أحوال شعوب البلادين ولكن ذلك مستحيل في الشرق ولا سيما في الحكومات الاسلامية والذين يقولون به من الأجانب ليسوا إلا خصوماً للمسلمين لا اعتقاد هؤلاء أن في فصل السلطين ضعفاً ترومه أوروبا لتنال بغيثها منهم قال هانوتو : أنا لأسأل الشرق ذلك فهو حر يفعل ما يشاء ولكن اعتقدان أوروبا لم تتقدم إلا بعد تعيين حقوق السلطن وجعل الكلمة الأولى للسلطة الحاكمة كما اني أعتقد أن جمع السلطين في شخص واحد لم يمنع ان تخسروا في الحروب الماضية ، واعتقد أيضاً أن صاحب السلطين ولا سيما في بلاد كالشرق يستطيع أن يجري اصلاحات لا يقدر غيره عليها ويعلم المسلمون ان جمع السلطين في شخص واحد لم يمنع فرنسا من الاستيلاء على الجزائر وتونس ، واذككنا من التهام الهند ، وروسيا من أخذ خيوه وغيرها إلى حدود أفغانستان ، كما انه لم يمنع استقلال مراكش وبلاد فارس والمملكتان اسلاميتان ، فاذا كان يستحيل توحيد حكومة اسلامية توحيداً سياسياً يستحيل أيضاً توحيد سلطتها الدينية ، وابن مراكش لا يعرف غير سلطانها خليفة له

واذا كان الاسلام كما قلتم ويقول كتابكم (وأود أن اعتقد أنا مثلكم أيضاً) انه لا يحول دور التقدم العصري ، فما بالكم متأخرين ونحن متقدمون ؟ وبماذا تردون على اولئك الكتاب الذين لا يعتقدون اعتقادي واعتقادكم ؟ فاذا قلتم كما يقول اخوانكم ان أوروبا تحول دون تلك الإصلاحات ، أجاوبكم ان أكثر الدول

كانت دائما معكم الى سنة السبعين وبعدها ، فلم تأخرتم واليابان لم تشتغل الا ربع قرن حتى وصلت الى ما وصلت اليه اليوم ، فأصبحت أوروبا تقدرها قدرها في جميع مسائل الشرق الأقصى ؟

واذا قال لكم اولئك الكتاب اننا مقتنعون بأن أوروبا وشعوب تركيا حلت دون اصلاح الولايات الواقعة في أوروبا والقرية من أوروبا كسورية مثلا ، سألتكم هل مسلو بغداد وما بين النهرين وحلب راضون عن أحوالهم ؟ أياظن رجالكم وكتابكم اننا نحن وكتابنا جاهلون أحوالهم هنالك حيث لا أوربي ولا غيره يحول دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين ؟

وأنا أعرف ان أمثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها ولكن قد حان لكم أن لا يعميكم غرضكم عن الحقيقة ولو انها خارجة من فم أجنبي ما دام كتابكم ليس فقط لا يقولونها بل يكذبونها ، كأني بهم يساعدون الظالمين من حكامكم على ما يأتونه من المغارم والمظالم ، فكان ذنبهم نحو وظنهم أعظم من ذنب الحكام الظالمين

واني أقول لك هذا بعد الذي قرأته في جرائدكم ردا على ما كتبته فقد عدوني خصما لهم ونسوا خدماتي لهم وانا في منصة الوزارة الخارجية في أيام المسألة الأرمنية ، فاذا كان هذا رأيهم في صديق خدمهم فماذا يكون حكمهم على خصم جهر بعداوتهم ؟ ولكن فليعلم هؤلاء انه اذا حدثت امثال تلك الحوادث في المستقبل فيستحيل على وزير أوربي ان يرتئي مثل تلك السياسة ، ولا أقول هذا من باب العدا بل لما نراه من تعديل أوروبا على وجه عام مبادي سياستها الخارجية مع الشعوب المشرقية ، فان الدول ستكون واحدة في المستقبل كما ترى الآن في مسألة الصين

فقلت للمسيو هانوتو : وما شأنكم والشرق وأمه ؟ فكلاهما راض عن حاله ومفضل اياها على كل سلطة اجنبية او اوروبية ، والذي ينفر الشرقي هو ظلم أوروبا في سياستها هذه ، وعتبنا على فرنسا اكثر من غيرها لأنها عودتنا حماية الضعيف من القوي

فقال الوزير بعبارة صريحة : ان هذه الأقوال خيالية لا تنطبق على حالة أوروبا في هذا الزمان فهي بعد ان كانت لاتهتم بغير قادتها قد اندفعت الى الاستعمار ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها ، واعلم ان فرنسا مضطرة مادامت لاتقدر على منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعماري والتجاري الى الاقتداء بالدول المذكورة ، واني ارى كتابكم وافراد امتكم يجهرون في غالب الأحيان بأفكار صيبانية فيستعبدون للألماني لنكايه الانكليزي ، وينتصرون للفرنسوي على الألماني، ولكن أما حان لهم أن يعلموا أن الأوربيين مهما اختلفت اجناسهم ومذاهبهم سهل اتفاقهم على الشرقيين ، لأن هؤلاء لا يعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هذه الدولة أو أغراض تلك الأمة لاصلاح شؤونهم ، بل لمعارضة دولة ثانية ، وهي سياسة قديمة العهد لاتعتقد بها أوروبا اليوم ، وأنت تعلم ان ألمانيا اكثر الدول في أوروبا استقراراً وأبعدها استعماراً هي التي اقترحت تحديد مناطق النفوذ في الصين وهي التي سألت امتياز انشاء سكة حديد بغداد مما يدل على ان أوروبا لاتسعى الا الى مصلحتها السياسية وما سوى ذلك فضلة عندها او صعب على طبعها

ثم قال لي : انت تقول إن الساسة المسلمين لا يعتقدون باخلاص سياسة أوروبا كلها او بعضها ، ولهذا يخافون من مصافاة هذه الدولة خوفاً من معاداة تلك لاسيما وان اكثر الدول طامعات في املاكهم ، وحضرتك اكدت ذلك في كلامك الآن عن سياسة أوروبا

والمسلمون يعتقدون أيضاً ان مصلحة أوروبا المسيحية تحالف مصالحهم الاسلامية ولذلك لا يأمنون على أنفسهم من سياسة الدول المسيحية وقد أدى بهم فقدان هذه الثقة الى أن لا يأتئوا مسيحياً عثمانياً ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم ، وهم يؤيدون سياستهم هذه لما رأوه من تداخل أوروبا في أعمالهم ومن افعال الموظفين غير المسلمين في المناصب السياسية العثمانية سواء في بلاد الدولة او في سفاراتها ، وانت تقول لي ان في ذلك بعض المغالاة ولكنهم يعذرون

فهذا الذي تقوله لي اليوم قد سمعته منك من قبل وقاله لي بعض العثمانيين في الآستانة وباريس ، ولكن تفنيذه امر سهل واليك البرهان : لا يسعك والساسة

المسلمين ان تذكروا ان بعض دول اوربا قد اتفقت مع الدولة العثمانية على دول ثانية مسيحية في اوربا فان هذا حصل قولاً وفعلاً في حرب القريم فحن وانكثرا لم نبخل بالمال والرجال لمساعدة دولتكم العثمانية ، ونحن وروسيا والمانيا منعنا بعض دول اوربا عن نيل أغراضها في المسألة اليونانية ، وهذه الدول الثلاث خدمن سلطتكم أجل خدمة في المسألة الأرمنية بالرغم عن هياج الرأي العام الأوربي وتصريح بعض الدول بمعارضتكم وتلك أمور حديثة العهد يعرفها رجالكم كما تعرفها نحن وإذا راجعنا حوادث التاريخ القديمة تبين لنا أيضاً أن فرنسا وبلونيا وغيرهما حالفت العثمانية ضد دول ثانية مسيحية مما يدل على أن ضالة أوربا مصلحتها الاقتصادية فالسياسية ، ولا دخل للاعتقاد البتة في أعمالها ، وأعمرك هل منع المانيا كونها مسيحية أن تحارب أوستريا وفرنسا المسيحية . أولم تحارب ايطاليا أوستريا وهل منع فرنسا مذهبها الكاثوليكي من أن تحالف روسيا ومذهبها أرثوذكسي ؟ وهكذا قل عن التحالف الثلاثي بين البرتستنتي الألماني ، والكاثوليكي النمساوي والاطالي ، وهذه الترسفال دينها كدين انكثرا ، وأهلها من أقرب العناصر الى الجنس السكوني ، وقد حاربها الانكايوز وغرضهم سلب استقلالها ، كل هذه شواهد قديمة العهد وحديثة ، تفند زعم حضرتك ومزاعم ساسة الشرق ، وإذا وجب أن يلوم المسلمون سياسياً مسيحياً بخدمهم ، فكم يجب أن يلوم ساستهم العديدين . أفى مراکش مسيحي موظف ؟ وهل غير المسلمين قابضون على سياسة العجم ؟ ومتى كانت سياسة الدولة العلية الخارجية في غير أيدي المسلمين (*) ؟ فإذا كان ذلك السفير غير أهل لمنصبه ، أو أن رأيه مضر ببلاده ، فلماذا أبقى عليه وزير خارجيتكم أو الصدر الأعظم ؟ وهل قام ولا تكم وجميعهم مسلمون بما تتطلبه حقوق الامة ومصلحة الوطن ؟ نعم لأنكر أن تداخل أوربا أو بعضها نفركم ، ولكن بعض الحوادث التي حدثت في جهات عديدة من بلاد الشرق هي التي كانت سبب ذلك التداخل

(*) الجواب في كل زمن ولا يزال أكثر سفرائها وقناصلها وموظفو نظارة الخارجية من المسيحيين اه من حواشي الطبعة الاولى

واني أتساهل معك وأقول إن بعض دول أوروبا يريد لكم سوءاً ، وإن هذا ولد فيكم عدم الثقة بنا نحن الاوربيين ، ولكن اذا كان قد استحال على دول الشرق وهي في أوج مجدها ، وشامخ عزها ، أن تتحد وتوحد كلمتها ، فهل يسهل ذلك عليها اليوم ؟ واذا كان المسلمون يعدون سياسة أوروبا عداء لمصلحة الاسلام لان أوروبا مسيحية « وهو زعم باطل » فبلا كان ماينادون به من وجوب الاتحاد الاسلامي وجمع كلمة المسلمين مما يخيف أوروبا ويمنعها عن انفاذ مايتهمها به المسلمون وكيف يمكن ذلك الاتحاد المزعوم ؟ أترضى به أوستريا ولها البوسنة والهرسك وهي طامعة في غيرها ؟ أم تقبل به فرنسا مع أملاكها الافريقية الواسعة ، أم تؤيده انكلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم ؟ أم تعضده روسيا ؟ أليس ذلك خرقا في الرأي من الذين ينادون بهذه السياسة ؟ كأنني بهم هم الذين يريدون انفاذ مايطلبه كيمنون وغيره من كتبة أوروبا ، وقد كان أولى لمثل أولئك الكتاب أن يكتبوا كتابات أدبية بلغات الكتبة الأوربيين لتفنيد أقوالهم ، ولاستماله الرأي العام الاوروبي اليهم

أما ما كان يجب عمله على رجالكم سواء الذين عر كتهم حوادث السنين الغابرة ، أو الذين درسوا في أوروبا وتعلموا بعض علومها ، ووقفوا على قليل من مبادئها وسياستها ، — فهو أن يهتموا بنشر العلوم العصرية في بلادهم ، وأن يعملوا في الخارج على إزالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب بأن يتخذوا إقدام أوروبا واجتهاد أبنائها مثالا يسيرون عليه ، وأنموذجا يعملون بموجبه ، أي كما فعل اليابانيون في السنين الأخيرة . وأنت تعلم أن الذي نبه اليابان هو خوفها من أوروبا وهي لم تتمتع عن ضعفها باحتقار الاوربي وذمه والمباهاة بمجد الآباء ، ولم يقل ياباني بتحقير الأجنبي لأنه عنصر غريب ، أو لأنه مسيحي ودينه بعيد بمراحل عن دين أهل اليابان ، بل قال رجال هذه المملكة بوجوب محاربة أوروبا ، ولكن بسلاح أوروبا ، أي بأن تتشبه بها في العلم والمدنية والاقدام ، ولهذا فازت في مطالبها وحالت دون فتوحات الاوربي الاقتصادية أولا ، فالسياسة ثانياً ، ولو أتى رجال الشرق القريب هذا المأني منذ حرب القرم لما شكوا مسلم من أوروبا ، ولما شكوا كاتب أوربي من حال الشرق وأهله ، بل لو فعلوا وحدث انقلاب عظيم في السياسة

الاورية سواء في اوربا او في الشرقين الاقصى والا قرب لكان دون شك حظ دولكم العثمانية اضعاف حظوظ اعظم دولة اورية

وأراني في هذا الشرح قد بلغت ما قصدته من تنفيذ ما يزعمه رجالكم الذين اذا رجعوا الى نفوسهم عرفوا هذه الحقائق كما نعرفها نحن ، وقد كان يجب عليهم أن يجهروا بها خدمة لأنهم ولوطنهم ، لأن يتجاهلوها ويكذبوها

وتقول لي إن النهضة العلمية بدأت في مصر ، وإن بعض الافراد انشأوا المدارس ، وإن الجناب السلطاني قد اهتم كثيراً بتوسيع نطاق المعارف في البلاد العثمانية ، وأن أصحاب النشأة الجديدة ادركوا قصور الحكم وتأخر البلاد فقاموا يجهرون بوجوب الاصلاح وتعميم العدالة ، والأمل وطيد بالنجاح ، ولكن الطفرة محال . وهذا أمر يسرني ويشرح صدري لأنني أرغب رغبة خالصة في نجاح شرقكم ، ولكن يجب أن تعلم أن العبرة ليست فقط في إقامة المدرسة ، بل في وضع البر و غرامات المدرسية ، كما أن العلم وحده لا يكفي ، وقد يضر اذا لم يمزج بالتهذيب ، فاني لأجهل أن كثيرين من أبناء الشرق درسوا في أوربا ، وقدير به عدم على عدد اليابانيين الذين درسوا في أوربا أيضاً ، ولكننا رأينا في اليابان نتيجة لم نرها حتى الآن عندكم ، ولعلنا نراها يوماً ما لأنني أعتقد أن رجال النشأة الجديدة ينجحون نجاحاً كاملاً اذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن كل غاية شخصية أو مذهبية ، لأن الوطن الواحد قد يجمع أكثر من عنصر ومعتقد ، ولكن الاعتماد وحده لا يجمع إلا عنصراً واحداً ، وأنت تعلم أن الفرنسي يشمل الكاثوليكي والبروتستنتي والمسلم واليهودي والوثني وغيرهم من سائر رعايا فرنسا ، ولكن الكاثوليكي الفرنسي ، والفرنسوي الكاثوليكي ، أو الكاثوليكي أو المسيحي لا يشمل كل فرنسوي

لهذا كانت السلطة المدنية أهم وأشد من الرابطة الدينية ، وهي التي كانت قاعدة أوربا الاولى في سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت . والى هنا قد أجبتك على جميع ما أردت أن تعرفه مني عن رأيي في الشرق

هذا آخر ما نقله مدير الاهرام عن هاوتو ويليه رد الاستاذ الامام عليه وهو

المقالة الرابعة

هانوتو والاسلام (*)

(وفيها بيان عناصر القوى في أوربة وهو سبعة)

ألفت إليّ المصادفة نسختين من إحدى الجرائد المشهورة في القطر المصري جاء بها حديث بين صاحب الجريدة ومسيو هانوتو صاحب الفصول المعروفة في الاسلام ولم أشك في أن كثيراً مما جاء في هذا الحديث صادر عن رأي مسيو هانوتو ، لأنه لا يصدر الا عن عارف مثله بأحوال أوربا ، وكثير من أحوال المشرق . ولهذا رأيت أن حرمانه من حظ النظر فيه ، وتركه يمر بلا مناقشة معه في بعض ما تضمنه ، يعد ظلماً له وجوراً عليه ، خصوصاً ونسبة القول اليه مما يدع في أذهان الناس آثراً لا يحسن السكوت عنه

وقد جاء في كلامه ما يدل على أنه قد أصيب بشيء من سوء الفهم في أحوال المسلمين وما انبعثت اليه نفوسهم اليوم ، وسوء الفهم منشأ الشقاق والخصام بين أهل المقصد الواحد كما ذكره حضرته في مقال له سابق . فلا يليق بذي غيرة على الحق ، أن لا يوفيه من الاعتبار ما يستحق ، وأرجو أن يترجم ما كتبه في جريدة المؤيد الفرنسية ، وأن يرسل الى مسيو هانوتو ليقف على ما غاب عنه من مقاصدنا وأفكارنا

إن كان المسلمون اليوم ينتفعون بشيء ، ويعتبرون بمثال ، لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بما جاء في كلام مسيو هانوتو ، فقد أرشدهم الى عيوب فيهم لا يسعهم إنكارها ، وهداهم الى مقاصد لطلاب الاستعمار في ديارهم قد شهدوا بالبيان آثارها ، وصرح لهم بأن الاعتماد على العدالة في معاملة الدول ضرب من الخيال ،

(١) نشرت في العدد ٣١٢٠ من جريدة المؤيد المؤرخ في ٢٨ ربيع الاول

سنة ١٣١٨

وعقدالآمال بانصاف الامم تلمس المحال ، وما على المهتم بحماية ذماره ، وطالب
الطهر من عاره ، الا أن يدركهم ويعمل عملهم ، ايلبغ من الحول حولهم ، فيفوقهم
في القوة أو يكون مثلهم ، فيتعاوض في المنافع معهم معارضة المالك مع المالك ؛
لا أن يتسلى بالأعالي ، ويلهو بالأضاليل ، ويقنع بالأأماني ، ويكتفي من العمل
بالصوت الجمهوري واللفظ المطالي ، وهو من روح قائله خلي ، حتى اذا دهموه
وهر في غفلته ، وأخذوه في نومه او يقظته ، بسط يده يلتمس الرحمة منهم ،
ويرقب أن يفيض عليه سيب العدل عنهم ، فهذا عمل الجاهل الأحمق ، وهو
بالذلة والاستعباد أحق

وهي نصيحة يجب على المسلم قبولها من أجنبي منه ، وكان يجب عليه من
قبل أن يقبلها من أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فقد قال لخالد بن الوليد حين
أرسله لحرب اليمامة « حاربهم بمثل ما يحاربونك به ، السيف بالسيف والرمح بالرمح »
ولا يخفى أن كل نزاع فهو حرب ، وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهي
جلاد ، وكل عمل يأتيه أحد المتنافسين للظفر بمنافسة فهو جهاد ، وكل وسيلة
تظفره بطلبته فهي سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهو كفاح ، وكل منفعة
حفظها أو استخلصها منه فهي غنية ، وكل انخزال عن حق أو تقويت لمصلحة فهو هزيمة .
فالظافر في ميدان المنافسة من كان رأيه أسد ، وقوته أشد ، وسلاحه أحد .
فان قربت القوتان من التكافؤ أمكن بمصالح المتنافسين أن تتفق ، وسهل على
كل منهما أن يرتفق ، وإلا استحال الاتفاق ، واستبدت القوي بالارتفاق ، بل
صعب على الضعيف أن ينال حق البقاء ، سنة الله في عالم الأحياء .

وقد فصل مسيو هانوتو ما أجمله بعض أساتذتنا في قوله (العدل تكافؤ القوى)
صرح مسيو هانوتو بأن أوربا بعد أن كانت لا تشغل إلا بما يجري فيها
اندفعت الى الاستعمار ، ولا يردها عنه الا قوة الأمم التي تريد الاستعمار فيها .
وضرب المثل باليابان فانها بما ارتقت في المدنية ، وما أصلحت من شؤونها
الداخلية ، وما أعدت لوقاية ممالكها ، وحماية مسالكها ، قد أذنت أوربا بقوتها
وحملتها على الاقرار بمكانتها ، فحمت بلادها ومصالحها من صولاتها ، وأمكنها

برهان القوة أن تؤلف بين منافعها ومنافع الاوربيين ، وهو قول حق ، وكان على المسلم أن يعرفه من قرون ، وله في كتابه المنزل خير هاد وأرشد مرشد ، وكان يكفيه منه آية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) فقد دعت الآية الكريمة إلى الاعداد ، وطالبته ان يبلغ منه حد المستطاع ، ولا حد لما تستطيعه امة إذا صرفت قواها العقلية والجسدية فيما هيئت له . واطلقت له القوة ، وهي كل ما يقوى به على خصم ، ويقتدر به على حماية نفسه وحوزته من اعتداء معتد ، أو يستطيع به استخلاص حق من يد مقتصب ، وخير القوى ما حفظ به الحق ، وعظمت به المنفعة ، ووقف لهيبته كل المتنافسين عند حدة ، حتى يستقر السلام بينهم ، وتشمل الطمأنينة شؤونهم

وقد تألفت قوى الأمم الأوربية من عناصر ، هي العلم والأدب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح . وذكرت الدين في جملة عناصر القوة ، لأن مسيو هانوتو لا ينكر أن أوربا تعتمد على الدين في سياسة الاستعمار ، وأن المرسلين والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها في اعداد الشعوب الى قبول سلطانها عند منوح الفرص لسوقه اليها ، وتهيئة نفوس الأمم لاحتمال ما ينتقض به ذلك السلطان متى أظلم ، وفي فتح المغالق التي لا يستطيع السلاح وحده أن يفتحها ، وتمهيد السبل التي لا يمكن لساعد الجندي وحده أن يمهدا . وهو من الأمور المسئلة التي لا يجادل فيها عارف مثل هانوتو ، فلا حاجة للاطالة في بيانه ، غير اني أذكر قصة كنت شاهديها لأبأس بذكرها في هذا المقام

تعلم أحد أبناء جبل لبنان من بلاد سوريا في بعض مدارس الجمعيات الدينية الفرنسية في تلك البلاد ، وأخذ عن أساتذته كثيراً من آدابهم ، وطالع عدداً من مؤلفات كتابهم ، وامتلاً قلبه بحب فرنسا ، واستقر في ذهنه أنها منبع نور العلم والحرية ، وأنها محررة العالم أجمع من رق الاستبداد . ثم انتقل لكتب بعض الفلاسفة الفرنسيين ، ومؤلفات بعض السياسيين ، فعظم عنده الاعتقاد بأن هذه الأمة الجليلة إنما يهيمها في سياستها أن تنشر المعارف في العالم لتهديب العقول ، وتكامل النفوس ، وتربيتها على أصول العقل وحرية الفكر . ورأي أن من

الزاني عند الحكومة الفرنسية أن يذهب الى باريس ويسألها المعونة على انشاء مدارس في جبل لبنان يبنى التعليم فيها على تلك الاصول السابقة ، فذهب الى باريس سنة ١٨٨٤ ، واتصل بأحد اذكاء السوريين الذين طاب لهم المقام في البلاد الفرنسية ، وطلب منه ان يكون وسيله في نيل مايرغبه من معونة الحكومة ، فسي الذي سمعه . ثم عاد الى صاحبه وقال له : إن ما تخيلته ضرب من الوسواس . وإن الحكومة الفرنسية وإن كانت تطرد الجزويت من بلادها وتنازع الكنيسة في سلطتها ، لكن سياستها في الخارج دينية محضة . ويمكن أن تعرف ذلك من حمايتها للجزويت ، وإعانتها لهم بالمال والقوة في بلادك

فان كنت تريد إنشاء مدارس دينية في بلاد لبنان كان أملاك في المساعدة قريباً . وإلا فارجم واشغل بما يصلح شأنك الخاص بك . فرجع الشاب بالحيرة بعد ما أقام مدة صرف فيها ما كان عنده من النقود ، ولم يجد من يساعده على الرجوع الى بلده إلا من رحمه من أصدقائنا اذ ذاك ، وكان لي حظ في مساعدته كما كنت شاهداً الحديث الذي رويته

فان لم يسع المسلم بعزم ثابت في تحصيل هذه العناصر التي سبق ذكرها أو تقوية ما ضعف عنده منها وهو مسلم كان مخالفاً لكتابه ، ولقول الصديق رضي الله عنه ، ومستحقاً للوم مسيو هانوتو . ولم تنفق له مصلحة مع مصالح الاوربيين الى يوم القيامة .

بقي علي الكلام مع هذا الوزير في أمرين الأول فيما فهمه من شأن المسلمين في هذه الأيام ، وما يسمونه دعوة الى توحيد كلمة المسلمين قاطبة ، وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد . والأمر الثاني سوء ظن أكثر المسلمين بالسياسة الاوربية ، بل بالمسيحيين أجمع ، حتى وصل فقد الثقة بهم الى أن لا ياتمنوا مسيحياً عثمانياً في عمل من أعماله ، وإن أخلص لهم الخدمة كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث وغيره . وموعدي بذلك عدد آخر اه

المقالة الخامسة

هانوتو والاسلام

(شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم الى توحيد كلمة المسلمين وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد في جميع البلاد الاسلامية)

أؤكد لموسيو هانوتو أن هذه الدعوة لم يوجد لها أثر الى اليوم في بلد من بلاد المسلمين ، ولو خطأ خطوة الى معرفة أحوالهم على ما هي عليه لما خطر بباله أن يشير الى هذه الدعوة ، فضلا عن أن يبني عليها حكماً ، وأن معلق بالأوهام منها فاعما منشؤه سوء فهم بعض مسيحي الشرق ، ثم انعكس ذلك في أذهان سياسيي المغرب ، وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل في تعظيم ما توهم فيها

وإني أعرض الحقيقة كما هي ، لا يغشاها ستار من تمويه ، ولا غطاء من تلييس ، وأرجو أن يكون في هذا البيان ما يقنع مسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم في كلامهم عن الدين ، وما يرد أمثال صاحب الجريدة التي نشرت حديثه الى رشدكم ، حتى يتقوا الله في أنفسهم وأهل بلادهم ، ولا يتخذ بعضهم من السلم حرباً ، ولا من السكون شغباً

لا أنكر أن طائفاً من الدين طاف في هذه السنين الأخيرة بعقول بعض المسلمين في أقطار مختلفة من الارض . وأن نسمة من نفس الرحمن مرت بأنفس قليل من أهل الفضل فيهم ، فحركت ساكنهم ، وأثارت همهم الى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين ، وفيما صاروا اليه . وأن منهم من يتكلم بما يرى اذا وجد سبيلاً الى الكلام . ومنهم من ينشر رأيه في كتاب أو جريدة اذا تهيأت له الوسائل لذلك . ثم يوجد متلدون لهؤلاء ، يقولون مالا يعلمون ، ويهرفون بما لا يعرفون . ولا كلام لنا في هذر المقلدين . وإنما كلامنا فيما يربي اليه غرض أوائلك الناظرين

ظهر الاسلام لاروحيا مجرداً ، ولا جسدياً جامداً ، بل إنسانياً وسطاً

بين ذلك ، أخذ من كل من القيلين بنصيب ، فتوفر له من ملائمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره ، ولذلك سمي نفسه دين الفطرة ، وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوه المدرسة الاولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية . ثم لم يكن من أصوله « أن يدع ما لقيصر لقيصر » بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ، ويأخذ على يده في عمله . جاء هذا الدين على الوجه الذي ذكرنا ، فهدى ضللاً ، وألان قاسياً ، وهذب خشناً ، وعلم جاهلاً ، ونبه خاملاً ، وأثار الى العمل كسلاً ، واقدّر عليه و كلاً ، واصلح من الخلق قاسداً ، وروج من الفضيلة كاسداً . ثم جمع متفرقا ، ورأب منصدعا ، واصلح مختلا ، ومحاظماً ، وأقام عدلاً ، وجدد شرعا ، ومكن الامم التي دخلت فيه نظاماً ، امتازت به عن سواها من لم يدخل فيه . فكان الدين بذلك عند اهله كمالاً للشخص ، والفة في البيت ، ونظاماً للملك ، وظهرت به آثار النعمة عليهم في جميع شؤونهم . ولم يفت العلم حظ من عنايته . بل كان قائده في جميع وجوه سيره . فان شاء قاتل ان يقول : إن الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ، ولا تفصيل سياسة الملك ، ولا طرق المعيشة في البيت ، لم يسعه أن ينكر انه اوجب عليهم السعي الى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية ، واوجب عليهم ان يحسنوا فيه ، وإباح لهم الملك وفرض عليهم ان يحسنوا الملكة . وما ظنك بدين يقول خليفته الثاني وهو في المدينة من بلاد العرب « لو ان سخله برادي الفرات اخذها الذئب لسئل عنها عمر » ويقول خليفته الرابع « أقنع من نفسي بأن يقال امير المؤمنين ولا اشاركهم في مكلره الدهر ، أو اكون أسوة لهم في جشوبة العيش » — أي خشونته — يريد بذلك ان يساوي المساكين في العيش ليكون قدوة الأغنياء في الاحسان . وأسوة الفقراء في حسن الصبر

هكذا كان الاسلام مهازراً للمسلمين يحثهم إلى جلائل الاعمال ، ومصباحاً لبصائرهم يسترشدون به في استغراق الاحوال وتقويم الافكار ، وعاطفاً يعطف قلوبهم على الأمم بالعفو والرحمة وحسن المعاملة ، حتى رضيتهم الارض سادة لها وقادة لسكانها ، وكان من امرهم وامره ما هو معلوم

افبعد هذا يعجب عاقل اذا رأى المسلم يرضى ما رضىه هذا المرشد الحكيم ويمقت مامقته ؟ ايدشه ان يرى المسلم يهزأ بكل مالم يعتقد سائغاً في دينه وإن كان فيه ملك الأرض أو ملكوت السموات بعد ما شهد المسلم من آثر نعمة الله عليه في هذا الدين ما شهد ؟ لا عجب في ذلك فانه نتيجة ضرورية ينساق اليها الأمر بنفسه ، بحكم سنة الله في خلقه

وأسفاً !! لم يبق للمسلم من الدين إلا هذه الثقة فيه . أما الدين نفسه فقد انقلب في عقل المسلم وضعه ، وتغير في مداركه طبعه ، وتبدلت في فهمه حقيقته ، وانطمست في نظره طريقته ، وحق فيه قول علي كرم الله وجهه « ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوباً » .

لأنبحث اليوم في الأسباب التي وصلت بالدين في نفس المسلم الى ما ذكرت ، ولكن أقول ولا أخشى منكرأ لما أقول : قد دخل على المسلم في دينه ما ليس منه ، وتسرب في عقائده من حيث لا يشعر مالا يتصل بأصلها ، بل ما يهدم قواعدها ويأتي على أساسها . عرضت البدع في العقائد والاعمال ، وحلت محل الاعتقاد الصحيح ، وأخذت مكان الشرع القويم ، وظهرت آثارها في أعماله ، وعم شؤونها جميع أحواله

ان صح لفظ الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »^(١) أو لم يصح فالقرآن يؤيد معناه ، وعمل الاولين من المسلمين يحقق صحة ما حواه ، فالرجل والمرأة سواء في الخطاب التكليفي ، وكان سواء في علم ما يجب عليهما من فرائض الاسلام ، وخصال الايمان ، وفي طلب العلم بما يلزم لصلاح معادهما ومعاشهما ، وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعد على تفصيل معروف في كتاب الله وسنة رسوله ، وعمل الصالحين من بعده ، حتى لم يبق باب من أبواب العلم إلا دخل منه بقدر الاستطاعة وما يسمح الزمان .

(١) الحديث رواه ابن ماجه وغيره من طرق كثيرة ضعفها بعضهم ولكن قال الحافظ العراقي قد صحح بعض الائمة بعض طرقه وليس فيه لفظ مسلمة ولكن المعنى يشملها بالاجماع

ضل المـ لم بعد ذلك في معنى العلم ، فظنّ الرجل أن غاية ما يفرضه الدين منه معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصوم في صورة أدائها ، أما ما يتعلق بسر الاخلاص فيها ، ووسيلة قبولها عند الله ، فذلك مما لا يخطر له ببال إلا القليل النادر . وأما آداب الدين وتهذيب الروح ، واستكمال الخصال الجميلة مما جعله الاسلام غاية العبادات ، وثمرات الاعمال الصالحات ، فهو مع انه اهم علوم الدين مما لا تتوجه اليه عزيمة ، ولا تنصرف نحوه ارادة ، اللهم إلا من أشخاص قلائل منشورين في أطراف الأرض لا ترقى بهم أمة ، ولا تسمو بهم كلمة

أما من ينقطعون لطلب العلوم ليحصلوا جملة منها فقد انقسموا إلى فريقين الاول من يظن أنه وارث علوم الدين والقائم بحفظها ، وقد قلّ أفراده في معظم البلاد الاسلامية ، ولم يبق منه إلا رسوم لا يكاد لا يدركها نظر الناظر ، والمستغنون منهم في بعض البلاد كصر والاساتنة ، فانما حظ الذكيّ منهم وقليل ما هم أن ينظر في كتب مخصوصة عينها له الزمان وضعف العرفان ، ويفهمها بمعنى أن يثق أن هذا اللفظ دال على ذاك المعنى ، ومتى تمّ له ذلك فقد استكمل العلم ، سواء سلم له عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم يسلم ، فكان مثاهم مثل من ورث سلاحاً هم أن ينظر اليه ويملاً عينه منه ، ولا يمد يده اليه يستعمله او يزيل الصدأ عنه ، فلا يلبث أن يأكله الصدأ ، ويفسده الخبث ، ويزعمون أن الدين يصدع وراء ما عرفوا من العلوم النافعة ، ومن رأي هؤلاء ان لاشأن لهم مع العامة ولا يجب عليهم ان يأمرؤا بمعروف ولا أن ينهؤا عن منكر ، وقد ارتكبوا بذلك خطأ في فهم دينهم لا يساويه في سوء عاقبته خطأ ، وللكثير منهم بل الاغلب من سوء الفهم في الدين مالا حاجة الى عده ، ولا يخفى ان ما يحصله هذا الفريق في العلم لا يظهر له ادنى اثر في صلاح الأمة كما هو مشهود

والفريق الثاني من يهيوّه او لياؤّه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال أو سافل ، وأفراد هذا الفريق إن كثروا أو قلوا يحصلون مبادي العلوم المعروقة بالعلوم العصرية ، ثم يحصل كل واحد ما به ينال المنصب الذي يعده له والده على ان ما يحصل إما لفظ يحفظ او خيال يخزن والمدار على الوصول إلى ورقة

الشهادة ، ومن هؤلاء من يذهبون إلى اوريا لاستعمال التريسة فيها ، ولا غاية لهم سوى هذه الغاية ، فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفة قنع بها ، وحصر همه على العمل فيها ، ومن لم يجد وقف على الابواب ينتظرها ، فإذا ملّ الانتظار أو تقضي زمن العمل وجدته في قهوة أو ملهى يسرف في اوقاته ، أو يفسد في ادواته ، والصالحون منهم - وقليل ما هم - لا يهتمهم شأن العامة شقيت ، أو سعدت ، هلكت أو قامت ، فاي أثر لما تعلمه هؤلاء يظهر في الأمة ، وأستثنى منهم شواذ في كل بلد على ضعفهم ، يرجى أن ينمو عددهم ، وتنجي الأمم ثمار أعمالهم ، هذا شأن الرجال مع العلم

وأما النساء فقد ضرب بينهنّ وبين العلم بما يجب عليهنّ في دينهنّ أو دنياهنّ بستر لا يدري متى يرفع ، ولا يخطر بالبال أن يعلن عقيدة ، أو يؤدين فريضة ، سوى الصوم ، وما يحافظنّ عليه من العفة ، فانما هو بحكم العادة وحارس الحياء ، وقليل جداً من موروث الاعتقاد بالحلل والحرام ، وحشو أذهانهنّ الخرافات ، وملاك أحاديثهنّ الترهات ، اللهم إلا قليلاً منهنّ ، لا يستغرق الدقيقة عدهنّ ، وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلماً ، بعدها الجنة وبمنيتها السعادة

اخطأ المسلم في فهم معنى التوكل والقدر قل إلى الكسل ، وقعد عن الفعل ، ووكّل الأمر إلى الحوادث ، تصرفه حيثما تهب ريحها ، ويظنّ أنه بذلك يرضي ربه ويوفي رغائب دينه

اخطأ المسلم في فهم ماورد في دينه من أن المسلمين خير الأمم ، وأن العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر ، فظنّ أن الخير ملازم لعنوان المسلم ، وأن رفعة الشأن تابعة للفظه ، وإن لم يتحقق شيء من معناه ، فإن أصابته مصيبة ، أو حلت به رزية ، تسلى بالقضاء ، وانتظر ما يأتي به الغيب ، بدون أن يتخذ وسيلة لدفع الطاريء ، أو ينهض إلى عمل لتلافي ماعرض من خلل ، أو مدافعة الحادث الجلل ، مخالفاً في ذلك كتاب الله وسنة نبيه

اخطأ المسلم في فهم معنى الطاعة لأولي الأمر والالتقياد لأوامرهم ، فالتقى مقاليد إلى الحاكم ، ووكّل إليه التصرف في شؤونه ، ثم أدبر عنه ، حتى ظنّ أن (٥٨ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

الحكومة يمكنها القيام بشؤونها جميعها من ادارة وسياسة بدون أن يكون لها منه عون سوى الضريبة التي تفرضها عليه . ومن رأى حزن الآباء اذا طلب أبناؤهم لأداء الخدمة العسكرية ، وما يبذلونه من السعي في تخليصهم منها ، حكم بأن ما يعقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لا يمكن انطباقه على شيء من أوليات العقل ، وعرف أن ثقتهم بالحاكم قد بلغت إلى حد التأليه ، من حيث ظنوه قادراً على كل شيء ، بدون عون من أحد ، وانقلبت تلك الثقة إلى الادبار والتخلي عنه من حيث إنهم تركوه وشأنه لا يساعدونه في حادث ، ولا يعينونه في أمر مهم ، اللهم إلا اذا أرغموا على ذلك ، ومن ذا الذي يحسن عملاً اذا ألجئ اليه بالرغم منه ؟ ومن هنا انصرف المسلم عن النظر في الأمور العامة جملة ، وضعف شعوره بمحسنيها وقيبحها ، اللهم إلا ما عيس شخصه منها

وأما الحكام ، وقد كانوا أقدر الناس على انتياش الأمة مما سقطت فيه ، فاصابهم من الجهل بما فرض عليهم في اداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الأعظم من العامة ، ولم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الأبدان لأهوائهم ، واذلال النفوس لحشونة سلطانهم ، وابتزاز الأموال لا نفاقها في ارضاء شهواتهم ، لا يرعون في ذلك عدلاً ، ولا يستشيرون كتاباً ، ولا يتبعون سنة ، حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والافتداء بهم في الظلم ، وما يتبع ذلك من الخصال التي مافشت في أمة إلا حل بها العذاب .

هذا كله إلى ما حدث من بدع أخرى من مذاهب شتى في العقائد ، وطرق متخالفة في السلوك ، وأراء متناقضة في الشرائع ، وتقليد أعمى في جميع ذلك ، فتفرقت المشارب ، وتوزعت المنازع ، وعظم سلطان الهوى على أرباب النزعات المختلفة ، كل يجذب إلى نفسه ، لا ينظر إلى حق ، ولا يفزع من باطل ، وإنما هم أن يظفر بخصمه ، وذلك الخصم هو ما يدعوه أخاه في الاسلام ، في معرض التشديق بالكلام

وزد على ذلك — وهذا أكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين في اعتقادهم — وهي بدعة اليأس من أنفسهم ودينهم ، وظنهم أن فساد العامة لا دواء له ، وأن ما

نزل بهم من الضر لا كاشف له ، وأنه لا يمر عليهم يوم إلا والثاني شر منه : مرض سرى في نفوسهم ، وعلة تمكنت من قلوبهم ، لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم ، وسنة نبيهم ، وتعلقهم بما لم يصح من الاخبار ، أو خطائهم في فهم ماصح منها ، وتلك علة من أشد العلل فتكاً بالارواح والعقول ، وكفى في شاعتها قول مجل شأنه (إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون)

تبع هذه البدع جميعها وأخرى يطول ذكرها هُزال في الهمم ، وضعف في العزائم ، وفساد في الاعمال ، يتنديء من البيت وينتهي إلى الأمة ، ويمر في كل طبقة ، ويجول في كل دائرة ، خصوصاً من دوائر الحكومات ، وما يرمى به المسلمون من التعصب الديني الأعمى فانما عرض على أقوام في بعض البلاد الاسلامية تبعاً لهذه البدع الضالة ، على أنني لا أسلم أنهم بلغوا فيه أدنى درجاته في الأمم المسيحية شرقية كانت أو غربية ، والتاريخ شاهد لا يكذب

هذا ما أصاب المسلمين في عقولهم وعزائمهم واعمالهم ، بسبب ابتداعهم في دينهم وخطائهم في فهم أصوله ، وجهلهم بادنى ابوابه وفصوله ، لهذا سلط الله عليهم من يسلبهم نعمة لم يقوموا بشكرها ، وينزل بهم من عقوبة الكفران ما لا قبل لهم بدفعه ، إلا اذا تداركهم الله بلطفه ، وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب ، ويقرنه اذا ذكره بما يتبرأ منه ، ويعده حجاباً بين الأمم والمدنية ، بل يعده منبع شقايتهم ، وسبب فناءهم

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين في أواسط القرن الماضي من سني الهجرة في أقطار مختلفة من بلاد فارس والهند وبلاد العرب ، ثم في مصر ، وكل منهم بحث في الداء وقدر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم ، واعلمهم يلتقون يوماً من الأيام عند الغاية إن شاء الله

مقصد الجميع ينحصر في استعمال ثقة المسلم بدينه في تقويم شؤونه ، ويمكن أن يقال إن الغرض الذي يرمي اليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد ، وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين حتى اذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الاعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامت أحوال الأفراد . واستضاءت

بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودينية . وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة وسرى الصلاح منهم إلى الأمة . فاذا سمعت داعياً يدعو إلى العلم بالدين فهذا مقصده . أو منادياً يبحث على الترية الدينية فهذا غرضه . أو صائماً ينكر ما عليه المسلمون من المفسد فذلك غايته . وهذه سبيل لمريد الإصلاح في المسلمين لأمندوحة عنها ، فإن اتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين ، يحوجه إلى انشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً ، وإذا كان الدين كافلاً بهتذيب الاخلاق ، وصلاح الاعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأعله من الثقة به مايناه ، وهو حاضر لديهم ، والعناء في ارجاعهم اليه أخف من احداث ما لا إمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره !!

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعة إلى الدين سواء في مصر أو غيرها أن يثير فتنة على الاوربيين ، أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين ، غير أن بعض المسيحيين اذا سمع قولاً في الدين اعرض عن فهمه ، وانشأ لنفسه غولاً من خياله يخاف منه ويخشى غائلته يسميه باسم الدين ، وبعضهم يظن أنه لو اتبته المسلمون إلى شؤونهم ، ورجعوا إلى الأخذ بالصحيح من دينهم ، لاعتصموا بجماعتهم ، واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم ، واستغنوا عن ادخلوه في أعمالهم من غيرهم ، فيحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التي نالوها بغفلتهم ، وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه ، فانه بظنه هذا يعتقد انه غاش مغرر ، وسالب متلصص ، وسوء ظن بالمسلمين أيضاً فان أهل الوطن الواحد لا يستغني بعضهم عن بعض مهما ارتقت معارفهم ، وعظم اقتدارهم على الاعمال . وغاية الأمر أن ما كان ينال اليوم بدون حق ، يصبح وهو لا ينال إلا بحق ، والاجنبي الذي كان ينفق الواحد ويربح المئة يرجع إلى الاعتدال في الكسب ، ويحتاج إلى شيء من التعب في استيراد الربح . وقد كان المسيحيون عاملين في الدول الاسلامية وهي في عنفوان قوتها . والاجانب يطلبون الكسب في ارجائها ، وهي في ارفع مقام من عزتها

نعم يعرض في طريق الدعوة إلى الدين على هذا الوجه ، أن يلتبس مسلم بمصر .

معونة من مسلم آخر بسورية أو بالهند أو بالعجم أو بأفغانستان ، أو بغير هذه الأقطار ، لأن مرض الجميع واحد ، وهو البدعة في الدين ، فإذا نجح الدواء في موضع كان السليم أسوة للمريض في موضع آخر . وأما السبي في توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم . فلم يمر بعقل أحد منهم ، ولو دعا اليه داع لكن أجدر به أن يرسل إلى مستشفى المجانين يكتب بعض أرباب الأقلام من المسلمين في حكمة الحج ، ويقول : إنه صلة بين المسلمين في جميع أقطار الأرض ، ومن أفضل الوسائل للتعاون بينهم . فعليهم أن يستفيدوا منه ، وهو كلام حق . لكن لا ينبغي أن يفهم على غير وجهه . فإن الغرض منه أن يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين ، حتى يستعين بعضهم ببعض على إصلاح ما فسد من عقائدهم ، أو ضل من أعمالهم . وفي مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء ، وهو أمر معهود عند جميع الأمم التي تدين بدين واحد ، خصوصاً عند الأوربيين

يكثرون المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ، ويعلقون آمالهم بهمة^(١) وكثير منهم يدعو إلى عقد الولاء له ، وهذا أمر لا ينبغي أن يدعش ، فإن هذه الدولة هي أكبر دول الاسلام اليوم ، وسلطانها أخفم سلاطينهم ، ومنه يرتجى إنقاذ ما بين يديه من المسلمين لما حل بهم ، وهو أقدر الناس على إصلاح شؤونهم ، وعلى مساعدة الداعين إلى تمحيص العقائد وتهذيب الأخلاق بالرجوع إلى أصول الدين الطاهرة النقية . فأي شيء في هذا يزجج أوربا حتى تتحد على هضم حقوق المسلمين إذا حدثت حوادث مثل الحوادث الماضية كما يقول مسيو هانوتو

بقي الكلام على جمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد يقول فيه مسيو هانوتو : إن أوربا لم تتقدم إلا بعد أن فصلت السلطة الدينية عن السلطة المدنية ، وهو كلام صحيح . ولكنه لا يدري ما معنى جمع السلطتين في شخص عند المسلمين . لم يعرف المسلمون في عصر من الأعصر . تلك السلطة الدينية التي

« ١ » كانت الآمال فيه بقية إلى عهد كتابة هذا المقال ولم تلبث أن زالت قبل زواله ثم أسقطه رجال دولته ثم أسقطوا الدولة نفسها دولة آل عثمان الكبرى اه الطبعة الثانية

كانت للبابا على الأمم المسيحية عند ما كان يعزل الملك ، ويحرم الأمراء ،
ويقرر الضرائب على الممالك ، ويضع لها القوانين الالهية . وقد قررت الشريعة
الاسلامية حقوقا للحاكم الأعلى ، وهو الخليفة أو السلطان ، ليست للقاضي صاحب
السلطة الدينية . وإنما السلطان مدير البلاد بالسياسة الداخلية ، والمدافع عنها
بالحرب أو السياسة الخارجية ، وأهل الدين قائمون بوظائفهم ، وليس له عليهم
الاتولية والعزل ، ولا لهم عليه الا تنفيذ الأحكام بعد الحكم ، ورفع المظالم
إن أمكن . وهذه الدولة العثمانية قد وضعت في بلادها قوانين مدنية ، وشرعت
نظاما لطريقة الحكم وعدد الحاكمين وملهم ، وسمحت بأن يكون في محاكمها
أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التي تحت رعايتها . وكذلك حكومة مصر
أنشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم أهلية بأمر الحاكم السياسي ، وشأن هذه
المحاكم وقوانينها معلوم . ولا دخل لشيء من ذلك في الدين . فالسلطة المدنية
هي صاحبة الكلمة الأولى كما يطلب مسيو هانوتو . ولكن مع ذلك لم يظهر نفعها
في صلاح حال المسلمين ، بل كان الأمر معكوساً ، فإن أمراءنا السابقين لو
اعتبروا أنفسهم أمراء الدين ، لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته في ارتكاب المظالم،
والمغالاة في وضع المغارم ، والمبالغة في التبذير الذي جر الويل على بلاد المسلمين،
وأعدها أعز شيء كان لديها وهو الاستقلال

إن فرنسا تسمي نفسها حامية الكاثوليك في الشرق ، وملكة انكلترا
تلقب بملكة البروتستانت ، وامبراطور روسيا ملك ورئيس كنيسة معاً ، فلم
لا يسمح للسلطان عبد الحميد أن يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين؟

لا أظن أن موسيو هانوتو يسيء الظن بدعوة دينية على الوجه الذي بيناه،
وأظنه يكون عوناً للمسلمين على تعضيدها في البلاد الاسلامية الفرنسية اذا
وجد فيها من يقوم بها ، وأنا أضمن له بعد ذلك أن تتفق مصالح المسلمين مع
مصالح الفرنسيين . فان المسلمين اذا تهذبت أخلاقهم بالدين ، سابقوا الاوربيين
في اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ، ولحقوا بهم في التمدن ، وعند ذلك يسهل
الاتفاق معهم إن شاء الله

المقالة السادسة

في الرد على هانوتو

سوء ظن المسلمين بسياسة أوربا كلها ، وعدم ثقة سياسيم بدولة من الدول واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصالحهم الاسلامية ، وعدم اطمئنانهم الى مياسة الدول المسيحية ، حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين الى أن لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم — سمع بذلك كله مسيو هانوتو من صاحب الجريدة المعروفة^(١) ومن بعض العثمانيين في الاستانة وباريس . ثم أخذ يرهن على أن سياسة أوربا اقتصادية ملكية لادينية لاهوتية . لا أدري من هم المسلمون الذين وصفهم موسيو هانوتو ؟ ومن ابلفه أخبارهم ؟ أم الهنود وهم في حكم دولة أجنبية ولا تزال نرى في خطبهم وجرائدهم ما يدل على طاعتهم لحكاهم ، وتعليقهم الآمال بعدهم والتماسهم الحق من طريقه . هل هم مسلمو روسيا وثقتهم بحكومتهم وثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد ، حتى إن الدولة الروسية تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الاورثوذكسي . هل هم الأفغانيون ؟ واخلاص أميرهم في مصافاة الانكايز أشهر من أن يذكر ولا ينبغي إخلاصه حرصه على بلاده ، ومحافظة على مصالحها . هل هم الفرمن ؟ واستنامتهم الى السياسة الروسية لا يجعلها أحد ؟ هل هم المراكشيون وهم بمعزل عن كل ما يسمى سياسة ، بل هم في غفلة عن الدين والدنيا جميعاً شغل بعضهم ببعض ، فلا ينفكون يتقاتلون ويتسالبون حتى يقضي الله فيهم بقضائه . هل هم التونسيون وقد أثني عليهم موسيو هانوتو بما هم أهله ، وثبت له ارتياحهم الى السلطة الفرنسية لجرد ما أطلقت لهم الحرية في دينهم لهله لم يقصد الا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه ، وكما يفيد قولة أن

لا يأتونوا مسيحياً عثمانياً ، والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم . فأما المصريون فلا شيء ، عندهم يدل على عدم الثقة بالأوربيين وبالمسيحيين العثمانيين فانهم يشاركون في العمل مواطنيهم من الأقباط في جميع مصالح الحكومة ماعدا المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين ، وهم معهم في غاية الوفاق ، خصوصاً أهل الاخلاص وسلامة النية منهم ، ولكل من الفريقين أصدقاء وأحبة في الفريق الآخر . ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحية ، الا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين ، وآذاهم في دينهم أو في منافعهم الخاصة بهم ، لا شيء . سوى التعصب الأعمى ، ولا نطلب على ذلك شاهداً أقرب من صاحب الجريدة الذي بمحادثه موسيو هاتوتو إنه بعد ان كان على المسلمين اثناء الحرب الروسية العثمانية ، وبعد أن أتى ما أتى عقب الحوادث العراقية شهد له المسلمون بأنه صديقهم ، والساعي في خيرهم ، كما افتخر بذلك مراراً في جريدته ، وإن كانت له اليهم هنات لانزال تبدو من فيه الى وقت ذلك الحديث . فأن قد هذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين في مصر ؟ هل طرد أحد من خدمة الحكومة لأنه مسيحي عثماني ؟ هل حرم أحد حق المحاماة ؟ أو إنشاء الجرائد أو المطابع ؟ أو إقامة المصانع ، أو تأسيس البيوت التجارية لأنه مسيحي عثماني ؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد

وأما حالهم مع الأوربيين ، فانتراهم إذا أحسوا بحد من انكليزي ذكره ، أو وصل اليهم معروف من أي عامل أوربي شكروه ، بل أزيدك على هذا أن المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها أن يتولى تحقيق مظلمته انكليزي ، كما شوهد ذلك كثيراً في شكاياتهم . وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب اللورد كرومر ، وهو ليس بمحاكم رسمي ، فأني دليل على الثقة أكبر من هذا ؟ ليس بقليل في مصر من يثق بالفرنساويين ، ومن له بينهم أصدقاء يركن اليهم ويعتد بولايتهم وموسيو هاتوتو وصاحب الجريدة يعرفان

كثيراً ما أغرى الأوربيون من فرنساويين وأمريكيين من أبواب المدارس في مصر شباناً من المسلمين بالمروق من دينهم والدخول في الديانة المسيحية ،

وفروا ببعضهم من القطر المصري الى البلاد الأجنبية ، وأحرقوا كبد والديه .
ومع ذلك لا تزال نرى المسلمين يرسلون اولادهم الى مدارسهم ، ونأظر المعارف
عندنا وزير مسلم واولاده يتربون في مدارس الجزويت ، وكثير من ابناء الاعيان
في مدارس الفرير . فأي اثمان يفوق هذا الاثمان

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالاوربيين ، خصوصاً في المعاملات ، حتى
اساء اولئك الاوربيون استعمالها ، وانتهزوا فرصتها فسلبوا كثيراً من اهل الثروة
ما كان بأيديهم . ومع ذلك فهم لا يزالون يأمنونهم ويقولون في الاستنامة اليهم ،
ويقلدونهم فيما يخالف دينهم وعوائدهم ، فإذا يطلب من الثقة فوق هذا ؟ !

هل يشكو عقلاء المسلمين في مصر من شيء مثل ما يشكون من الثقة العمياء
بالأجنبي من غير تمييز فيما هو عليه من إخلاص او غش ، من صدق او كذب ،
من امانة او خيانة ، من قناعة او طمع ؟ حتى آل الأمر بالناس الى ما آل
اليه من خسارة المال وسوء الحال . فبل هذا هو فقد الثقة بالأوربيين والعثمانيين
المسيحيين الذي يعنيه حضرة صاحب الجريدة وجناب موسيو هانوتو ؟

وأما العثمانيون من غير المصريين فاذا ارتقينا الى الدولة وسلطانها أيده الله
وجدنا أن نظام الدولة قاض باستعمال المسيحيين في ادارتها ومحاكمها في كل بلد
فيه مسيحيون ، والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ما يناله
المسلمون على نسبة عددهم أو فوق ذلك ، وكثير من المسيحيين نالوا من
الامتيازات والمنافع في الدولة ما لم ينله مسلم ، وسفارات الدولة ومناصبها العالية
لا تخلو من المسيحيين (*)

إقبال السلطان على رؤساء الطوائف المسيحية وانعامه عليهم بوسامات

(*) كان قبل هذا العهد جميع سفراء الدولة أو أكثرهم من النصراني ولا سيما
الارمن حتى انتقد ذلك وزراء تلك الدول : أخبرني الغازي أحمد مختار باشا ان الرئيس
بسمارك الشهير قال له انهم متمجبون من ذلك وانه هو لا يمتد بتمثيل رجل نصراني
لدولة اسلامية يعد سلطانها خليفة بين المسلمين وقال له أنا أطلب سفيراً مسلماً
أعرف منه شعور أمتي بل أريد سفيراً معمماً !!

الشرف ، واختصاصه لبعضهم بشرف المثل في حضرته والاحسان اليه برقيق المحاطبة لا ينقطع ذكره من الجرائد ، صاحب الجريدة التي نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك ، فقد جاهر زمنا ليس بالقصير بما لا ترضى الدولة بمثله ولا بأقل منه من مسلم ، ثم سهل عليه وهو مسيحي ان يكون موضع ثقة للجناب السلطاني حتى أذناه منه ، وقبله في مجلسه ، وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التي نشرها في جريدته من نحو شهرين ، إثر هبوه لنصرة مسيو هانوتو ، ثم والى عليه إحسانه بالرتب والنياشين وغيرها ، فما هي الثقة إن كان هذا قدحا ؟

وأما سياسة الدولة الخارجية ، فالفرنساويون يشكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة ألمانيا ، وهي دولة مسيحية ، ولا أظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة اسلامية ، وكانت الدولة ثقة لا تنزعزع بالسياسة الانكليزية ، ثم حدثت حوادث أهمها نشأ من ضعف سياسة موسيو غلادستون ، فأعقبها اضطراب في تلك الثقة مددة من الزمان بحكم الضرورة ، ثم انا نراها اليوم تراجع ، وفي رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا ، ويودون لو مالت اليها سياسة الدولة ، وهم مسلمون

والذي أحب أن يعرفه موسيو هانوتو ان سياسة الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية ليست بسياسة دينية ، ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها إلى اليوم ، وإنما كانت في سابق الأيام دولة فتح وغلبة ، وفي أخرياتها دولة سياسة ومدافعة ، ولا دخل للدين في شيء من معاملاتها مع الأمم الأوروبية

امبراطور ألمانيا جاء إلى سورية للاحتفال بفتح كنيسة ، فبالغ السلطان في الاحتفال به إلى الحد الذي اشتهر وبهر . يجيء الأمراء المسيحيون من الأوربيين إلى الآستانة فيلقون من الاحتفال ما لا يلاقونه في بلاد مسيحية ، وينفق في تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون في حاجة اليه ، أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم ؟ وهل بعد المودة إلا الثقة بصاحب المودة ؟ كان يمكن للسلطان أن يكتبني بالرسائل ولا يزيد عليها ولكن عهد في معاملته ما يفوق الرسمي بدرجات فان سلمنا

ان سياسة أوروبا ليست بدينية من جميع وجوها ، فسياسة الدولة العثمانية مع أوربا هي كذلك ومسلوها تبع لها

فان قال قائل : ان حوادث الأرمن لم نزل في ذاكرة اهل الوقت وينسبون وقائعها إلى التعصب الديني بل يقولون إن أسبابها مظالم جر اليها ذلك التعصب : أمكن أن يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحي منها ومن غيرها ، ومع ذلك فان كثيراً من الأرمن في خدمة الدولة إلى اليوم وهم بذلك موضع ثقتهما ، وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من أن منشآتك الوقائع التعصب الديني ، فان المسيحيين سوام في الممالك العثمانية أنعم حالا من المسلمين كما شاهدناه بأنفسنا ، ولو أنصف الأوربيون لا يمكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذي يظهر زمناً بعد زمن في تلك الأقطار ولسهل عليهم ان يعرفوا ان منبعه في أوروبا لا في آسيا

لا يغث عليّ أن أقول إن المسيحيين في الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية في التعليم والثرية وسائر وجوه الخير يتعنى المسلمون أن يساووهم فيه ، فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم ؟ لا يليق بكاتب مثل صاحب الجريدة ان يروي عن المسلمين كافة مثل ما رواه ، فان ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعاً ، واني أعتقد انه عند الكلام على المسلمين لم يكن في ذهنه إلا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه ، فاستحضر في صورهم جميع المسلمين وسياسيهم

ليعلم موسيو هانوتو ان جميع ما يقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لاحقيقة إلا في ذهن القائل أو الكاتب ، فلا ينبغي أن يعول على مثله في أحكامه ، وعليه أن يحقق الأمر بنفسه ان كان يهيمه أن يتكلم فيه

وأما ان المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع انه خدمهم ، وقوله : فكيف بحالم مع من لم يخدمهم ؟ فبين له الوجه فيه ايزول عنه ماسبق إلي فهمه : لو اقتصر على الكلام في السياسة وبحث في علاقة المسلمين مع حكومته ولم يسط على الدين نفسه في أصلين من أهم أصوله ، لما أخذ عليه أحد الا من ينتقد رأيه من

جهة ماهو صحيح أو غير صحيح، ولكنه لم يكتف بذلك وطعن في عقيدة التوحيد،
ويبين رداءة أثرها في المسلمين ، واستل سلاحه على عقيدة القدر ، ويبين سوء
ما جرت اليه فيهم ، وهو بذلك يثبت ان المسلمين لا يزالون منحطين ماداموا مسلمين .
وهو مالا يرضاه أحد منهم

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفي انحرافهم عن أصول دينهم ، وانقضى
بتعنيفهم على أهملهم لشؤونهم ، وغفلتهم عن مصالحتهم ، كجاء في حديثه "تذي نحن
بصدده ، لما وجد من المسلمين إلا معتبراً بقوله متعظاً بنصيحه ، والسلام .

(يقول جامع الكتاب) إن الغرض الذي رمى اليه الاستاذ في الرد على موسيو
هاتوتو هو تنبيه المسلمين وارشادهم إلى النظر في عيوبهم ، والبحث عن الأسباب
التي أفسدت عليهم أمر دينهم ودنياهم ، وعمت ملوكهم وحكامهم ، وسوقتهم
ودهماءهم ، والجمع بين بيان أسباب الانحطاد وبيان المخرج منها — ثم إنها على ما كان
من حسن تأثيرها ، ولهج الألدن بها ، وطبع الألوف الكثيرة من نسخها ، لم
تحمل المسلمين على اصلاح حال في تربية ولا تعليم ولا إدارة ولا سياسة ، وإن كان
ذلك التأثير قاصراً على التلذذ بفلج إمامهم في المناظرة وظهور حجة في العلم
والدين والسياسة على كاتب من أكبر رجال أوربة ، وذلك شأن الأمة في طفوليتها :
سرور كسرور الاطفال ، وغضب كغضب الاطفال ، لا يعثان إلى عمل من الاعمال !!
ولم يكن نصيب رجال الدولة الاسلامية الكبرى خيراً من نصيب رجال الامه
الاسلامية الجامعة من هذه الآيات والعبر فقد صرح الامام بأن سياستها غير
دينية وإن ادارتها غير اسلامية ، وأشار الى دابة الاماد التي تأكل منسأتها فلم
يعتبر أحد من رجالها فلما خرت صريعة زعم الملاحدة الذين أسقطوها بجهلهم ان
اتباع الاسلام هو الذي ثل عرشها وأودى بملكها !!

التربية

التي يكون بها الانسان انساناً ، والجماعة الكبيرة أمة

خطاب في امتثال الجمعية الخيرية الاسلامية

(ظفرتنا بعد الشروع في طبع الفصل الخامس بهذا الخطاب الذي ألقاه الاستاذ الامام في الاحتفال السنوي للجمعية الخيرية الاسلامية ونشر في المؤيد ماخذه في ربيع الاول سنة ١٣١٤ فاستدركتنا هنا)

إن الجمعية لم تأخذ على عاتقها أن تساعد كل عائلة فقيرة في الأمة لأن ذلك فوق استطاعتها ، بل وضعت لها قانوناً اتفق عليه جميع أعضائها ، وهو قد اشتمل على شروط معينة يجب أن تراعيها الجمعية عند إعانة من تريد إعانته من الفقراء . ثم جعلت كما قدمت أهم مقصد لديها إصلاح حال الناشئين من أولئك الضعفاء المساكين بالتربية والتهذيب ، إذ الواجب علينا أن نعتني قبل كل شيء بما نعتني به الأمم الأخرى الناجحة قبل غيره ، وهي لم تعتن بشيء أكثر من التربية وتحسين أخلاق العامة ، وهانحن أولاً نرى فساد الأخلاق عاماً ومصائبه مشاهدة للجميع

إذا رأينا مجالاً للفخر افتخرنا بآبائنا وأجدادنا الأولين ، وإذا حاسبنا أنفسنا رجعنا بالملامة والذم على آبائنا الأقربين ، وفي ذلك الفخر كبير العار ، وفي هذا اللوم عظيم اللوم . لاننا نحن قد أهملنا وتصرنا وأضعفنا أهم ركن وهو التربية . أهملنا فتر كما ذلك الفخر التالذ يذهب هباءً منثوراً . فلم نتدارك من آثاره شيئاً ، وزدنا الطينة من إهمال أسلافنا الأقربين بلة بإهمال آخر فقوضنا ما كان باقياً من آثار ذلك الفخر ، فكان لنا ذاك العار ، وهذا الشنار

ان الانسان لا يكون إنساناً حقيقياً الا بالتربية وليست هي الا عبارة عن اتباع الاصول التي جاء بها الانبياء والمرسلون من الاحكام والحكم والتعاليم . وهي عبارة عن السعادة الحقيقية . تعلم الانمان الصادق والامانة ومحبة نفسه فاذا

تربي الانسان أحب نفسه لأجل أن يحب غيره وأحب غيره لأجل أن يحب نفسه.
إذا تربي الانسان أحس في نفسه أنه سعيد بوجود الآخر معه، ولكن نحن في
وسط لا يحس فيه أحدنا إلا بأنه شقي بوجود غيره، وقد ذهبت الثقة بيننا أدراج
الرياح وخلفتها الشكوك والريب والظنون الأثيمة المولدة للوساوس والأوهام،
ولا شقاء للمرء أعظم من وجود ضميره في مثل هذا الشقاء والحسبان

ولكن لو كنا مترين لانبث فينا احساس واحد يؤلف بين شعورنا وحاجتنا
وحينئذ يحس كل فرد منا بأن عليه وظيفة يؤديها لنفسه ولغيره

ان بلادنا ليست بلاد الجوع القتال، ولا بلاد البرد القارس الميت، ولا
بلاد الشقاء التي لا ينال الانسان فيها قوت يومه إلا بالعذاب الأليم. بل نحن في
بلاد رزقها الله سعة من العيش، ومنعها خصوبة وغنى يسهلان على كل عايش فيها
قطع أيام الحياة بالراحة والسعة. ولكنها وبالأسف منيت مع ذلك بأشد ضروب
الفقر: فقر العقول والتربية

ليست القوانين التي تفرض العقوبات على الجرائم وتقدر المغارم على المخالفات
هي التي تربي الأثم وتصلح من شؤونها. فان القوانين لم توضع في جميع العالم إلا
للسواذ والمفوات والسقطات. وأما القوانين العامة المصلحة فهي نوايس التربية
الملية لكل أمة

ونحن على نموذج هذه التربية قد جرينا في خطة التعليم بمدارس الجمعية الخيرية،^(١)
ونتمنى أن يصبح هذا النموذج يوماً ما عاماً بين جميع أفراد الامة المصرية. وإذا
لم توجد التربية على مثل هذا النمط فلا حياة للامة ولا سعادة

إن العلم الحقيقي هو الذي يعلم الانسان العلاقة الموجودة بينه وبين غيره من
أفراد جامعته، فهو إذاً يعلم الانسان من هو ومن معه فيكون من ذلك شعور واحد
وروابط واحدة هي ما يسمونه بالاتحاد

وسنة الله في خلقه ان توجد الروابط في العائلات ومنها الى الفروع ومنها الى
الاصول القومية ومنها الى مجموع الامة التي هو منها. اذاً فلا بد من الوقوف على

(١) كذا كان يريد رحمه الله ولكن لم يتم له ما يريد، لقلة الرجال وقلة المال

كنه هذه الروابط ومعانيها ، واذا تمكن هذا العلم من نفس الانسان تعلم كل شيء ، وبحث عن طرق النجاح في كل شيء ، ولكن كيف يوجد الاتحاد مع هذا الفساد الذي نشاهده عاما في أخلاق الامة - وقد انعكست آية الوجدان فاذا الانسان أجنى مالمديه الاقرب فالقريب فالبعيد فالابعد ؟

ألا ان الاتحاد ثمرة لشجرة ذات فروع وأوراق وجذوع وجذور هي الاخلاق الفاضلة بمراتبها ، فعلى المسلمين اذا أرادوا الاتحاد أن يربوا أنفسهم تربية اسلامية حقيقية ليحسوا تلك الثمرة ، وبغير ذلك كل أمل باطل ، وكل الاماني أحلام أو وهم ، وكل احتجاج بغير سعي عجز

الناس في كل الامم أكفاء في التمثيل ، ولا نقص في الدنيا الامن جهة العقول والأخلاق ، وهي لا تكمل الا بالتربية ، وما وراء ذلك من العلوم لا يثبت فيها غير اللقطة والهديان

وان الجمعية الخيرية الاسلامية قد شرعت في طريقة ابتدائية للتربية ، ولديها أمل أن تصل الى الطريقة الانتهاية طريقة العمل ، لا طريقة العلم المعيبة التي ترى مثالها في الذين يأتون اليها كأساتذة عندما نعلن عن حاجتنا لمعلمين وليس لديهم ما يؤهلهم للتربية والتهديب . واست أقول ذلك قدحا في طريقة التعليم الجارية بين ظهرانينا ، ولكنني أقول بالاجمال انها غير ملائمة لمناهج جمعيتنا التي تحسب ان تصلح شؤون الناشئين من الطبقات النازلة

نحن نتمنى تربية بناتنا فان الله تعالى يقول (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) الآية . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تشرك الرجل والمرأة في التكاليف الدينية والدينية . فكان بذلك ترك البنات يقرسهن الجهل وتستهيبن الغباوة من الجرم العظيم

انظروا إلى المرأة حين تقول لابنها مثلاً اذا أرادت أن تمنحه شيئاً : خذ هذا وأخفه عن الأعين حتى لا يراك أخوك . فكم من قبيصة علمته بمثل هذا القول ؟ علمته ثلاث خصال هن الموبقات المهلكات : الأثرة والدناءة والسرقه . وربما توصيه بانكار ما أعطته اذا سأله أخوه ، فتعلمه بذلك أقبح خصال السوء والفساد

وهو الكذب، وقد لا يتعلم الطفل عندما يراد تمرينه على النطق والكلام غير ألفاظ السباب والشتائم القبيحة، فيشب الطفل متعوداً على أن تلفظ شفتاه كل كلام قبيح، لا يعبأ بماذا ينطق ولا يبالي بما يقول

وانني أذكر حديثاً شريفاً أو اثرأ بمعناه هو ان الرجل لينطق بالكلمة لا يرى لها بالا فيهوى بها في النار اربعين خريفاً^(١)

فتأملوا في فظاعة الاخلاق التي يشب عليها ابناء وبنات العامة من الامة ولا خلاص لنا من هذه الورطة الشنيعة الا بالتربية الكاملة الشاملة للابناء والبنات وان النساء الجاهلات والرجال الجاهلين لا يمكن أن تكون من بينهما مة ولا جمعية وعلى الخصوص اذا أصبحت العلاقات والروابط الطبيعية مهددة بين الناس كما نشاهد بيننا الآن ولقد استنتجت بالاستقراء منذ كنت قاضياً في احدى المحاكم الجزئية ان نحو (٧٥) في المائة من القضايا بين الأقارب بعضهم مع بعض بما لم يحمل عليه غير التباغض وحب الوقعة والنكابة، فهل من المعقول أن يكون الفساد في العلاقات الطبيعية الى هذا الحد من التصرم، وتتسأل عن تصرم العلاقات الوطنية؟ هل يمكن اننا بعد أن نفقد الروابط الضرورية بين العائلات نبحت عن الروابط للجامعة الكبرى . أو ليس هذا كمن يطلب الثمر من أغصان الشجر بعد ماجذ أصولها وجذورها، وقطع أوصل عروقها، وغادرها مجرد قطع أخشاب يابسة

اللهم ان كنا نريد الحياة الطيبة والسعادة الدائمة فلنعمل لاصلاح شؤون الناشئين بالتربية المثقفة المهذبة، ولنجهد أنفسنا في طريق استكمال الاخلاق الفاضلة . وكما زدنا في سبيل ذلك سعياً توفر لدينا حب تعضيد هذه الجمعية ونمت ثروتها فأدت وظيفتها للامة كما ينبغي . ونسأل الله أن يصلح ما بيننا من فساد، وان يوفقنا جميعاً إلى ما به نجاحنا وفلاحنا وسعادتنا . اهـ

(١) روي هذا المبنى في عدة أحاديث أقربها إلى هذا اللفظ « ان الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفاً في النار » رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعاً بسند صحيح . ومنها ما رواه أحمد من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً « ان الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يفضحك القوم وانه ليقع بها أبعد من السماء »

باب الرحلات العلمية التاريخية

(فصل من رحلة الاستاذ الامام الاخيرة إلى اوردية وجزيرة صقلية وتونس والجزائر سنة ١٣٢١ ١٩٠٢ م دون فيه مآراى فيه الفائسة والعبرة من الآثار العربية في بلرم عاصمة جزيرة صقلية . وكنا ننتظر فرصة فراغ منه نطالبه فيها بكتابة فصول أخرى من تلك الرحلة فلم تسنح)

بالرم - صقلية

(نشر هذا الفصل في أجزاء مجلدي المنار السادس والسابع)

« أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور »

قضت المقادير أن أغبر خطة سفري عن طريق مرسيليا إلى طريق ايطاليا وكان لي في ذلك خطان من السير أحدهما يمر ببارم ثم يصل إلى نابولي ، ثم تكون الإقامة في نابولي نحو أربعة أيام ويعدو المركب بنا إلى مسينا ومنها يذهب إلى الاسكندرية ، والآخر ينتهي عند بلرم أو « باليرم » وتكون الإقامة خمسة أيام نذهب بعدها إلى مسينا^(١) كذلك ، وكان بودي لو ذهبت مع الخط الاول فكنت رأيت بلدانا كثيرة ، وآثاراً عظيمة ، تزيدني علمي كثيراً مما لم أعلم إلى اليوم غير أن بعض أصحابي قال لي أن بلرم هي عاصمة صقلية ، ويوجد فيها من الآثار العربية ما يهيم العربي أن يراه ، وفيها داران للكتب ، لا تخلو كل منهما من كتب عربية قديمة ربما يستغرق الاطلاع عليها زمناً مثل الزمن الذي تقضي الضرورة بصرفه إلى يوم السفر إلى مسينا : ففضلت النزول إلى بلرم ولا أذكر الآن شيئاً مما لاقيت من الحمايين وغيرهم من مستقبلي المسافرين ولكن أعود إليه

(١) كانت العرب تسميها مسيني . قال الشاعر * من ذا يمسيني على مسيني *

بعد أن أخذت مكاناً في نزل سنترال بشارع رومية خرجت لا يصل بعض رسائل التوصية إلى من أرسلت اليهم فلاقيت منهم ماسرني ، وكان أحدهم موسى بأن يسهل لي طريق زيارة المكتبة العمومية ودار المحفوظات الرسمية ، والتمكن من رؤية مايكون فيها ، فوعدني المجيء في الغد لمرافقتي إلى المكتبة

قصر الملك في بلرم وكنيسته

ثم بعد ذلك بدأت بزيارة قصر الملك ولا حاجة بي إلى وصفه فان ذلك من شأن صاحب جريدة أو سائح يطلب اظهار البراعة في حسن الوصف وسعة العبارة . وغاية ما أقول أنه قصر أو (سراي) واسع كبير البيوت باهر الزينة والاثاث كسائر قصور الملوك في أوروبا أو في غيرها من البلاد الشرقية والعربية ، مما تنفق فيه الأموال بحساب وبغير حساب ، ولا شيء منها من كد الملك أو الأمير . وإنما هي من أموال الرعية وكسب الحفاة العراة الذين لا يجدون مابة يسترون ، ويشتهون لو أنفق على جدران أبدانهم وأركان أجسادهم جزء من المليون مما أنفق على حيطان تلك القصور وزواياها وسقوفها — ما أنا بذاكر شيئاً من وصف ذلك الغنى في بلد الفقر ، ولكن أذكر ما رأيت فيه مما يحب الشرقي أن يطلع عليه اما لعة واما لفكاهة .

ذهب بي حارس القصر أولاً إلى حيث توجد كنيسة الملك ولا حاجة إلى وصفها كذلك — إلا لو كان الله يحب أن تزين له عابده ، وت نقش بحجده مساجده ، كما يحب ذلك ملوك الأرض — فوجدت في الممر الموصل إليها على الحائط المتصل بالكنيسة حجراً قد كتبت عليه هذه العبارة :

« خرج الأمر من الحضرة الملكية المعظمية الرجارية العلية أيد الله أيامها ، وأيد أعلامها بعمل هذه الآلة لرصد الساعات بمدينة صقاية الحمية سنة ست وثمانين وخمسمائة » ثم في أعلى الحجر سطور بالحرف اليوناني يظهر أنها ترجمة هذه العبارة . والحضرة الرجارية هي حضرة الملك رجار أو (روجير) الترمندي الذي دخل جزيرة صقلية وفتحها على العرب ، وكان لسانه الرسمي في حكومته اللسان العربي واليوناني . وأما ميله في البناء والزينة فكان إلى الرسم اليوناني . ولهذا

الملك آثار كثيرة في بلرم ، ويوجد كثير من المحررات العربية والصكوك مما كتب في أيامه . ويقال أن العرب كانوا في زمن الترمنديين متمعين بحرية تامة في إقامة شعائر دينهم وتصرفهم في شؤونهم ، وإن كان هذا الملك قد هدم مساجد كثيرة لنقل أعمدها الجيلة إلى الكنائس التي رأى تجديدوها في المدينة ، ويظهر من العبارة المرقومة على الحجر أن هذا الترمندي كان عندما دخل البلاد ذهب مذهب أهلها من العرب في المدينة ، ولم يحتقر ما وجد من آثار العلم ، فكان يأمر بصنع الآلات الفنية والفلكية ، ويساعد القائمين بعملها

رأيت في خزانة الجواهر من قصر الملك صندوقاً عربياً في طول نحو ثلثي ذراع ، وارتفاع ثلاثة أرباع الذراع صنع ، من نحو ثمان مئة سنة على ما يقول الحارس ، وهو مغشى بالنقوش الذهبية من أجل ما تراه عين الآن ، وقيمته عند الدولة خمس مئة ألف فرنك ، ورأيت في أحد بيوت القصر باباً من الحديد مطلياً بطلاء أصفر جميل من أجل ما يصنع من الأبواب ، وهو من صنع أيدي العرب أيام دولتهم

ورأيت بيتاً من بيوت القصر فيه صور نواب الملك في عهد البربون بعد الترمنديين ، ومع كل نائب منهم كردينال كما كان للملوك كرادلة يصحبونهم ويشركونهم في كثير من شؤون الملك . لذلك كان النائب عن الملك يصحبه كردينال يرجع إليه في أمور دينه ، وفي أعماله السياسية أيام كانت الأحكام المدنية والسياسية مما يدخل فيه رجال الدين كما نقول عندنا « المفتي أو شيخ الاسلام » في عهد الملوك الذين لا تسمح لهم أوقافهم بتعلم العلوم الدينية فيحتاجون إلى من يرجعون إليه من علماء الدين . غير أن المفتي وشيخ الاسلام إنما يجيب عما يسئل عنه ، أو يؤدي ما كلف به . وأما الكردينال فكان يتدبّر المشورة ، ويقترح المطلب ، ويقوم نائب الملك على المذهب ، ويكف يده عن العمل الذي لا يرضاه ويحمله على بسطها فيما يتوخاه ، فكانت السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية في نظام واحد لا فصل فيه بين السلطتين . وهذا الضرب من النظام هو الذي يعمل الباباوات وعمالهم من رجال الكتلركة على إرجاعه ، لأنه أصل من

أصول الديانة المسيحية عندهم ، وإن كان يذكر وحدة السلطة الدينية والمدنية من لا يدين بدينهم

الكنيسة الكبرى والاديار

وكان مما قيده بعض أصدقائي في جريدة الأمكنة التي يرغب في رؤيتها محل يسمى بالدوم أي القنب فذهبت اليه وإذا هو الكنيسة الكبرى التي تسمى (كاتيدرال) رئيسها هو مرجع رؤساء بقية الكنائس في المدينة أو الولاية ، وهي من عظمة البناء ، وبهجة الزينة على ما يطول شرحه . وأصل هذه الكنيسة الكبرى مسجد باق على ما هو عليه حتى باب الخشب الجميل ، غاية ما في الأمر أنه زينت فيه الصور والنماثيل ، وضروب أخرى من الزينة الكنسية . ويمكن للتأظر أن يتفرس ذلك بمجرد رؤيته من الظاهر لأن رسم البناء على الطريقة العربية في عامة المساجد .

وزرت بعد ذلك ديراً يسمى دير سانت جواني ، وهو مما كان قد كتب في جريدة الأماكن ، ولم أر فيه شيئاً سوى أن أسفل الدير كان مسجداً . فلما جاء الترميدون حولوه إلى كنيسة بناها راجار وقتل اليها هذه الأعمدة من المساجد التي خربها لما أعجبه من أعمدتها ، ثم أخذني السادن بعد ذلك إلى قبة قريبة من الكنيسة وقال لي أنها على شكل عربي . ولما رأيتها خالية من الزينة المعتادة رؤيتها في أماكن العبادة النصرانية ، سألته عن ذلك فأخبرني أن الأسبانيين عند ما غلبوا على صقلية سلبوا ما كان في هذه الكنيسة من الموزاييك (زينة من أجمل ما تزين به الأماكن والادوات تصنع من قطع دقيقة من الحجارة على أشكال مختلفة بحيث يصور بها جميع ما يمكن تصويره من الرسوم والصور) وحملوا ذلك إلى بلادهم وقال أنهم لم يقتصروا على ذلك ، بل سلبوا الكنائس كل ما كان فيها من المصنوعات الفضية كذلك . فقلت لصاحب كان معي يظهر أن كل قاتح يرى من الواجب عليه أن يفسد شيئاً من عمل من سبقه . فكل منهم يقوم بما رآه واجبا عليه :

وعرفت قسيساً حليياً معلماً للعربية بمدرسه دير الكوشيين في بلم — وسنأتي على ذكره — فما أرشدني إليه رؤية بتيّة من قصر يسمى العزيزة وهو اسمه في الطليانية فذهبت معه إليه وإذا هو قاعة كبيرة فيها سلسبيل ماء، بنيت على نمط ما كنا نسميه عندنا (القاعات الحرمية) حيطانها مزينة بالموزاييك من أجمل ما تحب عين أن تراه ، ولم يبق من القصر مكان ينظر إليه السائحون إلا تلك القاعة ، وأما أعلى القصر فيسكنه أناس من أهل المدينة وقد دخل بتمامه في ملك بعض الاغنياء . والقصر من بناه الملك راجار الترمندي بناه لابنته عزيزة . وعلى مقربة من هذا القصر قبة يقول القسيس أنها مسجد عربي ، فاخذنا نحوها فاذا هي في بستان كبير قد أغلق بابه ، وقيل لنا ان خادم البستان فيه ، وذهب ذاهب لينادية ، ودال بنا الوقوف ، واجتمعت علينا من الصغار والنساء صفوف أو زحوف ، جلبتهم علينا تلك العمامة وصاحبها الجبة . وكلما طردنا فوجاً أقبل فوج ، أو نجونا من موج علا علينا موج ، إلى أن جاء رجل قيل أنه هو حارس البستان ، وبعد قليل وقال في فتح الباب واحتياجه الى اذن من صاحب البستان ، رضي بالفتح . طمعاً في النفخ . فدخلنا ورأينا صعوبة جديدة في فتح القبة فذلناها القبة من قباب المشايخ التي يقيمها المسلمون على قبور الأولياء او الامراء على خلاف ما يأمر به الدين . وأظن أنها على قبر من هذه القبور وايس فيها من أثر عربي سوى شكلها هذا

﴿ كنيسة موريالي ، وتساهل العرب ، وأين هم اليوم ؟ ﴾

مما رأيته في بلم (صقلية) كنيسة موريالي ، وجميع سقفها والأغلب من جدرانها مغشي بالموزاييك ألوانا وأشكالاً من أبهى ما يهيج الناظر ، وأجل ما يبرح فيه الخاطر . وفي ناحية منها قبة تعرف بمعبد الصليب ، فيها من التماثيل وضروب الزينة ما يقصر عنه الوصف . وأهم ما يذكر من شأنها أنها مبنية في القرن السادس من التاريخ المسيحي ، فيكون لها نحو الف وثلاث مائة سنة ، والمصنوعات الخشبية الجميلة محفوظة من ذلك العهد لم يجزأ السوس على قرص

شيء منها ببركة العناية والاهتمام بالتنظيف . وأما ما يقول به بعض الخذاق في معرفة طبائع هذه الهوام الدقيقة من أنها تعرف الصليب وما خصص له من الأدوات، وتشعر باحترام تلك الصور والتماثيل التي صورت في تلك الأخشاب، وأنها بذلك صارت مسيحية كاثوليكية ، فلا يباح لها قرض الخشب المسيحي . ثم أن اعتقادها بجرمة القرض حملها على العمل ، فخالفت شهوة الأكل قياما بالقرض ، فلا أظنه في غاية الصحة ، بل ولا في أولها كذلك . ويقال إن الكنيسة من بناء الملك كيلولمو الثاني وقبره فيها ، صندوق من حجر فيه جثته

ومن ذلك تعرف أن العرب رحمهم الله لم يمسوا هذه الكنيسة بسوء مع عظمة سطوتهم ، وامتداد ملكهم في سيسليا ، وتلدح من هذا أن العرب — وإن فسق كثير منهم عن أمر ربهم — فروح الدين الاسلامي كانت تنمو في كثير من أعمالهم ، نهى الدين عن هدم الكنائس اذا لم تكن مريضاً لشر يخشى خطره على الدولة ، فحفظوا لرعاياهم كنائسهم ومعابدهم ، ولم يصنعوا بها ماضع غيرهم ممن جاء بعدهم ، ولم يريدوا أن يقتفوا أثر خصومهم ، ممن كان يهدم مساجدهم، ويحرب معابدهم ، فحيا الله أيامهم . لاجرم أن الاسلام عربي، وأحق الناس برعايته ، والوقوف عند حدوده ، بعد فهم حقيقته ، هم العرب فأين هم ؟ يمكن أن يقول قائل: انهم في جزيرة العرب أو في الشام أو في العراق أو في مصر أو في تونس والجزائر أو في المغرب الأقصى ، فلم يكفك كل هذا العدد ، في أكثر من ألف بلد ، حتى تقول أين هم ؟ ولكنني أقول له : إنما يكون القوم أولئك القوم اذا بقيت لهم أخلاقهم وحياة أرواحهم ، فان كان لم يبق إلا أشباح تشبه أشباحهم ، فليسوا بهم فلي الحق أن أقول عن العرب فأين هم ؟

﴿ دير الكبوشيين ومدرستهم ومقبرتهم في بلرم ﴾

﴿ وفيه بحث الدعوة الى الدين واحياء اللغة ﴾

للكبوشيين دير في بلرم فيه معبد ومدرسة ومقبرتان . أما المعبد فهو المعبد لا يحتاج الى الكلام عليه ، ولا يختلف عن غيره من المعابد . وأما المدرسة فهي لتعليم اللغات والفنون والعلوم التي يحتاج اليها المرسلون الذين يكلفون الدعوة الى الدين المسيحي والتبشير بالانجيل ، ونشر ما تقتضي الغيرة الدينية نشره في الأقطار النائية كبلاد العرب والترك والفرس وغيرها . ومما يعلم فيها اللغة العربية وأستاذها الراهب جبرائيل ماريا الكبوشي ، وهو من حلب ، وتعلم العربية في بيروت ، وأخبرني أن من أساتذته صديقنا الشيخ سعيد الشرتوني صاحب (أقرب الموارد) في اللغة . لاقت ذلك الراهب وحادثته في شأنه ، والزمن الذي قضاه في ايطاليا ، والداعي الى الإقامة فيها ، فتبين لي أنه جاء اليها ليقدم دينه هذه الخدمة — تعليم اللغة العربية لنشر الدين في بلاد العرب مثلاً . وكان يتحرى في كلامه قواعد اللغة العربية بقدر الامكان فحمدت منه ذلك . كأنه اعتقد أنه انما تعلم العربية لينتفع بها في منطقته — وان كان في بلاد ايطاليا — وعمل بما اعتقد . وما كان أسهل عليه أن يكلمني بالحلبية كما يكلمني البيروتي بالبيروتية ، والتونسي بالتونسية ، ولا يبالي أكنت أفهم أم لا أفهم ؟ كما لا يبالي الكثير ممن ذكرناهم

وفي هذه المدرسة تعلم العلوم اللاهوتية كذلك للغاية التي ذكرناها ، ولا حاجة الى ذكر ما فيها من العلوم ، فان ما يحتاج اليه للبراعة في نشر الدين ، والدعوة اليه معروف عند من يعرفه ما هو الدين ويتصور معنى الدعوى اليه . اما من لا يعرف ذلك فلا نكتب له حرفاً واحداً من هذا الكلام فان قال قائل : فلن تكتب ما تكتب ؟ قلت . ان فقد الفاهم فاني احفظه لنفسي والسلام . هل خطر ببالنا — وكل منا يدعي الغيرة على دينه ويرى انه الحق الذي يجب على الناس كافة ان يخلصوا ارواحهم باعتقاده والاخذ بأصوله

ان ننشئ فرعاً من فروع التعليم لنشر الدين وتقويم اصوله بين اهلنا؟ فضلاً عن نشره بين من ليسوا من اهلنا أريد من اهلنا أولئك الذين ليسوا رداءء، واعترفوا أن الدين دينهم سواء عرفوه حق معرفته، وهم في غنى عن الدعوة اليه، أو جهلوه وانحرفوا عن طريقه وهم أحوج الناس الى الارشاد، وأشدّهم افتقاراً الى من يحول اليه نظرهم، ويعطف عليه اختيارهم. هل مرة ببالنا أن نهيب، لهذا الفرع من التعليم ما يلزم له من فنون وأساتذة لتلك الفنون، كما يهيب، هؤلاء ما يهيئون لتعليم من يقوم بدعوة من ليس من دينهم الى دينهم؟ ما كان أحوجنا الى إنشاء ضرب من التعليم خاص بمن يكلف ارشاد من يسيء الى الدين باسم الدين، ومن يهدم شرف الدين بعمل ينسبه الى الدين؟

ألا يحق لنا أن نطلب من أولئك الذين صعدت بهم ألقاب الرئاسة الدينية الى أسمى المنازل أن يفكروا في هذا الأمر، ويقوموا بما يجب عليهم منه إن لم يكن لمصلحة الدين فلمصلحة أنفسهم، فإن في تقوية جانب الدين تقوية لمساندهم، وفي تبصير العامة بشؤون الدين تمكيناً لحرماتهم في نفوس الدهماء، وتسجيلاً لسيادتهم عليها؟ أليس لنا على ضعفنا أن نذكرهم بالأمر الالهي، انقارع للقلوب، المزعج لهم، في قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الخ، فهل يليق بهم أن يصموا آذانهم عن هذا الخطاب، ولا يخشوا أن يكون التصام عنه بمنزلة الخروج من مدلول كاف الخطاب، ومشعراً بأنهم ليسوا من أولئك الذين خطبوا به؟ لنا بل علينا أن نطالبهم بذلك، وأن نزيد عليه مطالبهم بالنظر في إنشاء فرع لتعليم ما يلزم لنشر الدين بين بقية الأمم، ان كانوا يعتقدون أن دينهم هو الحق، فإن السكوت عن الدعوة الى الحق رضا بالباطل. أولئك الملوك والأمراء الذين لا فضل لشيء عليهم في تمتعهم بملكهم، وانخضاع رعاياهم لسلطانهم، مثل فضل الدين، لم لا يقطعون شيئاً من مالههم وقطعاً من زمانهم ينفقونها في الاشتغال باحياء روح الدين، ولا يكتفون بغش العامة بالمحافظة على رسوم كلها أو جلها لا يعرفها الدين؟ أفلا يجب عليهم أن يسعوا في زيادة تمكين قوتهم، وتعزيز سلطتهم؟ اللهم الا

اذا ظن هؤلاء، وأولئك ان الدين حيوان يمشي على رجلين ، يطلب رزقه من القلوب حيث يجد الحاجة اليه ، ويفقدو الى مرعاه من النفوس متى اشتد الجوع عليه . فاذا قصر في ذلك حتى أهلكه الجوع ومات فانما أثمه على نفسه لا عليهم ربما يقول قائل: ولم تستبعد هذا الظن منهم فتعبر في جانبه بكلمة « اللهم » وهم قد يزعمون أنهم من أهل السنة ، وربما طلبوا الدخول في أبواب حجة السنة ، بهذا الظن الذي تستبعده ، وما عليهم في ذلك الا أن يقولوا : نحن سنيون لا نقول باستحالة شيء ، ونحزننا أن نجوز المحال ، ونذهب الى جواز تجسم المعاني ونعتقد أن الاعمال والعقائد ، وهي معان نفسية وحركات بدنية يمكن أن تنقلب أشخاصاً حيوانات تمشي ، وأناسي تتكلم . أليست هذه العقيدة هي مطيتنا الى الجنة ؟ فليكن الدين رجلاً عاقلاً ، أو ميكروباً متقللاً مفيداً لا قاتلاً ، يفعل لنفسه ما كان فاعلاً ، ويدعنا تمتع بالنسبة اليه ، وإن لم يكن لنا عطف عليه ، فنجيب القائل بأنهم مغرورون ، وأن السنة بريئة مما يزعمون ، وسيعلمون أي منقلب ينقلبون خرج بنا الكلام عما نحن بصدده . هذا الراهب أستاذ العربية في الدير وضع طريقة سهلة لتعليم قواعد اللغة العربية من الصرف والنحو للإيطاليين — يضع القاعدة العربية ، ثم يفسرها باللغة الإيطالية بأسلوب سهل معه تناولها بقدر الامكان . وقد رأيت من تلامذة الراهب من يحسن قراءة العربية ، وإن كان لا يحسن التكلم بها لعدم التمرين على السماع والنطق ، وما أحوج كل عربي الى تعلم ما يحتاج اليه من لفته ، لكن ما أشق العمل ، وما أوعر الطريق ، وما أكثر العقبات في طريق العربي الساعي في تحصيل ملكة لسانه !! يفتي عمره وهو لا يزال يضرب برجليه في أول الطريق . أفلا نشعر بالحاجة الى قريب المطلب رتيسير المذهب في تحصيل ما ندعو اليه الحاجة من لفتنا ، حتى نستطيع فهم ما أودع فيها من النفائس ، والتعبير بها عما نجد في أنفسنا ، ونحب أن نسوقه الى بني لغتنا على وجه صحيح ، وبأسلوب فصيح ؟ ألم يأن لنا أن نرجع الى المعروف مما كان عليه سلفنا ، فنحيا بما كان قد أحيام ، وترك ما ابتدعه أخلافهم مما أماتهم وأماتنا معهم ؟

أما المقبرتان فأحدهما في بناء متسع الأرجاء تحت الأرض ، ينزل إليه بسلم ، وفيه نوافذ يأتي إليه منها الضياء ، وقد وضعت فيه الجثث على ضروب شتى ، فمن الجثث ماهو في صناديق مقفلة من الخشب أو الحجر أو البرنز ، ومن ذلك جثة موسيو كرسي رئيس الوزارة الإيطالية السابق ، فانه في ذلك المحل في صندوق مغلق ، ومنها ما وضع في صناديق من البلور بحيث تظهر الجثة للرأي من داخل الصندوق على الهيئة التي كانت عليها عند الموت . وقد يوجد في الصندوق الواحد عدة أشخاص بادية هياكلهم ، ظاهرة وجوههم ، على أنهم ما يحزن له قلب ، وتعتبر به نفس . وهذان القسمان من الأموات إنما ينالون حظوة الاستيداع في هذا المكان اذا كانوا من الأغنياء الذين يتمكنون أن يدفعوا الى الدير ما يطلبه من قيمة هذه الحظوة . وهناك قسم آخر وهو جثث مخنطة قائمة في جوانب المكان ، عليها ثيابها في الحالة التي كانت عليها عند موتها ، وهي جثث الرهبان والقسيسين الذين يحبون أن يودعوا في هذا المكان ليسعدوا بركته ، ولهم هيئات تنقبض لها النفس ، ويضيق بها الصدر ، ولا حاجة بنا الى تعداد ذلك . ويكفي القاري أن يتصور ميتاً في أشد مانكره النفس مما يصوره الموت في البدن وأما المقبرة الأخرى فهي كسائر المقابر على ظهر الأرض ، وإن كان الأموات في بطنها ، وهي من أجل الأماكن وأنظفها . والقبور فيها نظيفة البناء ، بهجة الظاهر . وقد غرس في المقبرة أشجار السرو بنظام بديع ، وقيل لنا : إن الذين يدفنون فيها هم الأمراء والأغنياء . أما الفقراء فلمهم مقبرة تليق بقمرهم في مكان آخر . وكأنه قضي عليهم بأن لا يساوا الأغنياء حتى في الموت مع أن الموت قد سوى بين الأغنياء وبين أدنى طبقة من الأحياء ، بل جعلهم طعمة لأقذر الديدان ، كما جعل ذلك حظ أمثالهم من سائر الحيوان قيل : إن الحكومة بعد أن استولت على رومية منعت الدفن في المقبرة الأولى على تلك الطريقة ، وأمرت أن لا يدفن الميت إلا في المقابر المعتادة كهذه المقبرة الثانية ونحوها . وإنما حفظت الحق في الاستيداع في المعابد للبابا والملك دون سائر الناس . فها وحدهما توضع جثتهما في صندوق وتودع في الكنيسة ،

وقد أحسنت الحكومة في ذلك ، فان من كان محجياً بعظمته عن الناس في حياته
يجب أن يكون عبرة لعامةهم بعد مماته

﴿ المكتبة العمومية ودار المحفوظات ﴾

أما المكتبة العمومية فقد جاءني من أوصي بصحبتني - ويثقل عليّ ذكر
إسمه لطوله - فذهبت معه الى تلك المكتبة ، وهو أخو مديرها وله احترام
في نفوس خدمتها ، وكان يعرف قليلا من اللغة الفرنسية ، فسألته أن يطلب لي
فهرس الكتب العربية ان كانت ، فطلب ذلك فبليت حركة شديدة في الخدمة
وكثر الداخل والخارج ، والذاهب والآيب ، ولغطت الألسن ، وارتفعت
الأيدي بالاشارات ، وطال الزمن نحو ربع ساعة ، كل ذلك وأنا لا أفهم أسباب
هذا الاضطراب . وآخر الأمر جيء اليّ بدقتر صغير جداً يحتوي على نحو
خمسین صفحة ، وكانت تلك الضوضاء للبحث عنه ، وكل يتهم صاحبه بأنه هو
الذي يعرف مقره . والآخر يدافع عن نفسه تهمة معرفته . ولم يرعني عند تصفحه
الا كثرة ما فيه من كتب الأدعية والصلوات ، كأنه فهرس خزانة لشيخ من
مشايخ الطريقة الخلوتية ، أو مكتبة السادات البكرية ، قدّس الله أرواحهم جميعاً
وانما رأيت فيها قطعة من شرح ابن رشد على مدونة الامام مالك رضي الله عنه
وكتاباً في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، الا أنه لا يمكن
قراءة سطر واحد من تلك السيرة ، لأن خطوطاً قد جرت على السطور بعناية
غريبة حتى عمت الحروف الأصلية ، وحجبت حقيقتها عن النظر مع سلامة الظاهر
من التشويه ، فعجبت لذلك وسألت عن السبب ؟ فقل لي : ان قسيساً من أهل
القرن الثامن حمله التعصب على أن يأتي الى المكتبة ويطلب الكتاب بحجة أنه
يريد قراءته ، وكان يعرف العربية حق المعرفة فسلم اليه فصنع به ذلك حتى يصد
الناس عن مطالعة ما فيه . وقد فعل مثل ذلك بمصحف من المصاحف ، وزور كتباً
كثيرة أفسدها . وقد انكشف للحكومة حاله فحُوكم وصدر الحكم عليه بالحبس
مدة عشر سنين في روباية ، ومدة خمس عشرة سنة في روباية أخرى . أما القطعة من

شرح ابن رشد فكانت سليمة وخطها مغربي جيد تسهل قراءته على طالب العلم والكتاب الفرد الكامل الذي رأيته في المكتبة هو كتاب النخل لأبي حاتم السجستاني . وهو صغير في نحو ستين ورقة بخط ضيق مضبوط صحيح . قرأت منه عدة صفحات . ونقلت منه عدة فقرات في تفسير قوله تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) الخ . ومما نقلته في ذلك قول أبي حاتم رحمه الله . ومما كرم الله به الاسلام وكرم به النخل أنه قدير جميع نخل الدنيا لأهل الاسلام فغلبوا عليه وعلى كل موضع فيه نخل . وليس في بلاد الشرك منه شيء . فرحم الله أبا حاتم ما كان أبعد عن صحة الحكم في طبائع العمران . وإن كان من أفضل أهل السير وأجل علماء اللغة . والكتاب مفيد في اللغة وهو بخط مشرقى تاريخ نسخه شهر جمادى الآخرة سنة « ٣٩٤ » وقد بلغنا أنه طبع في المانيا . وكان الأجدد به أن يطبع في مصر . ولعل ذلك يكون إن شاء الله تعالى ساوى المصريون أهل المانيا في اهتمامهم باللغة العربية ونفائسها

ثم زرت دار محفوظات الدولة وهي مثل (الدقرخانة) عندنا إلا أنها لم تبع أوراقها ولا دفاترها لا بالقنطار ولا بالرطل كما فعل بالدقرخانة المصرية . بل هي محفوظة على ما كانت عليه من عدة قرون لا يفرط في ورقة واحدة منها . وقد طبعت الدولة ما في الأوراق التاريخية المحررة باللسان العربي وغيره من الألسن الشرقية . حتى يسهل على الناظر فيها معرفة ما كتب في تلك الأوراق ويتيسر له بعد ذلك قراءتها في أصولها . خصوصاً إذا كان غير متعود على قراءة الخطوط العربية المختلفة ، فإذا قابل بين المطبوع والمرقوم عرف صحة العبارة في النسختين . ولعل المكتبة المصرية الكبرى تصنع مثل ذلك في الخطوط المكتوبة على أوراق البردي وغيرها مما كتب بالكوفية . أو النسخ القديم . أو ما عفى بعضه القدم لتم فائدة حفظ هذه الأوراق والاتقاع بها إن شاء الله من العادة في المكاتب وديار حفظ الأوراق أن يجعل لها دفاتر يكتب فيها

الزائر اسمه ولقبه وتاريخ الزيارة ، وهي عادة حسنة تليق بأماكن أقيمت لحفظ الآثار العلمية والمذكرات التاريخية . أما عمال المكتبة العمومية في بلرم فلم يحفظوا بهذه العادة واكتفوا بتقديم ورقة من أوراق طلب المطالعة لوضع امضائي عليها كما فعل ذلك خدمة المكتبة العمومية في مسينا ، لكن عمال دار محفوظات الدولة راموا أن تجري تلك العادة مجراها فطلبوا ذلك الدقتر فلم يجدوه ، فجدوا في البحث والتنقيب ، وأخذت الاصوات تتقاذف ، والاشارات تنمو وتزايد ، على نحو ما فعل عمال المكتبة العمومية ، في اكتشاف فهرس الكتب العربية ، وكنت على عجل أريد زيارة محل آخر ، فحسنت مدة حتى يسر الله ووجد الدقتر ، ووضعت امضائي فيه . وأظنهم حمدوا الله لأن كنت السبب في العثور عليه بعد ضياعه

هذا وذلك يدلانك على أحد أمرين : إما قلة الزائرين لهذه الأماكن العلمية من الاجانب ، وطلاب النظر في الآثار العربية ، وقلة الدراسين من أهل البلاد في تلك الكتب التي كتبت في لسان غير لسانهم اكتفاء بتراجمها أو لعدم الحاجة اليها . وأما شدة الاهمال من موظفي هذه الديار ، وقد يتيسر لك الجمع بين الأمرين ، ولم أعهد في مكتبة أوربية أن وقع لي مثل ما وقع في مكتبتني بلرم .

ملاحظة السائح الى معرفة اللغات وأبوابها أنفع

ومن الأمور التي لأجد بدأ من تقدما أن موظفي هاته المكاتب لا يعرفون من اللغات إلا الإيطالية فلا يعرفون الفرنسية مع قربها من لغتهم ، ومن عرف منها بعض كلمات يصعب عليه أن يؤدي بها مراده ، وكان رفيقي يترجم بيني وبينهم عند ما كان معي في المكتبة العمومية ، لكنني بعد انصرافه وقعت في وحشة يزيد بها لزوم الصمت ، وعدم الفائدة في الكلام ، وضيق الصدر عند ارادة الاستفهام عما يراد فهمه ، ولا يوجد السبيل اليه إلا من طريق الاشارة . ولا يخفى عليك أن الاشارة إنما تصلح الافادة والاستفادة من الاخرس اذا

كنت والدلة له على ما في المثل « أم الآخرس أعرف بلغته » فلا بدّ من التعود على ضرب من الإشارة مخصوص حتى يتيسر الفهم والافهام . ولهذا لم يمكني أن أستفيد شيئاً فيما ينبغي أن يصنع لاستنساخ شيء من الكتب العربية ، كتلك القطعة من شرح ابن رشد مثلاً . وبعد طول الكلام بفرنسية لا يفهمونها ، وإيطالية لأفهمها ، انصرفت وأنا من الجهل على مثل ما دخلت به ، لكن قد انكشفت غنيمة هذا الجهل بملاقة من أمكنه فهم ما أقول ، وأمكنتني فهم ما يقول من أهل المدينة

يناسب في هذا المحل ذكر ما يقال من أن الذي يعرف اللغة الفرنسية يسهل عليه السفر في جميع بلاد أوربا ويتيسر له الفهم والافهام لأنها لغة عامة لا تجد نزلاً ولا مكاناً يرغب في زيارته إلا وأنت تجد فيه من يكفيك حاجتك فيما تريد . وقد رأيت أن هذا القول اضمحلت صحته في مكاتب بلرم ، ولم ألق ما يقوي صحته في مكتبة مسينا ، والمكاتب من ديار العلم التي يكثر فيها العارفون باللغات الأجنبية ، ولا ينبغي أن تخلو منهم لمسيس الحاجة اليهم . وقد بت ليلة في لوندرا ونزلت في أكبر نزل فيها يسمى (كيرافنور أوتيل) فيه ما يزيد على ست مئة بيت للنوم ، ولم أجد فيه من يعرف الفرنسية إلا خادمين أحدهما بواب والآخر من خدمة قاعة الطعام . أما خدمة أماكن النوم وغيرهم فلا يفهمون كلمة واحدة والحاجة اليهم أشد ، فإن المطالب الخاصة جميعها منوطة بهم أو بهن . إذا طلبت ماء أو لبناً أو قهوة ، أو تهيئة حمام أو نقل متاع من مكان إلى مكان ، أو تصحيح منكسر ، أو كسر صحيح ، لم تجد من تطالبه إلا أوائلك الذين لا يعرفون كلمة من الفرنسية ، غير أنهم ليعودهم فيما يظهر على كثرة ورود هذا النوع من الخرم صاروا أو صرن كوالدة الآخرس يسهل عليهم أو عليهن فهم الاشارات بدون اتعاب شديد لأعضاء المشيرين (أي الذين يتفاهمون بالإشارة لا الذين حازوا رتبة المشيرية العسكرية العثمانية) لكن لا يخفى عليك أن من المطالب ما لا تعبر عنه الإشارة ، فإذا تصنع إذا كنت أعلم العلماء بالفرنسية ، وعرض لك مثل هذا الطلب وليس عندك وقت يسع تعلم اللغة الانكليزية ؟ لا يسمعك إلا الاقرار بأن

ذلك القول الذي قالوا مبني على تجربة قاصرة لا تصلح أن تكون مقدمة من مقدمات البرهان المعدودة في فن المنطق

أزيدك شيئاً في هذا وهو أنك اذا كنت لا تعرف لسان القوم الذين تنزل فيهم ، يمجدونك طعمة أو هبة من الله سيقط اليهم ، فهم يكلفونك من النفقات ما يشاؤون ولا يمجدون في أنفسهم دافعاً من الرأفة بك ، أو الرحمة لغربتك ، ولا يمكنك أن تبحث مع ناهبك في موضوع نهبك ، لأنه لا يفهم ما تقول ، وأنت لا تفهم ما يقول ، فينتهي أمرك بدفع مارقم لك رغم أنفك ، وغاية ما يمكنك فعله أن تتنفس الصعداء ، وتهز رأسك ، وتلوي عنقك ، علامة على غضبك ، ولكن هذا كله لا يوفر عليك ما نقصه منك الجهل باللسان

وفي ظني أن من أراد أن يسافر إلى بلد لا يعرف لسانه فأولى له أن يتعلم من لسان ذلك البلد ما يكفيهِ للتعامل ، ومدة سنة قبل السفر تكفي لذلك ، وأجرة الاستاذ المعلم لا تصل إلى نصف ما يخسره ببركة الجهل باللسان

استغفر الله من خطأ فيما قلت . اذا أراد السفر إلى صقلية (سيسيليا) من بلاد ايطاليا فعليه أن يجد لمعرفة اللغة الايطالية حتى يتكلم بسرعة ، ويفهم بسرعة يسبق بها كلامه وفهمه كلام الايطاليين وفهمهم ، وإلا سأل الله العوض فيما يفقد من متاعه ، أو ما يؤخذ منه أجره على ضياعه . عند وضع قدمه على ساحل صقلية ، يجتمع عليه الحمالون والمرشدون المضلون ، ويتجاذبون متاعه وثيابه ، كل يأخذ قطعة ، فان كان لا يعرف اللسان ، كان ما كان مما لا يسهه الامكان ، فاذا سلم له متاعه من التحطيم أو الضياع . أو أصابه من ذلك فلم يدف فيه الدفاعة . وجد أمامه جيشاً من الطالبين كل واحد يطالبه بقيمة عمله . وما هو ذلك العمل ؟ هو حمل قعطة من المتاع وكلمة قيلت غير مفهومة في هدايته الى المحل الذي وصل اليه . مع أنه وصل برجليه . ومن طريق كل الناس يمشون فيه . ولا تنس أنهم يجاذبونك أعضاءك حتى ان جميع اجزائك لني خطر من مجاذبتهم ، اذا لم تكن حريصاً عليها . فاذا كنت في حاجة إلى السفر إلى هذه البلاد والاقامة فيها مدة من الزمان لتبديل الهواء وترويح النفس بجمال المناظر ، خصوصاً أيام الربيع

فعليك أن تصرف سنتين في تعلم اللغة الإيطالية وما تنفقه في التعلم أقل مما تخسر مع تعذر التفاهم

وجدت أن الذي يعرف الانكليزية أسعد حظاً في فرنسا ممن يعرف الفرنسية في انكلترا . فإني لا تجد نزلاً في البلاد الفرنسية إلا وفيه كثير من الخدم الذين يعرفون الانكليزية . سألت عن السبب في ذلك فقيل لي إن أهل فرنسا قلما يسيحون في بلاد الانكليز . أما الانكليز والأمريكيون فيملأون سهول فرنسا وجبالها . ويدهشون بالذهب صفارها ورجالها فاضطر الفرنسي الى ترويج الانكليزية في بلاده لتعجب الزائرين وليستكثر من النافرين

ويل لك إذا اقامت يوماً أو يومين في نزل بمسينا من اكبر ما يقصده السائحون رب النزل يعرف بعض كلمات قليلة من الفرنسية يمكنه بها أن يفهمك أن أجره محل النوم وحده بلا أكل ولا شرب عشرة فرنكات في الليلة ، ويمكنك أن تفهمه بأنك قبلت ذلك على شرط النظافة وتوفير الراحة ، وإن كان لا يعمل من ذلك بما فهم منك ، وإنما العمل على ما فهمت أنت منه

تنام عند الساعة العاشرة فلا يمر عليك نصف ساعة إلا وقد أظار نومك صباح وجلبة ودوي حركات تذهب وتجي . خارج منامك فيضيق صدرك وتطلب الفرج ولا تجده ، فتفتح الباب وتقول كلاماً كثيراً يفهم منه أنك في شدة الضيق مما تسمع ولا سبيل إلى النوم ، فيقال لك ماتفهم منه إن هؤلاء مسافرون جاؤا إلى المحل من جديد ، وماذا يصنع معهم ؟ فتطلب محلاً آخر للنوم ، يأخذون فراشك من محلك الأول إلى محلك الثاني ، فتحمد الله على الهدوء وإقبال الراحة ، ثم تلقي جسمك على الفراش ويقبل النوم على عينيك بثقله ، ثم لا يمضي نصف ساعة إلا وقد أخذت يداك تحك وجهك وعنقك ، واليسرى تحك اليمنى ، واليمنى تحك اليسرى ، ولا يزال الحك يزيد والمحكوك يتألم حتى تتنبه أعصاب الدماغ والعين ، ويصبح ذلك النوم الثقيل ، أخف من نفس الجليل ، فيطير عنك إلى حيث تبحث عنه ولا تجده ، ولا يبقى لك إلا الحك والحكة ، وما هذا كله ؟ هذا هو البق الذي تروءك حمرته ، وتقلقك عضته ،

بل حركته ، بل تطير نومك رؤيته ، فتطلب الخلاص ، وماذا تصنع ؟ مضت مدة من الليل نام فيها الصائحون ، فتعود إلى محلك الأول وقد نام الخادم ، فتعود إلى غير فراش أو تفرش لنفسك وهذا أفضل لك ، فإذا أصبحت حوسبت على شمتين في مكانين لم تصرف منهما شيئا وعلى شيئين آخرين ، وكدت تحاسب على أجرة مخدعين ،

أظرف ما وقع لي مع خادم هذا النزل : طلبت منه ماء باردا فلم يفهم ، فأشرت إلى في ومثلت بيدي صورة انا الماء ، فإذا هو يفتح الباب وينظر اليّ كأنه فهم انني أشرت بيدي إلى أن الباب مغلق وبفني إلى فتحه ، لأنه فتحة من فتحات بدني ، وبعد تعب أعضائي من الإشارة ، ولساني من التكلم بالفرنسية قت وبجئت عن كوب وأشرت به إليه ، ففهم اني أريد ماء لكن لم يفهم اني أريده بارداً ، وما أشد التعب في تصوير الجليد له ! فرغ ماء الغسل فطلبت منه تجديده ، فرفع في وجهي كرسيًا طويلًا اشتريته لأجلس عليه في المركب ، ففرغت لذلك وظننت انه يريد رمي به ظنًا منه اني شتمته غير ان ذلك سرّي عني عند مارأيته ينظر اليّ نظر الاحترام ويطلب مني بعينه أين يضع الكرسي ، فاستلقيت من الضحك وذهبت إلى موضع الغسل وأشرت إليه أن يبدد الماء ففعل ، أفلا يحملك ذلك على تعلم اللسان الايطالي اذا أردت السفر إلى سيسيليا وان لا تصدق ما يقال لك من أن معرفة الفرنسية تكفيك الحاجة في كل بلاد أوروبا ؟

مسينا ومقبرتها

نسيت أن أضع في جانب المقابر مقبرة مسينا ، وهي مقبرة في الجنوب الغربي من المدينة ، وانك اذا قلت لصقلي : ابي ذاهب إلى مسينا : يقول لك في الحال : لا بد أن ترى المقبرة : وهي جزء من المدينة تحسب مدينة بنفسها فيها مدافن للأمراء والأعيان ، مبنية على أجمل نظام ، وأقربه إلى السذاجة ، وفيها مكان شامخ رفيع يدفن فيه أرباب الشهرة من المهندسين والشعراء ونحوهم .

وطريقة الدفن في تلك الأماكن تختلف ، فبعضها على الطريقة المعهودة من وضع صندوق الجثة تحت الأرض ، وبعضها بوضعه في صندوق ضخم كبير لا يمكن سرقة على ظهر الأرض ، وبعضها في بيوت تفرض في عرض الجدر العريضة وهكذا . والمقبرة مزينة بأعراس من شجر الصنوبر ، وضرب من فصيلة الصنوبر يشبه الاثل وليس به ولا أعرف اسمه بالعربية سوى أنه شيء من كبار الطرفاء لكنها نظمت بيد أوربية تعرف كيف تخضع النبات لارادتها فتوجه الى الوجهة التي تريد . والطرق فيها على غاية ما يرام من النظافة والانتظام ، وهي أنظف وأجمل من كثير من شوارع مدينة الاحياء (مسينا) ثم انها تأخذ من أسفل الطريق الى قمة جبل اذا صعدت عليه نظرت وأنت في المقبرة من البحر والساحل أجمل ما تنظر عيناك من اللاألاء والنضرة في المواقع المختلفة ، ومن الاشكال الطبيعية ، وبدائع الاعمال الصناعية

يظهر ان المقبرة أعجبتني حتى انطلق قلبي في وصفها كأنه قلم صاحب جريدة ينطلق في السياسة المصرية ببيان مناحيها ووصف ضواحيها - أعوذ بالله - يوجد في هذه المقبرة مواضع مخصوصة للفقراء قد صفت فيها قبورهم على نظام محكم تراها كأنها خطوط مزارع القطن في أرض غير معتدلة تقصر وتطول ، وعلى رأس كل قبر صليب أسود بخيل للرأى من بعيد أنها أجنحة الغربان ، الجامعة على بقايا الجثمان . لا أزال في وصف المقبرة كما لا يزال بعض الغافلين عن أنفسهم في بلادنا يشتغلون بالسياسة ، عن الأدب والكياسة

ماذا أقول في وصف هذه المقبرة ؟ مدينة جميلة المناظر . بديعة المداخل . بعيدة المحارج . الداخل فيها أكثر من الخارج منها . وقد اختير لها شجر الصنوبر زينة من بين الأشجار لأنه في خضرة دائمة وحياة مستمرة كأن أرواح من يموت تنتقل اليه بعد مفارقة الأجساد . فهو لا يزال دائم الحياة في الصيف وفي الشتاء والحريف والريسم . مدينة زينها الأحياء في حياتهم . ليعودوا لاقامتهم - فيما يزعمون - بعد مماتهم . وهكذا من كان على يقين من الرحيل الى دار هياً تلك الدار للسكنى وأعد لنفسه فيها أنواع النعيم لطيب له المقام .

ولا يقلق به المكان ، لكن هل يكفي أن تزين لنفسك مقراً لجثتك وأنت لا تدري هل تشعر هناك بما زينت ، أو تؤخذ عنه إذا مت ؟ فهل زينت داراً لروحك بالطيبات ، كما زينت داراً لجثتك بالزهر والنبات . أخاطبك وأنت مصري من سكان القاهرة لا ترى في مقبرتك ولا في الطريق الموصلة اليها الا ما يخيفك من الموت ، وينفصك فيه غمر من الغبار وتلؤل من التراب ، تتذكر بها انك من التراب والى التراب

إذا بنيت فيها مسكناً فإست تبيد نفسك يوم تموت ولكن تبنيه لتقيم فيه بجانب الأموات وتشاركهم في المسكن وأنت حي تقضي فيه الأيام من رجب ومن شعبان ومن شوال ومن ذي الحجة وبعض أيام من بقية الشهور تأكل وتشرب وتنام ولا تشبه جيرانك من أهل المقابر الا في النوم الثقيل ، ولا تستحي من معاشرتهم وأنت تأكل وهم لا يأكلون ، وتضحك وهم ربما يبكون ، وتلعب وهم لا يلعبون . تلهو بالقبيل والقال ، وملاعبة النساء والأطفال ، وربما أقيمت في المقبرة ما تسميه بالموالد وجلبت بذلك اليها من المغنين والمطربين والعازفين ، ونصبت فيها الخيام وصنعت من لذيذ الطعام ، ماتدعو الى تناوله العلماء الأعلام ، والأثقياء الكرام ، فليلبون دعوتك زرافات ووحدانا ، مشاة وركبانا ، ويخوضون في غمار اللاهين الى أن يصلوا الى حيث نصبت خيامك ، وهيأت طعامك ، على ظهور الأموات ، وبجوار تلك الرفات . وتبيت ليلتك تلهو وتلعب ، وتصيح وتصخب ، كأن الموت قد فارق ديارك وكره جوارك ، وفر من بين يديك ، مشمراً مما يرى لديك . وأما مقبرة مسينا فلا ترى فيها آكلاً ولا شارباً . وإنما ترى الزائرين في سكينه ووقار لا يتكلمون إلا همساً ، تماشيهم ولا تكاد تسمع لهم جرساً ^(١)

(١) الجرس بفتح الجيم وسكون السين هو الصوت الخفي

﴿ صخب الصقليين وتسولهم وكسلهم ﴾

أهل مسينا من أهالي سيسيليا ، وسيسيليا هي جزيرة صقلية التي ملك فيها العرب نحو آمن مئتي سنة ، وكان منها كثير من العلماء والفقهاء والمؤرخين والفلاسفة والصوفية وبعض الزنادقة ، وكل صنف من صنوف أهل العلم والمنتسبين اليه ، كما كان في العراق والشام والأندلس . وقد ترك العرب آثاراً في البلاد ، منها ما تقدم ذكره وهو مما لا يذكر ، ومنها كلمات في لسانهم كثيرة كالشروق للريح الشرقية ، وكالقبعة والطلعة والشر ونحو ذلك من الكلمات التي ترشدك لأول وهلة الى أصلها ، وإلى البلاد التي حلت منها . ولا أظن أن الصباح والصخب الذي اختص به أهالي سيسيليا يكون من ميراث العرب رحمهم الله . فإن أصوات السيليين أشد قرعاً ، وآلم في الأذن وقعاً . وإني لأشك في أن حناجرهم أشد تمرناً على الصراخ بغير داع من حناجر أهل كفر الجاموس^(١) أو سكن عرب يسار . وأما العرب فكانوا يصيحون في الحرب والجلاد ، ويسكتون عند الرجوع إلى البلاد . ولعل هؤلاء استعملوا في السلم ما كان يستعمله أولئك في الحرب ، كما يفعل بحرية يافا وبيروت من تغور سورية . وأما الإهمال والكسل فلا أدري هل هو من طبيعة البلاد أو من ميراث تركه بعض السلف من الفاتحين ؟

ويل لك إذا عرفت بأنك غريب ، فإنه يتبعك السائلون الملحفون ، والمبكتدون المجدون ، ويلزمونك حتى تعطي شيئاً من النقد ، ولا فرق في حالك بين أن تجاس في قهوة أو تكون في زيارة معبد ، أو في تفقد مكتبة أو دار آثار ، تجدد من ذلك ما لا تجده عند المتبولي ، ولا عند ضريح الأستاذ البيومي (رضي الله عنه) ثم تجد الناس في الساحات وقوفاً أو جوالين لا يدرون ماذا يعملون ، وإنما يتقرب إلى الغرباء من يظن القدرة في نفسه على أن يقتصر منهم فريسة ، لكن يمكنك إن

(١) كفر الجاموس مزرعة بالقرب من عين شمس في ضواحي مصر

كان عندك صبر أيوب وسماجة بعض السياسيين عندنا من المصريين أو السوريين أن لا تعطي شيئاً أو تهرب اذا أردت

لعلك تفرست شيئاً من الكسل في حكاية ما وقع في فهرس الكتب العربية في المكتبة العمومية ، ودقتر الاسماء في دار المحفوظات ، وازيدك انك اذا ذهبت عند شركة الملاحة (بكسر الميم وتخفيف اللام ، لا الملاحة بفتح الميم وتشديد اللام كما يقول بعض اكابرنا ^(١)) فان التشديد يجعل الكلمة موضعاً للملاح الذي يوضع على الطعام ويتناول أحياناً للاسهال . أما التخفيف فهو اللازم في اسم الشركة لحفة صراكبها في السفر على البحر المالح ، وأظنّ اللفظ يرجع ايضاً الى رفيقه ، فان في البحر ملحاً ايضاً لكنه ليس يكثر كالذي في تلك الكلمة المشددة) وجئت مكتب الشركة لتطلب تذكرة سفر مثلاً تجد العامل يحرك يده ببطء كأن بعض أجزائه ينزع بعضاً ، فاذا فرغ من الكتابة على هذا الوجه القتال أسرع بمد يده اليك لطلب المبلغ ، فاذا دفعته اليه وكانت لك بقية من النقد يلزمه ردها اليك كادت يده تشلّ بجانبه وأنت تنظر اليه ، وتنتظر أن تتناول مالك وتنصرف ، وهو ينظر اليك كأنه يتمنى أن تنسى مالك عنده ، أو تمل الانتظار وتأخذك الوقت فتتركه له ، وهذا ضرب من الكسل في أداء الحق ونوع من البطء في العمل لا تجده حتى في مصر حرسها الله ، فان العمال عندنا حتى في زمن الصيف لا يسمحون لأعضائهم أن تتعود هذه العادة الرديئة

(رثانة الصقليين ووساختهم ومقابلتهم بالمصريين)

أما رثانة الملبس عند الفقراء وذنس الثياب وعدم العناية بالنظافة في كثير من الشؤون ، فذلك مما تجد له مثالا في كثير من الاحياء عندنا . واني أقص عليك فكاكيتين وقعتاني النزل الكبير الذي نزلت فيه - رفع الله عماده - كنت أطلع في جريدة خطابا ألقاه بعض أساتذة السوربون في باريس لمناسبة رفع تمثال

(١) هو أحد أعضاء مجلس شورى القوانين كان يتكلم في المجلس عن حرية حرفة الملاحة في البحر ، ويضبطها هكنا بفتح الميم وتشديد اللام

للكتاب المؤرخ الرنسي رنان ، ألقاه في بلدة رذن التي ولد فيها ، وكنت مستغرقاً فيما يقول الخطيب عن القيسيين وتعاليمهم ، وعن الاحرار اطلال الله في ألسنتهم ، وما يرونه في فلسفتهم ، واذا بخادم النزل دخل عليّ وتحت ابطه ولد صغير في الخامسة من سنه تقريباً ، وقد علا الوسخ وجه الصبي ، وهجم القذر على عينيه يريد أكلهما ، وانفه وفمه يسيلان ذاك بما تعرف وهذا بما لا يخفى عليك ، ويده عنقود غنب يتناول منه حبة بعد حبة وماء كل حبة يسيل من شديقه ، اذا رأيتك اممكنك ان تحلف بشي . من الطلاق أو العتاق ان امكن ان هذا من ذرية (الشيخ الدعكي) رحمه الله ، أو ان روح الاستاذ ظهرت في مظهره اللطيف ، واذا كنت واحداً من بعض الأعيان أو بعض من يزج بنفسه في العلماء الذين تعهدهم أقسمت في الحال انه وليّ من الأولياء مجذوب من المجاذيب . فاذا ذكرك مذكر انه ايطالي قلت لا يبعد على الله أن يكون قد ملأ قلبه جذبا وولها ، ورزقه من ذلك في صغره ، ما لم ينله الدعكي في كبره ، وإلا فكيف تسيل سعايبه إلى هذا الحد ويكون ليس بمجذوب ؟ هذا خلف . وربما حملك حسن الاعتقاد على أن تذهب إلى المحل الذي تعرفه ، وتستخرج من بحر الانساب ما يصل نسبته بمن لا يصح لأحد ان ينتسب اليه مادام على مثل هذا الاعتقاد . فانظر بعيشك الى هذا الطباقي ، والتقابل بين ما كنت مستغرقا فيه ، وبين ما فاجأتني من هذا المنظر الكريه . هل يمكنك أن تحدث نفسك بماذا دافعت عن نفسي في هذه الشدة ؟ دفعت فريزكا واحداً رميته على الأرض فالتقطه الصبي كما يلتقط العصفور حبة الأرز وكرّر راجعاً لا يبالي بتأخر أبيه عنه ليشكرني على ذلك الاحسان كأن الصبي كان يخاف ان اتبعه لأخذ الفرنك منه . لا تظنّ آني أبالتم في كلمة مما قلت فما رأيك بهذه الوساخة ! :

أما الفكاهة الثانية فقد كنت على مائدة الطعام في محل نومي من ذلك النزل لقلة السياح وسعة قاعة الطعام بحيث تكبر عن ان يجلس فيها شخص واحد فلما جاء صنف من الطعام يحتاج إلى الملح تنبّهت إلى الملاحظة (هذه المرة بتشديد اللام لأن فيها ملحاً) كما ستري . نظرت إلى الملح فاذا فيه النقط السوداء أكثر

من نزغات الشيطان ، في قلوب أهل الفسق والعصيان ، وأغزر من الخطيئات ، في بعض المزارات ، فنظرت الى الخادم وأخذت الملاحه وانشأت انكت ما فيها من النقط السوداء نكتة نكتة ، وأصعد نظري في وجه الخادم واقطب وأظهر التقزز ، ولا زلت كذلك حتى فهم ان هذا شيء من الوسخ لا أستطيع تناوله فعند ذلك تناول مني الملاحه بغاية الكسل ، ثم ذهب وأطال الغيبة ، وبعد ما كدت أغضب مع سعة حلمي في السفر جاء بملاحه أخرى اوسع من الأولى وأظهر منها ملحا ، فكأنه يفهم أن الوساخه مما لا يليق ، لكن لا يتم له هذا الفهم الا اذا قال له شخص آخر إن النظافة خير منها ، وأن الوسخ شيء تتقزز منه النفس ، وينفر منه الحس ،

أما مثال هذه الواقعة الثانية فما يكثر في خدمنا ، بل في بعض ساداتنا ربه الله حياتهم ، فانهم ينظرون بأعينهم الى الحبث والخبائث ، وربما حكموا فيه بوصفه لكنهم لا ينزهون المكان عنه ، بل ربما لا ينزهون انفسهم عن التلوث به الا اذا امرهم بذلك أمر ، فعند ذلك يمثلون الأمر بغيره المختار ، وعزيمة الجبار ، ثم يحدثك احدهم بحسن ما يصنع مما أمر به ، كأنه هو الذي اندفع اليه من نفسه كأن الأمر الصادر اليه هو الذي اكسب الشيء حسنه وحلاه بوصفه ، وأعوذ بالله أن يكون هذا هو مذهب الاشاعرة الذين يقولون ان حسن الفعل هو الامر به ، وقبحه هو النهي عنه ، وانه لا حسن ولا قبح للشيء في ذاته ، فاني على يقين انهم لا يعنون به ما يجده أولئك الآلات في انفسهم . وما عليك الا ان تبحث في رأي الفريقين حتى تقف بنفسك على تحقيق الشبه او نفيه ، فاني الآن لا اكتب كتاباً في علم الكلام ، ولا اكتب اسطري هذه للافضل من أهل الفن فانهم أعلى من أن يستفيدوا من قراءة امثال هذه القصص ، أوسع الله من عقولهم حتى تسع أهالي بلرم ومسينا معاً ، وما ذلك على الله بعزيز

الذي يخطر ببالي من أسباب ذلك اذا أخذنا بالجد أن هذا شأن العامة من الأمم التي طال فيها زمن الاستبداد ، وتصرف الارادة الواحدة في جميع الارادات مع ما يطرأ على تلك الارادة الواحدة من الاختلال وفساد المزاج ،

فتأمر بالشيء اليوم لأنه من هواها ، وتنهى عنه غداً لأنه لم يبق من مشتهاها ، وأمرها واجب الطاعة ، وفي مخالفته إضاعة أي إضاعة ، فتعوز دالاً نفس على تعاطي الأعمال لا لأنها مما يختاره ، بل لأنها مما تؤمر به ، ويخفى عليها وجه الحسن والقبح ، لأن تعوز على العمل مهما كان قبيحاً يزينه للنفس أو يسهل عليها مقارفته ، وسهولة المقارفة إنما تنشأ عن عدم الاحساس برائحة القبح ، ولو بقي تنته في شامة النفس لعاقته ، ولما أمكنها تعاطيه — وكذلك يخفى وجه الحسن في الشيء متى خفي وجه القبح في ضده ، كما لا يخفى عليك إن كنت من المدققين ، خصوصاً في علم أصول الفقه الحنفي ، وقرأت ما كتبه العلامة الغزي والمحقق الحفيد وغيرهما على التلويح للعلامة الثاني سعد الدين التفتازاني حاشية توضيح على مختصر البزدوي .

إذا سألتني عن العلامة الأول في مقابلة العلامة الثاني فاني لا أتذكره الآن ، وإن صدق ظني يكون هو عبد القاهر الجرجاني ولكن . الأفضل لك أن تسأل شخصاً آخر من مدرسي حاشية التجريد للبناني ، فإن من يقرأ هذه الحاشية يسهل عليه وزن العدين ، وتحديد الفرق بين العلامتين — وربما قال لك : إن الأول هو القطب الشيرازي ، لأن سهولة كلام الامام عبد القاهر وسلالته تمنعهم من جعله العلامة الأول — وإن شئت أن لا تشغل بهذه المسألة فهو أفضل من ذلك الأفضل . ويكون أفعل التفضيل الأول على غير بابه والسلام .

وإنما المهم فيما نحن بصدده أن الإرادة السليمة ، والطبيعة المستقيمة : يمكنها أن تميز الملح النظيف من الوسخ ، وتعني بتقديم النظيف الى الضيف من أول الأمر ، بدون احتياج الى اصدار أمر ، وقس على ملح الطعام بقية الاملاح ، كالنحو ملح العلم ، والعلماء ملح العالم . وهكذا كل ما يحتاج الى في إصلاح الأغذية بدنية كانت أو روحية ، دنيوية كانت أو دينية . وأما اذ كنت لا تميز ولا تفهم الا بأمر فتربص حتى يأتي الله بأمره والله شديد العقاب

﴿ دور الآثار وبساتين النبات ﴾

لا تبخس أهل سيسليا (صقلية) حقهم فانهم فهموا مسألة لا بأس بفهمها ، وأظنهم عرفوا ذلك من اخوانهم أهل شمالي ايطاليا وبقية الاوربيين ، وهي المحافظة على الآثار القديمة والجديدة . أما القديمة فتحفظ بذواتها ، وأما الجديدة فتحفظ ولو بنموذج منها . بنوا ملعباً في بلم ، فصنعوا له مثالا من الخشب ، ووضعوه في دار الآثار . مدينة بلم لها مثال مجسم ، رسمت فيه البساتين والجبال والكنائس مجسمة ، مصغرة بألوانها الطبيعية وألوان الأرض نفسها . وذلك المثال في دار الآثار ، حفظوا لباس امرأة مسلمة من مسلمي صقلية ، وهو زي يشبه الازياء الاوربية مع ساتر للوجه ، يدل على أن ستر الوجه كان عاماً حتى في صقلية أيضاً ، وان كان ذلك قد يغضب قاسم بك أمين ، فانه يجد له أضداداً في مسلمي أوروبا ، فضلاً عن مسلمي آسيا وأفريقيا

يحفظ القوم في متاحفهم هذه كل ما يوجد من آثار المتقدمين من مصنوعات وأشجار وأحجار ، ولا يدخرون جهداً في حفظ ذلك حتى اذا وجدت اسم شيء في كتاب تاريخ مثلاً ، أو عرض لك اسم في علم من العلوم كان يدل على معنى في الزمن السابق ، أمكنك أن تعرف المدلول بالبيان والمشاهدة ، وتتحقق صحة الوصف والتعريف ، فما استعمله الأقدمون من آلات وأدوات وأنواع ثياب وضروب مراكب ونحو ذلك ، تجد شيئاً منه في متحف من المتاحف ، أو في قصر من القصور ، أو في كنيسة من الكنائس ، أو في داهية من الدواهي التي هناك . وهذا مما يفيد في تحقيق المعاني التاريخية واللغوية فائدة لا يعرف مقدارها الا من يسمع اسم اللامة والدلاص والدرع والخوذة والعمامة (عمامة الحرب) ونحو ذلك من الألفاظ العربية الكثيرة الاستعمال ثم يراجعها في القاموس أو غيره من كتب المعجمات ، وبعد ذلك لا تستقر في خياله صورة لمدلول من مدلولات هذه الألفاظ ، وقد يتخيل صورة لا مناسبة بينها وبين الحقيقة ، وهو جهل باللغة فاضح ، وكثير منا يأكلون اللوز والجوز ، وينطقون باسمه في البيت (٦٣ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

وعند البائع اذا طلبوا شراء شيء منه ، وهم اذا رأوا شجرة الجوز أو اللوز لا يميزون بينها وبين شجرة الجوز أو الفلفل . وأما الجماعة فعندهم في بساتين النبات جميع هذه الأنواع من الأشجار ، وما لا تناسبه درجة الحرارة في الهواء يحدثون له جواء تناسبه بالتسخين أو التبريد حتى يعيش في جوٍّ مثل جوه ، ولكل من يريد معرفة شيء أن يذهب ويعرفه بعينه ، ذلك وقد رسموا صور هذا كله فيما كتبوا من كتب اللغة ومعجمات العلوم . ويتيسر للحاذق أن يعرف هذه الأشياء بصورها المرسومة في تلك الكتب . أما اذا قال لك صاحب القاموس : الجوز شجر (م) أي معروف ، فماذا تستفيد من هذا وأنت في مصر ، وليس في قرب الأزهر شيء من شجر الجوز (م) بل ولا في الازبكية نفسها ، فكيف يصير هذا عندك معروفاً ؟ وكيف يمكنك أن تحدث عن هذا الشجر اذا كنت كاتباً أو شاعراً أو طبيباً أو عالماً أو أديباً ؟

﴿ الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها ﴾

لهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج ووجد في دار الآثار عند الامم الكبرى مالا يوجد عند الامم الصغرى كالصقليين مثلاً ، يحققون تاريخ رسمها واليد التي رسمتها ، ولهم تنافس في اقتناء ذلك غريب ، حتى إن القطعة الواحدة من رسم روافيل مثلاً ربما تساوي مئتين من الآلاف في بعض المتاحف ، ولا يهتمك معرفة القيمة بالتحقيق ، وإنما المهم هو التنافس في اقتناء الامم لهذه النقوش ، وعدّ ما أتقن منها من أفضل مآثر المتقدم المتأخر ، وكذلك الحال في التماثيل ، وكلما قدم المتروك من ذلك كان أعلى قيمة ، وكان القوم عليه أشد حرصاً ، هل تدري لماذا ؟

اذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر وضبطه في دواوينه ، والمبالغة في تحريره ، خصوصاً شعر الجاهلية . وما غني الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل ، فإن الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع ، والشعر

ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى . ان هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الاشخاص في الشؤون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ، ما يستحق به ان تسمى ديوان الهيئات والاحوال البشرية . يصورون الانسان أو الحيوان في حال الفرح والرضا ، والطمأنينة والتسليم . وهذه المعاني المدرجة في هذه الالفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض ، ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهراً ، باهراً ، يصورونه مثلاً في حالة الجزع والفرح ، والخوف والحشية . والجزع والفرح مختلفان في المعنى ، ولم أجمعهما هنا طمعاً في جمع عينين في سطر واحد ، بل لأنهما مختلفان حقيقة ، ولكنك ربما تعصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والحشية ، ولا يسهل عليك ان تعرف متى يكون الفرع ، ومتى يكون الجزع ، وما الهيئة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك . وأما اذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت ، فانك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك ، كما يتلذذ بالنظر فيها حاك . اذا نزعنا نفسك الى تحقيق الاستعارة المصروفة في قولك : رأيت أسداً — تريد رجلاً شجاعاً — فانظر الى صورة ابي الهول بجانب الهرم الكبير ، تجد الأسد رجلاً ، أو الرجل اسداً ، فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم في الحقيقة ، وشكر صاحب الصنعة على الابداع فيها . ان كنت فهمت من هذا شيئاً فذلك بغيتي ، وأما اذا لم تفهم فليس عندي وقت لتفهمك بأطول من هذا ، وعليك بأحد اللغويين أو الرسامين ، أو الشعراء المفلّحين ، ليوضح لك ما غمض عليك اذا كان ذلك من ذرعه .

ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام ، وهي ما حكم هذه الصور في الشريعة الاسلامية اذا كان المقصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية ، أو أوضاعهم الجسمية ، هل هذا حرام أو جائز ، أو مكروه أو مندوب أو واجب ؟ فأقول لك ان الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لانزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الازهان ، فاما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة ، وإما ان ترفع سؤالاً الى المفتي وهو

يجيبك مشافهة ، فاذا أوردت عليه حديث : « ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » أو مافي معناه مما ورد في الصحيح . فالذي يغلب على ظني انه سيقول لك ان الحديث جاء في أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسبيين : الاول اللهو ، والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين ، والاول مما يفضه الدين ، والثاني مما جاء الاسلام لمحوه ، والمصور في الحالين شاغل عن الله أو مهمل للاشرار به ، فاذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الاشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات . وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف ، وأوائل السور ، ولم يمنعه أحد من العلماء ، مع أن الفائدة في نقش المصاحف موضع النزاع . وأما فائدة لصور فما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر^(١) وأما اذا أردت أن ترتكب بعض السيئات في محل فيه صور طمعاً في ان الملكين الكاتبين أو كاتب السيئات على الأقل لا يدخل محلاً فيه صور كما ورد فإياك ان تظن ان ذلك ينجيك من احصاء مات فعل ، فان الله رقيب عليك . وناظر اليك . حتى في البيت الذي فيه صور . ولا أظن ان الملك يتأخر عن مرافقتك اذا تعمدت دخول البيت لان فيه صوراً . ولا يمكنك أن تجيب المفتي بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة فاني أظن انه يقول لك ان اسائك أيضاً مظنة الكذب فهل يجب ربطه مع انه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب

(١) ان الذين رسموا الصالحين والانبياء انما أرادوا التبرك بصورهم وتعظيمها إكراماً لهم وهذا التعظيم يسمى في كل اللغات عبادة وجميع الصور والتماثيل التي كانت عند العرب كانت معظمة للدين ولذلك سمي في القرآن تعظيمها عبادة وكذلك النصاري كانوا يصرحون بأن تعظيم الأيتونات ونحوها من الصور عبادة فلما عارض المصلحون في ذلك صار بعض المصيرين عليه يسمى تعظيمها إكراماً وأصر بعضهم على تسميته عبادة . هذا وان النهي عن التصوير في الاسلام لم يزد على النهي عن تعظيم القبور وتشريفها وبناء المساجد عليها وإيقاد السرج عليها والا حاديت الصحيح حتى حظر هذا كله ولعن فاعله مشهورة وقد فعله المسلمون مع بقاء علته وهم يتركون التصوير وفوائدهم انتفاء علة النهي عنه أفنؤمن بظاهر بعض الدين ونكفر بحقيقة بعض؟ (وكتبه محمد رشيد رضا)

وبالجملة انه يغلب على ظني أن الشريعة الاسلامية بعد من ان تحرم وسيلة من افضل وسائل العلم بعد تحقيق انه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل . على أن المسلمين لا يتساءلون الا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها، وإلا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو ماسماهم بعضهم بالأولياء، وهم ممن لا تعرف لهم سيرة . ولم يطلع لهم أحد على سريرة . ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة ، وما يعرضون عليها من الأموال والمتاع . وهم يخشونها كخشية الله أو أشد . ويطلبون منها ما يخشون ان لا يجيبهم الله فيه، ويظنون انها اسرع الى اجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى . لا شك انه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد . ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الانسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية وتمثيل الصور الذهنية .

هل سمعت اننا حفظنا شيئاً حتى غير الصور والرسوم، مع شدة حاجتنا الى حفظ كثير مما كان عند أسلافنا ؟ لو حفظنا الدراهم والدنانير التي كان يقدر بها نصاب الزكاة ، ولا يزال يقدر بها الى اليوم أفما كان يسهل علينا تقدير النصاب بالجنهات والفرنكات ونحو ذلك مادام المثال الاول موجوداً بين أيدينا ؟ ولو حفظ الصاع والمد وغيرهما من المكيال أفما كان ذلك مما ييسر لنا معرفة ما يصرف في زكاة الفطر وما تجب فيه الزكاة من غلات الزرع بعد تغيير المكيال، وما كان علينا الا أن نقيس مكيالنا بذلك المكيال المحفوظة فنصل الى حقيقة الأمر بدون خلاف . أظنك توافقني على انه لو حفظ درهم كل زمان ، وديناره ومدّه وصاعه لما وجد ذلك الخلاف الذي استمر بين الفقهاء، يتوارثونه سلفاً عن خلف، كل منهم يقدر المكيال والميزان بما لا يقدر به الآخر، حتى جاء في آخر الزمان احمد بك الحسيني بخطي بعضهم ويوفق بين أقوال البعض الآخر، بدون أن يكون بين يديه صاع ولا مد من تلك الأصع والامداد، وما أصعب التخطئة والتوفيق ، اذا لم يكن العيان هو المميز بين فريق وفريق ، لو نظرت إلى ما كان يجب الدين علينا أن نحافظ عليه لوجدته كثيراً

لا يحصى عدده، ولم نحفظ منه شيئاً، فلنتركه كما تركه من كان قبلنا، ولكن ما نقول في الكتب وودائع العلم، هل حفظناها كما كان ينبغي أن نحفظها، أو أضعناها كما لا ينبغي أن نضيعها؟ ضاعت كتب العلم، وفارقت ديارنا نفائسه، فإذا أردت أن تبحث عن كتاب نادر، أو مؤلف فاخر، أو مصنف جليل، أو أثر مفيد، فاذهب الى خزائن بلاد أوروبا تجد ذلك فيها. وأما بلادنا فقلما تجد فيها الا ما تركه الاوربيون ولم يحفظوا به من نفائس الكتب التاريخية والادبية والعلمية، وقد تجد بعض النسخة من الكتاب في دار الكتب المصرية مثلاً، وبعضها الآخر في دار الكتب بمدينة كبرج من البلاد الانكليزية. ولو أردت أن أسرد لك ما حفظوا وضيعنا من دقات العلم لكتب لك في ذلك كتاباً يضيع كما ضاع غيره، وتجدده بعد مدة في يد أوربي في فرنسا أو غيرها من بلاد أوروبا نحن لانغنى بمحفظ شيء نستبقي نفعه لمن يأتي بعدنا، ولو خطر ببال أحدنا أن يترك لمن بعده شيئاً جاء ذلك الذي بعده أشد الناس كفراً بتلك النعمة، وأخذ في ائساعه ما غني السابق بمحفظه له، فليست ملكة الحفظ ما يتوارث عندنا، وإنما الذي يتوارث هو ملكات الضغائن والاحقاد، تنتقل من الآباء إلى الاولاد، حتى تفسد العباد، وتخرّب البلاد، ويلتقي بها أربابها على شفير جهنم يوم النعاد.

(أمير وأميرة من الاسره الخديوية)

البحر هادي، والهواء عليل، وقد قرب الغروب واليوم آخر أيام السفر، وأنا محبوبس في هذا المكان الضيق، لتحرير هذه الاحرف، اجابة لطلب بعض الناس وبودي لو استشق الهواء، لكن بقيت علي قصة اقصها ولو تركتها اليوم لم يجد اليها القلم في يوم

صعدت الى المركب من مسينا وجلست انتظر مسيره، وبينما انا كذلك واذا بأمير من أعضاء العائلة الخديوية يصعد من السلم الى السطح، فنهضت للسلام عليه، وتساءلنا عن مراحل اسفلنا، وفهمت منه أن معه خرمه، وهي من أعضاء

العائلة الخديوية كذلك . قلت : أمير جليل ربي على الطريقة الاروية ، وتعود السفر الى بلاد اوروبا مع حرمه ، وهي كذلك قد ربيت على العظمة والحرية ، فلا ريب ان نرى الأميرة مع الأمير ، ولا يقدح ذلك في كرامة واحد منهما ، فان الأميرات المصونات قد برين الناس من حيث لا يراهن الناس ، لا لأنهن من عالم غير عالمهم ، ولكن لأن الناس يفضون الطرف احتراماً لهن ، ولا حظرن عليهن في رؤية من لا يراهن . لكنني مكثت مع الأمير الى وقت العصر ، ثم تركته وذهبت الى محل الأكل لاتناول شيئاً مما يتناول في هذا الوقت ، فكان جلوسي مع بعض أرباب البيوت من الفرنسيين المقيمين في الاسكندرية فبدؤني بالكلام ، فتكلمت ، وامتد بي وبهم الحديث الى حالة المركب وازدحامه بالركاب وضيقه عنهم فقال قائل : أو قالت قائلة : مأسوا ما صنعت الشركة مع الرئيس ، فانها وضعتها في قرة ضيقة لاشباك لها ، وهي ملازمة لها ليلاً ونهاراً ، ولو كانت ممن يخرجون ويستنشقن الهواء لسهل الأمر ، ولكن الأميرة لا تخرج قط من يوم ركبت المركب ، ومن القمرات ماهو أفضل من قمراتها واوسع : فسألت هل بها شيء تألم له لو خرجت ؟ فقيل لي : لا ، الظاهر أنها في غاية الصحة وكمال العافية ، غير أنها لا تحب أن تخرج والقمرة مغلقة في جميع الاوقات :

امكنني بعد ذلك ان اسأل حتى يتم سروري بما فرحت لاوله ، فعلت ان الأميرة كانت في أوروبا تسدل على وجهها نقاباً أزرق ، على نحو ما يسدل نساء الاستانة أو سورية بحيث لا يميز الناظر شيئاً من وجهها ، ومتى ركب المركب لزمتم قمرتها ، وأغلقتها عليها ، إلى أن تصل إلى غاية سفرها . وكل ذلك تفعله حرصاً منها على كرامتها ، ومحافظة على المعروف من عوائدها ، من حيث هي أميرة مسلمة ، قلت مثل صالح لا بد من ذكره والثناء عليه ، حتى يتعلم أولئك المقلدون أن من أمرائهم وأميرائهم من هم أولى بتقليده . وأن خيراً لهم أن يقلدوا أميراً مصرياً من العائلة الخديوية الكريمة ، من أن يقلدوا جماعة من الاوربيين غير معروفين لهم ، ولا يحسون بتقليدهم ، ولا يستفيدون من حذوهم إلا تجردهم مما يميزهم من حيث هم مصريون أو مسلمون ، واختفاءهم في غمرة أولئك الارويين لا يتميزون

عن عانتهم في شيء ، وسريان ما يشكو منه القوم من الفساد إلى أنفسهم ، أو انفس نسايتهم ، فبارك الله في الأمير وفي الأميرة ، وأرشد الله شباننا إلى التأسى بهما إن كان لابد لنسائهم أن يذهبن إلى أوروبا لمداداة علة ، أو ايناس في غربت ، لعلك تسأل من هذا الأمير ومن هذه الأميرة ؟ فاني أقول لك الأمير هو الأمير عباس باشا حلمي ، والأميرة هي الأميرة خديجة أخت أفندينا الخديو عباس باشا حلمي . ومما يسرك ان كنت مثلي تحب العفة ووضع الشيء موضعه ، أن الأمير لا ينفق في سفره ان كان وحده أكثر من ثلاث مئة وخمسين جنيهًا ، وإذا كان مع الأميرة فلا ينفق أكثر من ستمائة جنيه في مدة شهرين ونصف ، وهو يعيش عيشة الأمراء .

تقول : لعله يقتصد ليكتنز ، ويوفر ليستكثر ، فأقول لك اني علمت انه ينفق من ماله في تربية تلامذة في مصر وفي الآستانة وفي انكلترا يتعلمون العلوم العاليتي في المدارس الحربية أو مدارس الطب أو الزراعة ، فما قولك في نفقة مثل هذه بدل النفقة في الشهوات ، وفوائت اللذات ؟ أليست تراقني على أنهم أفضل الأمراء عملاء ، ومن أنبلهم قصداً فانه يربي أناساً يقومون بشؤون بيوتهم ، أعرف بعضهم وأجهل بعضاً . ألا يكسب بهذا حسن الأحوال وتوخي ليد الذكر خصوصاً ؟ إذا استزاد من هذا الخير ، فانه بذلك يقوي عناصر العلم في البلاد وهو الأصل الذي نحتاج اليه لاسيما إذا انضم اليه حسن التربية ، كما هو مقصد الأمير ، ولو اقتدى به الأمراء لأصبحنا في ثروة من العلم ، ولم تصب حضراتهم بالافلاس من المال ، بعد الافلاس من السكال وفقه الله وأرشدكم والسلام .

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ كتب الاستاذ الامام هذا الفصل عن بلم عند زيارته إياها عائداً من الجزائر وتونس ، وفيه من شجون الحديث وفنون الاصلاح المفرغ في قالب الف ككاهة ما رأيت ، وأهمها رأيه في التصوير والمجانب وأخبرني أنه كتب مذكرات بشأن تونس والجزائر يريد ايداعها في فصول اصلاحية بهذا النحو من الأسلوب ، وقضى قبل أن يجد فراغا لذلك ، ولم توجد تلك المذكرات في أوراقه الى هذا اليوم

الباب الرابع

لوائح الامم والاعمال والتعليم الري

(اللائحة الأولى)

كتبها في منفاه بيروت ووقع عليها مع بعض وجهاء المسلمين وأرسلها الى سماحة شيخ الاسلام بالاستانة وذلك في ٢٦ جمادى الثانية سنة ١٣٠٤ ومنها يعلم أنه لم يأل جهداً في النصيح للدولة وأنها لو عملت بارشاده وصدت أملة ورجاءه الحسن فيها لا حيت الاسلام وجددت مجده وكانت بذلك ذات سيادة اسلامية حقيقية . وهذا نص ما كتبه رضي الله عنه وأتابه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وبه الحول والاقوة ، وصلى الله وسلم على نبيه وآله وصحبه . وبعد فقد رأينا وسررنا كما سر المسلمون كافة بما نشر في جريدة (طريق) من أنه صدرت الارادة السنية الى حضرة صاحب السماحة مولانا شيخ الاسلام ، بأن تؤلف تحت رئاسته العلمية لجنة ، أعضاؤها حضرات صاحبي السماحة نوري أفندي أمين الفتوى ، وحسني أفندي رئيس مجلس المعارف ، وصاحب العظم فقه عبدالنافع أفندي وصاحب الفضيلة خوجه اسحاق أفندي وأن يناط بهذه اللجنة اصلاح جداول الدروس في المكاتب الاسلامية^(١) وتوحيها ، حتى تكون كافة بمجميع الوسائل الصحيحة لتعليم أولاد المسلمين ، وتلقينهم ضروريات الدين الاسلامي ، وتزيتهم بالآداب والاخلاق الاسلامية على وفق الحق المطلوب . وأن حضرة مولانا شيخ الاسلام ، وحضرات أعضاء اللجنة الكرام ، وإن كانوا في غنى بآرائهم

(١) لفظ المكتب يطلق في البلاد العناية على المدرسة النظامية وان كانت عالية كمكتب الحقوق ومكتب الطب

القوية ، ومعارفهم الواسعة ، عن أن يتقدم اليهم أمثالنا بالمشورة ، ولكنها الحمية للدين تبعثنا على بسط ما يلوح بخواطرنا إلى أولياء أمورنا ، مع الاعتراف بالعجز ، والاقرار بالقصور ، عملاً بقول سيدنا علي كرم الله وجهه : « من واجب حقوق الله على العباد النصيحة بمبلغ جهدهم » وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته ، وقدمت في الدين فضيلته ، يفوق أن يعان على ما حمله الله من حقه ، ولا امرؤ وإن صغرت النفوس ، واقترحت العيون ، بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه .

إن من له قلب من أهل الدين الاسلامي ، يرى أن المحافظة على الدولة العلية العثمانية نالمة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله ، فانها وحدها الحافظة لسلطان الدين ، الكفالة ببقاء حوزته ، وليس الدين سلطان في سواها ، وإنا والحمد لله على هذه العقيدة عليها نحيا وعليها نموت

إن للخلافة الاسلامية حصوناً وأسواراً ، وإن أحكم أسوارها ما استحکم في قلوب المؤمنين من الثقة بها ، والحمية للدفاع عنها ، ولا معقد للثقة ، ولا موقد للحمية في قلوب المسلمين ، إلا ما أتاها من قبل الدين . ومن ظن أن اسم الوطن ومصلحة البلاد وما شا كل ذلك من الألفاظ الطنانة يقوم مقام الدين في إنهاض الهمم ، وسوقها إلى الغايات المطلوبة منها ، فقد ضلّ سواء السبيل

المسلمون قد تحيف الدهر نفوسهم ، وأتحت الأيام على معاهد إيمانهم ، ووهت عرى يقينهم ، بما غشيه من ظلمات الجهل بأصول دينهم ، وقد تبع الضعف فساد في الأخلاق ، وانتكاس في الطبائع ، وانحطاط في الأنفس ، حتى أصبح الجمهور الأغلب منهم أشبه بالحيوانات الرتع ، غاية همهم أن يعيشوا إلى منقطع أجيالهم يأكلون ويشربون ويتناسلون ، ويتنافسون في الذات البهيمية ، وسواء عليهم بعد ذلك أكانت العزة لله ورسوله وخليفته ، أو كانت العزة لساند عليهم من غيرهم . وهؤلاء الهنديون ، وسكان ماوراء النهر ، وقبائل التركمان وأشباههم ، يمثلون هذه الرزية أظهر تمثيل ، ولم تكن هذه المحنة خاصة بقوم من المسلمين دون قوم ، ولكن عمت بها البلية ، حتى خشي على قلوب كثير من العثمانيين أن بمساهذا المرض الخبيث ، لولا أن تدركها قوة مولانا أمير المؤمنين ^(١) خلد الله ظله

(١) انها لم تتداركها وما كانت أعمال دولته كلها الا مظاهر صورية لا روح فيها

هذا الضعف الديني قد نهج لشرائط الأجنبي سبل الدخول إلى قلوب كثير من المسلمين ، واستمالة أهوائهم إلى الأخذ بدساتهم ، والاصاخة إلى وساوسهم فخلبوا عقول عدد غير قليل . ثم انبث دعائهم في أطراف البلاد الاسلامية ، حتى العثمانية لتضليل المسلمين ، فلا ترى بقعة من البقاع إلا فيها مدرسة للأمرىكانين أو اليسوعيين أو العزارية أو الفرير ، أو لجمعية أخرى من الجمعيات الدينية الاوربية ، والمسلمون لا يستنكفون من إرسال أولادهم إلى تلك المدارس طمعاً في تعليمهم بعض العلوم المظنون نفعها في معيشتهم أو تحصيلهم بعض اللغات الأوربية التي يحسبونها ضرورة لسعادتهم في مستقبل حياتهم . ولم يختص هذا التساهل المحزن بالعامه والجهال ، بل تعدى إلى المعروفين بالتعصب في دينهم ، بل لبعض ذوي المناصب الدينية الاسلامية ، وأولئك الضعفاء أولاد المسلمين يدخلون إلى تلك المدارس الأجنبية في سن السذاجة ، وغرارة الصبا والحدأة ، ولا يسمعون إلا ما يناقض عقائد الدين الاسلامي ، ولا يرون إلا ما يخالف أحكام الشرع المحمدي ، بل لا يطرق أسماعهم إلا ما يزري على دينهم وعقائد آبائهم ، ويعيب عليهم التمسك بعري الطاعة لأوليائهم ويقع ذلك من نفوسهم موقع القبول ، لأنه من أساذتهم ، القوام على تربيتهم باذن آبائهم ، ولا نطيل القول فيما يتلقونه من العقائد الفاسدة والآراء الباطلة ، فذلك أمر أعرف من أن يبين ، فلا تنقضي سنو تعليمهم الا وقد خوت قلوبهم من كل عقد اسلامي ، وأصبحوا كفاراً تحت حجاب اسم الاسلام ، ولا يقف الأمر عند ذلك ، بل تعقد قلوبهم على محبة الأجنبي ، وتنجذب أهواؤهم إلى مجاراتهم ، ويكونون طوعاً لهم فيما يريدونه منهم ، ثم ينقثون ما تدينست به نفوسهم بين العامة بالقول والعمل ، فيصرون بذلك ويلا على الأمة ، ورزية على الدولة ، — نعوذ بالله — ولو فقه المسلمون لبذلوا من أموالهم ما يجيدون به تربية أبنائهم مع استبقائهم مسلمين في العقيدة ، عثمانيين في النزعة ، هذا ما جل به الجهل على الأمة الاسلامية ، وأن غائلته لمن أشد الغوائل . وقد كنا نخاف أن تحمل بوائها لو

لم تدفعها عزيمة مولانا أمير المؤمنين^(١)

أما المكاتب والمدارس الإسلامية فقد كانت إما خالية من التعليم الديني جملة ، وإما مشتملة على شيء قليل منه ، لا يتجاوز أحكام العبادات على وجه مختصر ، وطريق صوري لا يعدو حفظ العبارات ، مع الجهل بالمدلولات ، ولهذا رأينا كثيراً ممن قرؤوا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها^(٢) خلوا من الدين ، وجهلاً بعبائده ، منكمين على الشهوات ومفسفس المذات ، لا ينجشون الله في سر ولا جهر ، ولا يراعون له حكماً في خير ولا شر ، وانحط بهم ذلك إلى الكذب في الكسب ، والانصباب على طلب التوسعة في العيش ، لا يلاحظون فيه حلالاً أو حراماً ، ولا طيباً أو خبيثاً ، فاذا دعوا إلى الدفاع عن الملة والدولة ركنوا إلى الراحة ، ومالوا إلى الحياة ، وطلبوا لأنفسهم الخلاص بأية وسيلة

وبالجملة فإن ضعف العقيدة والجهل بالدين قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم إلا من عصم الله ، وهم قليلون . ولهذا تراهم يفرون من الخدمة العسكرية ، ويطلبون للتخلص منها أية حيلة ، وهي من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم . نرى غيرهم من الأثم يتسابقون إلى الانتظام في سلك جنديتهم ، مع أنها غير معروفة في دينهم ، بل مضادة لصريح نصوصه ، ونرى المسلمين ييخلون بأموالهم إذا دعت الأحوال إلى مساعدة الدولة ، والانفاق على مصالح الأمة ، ولا ييخلون بذلك على شهواتهم ، بعكس ما نرى في سائر الأثم . هكذا انطفاً من المسلمين مصباح العقل ، فلا يعرفون لهم رابطة يرتبطون بها ، ولا يهتدون إلى جامعة يلجئون إليها ، وتقطع ما بينهم (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) ولا حول ولا قوة الا بالله

هذه أحوال نذكر منها التمايل ، والله يعلم أن الواقع منها أكثر من الكثير ،

(١) لقد حلت البوائق بالدولة ولم تدفعها عزيمته بل غلبه المتفردون حتى أضاعوا للدولة وهم يدعون انقاذها (الطبعة الثانية)

(٢) ليتأمل القراء هذا الذي كتب منذ حيل كامل أي ٤٠ سنة وماذا كان من أثره في الدولة والخلافة بأيدي هؤلاء العسكريين وأمثالهم ؟

نذكرها مقرنة بأنفاس الأسف وصُعداء الحزن ، لما نعلم أن الأجانب قد أرسلوا ذئابهم يتخطفون شاذتهم ، وأغلبهم شاذة ، ويفتسون نادتهم وجمهورهم نادة ، ومسارة الفساد فيهم مشهورة ، يحس بازديادها كل سنة عما قبلها ، وإن عواقب ذلك لتخشى ، ولا حول ولا قوة الا بالله

واذا استقرينا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب هذا الخذلان لنجد الا سبباً واحداً ، وهو القصور في التعليم الديني إما باهماله جملة كما هو في بعض البلاد وإما بالسلوك اليه من غير طريقه القويمة كما في بعض آخر . أما الذين أهمل فيهم التعليم الديني . فجمهور العامة في كل ناحية ، لم يبق عندهم من الدين الا أسماء يذكرونها ، ولا يعتبرونها ، فان كانت لهم عقائد فهي بقايا من عقائد الجبرية والمرجئة من نحو أنه لا اختيار للعبد فيما يفعله ، وإنما هو مجبور فيما يصدر عنه جبراً محضاً . فلهذا لا يؤخذ على ترك الفرائض ، ولا اجترام السيئات ، ومثل أن رحمة الله لا تدع ذنباً حتى تشمل به بالفقران قطعاً ، لا احتمال معه للعقاب ، فليفعل الانسان ما يفعل من الموبقات ، وليهمل ما يهمل من المفروضات ، فلا عقاب عليه ، وما شا كل ذلك مما أدى الى هدم أركان الدين من نفوسهم ، واستل الحية من قلوبهم ، ولا منشأ له الا عدم تعليمهم عقائد دينهم ، وغفلتهم عما أودع في كتاب الله وسنة رسوله .

وأما الذين أصابوا شيئاً من العلم الديني فمنهم من كان همهم علم أحكام الطهارة والنجاسة ، وفرائض الصلاة والصيام ، وظنوا أن الدين منحصر في ذلك ، ومتى أدوا هاتين الجادتين على ما نص في كتب الفقه ، فقد أقاموا الدين ، وان هدوا كل ركن سواهما ، ويشتركون مع الأولين في تلك العقائد الفاسدة ، ومنهم من زاد على ذلك علم الفروع في أبواب المعاملات ، متخذاً ذلك آلة للكسب ، وحنعة من الصنائع العادية ، وأولئك الأغلب من طلاب الافتاء والقضاء ووظائف التدريس وما شا كل ذلك . لا ينظرون الى الدين الا من وجه ما يجلب اليهم المعيشة ، فان مال بهم طلب العيش الى مخالفته لم يبالوا بذلك ، معتقدين على مثل عقائد الجهلة مما قدمنا ، وهؤلاء لا تختص مفاصد أعمالهم بذواتهم ، ولكنها تتعدى الى أخلاق العامة

وأطوارهم . فهذا القسم أعظم الأقسام خطراً ، وأشدّها ضرراً في العامة والخاصة ، وما أفراده بقليل

نعم لا ينكر أن الخير في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه يوجد في هذه الطبقة رجال وقفوا عند ما حدّ الكتاب ، واستمسكوا في الدين بالعروة الوثقى وأضرّم الدين في قلوبهم نار الحمية ، واستفزّ اليقين همهم للنصرة المليّة ، إلا أنهم قليل ، والموجود منهم قد يكون خامل الذكر ، أو قاصر الاقتدار عما تطالبه به الشريعة في ارشاد الأئمة . وبالجملة فوجود أمثالهم لم يكن كافياً في دفع الشرور الوافدة من غيرهم ، ولولا ما لطف الله بهذه الأئمة ، بسرّ توجه مولانا الخليفة الأعظم لعجل لها من الوبال ما استحقته بسوء أعمالها ، ونبذها أحكام الله وراء ظهرها ، وانحرف قلوبها عن مقاصد ولاية أمورها الصادقين . وقد نظر مولانا أعزّه الله ونصره الى عظم هذا الأمر وهول عواقبه ، فأصدر ارادته السامية بالنظر في وجوه تداركه . فبالنعمّة العظمى ، وبالألّرحمة الكبرى ، هشت لها قلوب المؤمنين ، وبشت لورود بشرائها وجوه الصادقين ، وارتفعت أصوات التضرع الى الله بتأييد شوكة مولانا أمير المؤمنين ، وتأييد دولته ، واعلاء كلمته وانه بعد التأمل في الأحوال المتقدمة وهي ظاهرة مشهورة والوقوف على سببها الذي أشرنا اليه وهو غير خفي على مدارك مولانا شيخ الاسلام وأعضاء اللجنة الكرام نعلم ان أمير المؤمنين لم يرد من اصلاح الجداول أن يدرج في فنون المدارس الاسلاميّة بعض الكتب الفقهيّة مع بقاء التعليم على طريقه المعهودة في المساجد وفي دروس بعض العلماء ، فان العلوم العمليّة اذا لم تكن على عقائد صحيحة وإيمان صادق لا تلبث أن تضمحل ، ولئن ثبتت فانما تسوق الى أعمال خالية عن النيات ، وخاوية من سرّ الاخلاص فتكون أشبه شيء بالباطلة في عدم ترتب الأثر المطلوب عليها كما قدمناه ، فلا بد أن يكون مولانا الخليفة أعز الله نصره قد أراد أن يوجه النظر الى فن تقوى به العقيدة ويستحكم سلطانها على العقول ، ثم إلى تربية تذكر بما تنال النفس من ذلك الفن فيكون التذكّر مستحفظاً لما يصل إليها منه ، ثم إلى فن الفقه الباطني وهو ما تعرف به أحوال النفس وأخلاقها والمهلك

منها كالكذب والخيانة والغيرة والحسد والجبن وسائر الرذائل ، والمنجي كالصدق والأمانة والرضى والشجاعة وسائر الفضائل . ويضم الى ذلك باقي علم الحلال والحرام على ما هو مذكور في الكتاب والسنة ومتفق عليه بين أئمة الملة الاسلامية . ثم إلى تربية تحفظ ذلك وتروض النفس على العمل بما تعلم منه . ثم يكون التعليم في هذه الفنون المذكورة والتربية على وفق قواعدها مستندين الى الشرع الشريف ، بحيث تذكر ما أخذها من القرآن والسنة الصحيحة ، وما صح أثره من أقوال الصحابة وعلماء السلف الأول ومن هذا حذوهم كحجة الاسلام الغزالي وأمثاله ، فالمتصد بالذات علمان وهما أصلان ومجموعهما ركن من الإصلاح ، والركن الآخر التربية بما يهديان اليه حتى تصير العلوم ملكة راسخة تصدر عنها الأفعال بلا تعمل ، ثم يتبعها فن آخر يقوي على الغرض منها وهو فن التاريخ الديني ، خصوصاً سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه والخلفاء الراشدين ومن تأثرهم من الخلفاء العثمانيين

هذا اجمال ما ليه الحاجة من العلوم الدينية إلا أن كل واحد منها مقول على المبدأ والتوسط والنهاية ، وكل منها غذاء لطبقة من الناس لا قوام لحياتها الدينية والسياسية إلا به

فلهذا تقسم طبقات الناس الى ثلاث وفئتين لكل واحدة منها حداً من هذه الفنون . فالطبقة الاولى العامة من أهل الصناعة والتجارة والزراعة ومن يتبعهم . والثانية طبقة الساسة ممن يتعاطى العمل للدولة في تدبير أمر الرعية ، وحمايتها من ضباط العسكرية ، وأعضاء المحاكم ورؤسائها ومن يتعلق بهم ، ومأموري الادارة على اختلاف مراتبهم . والطبقة الثالثة طبقة العلماء من أهل الارشاد والتربية ، ولا نريد بهذا القسم منع الآحاد من كل طبقة أن يطلبوا الكمال الذي خص به من فوقهم ، ولكن الغرض تحديد ما يلزم لكل واحدة ، ثم إن الله لا يضيع أجر العاملين

التعليم الديني الابتدائي لطبقة العامة المسلمين

(الطبقة الأولى) هم أولاد المسلمين الذين يوقف بهم عند مبادئ الكتابة والقراءة، وشيء من الحساب، يعلمون ذلك إلى درجة محدودة ينتفعون بها في معاملاتهم، ثم ينصرفون إلى أعمالهم الصناعية والتجارية والزراعية وما يشبهها، وأولئك كتلة المذمة المكاتب الرشدية والعسكرية والملكية، والمكاتب الخيرية الأهلية. فهؤلاء بهم الدولة منهم أن يكونوا في قيادة الطاعة، إن جاذبتهم أرواحهم سلموها، وإن استقرضتهم أموالهم بذلوها، محترمين ذلك في سبيل الله غير ساخطين ولا متكرهين. ثم لا يكون لوسوسة أجنبي منفذ إلى قلوبهم، فيجب أن يودع في أفئدتهم لبدائيات تعليمهم مواعيد الحجة، ومعاصم النفقة المالية، كما كان ذلك في نشأة الاسلام وبداء الخلافة العثمانية، وكما هو معروف الآن عند الأمم الأوروبية مما تعلموه من أسلافنا، ولا تدرك هذه الغاية من أبنائنا إلا بعقيدة صادقة، واستقامة ثابتة، ومحبة خالصة. ولهذا ينبغي أن توضع لهم كتب التعليم الديني على الوجه الآتي :

أولاً — كتاب مختصر في العقائد الإسلامية المتفق عليها عند أهل السنة بلا تعرض للخلاف بين الطوائف الإسلامية مطلقاً، مع الاستدلال عليها بالأدلة الإقناعية القريبة المنال، والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة، ومع الامسام بشيء من الخلاف بيننا وبين النصارى، وبيان شبههم في معتقداتهم، لتكون الحواطر في استعداد لدفع ما يرد عليها من وساوس دعاة الانجيل المنبئين في كل قطر

ثانياً — كتاب مختصر في الحلال والحرام من الأعمال، وبيان الاخلاق الحسنة، والصفات الطيبة، والتنبيه على البدع المستحدثة التي لم يرد في الكتاب فرضها، ولا في السنة أثرها، وظهر في العامة ضررها، مستدلاً فيه بآيات الكتاب وأحاديث السنة، مؤيداً بأعمال الصديقين من سلف الامة، ولا بد أن يكون مدار الكتاب تقرير أن الانسان إنما خلق ليكون عبداً لله، فكل شيء دون

الله ورسوله مبذول

ثالثاً — كتاب في التاريخ مختصر يحتوي على مجمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه من وجه ما يتعلق بالاخلاق الكريمة والاعمال العظيمة ، وفداء الدين بالارواح والاموال ، مع الامام بالسبب في تسلط الاسلام على لائمه في وقت قصير ، مع قلة أهله وكثرة معارضيهِ وقوتهم ، وإثبات ان ذلك بسر الصدق في المكلفه والاتحاد في المجاهدة . ثم يتبع ذلك بتاريخ الخلفاء العثمانيين ، كل ذلك على وجه مختصر سهل التناول

ثم هذه الكتب تكون للعثمانيين من العرب عريية ، ومن الترك تركية ، ومن غيرهم بلسانهم ان وجدوا ، وما يذكر فيها من آية وحديث يفسر باللغة الموضوعه فيها

التعليم الدينى الواسط للطبقة المرسحة للوظائف

(الطبقة الثانية) هم أبناء المسلمين الذين ينتظمون في المدارس السلطانية والشرعية والملكية والعسكرية والطبية وما يتلوها ، والذي بهم الدولة منهم أن يكونوا أمناء لها ، حفاظاً لما استعظفوا عليه من شؤونها — الجندي منهم حامل لنفسه على ذباب سيفه حتى ينتصر أو يموت ، والمحكم منهم بفصل المحاصمات ، قابض على ميزان العدالة ، ناظر الى كفف النظام ، يرجح مارجح فيه ، ويسقط ماسقط منه . فهو يتحرى الحق ويحكم به أو يموت ، والمولى منهم أمراً في ادارة أمور الرعية ، آخذ لمنظار الحذق والدراية ، ليستين ما يخفى من مصالح رعاياها ، وما يدق من مسالك أهوائها ، ليضبط الاعمال ، ويلزم الحدود ، ويوفر وسائل العمران . فهو يقيم للدولة ما قامت به مصالح رعاياها ، الا أن يحول دون ذلك الموت فيموت . فهذه الطبقة بعد أن تشارك الطبقة السابقة في مبدأ التعليم الديني يزداد لها بعد ما تقدم كتب أعلى من تلك الفنون نفسها فتوضع لهم في المدارس العالية والاعدادية على الوجه الآتي :

أولاً — كتاب يكون مقدمة للعلوم يحتوي على المهم في فن المنطق وأصول النظر ، وشيء من آداب الجدل

ثانياً — كتاب في العقائد يوضع على قواعد البرهان العقلي والدليل القطعي مع التزام التوسط ، وإتيان الطريق الأقرب ، ومجانبة الخلاف بين المذاهب الاسلامية أيضاً ، إلا أن يتوسع فيما بيننا وبين النصارى لايضاح ما تستلزمه عقائدهم بوجه أجلى وأوضح ، وتفصيل شيء من فوائد العقائد الاسلامية في تقويم المعيشة المدنية ، فضلاً عن غاية السعادة الاخرية .

ثالثاً — كتاب يفصل فيه الحلال والحرام ، وأبواب الفضائل والردائل ببيان أكمل مما في البداية ، وتوضيح لأسباب الاخلاق وعلاها وآثارها على وجه يقنع به العقل ، وتطمئن به النفس . ثم بيان الحكم لبعض الأحكام الدينية ، وفوائدها في الحياة البشرية ، مع الاستناد في هذا وفي سابقه الى نصوص الدين وسير السلف الصالح كما تقدم ، ويكون مدار الكلام في الكتابين على ما يضرم الحمية في القلوب ، ويرفع النشوس الى مقام لا تطلب فيه الامعالي الامور .

رابعاً — كتاب تاريخ ديني يحتوي على تفصيل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه ، والفتوحات الاسلامية العظيمة في القرون المختلفة ، وما جاء به الخلفاء العثمانيون من ذلك ، والاتيان على كل هذا من وجه ديني محض . فان ذكرت فيه الوجوه السياسية كانت تابعة للغرض الديني ، ويبين في هذا الكتاب ما كانت تبسط اليه سيادة الاسلام من أقطار الارض ، ويودع فيه من العبارات ما يحرك القلوب الى طلب المفقود ، فضلاً عن حفظ الموجود . ثم تبسط فيه أسباب التقدم الاسلامي بأدق مما كان في السابق .

وأبناء هذه الطبقة كالسابقين من اخوانهم يكفيهم أن يتعلموا هذه الكتب باللسنة آبائهم ، وما يذكر من النصوص العربية يفسر لغير العرب كما سبق ، ولا يلزم لتربيتهم الدينية أن يتعلموا من اللسان العربي الا ما يفرض عليهم في العبادات ، وما يتلونه من ذلك فلا بد من ايقافهم على حقيقة معناه بالتفسير ، حتى يكون كل قائل عارفاً بمدلول ما ينطق به ليترك الذكر أثرأ في الفكر كما هو مطلوب الشارع ، وقد يندرج في هذه الطبقة بعض من يناط بهم أمر التعليم في المدارس والمكاتب الابتدائية ، اذا وجدت فيهم الاوصاف التي تؤهلهم لذلك من الحمية

والعفة ، ومحبة الدولة ، والوقوف عند أحكام الشرع الشريف ، مع التبصر في
الممنوعات والمطلوبات ، وتمييز ما هو من الدين عما ليس منه وان خالف أو هام العامة

التعليم الرباني العالي لطبقة المعلمين والمرشدين

(الطبقة الثالثة) هم أبناء المسلمين الذين عقلوا ما تقدم من كتب الطبقتين
السابقتين ، وكشف الامتحان امتيازهم في فهمها ، وتخلقهم بالصفات المقصودة
بوضعها . فانتخبوا لذلك على أن يرقى بهم الدرجة العليا من العلم والعمل ، حتى
يكونوا عرفاء الامة ، وهداة الملة ، فينيط بهم التعليم الديني في المدارس العالية
والاعدادية ، بل والابتدائية اذا كثر عددهم ، وبهم ينيط التعليم لأهل طبقتهم
فهؤلاء لا يكفي لا بل اغهم الغاية المطلوبة للدولة فهم دراسة ثلاثة أو أربعة من
الكتب الدينية ، بل يجب أن يزداد لهم على ما تقدم كتب كثيرة ، يزدادون
بدراستها بصيرة في دينهم ، ويستوسعون بها القدرة في البيان لافادة غيرهم .
فمن المعلوم أنه لا يكفي المرشد ما يكفي للمسترشد ، ولأجل هذا تقتصر في بيان
ما يحتاجون اليه على ذكر الفنون دون التعرض لأعيان الكتب الا قليلا .
فلتكن الفنون على الوجه الآتي ان شاء الله

أولا — فن تفسير القرآن ، وهو أهم ما يحتاج اليه ليقرأ القرآن تفهما
وتطلباً لما أودع الله فيه من الاسرار والحكمة . فالقرآن سر نجاح المسلمين ،
ولا حيلة في تلافي أمرهم الا ارجاعهم اليه ، ومالم تفرغ صيخته أعماق قلوبهم ،
وتزول هزته رواسي طباعهم ، فالامل مقطوع من هبوبهم من نومهم . ولا بد
أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد اليه أساليب اللغة العربية ،
ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم وساقة الابل ممن أنزل القرآن
بلغتهم ، والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفا باللغة العربية ، ومذاهب العرب في
الكلام ، وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي ، فعلم ذلك من أجود الوسائل لفهمه ،
فان احتجج الى وسيلة أخرى ، فأولاها : مطالعة كتب التفسير الذاهبة مذهب

تطبيق مفاهيم الكتاب على المعروف عند العرب كتفسير الكشاف^(١) وتفسير القمي النيسابوري ، ومن أخذ طريقهما

ثانياً — فنون اللغة العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وتاريخ جاهلي وما يتبع ذلك ليتمكن بها من فهم القرآن والحديث

ثالثاً — فن الحديث على شرط أن يؤخذ مفسراً للقرآن ، مبنياً له ، مع إطراح ما يخالف نضه من الأحاديث الضعيفة ، والاجتهاد لارجاع الأحاديث الصحيحة اليه إن كان ظاهرها يوم المخالفة

رابعاً — فن الأخلاق والآداب الدينية بتفصيل تام وإحاطة كاملة على نحو ماسلك الامام الغزالي في الاحياء ، مع تطبيق تلك القواعد الأدبية الشرعية على الاصول المشهورة

خامساً — فن أصول الفقه من وجه ما يمكن من صحة الاستدلال بالنصوص الشرعية ، وبوقف على كليات الشريعة ، ليستأنس بها في فهم الأحكام . ونرى أفضل كتاب يفيد لهذا المقصد كتاب المواقفات للشيخ الشاطبي المطبوع في تونس سادساً — فن التاريخ القديم والحديث ، ويدخل في ذلك سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بالتفصيل ، وسير أصحابه ، وتاريخ الانقلابات التي عرضت في الممالك الاسلامية الاولى ، وتاريخ الدولة العثمانية ، وما كان منها في إنهاض الاسلام من كبوته التي كباها في القرون الوسطى بعد الحروب الصليبية ، مع التوفيق في أسباب ما وصلت اليه الملة في هذه الايام ، ليتبين أنه لاسبب لذلك الا الجهل بالدين ، والانحراف عن أحكامه ، وانشقاق عصا الامة بالخلاف الذي لا طائل له

سابعاً — فن الاقناع والخطابة وأصول الجدل، لغرض التمكن من تقرير

(١) كنت سألت الشيخ في أول مرة رأيه فيها بطرايس الشام أيام طامي للعلم فيها عما يختار لطالب العلم من التفاسير ليفهم القرآن فهما صحيحا - فقال الكشاف - قلت ان فيه كثيرا من زغات الاعتزال فيخشى ان تعلق بذهن الطالب فيشذعن السنة . قال بل تلك مواضع قليلة معروفة يمكن الاحتراز منها

المعاني في الأذهان ، وثبتت العقائد في النفوس ، وإلزامها الاخذ بمكارم الاخلاق وفضائل الاعمال ، والارتفاع بها عن دنيا الصفات وسفاسف الامور ثامناً — فن الكلام ، والنظر في العقائد ، واختلاف المذاهب ، والبحث في أدلة كل ، لا لتحصيل العقيدة ، ولكن لزيادة البسطة في الفكر ، والسعة في الرأي ، ولا بأس بقراءة بعض الكتب الحكيمة الاسلامية لتكميل الاحاطة بوجوه المسائل العقلية

فهذا جملة ما يلزم لتحلية نفوس هذه الطبقة بفضيالي العلم والعمل ، ولم نتعرض لفن الفقه في العبادات والمعاملات ، لأنه في العبادات سهل التناول من أفواه الطلبة ، وفي المعاملات يشترك في طلبه المسلم والذمي والأجنبي ، إذ يضطر اليه كل ساكن في الممالك العثمانية ، ليعرف كيف يطالب بحقه أو يدافع عنه . وأما سائر العلوم من اللغات والرياضيات والطبيعات والنظامات ، وكل ما حددته نظارة المعارف العثمانية ، فهي على رسمها ، كل مدرسة تتبع قانونها ، لا يضر شيء منها بالدين ، بل الدين يقويها كما أنها تقويه

هذه الطبقة الأخيرة ينبغي أن تكون تحت نظر مولانا شيخ الاسلام خاصة وتكون إدارتها تحت عنايته في سلك مخصوص ، ويدعى لها بالمدرسين المتبصرين من أي أرض يوجدون بها ، وينتخب طلبة العلوم لها من أقوى الناس إدراكاً ، وأذكاهم أخلاقاً ، ويراعى في الانتخاب كمال الدقة في الامتحان . ثم لا يعطى الطالب منها شهادة ببلوغه الغاية من علومها ، وتأهله للتدريس الا بعد الامتحان الشديد في العلوم المتقدمة ، والبحث الكامل عن سيرته في أحواله وأعماله ، والتحقق من تقدمه في الفضيلتين العلم والعمل

التدريس في جميع تلك الدرجات إنما يقصد منه اشراب القلوب حب الدين وتوقيره ، وجعله الغاية المطلوبة من كل عمل ، حتى تكون للملة وجهة واحدة يقصدونها بأعمالهم ، فتلتئم قواها الروحية والمالية لخدمة الدين ، وتأييد حافظه الأعظم ، المدافع عن بيضته ، حضرة مولانا أمير المؤمنين ، فتكون الملة ملة مهيبة ، يخشى بأسها ، ويخاف بوائق غضبها ، ويؤول بالدولة الى علو الكلمة

في سياستها الخارجية، بعد ما عادت بركانه على المسلمين في راحتهم الداخلية .
وبالجملة فالتقصيد من اصلاح الجداول انما هو احياء الملة ، وقد كانت كادت
تموت والعياذ بالله ^(١)

ولهذا يجب أن يكون التدريس في أغلب العلوم المتقدمة - خصوصاً في
الاخلاق والآداب - أشبه شيء بالخطابة ترسل في المعاني الى القلوب تهزها
وتستفزها من مقار الخول والغفلة، الى مقامات التنبيه والبصيرة . ثم يتبع الدرس
رعاية لأحوال المعلمين وأعمالهم ، ومؤاخذه لهم اذا خالفوا حكماً من أحكام
ماتعلوه ، أو قصروا في عمل من لوازم ما اعتقدوه ، وتذكيرهم في ذلك يؤثر في
قلوبهم ، ويحرك الساكن من خواطرهم . ومن ثمة يجب أن يكون القائمون بالتعليم
على أكل الصفات العقلية ، وأفضل الاعمال النفسية ، يراعي فيهم ذلك بقدر الامكان
وان ثقتنا بوعد الله في قوله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)
وقوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلاً) وقوله (ان الله مع الذين اتقوا...)
وقوله (ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون) واعتبارنا بقوله (ان الله
لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وخبرتنا بأحوال الأمم الاوربية ،
والاسباب التي وصلت بهم الى ما نراهم عليه في القوة والدرابة ، كل ذلك
يوجب لنا اليقين القطعي بأن إصلاح التعليم الديني على الوجه المتقدم يكون نشأة
حياة جديدة تسري في جميع أرواح المسلمين العثمانيين ، بل هو الذي سيفضي
في أسرع وقت الى توحيد كلمة الاسلام ، وجمع أطرافه تحت كنف الدولة العلية
العثمانية رغماً عن أنف كل مخاصم ، ومنه رأي هؤلاء العاجزين أن لا حافظ
للدولة ولا وافي الملة سواه ، وأن جميع ما صرف في سبيله من المتاعب والنقبات
فهو أعود بالفائدة مما يصرف لأي عمل سياسي خارجي أو داخلي ، فانه لاسياسة
إلا بالقوة، ولا قوة إلا بالنجدة، ولا نجدة إلا بالوحدة، ولا وحدة إلا بالطاعة ،
ولا حقيقة للطاعة إلا بالعقيدة الحسنة ، ولا عقيدة إلا بحياة الدين ، ولا حياة
للدن إلا بالتعليم ، حتى يجري على أحكام التجربة ، وليس ذلك الا ما عرضناه

وأن جمهور المسلمين ممن يعرف أفكارهم في الأقطار العثمانية ، بل وفي غيرها لا يرون دواء لدائهم الا رجوعهم لأصول دينهم في أخلاقهم وأعمالهم ، وأن يكونوا يجهلون الوسائل الى ذلك . فالحمد لله الذي وفق الدولة حرسها الله لتقريب مرغوبهم ، وتحقيق أمانهم

هذا ما ترفعه الى مقام شيخ الاسلام ، فان صادف قبولا فذلك ما نؤمل ويؤمل المسلمون ، وان كانت الاخرى فقد أدينا ما حضر لنا على حسب عجزنا ونسأل الله أن يوفق مولانا أمير المؤمنين وأركان دولته الى تقرير ما هو أعلى من أفكارنا ، وأنجح منها في اصلاحنا . وانا في جميع الأحوال نوالي الدعوات الصالحات بنصر مولانا الخليفة الاعظم وتأيد وبقائه ظل الله ورحمة لعبيده آمين

كلام في الرعاية والمربية

وبقي في موضوع الاصلاح الديني كلام هو كالتمهة له ، فنقدم لعرضه وهو أن المكاتب والمدارس المنشأة في الممالك العثمانية ، ان لم تكن قليلة بالنسبة للرعايا العثمانيين ، فالداخل اليها قليل بالنسبة الى عدد الاهالي ، فان الجمهور الاعظم من سكان القرى ، والأعراب المتقلين في أكناف المملكة وأشباههم لا يرون ضرورة لتعليم أولادهم ، ولا يقدرون التربية الحسنة حق قدرها . فاصلاح جداول التعليم في المدارس لا تصيبهم فائدته ، بل يحرمون منها كما يحرم الكبار من العامة الذين جاوزوا سن التعليم ، وهؤلاء وأولئك من جسم الدولة ولهم وظائف من الاعمال يطالبون بأدائها ، والحال فيهم من الجهل ما وصفنا . والمضرة اللاحقة بالدولة من جهلهم هي كما بينا . فمن الواجب الالتفات اليهم باصلاح أرواحهم لتستفيد الدولة منهم فائدتها من سواهم

وذلك لا يكون الا بترتيب دعوة تنبهم الى الواجب عليهم من تعليم أبنائهم ، وتحميلهم على السعي في تربيتهم وتهذيبهم ، ثم نخدعهم عن أطباعهم ، وتلين من قساوة قلوبهم . ثم أنهم لو رغبوا في التعليم ، وكلفت الدولة بإنشاء مكاتب لتربية أبنائهم ، والانفاق عليها زادت عليها النفقات مع كثرة ما يلزمها

من المصاريف في إدارة شؤون المملكة ، فلا بد أن يكون من وظائف الدعاة تحريض الموسرين والأغنياء أن يبذلوا من فضلات أموالهم ما ينفق على إنشاء المكاتب وعمل التعليم فيها ، ويؤثفوا لذلك لجائنا وجماعات في كل بلد وبقعة لتديره والقيام عليه تحت مراقبة من يقوم بالدعوة فيهم . ثم يكون من وظائف الدعاة إلقاء الوعظ العام في المساجد والمجامع ائذكروا الناس ما نسوا من دينهم ويعرفون ما جهلوا منه ، ويشربوا قلوبهم حب الدولة ، ويقرروا في نفوسهم بلطف البيان أن أمير المؤمنين ، وخليفة رسول رب العالمين أولى بهم من أنفسهم وعلى ذلك يجب أن يكون لأهل الدين دعاة مرشدون ينبشون بين العامة ليقفونهم على أمور دينهم ، ويبادروهم بالدواء قبل استفحال الداء .

وهؤلاء المرشدون يجب أن يكونوا على الأوصاف التي شرطناها في أهل الطبقة الثالثة علماء وعملاء . وبالجملة فلا بد أن يكونوا من أطول الناس باعاً في الفنون الأدبية الشرعية ، وأوسعهم علماً بعالم الأخلاق وأمراض النفوس ، وأقدمهم على التماس منافذ القلوب للدخول إليها بما يصاحبها . ثم يكونوا أقوم الناس سيرة ، لا يخالف عملهم قولهم فيكونون مثالا للناس يحتذونه ، وقدوة لهم يتبعونها . ثم لا بد أن يكون في كل قوم بلغتهم ، بل يجب أن يكونوا ممتازين بفصاحة اللسان وجودة المنطق بين القوم الذين يرشدونهم ليقبلوا عليهم بالاستماع ومن هذا تلزم المبادرة إلى إصلاح الخطبة في مساجد الجمعة ، وتوليها قوما يحسنونها ، ويترجون فيها ما يمس أحوال العامة في تصرفاتهم المشهودة ، ويبشرون لهم مضار الفساد ، ويهدونهم إلى سبل الرشاد ، كما هو مقصود الشارع من فرض الخطبة في الجمعة ، وهذا باب عظيم من الإصلاح اذا وجهت العناية إليه رجونا منه النفع الكثير والخير الغزير

فان سأل سائل : أين الكتب التي توضع للطبقة الاولى والثانية من المتعلمين ؟ وأين الرجال الذين يصلحون للتعليم والتربية ؟ وأين الذين يقومون بتربية الطبقة الثالثة وتهذيبها ؟ وأين الذين يمكن للدولة أن تعتمد عليهم في إرشاد العامة وتبشيم دعاة ؟ ثم من أين توجد مصاريف هذه الأعمال ؟ ثم كيف شرطت في أهل

الطبقة الثالثة أن يحصلوا تلك العلوم مع الايفال فيها ، والوصول الى حقائقها ، وذلك يستدعى زمنا طويلا

(فالجواب) أما وضع الكتب للطبقتين فسهل جداً لو كلف أحدنا بوضعها لتيسر له ذلك بمعونة الله عز وجل في أقرب وقت يمكن متى صدر الأمر بذلك تحت نظر مولانا شيخ الاسلام . وأما الرجال الذين يعلمون في الطبقتين الاولين وفي الثالثة أيضاً والذين يليقون لوظيفة الارشاد فهم إن تعسر وجودهم في بلد واحد أو مدينة واحدة فالبحت عنهم في أطراف بلاد المسلمين يهدي الى الكفاية منهم لبداية المشروع متى صدقت النية وخلصت الوجهة لله ولحق في البحث والاختيار . وأمثال أولئك الرجال أهل الدين والاستقامة قلما يقفون بأبواب الامراء ، أو يتطلبون المناصب الا اذا رأوا في ذلك مصلحة لدينهم . فهؤلاء لا يعرفون إلا بعد التفتيش عليهم . ثم اذا حسنت البداية وتبعها الاجتهاد مع الاخلاص في العمل وصل الأمر بتوفيق الله الى الكمال المطلوب

وأما طول الزمان في التعليم على أهل الطبقة الثالثة فقد علمنا أن الرؤساء الروحانيين من الطائفة النصرانية ، يقيمون في تعلم لاهوتهم خاصة خمس عشرة سنة ، بل وعشرين زيادة على الزمن الذي صرفوه في سائر العلوم . ومن المقرر عندنا أن ما يشتغلون به هو الباطل ، فليس من المنكر ولا الغريب أن يطول على طلاب الحق زمن البحث للاحاطة بأطرافه ، حتى يتمكنوا من نصره وتأيينه

وأما المصاريف فانه متى وجد ولو قليل من الرجال العارفين الصادقين (وهم موجودون في زوايا الخفاء ، يظهرهم البحث الصحيح والطلب الدقيق) وقاموا في الناس بالنصيحة من قبل الدولة ، وظهر من حسن تصرفهم واستقامتهم ما أكد ثقة الناس بهم ، فلا تقصر أيديهم عن تخليص الأموال الوافرة من أيدي المترفين من أهالي المملكة العثمانية لتصرف في هذا السبيل ، وأقل تجربة تحقق هذا الذي نقوله متى فوض الأمر لأهله . فانتا لم تأت بشيء من الكلام في هذا الباب الا عن خبرة بأحوال إخواننا المسلمين ، وطول ممارسة لأخلاقهم .

والصادقون في خدمة الدين لا يدركهم اليأس من إصلاحه ، فانه لا يأس من روح الله الا القوم الكافرون

هذا مجمل ما حضر لخواطر العاجزين ، وفي التفاصيل ما يطول به القول أضعافا مضاعفة ، فان دعينا اليه لم تتأخر عن به ، والله الهادي الى سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين

جمادى الآخرة سنة ١٣٠٤

(يقول جامع الكتاب) هذه نصيحة الرجل الذي كان يشي به أهل الفساد في مصر لسلطان بأنه ينفذ الدولة فليأتنا أحد بمثل نصيحة للدولة في هذه اللائحة ، وفي اللائحة التالية لها

اللائحة الثانية

في اصلاح الفطر السورى

قدمها الى دولة والى بيروت بعد تقديم اللائحة السابقة الى شيخ الاسلام وهي

أرفع إلى مقام دولتكم السامي أن للدولة العلية أدام الله سلطاتها ، وعزز مكلتها ، حقوقا ثابتة على ذمم المسلمين تتقاضاها العقيدة بعد أن قضت بها طبيعة الحياة الملية ، ولا هوادة بين الله وبين أحد من خلقه في إغفال حق من تلك الحقوق . وأدناها صرف الفكر إلى النظر فيما يعزز جانب تلك الدولة ويقوي أركانها ، وأقصدها بذل ما استطاع من السعي لدفع مالا يلتم مع مصلحتها ، وأعلاها الجود بالنفس واستقبال هول الموت في ذلك السبيل الاقوم

وانني على ضعفى — والحمد لله — مسلم العقيدة عثمانى المشرب وإن كنت حربى اللسان ، لا أجد في فرائض الله بعد الايمان بشرعه والعمل على أصوله فرضاً أعظم من احترام مقام الخلافة والاستمسك بعصمته ، والخضوع لجلالته ، وشحذ الهمة لنصرته بالفكر والقول والعمل ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، وعندي أني إن لم أقم على هذه الطريق فلا اعتداد عند الله بإيماني فانما الخلافة حفاظ الاسلام

ودعامة الايمان ، فخاذلها محادّ الله ورسوله ، ومن حادّ الله ورسوله فأولئك هم الظالمون . فهذا الذي أزعج همي للفكر في أحوال هذه البلاد مدة إقامتي بها غريباً عن أهلها مفكراً في مجاري أعمالهم ، وما خدمشاربهم ، وضروب مذاهبهم ، من وجه ما يتعلق بالدولة رعاها الله وهو الذي بعثني على أن أعرض ما ألمت به من ذلك على مقام دولتكم بعد الثقة بأنكم من أغزر رجال الدولة علماء ، وأرجحهم حِلماً ، وأقومهم سيرة ، وأشدّهم حرصاً على تعزيز عرش الخلافة ، وأصدقهم إخلاصاً في خدمة أمير المؤمنين أعز الله نصره . وأرفع إلى عليّ نظركم مالو ألقى بين يدي سواكم لحشيت إغفاله ، وتوجست إهماله ، ولو نال الحظ من جليل رأيكم فيه لكساه قبولكم حلة الفخار ، وأكسبته لحظات التفاتكم العالي مسحة الحق والنصفة ، فإن كان مارجوت فذلك فضل الله وكمال سجاياكم الطاهرة وعلو رأيكم . وإن كانت الأخرى فما هو إلا الفرض أقضيه مع الاعتراف بالعجز ، وقصور الفكر ، وكلال النظر

هذه البلاد من أجدر بلاد الدولة العلية بالرعاية وأولاهابالاهتمام ، وموقعها من سائر البلاد العثمانية لا يخفى على نظر دولتكم ، وقد توم بعض من تولاهام من خدمة الدولة أن في نفوس أهاليها ميلاً للاستقلال ، وطموحاً للانفصاخ عن دوحه الخلافة نعوذ بالله ، فهذا وهم لا أساس له ولا يمس جانب الحقيقة ، فنفوس السكان على اختلاف طبقاتهم لا ترى من أجل أحوالها ما يؤهلها لأقل شأن يليق بهذه الغاية ، وهم أطوع للسلطة الحاكمة عليهم من ظلمهم ، ولا هم لهم إلا في استرضاء العاملين عليها بأية وسيلة كانت ، ولو فرض أن خيالاً بالياً مثل هذا لاح بذهن أحد مما له صلة بالأجانب منهم فليس بخارج عن حد الأمن المستحيلة ، وليس في البلاد ولا فيما يجاورها من مجتمع عليه السكامة ، أو تعقد على التلميم له العزائم ، نعم نشأ هذا الوم من ألفاظ صدرت من بعد الطغام السذج الذين لا مقام لهم بين العامة ولا الخاصة على عهد بعض الولاة ، لتسامحه فيها ، وعدم مبالاة بها ، وهي قذافات لا مكان للقصد منها ، وطائشات كلام لاشمة للرأي فيها ، وهي بما يصدر عن الاطفال ، أشبه منها بما يكون عن الرجال ، ولهذا لم يكن أثرها في

أنفس العامة فوق وصول ألفاظها إلى أسماعهم ، ثم ترد على قائلها ، ويحثي بها التراب في وجوههم ، ولكن مما يوجب الأسف أن بعض الظانين بالرعية هذا الظن من عمال الدولة قد عولوا عليه وجاؤا بما عاد على المسلمين بالضرر في تربيتهم وأخذ أفكارهم ، وأفاد غيرهم في الاستعلاء عليهم كما جرى من بعض أولئك العمال في إلغاء الجمعيات الخيرية الإسلامية على قيام أمثالها في سائر الطوائف

على أنه يوجد أمر آخر ان لم يكن أعظم ضرراً من هذا الوم على فرض ثبوته فليس بأقل غائلة منه ، وذلك أن سكان هذه البلاد ينقسمون أولاً إلى قسامين الأول سكان جبل لبنان ، والثاني سكان ولايتي بيروت وسورية

مادة أهالي جبل لبنان

أما سكان جبل لبنان فهم طوائف مختلفة أكثرها عدداً وأقواها عدة طائفة الموارنة من النصارى ويلبها طائفة الدروز ، ويوجد نزر يسير من أهل السنة، وعدد قليل من الشيعة، وعائلات من سائر الطوائف المسيحية . فالموارنة يعتقدون أنفسهم فرنساويين وهوامم للدولة الفرنسية وصفاهم معها لاعتقادهم أنها الحامية لهم، والواقية لحقوقهم ، وقوي الاعتقاد فيهم من نحو ثلاثين سنة بعد حوادث لبنان والشام المشهورة وامتياز الجبل ، والحكومة الفرنسية لا تتي في تمكين هذه العقيدة بتأييد الجمعيات الفرنسية ومساعدتها على إنشاء المدارس والمكاتب في جميع أنحاء الجبل . وتلك الجمعيات انما وضعت مدارسها على أساس التربية الفرنسية واشراب المتعلمين فيها مذهب الميل إلى فرنسا وإخراجهم بما أمكن من الوسائل عن عوائد بلادهم وإبعادهم عن معرفة حقوق أوطانهم حتى لقد يخرج التلميذ من المدرسة وكأنه أتى من بلاد فرنسا لا يعلم من أحوال وطنه وذولته إلا ما يعلمه بعض السياحين وطراق البلاد من الأجانب ، ثم بعد استتمام دروسهم لا يرى النبيل منهم مطلباً أشرف من نيل وظيفة دانية أو عالية في إحدى دوائر الأجانب إما ترجاناً لفنصل ، أو كاتباً في شركة ، أو ماشاكل

ذلك . ورؤساء هذه الطائفة لا منزع لهم يلجؤون اليه إلا قنصل الدولة الفرنسية ، وفي كل عام تبذل حكومة فرنسا مبالغ وافرة من الدنانير لا يبلغ هذا الفساد حده .

والدروز كانوا قبل ١٨٦٠ من أقوى أنصار الدولة وأشد الطوائف تعلقاً بها ولهم صفات في الشجاعة والثبات تحولهم مقاماً يزيد في الرفعة على مقام الموارنة في الجبل ، ولكن بدأ فيهم الضعف بعد امتياز لبنان عند مآصار النظام قاضياً بأن متصرفه يكون كنوياً ، وأغلب رجال حكومته من المسيحيين ، وأصبحت قوة البأس لا توصلهم إلى المناصب كما كانت في سابق العهد . واضطروا لموالاته أهل السلطة ليحفظوا بعض ما بقي لهم ، أو ينالوا شيئاً مما يحولهم النظام نيله ، فانحطت بذلك أحوالهم ، وقد كانوا ولا يزالون فئتين جنبلاتية ويزبكية . فالجنبلاتيون استمالتهم حكومة انكلترا ، وأخص علاقتهم مع قنصل الانكليز ، واليزبكيون وهم أقرب الفئتين إلى الدولة مالوا إلى المشرب الفرنسي وكرعوا منه حتى عموا ، غير أن الحكومة الانكليزية لم تأل جهداً في استمالتهم أيضاً بواسطة المدارس والمكاتب التي ينشئها المرسلون من البروتستانت اترية أبناء الدروز أولاً وبالذات وترية غيرهم ثانياً وبالتبع

والدروز قوم خلو من العلوم بالمرّة منذج كأنهم في بدايات البداوة ، ولكنهم أذكاء بمجودة الفطرة ، ولا يخشى على كبارهم أن يخلعوا مذهبهم إلى مذهب آخر وإنما يخاف على أبنائهم من ذلك ، وعلى كبارهم من الاتقياد السياسي إلى دولة الانكليز

وأما المسلمون السنيون والشيعة وغيرهم فلا نظر اليهم ، وإنما هواهم هوى جيرانهم ، فالمحالطون للموارنة طوع لهم ، والمحالطون للدروز تبع لهم ، وقلما يعرفون شيئاً من شؤون دينهم ، فلبنان يتنازع النفوذ فيه دولتا فرنسا وانكلترا ، وليس بخاف ما تأتي به هذه المسابقة السياسية ، بعد ما ظهرت آثار مثلها في بلاد آخر ، والدولة أعزها الله مع أن البلاد بلادها ليس لها من بروج سياستها ، ويؤيد كلمتها ، وأمرها يتبع ميل المتصرف إن صدق في خدمتها كان لها وإلا

صار الى غيرها ، والمتصرف شخص يعزل ويولي ، وأهل البلادهم القوة الراسخة وبهم تؤزر السلطة فيهم

ولكن كل هذه المساعي الاجنبية على ما يحفظها من عناية المتدربين بها تخشى عواقبها ، وترعد بوائقها ، اذا جاء المستقبل على آثر الماضي لا يعارض فيه السعي بمثله ، ولا تقطع الطريق على الصالحين فيها ، وأما اذا توجهت من الدولة لمحة نظر الى استبقاء قلوب رعاياها اللبنانيين لها ، وتطهيرها من تلك الأغيار الطارئة عليها ، فما أيسر أن يتم لها قصدها ، وتذهب تلك المساعي هباء منثوراً . ولا سبيل الى ذلك الا بالتربية ومدافعة الأجانب بمثل سلاحهم ، فلا بد من النظر في وسيلة لتربية اللبنانيين على المشرب العماني ، واثن دعيت الى تفصيلها بذلت ما في الوسع للفكر فيها

مادة أهالي ولايتي بيروت وسورية

أما ولايتا بيروت وسورية ففيهما من سكان الأعراب المتبدون وفيهما القرويون وأهل الحضر ، أما القرويون وسكان المدن فمنهم المسلمون أهل السنة وهم الجمهور الأغلب ، ومنهم الدرروز في حوران ، ومنهم الشيعة سكان الشقيف وبلاد بشارة في نواحي صيدا وصور ، ومنهم النصيرية في لواء اللاذقية ، ومنهم الطوائف المسيحية من موارنة وروم كاثوليك وملكيين ، وروم أرثوذكس وبروتستانت الطوائف النصرانية على اختلافها تذهب مذهباً واحداً في تربية أبنائها ونهيتهم للأعمال وهو مذهب التقليد الأفرنجي ، غير أن منهم من يروقه المشرب الفرنسي وهو لا ، هم الموارنة والروم الملكيون يدفعون بأولادهم في المدارس الأجنبية الفرنسية مثل مكاتب الجزويت وغيرهم لينشؤا كما ينشأ الموارنة في جبل لبنان ، واذا أسسوا مكاتب لأنفسهم كما فعل الموارنة في تأسيس مدرسة الحكمة ببيروت ، والملكيون في المدرسة البطركية بها ، ومنشآت أخرى في أطراف البلاد ، فلا يضعونها إلا على قواعد فرنساوية ، واللسان الأول فيها الفرنسي ، والهجري والميل فرنساوي ، ومنتهى أمرهم في التحصيل على ما ينال في الموارنة .

ودروس تلك المدارس التي يدعونها وطنية انما تقرر في كتب من التاريخ وغيره من مؤلفات الافرنج مما يمتنع دخوله في البلاد العثمانية لاحتوائه على الطعن في الدين والدولة ، وهكذا يعلمون أبناء البلاد إلى أن ينتسبوا الى غير أبيهم الحقيقي وأجل شيء يفتخر به الناشئون في تلك المدارس أن يكون لأحدهم ذوق فرنساوي ومذهب من مذاهب الفرنسيين السياسية ، وما من مكتب من هذه المكاتب إلا وفرنسا مساعدة مادية وأدبية له

ومنهم البروتستانت ومشرهم انكليزي ، ومنهم من لا مشرب له في التربية وهم الروم الارثوذكس ومدارسهم الخاصة بهم قلما تكون لها غاية سياسية ولكنهم تارة يعيشون بأبنائهم الى مدارس الجزويت وأمثالهم فينشئون فرنساويين وتارة الى مدارس آخر منهم ينشئون على المشرب الذي نموا عليه ، وهذه الطائفة أقرب الطوائف المسيحية الى الدولة غير أنها لم تشأ أن تكون محرومة من النسبة الى الاجانب حتى لا يكون ذلك عاراً عليها في أعين اخواتها من بقية الطوائف فاختارت ماوافقها في المذهب الديني فانتسبت الى دولة الروس غير أن الروس لم يوجد لهم الى الآن أعوان للتربية على مشربهم السياسي ^(١)

ولو نظم بين هذه المدارس وهذه الطوائف مكتب عثماني على قواعد توافق حال أهل البلاد ، وقام بإدارته رجال متبصرون حذاق في إصابة الاغراض والرمي اليها لبزت تربيته جميع تلك التداير ، واجتثت أصول تلك المفاسد ، وانما يلزم لذلك سعي خارج المكتب لجلب التلامذة اليه كما يفعل أرباب تلك المكاتب . واذا دعيت لبيان طريقة ذلك السعي استعنت بالله على بيانه

(النصيرية) قوم أجلاف أشداء يعتقدون بألوهية علي بن أبي طالب . فمذهبهم الديني غير مذهب الدولة ، وصغار المأمورين منهم ربما كانت منهم معاملات تخالف الواجب عليهم في صداقة الدولة . ولهذا كثيراً ما انتقض أولئك القوم على الحكماء ، وشقوا عصا الطاعة . وكان ذلك منهم بسعي وكلاء الأجانب

(١) بعد هذه الكتابة بسنين قليلة أنشأت روسيا تنشيء المدارس في

سورية والقدس ولبنان

وبث الوسام من المرسلين البروتستانت بما أنشأوا بينهم من المكاتب ، حتى أنه من نحو ثلاثين سنة اشتد أمرهم في الشقاق ، وكان راشد باشا والياً على سورية فذهب بنفسه لاختضاعهم ، وبعد البحث رأى أن أسباب العصيان كانت إغراء أولئك الشياطين ، فالتمس من الباب العالي تقرير ستين ألف قرش لتصرف على إنشاء مكاتب عثمانية في قرى هذه الطائفة ، وصدر الأمر بذلك ، إلا أنه لم يجر العمل به حتى الآن . ويوجد أسماء مكاتب يأخذ مأموروها معاشاتهم من خزينة الدولة ، وهم في اللادقية ولا مكاتب ولا تعليم . وما أقرب هؤلاء من الدولة لو التفت إلى تربيتهم في مكاتب عثمانية منتظمة ، بل لو اعتني بإخراجهم من مذهبهم إلى الاسلام الصحيح لم يصعب ذلك إذا أحكم أساس التربية فيهم ، وبني على قواعد الحكمة والدربة ، وقام بالعمل عليه أرباب المكنة والقدرة العقلية ، والاستقامة النفسية .

﴿ الشيعة ﴾ لا يقرون بالخلافة إلا لل قائم المنتظر . ولهذا وجد الأجانب سبيلاً للدخول على قلوبهم ، لكن بغير تلك الطرق التي دخلوا بها على غيرهم . فان لهذه الطائفة حمية على مذهبها الديني تفوق حمية جميع المذاهب ، يعتقدون بنجاسة اليهود والنصارى وغيرهم من مخالفي الاسلام ، ولهذا لا يلتفت أولادهم في المكاتب المسيحية ، ولكن وكلاء الأجانب وشياطينهم يصورون لهم عال الدولة في صورة مشوهة ، وربما كان من بعض المأمورين ما يصدق مزاعم أولئك المفسدين . وكثيراً ما يخيلون لهم الاحتماء بدولة أخرى ، وليس من البعيد أن تميل أفكارهم إلى خلاف ما يرغبه الصادقون في محبة الدولة ، ولا تؤمن فائدة ذلك ، واستعمال الشدة في مراقبتهم لا يزيدهم إلا نفوراً . ولكن ما أسهل سد تلك المنافذ على أولئك الأجانب بإنشاء معهد للتربية العثمانية ، بل ما أسهل تذليل شذوذهم المذهبية ، واستصفاءهم للدولة بإقامة مهذبين من أهل الأفكار الصائبة الذين يسطون على النفوس بحمال أفكارهم وصالح أخلاقهم ، لا بشكاسة طباعهم وصعوبة شكائهم . لا ريب أنهم بعد ذلك يفضلون جانب الدولة على جانب غيرها ، فان أهملوا كانت العاقبة ضد المأمول

﴿ الدروز في حوران ﴾ لم يخف حالهم على رجال الدولة ، غير أنه زاد في سوئها عناية الانكليز بارسال رجال من رؤساء البروتستانت لتعليمهم وبث الدسائس فيهم ، حتي إنهم عينوا أسقفاً في القدس بمعاش الف وخمسة ليرة في كل شهر لتدبير التريسة في حوران خاصة . ولا طريق لاصلاحهم وراحة الدولة من ناحيتهم الا ما يسلكه غيرنا لمثل هذه الغاية ، وهو الترية والتعليم مع اختيار الصالحين للقيام بها

﴿ المسلمون من أهل السنة ﴾ هم عماد الدولة وركنها الشديد ، وهم قومها الحقيقيون ، وفيهم عصبتها الثابتة . ومن الين أن قوائم الدولة العلية ثبتها الله مستقرة على أديم الدين ، لأنها دولة خلافة ، فعاملها في القلوب سلطان الدين ، فكما قوي الدين في الأفتدة ظهرت آثاره في الأعمال . فاستمات أهله لحماية مسند الخلافة . وكما ضعف الدين ضعف أثره بحكم الضرورة ، ولكل وسيلة خلف منها . أما الدين فلا عوض عنه للدولة العلية أيدها الله

المسلمون السنيون يتفقون مع الدولة في المذهب الديني تمام الاتفاق ، وهي علاقة من أمتن العلائق في طبيعتها . ولكن عرض عليها ما يوجب الالتفات ، ويستدعي دقة النظر ، وهو غشيان الجهل بمحقائق الدين بعد ما أهل التعليم الاسلامي الصحيح ، وبيان ذلك مفصل بعض التفصيل في الاثمة المعروضة لدولة شيخ الاسلام . وقد كان للمسلمين من نحو ثلاثين سنة حال يحمد في نظر المسلم ، فقد تسابقوا ركباناً ورجالا متطوعين الى الجهاد المقدس في حرب سباستبول المشهورة . ثم كانت حالهم أيام الحرب الأخيرة من التقاعد مالايسر ، وفي هذه الأيام الأخيرة يبذل الرجل منهم كل ماله للفرار من الخدمة العسكرية وإن جاءت لا قدر الله حرب ذهبوا اليها كارهين ، بعد أن كانوا يذهبون راغبين ، كل هذا والجهاد من فرائض دينهم ، يفيض به كتاب الله في أغلب سوره ، وما كان خمود الحية في نفوسهم الا لضعف العقيدة بمخالطة الاوربيين ، وإهمال التعليم المذهبي . وقد قال المستر (جي دبليو لينز) مقتش المكاتب الهندية فيما كتبه الى جريدة الدالي تلغراف الصادرة في فبراير سنة ١٨٨٨ أثناء كلامه

على لزوم تقوية العقائد الدينية في قلوب الرعايا الهنديين (لا بد أن نؤمن بما آمن به أكبر شاه الهندي من أن الدين والملك توأمان . فكما أن كل دولة تحمد الأفكار الدينية من نفوس رعاياها ، يسرع إليها العدم ، ويقضي عليها الزوال بحكمه ، ويستحيل عليها أن تدوم . كذلك كل دولة لاتسند عقائد رعاياها ، ولا تعينهم على التمسك بها ، لا يتسنى لها إلى النجاح سبيل اه) فهذا إنكليزي يطلب من دولته أن تعين المسلمين على التمسك بعقائدهم لتثبت محبتهم . فما أجددنا بالعناية بذلك ، والملة ملتنا ، والقوم قومنا

انتبه المسلمون في هذه (الآونة) لسوء حالهم من نيف وعشر سنين ، وضارعوا سائر الطوائف فشككت منهم جمعيات خيرية ، كجمعية المقاصد الخيرية لتربية أبناء المسلمين واهياء العقائد الدينية في قلوبهم ، ووقايتهم من سطوة الأجانب على أفكارهم . وجد أعضاء تلك الجمعيات في رعاية المكاتب الابتدائية التي أنشئت على نفقة أهل الخير ، فساء ذلك الطوائف المسيحية . فأخذ المفسدون منهم في الوسوسة لبعض العمال ، حتى أقنعوهم بأن لهذه الجمعية مقاصد سياسية ، وساعد أولئك السعاة جماعة ممن يدعون الاسلام ولا يعرفونه ، فكانت العاقبة إلغاء هذه الجمعيات ، وتحويلها إلى مجالس رسمية ، ثم محي أثرها بالارة ، والله يشهد ورسوله أن الساعين كاذبون ، ولم أر شيئاً كان أشد على نفوس المسلمين من إلغاء تلك الجمعيات ، فحمدت أفكارهم ، وتقطعت آمالهم ، ورجعوا إلى جاهلية ، إما لارغبة لهم في العلم أصلاً ، أو لهم رغبة فيما تعلمه المسيحيون من اللغات الأجنبية ، وبعض مبادي علوم لا تفيد في إصلاح الأنفس شيئاً ، ولكن تؤثر في إفسادها

فالزاعمون أنهم من رغبة العلوم يبعثون بأبنائهم إلى تلك المكاتب المسيحية فرناوية أو ألمانية أو إنكليزية ، أو وطنية بالاسم ، أجنبية بالحقيقة ، ولا فرق بين ضالحيهم وطلالحيهم في ذلك ، وكل هذه المكاتب دينية أنشئت لغرضين : تحويل العقائد إلى المسيحية ، وإمالة المشارب إلى الدول المنسوبة إليها ، فكان من آثار ذلك أن المتعلمين فيها إما أن يخرجوا مسيحيين في الاعتقاد ، مسلمين

بالاسم ،أو دهرين لاعقيدة لهم . ولو دعيت الى توضيح ما في تلك المدارس من الطرق لافساد قلوب المسلمين لا وضحتها كما هي عندهم

فالمسلمون السنيون هم أحوج رعايا الدولة الى عنايتها، حتى لا يذهب أعوان الترية الشيطانية بقلوبهم ، ولا ينحط بهم الفساد النفسي الى أسفل مما وصلوا اليه، وأول ما يلزم لذلك تنظيم مكتب داخلي يؤكل ويشرب فيه في مدينة بيروت ، من صنف المكاتب العالية يوضع له قانون وبروجرام دروس يوافق حالة البلاد ، وأول شرط فيه أن يكون مديره عارفاً باللغة العربية يخاطب أهل البلاد بمثل كلامهم ، وثاني شرطه أن يكون التعليم باللغة العربية في جميع العلوم حتى يقوى التلامذة في التركية ثم التعليم بالتركية بعد ذلك ولا بد أن يجعل اللسان الفرنسي مما يقصد تعليمه في بادي الامر حتي يقبل الناس عليه، وأن يكون في درجة لا تنقص عن مكاتب الاجانب في شيء ، وثالث شرطه أن يكون أساسه على إحياء الدين وحب الدولة، ولا بد أن يكون بروجرام فنونه على وضع خاص، ورابع شرطه أن يكون مديره من عشاق الدين والدولة وليس ينحصر همه في أخذ راتبه الشهري ، وأن يكون حكيماً في تصرفه، وفي حال يجلب ثقة الناس به، والله بعد ذلك كفيل بأن يدفع اليه جميع الطوائف المسيحية وضا من لنجاح الدولة في مقصدها منه

ثم تنشأ مكاتب ابتدائية في أطراف الولايتين على هذا الاساس، لافرق الا بالدنو والعلو . والتربية في جميع الأحوال لابد أن تكون على بذل المال والنفس في سبيل الله ووقاية السلطنة، كما هو جار في ممالك أوروبا . ولما كان عليه أسلافنا . وأن تكون الغاية منها طبع هذا الخلق في النفس ، حتى لا يحوله محول من فقر أو غنى أو إثار أو حرمان أو ظلم أو عدالة . وليس هذا بالعمل الصعب اذا وجهت اليه النية الصالحة ، واصطفي له رجال من أهله وما هم بالمعلومين، ولكنهم ربما يكونون غير معروفين، والبحث يظهرهم

وأما أهل البداوة من الاعراب المتقلبة في اطراف البلاد فهم مادة غزيرة من مواد المنافع للدولة، ولكن مما يؤسف عليه أنهم كل عليها، ضررهم أكثر من

نفهم، ولبعض رجال الاجانب علاقات خبيثة معهم، حتى اتى رأيت عند بعض رجال الانكليز أيام كنت في لندرة رسائل من بعض مشايخهم توددا وما ذلك الا من اهمالهم وعدم العناية بتربيتهم، واذا دعيت الى وضع لائحة في تهذيبهم وجعلهم في حالة لاتنقص عن التركان بالنسبة الى الروسيا بل تزيد عليها أضعافا مضاعفة لاستمددت من الله التوفيق في ذلك

وربما يقال ان هذا الامر وما قبله يحتاج إلى نفقات لافضل لها في خزينة الدولة، فاجيب أن أهل العمل وذوي البصيرة فيه يمكنهم أن يفيضوا من الاغنياء على القراء بالسعي والجد خصوصا اذا أعيدت جمعية مثل جمعية المقاصد ولا تحتاج خزينة الدولة بعد سنين الى ان تصرف شيئا في هذا السبيل، وطريق الصواب واضح لاهله، متى ثبتت العزيمة، ولا أطيل القول في هذه العجالة، فانما الغرض سوق مانتبه اليه الفكر اجمالا الى ساحة الفضل والكرم، والمرجو شمولي بالعفو عن تقصيري والله يطيل عمر مولانا الخليفة الأعظم ويرفع الاسلام في خلافته الى أوج المجد والشرف آمين

اللائحة الثالثة

يظهر أنه كتبها لأجل اقناع أولي الشأن في مصر بالعناية بالتربية الدينية بعد عودته من سورية وقد وجدت مسودتها بخطه بالعنوان الذي تراها مفتحة به وجامع الكتاب وضع سائر العنوانات قال رحمه الله تعالى

﴿ هذا مجمل أفكار فيما يجب الالتفات اليه من نظام التربية بمصر ويمكن تفصيله عند ارادة العمل به ﴾

إذا كان الناس في حاجة الى صلاح الحاكم، فما حاجة الحاكم الى صلاحهم باخف من حاجتهم الى صلاحه، فان السلطة سلطتان جيدة وردية، فالجيدة ماكانت على المحكومين للمحكومين، والردية مأخذ بها المحكومون لغاية الحاكم وقضاء غرضه الثابت

أما الأولى فان منزلتها من المحكومين منزلة الروح من الجسد لها، التدبير وعلى أعضاء الجسد وظائف العمل، وغاية التدبير والعمل حفظ حياة الكائن الحي، وهو مجموع الروح والبدن، فكل يستفيد من الآخر مابه بقاءه ونماؤه. وكما تحتاج الآلات البدنية الى سلامة الروح من العلل النفسية كالجنون والجنود والجهل ونحو ذلك، تحتاج الروح الى سلامة الآلات البدنية من الآفات التي تعطلها عن الحركة كالتشنج والتشنج وماشابه ذلك، وماذا يمكن للروح السليمة أن تأتيه في بدن تعطلت آلاته وفسدت أعضاؤه

وأما السلطة الثانية فنزلتها منهم منزلة الصانع من آله، فصاحب السلطة صانع، والمحكوم آلهته في الصنع، فهو كاتب مثلاً، والمحكومون قلمه، أو هو حارث والمحكوم محراثه، وكما ان الآلة لا تعمل الا بالعامل ولا يظهر أثرها إلا في يده كذلك العامل لا يمكن له العمل الا بآله. وكما يجب ان تكون اليد العاملة قادرة على إدارة الآلة، يجب أن تكون الآلة وأجزاؤها صالحة للعمل، فان فقد أحد

الأمرين امتنع العمل أو تقصت ثمرته — فكل من السلطين في حاجة إلى صلاح المحكوم ، فكما يطلب المحكوم في كل حال أن يكون حاكمه صالحا لأن يحكمه ، كذلك يطلب صاحب السلطة في أي منزلة كان أن يكون المحكوم بحيث يتقاد الى كل ما يحكم به وعلى الصفات التي تنساق به الى الغاية التي يذهب اليها حاكمه

أما مارسخ في خيال بعض الشرقيين ومن اعتر بحالهم من خالطهم من الاوربيين من أن صاحب السلطة قوته علوية ، والمحكوم طبيعته سفلية ، ولا نسبة بينهما الا أن الأول قاهر والثاني مقهور ، وأن الثاني في حاجة الى صلاح الأول ليكون به رؤفا رحيا وأن الأول لا حاجة به الى صلاح الثاني لأنه مقهور له على كل حال فذلك منشأ الغرور والجهل بطبيعة الجمعيات الانسانية ونظامها الفطري . ولذلك نرى أرباب هذا الاعتقاد من ذوي السلطة لا تدوم لهم دولة ولا يثبت لهم سلطان ، لتخبطهم في سيرهم بجهلهم بمنزلتهم من محكوميههم وتصرفهم فيهم على خلاف ما يجب أن يصرفهم فيه ، وتغافلهم عن استطلاع طباعهم بما يؤهلهم للعمل على ما يريدون منهم

يقال ان الرعية في كثير من البلاد آلة للحاكم في بلوغ مقاصده في دولته . فقد يكون ذلك حقاً لكنها آلة ذات شعور وإرادة وماله شعور فجميع أعماله إنما تكون عن شعوره وإرادته فتصلح الأعمال بصلاح الشعور والارادة وتفسد بفسادهما ، فلا يمكن أن تكون تلك الآلة صالحة للعمل الا اذا كان الشعور والارادة صالحين له ، وصالحهما بان يكون الشعور وجدانا للفرق بين النافع والضار ، وبين النظام والاختلال ، ليكون ما يقرره الحاكم من القوانين وأصول الادارة معروفا عند أغلب الرعية ، وأن تكون الارادة صادرة عن ذلك الوجدان حتى يكون النظام منها في مكانة الاحترام . فاذا كان الشعور مختلا والارادة فاسدة ، كانت الاحلام طائشة ، والاهواء متحركة ، ومداخل السوء كثيرة ، فويل لذي السلطة من تلك الرعية ، وبعيد عليه أن يستقر لسلطانه فيها قرار ، وكل ما يتخيله اصلاح حالهم أوله فيودعه في أصول حكومته ، فهو كالنقش على الماء أو الرسم في الهواء .

طبيعة مصر والمصريين

أرض مصر ضيقة عن حاجة أهلها فمساحة الصالح منها للسكنى لا تزيد عن حاجة الساكنين زيادة بينة وهي محاطة من أطرافها بالصحارى الجدبة والمياه المالحة وليس فيها من الغابات ما يعوذ به الوحشي من الحيوان فضلا عن الانسان ولذلك نرى كثيرا من أنواع الوحوش التي كنا نراها كثيرة في البلاد من نحو أربعين سنة كالضباع والذئاب والخنازير قد كادت تنقرض باصلاح الاراضي الزراعية وانتشار الانسان في أطرافها وتعهدها بالزرع والعمارة وأهل مصر لا يعرفون معنى المهاجرة من دار الى دار ولا يمكن أن يتصوروا ذلك مادام في أرضهم نبات ينبت ، فاذا أحملت أرضهم فضلو الموت فيها على المهاجرة منها وتاريخ الماضي وشاهد الحال ينطقان بذلك . ولذلك كان أهل مصر سكان أرضهم من آلاف من السنين ، كل قادم اليهم امتزج بهم ، وغلبت عليه عوائدهم وأطوارهم ، وانتسب نسبهم فصار مصرياً ، وأحرز جميع خواص المصريين ونسي أصله وغاب عن أعقابه منشأه . ثم إن طباعهم مرنت على الاحتمال وألفت مقاومة القهر بالصبر ، فلو أن سيف التغلب كان أعدى من سيف المالك وجوره أشد من جور اسماعيل باشا لما أمكنه أن ينتص من عددهم مقدارا يذكر ، ولا أن يزيلهم عن مواقعهم مسافة تعتبر ، ولهذا كان المتغلبون يفنون فيهم وهم باقون

أهل مصر قوم سريعو التقليد أذكياء الاذهان أقوياء الاستعداد للمدنية بأصل الفطرة ، فما أيسر أن تفعل الحوادث فيهم فتنبههم الى الأخذ بما يحفظ عليهم حياتهم في ديارهم من أي الوجوه ، فلا يبيدون من حاجة ، فأهل مصر على ذلك هم رعية حاكمهم ولا يمكن لحاكمهم أن يستبدل بهم رعية أخرى في بلادهم

فحاكمهم اذا كان رأسا فهم بدنه واذا كان عاملا فهم آله ، فلا بد من استصلاحهم حتى يستقر سلطانه عليهم زمنا مديدا ترمي اليه أنظار الدول السامية المقام في المدنية أهل مصر في موقع عرف كل الناس منزلته من الارض ، وهو ممر اهل المشرق

الى المغرب، وأهل المغرب الى المشرق، وهو في خلق أوربا تتلاقى فيه سيارة الامم
فقلما توجد بلاد يكثر فيها اختلاط الامم مثل هذه البلاد

الامم العظيمة الأوربية يحسد بعضها بعضاً على التمكن في أرض مصر، أو الفوز
بأحراز المنافع السياسية أو المالية فيها فالوساوس والدسائس لاتقطع نفقاتها من
أولئك الأحزاب ييثونها بين المصريين أيوغروا صدورهم على من علت كلمته
فيهم . وأعظم فاعل في نفوسهم (وأغلبهم مسلمون) ان يقال أن صاحب هذه المنفعة
ليس من دينكم وانكم مأمورون ببغضه وانتم اهاز الفرص لكشف سلطانه متى أمكنت
أهل مصر شديدو الانفعال بما يلتقى اليهم ، كثيرو التذكار لما ينطبق
على أهوائهم ، فلكل كلمة من هذا القليل مكن من نفوسهم ، ولكن ربما
لا يظهر أثر ذلك لاحتجابه بحجاب العجز أحياناً ، غير أن طباع المصريين
كالكرة المرنة تتأثر بالضغط فينخفض بعض سطحها قليلا من الزمن ، ثم لا يلبث
أن يعود إلى حاله ، فالله يعلم متى يظهر أثر تلك الانفعالات اني يمكن أن تتأثر بها
نفوسهم بما يلتقى اليهم

يقال إن أهل مصر ضعفاء ولكن قد أظهر التاريخ أنه متى وجد القائد كانوا
أشد على الخصم من أشجع الأئم ، وأثبتهم قدما في المواطن ، ولا يعلم متى يوجد
القائد ، ومن أي جنس يكون اذا تركت أهواؤهم بغير تهذيب تجري حيث تجد
سيلا الاندفاع ، ثم هم لا يقدررون النظام قدره مها كان بالغامن الإصلاح ، ولا يبالون
به ، بل يعتقدون أن كل نظام حبر على ورق ، فلا يستطيع حاكمهم أن يثبت سلطته
عليهم على أمر ممكن ، بل هم دائما في اتواء عليه بالمخالفة متى أمكنت الفرصة ، إلا
اذا أخذوا بتربية صحيحة ، فهناك تنضبط أحوالهم ، وينشئ النظام احترامه في
قلوبهم ويهتدي صاحب السلطة إلى طريق تصريفهم

احتقار أمر النظام والتأثر بالوساوس اذا لم يكن مبعثها الحق ينشآن عند
المصريين من أمرين ، الأول بعد جمهورهم عن المعرفة بوجود المصالح . والثاني
حرمانهم من التربية التي تطبع في نفوس أغابهم الاستقامة ، والتؤدة ، والتبصر
في العواقب ، ومرجع الأمرين إلى سوء العقيدة ، وظن مالميس بواجب واجبا

وظنّ الواجب غير واجب ، فما دامت هذه حالهم فهم رعية غير صالحة ، فلا يصلحون
بدناً لرأس ، ولا آلة لعامل ، لاختلال المدارك وفساد الارادات

أهل مصر لم يأتهم التاريخ القديم بذي سلطة يفهم هذا السر ، وتتغذ بصيرته
الى هذه الحقيقة ، فلماذا لم تثبت فيهم دولة لقبيل زمان يعتد به ، وكل اصلاح نظامي
نشأ فيهم كان كالبناء على الهواء ، فالسلطة التي تسعى في أن تجعلهم رعية صالحة ،
تكون قد فتحت في نفوسهم فتحاً جديداً ، وظفرت بيفيتها منهم ظفراً مميناً ،
وأمنت كل غائلة تخشى من دسائس الأعداء ووساوسهم

أهل مصر قوم أذكاء ، كما قلنا يغلب عليهم لين الطباع واشتداد القابلية
للتأثر ، لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية ، وهي أن البذرة لا تثبت في أرض إلا
إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض ، ويتنفس بهوائها ، وإلا
ماتت البذرة بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها ، ولا على البذرة وصحتها ،
وانما أقيمت على الباذر

أنفس المصريين أشربت الاتقياد الى الدين حتى صار طبعاً فيها ، فكل من
طلب اصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذراً غير صالح للتربة التي أودعها فيها
فلا ينبت ويضيع تبعه ، ويخفق سعيه ، وأكبر شاهد على ذلك ماشوهد من أثر
التربية التي يسمونها أدبية من عهد محمد علي إلى اليوم ، فان المأخوذين بهالم يزدادوا
إلا فساداً — وإن قيل إن لهم شيئاً من المعلومات — فما لم تكن معارفهم العامة
وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم

لا أتكلم عن اصلاح لدين غير الاسلام في مصر ، فان غير المسلمين فيها
العدد القليل والجمهور الاغلب من المسلمين

الدين الاسلامي الحقيقي ليس عدو الالفة ، ولا حرب المحبة ، ولا يحرم
المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركهم في المصلحة ، وإن اختلف عنهم في
الدين ، وفي آدابه كفاية لتعريف الآخذ به بوجوه المصالح ، وارشاده إلى مظان
الفوائد ، والبصر بالعواقب ، وتقويمه بفضائل الاخلاق ، وبالجمله فهو أفضل كآفل
لجعل الرعية صالحة لأن تكون بدناً لرأس ، أو آلة لعامل . وقد أرشدتنا التجربة

إلى أن كل عارف بحقيقة الدين الاسلامي كان أوسع نظراً في الأمور ، وأظهر قلباً من التعصب الجاهلي ، وأقرب الى الألفة مع أبناء الملل المختلفة ، وأسبق الناس إلى ترقية المعاملة بين البشر ، وإنما يبعد المسلم عن غيره جهله بحقيقة دينه ، وهذه آيات القرآن شاهدة على ما نقوله ، اللهم لمن يفهمها كما جاءت ويعرف معناها كما وردت

ان القرآن وهو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم لا يختلفون عنهم إلا في بعض أحكام قليلة ، ولكن عرض على الدين زوائد أدخلها عليه أعداؤه اللابسون ثياب أجبانه فأفسدوا قلوب أهاليه ولا قلوب أقرب الى الاصلاح من قلوب أهل مصر

أهل مصر مضى عليهم الزمن الطويل والقرون العديدة، ولم يروا مرياً يأخذهم بدينهم فخرموا خيرهم ، ولم يبق عندهم إلا ما فيه المضرة لهم ولغيرهم تحت اسم الدين ، وليس بدين . على أنه ليس فيهم من ينكر أن القرآن كلام الله ، وأنه ينبوع الدين ، ولكن ليس لهم من معاهد التربية الاجتهاد ، المدارس الأميرية ومدرسة الأزهر الدينية . وليس في الجهتين ما يهديهم لما يجعلهم رعية صالحة ، وهم الآن على غاية الاستعداد لقبول ما يصلحهم

من يتوجه من ذوي السلطان إلى ذلك لا يجد أقل مقاومة من العامة ، ولا أغلب الخاصة ، وفي مصر فرصة لا توجد في غيرها لمن أراد ذلك ، فان بلاداً غير مصر يوقف فيها مثل هذا الأمر على همه أهل الدين وسلامة أفكلهم ونشاطهم لفتح المدارس الدينية على الطرق المناسبة لحالة البلاد . أما مصر فلها مدارس أميرية يمكن أن يسلك فيها أي مسلك يختار للتربية ، وليس عليها رقيب سوى أهل السلطة السياسية لا غير ، فلهم أن يأخذوا من الدين أصوله ويفرسوها في المدارس ، ويحملوا نفوس طلاب العلم عليها ، ولا يتعرضون لما زاد عنها لا بالنفي ولا بالاثبات ، ويندبون لتدريس ذلك ذوي قدرة على صرف الأذهان عما وقر فيها ، وتطهيرها مما علق بها من الزوائد الضارة ، ولا يجدون معارضاً لهم من أهل الدين ، لأنهم لا يهتمون بما لا يقع تحت نظرهم مباشرة ، ومادامت الأصول

محفوظة ، فأنظارهم عن غيرها منصرفة ، وأكبر دليل على ماقول سكوت أهل الدين عن نوع التربية المعروف في المدارس ، على مافيه من مباينة الدين والانتباه إلى خلعه بالمرّة

المدارس الاميرية

المدارس الاميرية ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية، ولا التربية الصحيحة، هذه المدارس أنشأها محمد علي باشا بإشارة بعض الفرنسيين لتعليم بعض أولاد الأرنبوط والأتراك والمورلية ، ليكون منهم رجال عندهم إلمام ببعض الفنون المحتاج اليها في نظام الحكومة التي أسسها ، وأهم تلك الفنون الهندسة والطب والترجمة أما غيرها من العلوم فما كان إلا وسيلة اليها ، ثم لم يشترط في العلم بها أن يكون تاما . أما التربية على أخلاق سليمة فلم تخطر له ولا لمن تولى ادارة هذه المدارس على بال ، ثم لما لم يكن في أبناء تلك الأجناس وفاء لمطلبه في الوظائف ، ادخل في تلك المدارس بعض المصريين جبراً ، وما كان يدخل مجبوراً إلا الذين لا قوة لهم من الفقراء . وكان دخول المدارس أشبه بدخول العسكرية في ثقله على المصريين

ثم جاء خلف محمد علي من عباس وسعيد فأهملوا النظر في المدارس بالمرّة ، حتى جاء اسماعيل فوسع نطاقها ، وزاد فيها من المعارف ماله دخل في الادارة والقضاء ، وله تعلق بتثقيف العقول في ظاهر الامر . غير أن جميع ماأنه من ذلك كان صورياً ، ليقال إن له في حكومته مثل مالاوربا في حكوماتها ، ولم يكن القصد منه تربية العقول ، ولا تهذيب النفوس ، ولا تحصيل رجال يصلحون لتولي أعمال الحكومة .

وفي زمن اسماعيل باشا كثرت رغبة الناس في المدارس ، ولكن من الاعيان الذين يطلبون لأولادهم مساند في الحكومة ، يحتاج في الوصول اليها الى بعض الفنون ، ومن الفقراء الذين لا يجدون ما يقتات به أبناؤهم فيرسلونهم الى المدارس

ليستريحوا من نفقتهم ، ولم يكن القصد من جميع تلك الأحوال ، إلا أن يتعلم التلميذ ما يؤهله للقيام بعمل ما من أعمال الحكومة ، أو بعبارة أخرى ليكون في يده شهادة تبيح له أن يشغل كرسيًا من كراسي أقلام الدواوين ، أما تكوينه بالتعليم والتربية رجلا صالحا في نفسه ، يحسن القيام بالعمل الذي يفوض اليه في الحكومة أو في غيره ، فذلك لم يخاطب عقول المسلمين ، ولا من ولاهم أمر التعليم ، فسرى ذلك من السابقين الى اللاحقين حتى اليوم

ولو كشفنا عن أذهان التلامذة لم نجد فيها غاية لتعلمهم سوى أن يعيشوا كما عاش غيرهم على أي صفات كانوا ، ولو استفرغنا أذهان المعلمين لم نجد فيها من المقاصد سوى أنهم يلقون ما يجدونه في الكتب المقررة للتلامذة ، ويطالبونهم بحفظه وفهم عبارته إن كان ليعيدوا يوم الامتحان تلاوة ما ألقى اليهم حتى تتم مدتهم في المدرسة ، فيخرجون ولا يسألونهم مرة واحدة عن مجال أفكارهم هل هو في صالح أو فاسد؟ ولا مطامح أنظارهم هل الى نافع أو ضار؟ وذلك رسم يؤديه المعلمون ليأخذوا مرتباتهم الشهرية لا غير . ولهذا لا يكون تلامذتها في آخر الأمر إلا صناعا أو ناطقين ببعض الألسنة ، ولا ثقة في الأغلب بشي من عقولهم ولا أخلاقهم ، إلا من كانت له فطرة سليمة ، وله موهبة طبيعية ، فأولئك تؤدبهم الأيام ، وتهذبهم التجارب . وعلى مثل ذلك كانت مكاتب الأوقاف ولا تزال ، فان استمر السير على الطريقة المعروفة الآن كانت النتيجة دائما كما بيناه ، فلا يؤول ذلك بالمصريين الى أن يكونوا رعية صالحة لأن تكون بدنا لرأس أو آلة لصانع

المدارس الاجنبية

وأما المدارس الأجنبية على تنوعها ، فاختلف المذاهب بين المعلمين والمتعلمين في الأغلب يضعف أثر تلك المدارس من التربية العمومية . فقليل من المصريين من يرغب في تعليم أولاده فيها . ومن أرسل بولده اليها داوم نصيحته بعدم الالتفات الى ما يقوله المعلمون فيها حفظا لاعتقاده . ثم ذلك يحدث من

الاضطراب في طبيعة الفكر ، والتزلزل في الأخلاق ، ما يكون ضرره أكثر من نفعه . وقد غلط من زعم أن تلك المدارس الأجنبية آراءً سياسياً أو أدبياً في مصر ، بل قد أحدثت بعض النفرة في قلوب المسلمين من رؤساء تلك المدارس وأئمتهم . ولذلك تاريخ في البلاد معروف ، فهي ضارة بالألفة ، مبعدة للمحبة ، رغمًا مما يزعمه أربابها مما يخالف ذلك ، فلا يصح الاكتفاء بها في التربية عن المدارس الأهلية على اختلافها

الجامع الأزهر

الجامع الأزهر مدرسة دينية عامة يأتي إليها الناس إما رغبة في تعليم علوم الدين رجاء ثواب الآخرة ، وإما طمعاً في بعض الامتيازات لطلاب العلم فيه ، ولا يزال بعضها إلى اليوم . ولكن مما يؤسف عليه أنه لا نظام لها في دروسها ، ولا يستل فيها التلميذ أيام الطلب عن شيء من أعماله ، ولا يبالي أستاذه حضر عند في الدرس أم غاب ، فهم أم لم يفهم ، صلحت أخلاقه أم فسدت . ويمر عليه الزمان الطويل لا يسمع فيه نصيحة من أستاذه تعود عليه بالصلاح في دينه أو دنيته ، وإنما يسمع منه ما يملأ القلب بغضاً لكل من لم يكن على شاكلته في الاعتقاد حتى من بني ملته ، ويطبق على الذهن غفلته ، ويستفرغ الطيش لتصديق كل ما يسمع ، إذا كان موافقاً لمبدأ التعصب الجاهلي ، فأغلب الأوقات تمر على أهل الجدل منهم في فهم مباحثات لبعض المتأخرين لا فائدة فيها . ولا يتعلمون من الدين إلا بعض المسائل الفقهية ، وطرفاً من العقائد على نهج يبعد عن حقيقة أكثر مما يقرب منها . وجل معلوماتهم تلك الزوائد التي عرضت على الدين ، ويخشى ضررها ولا يرجي نفعها

ثم إن المعروفين بالعلماء ، وهم الذين يتممون دروسهم في هذه المدرسة ، ويؤذن لهم بالتدريس فيها ، هم قدوة الناس وأئمتهم ، مع أنهم أقرب إلى التأثير بالأوهام والانقياد إلى الوسوس من العامة ، وأسرع إلى مشايعتها منهم ،

وذلك بما يشاؤون عليه من التعليم الرديء، والتربية المختلفة التي لا ترجع الى أصل صحيح، فبقاؤهم فيما هم عليه اليوم مما يؤخر الرعية عن تقدير السلطة الصالحة قدرها إصلاح مدرسة الازهر لا بد أن يكون بالتدريج في تغيير نظام الدروس وجعلها في الابتداء تمت قواعد ساذجة قريبة من الحالة الحاضرة فيها، بحيث يقرر فيها أن كل من أدرج اسمه في جدول الطلبة يلزم بالحضور في الدروس، والاحكام الامتياز، وكل أستاذ يسأل عن طلبته، ثم يجعل ما ينالونه من المنافع الطفيفة منوطاً بالفهم لا بالكتب، وتغيير بروغرام الدروس، ويزاد عليه أصناف من الكتب بحيث يدخل فيه تدريس الآداب الدينية المفقود الآن بالسلكية، ويكلف الاستاذ بتعبد أخلاق تليذه لتكون منطبقة على تلك الآداب بقدر الامكان، ويجعل شيخ الجامع رقيباً على الأساتذة والتلامذة في ذلك، ثم يعدل نظام الامتحان النهائي وشروطه، وكل ذلك يكون على طرق بسيطة لاتوجه الأذهان الى شيء خلاف المصلحة، وتفصيلها يكون في لائحة مخصوصة. ولا بأس أن يجعل نظام هذه المدرسة مرتبطاً بالمعارف العمومية أو بإدارة الأوقاف على قواعد تفصل في اللائحة المختصة به.

وقديظن بعض من لم يتفكر في حالة البلاد ومزيتها الأدبية والدينية أن إصلاح الازهر لا يمكن، لأنه يترتب على مجرد الشروع فيه تشويش أذهان العلماء والعامة على أمرهم، فهذا ظن فاسد لا يؤيده دليل ولم تقض به تجربة، إلا ما كان من بعض الرؤساء من مدة نحو عشرين سنة عند ما أراد إدخال بعض العلوم الصناعية فيه، فقاومه بعض من كان موجوداً من العلماء، فيئس من الإصلاح وترك الأمر الى اليوم، فقد كان ذلك قبل أن تتقلب الحوادث على مصر، ولم يكن بالتدريج اللائق. أما الآن فقد تغيرت الأحوال وأصبح الإصلاح فيه أهون منه في جميع المصالح، وكل رئيس للنظار يمكنه أن يأتي هذا الإصلاح بمجرد التوجه اليه، وما يعجز عنه من ذلك. فصاحب هذا الفكر هو الكفيل بتنفيذه اذا قوض ذلك اليه على أن العناء في ذلك لا يطل اذا صلحت المدارس الاميرية. فان الناس لا يختارون

الازهر الا لسوء ظنهم بالمدارس ، أو لاعتقادهم أن الازهر أحفظ للدين منها .
فاذا حصل الاصلاح فيها وجدوها أدنى الى المنفعة منه ، فعند ذلك تنفرد بكونها
معاهد التعليم ، ويصبح الناس كلهم في طريق واحدة

الكتاتيب الاهلية

المدارس الاميرية تتعلق النظر فيها بنظارة المعارف ، ولا يتم لها إحسان
النظر من وجه التربية الا بتوجيه العناية أولا الى الكتاتيب الصغيرة المنتشرة في
القرى والمدن ، فانها هي المغذية للمكاتب المنتظمة التابعة للمعارف والمدارس
الاميرية وللأزهر ، فان كان الغذاء فاسداً كان المزاج المتغذي أشد فساداً .
وقد خطر ببال أحد نظار المعارف أن ينظر فيها ، ولكن من الوجه التعليمي
واصلاح الامكنة بحيث تكون أوفق للصحة لا من الوجه التهذيبي . والثاني هو
اهم مطلوب دون الاول فالما ينظر اليه من حيث هو وسيلة للثاني . فالعلمون
في تلك الكتاتيب يسمون الفقهاء وهم لا يعرفون شيئاً سوى حفظ القرآن لفظاً
بغير معنى ، وإذا كان في أذهانهم شيء باسم الدين فما هو إلا الزائد الضار دون
الأصل النافع ، وقد عرفوا بأنهم أفسد حالا من العامة . على أن الكتاتيب يرد
عليها أبناء الأهالي جميعاً إلا القليل ، ثم يرجع الغالب الى ما كان عليه آبائهم ،
فهي منابت للعامة أيضاً ولكنها لا تنبت الا ن إلا جهلا

ولا يمكن إصلاح تلك الكتاتيب إلا باصلاحهم (أي الفقهاء) وإصلاحهم
مرة واحدة أو ابدالهم بخير منهم متعسر ، ولكن اذا وجهت العناية اليهم
أمكن اصلاحهم واصلاح طرق تعليمهم بالتدرج في بضع سنين . ثم ان ذلك
الاصلاح يستدعي عملاً يتعلق بعضه بالمعارف وبعضه بالأوقاف من حيث إن
أولئك المعلمين خطباء المساجد في الأغلب ، فلا بد أن ينظر في انتخابهم من
المستعدين للفهم وقبول الاصلاح بقدر الامكان ، وهو يقتضي سعيًا حثيثاً ،
وتدقيقاً شديداً ، وسيراً في أرض مصر أجمعها ، ونظراً في كل قرية من قرأها، وهو
ليس بعسير على الشخص الواحد فضلا عن أشخاص كثيرين، متى وجهت العناية لذلك

ثم يلزم لذلك تقرير بعض المعلومات التي لا يستغني عنها مصري مما زاد على تعليمه القرآن في تلك الكتاتيب ، حتى اذا خرج التلميذ من الكتاب كان شاعراً بأنه في أي جمعية محكومة بأي طريقة . فاذا دخل المدرسة أو الأزهر كان نماء معلوماته على ذلك الأساس ، وذلك يستدعي تقرير بعض الكتب الصغيرة ، وتعيين ما يدرج فيها على نمط سهل يفهمه الصغير والكبير ، بأن تبين لهم فيه نسبتهم الى الأمور والمدير والناظر والمهندس والطبيب والعالم والى المقام الحديوي وغير ذلك . وتحدد الطريقة التي يتعلم بها الفقهاء هذه الأمور القريبة من الأذهان والمكان الذي يتعلمون فيه ، والوقت الذي يخصص لذلك ، والمعلم الذي يعلمه ثم تقرير العلاقة بين أولئك الفقهاء وبين ادارة الأوقاف ونظارة المعارف

المكاتب الرسمية الابتدائية

تلاميذ هذه المكاتب لا يزالون الى الآن من الأطفال الذين يقصد كفلائهم بتعليمهم التوصل بهم الى خدمة الحكومة ، سواء نالوا ما قصدوا أم لا ، الا أنهم في الغالب لا يستطيعون أن يذهبوا بهم الى نهاية التعليم المعدة لذلك ، فيرجع الولد الى أبيه أو من يقوم مقامه بعد نهاية المكتب ، عارفاً ببعض مبادئ العلوم التي لا يجد لها موضعاً تستعمل فيه ، فلا يلبث أن ينساها ، فيضيع الزمن الذي شغله بالتحصيل بلا فائدة ، ثم إنه يعود بأخلاق أشد فساداً من أخلاق الذين بقوا على الفطرة لم يمسهم التعليم ، ويجد في نفسه نفرة وعجزاً عن العمل فيما كان يعمل والده وأهله من قبله ، فيقضي عمره في البطالة ، أو ما يقرب منها ، فتزداد أخلاقه فساداً ، وأفكاره اختلالاً ، ويقف نفسه على عبادة الأوهام ، وخدمة الدسائس التي تنبيهه الى طلب ما يغير الحالة التي عليها الناس طمعاً في تغيير حالة نفسه بلا تعقل ، فيكون زيادة في أمراض البلاد بدل أن يكون عضواً نافذاً لها . فأول ما يجب لاصلاح هذه المكاتب ، ووضعها على أساس يفيد العامة أن يراعى في البروجرام ادخال مبادئ العلوم من وجهها العملي الذي ينطبق على

المعاملات الجارية في البلاد . فقواعد الحساب مثلا تؤخذ من وجهها العملي مطبقة على المروف في المعاملات التجارية ، وحساب الصيارفة الاميريين وغيرهم ، فيتعلمون طريقة وضع المدفوع من الأموال في الأوراق والدفاتر ، وطرق التحصيل لأموال الحكومة ونحو ذلك . ويدخل فيها فن الاوزان والمكاييل ، وان كانت مبادئ هندسية فليدخل فيها شيء من المساحة على الطريقة المعروفة في البلاد أو على أفضل منها ، وما يؤخذ من قواعد العربية يكون مصحوبا بالعمل في المكاتبات العادية ، والمشارطات المتداولة بين الاهالي ، حتى اذا انفصل التلميذ من المكتب يكون عنده ما يحتاج اليه شخصه أو عائلته وأقاربه وأهل بلده فلا ينقطع عن العمل به لكثرة ما يرد عليه منه

ثم يضم الى ذلك تعويده بعض الاعمال الزراعية أو الصناعية في أوقات الرياضة ، أو يخصص لذلك يوم في الاسبوع ليعلم كفلاء التلامذة أن للتعليم غاية سوى خدمة الحكومة ، وأنهم اذا لم يتالوا الخدمة فان لهم شأنًا سوى البطالة والتفرغ للاوهام الرديئة . ثم يضاف الى البروجرام مبادئ العقائد الدينية على الاصل الصالح ، وأصول الآداب الدينية على ما يجمع الألفة ويعرف وجه المصلحة في المحافظة والمخالطة ، وشيء من تاريخ البلاد ، وما كانت تعانيه في سابق زمنها ، وما صارت اليه من الراحة في هذه الأوقات ، وشيء من القواعد العامة للنظام الذي هم فيه ، ليعلم التلميذ أنه من أي جنس وفي أي شكل من أشكال الحكومة ، فيتعلم الخضوع والانقياد لكل مسند فيما يصدر منه . ثم يكون أهم العناية بحمل التلامذة على العمل بما يعلمونه من الآداب ، وتشديد المراقبة عليهم في ذلك ، وتوضع لهذا لائحة مخصوصة يحدد فيها البروجرام اللازم للمكاتب الابتدائية وطريق التعليم ، ويبين فيها المسلك الذي يتخذه المربي الموقض اليه مراقبة أخلاق التلامذة ، وملاحظة أعمالهم . فاذا أتم التلميذ مدة المكتب الابتدائي ، ولم يتيسر له أن ينتهي الى غاية التعلم رجع اليه بشيء نافع ، ونمت فيه الأخلاق الصالحة والأفكار الحسنة ، وانطبع قلبه على الخير والسلامة ، وكانت له بصيرة في وجوه المعاملة مع من يشترك معهم في المصلحة ، ونبت في (٦٩ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

قلبه احترام النظام الذي يضبط مصلحته ومصلحة بني وطنه ، ونشأ على محبة العمل والرغبة فيه ، فلا يكون الى فؤاده سبيل للوساوس ، ولا منفذ للدسائس

المدارس التجهيزية والمدارس العالية

لا أتكلم في بروجرامات دروس الفنون التي تقرأ فيها لأن النظر في ذلك يتعلق بالغرض الذي جعلته الحكومة غاية لاقامة تلك المدارس ، وإنما كلامي فيها منحصراً فيما يتعلق بالتربية وتهذيب الفكر ، وغرس مبدأ الإصلاح في نفوس التلامذة ليحسنوا في استعمال ما تعلموا

قلنا فيما سبق إن التربية مفقودة في تلك المدارس لا يخطر ببال أحد أن يعتني بها عناية حقيقية ، وإنما الموجود فيها صور ورسوم تفر الناظر فيها وهي بعزل عن الحقيقة ، فالذي يجب لتأسيس التربية فيها تعليم العقائد الدينية على الأصل الصحيح — تعليم الآداب الدينية على الطريق الصالحة — إلزام التلامذة في تصرفهم بموافقة ما تعلموا — كل ذلك على نمط أرقى مما كان في المكاتب الابتدائية — تعليمهم الاجادة في الكتابة كل في فنه الذي يريد الوصول إلى غاية التعليم فيه — تعليمهم أصول النظام العام ، ثم زيادة التوسع فيما يتعلق بفنه من النظام فالقانونيون يتوسع لهم في أصول النظام المتعلق بالقضاء والادارة وهو شيء غير نفس القانون ، والمهندسون في أصول النظام المتعلق بالري وتدير النيل وهو شيء غير الهندسة — وعلى هذا القياس

والمرابي في كل ذلك يودع في أفكارهم أن القيام بهذه الأعمال مما يطالب به الدين ، وأن فوائدها ليست قاصرة على خدمة الحكومة ، بل هي من لوازم الحياة الطيبة ويورد الأدلة على ذلك وهي كثيرة لا تعد ، حتى اذا بلغ التلميذ نهاية التعليم أمكنت الثقة به ، واثمن على عمل يفوض اليه ، وكانت الأنفس مطمئنة من جهته لعله أن للنظام علاقة بحياته الروحانية ، كعلاقة بحياته الجسدية ، فان لم يكن له نصيب في خدمة الحكومة وجد سبيلاً آخر للعمل وهو في رضى عن النظام المحيط بأعمال وطنه ، فيكون بذلك عضواً صالحاً ويقوم بينه وبين الدسائس

حجاب منيع من الاستقامة الفكرية والخلقية، حتى لو أن التليذ بعد ذلك همه الشطط في الفكر على خلع العقيدة الدينية بقيت فيه ملكات الأخلاق الفاضلة طبيعة ثابتة لا تتبدل بتبدل العقيدة

المعلمون والمربون ومدرسة دار العلوم

وجود مثل هؤلاء المعلمين عسير كما يقوله كثير ممن له تعب في البلاد ولم يتفكر في حالتها، ولم يدقق البحث في صاحبها، أما أنا فلا أرى في ذلك صعوبة بقدر ما يتصورونها كما أن كثيرا مثلي لا يرون ذلك

أما أولا فلأن بلاد واسعة مثل مصر لا تعدم أفرادا متفرقين في أنحاء يعرفون من الدين حقيقته، والزمان ما يلزم له، وإنما يجمعهم البحث والتنقيب. وكما ساح ناظر المدرسة الزراعية ليختبر الأرض ويعرف الطرق المسلوكة في البلاد لخدمتها واستنباتها، كذلك يجب أن يسبح مدير التربية في الأطراف يعرف الصالحين لتوليها، على أن المعروف منهم ليس دون الكفاية للابتداء في العمل، فإن لم يكن الموجود باغافا في المقصود فلا أقل من أن يكون قريبا منها — وأما ثانياً فلأنه يمكن تكوين جماعة كثيرة ممن يحتاج اليهم في الغرض بطريقة هي مرسومة الآن ولكن لم يطبق العمل منها على الرسم الحقيقي، على أن في الرسم قصصاً يجب تميمه، وتلك الطريقة قد رسمت في المدرسة المسماة بدار العلوم

دار العلوم مدرسة ابتدئها سعادة علي باشا مبارك من نحو خمس عشرة سنة وشرط أن يكون تلامذتها من طلبة الأزهر وأن يكونوا حصلوا من العلوم المقررة فيه مبلغاً يكاد يؤهلهم للتدريس، ثم جعل في دروس تلك المدرسة دروساً لجميع ما كانوا يقرأونه في الأزهر من العلوم الدينية ليتعموه على وجه أجلي وأففع وأضاف إلى ذلك أطرافاً من الفنون الصناعية كالطبيعة والكيمياء والحساب والهندسة وشيئاً من الجغرافية والتاريخ، وقد رغبة الدراسة أن يكون التليذ المتعم لدروسه فيها صالحاً لأن يكون أستاذاً في العلوم العربية والدينية في المكاتب والمدارس الرسمية، ولكن جاءت على تلك المدرسة أدوار كثيرة أسقطتها عن مرتبتها التي

كانت تنبغى لها، ثم لم يوضع فيها أساس للتربية التي كان يجب أن تكون أهم شيء يقصد من الانتظام فيها، ولهذا كان يخرج تلامذتها على ما يخرج عليه تلامذة غيرها من الأخلاق والأفكار لا يمتازون عنهم الا قليلا، وان كانت مع ذلك أنشأت أفراداً من أهل العلم والأدب هم الآن معروفون تشهد لهم حالهم بأنهم أفضل من جميع الناشئين في غير تلك المدرسة، ولكنهم أقل عدداً مما كان ينتظر ثم من غريب التصرف أن هذه المدرسة مع أنه لم يكن الغرض منها إلا تكوين أساتذة قادرين على التربية عارفين بالعلوم الدينية والعربية حق المعرفة لا يقيمون عليها من النظائر إلا جاهلاً بالدين واللغة العربية، بل غير معتقد بالدين بالكلية، كما فعلوا سابقاً، ويريدون أن يفعلوا في هذه الأيام، ولا يعينون فيها من المعلمين للدروس الدينية إلا من يقصد تعيشتهم بمرتباتهم، وفيهم من لا تجوز معاشرته التلامذة له فضلاً عن أخذهم العلم عنه، وفيهم من لا يحسن أداء ما كلف به، وليس فيهم أهل بوظيفته الأشخاص فقط والسكل لا عناية له بأمر التربية ولا يهتم فساد أخلاق التلامذة أو صلاحها، ولا استقامة عقولهم وأفهامهم أو اعوجاجها، وتعليمهم الدين على ما هو المعروف في الأزهر لا يغيرون منه فاسداً، ولا يزيدون عليه صالحاً، وسائر المعلمين للفنون يؤدونها تقلاً من الكتب، لا يبينون للتلامذة الغاية من تعلمها. وليس العيب في ذلك راجعاً إليهم، ولكن إلى من لم يضع أصلاً لسيرهم في تعليمهم، ولم يؤسس قاعدة ترجع إليها جميع الأعمال صادرة من المعلمين أو المتعلمين، ولم يقم على تلك القاعدة خبيراً بالبناء عليها، عارفاً بالغاية التي توجه المدرسة إليها، حكماً في تصرفه بأذهان التلامذة والاساتذة حتى يقيم للتربية بناءً معنوياً حقيقياً يأوي إليه كل معلم ومتعلم يأتي من بعده.

هذه المدرسة تصلح أن تكون ينبوعاً للتهديب النفسي والفكري، والديني والخلقي، ويمكن أن ينتهي أمرها إلى أن تحمل محل الأزهر، وعند ذلك يتم توحيد التربية في مصر، ولكن يلزم لذلك أمور

(الأول) إصلاح البروجرام وحذف بعض العلوم التي اشتغل بها التلامذة

في الأزهر والاكتفاء بتمرينهم على العمل بها وتقدير ما يلزم من الفنون الباقية وزيادة بعض علوم ليست فيها الآن منها علوم الآداب الدينية وفن أصول النظام مع تعلقه بالدين

(الثاني) تغيير طريقة تدريس تفسير القرآن وتعلم الاحاديث النبوية
 (الثالث) اختيار معلمين صالحين للقيام بالعمل الموصل إلى الغاية المطلوبة للمدرسة
 (الرابع) تعيين ناظر للمدرسة قد ملأ قلبه وغمر فكره الميل إلى المقصد الذي وصفت له المدرسة عالماً بالدين ولقته موثقاً به عند العامة
 (الخامس) إعطاء تلامذتها بعد نهاية التعلم حق التدريس في الأزهر
 (السادس) توسيعها إلى ما يسم مائة تلميذ
 (السابع) أن يزاد في مدتها سنة بعد الدراسة للتمرين على التعليم في نفس المدرسة

(الثامن) وهو أهم ما يجب — أن يكونوا تحت نظام شديد في التهذيب وملازمة العمل بما يعلمون
 (التاسع) أن تكون وظائف التدريس في المدارس والمكاتب منحصرة فيهم
 (العاشر) أن تكون درجتهم في الوظائف على حسب أدبهم واقتدارهم على التأديب

(الحادي عشر) أن يكون الموظف منها في مدرسة ماسطة تامة على تهذيب التلامذة وتربية نفوسهم ، وتقويم أخلاقهم وطباعهم ، وأرقامهم وظيفة في تلك المدرسة يكون رئيساً لمن دونه

(الثاني عشر) أن يبقوا بلباسهم الذي هو لباس أهل الدين معها ترقوا في الوظائف

ثم إنه يلزم لهذا المشروع كتب مؤلف جديدة ولوائح تنظم العمل على مقتضاها وذلك كله يمكن بعد العزم على الاجراء

نفقات الاصلاح

يمكن أن يظن أنه يلزم للاصلاح زيادة نفقات ولكن اذا دبرت مصاريف المعارف على الوجه اللائق فلا أظن أنه يحتاج إلى زيادة على أنه لو احتيج إليها لا يثقل احتمالها بعد اليقين بأن هذا الاصلاح يؤول إلى تمكن السلطة وجعل الرعية صالحة لأن تكون بدنا لرأس ، او آلة لعامل ، وأظن أن بذل النفقات في هذا السبيل — وهو سبيل حياة السلطة وحياة الرعية — أفضل منه في جميع السبل ، فان كانوا يصرفون آلافاً من الجنيهات على بعض المباني الخربة بدعوى أنه أحفظ للآثار القديمة فأولى أن يصرف بعض تلك المبالغ على حفظ الذين تبقى لأجلهم تلك الآثار . فان الترية هي الحصن الحقيقي للبلاد ، الذي يصونها من جيش الفساد ، وهي آلة صاحب السلطة في الانتفاع بالحكمهين له ، ولا وسيلة للحكومين سواها في تعريفهم حدودهم التي يجب أن يقفوا عندها بالنسبة إلى مقام صاحب السلطة عليهم . وإني أجد هذا الاصلاح في مدارس الحكومة يأتي بفائدة أعم من الفوائد التي جاء بها مشروع السيد أحمد خان في الهند وهو أبعد من ذلك المشروع عن سوء الظن

شبهة من يعارض المشروع ومكانته في نفسه

ربما يوجد أشخاص خصوصاً من الرؤساء يقولون إن هذه الطريق بعيدة النهاية لا توصل إلى الغاية — كما قالوا ذلك من قبل — فنقول لهم إن الطريق التي سلكوها وسلكها أسلافهم من محمد علي إلى الآن قد جربت فلم تعد بخير على البلاد ، فليسلكوا الآن هذه الطريق على سبيل التجربة بعض سنوات فليس هناك ضرر ينتظر ، فان لم تكن فائدة فلا خوف من المضرة . إن من يزعم العجز إنما ياجأ اليه لأنه لم يتصور ما يرد من الأمر عليه فان كانت له أدلة فليوردها ، ولا نعدم لها من الحقيقة دافعاً ، فان أبي إلا العجز فربما يوجد من لو وكل اليه الأمر قام به ، ولم يعجز عنه ، والتجربة مشرق الحقيقة

إن شاء الله تعالى . على أنه يمكنني أن أضمن كل ضرر يتصور في هذا المشروع ،
وأكفل أن يكون له من النفع ما هو أوفر من الفائدة المطلوبة في السير الحاضر
واني لأزال أكرر أن غارس هذا الغرس يجني ثمرة الطيبة ، وأن فوائده ربما
قلت الى أقطار آخر فعادت بجزيل الخير على من نماء ، وفي الزمن القريب يبدو
صلاحه لصاحب السلطة وللمحكومين له ، ويسهل له تقرير أمره فيمن سلخوا
بإصلاحه على قاعدة المحبة والالفة ، لا على طائشة الاخافة والرهبة ، ويكون بذلك
قد كون لنفسه شعباً جديداً يعينه في الشدة ، وينصره في الفتنة ، وبعضه في ساعة
الحاجة ، ويمحو من نفسه خيال التعلق بغيره ، ونزول من طريقه عقبات تعصب
الجاهلية ، وحمية الحماقة اللابسة ثوب الحمية الدينية ، وفي ظني أن من عارض
هذا المشروع فقد عادى سلطته ، وعرض نفسه لغير الزمان ، وسياسته لنفوذ شياطين
الفتن من مقاوميه والله ولي الأمر ويده كل شيء يهدي من يشاء الى صراط مستقيم اهـ

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ قلت هذه اللائحة عن مسودة للامام غير منقحة
ولامعروضة للنشر كما سبقت الاشارة ، بل كتبت لأجل أن تترجم وهي مع ذلك
آية في البلاغة وحسن العبارة وان كنت اجزم بأنه لو بيضا ، لغير وبذل بعض
كلمها . ومن كان حديد الفهم بعيد الغوص في أسرار الكلام يعلم أنها لامست
سما . الاعجاز أو كادت ، على عدم العناية فيها بزينة اللفظ وزخرف القول . ذلك
أنه لا يرى لعقله مذهباً آخر أرجى من مذهب الامام فيها باقناع السلطة في مثل
هذه البلاد بالثريية الاسلامية التي كانت قصده في أمته ، مع الصدق في القول
والاخلاص في النية . واذا قارن هذه اللائحة باللائحتين قبلها تجلي له معنى « لكل
مقام مقال » فغرض إمامنا في الاصلاح الديني الذي يحمي امته حتى في دنياها واحد
ولكنه كان يتوسل اليه في كل بلاد باقرب الوسائل التي يرجى أن ترضى بها السلطة
وهو ما يجعله موافقاً لمصالحهم ولو في الجملة ، وتلك هي الحكمة البالغة ، والبلاغة السابغة
ناهيك بما تومئ اليه مقدمة هذه اللائحة من الرسوخ في علوم العمران
كطبائع الامم وأخلاقها ونظام التربية والتعليم والسياسة . فبالت الاستاذ

الامام فرغ للتأليف لم يشغله عنه الاصلاح العملي ومحاولة تربية الأزهر واصلاح الشورى والمحاكم ، اذاً لكان لنا منه مصنفات تفعل في النفوس بعد وفاته ، ما لم يتم له مما كان يريد أن يعمل في حياته ، رحمه الله تعالى على نيته وحسناته على أنه لو فاز بما كان يريد من كتابة هذه اللائحة - وهو جعله ناظر المدرسة دار العلوم مستقلا في تربية تلاميذها - ، لرأى لمصر فيها من الرجال من تصاح بهم جميع المدارس الاميرية وغيرها ، ومتى صلح هؤلاء. صلح الشعب المصري كله وصلاح به الشرق الاسلامي كله ، ولكن لم يكن في الحكومة المصرية من الوزراء من يسموه عقله لفقه هذه اللائحة ، ويسمو عزمه لانفاذها ، واما أصحاب النفوذ الفعلي في هذه الحكومة من الأجانب فهم أجدر بفقها ، وأجدر بمعارضة العمل بها لو طلبته وزارة المعارف وهي قد ترجمت للسر أفلن بارنج يؤمئذ (لورد كرومر) فبذها وراء ظهره طبعاً . ولم تستمل تلك العبارات التي قصد به استمالة . وأما الخديو توفيق باشا فقد أبى صاحبها مديراً ومعلماً في مدرسة دار العلوم ، وعلم ذلك بأنه يربي الطلاب فيها التربية التي يخشى سموه عاقبتها على بلاده (??) وأمر وزير الحقانية بأن يجعل الأستاذ قاضياً في إحدى محاكم الأرياف ليكون بعيداً عن القاهرة مركز الحركة الفكرية والتعليم (??) فهو قد بقي على رأيه الذي وسوس به اليه قنصل انكلترة الجنرال عقب توليته من أن السيد جمال الدين وحزبه الوطني يريدون سلب سلطته الشخصية بحكومة نياية . فنفى السيد من القطر المصري ، والشيخ محمد عبده من القاهرة كما بيناه في الترجمة . وقد سلب الاحتلال سلطته وسلطة الامة معاً ، وظل هو خائفاً من التربية المليية الاسلامية التي كان يريد ها الشيخ رحمه الله تعالى (فاعتبروا يا أولي الأبصار)

الباب الخامس

كتبه ورساله

الفصل الاول

في طائفة من كتبه الاصلاحية والدينية الى العلماء والفضلاء من
أعضاء المقد الرابع من جمعية (العروة الوثقى) وغيرهم

(١)

الله الحمد على هبته من الاخلاص ومنحته من الانابة اليه ، واشكر الله اليك
على ماوفر لك الحظ منهما ، ماأبطأ بي عن مواصلتك غفلة عن ذكرك ، أو اهمال
في الواجب علي لحقك ، فلي من همتك منبه لا يغفل ، ولدي من مروءتك جميل
لا يهمل ، لكن صرقتي القدر الالهي فيما أراد الله ، وصرفني الى حيث سبقت
مشيئته ، تعاضمت حوادث الشرق ، خصوصاً مآمال منها نحو الجنوب ، فشغل الاهتمام
بها مواضع الفكر ، وأخذت صور عقباها بمواقع النظر ، فتلقيت من الامر الجديد
أن أكون على مقربة من الضوضاء ، ومسمع من النداء ، ولعل الله ينهض بالقول
هما أو يكشف بالبيان جهالات ، فتعرف أنفـس ما ادّخر لها العمل ، وتلحظ
أبصار مادنا من الأمل ، وتنبعث عزائم لتناول ما حضر لديها ، وابرار ماكن فيها ،
فعناية الله بأسطة أكفها اليهم ، رافعة صوتها عليهم ، وهم في غشية من الجهل لا يصاحفونها ،
وغطيـط من الغفلة لا يسمعونها . هذا ما اندفع بي الى بلاد استعين الله فيها على
تجديد عهوده ، والتوقيف على حدوده ، عسى أن يتواصل المتقاطعون ، ويتناصر
المتخاذلون ، وما توفيقي إلا بالله وما اعتمادي إلا عليه ، فكانت أوقاتي من فراقك
في أسفار ، واليوم سكن بي قرار ، وإني بعد طوافي ببلاد كتب اليك اليوم من
بلاد بها عى الشباب تمني وأول أرض مس جسمي ترابها

(١) المحفوظ من المصراع الاول * بلاد بها نيطت علي تمني

(٧٠ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

غير انه لا يراني من أهلها الا المخلصون، ولا يعرفني فيها الا العارفون ، وان لك
بينهم ذكر أليق بهمتك ، ومكانة تجدد بها عزيمتك ، ولقد أبلغت السيد من خبر
صنيعك ما وفر لك شكره . وأخلص لك سعيه ، ورجائي ان يوافيني من لدنك ما يطمئن
به القلب على صحتك ، وما يتروح به الفؤاد من أبناء مساعيك بين الاخيار من
قومك ، أحيا الله بك موات الهمم ، وأقرّ بك نواظر الفضل ، وسلامي عليك
وعلى آبائك وآل ودك ، والله يديم رعايته عليك والسلام

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٢

طال العهد على فراقك ، ولم يجر القلم براسلك ، حتى خيل مكان للظنة
ومثار للريب . أستغفر الله ، لي من شماتك روح بروحي ، ومن همتك قاب
بقلي ، فلست أنساك حتى أكون بمعزل عن نفدي ، ولكن حوّلني مهمات
الشرق عن الغرب بما رآه المولى السيد من فرصة العمل في هذه الحوادث
المتتالية ، فخليته عوناً لنا حيث هو ، وتحوّلت الى مقربة من معاهد العروة ،
ومكلمن القوة . فكانت المدة من يوم فراقك متبدّدة في أسفار ، متلاشية في
هواجس أخطار ، واليوم أكتب اليك من وراء ستار ، فلا تهملوني من التذكار ،
ورجائي أن يرد إليّ من قلبي ، ما يرجوه القلب من ودم ، وسيدي السيد
يهديكم أتم التحية ، والوسيلة تصل اليكم ، وسلام الله عليكم ، وعلى كل مخلص ،
والله يحفظكم

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٣

فارتك ولم يفارقني مثال من كمالك ، وضياء من عرفانك ، واني على البعد
عنك ، لم أنس ما أفادني القرب منك ، ولي في كل لحظة شوق اليك ، وفي كل
بقعة حللتها ثناء عليك ، ورجائي أن أنال حظاً من الاطمئنان على صحتك ،
وسلامي على حضرة السيد أخيك ، ومن سعد بمحبتكم ، والله يتولى رعايتكم والسلام

٧ جمادي الاولى سنة ١٣٠٢

٤

أشد ما أجد من فراقك، حرمانني من محاضرة آدابك، والاقتراب من آوار فضلك، وتعرّف الصواب من صائب رأيك، وإنما يخفف ألم البعد عنك أن أكون بمكان من فكرك، وأصيب حظاً من مراسلتك. وجدير بكرمك أن تصل واصلاً، ونجيب سائلاً. وسلامي عليك وعلى أئمتك الصالحين، والله ينفع المسلمين بسعيك وخالص نيتك والسلام

٧ جمادى الأولى سنة ١٣٠٢

٥

أيد الله بك الحق، وأعانك على العمل بما وهبك، عرفان تثير به أفئدة السذج من قومك، وترد به جماع الغاوين من عشائك، ويقين في الدين ينهضك إذا قعد المرتابون، ويشد عضدك إذا ضعف الواهون، ومكانة في قلوب أشياءك تمكن الثقة بك، والاستمساك برأيك، وسعة في البيان، تقطع بها طريق الشيطان. فوجه عزمك للنصيحة، وجادل بالتي هي أحسن، وإذا أخذت من أحد بجبل فلا ترسله، ومن وسوست له نفسه بالقطيعة فلا تقطعه، وصل حبالك وحبال المهتدين بجبل الله، وكن على ثقة من الفوز، ويقين من النجاح، ما دام هدي النبي هديك، وسمي الأصحاب سعيك. وإن أشكل عليك أمر أو اشتبهت لك المنافذ، فاخوانك كثيرون، وهم بمعونة الله في عونك، كما أنه لا غنى لهم عن الاستعانة برأيك. ومقامي اليوم في بلد ما كنت أحتسب الذهاب إليه، وإن كان أوفر لهني عليه. ولكن مكاتبتك تصل إليّ إن شاء الله بالطريقة التي تراها صحيحة هذه الأسطر، وسلامي على قلبك الطاهر، وشوقي للاجابة وافر، والوسيلة تصل اليك والسلام

٧ جمادى الأولى سنة ١٣٠٢

٦

أكتب اليك والله أعلم بما أثبت فضلك في قلبي من الود، وما يهيج أدبك في فؤادي من الشوق، وبودّي لو أن عبارة تحمل ماني نفسي اليك، ولكن حكمة الله في قصور العبارات أن يكون الفضل لثقة الكريم، وفراصة الحكيم

قد يكون لك ظن فيما أباطأ بي عن مراسلتك هذا الزمن الطويل من فراقك . وحاشا أن يكون تساهلا في الحق ، أو تغافلا عن فريضة الود ، وإنما هو أرقط الحوادث وثب على أوقاتي فزقها ، وغول الكوارث انبسط فيها فضيقها . من يوم فارقتك ما استقر بي مكان حتى الآن . ذهبت إلى باريس فماعدت أن تلقيت من الرأي الجديد أن أتحو جهة الشرق ، حيث مسيل الحادثات ، ومخرق الذاريات . فررت على بلاد كثيرة منها مدينة (كذا) عملت في جميعها على احكام العروة وتمكين عقودها . ثم أصعدت بعد ذلك الى

﴿ بلد خلعت به عذار شبيتي وطرحت في كف الخطوب عنائي ﴾
 وأنا اليوم فيه أتعرف الوجوه ، وأتذكر للعيون . وأسأل الله نجاح العمل ، وإقبال الأمل ان لي في حمتك رجاء عرفه المخلصون ، وهم لتحقيقه منتظرون . فادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . فان فناء في الحق لهو عين البقاء ، وإن نميا في الباطل لهو الشقاء . فاستكثر من الاخوان ، وتقمهم من الخوان ، واثبت بهم على أصول الشريعة ، وارجع بهم الى سيرة صاحبها عليه الصلاة وأتم التسليم ، وليكن القول من مولاي الصادق تأسيساً لا تدريساً ، ولا تكون كلمة الا وغايتها عقد يرم ، ورباط يحكم . أستغفر الله أن أنبه يقظان ، أو أهدي البيان لمعدن العرفان ، ولكن ذلك حديث نفسي لنفسي ، وخطاب قلبي لقلبي ، ومن علي بأبنائك ، وما يكون من آثارك . ألهاني مشهدي منك عن طلبي لترجمة حياتك ، فلو تفضلت بارسالها من قلم أحد تلامذتك ، لتثبت في صحائفي ، ذخيرة لي وللخلائفي . واذا رأيت ... فنبهه أن قوة الاتحاد في الجنوب ، أفرغت قوة النيران في الشمال ، وأن نيران القلوب أذابت مدافع الكروب . وما النصر الا من عند الله يؤتيه الصادقين ، ويؤليه المخلصين (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) أما والله ان غلب المسلمون عن تفرق وتحاذل ، فلن يغلبوا عن ضعف وقلة ، ولكن (من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً)

السيد يهديكم السلام ، وقد أخذت في ترجمة رسالته في نقض مذهب الطبيعيين ، وعند تمامها أبعث اليك بها ، فان حسن لديك طبعها في حاضر تكم

فذلك لكم ، والوسيلة تصل ان شاء الله اليكم ، وسلامي على روحكم الزكية ، وعلى كل نفس صادقة ، ورجائي سرعة الاجابة والسلام

٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٢

٧

تهبي من جلالك ، يمنعني الدنو من كالك ، وكل ماعدت من فضائلك ، فهو دون الحقيقة من حالك ، وغاية ما أعدت لك من نفسي مقام لم يحله سواك ، ومنزلة لم يسم اليها غيرك ، وما أنا بالمختار في ذلك ، وإنما فضلك أنزلك حيث شئت ، وصرفني فيما اخترت ، لا أذكرك بما اقترقنا عليه ، ووجهنا وجوهنا اليه . فذلك الدين وما اقترض ، والحق وما اقترض ، (ان تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حلیم * قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين * عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم) إن الزمن من يوم فراقك كان في سفر لم تسبح لي فيه فرصة لأداء حق المواصلات ، ورجائي في عفو هو أقرب اليك من الظنة ، وأجدر بك من التهمة ، وإن كتابي هذا يصلك من خلوة يستضاء فيها بهديك ، وتلى فيها آيات ذكرك . وإن هذا الداعي والمحاصن في السير على طريقك يؤملون ورود الخبر من جانبك . وأرجو أن يكون فيما تكتب إلي شيء من حال الشيخ . . . والشيخ . . . ومن وصل اليه سعيك ، وكتبي سرّ لديك ، وسيدي الاستاذ حيث تركته بهديك أزكى السلام ، والله يحفظكم برعايته

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٨

ما قرّح آثاره صنائعك ، ولا تخذ شوق حاجه ذكرى شمائلك ، ولكن تعس زمان شغل يدي ، وأخذ بأصغري وأكبري ، حتى أبطأ بي عن مواصلتك ، وقصر بي عن مراسلتك . هذه مدة من فراقك نهبتها الأسفار ، وغالتها مقارفة الأخطار ، حوّلني صروف الحوادث عن الغرب الى الشرق ، حيث يقصد احكام العروة ، وتأيد القوة بالقوة ، ولي في ذكر حضرة الوالد

شان ، وفي تعديد أوصافه كما سمعت بيان ، وسيدي الاستاذ يهديكم أزكى السلام ، وأنا في انتظار لنبا منك عن صحتك وصحة السادات أشقائك ، والوسيلة واصله اليك إن شاء الله ، وسلامي عليك وعلى سيدي وسيدي الشريف ومن تودون ، والله يتولى رعايتكم والسلام

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٩

لله ما أودعت نفسي من الود لك ، وما ملأ قلبي من الاجلال لقدرك ، ذلك أثر من كمال روحك ، وجمال صفاتك ، زادك الله قربا اليه ، وتعويدا عليه . لم أكتبك من يوم فراقك ، لأن المدة تقضت في سفر وانتقال ، وهذه أول فرصة سنحت لأداء حق المودة ، وفريضة الاخوة . ورجائي أنه لا يزال فكرك ماتفارقنا عليه ، وسبق الكلام فيه مراراً ، وأن يرد لي من سيادتكم ما يشرني بسلامة حالك ، ومجمل الحاصل من سعيك ، قدم سلامي الى حضرات الاميرين الجليلين ، وسأكتب اليهما واليك على وجه آخر عند ورود خبر من جانبك ان شاء الله ، حوّلتي الحوادث من الغرب الى الشرق ، لتكون المواجهة أشد أثراً من المكتابة ، وهذا ماعاقي عن مباشرة ذلك العمل المعهود في هذه الأيام ، ولكن الحمد لله على وحدة القصد ، وسلامة الغاية ، والله يسمعي عنك أفضل ما أحبلك ، والسلام

١٠

وكتب الى صاحب الكتاب رقم (٢) من الكتب السابقة جواباً
لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وبه الحول والقوة
السلام عليكم ، تحية أخ يهزه الشوق اليكم ، وبعد فقد تلقيت اليوم كتابك ، فشممت منه ريح الحمية ، والنصرة الدينية . وأرجو أن تصل بك بدايتك إلى ما يختار الله لك من حسن النهاية ، ولم يكن ظني في همتك ، دون ماتينت من عبارتك ، فليكن سرورك بنفسك ، على قدر شفقتك على دينك ، وحرمة ميلك للاخذ بيده وتقويم أوده . فانما هو الدين المتين الذي اطلق العقل من قيده ،

وأخذ على الوهم في كيدته ، وهزّ النفوس إلى نبيل الفضائل ، ونكب بها عن مشايعة الرذائل ، حتى ساد به الضعفاء ، وذات لسلطانه الأقوياء ، وسبق وعد الله بأن يظهره على الدين كله ، والله منجز وعده لأهله ، وإنما خلقنا الله وكافنا بصرف همومنا إليه ، وتعويلنا في شؤوننا عليه ، وليس لنا من الحق في أنفسنا وأموالنا ، إلا ما نبذله في تأييد ديننا ، ولا حاجة لله فيمن لم يكن له من نفسه وماله نصيب .
داوم قراءة القرآن وتفهم أوامره ونواهيه ومواعظه وعبره ، كما كان يتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحي ، وحاذر النظر إلى وجوه التفاسير إلا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مراد العرب منه ، أو ارتباط مفرد بآخر خفي عليك متصلاً ، ثم اذهب إلى ما يخصك القرآن إليه ، واحمل بنفسك على ما يحمل عليه ، وضم إلى ذلك مطالعة السيرة النبوية واقعاً عند الصحيح المعقول ، حاجزاً عنيك عن الضعيف والمبذول ، واعتبر بما قاسى النبي وأصحابه من الجهد والعناء لنصر دين الله ، وما ركبوا من المتاعب ، وما احتملوا من المصاعب ، على ما تعلم من درجة قربهم إلى الله ، وغفرانه لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر . واجعل عيشك للأخرة ، واستعد لما وعد الله ، فإن سعادة أبدية ، لا تنال إلا بسيرة محمدية ، ولن تنال بنوم موسد ، على فراش ممهد ، واعلم أنك محاسب على الدقيقة من أوقاتك ، واللحظة من لحظاتك ، إن صرفتها لأعزاز دينك كانت لك ، وإلا كانت عليك ، وأرجو أن يكون كل سعيك خيراً ، يجعله الله نوراً يسعى بين يديك إن شاء الله .

أما ما ذكرت من مسألة الشيخ الصغير فيودي لو توجه إلى الله كل مسلم واعتصم بحبله كل مؤمن ، فما بالك بشيخ من جمال الوصف على ما ذكرت ، ومن علو المنزلة على ما بينت ، فإن تيسر لك السبيل فتقدم لدعوته ، وادخل إليه ابتداءً من طريق لا يعرفه ، وتلطف له في القول ، وإن شئت أطلعه على شيء من مقالات العروة الوثقى ، فإذا انتهيت به إلى ما يعرف ، وآنست منه الميل والرضا ، فاما أن يكتب إليّ ، وإما أن يستعدّ لتلقي كتاب مني ، ثم سراع إليّ بالخبر ، ثم نبثني عن الشيخ ... واسأله أن يكتب إليّ بالعنوان الذي به تصل إليه كتيبي ، فاتي قد أذنت أن أبعث إليه ببعض المواد الأصولية ، التي يجب اعتبارها أساساً للبناء ، كما

اعتبرها المستمسكون بالعروة في كل قطر، ليتحد المسير، وإلى الله المصير، ثم أتني الآن في بيروت وأقيم بها زمناً، فإذا كتبت فليكن العنوان ... ولا حاجة لما يزيد عن ذلك، فانه يصل إلي بمجرد هذا العنوان، وبادر للكتابة والسلام.
١٥ ذي الحجة — سنة ١٣٠٢

١١

(وكتب الى صاحب الكتاب (٥) من الكتب السابقة جواباً)

لا إله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

السلام عليكم، وعين الله ناظرة اليكم، وبعد فقد وصلي اليوم كتابك بحمد منك اخلاصاً طويته، واختصاصاً بالله حويته، ويشكر منك استعداداً للملااة الله على أمره، ومظاهرة لأقامة الحق ونصره، ويثني على معرفتك ما آتاك الله من الحول، وما رزقك من الطول، ونزوعك لشرك إياه على ما آتاك بالعمل فيه لا آخرتك ودينك، ولم يفتك الاعتبار بقوله تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » : الآية : ولا بقوله « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار، ولا ينالون من عدو نيلاً، إلا كتب لهم به عمل صالح، ان الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » ولن يعجز مؤمن وإن ضعف حاله وقل ماله أن يأتي واحدة مما ذكر الله، فكيف بك وقد آتاك الله بسطة جاه في قومك تستطيع بها تقويم طباعهم، وتهذيب عقولهم، وردهم إلى ما انحرفوا عنه من طريق الشرع القويم، وتنبههم لما غفلوا عن رعايته من طلب الشهادة، وعدّها أفضل ذخائر السعادة، وإن لله يدا عندك بما آتاك، ولست تأمن مكره في حفظ نعمته عليك لعقبك: ان أمنت ذلك لنفسك، إلا أن تؤدي حق الله فيها، ولا تؤدي حقه حتى يكون معظمها منصرفاً لعزيز دينه وإعلاء كামته، والجهاد للحق حتى يظهر، وفي الباطل حتى يدحر، فأوصيك وما أنت بمحتاج للوصية أن تجعل كتاب الله أمامك وأن تأتمر له كما كان نبينا وأصحابه يأتمرون له، فلم يكلفهم الله دوننا، ولم يسأحنا

الله دونهم ، وليس بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في فريضة فرضها ، أو سنة سنّها ، وإياك وتعلات النفوس وأهاويل الأوهام ، فانهن مضلات العقول ، ومداحض الهلكة ، وجند الشيطان ، وليس بينك وبين الحق إلا أن تهتم وتخلص لله همك ، فتكون يد الله على يدك ، يؤيدك ويأخذ بالحق بك ، والله لا يعين خاذله ، ولا يضيع عملا أخلص له .

ألا أيها الشيخ الجليل ! إن الله قد اشترى منا حياة دنيئة لو طلبت من عاقل لجاد بها بلا عوض ، لقيامها على قواعد الاتعاب ، وقوائم الأوصاب ، بدايتها ضعف ، ونهايتها عجز ، وما بينها خروج من أحدهما دخول في الآخر ، مافات من لذاتها يولد الأسف على فواته ، وما حضر مشوب بالجزع على ذهابه ، والبهف الدائم على تحصيل ما يؤمل منها ، فليس فيها حال تخلو من آلام ، وقد وعدنا ديناً حقاً أن يعوضنا عنها سعادة أبدية في حياة أبدية لا يشوب لذتها ألم ، ولا يمزج صفوها كدر ، وذلك عند ما تسلم له السلعة تامة في نهاية الأجل ، فإن لم تقبل ببيعة الله في ذلك كنا المغبونين ، وإن لم ندفع له سلعته خالصة كنا الخاسرين ، حياتنا ذاهبة إلى الفناء رغماً عنا ، وليس لنا من امكان للخلود فيها ، فانظر إلى رحمة الله في شرائها منا ، وأجزال العوض وتعظيمه حتى كأنه يساومنا ملكاً لنا ، وفي سعتنا أن نستبد به عليه ، ونمنعه مراده منه ، جلّت عظمته ، ووسعت رحمته ، ألا فلتق الله ولا تبخل عليه بما هو له ، ولا نفر باملانه لنا ومطاولتنا عليه . فشمّر عن ساقك ، واحسر عن ذراعتك ، واذهب إلى الله بخير الذخائر وهو تأليف عباده على الحق واستجاشة قلوبهم للدين ، وتأليبهم على تلبية داعي الايمان ، والله يتولى ارشادك في جميع الاحوال .

أما حادثة الشيخ فقد مسنا منها مامسه ، ولم يكن ما وجدنا منه أقل ما وجدته ولم يغب عنا شيء من أطرافها ، وقد جهدنا فيها ما استطعنا ، وربما رأيتم أو سمعتم بما أطالت به جراند باريزي المدافعة عن الشيخين وتعنيف الحكومة على ما فعلت وذلك بمحاورة من تعلمون هناك ، ولقد تنازعني في هذه الحادثة مسرة وحزن أما المسرة فلأن الشيخ قام على طريق الصديقين يتلقى من الاختبار الالهي ما تقوه

لينال من رضا الله اذا احتسب ما نالوه ، وأما الحزن فلما عسى أن يكون قد خالط قلبه من المحنة والأسف على المصيبة ، والحمد لله على رجعة من غيبة ، واسأله وقايتكم جميعاً من كيد الغادرين ، وعدوان الظالمين ، وأن ينزع بخواطركم اليه ، ويؤلف قلوبكم عليه . وبعد هذا فنبثني عن العنوان الذي به أكتب اليك ، وأخبر الشيخ أن يكتب لي بعنوانه ، فقد أذنت بأن أبعث اليه ببعض القواعد التي ينبغي أن يرفع البناء عليها ، واذا كتبتم إليّ فليكن بعنوان ... وعجل بالاجابة ما استطعت والسلام ١٥ الحجة سنة ١٣٠٢

١٢

وكتب إلى ش.ي صاحب الكتاب (عدد ٢)

لا اله إلا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

حضرة الاخ العزيز

ورد إليّ كتابكم والحمد لله على صحتكم ، وكنت أود المبادرة باجابتكم من يوم وروده ، لولا أن رقيمكم صادقي على علة في عيني ، كانت تمنعني النظر في الكتابة والكتب ، والله الحمد على ما خف منها . اشتد أسفي على فقد الشيخ الصالح أوسع الله له من رحمته ، ونفعنا بطيب نيته . أسفاً على فقد حميٍّ لدينه ، مخلص في يقينه ، وإن كان لأسف على من يلاقي ربه بمثل ملاقي الشيخ ، انتهت دنياه بغضب الشيطان ، وافتتحت أخراه برضى الرحمن ، ولولا رجاؤنا في مثل ما أقبل عليه الصالحون ، لضائق بنا منازل الحياة ، وغصصنا باهناً لذاتها ، وشرقنا باعذب كؤوسها . أما ما ذكرت عن الشيخ الصغير فقد كان كتابك السابق يشير إلى رغبة منك في تعليق الأمر بك على أنه لو لم يكن فيه مثل ذلك لما اخطأت الظن فيما كلفتك ، ولم أستسمن ذاورم ، بل على الملي . به سقطت ، وإن ظني بك لفوق ما يروي عن نفسك ، ولكن دع عنك ما استصعبت من الأمر ، وأخبرني عن اسم الشيخ المشهور به ، واسم بلده ، والقطر الذي تغلب إقامته فيه ، واكتب ذلك بالحرف الفرنسي الواضح ، وأستعين الله في مخابرتي بنفسي بأسلة قلم نو لسان رسول ، ولا تبطئوا عليّ في الافادة ، والسلام عليكم وعلى اخوانك الابرار ، والله يتولى اعانتكم والسلام

وكتب إلى س . من صاحب الكتاب (رقم ٦)
لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وبه الحول والقوة

بسم الله الرحمن الرحيم

(وقل اعملوا فإدري الله عملكم ورسوله والمؤمنون * وستردون إلى عالم الغيب
والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون)

كتبتم إلي بأنكم اجتمعتم جملة من الصادقين وأهل الحمية للنظر في تقويم
ديننا ، والأخذ بما يرضي إلهنا ، ويقر عين نبينا ، ثم حدثت بعد ذلك الأحداث ،
وتلك سنة الله في الأولين والآخرين عند بداية كل عمل صالح مقبول لديه ، محفوف
بالعناية منه ، ولم يمنعني حدوث ما حدث عن مخابرة من أنوب عنهم بما كان من
اجتماعكم ، ثقة مني بهمتك ، وصدق عزيمتك ، فورد لي الاذن بتسمية مجتمعكم
وإرسال بعض القواعد التي يبتدأ بها العمل . واليوم أبعث بها اليكم ، وأمل أن
تكون في حرز الصيانة ، وأن تكون مرجع الأعمال ان شاء الله ، فاذا وصل اليكم
ذلك فخذوا عهدكم على القسم المذكور ، وانتخبوا رئيسكم وعجلوا الخبر بما انتهيت
اليه ، وفصلوا أسماء من معكم وألقابهم ومواضع اقامتهم وسموا لئلا رئيسكم . وكنان
السر أول وصيتي اليك وهو نهايتها والسلام على أهل العقد الرابع من عقود
العروة الوثقى والله يتولى اعانتكم - رسالة الرد على الدهريين أشرفت على نهايتها
من الترجمة وستطبع في بيروت ان شاء الله ومتى تمت ارسلنا اليكم منها

وكتب الى (ش) صاحب الكتاب (عدد ٢)

أيها المؤمن حقا

لا أدري هل أخطبك بالأخ الصالح أو بالابن البار ، ولكنني أعلم أنك
مؤمن بلادك ، هياك الله لرشادك ، تلقيت يميني يمينك ، وضممت إلى أيقيني
بقينك ، بارك الله في عزيمتك ، وحاطك باليمن في نيتك ، ولقد أتيت في عمالك

هذاسنة المؤمنين من قبلك ، سارعت إلى مغفرة من ربك . ممثلاً أمر كتابك المنزل على نبيك ، وسابقت إلى جنة من الله ورضوان .

رويت لي عن صاحبك دون ما أملت فيه ، ولكني أرى رأيك في استبقائه ، والارجاء باليأس منه ، فلعل بارقة من العناية الالهية تنزع به الى ما هو خير له ان شاء الله (ومنه) والله انا لتصفح قلوب المؤمنين في هذا الامر تصفح الناشد مواضع الضلالة ، لعنا نصيب من قلب حكمة ، أو نستفيد من عقل بصيرة ، وانا لتتبع في ذلك أثر النبي صلى الله عليه وسلم وأثر أصحابه والآخذين بسنته الحقن الله بهم . فما باله يرحمه الله يضمن بما يراه ان كان للحق طالباً ، ولكن لا تحزن ان الله معنا (ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون)

ان أخذ مغرور الى حضيض الجبن فانما رضي لنفسه درك العدم ، وانحدر عن أدنى درجات الوجود ، ولم يزد في حاله أن يكون كأشياء جبناء ، يفوقون عدد الحصباء ، عاشوا في أغلفة من الخول لا يهتدي اليهم الذاكر ، ولا ينصرف نحوهم شكر الشاكر ، هذا بعد أن يكون قد أصاب حظه من المقت الالهي الكامن في قوله (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم) واني لأشع بمثله عن هذه المنزلة هده الله

ذكرت اسم الشيخ القاضي نجبه فلم تذكر ناسياً ، ولم تنبه لاهياً ، زاد بذلك أسفي ، واشتد على مثله لحفي ، وهمل دمعي ، وغشي على بصري وسعي ، أمطره الله غيوث الرحمة ، وتوفانا على مثل نيتيه ، فذلك كان من الصابرين (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون) أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) قم على مذهبك (وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) وذكر بآيات الله ، فلائن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم .

وكتب اليه أيضا هذا الكتاب المطول وهو من أجل كتبه الدينية
الاصلاحية ، بل من أبلغ ما قال أو كتب أئمة الدين ، وعرفاء الصديقين ،
من المواعظ والنذر ، والآيات والعبر ، التي تنير البصائر ، وتطهر السرائر ،
وتزيل بين المؤمن والكافر ، وتفرق بين البر والفاجر ، فهي ميزان
الايمان ، ومسبار العرفان ،

لا اله الا الله وحده لا شريك له وبه اخول والقوة
سرفي ما تقل الي كتابك أنك استجبت لربك فيما دعا اليه عموم خلقه
بقوله (قل سيروا في الارض) وانما يستجيب اليه أهل الرغبة فيه ، ولقد حدثت
الله أنك لم تجعل سيرك سير الغافلين ، ولم تمر على ما لاقاك مرور الداهلين ، بل
استعملت بصيرتك ونظرت فيما قام لك من أحوال الناس ، لتعلم ماذا أبقت
الحوادث فيهم من الاستعداد لقبول الحق ، والميل للرجوع اليه ، وما أظنه ذهب
عليك أيام كنت تقلب عين اعتبارك في أطوار أولئك المحجوبين ، ان ما هم فيه
لا يختلف عن عواقب المكذبين ، الذين يأمرنا الله بالنظر كيف كان عاقبة
أمرهم ، وما أحل الله بدارهم من بوار ، وما ألحق بعمارهم من دمار ، وما ألصق
بذكرهم من عار وشنار ، وكيف يختلف الخال عن الحال ، وانما التكذيب أثر غين
يغشي عين القلب ، فيواري عنها وجه الحقيقة ، فتعمه ظلمة أشبه بظلمة الخسوف
تعلو وجه القمر ، فاذا أظلم القلب وهو مستودع السر الذي به كان الانسان إنسانا
فقد أظلم الانسان كله ، وذهبت قواه تخبط في أفاعيلها على غير هدي ، وتعرس
عليها أن تلزم طريق الحق والصراط المستقيم ، وهذه الحال كما تراها فيمن ينكر
الحق بلسانه ، ويكذب الداعي اليه بانكار بيانه . تراها بعينها في هؤلاء الخدوعين
الذين يزعمون انهم آمنوا بالله وبرسوله وبكتابه ، ثم هم في أعمالهم وآمالهم أبعد
الناس عن سنته وسُننه ، وأشدهم التواء على أمره ونهيه ، وقد علمت أن الله لم

ينظر إلى قوم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، وإن اليهود لم ينفعهم أن آمنوا بموسى وخلفائه من الانبياء ، وبما جاؤا به من الوحي الالهي إيماناً يحاكي ما يدعيه المسلمون في هذه الأوقات : كان اليهود يعرفون موسى نبياً لهم ، والتوراة وكتب الأنبياء هدايات من الله لعقولهم ، كما يعرف المسلمون ذلك في كتاب الله تعالى ، ولكن الله نعى إلينا أحوالهم في مزاعمهم فقال (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، بلئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين) فقد جعل تأويلهم التوراة وصرفهم لألفاظها إلى غير ما أراد الله بها وحيدانهم عن العمل بما دعت إليه تكذيباً بآيات الله ، وجعل تتضمن لما حملوا من أحكامها مروقاً منها حيث قال (لم يحملوها) وجعل تصديقهم بها على هذا الوجه بمنزلة احتمال حمار لا سفارة فهو في عناء من ثقلها ، على بعد من فائدة ما أودع فيها . أفليس هذا النبأ بعينه يحدث عن أحوال المنتحلين اسم الاسلام في هذه الايام ، وأنهم حملوا القرآن ثم لم يحملوه ، إلى آخر الآية ؟ ألم يكن في ظلم أهل هذا العنوان وجودهم عن حدود الله ما يستحقون به تسجيل الضلالة عليهم كما سجلت على اليهود في قوله « والله لا يهدي القوم الظالمين » ؟ وأشد الظلم ظلم النفس ، بعد لها عن سنن الحق . ألا يصدق عليهم أنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ؟ ألا ينعي حالهم (بأنهم يبينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) ؟ ألا يحكي جهلهم (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون) ؟ أي أنهم لا يعلمون منه الا أن يتلوه تلاوة بغير فهم ، فان طلبوا شيئاً من المعنى لم يكونوا فيه على بصيرة إن يظنون الا ظناً

إني استلفتك الى أولئك الذين يتناولون مصاحف القرآن الكريم بأيديهم خصوصاً في شهر رمضان ، ثم يطقون يلوكونه بألسنتهم ، ويزعمون أنهم يتقربون الى الله بترغيمهم ، ويصعدون إلى منازل القرب عنده بنجاتهم ورنين أصواتهم ، ويجعلون كل همهم في هز رءوسهم ، والتوفيق بين الهزات ، وتموج النفثات وما شاكل ذلك من لواحق الصور والهيئات ، مما قد يعجب له عرفاء الدين ، ويستغرب حدوثه في المسلمين أهل اليقين لبعده النسبة بينهم وبين دينهم ، والمنافرة الثابتة بينه وبين مقتضى

ايمانهم، حتى اذا انصرف أولئك القارئون، والتمسوا من قلوبهم عبرة مما قرأوا، أو عظة مما سمعوا، لم يجدوا من ذلك قليلا ولا كثيرا، بل رجع كل منهم الى هواه، وأوى الى قعيده نواه، وما كان قد انصرف عن وساوسه، ولا انقطع عما استحكم سلطانه في نفسه من شياطين أهوائه، الا في ظاهر ما يرى للناظر. واذا سئل أحدهم عن شيء من معنى ما قرأه التجأ الى الجبل، أو خبط في مضلة من الوهم، واذا قيس عمله الى أحكام ما يقرأه، وجدت تباينا كما بين الاسلام والكفر، فبالله الاما اجتبتى هل تجد فرقا بينهم وبين اليهود فيما قص الله عنهم في قوله (ومنهم أميون) الخ؟ الا تجد الوصول الى الفرق نزر الوسائل، متعذر الذرائع؟ ولو سردت من أحوال اليهود والنصارى والمشركين التي قص الله علينا تحذيرا لنا من التدنس بمثلها ووضعها مع أحوال المسلمين في كفتي ميزان الا ترجح أحوال المسلمين سوءا على أحوال أولئك الضالين؟

أصبح المسلم في هذه الأيام حجة للكافر على كفره، وفتنه ليهضل بها عما أقام الحق من أعلامه، فاذا قيل ان الاسلام خير الأديان بل هو دين الله الذي أخذ به الأمم السابقة فضلووا فضرهم بأنواع من عذابه في الدنيا، واستبقى لهم مالا نهاية له من الشقاء في الآخرة، ظهر فيهم بصور مختلفة، ثم جاء في كل صورة ببعثة خاتم الأنبياء، مستمرا لنوره، مكلا لأمره، لتقوم به الحاجة، وتتضح به المحجة، وأصبح هذا القول بألف دليل كلها أوضح من الشمس، وأنقى للشك من ضوء البدر اظلام الليل - رأيت علة واحدة تهدم كل ما بنى من الأدلة وهي: لو كان الاسلام ديننا صحيحا ما وجدنا أهله المستمسكين به (في زعمهم) على ما يرى من فساد الاخلاق وسقوط الهمم وضلال العقول. هكذا أيها الخيب أصبحنا فتنة للذين كفروا والله ينهنا على ما صرنا اليه بتعليمه ايانا كيف ندعوه اذ يقول (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) وما كان تعليمه الدعاء الا لتوسل بالعمل الى ما نطلب منه، ثم ندعوه المعونة على ما نقصد من موافقة رضاه، فلو فقه المسلم لا يتمد جهده عما يجعله فتنة للكافر، وجعل وردده ليسله ونهاره (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين

كفروا) ولكنهم في أن يكون بكالهم قذى في عين أعدائه ، لا أن يكون حقيراً في أعينهم ، ضحكة لهم في محافلهم .

ولقد حدث في هذه الأيام الأخيرة أن قسيساً إنكليزياً^(١) هداه البحث الى شيء من محاسن دين الاسلام فأخذ يث ما علم في الجرائد الانكليزية وفي المحافل الدينية في انكترا ، الا انه يصعب عليه أن يعلن اسلامه ، ويصرح بحقيقة إيمانه لأنه يخاف ان تطول اليه أيدي الاعتداء من قومه وهو يدعو الى الاسلام تحت حجاب انه لا يخالف المسيحية الحقيقية بل هو متمم لها ، وله فيما يدعو اليه شيعة تنمو في لندرا ، وبيننا وبينه مخاطبات لتشجيعه وتقريبه من حقيقة الايمان ، ولا نعلم اليوم ماذا يكون من نهاية أمره ، وله معارضون كثيرون من الانكليز وغيرهم ، واذا تقصيت البحث في جميع حججهم لا تجد في مقدماتها الا ما يكون راجعاً الى ما عليه المسلمون الآن من الاخلاق والعوائد والافكار ، وكما جاء الرجل لهم بشيء من أحكام كتاب الله أو بأثر من آثار المسلمين الاولين ، رأيت أولئك الجاحدين يقابلونه بأحكام بعدها المسلمون من حدود دينهم ، ويعولون عليها في أعمالهم ، وهي مقصية لهم عن الكمال ، ساقطة بهم عن أدنى مراتب الرجال ، فكما ردم الى الله ورسوله رده الى أحوال المنتسبين الى هذا الدين القويم ، وهم عاره ، وبهم يهدم مناره ، وتخفي آثاره ، ولو بقي في أيديهم أمره ، غير اني أرى الله سيحول أمر دينه عن هؤلاء الذين لبسوا على أنفسهم ، واقلبوا فتنة لغيرهم ، ثم ينتقم منهم بأيدي الظالمين والصالحين (فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين - وان اتولوا يستبدل قوماً غيركم * ثم لا يكونوا أمثالكم) فحينئذ لمن أعد نفسه ، وسبق نفسه ، فشحنه ، وطهر نيته وقوم ارادته واستجمع عزيمته ، لالقاء ركب الله الذي سيفد عليه ، فيكون اما راجلاً في مشانه ، أو فارساً من كلاله ، أو خادماً في حاجاته ، أو سيداً في رياساته ، ولا يكون شيئاً من ذلك حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه ، وحتى يكون كتاب الله أصدق الشاهدين له لا عليه ، وحاشا ككتاب الله أن يشهد الا لمن لبى دعوته ، وقبل شهادته ، ونصبه اماماً في محراب الوجود يتبعه بصرد ، ويحدوه في سيره ، يقوم اذا قام ويقعد اذا قعد يعظم معظماً ويحقّر ماحقرو ويطلق

(١) هو اسحق طيلر الذي سيأتي في هذا الفصل بعض مکتوبات الاستاذ له

ما أطلق ويقيد ما قيد ، ثم أقام له من زواجه خطيباً على قلبه ، وواعظاً يصدع بأمر ربه ، على منبر له ، يعلمه اذا جهل ، ويوقظه اذا غفل ، ويذكره اذا ذهل ، ويحثه اذا كسل ، ويسرع به اذا أبطأ ، وينهضه اذا تلكأ ، ويستلطفه الى الصواب اذا أخطأ ، يهديه اذا تحير ، ولا يعدو به الخير اذا تحير ، يرد جماحه اذا جمح ، ويكف من غربه اذا طمح ، حتى يقيمه على الصراط السوي ويصعد به الى المقام العلي ، وكيف يستعمر القرآن قلباً تشغله الاهواء الباطلة ؟ وتستوكره الرغائب الزائلة . ان القرآن طاهر لا يجاور الاطاهرا ، وقويم يأتي أن يساكن جائراً ، زكي لا يأنس للأرجاس علي يأنف من مقاربة الادناس . فلا عجب اذا استوبل المقام في هذه القلوب المحشية بالعيوب وتركا وشياطين الوسوس تخبط بها في مخازي الدنيا ومهالك الآخرة .

يا عجباً لمن يدعي الاسلام وهو يعرف من نفسه ان أمر ألوجاءه من أصغر الحكم عليه بلغة غير لغته لما قرت له راحة ، ولا اطمأنت به نفس ، حتى يقف على ترجمته ولا يكتفي بترجم واحد حتى تكون ثقته به كثفته بنفسه والا راجع ثانياً وثالثاً طلباً لدقائق المعاني لا يفوته شيء ، مما حواه امر أمره فيقع في مخالفته الى غير هواه وكلام عظيم مكان الأمر اشتد الحرص على استجلاء مراده ، خشية الوقوع في حداده ، أو ما يبعث الظن الى التحرش به ناده ، وقد يكون الامر مما يضره ولا ينفعه ، ويخفضه ولا يرفعه ، كل ذلك للبعد عن مساخطه والارتياح الى مرضيه — هذا وهو يزعم الاعتقاد بان القابض على ناصية أمره هو الله سبحانه وتعالى وهو المقلب لقلبه والآخذ بعنان إردانه . ثم هذا أمر سام ورد له من علي متعال ، رب الارباب ونخضع الرقاب ، قهار السموات والارض ، الذي لا ترد مشيئته ، ولا تخالف إرادته ، الكتاب المجيد يتجلى به في منازل الرحمة ، ويستفيض من ديم النعمة ، ويقيم به على السعادة أعلاماً ، ويضع لاجتناء ثمر الكرامة أحكاماً ، ويعد المستجيبين لأمره هذا — وهو القادر على كل شيء — أن يمكن لهم في الأرض ، ويخدمهم أهلها ، ويجعلهم الأعلين فيها ، وأن تكون عزتهم مقرونة بعزة الله ورسوله ، وأن لا يبيد سلطانهم ، ماثبت إيمانهم ، ولم يشبهه كفرانهم ، كما قال (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ،

وليمكنهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)

وايس في المواعيد السماوية أصرح مما وعد الله في كتابه المبين ، ولا أقطع للشبهة منه . ثم زادهم على ذلك نعيما أبديا ، وأوعدهم في المخالفة خزيا دنيويا ، وشقاء سرمديا ، والذين يكفرون ، وسجل عليهم أنهم الفاسقون ، هم الذين تبطروا النعم فتستزلمهم عن مقامات الشكر . ثم تنتابهم الغفلة فيعدلون عن سبيل الذكر الحكيم ، ومن فسق عن أمره ، أحل به غضبه ، وأنفذ فيه عامل انتقامه ، وسلبه ملابس إنعامه ، اما بشقي مثله ، أو ولي من أهله . ثم ضاعف له العذاب يوم القيامة ، وأخلده فيها مهانا ، إلا أن يتوب فيغفر له ما قد سلف . ويعلم المخدوع أن صاحب هذا الأمر العليّ مطلع على السرائر ، بادية لعله صفحات الضمائر . ومع هذا وذاك لا يتفهم أحكامه ، ولا يتبع أعلامه ، وينبذه وراء ظهره ، كأن لا علم له بنبيه وأمره ، ويعني نفسه أن ينال ما آذخر الله لأوليائه إذ قصرت همته عن نيل سعادة الدنيا ليتنعم به في الآخرة ، شهوة تحول دونها أعماله ، وأحلاما تنافي صدقها أحواله . وما أعجب حال من يزعم الإيمان بالله ولا تقني أهواؤه في إرادته ، ولا تضمحل نشرات طبعه لمهابته ، ولا تتضاءل عزائم نفسه لعظمته ، ولا يجعل القسم الأعظم من حياته للسمي في مرضاته ، ولا يبدل من نفسه وماله ما لا يخسر في ماله

حدثني عن اليائسين من عليّة (ق) (١) - وأشباههم فهؤلاء لم يياسوا من الله ، حتى ساء به ظنهم ، وما ساء ظنهم حتى انتقض إيمانهم ، فخالهم حال القائلين (ما وعدنا الله ورسوله إلا غورا) ورويت لي عن أهل النفرة سكنة (من) (١) فهؤلاء بقيت فيهم بقية لا بد أن يؤيدوها بالعمل ، ولا مكمل لما بقي فيهم الا رجوعهم الى الله ورسوله ، ولن يرجعوا اليه حتى يكون مزاج وحدتهم وحبل اعتصامهم كتاب الله ، يهزون به همهم ، ويلعون به شعهم ، ويشهدون الله أنهم نصروه في الأحوال والأعمال ، فينصرهم في مواطن الجلال ومواقع الجلال

(١) اقتطعت الفاف والسين من اسم بلدين من قطر الخاطب . (جامع الكتاب)

إن كنت وثقت بشيخ الاسلام الذي ذكرته فخذ العهد عليه ، وسق اليه
بعض كتابي هذا أو ب كله إن رأيت ذلك ملائماً لحاله ، والا فزدي فيه بصيرة
فاكتب اليه بما يلهمه الله

واقفي بكتيبك بما أمكن من السرعة ، ولا تبطئي عليّ بعد الآن والسلام
(يقول جامع الكتاب) أجدر بهذا الكتاب أن يسمى ميزان الايمان .
وتجعل نصائحهم عنوان الاسلام وان يكون تدبره المراقبة إلى مقام الاحسان والله المستعان

١٦

وكتب اليه أيضاً

لا إله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

أيها الأخ الصادق أيده الله

طال عهدنا بك ، لم نر منك كتاباً ، ولم تلتق عن لسان اخلاصك خطاباً ،
وإبطاؤك عنا ، مما يقلق الخواطر منا ، لاخوفاً على ايمانك ، ولا ريباً في درجة
إحسانك (نعوذ بالله) ولكن خشية أن يكون عرض لك من العوارض الجسدانية ،
أو خالطك في الأحوال المعاشية ، ما قبض من يدك ، أو فت في عضدك (حماك
الله) فرجاؤنا أن لانفوت فرصة تمكّنك من سوق خطابك الينا حتى تنهزها ،
فان لسكون القلب بالاطمئنان على سلامتك قيمة عليّة في نفوسنا ، فقد لا يخفك
أنكم في مكان مخافة ، ومحل مضیعة ، تضطرب عليكم منه القلوب ، وتذهب
وراءكم فيه النفوس ، وأن صادقا مثلك لجدير أن يحرص عليه ، وأن تعنى
الأرواح بالتطواف حوالیه

كان لكتابك المفصل وقع جميل ، ولك على القيام بتحرير مثله الشكر
الجزيل ، فليكن العمل على ذلك المذهب ، حتى يصفو المشرب ، ويتضح المطلب ،
ان شاء الله . أما وصيتي اليك فأقتصر منها اليوم على ما وصى به رسول الله صلى
الله عليه وسلم معاذاً رضي الله عنه ، اذ قال له « أوصيك بتقوى الله ، وصدق
الحديث ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الحيانة ، وحفظ الجوار ، ورحمة

اليقيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وحسن العمل ، وقصر الأمل (في الدنيا) وقصد العمل ، ولزوم الايمان ، والتفقه في القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وخفض الجناح . وإياك إن تسب حليما ، أو تكذب صادقا ، أو تطيع آمرا ، أو تعصي إماما عادلا ، أو تفسد أرضا . أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر . وأن تحدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر ، والعلانية بالعلانية » اهـ

هذا جماع من مكارم الأخلاق يعم مانحن فيه وما وراءه ، والخير في جمعه . فالدين بناء وهذه اعراقه ، ولا يتم أعلاه حتى يتم أدناه . ثم لاتنس قول عائشة الصديقة رضي الله عنها : كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن . فقد أبقي الله سبحانه في نبيه صلى الله عليه وسلم مظاهر من صفات البشرية تبدو لها آثار ، تلحظها البصائر والأبصار . ثم حددوها في كتابه ، وهذبها في محكم خطابه ، تعليما لأمته ، وإرشادا لمتبعة ملته . فكان في ذلك أعظم فخره صلى الله عليه وسلم حيث قال « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ولا بركة لنا في شيء من أعمالنا الا باتباع سنته ، والسير على المأثور من سيرته ، والتحقيق بأخلاقه ، والتماس خلاقه ، واقتفاء أعلاقه . هذا صلاحنا ، وهو سلاحنا (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله (وعلى هذا فليكن دأبك حتى يظهر الله أمره ، ويعلم سره . وإياك والملل فالخطب جلل ، وقضاء الله أجل . ومع هذا كتاب من الأمير أوصله الى صاحبه حسب رأيك . والسلام عليك وعلى كل صادق الايمان ثابت الجنان

٦ صفر سنة ١٣٠٥

١٧

وكتب الى أحد شيوخ التصوف المرشدين . م . ت

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا

للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم)

الحمد لله وبه الهداية في البداية ، وهو الغاية في النهاية ، والصلاة والسلام

على سر العناية ، وحقيقة كنه الولاية ، وآله حماة الدين ، وأصحاب الهداة الراشدين
أما بعد فإن من نعم الله عليّ ، ولطف احسانه اليّ ، ما أودعه في فطرتي ،
من الميل الى الخيرة من أهل ملتي ، فلا أزال لهم طالباً ، وفي الصلة بهم راغباً ،
خصوصاً من تجمعني بهم وحدة التربة ، وتضمني اليهم جامعة النسبة ، وقد بلغت
الي شهرة عرفانكم ، وما رفع الله في مقامات القرب من مكانكم ، فألهمت أن
أفتح اليكم باب التعارف ، وشنشنة المؤمنين التواضع والتعاطف . قال صلى الله
عليه وسلم « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى
منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » وأما الاخوة التي عقدها الله بين
المؤمنين ، وان أهملت عند كثير من الغافلين ، الا أنها لم تزل والحمد لله تلحظها
بصائر العارفين ، وتصبو للاعتصاب بها قلوب الصادقين . فانا الاخوة مظهر
سر المحبة ، والمحبة تجلي سر الجذب الالهي الذي يجمع الله به أرواح الصديقين
الى حضرة القدسية — هذا الى ماناظ الله بها من قوة التعاون . قال صلى الله
عليه وسلم « من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً ، ان نسي ذكره ، وان
ذكر أعانته » وكما يكون التعاون والأما كن دانية ، يكون والأقطار نائية ،
وخير المعونة ما عاد على الأرواح بتركية وصلاح ، ولا أعود على الروح من علم
تستفيده أو نصيح تستجيده . أو صلة بين متحابين تأنس اليها ووحدة بين
متواصلين تعول عليها . وأرجو أن يجعل الله في مكاتبتنا بركة ذلك كله ان شاء
الله . فسر كم ظاهر ، وضياؤكم باهر ، وميلي اليكم غير معلول ، واهتمامكم بالاجابة
مأمول . واذا كتبتم الينا فليكن عنوان ظرف الكتاب والله ينفعنا
بالتوادر ، ويبلغنا به غايات المراد ، والسلام عليكم وعلى من يرتبط بعهدي ورحمة الله

(وكتب الى أحد العلماء جواباً عن كتاب له يقول فيه أنه فهم من
قسم الجمعية (١) أنها تدعو الى مذهب الظاهرية)

لا إله الا الله وحده لا شريك له ويده الحول والقوة

ثم وصلني كتابكم وكتاب أخي الفاضل (م . ش . ف) وقد آسفني والله يعلم
مابلغ الأسف مني خبر وفاة سيدي الشيخ والدكم إلا أن ذلك مصير لا بد من
الانتهاء اليه ، وإن عظم الأسف عليه ، وفيما عند الله سلوة الأبرار . أما ما ذكرت
في كتابك من اسم الظاهرية ، فلم يكن ليخطر على بالي توجه فكركم اليه ، فإن
المذكور في القسم تحكيم كتاب الله في الأخلاق والأعمال بلا تأويل ولا تعليل (٢)
ومن الظاهر البين أن المراد من الأعمال عزائمها من الجهاد في الله حق جهاده ،
وبيع النفس في مرضاته ، والسعي لأعزاز دينه ، والقيام بحفظ أوامره ونواهيه ،
التي يكفر جاحدها ، ويفسق الحائدها ، ويشهد بذلك اقتران الأعمال بالأخلاق ،
فكيف ذهب خاطر سيدي إلى العقائد أو أعمال الفروع ، ولعلم سيدي أننا
سنيون أشعريون أو ماتريديون (٣) وأننا في أعمال العبادات دائرون بين المذاهب
الأربعة ، فمن المالكية ، والشافعية ، والحنبلية ، والحنفية . وفي المعاملات على مذهب
حاكم البلاد إن وافق واحداً منها ، فإن كان على غيرها توقينا المرافعة اليه ما أمكننا ،
وأما ذلك القيد ليخرج الداخل معن من حكم قوله تعالى (أفؤمنون ببعض الكتاب
وتكفرون ببعض) ولتتاز المؤمنون بالكتاب عن الذين يزعمون الإيمان به ، ولا
يأخذون بشيء من أحكامه ، إلا صوراً من الأعمال لا ينظر الله اليها ، وأولئك

(١) يعني جمعية العروة الوثقى (٢) العبارة الواردة من القسم هنا هي
« أقسم بالله العالم بالكلية والجزئية والجلية والخبية ، القائم على كل نفس بما كتب ،
الآخذ لكل جاحدة بما اجتاحت ، لا يحكم كتاب الله في أعماله وأخلاقه
بلا تأويل ولا تعليل الخ (٣) كان أكثر أعضاء الجمعية من المالكية والشافعية
وهم من الأشعرية ومن الحنفية وهم ماتريديون ، والاستاذ نفسه كان أشعرياً
صوفياً ، ثم صار بالتدريج سلفياً

قوم عرفناهم وعرفتموهم: يهونون على أنفسهم ضيم الدين لا يحزنون لذلك، ولا يعملون لحمايته ، ويتعللون باليأس ، يفرون من الله فيما ألزمهم عمله ، ويسألون المعونة على ما نهى عنهم ، ويركنون في ذلك إلى التأويل والتفسير ، ولو أن شيئاً من المكروه أصابهم لرأيتهم يطيلون الأحران ، ويحشدون الأشجان ، ولو عن لهم حطام من الدنيا رأيتهم يشدون المآزر ، ويشمرون عن السواعد ، كأنهم للدنيا خلقوا وكأنهم فيها يخلدون

لعل في بياني هذا كفاية ، ولو وسع الوقت أطول منه لأتيت بما تملك تلاوته ، وأما ما ذكرته في أمر المواد من أنها لا توافق بلادكم فلم أعرف له سبباً ، فانها مواد عمومية جرتب العمل بها في أقطار مختلفة والحمد لله صادفت نجاحاً . فان كان ذلك كما ذكرتم فابعثوا إليّ في أول بوسطة ، وأقسم عليك بالله ألا أخذ بناصيتي وناصبتكم إلا تنقلوا لها صورة ، ولا تنسخوا من موادها مادة ، لأردّها من حيث جاءت ، ثم ابعثوا إليّ بما تجدونه موافقاً لكم لنظلم عليه ، فان رأيناه موافقاً سألناكم إقراره . والسلام عليكم وعلى من يتصل بكم

١٩

(وكتب الى بعض اعضاء الجمعية في بعض الافطار الاسلامية)

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) ذلك الذي وفد اليكم من القسم الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم المنافق العليم اللسان ، وهو جاسوس للحكومة القائمة في دياركم فاحذروه ، ولكن ليكن حذركم حذر الحكماء لا يتبين منه علمكم بحاله ، وتحفظوا منه كل التحفظ وإياكم ومكاشفته بشي . مما أنتم عليه ، فلقد وجدته يدنو من السيد أيام إقامته بباريس ويسعه من السيد لين جاتبه ، وحاجته الى ترجمان في بعض شؤونه ، فلما كثر اجتماعي به تبينت فساده ، فأقصيته من السيد ، وباعدته عنه ، وبعد أن كان يترجم لنا بعض الأخبار في بداية اشتغالنا بنشر آراء العروة طردته استعازة

من خبث سربرته فتعوذوا منه تعوذكم من الشيطان حتى يفرق الله بينكم وبينه
 أما قولكم في كتابكم اني كاتب الشيخ بتويخ فقد راجعت له نسخة الكتاب
 التي كتبت من صفحة كتابي فلم أجدني الا عزيت الشيخ أولاً ، ثم كشفت له
 عن وجه الشبهة فيما استفهم عنه ثم قلت — واني اصادق — انه ما كان يخطر ببال
 توجه فكره الى الرأي الذي يسأل عنه ، وما قصدت بذلك والله توبيخاً ولا لوماً
 ولكن نبهت على ما أعلم وليس وراء ذلك غاية ، وفي الحق اني لو كنت اعلم أن
 العبارة توهم ما استفهم عنه ، لكنني وضحت المراد في كتابي الاسبق ولم أحوجه
 الى الاستفهام ، هذا ما أردت ، ولعل تطويلي في بيان المراد أوهم شيئاً مما قلتم
 ولست منه في شيء . نعم انني طلبت منكم نسخة المبادي ان لم تريدوا اعتمادها
 وهذا ما يوجب علي عهدي الذي أنا فيه

وأما عدم ثقة الشيخ بهمة من ذكرت فما له الحق فيه ، وهكذا أمر هذه الامة
 في جميع أقطارها ، ولهذا احتجنا الى معاناة الاضمار ، ومقاساة الاسرار ، والاستخفاء
 بما أمر الله أن يعلن ويظهر ، غير أن القليل ممن يكون على الشرط كثير ، وقد
 صرحت تلك المبادي . بان الرشد والنصيحة العامة من الواجبات على القائمين
 بأمر الحق ، لتستعد النفوس ، وتتهيأ العقول . وليس في هذا حرج على المتعاطي ،
 ولكن أهل العقد وهم بمنزلة القوة العاقلة في البدن لابد أن يكونوا على الشروط
 المعروفة عند أصحاب الرابطة . فسلموا على الشيخ سلاماً طيباً ، وأكدوا له انني لم
 أقصد في بياني السابق شيئاً مما أوهمته العبارة ، وانني أعيد نفسي من توجيه
 اللائمة على من دون منزلة الشيخ من أهل الايمان الصحيح ، وأعود الى
 تحذيركم من الجاسوس الجديد ، فلا يتسقطكم بظاهره الى علم شيء من سرائركم
 والله يتولى رعايتكم والسلام

٢٠

(وكتب الى (ش) وهو من أجل كتبه وأحسن مواعظه)

لا إله الا الله وحده وبه الحول والقوة

تلقيت رقيعك على قلق من تباطؤ أخبارك ، قرر خاطري بالاطمئنان على
صحتك ، تأكد الثقة من خلوص ارادتك ، وما كنت لأرتاب في عهدك بعدما أعطيت
ميثاقي يمينك وأنت مؤمن قد جعلت الله عليك وكيلًا . لو عرض لي الشك في
وقائلك لكان غمراً مني على إيمانك ، وأعوذ بالله أن أغمر على مؤمن وهو مخلص في
إيمانه . أما حنوي عليك ، واحفائي السؤال عنك ، فهو مما توجه عليّ صلي بك
والارتباط بميثاقلك ، بل ذلك أيسر الحقوق عندنا ، وأوجبها في ذمتنا ، وما أنا بالمتفضل
في أدائه ، وما أنا بمنجاة من اللوم ان قصرت في إيفائه ، ستعلم الحقيقة من هذا
إذا سنّي الله لعصابته أن تظهر ، وأذن لها أن تسفر

بعد هذا هل أنت على ما أوصيتك سابقاً من مداومة النظر في كتاب الله
ووعده ووعيده وقصصه وعبره ؟ هل ذهبت بنفسك الى ما قبل ألف وثلاث مئة
سنة ووقفت بين يدي سيد النبيين ، وهو يتلو كتاب الله على خالص المؤمنين .
فسمعت كما سمعوا . وفهمت على مثال ما فهموا ، وزججت بروحك في مجامع تلك
الارواح الطاهرة التي آزرته وآوته ونصرته ؟ هل خرقت حجاب المحدثات ومزقت
ستائر البدع ، وخالطت أهل النور ، وصاغت قوماً صدقوا ما عاهدوا الله عليه ؟
إن لم تكن فعلت فاليك أن تفعل والوسائل متوافرة لديك - عقل وحسن يقين ،
وكتاب الله فيه تبيان كل شيء ، وفيه سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم والذين معه
(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم * انما المؤمنون الذين
إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زذاتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون *
الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)

لايميل بك عن طريق الحق قلة السالكين فيه ، فوالله اني لأرى المؤمن في
جيش من يقينه ، وحصن من ثقته بربه ، يثبت بهما في المزالق ، ويدراً بمنعتها غائلات
المهلك ، وانه لفرح به اذا حزن الناس ، ومبتهج فيه اذا اشتد البأس ، واستحكم

اليأس ، واني لأرى المتناقض في منجزات من وساوسه ، وموحشات من خباياته
 كريشة في مهب الريح ساقطة لا يستقر لها حال من القلق
 وانه لسريع الهزيمة ، قليل الغنيمة ، وما كنت لأتبي في وصفه شيئاً بعد ما قص
 الله عنه في كتابه ، وكتاب الله حي لا يموت ، شاهد على الأحياء كمشهد على الأموات ،
 وما كان المنافقون زمن نزول القرآن ليختلفوا في الحقائق والصفات ، عن أشباههم
 من أهل هذه الاوقات ، فتوخ من نفسك ما أثبت الله عليه ، وتنح بها عما وجه
 اللأئمة اليه ، وإياك والاعايل ، وفاسد التأويل ، فانها حباثل الشيطان ، ومذهبة
 الايمان . نعوذ بالله

كنت سألتني عن العمل في العقد المالي ، فأشرت اليك ان تبعث به إلينا
 في بيروت ، ثم لم يكن له ذكر في كتبك من بعد ، واني أعيدك من الضن
 ييسر مثله في سبيل ربك ، ترجو ثوابه ، وتكتفي حسابه ، وأبعدك عن مرامي
 النداء الالهي في خطاب قوم (ها أنتم أولاء تدعون اتنفقوا في سبيل الله ،
 فنكم من يبخل ، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغني وأنتم الفقراء ،
 وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم) ولكني ألتس
 لك من نفسي أعذاراً تخيلها الثقة ، وتمثلها المحبة ، فلو علمت الحق فيما أباطأ بك ،
 أفهمت القوم عذرك

أما ذلك الشيخ فان نكت فانما ينكت على نفسه ، غرته الحياة الدنيا ، وغرته
 بالله الغرور ، فقطع ما أمر الله به أن يوصل ، وواد من حاد الله ورسوله ، وباع
 نفساً شريفة بفسن بخص ، وأضاع سعادة أبدية بمتنع قليل (ان الذين ارتدوا
 على أديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ، الشيطان سول لهم وأملى لهم * ذلك
 بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الامر ، والله يعلم أسرارهم *
 فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأديبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا
 ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) بشره بأن سيؤخذ من
 مأمته ، وبزلزل من مسكنه ، ومن أعان ظالماً سوط عليه ، ومن يخذله الله
 فلا ناصر له ، ولئن أهمل أياماً فوالله ما أهمل ، ولقد كان خيراً له لو ابتعد ولم

يعد ، وباعد قبل أن يعاهد ، ولكنه أقبل ثم ولى ، وأمسك ثم خلى ، فلصق به عار النادرين ، وحقت عليه جريمة الناكثين (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) وما ضره لو سالم القوم بظاهره ، وبقي مع الله بباطنه ، فأخذ حظا من دنياه ، وحظا من آخرته ؟ هل ظن أنهم أشد سلطانا عليه من قهار السموات والأرض ؟ أم أنهم أنفذ إلى باطنه علما من عالم الغيب والشهادة ، فأعطى للقوم قلبه ، وجعل الله سلبه

لمحت من آخر كتابك بروق الأمل من جمعية أهلك هيا الله لهم الخير فيما ولوا وجوههم شطره

ان لنا صلة تامة بآل البيت الذي أشرت اليه . وأحكم الصلة بيننا وبين أرشدهم رأيا . وأسماهم همة . وأقومهم هديا صاحب عهد أيه ... وهو الذي تفرد بينهم بالثبات على عهود دينه بعد انتقال أيه الى الدار الآخرة . وأبى الخضوع لشريعة المتغلبين عليه . الزاعمين القيام بمهايته . وقد قامت بينه وبينهم مخاصمات شديدة كانت نهايتها قطع العلاقة بهم . ووصل الحبل بينه وبين الدولة العثمانية أيدها الله . فأخنت الدولة عليه . وانعطفت اليه . وعدته في مقدمة الرجال الصادقين . ولم ينضم اليه إلا اثنان من اخوته . والتصق الباقون بأعداء دينهم . رغبة في حطام يسوقونه اليهم من فضلات مالهم . فليس في أحدهم أمل . ولا يليق أن يناط بواحد منهم عمل . إلا ذلك الشهم الذي نظر ماأعده الله في غيبه فلم يبع يقينه بريه . وقد كان له فكر يسمو إلى ما أشرت اليه . وهو على مر قرب الحوادث يرصد الفرص للعمل فيها بما يرشد اليه الدين . وتبعث عليه الحمية له

وأما صلته مع مشايخ الطرق والزوايا فكانت قاصرة على آل بيت السنوسي ولم يتوجه خاطره إلى ابن التيجاني . وقد شكرنا لك التنبيه عليه . وتوجيه الفكر اليه الخ

(وكتب عن السيد المشار اليه في آخر الكتاب السابق الى الشيخ
(م. ت) يجذبه إلى الاصلاح الديني المؤسس على تحكيم الكتاب والسنة
وسيرة السلف الصالح في الاعمال والاخلاق - الكتاب التالي) ثم كتب
اليه باسم الكتاب رقم ٢١٧ الذي تقدم في ص)

مولانا مهبط أنوار العرفان . وحجة الله على أهل الزمان . السيد الشيخ
حماء الله . وأيد به أهل تقواه

أحمد الله على ما ألهمني في مخاطبتكم . ووقفني للمبادرة الى مكاتبتكم . وهي
أحق نعمة بحمد . وأولاهها بتقديم شكر . فلم يبق في الزمان لأهل هذا الدين إلا
عمل يتزودونه . أو عرفان بالله بالمعاونة يستزيدونه . وقد كنت بعثت إلى مقامكم
الظاهر بكتاب قبل هذا رجوت أن يكون وصول جوابه إليّ على إثر اطلاع
سيادتكم عليه . لعلمي أن الاخلاص كان يرجى من سطره . وسرّ المحبة يجمل
أحرفه بنوره . وما بعث على خطبة مودتكم إلا طلب الفوائد من ارشادكم .
والرغبة في الاستعانة بمعارفكم، لتعود علينا بركة (وتعاونوا على البر والتقوى)
ويحفنا لطف (واعتصموا بحبل الله جميعاً) فيزداد الله شكرنا على الالفه، ويزداد
احسانه إلينا في نعمة المحبة .

وما كنت لأذكر السيد الجليل بان هذه حال المؤمنين الموصوفة على لسان
سيد المرسلين يعلم عالمهم جاهلهم ويذكر عارفهم غافلهم ولا حدّ ينتهي اليه العلم،
ولا موقف يتف دونه الرشاد، فعباد الله في كل لحظة يتوسلون الى مرضاته بعلم
يستفيدونه، أو عرفان الى القلوب المفتقرة يسوقونه، أو عمل من أعمال الخير
يسترشدونه . وقوام كل ذلك المعاونة ، وحياته روح المعاونة والمساعدة ، والله
في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

وليس بخاف على السيد الكريم أننا في بلاد أقفرت من العلماء، وأمحلت من

الصلحاء ، فجن على بعد الدار . وتناهي المزار . تتوجه اليكم بالخطاب لعنانثني بموافاة الحق صدرأ . ونزكي بمجاذبة أحاديث العرفان سرأ . واني أعلم أن سيادتكم أجل من أن تأبى إجابة طالب رشاد . أو تقصر عن امداد لمبتني سداد . فشانكم عندنا بما سمعنا أرفع من أن يتوهم فيه مثل ذلك . لهذا عولت في سبب تأخير الإجابة على عدم وصول كتابي الى جنابكم . وان شاء الله أنال بهذه الاسطر ما طلبت . وأحقق ما أملت . والسلام .

٢٢

وكتب إلى أحد أمراء المسلمين في بعض الأقطار ، عند تأسيس جمعية العروة الوثقى

لوندرا في ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٤ — ٢٨ رمضان سنة ١٣٠١

سيدي الامير الخطير سعادتلو أفندم حضر تلري

السلام على نفسك الزاكية ، وهمتك العالية ، وأفكارك السامية ، اني عهدت فيك مالا أتوسمه في سواك ، لهذا وجهت اليك روعي في هذه الأسطر تندب همتك ، لما هو من أحكام ذمتك ، لا أنبتك بما فرض الدين ففي علمك به أصدق الأبناء ، ولا أنبهك لما غفلت عنه عين سواك فاني أجل نظرك عن الإغفاء ، ولا أعرفك بما أوجب الوطن في صراحة نسبك ، وعلو حسبك ، ما يلهمك الاحاطة بحقوقه ، ولا أذكرك بما انسي غيرك ففي شهامتك أنفع الذكرى

ساق اليقين جماعة من المسلمين إلى السعي في خير هذه الملة المغلوبة ، واعتصموا بالله ، وليس على الله بعزير أن ينجح سعيهم ، يسعون في إرجاع الوحدة المالية ، وتنبية الحاسة الدينية ، ليتمكن للملة أن تتقي الضيم وتخلص من الذل ، ولهم في هذا السعي طرق عديدة منها ما ندبونا اليه وقد علمت خبره والله الحمد على ظهور ثمرته في أقطار كثيرة ، أفلا ترى من الواجب أن يكون لهمتكم نفحة في مساعدتهم وتعزيرهم في سعيهم ؟ أنت تعلم أن الأعمال العظيمة في هذا الزمان وفي كل زمان تحتاج إلى التضافر في الأفكار والتعاون في النفقات كل بما يقدره الله عليه ، ولست أخشى أن أقول لك انك سيد القادرين على الامرين ، لا يخطر

على بالي أن يمنعك من الدخول فيما دخلوا فيه يأس ، كيف وأنت مؤمن ،
والمؤمن لا يأس ، وقد رأيت العالم وقرأت التاريخ وشهدت مساعي الاوربيين
ووقفت على حقيقة لا يكابر فيها أحد .. ان الكثير من القليل والكبير من الصغير
وان النجاح مقرون بالأمل والثبات في العمل ، فان لم يكن يقيننا بالله كافياً في حياة
آمالنا انه يكفيننا النظر في شؤون أعدائنا وهم لا يمتازون عنا في شيء من خواص
الحلقة وغاية ما عندهم انهم لا يحرقون عملاً ولا يقطعون أملاً ولا يأخذ أحدهم
رهبة في أداء ما يوجب عليه دينه أو وطنه

لا آتوهم خيبة في سعيي إلى همتك ، ولا تقصيراً منك في القيام بخدمة ملتك ،
بعد ما رأيت منازل بها ، واستطلعت ما سيطر أعليها ، والله لا يضع أجر العاملين ، انني
اليوم في لندرا ، دعيت اليها مراراً فتمنعت ، وبعد الالامح أتيت والمأمول أن
يكون في الامر خير

الرجل الذي نالت مصر في عهده ما نالها ، بمحاول الآن أن يعود اليها ،
ولا أظن ان هذا بوافق مصلحة مصر ، وأحب أن أقف على رأيكم فيه ، فان
جزءاً من عملي في لوندرا متعلق بالسؤال عنه والمخاطبة تكون بالعنوان الآتي : الى
باريس ومنها يصل الي . سيدي الاستاذ يهديكم أركي السلام ، وسلامي عليكم
وعلى من تحبون والله يحفظكم

٢٣

وكتب من بيروت الى القس الانكليزي الذي خطب في لوندرا مينا
محاسن الدين الاسلامي وكان الاستاذ الامام كلف مرزاً باقر ترجمة خطابه
وصححها هو ونشرت في جريدة ثمرات الفنون وقد نشر خطبته منها في مجلد
المنار اربع (ص ٩٤٦ منه)

كتابي الى الملهم بالحق الناطق بالصدق ، حضرة القس المحترم اسحاق طيلر
أيده الله في مقصده ، ووفاه المذخور من مواعده

وصل الينا من خطابتك ما ألقىته في الحفل الديني بمدينة لوندرا متعلناً
بالدين الاسلامي فاذا للحق نور يلعب من خلال كلامك تعرفه البصائر الباصرة

وتشيمه أعين للعقول النيرة رفعتك هداية الله الى مقام الانصاف فرأيت الاسلام في طبيعته السليمة ووقفت عليه في مزاجه الصحيح فأدركت أثره في النفوس البشرية وعلمت انه أفضل ما بعد الروح الانسانية الى بلوغ ذروة الكمال الأعلى من الايمان ودافعت عنه دفاع العارف به وجليته للغافلين في أجمل صورة يمكن ان يلحوها بأبصارهم ويتصفحوا دقائقها بانظارهم ثم دعوت ابناء ملتك الى كلمة السواء بينهم وبين المسلمون وصدقهم النصيحة أن لا يحنقوا المسلمين بتكذيب نبينهم ولا تكفيرهم في الاعتقاد بدينهم ووعدهم ان قبلوا نصحك باصالة المسيحية في الاسلام ووجود محمد صلى الله عليه وسلم آخذاً بعضد المسيح باعلاء كلمة دينه الصحيح فهذه أشعة نور أفاضه الله على قلبك وآيات حق ساقه الله اليك وانا لنهنتك على هذه البركة العظمى التي اختصك الله بها من بين قومك ونستبشر بقرب الوقت الذي يسطع فيه نور العرفان الكامل فتشهرز له ظلمات الغلة فيصبح الملتان العظيمتان المسيحية والاسلام وقد تعرفت كل منهما الى الأخرى وتصافحتا مصافحة الوداد وتعاقتا معاقبة الألفة فتعتمد عند ذلك سيوف الحرب التي طالما انزعجت لها أرواح الملتين

أنت أول رئيس ديني صدع بالحق في أهل ملته وانك لتجد لك مؤيدين وان كثيراً من ذوي الألباب ليجدون في قولك مواقع للصواب وان هذا الامر الذي قت به لعظيم الفوائد جم العوائد نحس منه تحرك نفوس أهل الملتين الى الملاقاة على صراط الوحدة الحقيقية وانك ان كنت واحداً فكل شيء مبسوده الواحد ثم يكثر حتى لا يحصر ، وان كان هذا الغرس الطيب قد أخرج اليوم شطأه فسيؤازره السعي حتى يغلظ ويستوي على سوقه فيعجب الزراع ، وانا نرى التوراة والانجيل والقرآن ستصبح كتباً متوافقة متصادقة يدرسها أبناء الملتين ويقرها أرباب الدينين فيتم نور الله في ارضه ويظهر دينه الحق على الدن كله واني لأشك في أن لك الرغبة التامة في نشر مذهبك هذا وترويج بين الامم الشرقية والغربية وقد سعينا في ترجمة خطابك ونشره في الجرائد العربية فان كان عندك مقالات أخرى فترجو إرسالها لنعمل على ترجمتها ونسرها بين

أهل المشرق من العرب والترك وغيرهم ولكن تمام العمل انما يكون بارسال رجال ممن واقفوك في المشرب الصحيح لينشؤا مدارس في البلاد المشرقية خصوصاً بلاد سوريا وليطبعوا هذا الرسم الشريف في النفوس الصافية من أبناء الطوائف المختلفة فتتمو بركته وتجزل ثمرته وانني على عجزني مستعد لمساعدتك فيما تقصد من تقريب ما بين الملتين بكل مايمكنني والسلام على من اتبع الهدى

٢٤

وكتب اليه ثانية جوابا عن كتاب أرسله اليه وفيه يدعوه إلى الاسلام والى الدعوة اليه في انكلترا

عزيزي حضرة خطيب السلام القس اسحق طيلر
كنت في القدس الشريف لزيارة المواطن المقدسة التي أجمع على تعظيمها أهل الأديان الثلاثة وفيها يرى الزائر كأن دوحة واحدة هي الدين الحق تفرعت عنها أغصان متعددة لا يضر بوحدة نوعها وشخصها وفردانية منبعها ما يرى في اختلاف أوراقها وفرج انشعابها ، ثم يحكم بأن تشابه الثمرة ووحدة لونها وطعمها قد انحصر في الدين الاسلامي الذي يستقي من جميع عروقها وجذورها فهو فذلكتها والغاية التي قد انتهى اليها سيرها لا أنه يصدق الكل ويعظم الجميع ويدعو إلى التوحيد المحض ، والفردانية الصرفة التي اليها مرجع الخلائق وإن بلغ اختلافها إلى مايفوت الحصر ، ويتجاوز حدود النهايات

وبعد رجوعي من بيروت رأيت من جنابكم مكتوباً بعث بواسطة صديقي جمال الدين بك ، ووجدتكم تذكرون أموراً كالطلاق ، وتعدد الزوجات والرق وتظنون أنها أهم ماعليه اختلاف أهل الدينين مع أن أمثال هذه المسائل لايعدها المسلمون من أصول الدين ولو اطلعتم على مذاهب المسلمين لوجدتم خير ما تمحبون من ذلك بدون حاجة إلى فتوى شيخ الاسلام ، وللمسلمين فيما دون في كتبهم ما ليس لهم في فتوى شيخ الاسلام فهذا أمر لا مقام له في موضوع بحثنا وبحكمكم أما أصول الدين الاسلامي فهي الايمان بالله وأن محمداً رسول الله وان اقرآن كلام الله ، فأعظم شيء تتشوق اليه نفوس المسلمين الصادقين ان يسمعو التصريح

من حضرتم بقبول ذلك ، والتصديق به كما أشرتم اليه في خطابكم المتعلق بمسلمي أفريقية ، وأن يروا علامات التصديق في الأقوال والأفعال (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) وكل ما تنظنه من المصاعب يذلل ، وما تتصوره من الموانع يزول ، ولا أظن يوماً مر أو يمر على الانكايذ يكون أسعد من ذلك اليوم الذي يؤمنون فيه بدين محمد ، إذ يصبح العالم خادماً لهم ، وجند الله الأعظم ناصراً لأهله منهم ، ويتم لهم ما أرادوا من إقرار عين العبيد ، وإرضاء قلوب النساء ، وهما مما يدعو اليهما الدين الاسلامي على أتم الوجوه وأكملها . فسلم بنا يا عزيزي الى الاتفاق على الاصول ، ليتيسر لنا الوفاق على الفروع ، والاتحاد في الآب ، ليتسنى لنا الاتحاد في الابن ، فانما تؤتي النتائج من مقدّماتها ، ولا تؤتي المقدمات من نتائجها . وقد سرني كل السرور ما بلغني من أنكم استحسنتم ما وصل اليكم من صديقنا ميرزا باقر ان شاء الله تجدون ما يسركم اذا داومتكم مكاتبتة إن شاء الله ، والسلام على أهل السلام

٢٤

وكتب الى بعض العلماء جواباً عن كتاب سأله فيه عن انكاره على من قال إن لفظ الرحيم في البسملة تأكيد للفظ الرحمن وانكاره ان يكون في القرآن ألفاظ زائدة للتأكيد وفيه وصف علماء السوء

حضرة الاستاذ الفاضل

أثابك الله على صدق مودتك ، ونفعني باخلاص الصادقين من أمثالك ، ووفقي الله وإياك للعمل فيما يفيد الأمة ، التي نهكتها البدع ، وقتلها الزيف عن الطريق المتبع ، واني أحمد الله على هذه البقية في المسلمين ، بقية صالحة في نفوس مستعدة ، تشد الحق وتلمسه ، فاذا عثرت عليه ، حنت اليه ، أمدّها الله بالسعي الدائب ، والغذاء الصالح ، حتى تنمو وتكون شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها
(٧٤ — تاريخ الاستاذ الامام — الجزء الثاني)

في السماء ، تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ، لا أزيدك وصية بمزاولة البحث فيما ينقي العقائد من شبه الاشراك ، وغرور اليأس والأمل ، وجراثيم التواكل ، ثم نشر ذلك بكل وسيلة تمكن منه ثم بالصبر على ما يقول المقلدون ، ويهذي به المتكبرون ، ممن يلقبون بالعلماء وهم لا يعلمون ، ففي مثلهم يقول الله : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل النقي يتخذوه سبيلاً) ولا يكون كبر في الارض بغير الحق مثل هذا الكبر الذي ترتديه هذه النصب ، وتظهر في سراييله هذه التماثيل التي ينحطها الناس ما ليس لها ، ويسمونها بأسماء لم ينزل الله بها من سلطان ، وما هؤلاء القوم الا أولئك السادات الذين سيقول المغفرون بهم (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلاً) أسأل الله أن يعينك على من يليك ، ويوفقك لتأييد كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

وأما احتمال التوكيد والوجه الذي ذكرته فاني لا أراه ، لأنه لا علاقة بين التوحيد ومعنى الرحمة ، ولو ذكر جميع الالفاظ المترادفة في هذا المعنى لم يزد شيئاً في نفي التعدد ، ولم يسبق في التاريخ أن أحداً ذهب الى أن الرحمن معبود والرحيم معبود آخر ، حتى يرد عليه بأنهما شيء واحد . ولكن الذي عرف هو قول النصارى في ابتداء شؤونهم باسم الآب والابن والروح القدس ، وهو في زعمهم ثلاثة مختلفة الآحاد ، مع أنها واحد . فأراد الله أن يجعل للمسلمين فاتحة أعمال تحتوي على ثلاثة معان ، الاول ذات ، والآخرا صفتان . فلنظ الجلالة هو الذات ، وهو يقابل الآب عندهم ، والرحمن وصف الفعل المتجدد الصادر من فيض الكرم ، وهو يقابل الابن لزعمهم أنه منبثق من الذات . والرحيم يدل على الصفة الثابتة للذات الاقدس ، وهي التي يرجع اليها الفعل المتجدد ، وباعتبارها يصدر ويتجدد ، وهو يقابل روح القدس ، فانه عندهم الصلة بين الآب والابن ، وإن حاولوا ستر ذلك بضروب من العبارات . فأراد الكتاب أن يعلمنا كيف

نضع التوحيد مكان التثليث ، ونستبدل بألفاظ التشبيه خيراً منها من ألفاظ التنزيه ، ولا يفوتنا المعنى الذي يحتاج بقصده من الآب والابن والروح القدس ، وهو معنى الرحمة ، وافاضة النعمة ، وهذا هو وجه تكرير هذه الفاتحة الكريمة في كل سورة ، والندب الى الافتتاح بها في كل عمل ذي بال ، ولكن غفل كثير من المسلمين عن مراحي اشارات الكتاب ، فأثروا من عند أنفسهم بما ليس من معناه في شيء .

لأجد وقتاً لاطالة البحث فيما ذكرت عن السعد وغيره . وأظن أن فيما كتبه كفاية لذكر مثلك وأرجو أن لاتقطع عن مراسلتي والسلام (أما مسألة التأكيذ) فالامر فيها سهل ، وتعلم أنني ممن يكتب ، ويقال ان لي حظاً من معرفة دقائق البلاغة ، وان كنت لا أحسب لنفسي في ذلك حساباً ، ولا أزال أستعمل التوكيد في كلامي وأذوق لذته ، وأعرف موقعه من كلام غيري ، وأنكر العبارة تخلو منه وهي محتاجة اليه ، وهو معنى من المعاني المقصودة التي وضعت لها في اللغة ألفاظ خاصة كلفظ إن واللام ونحوهما ثم من الالفاظ ما يكون فيه شيء من معنى الآخر ، فيؤتى باللفظين ليؤكد أحدهما الآخر بما فيه من المعنى المشترك ثم يزيد بما انفرد به كالسيف والصارم ، كل هذا لا أنكر شيئاً منه ، ولكني أنكر الذي يلجئون اليه بدون بيان صحيح ، فيقال كلمة كذا توكيد ، بدون بيان وجه التوكيد ، أو لفظ كذا زائد كما يقول الجلال في قوله تعالى (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) ان لفظ مثل زائد — تعالى الكتاب عن ذلك — فالجلال والصبان قالا : ان الرحيم توكيد ، لظنهما أن لا معنى في الرحيم سوى ما في الرحمن ، واني أنزه القرآن عما ظنا ، حتى لو قصد التوكيد ، فانه يكون بمنزلة الرحمن الرحمن ، وانما غابر اللفظ للتحلية ، وهذا ما أبرى ، القرآن منه . والذي صرحت به في هذا المعنى سبقتي اليه ابن جرير الطبري ، فقد صرح بأنه لا يوجد في القرآن كلمة زائدة لغير معنى مقصود ، وهو الذي عينته

وكتب الى من سأله عن القدر والاختيار واختلاف العقل والوجدان في ذلك

حضرة الفاضل الأديب

وصل إليّ رقيمك ، ان كنت لم أعرفك فقد عرّفك كتابك ، ودلت عليك آدابك ، والحمد لله على أن في المسلمين من يميل الى منهج الحق من دينه مثلك ، كثر الله من أمثالك ، ووقّعتك الى العمل بما تعلم ، والدعوة الى ماتفهم لم يتخالف العقل والوجدان في مسألة القدر ، فان كليهما يتفقان على صحة الاختيار ، ونفي الاضطرار ، فيما هو من الأعمال البشرية المعروفة ، ولا يتنازعان في حكم من أحكام هذا الاختيار . ثم هما يتفقان كذلك في الحكم بأن صانع هذا الكون محيط بدقائقه علماً ، وهاتان العقيدتان هما ركنان الايمان بالله ورسوله وشرائعه ، ولم يبق الا نزعة من نزعات الوهم ، تستفز العقل الى اكتناه حقيقة العلم الالهي ، وليست مما يصل اليه من طريق الفكر ، فاذا كبج العقل جراح الوهم ، وقف عند حده ، وذاق حلاوة الايمان الصحيح ، والا وقع فيما لا مخلص منه من الريب والشكوك

أما اختلاف الاعم بن الاشخاص في الآراء ووجوه العلم ، فذلك لازم لطبيعة البشر ، تلك الطبيعة التي بها الانسان انسان ، طبيعة العلم من طريق التعلم والفكر ، مع اختلاف الانفعال بما يرد من الكون على الحس والوجدان ، وما يستقر منه في العقل ، ولكن ذلك لا يرفع التبعية عن كان خلافه الى باطل ، لمكان الاختيار والهداية الى النجدين بمقتضى تلك الفطرة نفسها . وقد يعرض للطبيعة عوارض تخرجها عن أحكامها فتري الاختيار في عجز عن ترجيح جانب الخبر على جانب الشر . كتوارث الاخلاق السيئة . وليس الوارث مختاراً فيما يرث ، ولكنه ما دام شاعراً بفعله ، وأنه يريد أن يفعله ، فاختياره هو صاحب السلطة عليه ، وتبعته لازمة له ، ولو أنه طلب الأدب لتأدب . والكلام يطول في تفصيل ذلك ، ولكن يكفي أن العقل والوجدان لا يختلفان في الحكم بصحة الاختيار وشمول

العلم الالهي ، ونفوذ قدرة الله فيما لا اختيار لنا فيه ، وفي هبة قوة الاختيار نفسها ولعل ذلك يكفيك ، ولو كان عندي سعة في الوقت لكتبت رسالة في هذه المسئلة خاصة ، ولكن الاجمال فيها خير من التفصيل على كل حال والسلام

١٨ نوفمبر سنة ١٩٠٢

١٥ شعبان سنة ١٣٢٠

٢٦

وكتب من يروت الى مولوي محمد واصل أحد علماء حيد رآباد الدكن
(الهند) الذي سأل السيد جمال الدين عن النيشيرية في الهند فأجابه برسالة
الرد على الدهريين

حضرة الهمام الفاضل ، بقية الافاضل ، وتذكرة الاوائل ، العالم العامل ،
مولوي محمد واصل

لم يسبق لي شرف معرفتك ، ولا فضل مكاتبتك ، ولكن تجلت لي أوصافك
العلية ، وفضلك القدسية ، في قول أصدق الناس لسانا ، وأثبتهم بيانا ، حضرة
أستاذي السيد جمال الدين أيده الله بعنايته ، فكنت بذلك أشد الناس تعلقا
بمزايك ، وأشوقهم لنيل الحظ من مرآك ، وقد كنت حفظك الله كبت إلى
عارف افندي ابني تراب تسأله عن اختياري في زيارة البلاد الهندية ، وأظنه
كتب اليك بعلمي الى ذلك وترقب الفرصة للسير اليه ، ورجائي أن يسعدني
التوفيق الالهي يلوغ الغاية لما أرتقب ، ولو لم يكن لي في بلاد الهند سوى رؤية
مثلك ، والأخذ بالنصيب من معرفتك لكان ذلك أقوى باعث على السعي اليها
وأحث داع للاقبال عليها ، وقد يلوح بخاطري ان أمي نفسي لذلك في الحريف
الآتي من هذه السنة ، فتي عقدت العزيمة بعثت اليك بالخبر ان شاء الله

أن مادعوتي اليه في كتابك لعارف افندي من كتابة رسائل في تنبيه الأمة
الاسلامية الى تلافي امرها ، ومبادرتها الى جمع كلمتها صونا لنفسها عن المهلكة
وحفظا لما بقي لها من غول الفناء فذلك عملي إن شاء الله ، وقد رأيت ان أقدم

لك برسالة تبين حال العرب في الجاهلية على وجه الاجمال ، ثم ماساق الله اليها
 زمن فيض الخير ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أتقدم بعد ذلك الى ذكر سيرة
 النبي وخلفائه الأربعة ثم أختم الكلام . وبعد هذا نأخذ في نشر رسائل ندعو
 بها الى الألفة ، ونزعج بها عن الحلقة ، ورجاؤنا في كل ذلك نجاح أعمالنا ،
 وصلاح أحوالنا إن شاء الله

ورسالة النيشرية قد نقلناها الى اللغة العربية ، وبدأنا في طبعتها ، وقد ترجمنا
 كتابكم الى السيد وكتاب السيد اليكم ، وقدمناها في صدر الرسالة ، ومتى تمت
 نبعث بها اليكم إن شاء الله

ونهج البارة قد تم والحمد لله طبعه وسيرسل اليكم مائة نسخة على حسب
 طلبكم . نبعث بها الى بومباي ، ثم ترسل من بومباي الى حيدر آباد ، ونمنها
 يرسل الينا مائتان وخمسون روبية ورق بنك نوطن هندي ، حيث إنه لا يتيسر
 الارسال بطريقة أخرى ، ثم ليكن في علم حضرتكم ان ائمان هذا الكتاب مخصصة
 للانفاق في طريق خيري ، والاعانة على أمر عام اسلامي ، لا نريد منها ربحاً ،
 ولا نطلب كسباً ، والله الموفق ، ونرجو من حضرتكم دوام المواصلة ، بتواتر
 المراسلة والله يتولى رعايتكم والسلام

٢٧

وكتب الى عالم من الهند كان يطالب منه أن يجيزه بمارواه وماتلقاه
 وفيه بيان رأيه في الاجازة بالكتب وتناقل الاسانيد

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم
 حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ احمد ابي الخير حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فقد سررتني ان أعرف لي أخاً جديداً في
 بلاد الهند يقدر العلم قدره ، ويحب بشه بين الناس ونشره ، يسألني الأخ أن
 أجيزه بجميع ماتلقيت وما رويت ، ويطلب مني ان أرسل اليه سندي في رواياتي

واني أقول لحضرتكم انني أستحي أن أجيز شخصاً لم أره بشيء، لم يكن لي فيه أثر بالنسبة اليه ، كيف أجيزك بشيء ، تقول أنك ترويه عني ولم تروه في الحقيقة عني ، ثم ما قيمة سند لا أعرف بنفسه رجاله ، ولا أحوالهم ، ولا مكانهم من الثقة والضبط . وانما هي أسماء تتلفها المشايخ بأوصاف تقلدهم فيها ، ولا سبيل لنا الى البحث فيما يقولون

أحب ان أكشف لك رأيي في هذه الشؤون : هذه كلها صور شغل بها المسلمون عن الحقائق ، ولا قيمة لها في خلاصهم مما هم فيه من شقاء الدنيا ، ولا فائدة لها فيما يوعدون به من شقاء الآخرة على ما فرطوا في جنب الله . وانما شأني الذي كلفت به هو ان أعلم وأقول وأبين وأكتب ما استطعت ، ومن تلقى عني شيئاً أو فهمه مما كتبه فله أن يرويه عني وأن يؤديه على ما فيه بعد دقة البحث والتحري ، والاخذ بالاحتياط في فهم القول وتحرير الرواية ، فاذا وصل اليك شيء مما أقول او أكتب وفهمته كما أحب ان يفهم قاليك الاخذ به وروايته عني بعد التحقق من صحة النسبة وأكون لك من الشاكرين ، اسأل الله أن يوفقنا جميعاً الى خدمة دينه الحق انه ولي العالمين والسلام عليكم ورحمة الله

١٩ ربيع الاول سنة ١٣٢٢ هـ مفتي الديار المصرية

محمد عبده

(يقول جامع الكتاب) ان الاستاذ الامام رحمه تعالى اقترض هذا الطلب ليعين المشتغلين بالعلوم الشرعية هذه الحقيقة : عنايتهم بالوسائل الصورية وتركهم لمقاصد الشريعة الموصلة لغايتها ، أعني فهم الكتاب والسنة والعمل بها الموصول لسعادة الدارين والنجاة من شقائهما . كانت الآثار والكتب تتلقى بالرواية عن الثقات للاطمئنان على صحة نسبة ما فيها إلى أصحابها وذلك من وسائل حفظها ، ولم يبق في الاجازة شيء من هذه الفائدة ، وإنما صارت من قبيل حفظ سلسلة النسب لمن يحرص على صحة انتسابه إلى أصل عظيم وان لم يكن له أدنى حفظ من عظمته في علم ولا هدى ، ولا ملك ولا غنى

الفصل الثاني

طائفة من كتب ورسائل الودادية

كتب وهو في سجن القاهرة منهما بالاشتراك في الحوادث
المرابية إلى أحد أصحابه في تاسع المحرم سنة ١٣٢٠ (٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٢)
وهو من أصدق الآيات على علو أخلاقه وعلامة صدره ، وسعة حلمه ،
وحسن نيته ، وأسلوب هذا فلسفي تاريخي شعري ، وهو يشبه إنشاء
بلغاء الأفرنج ولا يتسم غير هذا الأسلوب لتصوير ذلك الكرب الذي
أناره في قلبه ظلم الحكام وخيانة الأصحاب اللثام ، وتجهم الأيام ، قال :

١

عزيزي

تقلدتني الليالي وهي مديرة كأنني صارم في كف منهزم
هذه حالي !! اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره
من مركز الأرض إلى المحيط الأعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب ،
وامتدت إلى القطبين فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس إذ تغلبت طبيعتها على
المواد الحيوانية أو الانسانية ، فأصبحت قلوب الثقلين كاللحجارة أو أشد قسوة ،
فتبارك الله أقدر الخالقين *

انتشرت نجوم الهدى ، وتدهورت الشمس والافاق ، وتغييت الثوابت النيرة ،
وفر كل مضي ، منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الأفلاك دورة العكس ، ذاهبة
ببرائتها إلى عوالم غير عالمنا هذا ، فولى معها آلهة الخير أجمعين * وتمحضت
السلطة لآلهة الشر فقلبوا الطباع ، وبدلوا الخلق ، وغيروا خلق الله ، وكانوا

على ذلك قادرين * (١)

رأيت نفسي اليوم في مهمه لا يأتي البصر على أطرافه ، في ليلة داحية ، غطى فيها وجه السماء بغمام سود ، فتكاثف ركمار ركمار ، لا أرى انساناً ، ولا أسمع ناطقاً ، ولا أسمع محيياً ، أسمع ذئاباً تعوي ، وسباعاً تزار ، وكلاباً تابع كلباء ، يطلب فريسة واحدة ، هي ذات الكاتب ، والتف على رجلي تينان عظيمان ، وقد خويت بطون الكلى ، وتحكم فيها سلطان الجوع . ومن كانت هذه حاله ، فهو لا ريب من الهالكين *
تقطع جبل الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالأولياء ، وضل الاعتقاد بالاصفياء ، وبطل القول باجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء ، وحققت على أهل الارض لعنة الله والملائكة والانبياء وجميع العالمين سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، وحرقت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق الا هوى يتحكم ، وشهوات تقضي ، وغبط يحتدم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة الغدر ، والله لا يهدي كيد الخائنين *
ذهب ذوو السلطة في بحور الحوادث الماضية ، بغوصون لطلب اصداغ من الشبه ، ومقدوفات من الهمم ، وسواقط من اللمم ، ليموهوها بماء السفسةطة ، ويفشوها بأغشية من معادن القوة ، ليرزوها في معرض السطوة ، ويفشوا بها عين الناظرين *
لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أو لمستور يكشفونه ، أو لحق خفي فيظهرونه ، أو خرق بدا فيرقعونه ، أو نظام فسد فيصالحونه ، كلا بل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوه غير مخطئين *

وقد وجدوا لذلك أعواناً من حلفاء الدناءة وأعداء المروءة ، وفاسدي

(١) قوله آلهة الخيـر وآلهة الشر يراد بهما عوامل الخير والشر وأسبابهما وخرج على الحكاية لخرافات اليونانيين كما يقال اغتالهم الفيلان فيمن هلكوا بأسباب مادية تجوزاً مبيناً على المعروف من خرافات العرب . ويعد بعض المفسرين من هذا القبيل قوله تعالى « يتخبطه الشيطان من المس » - راجع اليضاوي وغيره وتوهم بعض أدعياء العلم باللغة وفنونها وبالشرعية ان ذكر الآلهة ولو بأسلوب الحكاية اثبات لها كأنه لم يقرأ في كتاب الله تعالى ذكرها حكاية واستفلالاً ومن الثاني قوله تعالى (فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون من دون الله)

الاخلاق ، وخبثاء الاعراق ، رضوا لأنفسهم قول الزور ، وافترء البهتان ، واختلاق الافك ، وقد تقدموا الى مجلس التحقيق ، بتقارير محشوة من الابطال ، ليكونوا بها علينا من الشاهدين *

كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة ، ولم تحل قلبي منه وحشة ، بل أنا على أتم أوصافي التي تعلمها ، غير مبالي بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء ، عالماً بأن كل ما يسوقه القدر وما سانه من البلاء ، فهو نتيجة ظلم لاشبهة للحق فيه ، لأن الله يعلم — كما أنت تعلم — أنني برى ، من كل مارموني به ، ولو اطلعت عليه لوليت منه رعباً أو كنت من الضاحكين

نعم خفتني الغم ، وأصغى فؤادي الهم ، وفارقتي النوم ليلة كاملة ، عند ما رأيت اسمك الكريم ، واسم بقية الابناء والاخوان المساكين ، تنسب اليهم أعمال لم تكن ، وأقوال لم تصدر عنهم ، قصد زجهم في المسجونين * لكن اطمان قلبي ، وسكن جأشي عند ما رأيت تواريخ التقارير متقدمة ، ومع ذلك لم يصلكم شرر الشر ، فرجوت أن الحكومة لم ترد أن تفتح باباً لا يذر الاحياء ولا الميتين * قدم فلان وفلان "١" تقريرين جعل فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنقي ، ولم يترك شيئاً من التخريف إلا قالاه ، وذكر أسماءكم في أمور أنتم جميعاً أبعاد الناس عنها ، لكن لا حرج عليهما ، فاني أراهما من المجانين * ولم أعجب من هذين الشخصين ، إذ يعملان مثل هذا العمل القبيح ، ويرتكبان هذا الجرم الشنيع ، ولكن أخذني العجب كل العجب غاية العجب ، بالغ ما شئت في عجبتي ، إذ أخبرني المدافع عني بتقرير قدمه سعيد البستاني الذي أرسلت اليه السلام ، وابلغته سروري عند ما سمعت باستخدامه وأنا في هذا الحبس رهين *

إلى هذا الوقت لم يصلني التقرير ، ولكن سيصل إلي ، إنما فيما بلغني أنه شهادة بأقبح شيء ، لا يشهد به إلا عدو مبين * هذا اللئيم الذي كنت أظن أنه يألم لألمي ، ويأخذني الأسف لحالي ، ويبدل وسعته إن أمكنه في المدانة عني ، فكيف قدمت له نفعاً ، ورفعت له ذكراً ، وجعلت له منزلة في قلوب الساكنين * كم

سمعتي أقاوم هجا. الجرائد ، وأوسع محرريها لوما وتقريرا ، وأهزأ بتلك الحركات الجنونية ، وكان هو علي في بعض أفكاره هذه من الناعمين * كان ينسب فلانا لسوء القصد اتباعاً لرأي فلان ، وأعارضه أشد المعارضة ، ثم لم أنقض له عهداً ، ولم أنجس له وداءً ، وحقبة كنت مسروراً لوجوده موظفاً ، فما باله أصبح من الناكثين ؟ آه ما أطيّب هذا القلب الذي يملئ هذه الأحرف ! ما أشد حفظه للولاء ، ما أغير على حقوق الأولياء ، ما أثبت على الوفاء ، ما أرقه على الضعفاء ، ما أشد اهتمامه بشؤون الأصدقاء ، ما أعظم أسفه لمصائب من بينهم وبينه أدنى مودة ، وإن كانوا فيها غير صادقين *

ما أبعد هذا القلب عن الأيذاء ، ولو للأعداء ، ما أشد رعايته للود ، ما أشد محافظته على العهد ، ما أعظم حذر من كل ما توجب عليه الذم الطاهرة ، ما أقواه إقدام على العمل الحق والقول الحق لا يطلب عليه جزاء ، وكم اهتم بمصالح قوم وكأوا عنها غافلين * هذا القلب الذي يؤلمونه بأكاذيبهم ، هو الذي سر قلوبهم بالترقية ، وملاها فرحاً بالتقدم ، ولطف خواطرهم بحسن المعاملة ، وشرح صدورهم بلطف الجمالة ، ودافع عنهم أزماناً - خصوصاً هذا اللئيم - أفشرح الصدور وهم يحرجون !! ونشفي القلوب وهم يؤلمون !! ونفرحهم بحزنون !! اتالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين *

هذا القلب ذاب معظمه من الأسف على ما ألم بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات ، وما ينشأ عنها من فساد الطباع ، الذي يجعل العموم في قلق مستديم ، وما بقي من هذا القلب فهو في خوف على من يعرفهم على عهد مودته ، فإن تسالوا جميعاً بمثل هذه الأعمال وأصبحوا من مودته خالين ، واتخذوه وقاية لهم من المضرة ، وجعلوه ترساً يعرضونه لتلقي سهام النوايب التي يتوهمون تفويقها اليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك سهماً يصيبون به أغراضهم ، فينالون منها حظوظهم ، فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم ، وهو أسرع الحاسبين * آه ما أظن أن تلك البقية تستريح من شاغل الفكر في شؤون الأجرة ، وإن جاروا في تصرفهم ، أن طبيعة هذا القلب لطيفة ناعم الخز ، إذا اتصل بذئ الود وإن كان خشناً فصعب أن يفصل ، ولو منقته خشوته ، وإن هذا

القلب في علاقه مع الأوداء، كالضياء مع الحرارة ، أيما حادث يحدث ، وأيما
يكايوي يدقق، لا يجد للتحليل بينهما سبيلا ، وأظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة
فيه كنت من المحققين *

أي عزيزي

الان وصلني تقرير اللثيم ، فقرأته بأول نظرة ووجدته كما بلغني ، وسأرد
عليه في بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله ان كان إنسانا ، ولكن تصادف
فراغ الخبر من الدواة، فسأنتظر بالرد عليه وتتميم رقيمي اليك بعض ساعات
فكن معي من المنتظرين *

رددت على التقرير، وكان كل ما فيه الغش والتغريب ، و ذكر فيه فلانا بأشنع
ما يؤاخذ به انسان في هذه المسألة كما ذكره الخيضان قبله ولكن دفعت مقاله في جانبه
ايضا، وأخذت على نفسي كل مسئولية تنسب اليه أو اليكم ، فاعليكم ان سئلمت إلا
أن تكونوا منكرين *

ربما يسألكم (القومسيون) عن معلوماتكم في شؤوني أيام الحوادث ، فلا
يدخل عليكم غش السؤال والارهاب ، ولكن عبروا عما كنتم تشهدون
وتعلمون من أفكاره وأقواله التي كانت تهزأ بالحكومة الفلانية، ومن كانوا لها من
الطالين * إلى هذا الحدقفوا، فان سئلمت فقولوا ما نحن بتأويل الأحلام بعالمين *

في هذا الوقت وصاني الرقيم مبشراً ببقائكم في مركزكم ، فقامت ورفعت
يدي ورجلي وناديت: الحمد لله رب العالمين * وأخذني الأسف على حبس فلان
لكن دل إطلاقه على حسن حالة الباقيين * يا عزيزي أعود إلى ذكر ما لا أولئك
القوم، كأنما قذف بهم من شاهق جبل فسقطوا على رؤوسهم، فغشهم من شدة
الصدمة ما غشهم ، فقاموا ينطقون بما لا يعون، ويتكلمون ولا يفهمون. ما بالهم
يقذفون من أفواههم أخلاطا أقدر من البلغم. وأمر من الصفراء ، وكأنما
جرعوا جرعة من السم فقلبت أمعاءهم فاستفرغت من حلاقيهم أخبث ما يحملون *

ما بال زنان قلوبهم تفيض من اللؤم أشد من فيضان بئر برهوت ؟ تقذف بسيئات

بشعة الطعم خبيثة المنظر كريمة الراحة تضرعها فيها للفرار منها، لكن اعضاء التحقيق من زكام الحوادث الأخيرة لا يشمون ولا يذوقون، ومن ظلماتها لا يبصرون * هل بطل يا عزيزي ماجاء على اسان النبوات: الانسان أسير الاحسان؟ هل انقض ماجاء من ذلك: المعروف بذرا المحبة يفرسها في أعماق القلوب؟ هل هدمت قاعدة: ان الحيوان يقاد بالزمام، والانسان يقاد بالصنعة؟ هل كان خرافا مقرر الحكاء من الفصول الطويلة تقسيما للمحبة وبيانا لفضائلها ومنافعها في الاجتماع الانساني الحديث؟ هل كان خرافا ماحوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشري؟ أم صح كله لكن الناس به جاهلون؟*

هل أتأسف أن كنت سباقا الى الخيرات؟ هل أتأسف أن كنت مقدما في المكرمات؟ هل أتأسف ان كنت شجاعا في الدفاع عن ذوي مودتي؟ هل أتأسف ان كنت أيا أغار أن ينسب مكروه أو ذل لأولي صلاتي؟ هل أستحق العقاب على حبي لبلاذي والناس لها كارهون؟

كلا والله لن يكون ذلك ولم أزد في سبيل الفضيلة الا بصيرة، ولم أزد في المحافظة عليها الا ثباتا، ولئن عشت لا صنعن المعروف، ولا أغش الملهوف، ولا تقذن الماوي في حفرة القدر، ولا آخذن بيد المتضرع من ضغط الظلم، ولا تتجاوزن عن السيئات، ولا تناسين جميع المضرات، ولا يبين لقومي أنهم كانوا في ظلمات يعمهون* ولا تظهرن الصديق في أجل صوره، ولا جلونه للناس أبهج حلاله، ولا تثبتن لهم يبرهان العمل أنه فكرك الثاني في روحك الواحدة، وأنه جسمك الآخر في حياتك المتحدة، وأنه صاحبك اذا طال ليل الكدر، ومصباحك اذا أغسق دجى المموم تستضيء به في حل ما انعقد، وتستعين بقوة في تيسير ما عسر، وتذهب به الى أوج المعالي، والناس من معجزات الصديق يتعجبون *

إتي اليوم أعجز من المقعد عن طلوع النخل؛ ومن المفلس عن حرية التصرف، وقد صار سقوط الجاه كمرض يصيب الجيل الفاتن، فينحف الجسم، ويغير اللون، ويقلص الشفاه، ويضعف القوى، ويقعد عن الحركة، ويعد

عن نيل المطلوب ، ويثقل على الاهل والعشائر في التمريض ، ويستثمهم ان طال من معاناة العلاج فيصبح المريض منهم في أدنى المنازل ، وقد كان ربا لهم وهم له ساجدون * يذهب عنه البهاء ، وينكسف من وجهه الضياء ، وتنكره عند الرؤية أعين العشاق ، وتمجده طبع ذوي الاذواق ، وتمحى من جبينه تلك الاسطر الجلية العبارة ، الصادقة النسبة ، الناطقة بالحق ، القائلة : ههنا كنز الرغبات ، ههنا منار الحاجات ، ههنا ما يروح الروح ، ههنا ما يقضي وطراً في الانفس ، ههنا ما يخشى منه على الارواح والافئدة ، فينحرف عنه السالكون اليه ، وقد كانوا قبل على آثار غباره يتدافعون * وقيدوا على مرض الجليل مرض صاحب جاه ، ولا أظنكم بالقياس تجهلون *

لكن أقول لكم : ان الحوادث المريعة سوف تنسى ، وأن هذا الشرف سوف يُرَدّ ، ولنن أبت طبيعة هذه الارض بخستها أن يكون لها من عوده نصيب فليعودن في بلاد خير منها . ولا جذبن الى المجد أحبتي ، ومن الى المجد ينجذبون * كل ذلك إن عشت وساعدتني صحة الجسم ، ولا أطلب شيئاً فوق هذين سوى معونة الله الذي عرفه بعض الناس ، وبعضهم له مشكرون *

أطلت عليك الكلام فلا تسأم ، وأظنه آخر كتاب مني اليك في السجن الا أن يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة أخرى . فان تلاقينا بعد اليوم كانت المسافة أركى والا كانت المراسلة أجمل وأعلى ، ولا تجزع ، فليس في الامر ما يفزع ، رهو أهون مما يتوهمون * وأسأل الله أن يفض عنكم أبصار الظالمين ، ويحفظكم من مكايه الخائبن ، ويسر قلبي بالطمأنينة عليكم وعلى سائر الاخوان والابناء أجمعين

ومن كتاب له الى السيد جمال الدين عقب النبي من مصر الى بيروت وهو أغرب كتبه بل هو الشاذ فيما يصف به استاذه السيد مما يشبه كلام صوفية الحقائق والمائلين بوحدة الوجود التي كان ينكرها عليهم بالمعنى المشهور عنهم ، وفيه من الاغراق الغلو في السيد ما يستغرب صدور عنه وان كان من قبيل الشعریات ، وكذا ما يصف به نفسه بالتبعية لاستاذه من الدهري التي لم نعهد منه البتة - قال :

ليتني كنت أعلم ماذا أكتب اليك - وأنت تعلم ما في نفسي كما أعلم ما في نفسك ، صنعتنا يديك ، وأفضت على موادنا صورها الكالية ... فبك عرفنا أنفسنا وبك عرفناك ، وبك عرفنا العالم أجمعين ...

أوتيت من لديك حكمة ألق بها القلوب ، وأعقل العقول ، وأذل بها شوامخ المصائب ، وأنصرف بها في خواطر النفوس ، ومنحت من لديك عزمة أنعم بها الثواب ، وأصدع بها شم المشاكل ، وأثبت بها في الحق حتى يرضى الحق . وكنت أظن أن قلبي غير محدودة ، ومكتني لا مبنوة ولا مقلودة ، فاذا أنا من الايام كل يوم في شأن جديد ، تناولت العلم لأقدم اليك من روعي ما أنت به أعلم ، فلم أجده من نفسي سوى الأفكل ، والقلب الاشل ، واليد المرتعشة ، والفرائض المرتعدة ، والفكر الذاهب ، والعقل الغالب ، كأنك بامولاي منحني روح القدرة للدلالة على قوة سلطانك حصرتني في الافراد (١) فاستنيت منه ما يتعلق بالخطاب معك والتقدم إلى مقامك الجليل ، هذا مع انني منك في ثلاث أرواح لو حلت إحداها في العالم بأسره وكان جاداً لأحال إنساناً كاملاً ، فصورتك الظاهرة التي تجلت في قوتي الخيالية ، وامتد سلطاناً على حسي المشترك

(١) العبارة غير مستقيمة لعدم كونه في الأصل صورة النسخ بما تحمله

— وهي رسم الشهامة، وشبح الحكمة، وهيكل الكمال — ردت اليها جميع محسوساتي،
وفيت فيها مجامع مشهوداتي، وروح حكمة التي أحيت بها مواتنا، وأنرت بها
عقولنا، وألطفت بها نفوسنا، بل التي بطنت بها فينا فظهرت في أشخاصنا، فكنا
أعدادك وأنت الواحد، ونعيمك وأنت الشاهد، ورسماك العواقراني الذي أقمته
رقبياً على ما أقدم من أعمالي، ومسيطرأً علي في أحوالي (١) وما تحركت حركة،
ولا تكلمت كلمة، ولا مضيت إلى غاية، ولا انتهيت عن نهاية، حتى تتطابق
فيه أحكام أرواحك — وهي ثلاثة — فمضيت على حكمها سعيًا في الخير، وإعلاء
لكلمة الحق، وتأيداً لشوكة الحكمة وسلطان الفضيلة، ولست في ذلك إلا آلة
لتنفيذ ذلك الرأي المثلث، ومالي من ذاتي إرادة حتى ينقلب مردياً، غير أن
قواي العالية تمثلت عني في مكاتبتني اليك، وخلت بيني وبين نفسي التزاماً لحكم
أن المعلول لا يعود على علته بالتأثير، على أن ما يكون إلى المولى من رقائم عبده
ليس إلا نوعاً من التضرع والابتهال، ولا أحسب فيه ما يكشف خفاء، أو يزيد
جلاء، ومع ذلك فاني لا أتوسل اليك في العفو عما تجدد من قائق العبارة، وما
نرى مما يخالف سنن البلاغة، بشفيغ أقوى من عجز العقل عن احداق نظره اليك،
واطراق الفكر خشية منك بين يديك وأي شفيغ أقوى من رحمتك بالضعفاء
وحنوك لأرحام الحياء.

اني يامولاي لا أحذرك عن شيء مما أصابنا بعد فراقك، فقد
تكيف ببيانه أخي العزيز ابراهيم افندي اللقاني سوى ما تركه في كتابه من
انقلاب بعض القلوب من خاصتك، وتحول أحوالهم بعد نزول ما نزل بك،
فقد تغلب أعوان الشر وأنصار السوء بقوة جاههم، وشدة بأسهم، فأرغوا

(١) قد أخذ هذا الرسم شرطة الحكومة عند تفتيش بيت الكاتب في مهمة
الثورة كما سيأتي ثم اننا كنا نرى رسماً آخر للسيد في خزانة كتبه من داره التي يجلس
فيها على الأرض للمطالعة والكتابة كانت على منضدة يوضع عليها بعض الكتب
في الجهة الشمالية فكانت تكون قبالة حيث يجلس فكان يترك الروح العالية التي
رهبه تلك التربية الجديدة الممتازة التي دفعتة إلى الجهاد طول حياته في سبيل الله تعالى

القول على الاعتقاد بالحال ، والجؤها بالتصديق بما لا يقال ، حتى إنهم غيروا قلب دولتلو رياض باشا عليك وعلى تلامذتك الصادقين أياماً معدودة ، ركن فيها للعمل بالشدة ، والاخذ ببادرة الحدة ، لكن لم يلبث أن وصلنا اليه ، وجلوت الامر عليه ، وكشفت له ما أغض من الحقيقة ، حتى زال ما لبس المبطلون ، وبطل كيدهم ، وما كانوا يعملون ، ونزلت عنده منزلة حسدي عليها السكافة من العلماء والامراء ورجال الحكومة ، وقعدت من كل أمير مصعد النفس ، فلا ينطق الا بما تريد حكمتك ، ولا يعمل الا ما تشاء إرادتك ، فكأنك وحقك كنت بين أظهر المصريين ، ساعياً فيهم الى مقاصدك العالية ، طالباً بهم أوج السعادة ، وذروة المجد والفخار . وهكذا ضمنت الي كل من كان ينتسب اليك . صادقا في الانتساب أو كاذبا ، حتى اني لم أناخر عن مساعدة أولئك الاشقياء الادنياء^(١) وأمثالهم من اللثام ، تحسناً للظن ، وإيثاراً للجانب العفو . فأصلحت لهم القلوب ، وفسحت لهم من الصدور ، وفتحت لهم أبواب التقدم الى المنافع الغزيرة ، لكنهم لم يبرعوا ودآ ، ولم يحفظوا عهداً ، ولا حاجة الاكن الى ايضاح ما صدر عنهم خيانة ولؤما^(٢) وألفت لحبك ممن حرم التشرف بلبثائك قبلا ليس بالقليل ، يجلون قدرك ، ويعرفون لك فضلك ، وكنا واخواننا كما شرح لك ابراهيم افندي (الاتقاني)

ولكن هذا لم يلهمني عن طلب الانتصار لك ، وكدت أصل الى ذلك من طريق مألوف ، ومذهب معروف ، ولكن غلبنا على الامر قطاع طريق الخير ، اللابسين ثياب الانبياء ، السالكين مذاهب الجبارين : انتحلوا طريقتنا في الدعوة الى الحرية ، وتمكنوا بقوة السيف وضعف الحكومة من اقناع العامة بكونهم دعاة الحق ، وحماة القانون ، وكانوا في بداية أمرهم أشد الناس تعصباً عليك وعلى تلامذتك ، واشتد معهم في التعصب أولئك الاشرار الذين قدمنا ذكرهم عند ما رأوا بعض رجال الحكومة يميل الى أهوائهم ، ويمدح في بعض

(١) م : أ . ل - س ون - س . ب و : هـ

(٢) حذفنا طراً فيه كلمة شديدة في نصارى الشوام وفي المصريين مما

غيهم ، ولم يدم ذلك الا قليلا ، حتى محصنا من قلوبهم ، وجلونا عن بصائرهم ، فكادوا يشيرون ضياء الحق لولا أن أدركتهم ظلمة النفي والغرور ، ومع هذا فكنا نستعملهم لما نريد ولغاية ما نحب بقدر الامكان والاستطاعة ، الى أن غلبت عناصر الفساد ، وعم الاختلال . فطلبنا بأولئك النافرين أن تخلص البلاد من الشقاء ، وينقذ العباد من طول العناء ، ورجونا تأييدهم على ذلك من سكان الارض والسماء ، وكدنا ندرك به خلاصاً حسناً ، وانتصاراً شريفاً ، لكن لسوء البخت كان احمد عرابي على ما وصف الصابي أبا تغلب بن حمدان عند ما قاله عز الدولة بن معز الدولة وهزمه حيث قال فيه « انه لم يلق لقاء الباضع بالطاعة ، المعتذر من سالف التفريط والاضاعة . ولا لقاء المصدق في دعواه في الاستقلال بالمقارعة . المحقق لزعمه في الثبات للمدافعة . ولا كان في هذين الامرين بالبر التقي . ولا الفاجر القوي . بل جمع بين قبيصة شقائه وغدره . وفضيحة جبنه وخوره . قد ذهب عنه الرشاد ، وضربت بينه وبينه الأسداد » اهـ

وأزيد على ذلك مع توفر الاسباب ، وتفتح الابواب ، وظهور الامراليان ، وانجلائه لأذهان الصبيان ، واجتماع جميع القلوب عليه ، ونزوع الاهواء على اختلافها اليه ، فكان ما كان من العاقبة السوءى ، واسيرنا في تلك الحوادث نبأ طويل اذا أردت يامولاي أن أقدم اليك به تاريخاً ربما يكون مفيداً فأنا رهين الاشارة . ونحن الآن في مدينة بيروت نقضي بها مدة ثلاث سنوات لا لذنب جنيناه ، ولا جرم اقترفناه ، فقد قضت حكمتك اقامة منا مقام الالمام في قلوب الصديقين أن ننال الحق ولنا المحجة الباهرة ، ونصيب الغرض ولنا البراءة الظاهرة ، والذمة الطاهرة ، وانما ذلك أثر الحق القديم ، ونتيجة الرأي العقيم ، والله ياسيدي لو فصلنا من جلودنا ثيابا ، وصنعنا لمن لحومنا كبابا ، وصيبناله من دمنا شرابا ، لما كان لنا مفر من غدرته عند قدرته ، قاتله الله . فها نحن سالكون في سننك وعلى سننك ، وكنا كذلك ولا نزال ، الى انقضاء الآجال ، ولولا أطفال لنا رضع ، ونساء لنا طوع ، أيينا لهم الذل ، وأنفنا لهم الضيم ، فأتيناهم هنا ، الى حيث أقننا ، لكنت أول من تلقاك في مدينة باريس ، لا سعد بالاقامة في خدمتك ، وأخر بذلك على العالمين

ولما اعلم من نفسي ، وما أتيقن من يقينك ، وما أبدته أعمالي وأعمالك ،
واقوالي وأقوالك ، لا أتكدر مما أشرت اليه في كتابك الى ابي تراب ، حيث طغنت
في ثقتك بالناس اجمعين ، وبالفيت حتى سحبت الطعن إليّ والى ابراهيم افندي ،
وزدت في الطعن ، فأفندت طعنك بالداهية الزرقاء ، والبليّة الحمراء
أما اختلال ثقتك بالدواهي والبلايا فقد صادف محلا ، فقد تقضوا عهدك ،
وحالفوا عدوك ، فاستبقوه الوجود وأنت موجود ، أرغم الله أنفها ، وجعلها طوع
يدك ، ترمي بها من تشاء من أعدائك

وما حكم به سيدي على المصريين من سلب الوفاء فذلك قد تتصاغر عليه
الأدلة ، وتشهد لك ولنا به الحوادث ، غير أنا لسنا أولئك ، فقد اخرجتنا عن
طباعنا ، وحوّلنا نبناً غريباً لا يتغذى بغذاء تلك الأرض ولا ينمو بهوائها ،
وانما ينضر حيث يتيح له القدر من مثل عناصره ما يقوي به قوامه ، ويزهر زهره ،
ويحلو ثمره . والا ذبل ومات ، أو استأصلت جذوره ونفي الى خارج البلاد
واني اعلم أن كلاهما لا يزيد في يقين مولاي شيئاً ، وعدمه لا ينقصه ، فلنعد
عن هذا ونستريح كرمه الواسع أن يمن علينا بنسخة من رسمه الفوتوغرافي
جديدة ، فقد كان عندي نسختان احدهما كانت في بيتي على الوضع الذي
قدمت ، والأخرى استجدانها سعد افندي زغلول ، فأما الاولى فقد اخذها
أعوان الضبطية عند ما أودعت السجن ، وفتشوا بيتي وعد وجود صورتك
عندي من سيناتي التي ارادوا وضعها في مجلس التحقيق ، والأخرى تركتها
عند محسوبكم سعد افندي زغلول

ثم يتفضل مولانا بأن يتابع إلينا ارسال ما ينشر من الفصول السياسية والادبية
في الجرائد أيا كانت ، فقد اعددنا دفاتر كثيرة لنقل ما يوجد منها في أي جريدة ،
وكتبنا ما نشر في النحلة ، وأول ما نشر في البصير ، وانا نبحت بغاية الدقة عن مقالة
« الشرق والشرقيون » ولم نجد لها الى الآن ، ثم نرجو أن تمن علينا بأسطر من
قلمك الشريف نحفظها حيث نحفظ سرك ، ونودعها حيث أودعنا محبتك ، والله
يحفظك ويقيم مقاصدك ، والسلام

وكتب بعد استقراره ببيروت الى بعض الشيوخ ، ولعله الشيخ علي
الابني ، وفيه من التكاف ما كدت أشك في انه له ، وقد وجد بين مسودات
اكثرها له

سيدي الاستاذ الأجل

لله حالي مع الشيخ !! وجد به مستحراً ، وشغف بحبه مستمر ، وعهد هوى
اليه مستقر ، وهو بي لا يستقر ، شغفت من الشيخ بأخلاق زهر ، ومكارم غر ،
ومروآت حذر ، وفضائل غزر ، ذلك الحسن الذي لا يكسف ، والجلال الذي
لا يكشف ، فاذا عشقته (بقلي) نلست بالغالط ، وإن لمحتة (بجي) فما أنا بالخابط ،
تعلقت بهاء الأنف ، وهو لدي الأعز الأنف ، ومشر بي في ذاك أصفى المشارب ،
وللناس فيما يعشقون مذاهب ، أنا في عنك تباين الديار ، وأداني منك دوام
التذكر ، كلما خلوت بنفسي ، تمثلت لباطن حمي ، وفروحي اليك انسة ، ومن
قرب اللقاء غير آيسة ، فان فاءت من غيبة الفكر ، وأفافت من سكرة الذكر ،
عاودتها وحشة الفراق ، وانتابها قلق إلى التلاق ، فان تحمقها عنايتك ، وثقفها
رعايتك ، بكتاب تلحظه ، أو خطاب تحفظه ، كان ذلك أشقى لدائها ، وانجم
في دوائها . وبعد فانا اليوم ببيروت في فضل من الله أشكره ، وجميل احسان اذكره
ولا أنكره ... لكن لا يسوى بقومي قوم ، ولا كيوم وطني يوم ، ذلك الوطن الذي
أنبتك ، وغذت عناصره نبعتك ، لا ريب أنه منبت الكرم ، ونخيم لا تطهار الشيم ،
الموت فيه بقاء ، والحياة في غيره فناء ، ولكن كان حالي كما قال الأموي

أعز الممات وذل الحياة وكلا أراه طعاماً ويسلاً

فان لم يكن غير احداهما فسيرا الى الموت سير أجيالا

هذا الى أن ينجح الله سعيكم ، ويؤيد في أمري رأيكم ، فباط الاذى ،
ويلقى القذى ، وتمحص الصدور ، وير أبرقياكم المصدور ، هنالك يعرف النخيل
أهله ، ويصل الفرع أصله

٤

وكتب من بيروت أيضاً الى بعض الكبراء جواباً عن كتاب منه
يذكره فيه بالصبر في تلك النكبة

ما أفضل الفضل من مبادئه ، وما أكرم الكرم من مناشئه ، وما أكبر التواضع
من الكبرياء ، وما أعلى التنازل من الأعلواء ، جلت مكارم مولانا عن التقدير ،
وفات فواضله حيلة التحرير ، توجهت عنايته الى ضعيف في وجده ، عارف بقدره ،
واقف عند حده ، فأحسن اليه بأمر كريم من رفته ، يكسوه من الوصف حلة
بهاؤها بمسديها ، ويوليه كرامة سناؤها بمهديها ، وما هي إلا كلالته تبدو مظاهرها ،
وكرام سجايه تظهر على المحلصين مفاخرها ، والا فليس لهذا الداعي ما يستلفت
نظر دولته ، ويستقبل وجه كرامته ، اللهم الا الاخلاص في ولائه ، والاحتساب
على آلائه ، وما استواء مولانا على منصة تشرف به على النظر فيما يؤكد نسبتي
اليه ، ويقوي استنادي عليه ، فأرجو الله أن ترتقي بي الى أعلى ما يؤمل لمثله ،
بمثل فضله ، حتى يعم فضله المتعرفين الى جنبه ، والعاجزين عن التقرب من رحابه ،
وقد أرشدني كرم مولانا الى الاعتصام بالصبر ، وانني فيما أرشدني اليه على نحو
ما يقول سابقني الى مثل حالتي

تعودت مرَّ الصبر حتى ألفتَه فأسلمني حسن العزاء الى الصبر
فالحمد لله على توفيقي للأخذ بارشاده . ووقوفني عند حد مراده . فلا زال
يحبي القلوب بحكمته . كما يحبي نظام الأمة بعد الله ، والله يتولى مشورته على احسانه ،
كما يكفل له في العالمين اعلاء شأنه ورفعة مكانه

وكتب وهو في بيروت جوابا عن كتاب لصديق

لك في قلوبنا من الود ما يذكى سناؤك . وفي مناطقنا من الحمد ما يوحى بك ،
وفي صدورنا من الاجلال ما يرفع بهائك . ما بيننا من المودة ، لا تحده مدة . ولا
تخلق له جدة . نعيذه من حاجة للتجديد . واستدعاء للزيد . فلا المواصله تريه ،
ولا الماهلة توهيه . نعم ان ما نحفظ لك في الانفس هو تجلي فضلك . ومثال علائك
ونبك ، وذلك الخالد بخلود الأرواح ، الباقي في تفاني الاشباح
تلقيت منك كتابا ييوح بسر المحبة . وينشر طي الصداقة ، فيه تبيان
وجدانك مما وجدنا . وتأثرنا على ما فقدنا . فكان نأ عما نعلم . وقضاء بما نحكم
ولكن شكرنا لك فضل المراسلة . وأريحية المحاملة . والله يتولى ايفاءك ،
مثوبة تكافئ . وفاءك

وكتب من بيروت الى صديق له من رجال الدولة العظام الذين كان

يرجو منهم الخير للدين والملة

وصل الله بالتقوى حبلكم ، وأعلى بصدق الايمان محلكم ، يعلم الله اني وان
فارقت عطوفكم ، لم يفصلني البعد الجفائي عنكم ، وان بانئت بي الاماكن ، ونبت بي
الاقطار لم أبين منكم . فلقد يسمو الايمان الصادق بأهله عن مضاجعة الطبيعة
فلن تصل اليهم آثارها . وينفر بهم عنها فلا تخاطبهم أوضاعها . فتأخذ
الارواح حكمها ، وهي اذا تعارفت جواهرها ، تواصلت سرانها . ولم تبال
بالاجسام ومصابرها .

لم يزل يلعب لي بارق من سر ذاتكم الطاهر ، ويذر آنا بعد أن شارق من
مطلع يقينكم الزاهر ، ويتمثل لي كلما نزع في القلب اليكم مثال من مزايا سعادتكم ،

ويبدو لي عند الوحشة مؤنس من خصائص عطوفتكم ، فأنا من معاني حقيقتكم في بقعة من عالم المثال ، ألهو بها عن هذا العالم عالم الخيال ، أراكم بين من رأيت من حكم الزمان ، كوكبا بين أجرام الكون ، إن كان لها ضياء تضال اضيائه ، أو كان لها سناء تساقط دون سناءه ، فإله بحق نسبتم إليه ، ويمتكم باخلاص الاقبال عليه . فلك السعادة ، لا تفضلها زيادة . ولا أتقدم الى سعادتكم بالرجاء بشيء ، مثل ما أرجوكم في النظر لاصلاح قلوب الاهالي بالترية الزكية ، على أصول المعارف الصافية . فلا بقاء للدين الا بها . ولا وقاية له الا بنفوس أربابها . ولا سعى عند الله أفضل منزلة من السعي الى مثل هذه الغاية . ولا أجل عاقبة لديه مثل الانتهاء الى مثل هذه النهاية

ثم أرجو العفو عن تقصيري في عرض عريضتي على أنظار عطوفتكم في المدة الماضية ، فقد كنت بعد مفارقة القدس في أمراض لم أزل الى اليوم في معالجتها ، وأنتم أكرم من قبل العذر ، واستقبل بالعفو جزيل الأجر ، والله يمدكم بامداد توفيقه ، ويحفظكم على المحجة من طريقه

٧

وكتب الى من أكرم وقادته ، وخطب مودته

لو كان في الثناء وملازمة الدعاء ، وحفظ الجليل ، والقيام بالخدمة جهدا مستطيع ، ما يفي بشكر من يفتح باب المحبة ، ويبدأ بصنائع المعروف ، لكنت والحمد لله من أقدر الناس عليه ، ولكن أنى يكون في ذلك وفاء ، والمحبة سرّ نظام الا كون ، والاحسان قوام عالم الامكان ، والقائم على كنه جميعه قيوم السموات والأرض ، والمفتتحون لأبواب العرف على هذه النسبة الجليلة منه ، فليس لي إلا أن ألجأ الى الله في مكانة فضيلتكم ، على ما كان منكم أيام الاقامة بينكم ، ثم أسلي نفسي عن عجزى بما أخيل ان كرمكم سيروي

سيكفي الكريم اخاء الكريم ويقنع بالود منه نوالا
وبعد هذا أرجو عفوكم عن التقصير في المبادرة الى المكاتبة لأنني شغلت

بما شغلني عن نفسي ولكن زالت العوارض والحمد لله وفاتني لهذا العذر
تهنئتك بالعيد، وأما المؤمن كل يوم بربه عيد، فهنئكم برضاء الله عنكم، وتقبل صالح
الأعمال منكم، وسلامي على نجاكم، ومن يأتي اليكم، والله يحفظكم

٨

وكتب من بيروت الى بعض الكبراء في الاستانة جوابا عن كتاب منه
ان خدمت الملة في هذه فمأهي أول خدمة، وان وفقك الله للنجاح فيها
فليست بأول نعمة وان شجذت غزيمك لاصابة الغرض منها فما هو بيدك منك،
وان طالت يدك ابلوغ الأموال فيها فما هو ببيد عنك، فآخذ بمضدك، وممدك
الى مقصدك، خصوصا وانت مخلص النية، مشرق الطية، صادق العزيمة، شهم
الغواد، أليف السداد، أيد الله رأيا أفردك في علمه، وبارك لك في عزم ميزك بسموه
وحقق الرجاء فيك، وبلغ الأمل منك ! حار قلبي، لا أدري بأي بيان يذكرك،
وعلى أي فضل يشركك، على صدق في خدمتك، أو اخلاص لدوائك، أو حية
لديك، أو ثبات في يقينك أو بعد في همتك، أو علو في مروءتك، أو تنازل لاجابة
هذا الداعي فيما رجاه، وتقريب أمله فيما تمناه، كيف يوافي شكر ذلك بيان، أو
تصيب الغرض منه أسلمة لسان

واقاني كتابك يفوق الغيث في بركه، والربيع في نضرته كيف لا والحق
في طيه والفضل في ثنيه . وأين ما نربوبه الاشباح مما تنعش به الارواح واين
نضرة الحقول، من بهاء العقول، هزمني بعد السكون وأظهر مني بعد الكون
وفتح لي الى الأمل بابا، وكشف عني من الارتباب حجابا، فلا زلت يقوى
بك العزم ويؤمسي بفضلك الكلام أما ما سبق اليه رأبك من تقديم رسالتي (١) الى
حضرة علم العلماء وتاج الفضلاء صاحب الدولة ناظر العدلية الاخفم فكأما رددت
غريباً الى وطنه وأرجعت نازحاً الى عطنه ولئن وقع ماعرضت موقع القبول
عنده فأنما ذلك تبلى فضله في مرآة علمه، والافعلام القصور ظاهرة فيما كتبت

(١) هي لائحته اصلاح التعليم التي سبقت في فصل اللوائح

ولوائح الارتباك بادية مما حررت وانما هي نفايات رسمت في صفحات على استعجال خيفة القوات ، وما دفعني اليها - والله أعلم - الا يقيني بأن نجاح هذه الامة انما يكون بحسن التربية ولا سبيل الى التربية فيها الا باصلاح معتقداتها ، وتصحيح ملكاتها، حتى تستقيم بذلك اعمالها ، وتصلح احوالها، وان سعيي في هذا من فرائض الذمة، بل مندفع مني بباعث العتيدة، آتية مجبوراً في صورة مختار، أو مختاراً في صورة مجبور

واتي أحمد الله على قوة لا أجدها مادة، وهداية لا أرى لتسير الناس فيها جادة، فان وفقني الله الى مادة عمل وجادة خير بسعيك الناجح، ورأيك الراجح كانت أعمالي كلها شكراً لصنيعك، وكان الله من وراء ذلك خير مكفي لك على جميل سعيك ، وأما استشهادك بفلان وفلان فاني أعده تفضلاً منك في التأكيـد والإفـعـرـد قولك عندي هو الدليل على الواقع والله ما أقول شهيد ، وليكن مني لك الاحترام الدائم والشكر الذي لا ينقضي والله يتولى رعايتكم والسلام

٩

وكتب منها الى بعض الاصدقاء جواباً عن كتاب

سيدي العزيز

وافاني كتاب سيد الأحاب، وصفوة الانجباب ، مبتسماً عن الدرّ النظيم ، روايا عن الذوق السليم ، مهللاً بسناء منشيئه، معجباً ببهاء مملية ، جاء بعدما حل منازل الجلال، ودار دورة الاقبال، ولولا رسل من شوقي اليه، تزاخت أقدامها لديه ، فساقته يد الافدار، وقانه قود الاوطار، لطال به التسيار « وبرح بي » الانتظار، وصل الي بعد اثني عشر يوماً من تأريـر كتابته ، واني اقسم به لو زاد في غيـبته، وجاء زاهياً بحليته . تائها في جلالته ، متقلداً حسام حجته ، مستشهداً بعدول من حاشيته، على ما نسبـت من المـطل الى مودته، لما اقنعتي دليـله ، ولا الزمني اعـلـيـله ، ولقابلته بحسابه ، وسكنت من ضبابه، ولحاكته محاكمة الود ، بين يدي حيي المستبد ، ولجازيته جزاء نافر اتعب في الطلب ، وشارد أوغل في الحرب ، ثم خفي (٧٧ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

بحكم الغلب ، . أو معشوق بديع الجمال ، بالغ في الدلال ، حتى أعيا المختال ، ثم ابتلي بغرام العشاق ، فابتغى وهو البغمة وعمل المشتاق ، واعلمت له من اشعة البصر جبالا ، أو سمع بها احتبالا ، فيعز عليه الخلاص ، ويمنع المناس ، فلا يبرح عن ناظري ، مدام ناظري ، ولا رمت له من ميام العقل عقلا أو ثقة به اعتقلا ، وأزيد في قيود سلاسل من الفكر خنا أو ثقلا ، حتى لا يغيب عن الذهن انتقاء ، ولا عن الخيال زوالا ، وما أشده من جزاء يكون عبرة لما يليه ، فيخشي من توانيه ، علمني كتابك كيف تناجي الأرواح اشباحها ، والجراثيم أدواحيها ، . أو كيف تحدث العقول أفكارها ، والقلوب أسرارها ، تباينت اجسامنا في عالم الكون والفساد ، وتباعد ما بيننا في كون التضارب والعناد ، وترفعت نفوسنا عن معارك الاضداد ، فتعالينا في جوهر الوداد عن الانداد ، فاتحدنا وليس بعد اختلاف ، وامتزجنا ولا عن افتراق ، وكان واحدا من صاحبه في مكان الشرف من الفتوة ، والكرم من المروءة والقوة من العدل ، والكرامة من الفضل ، والعلم من الرشاد ، والحكمة من السداد ، واستغفر الله ان أكون منك في مقام الاستاذ ، فتفاوت النسب نوع من الجذاذ

لم يزدني كتابك يقينا بما أعلم من كرم طبعك ، وامتيازك بفضيلة الوفاء بين قومك ، ولم يذكر ناسيا لسابق ودك ، ولم ينبه غافلا عن ذكرك ولكن كان نوراً على نور ، وفضلا من كتاب عملا ، المبرور ، وسعيك المشكور ، ونعمة تشتهي النفس دوامها ، ونعمة يلد للسمع تكرارها

سرفني مادل عليه كتابك من كل صحة والدك الماجد ، وأخوتك الاماجد ، وأعضاء عائلتك الكريمة وانجبالك بضعة كلاك

١٠

ومن رسائله الفكاكية الهرلية ما كتبه من بيروت الى حديقته العالم الاديب الشيخ عبد المجيد الخاني في دمشق . وكان رحمه الله محبباً اليه ، والى جميع المصريين المنفيين في بيروت ، وان له ألفاظ وسجيات كثيرة ما تدور في كلامه وكتابه ، هجيراً منها لفظ الدهشة وما يشق منه ، فكان الاستاذ الامام وعبد الله باشا فكري و ابراهيم بك للقاني يذكر ذلك في كتبهم اليه على سبيل الحكاية . وهذا الكتاب جواب من الاستاذ الامام عن كتاب من الشيخ عبد المجيد رحمه الله تعالى

لك الحمد والشكر

وفد عليّ كتاب السيد الاستاذ ، والموئل الملاذ ، ينبئ عن سعادة حاله ، وسعود إقبائه ، فحمدت الله أن خطرت بباله ، وان لم أكن من ذوي باله ، ودهشت من مفاجأة هذه النعمة ، لقصر الهمة عن شكر يستزيدها ، وحمد يستعيدها ، وان سروري من السيد بتوجيه عنايته ، الى أخلص الناس في محبته ، بل أثبتهم قدماً على أبواب خدمته ، لأرقى من لذة الوصال ، لمحجوب بعيد المنال ، بل من حظ النفس عند بلوغ الآمال ، والظفر بالاقبال

يشير الاستاذ في خطابه ، الى لطيف عتابه . وليس سروري بما أحسن به الاستاذ من مكاتبته . أوفر من سروري بما تحققت من كل صحته ، أدام الله سروري بتوارد أخباره ، وشهود آثاره في أنصاره . وشهد الله أن غيبته عن ناظري ، لم تحجب مثاله الشرف عن خاطري . وأن تسامجاني متوالية في خلواتي وجلواتي ، وخواتيم صلواتي . لا يحيط بها . ولا يحفظها . ولا يحفظ الحافظ . ولا

يأتي على وصفها الشيخ حسين الحافظ^(١) وان بلغ في الفصاحة ما بلغ الجاحظ .
أهديها مع الزائغ والغادي ، وأحضر والبادي . وما علي أن أقول وعلى الله الوصول
يعلم مولاي أي من تبعة القارئ ، وخدمة السكاتبين وأظن — إن حسن
الظن — أي من مواقع احسانه ، ومواقع امتنانه . وما كنت أبجد شيئاً من
رعايته . ولا آلو جهداً في شكر متته . ومع هذا لم يتفضل عليّ بلاعة من درره
ولا بارقة من غوره . واختص السادة الفضلاء بالمراسلة ، واكتفى لي بسلام
المجاملة . فالتفت من حضراتهم أن يحيوه أحسن تحية ، أو يردوها على أي كيفية .
ولا أدري بعد ما كان منهم رضي الله عنهم . ورأيت من الخاطرة ، والجرأة
الجائرة ، ان ابتدر الاستاذ بالكلام ، وهو الامام ابن الامام . فوقفت عند الحمد ،
وقت مقام العبد ، ان سئل أجاب ، أخطأ أو أصاب ، أليس لمثلي العذر ، ان يقصر
به الفكر ، عن مكاتبة عبد الحميد هذا العصر ، وبديع الزمان في النظم والنثر ؟
بلى . ولولا ثقتي بسعة كرمه ، ما تمكن قلبي من اجابة قلبه . فليعف جناب السيد
عما يراه فيما حرر على عجل ، تحت سلطان الخوف والوجل

شكرنا لمولانا سروره بما رأى في جريدة الثمرات . غير أن ما ذكر فيها
انما هو كلمات قد قتها بمصر أغراض . فاقصت واستعقبت بالأغراض . على
أننا اذا حسن التفاتكم اليها في آل خير من آلائنا ، وأوطان أرحب من أوطاننا .
فلا غربة مع وجود الاحبة . ونسأل الله تخليد بقاءكم ودوام رضاكم

نوهتم بما حظي به الشيخ أسعد ال... من كتاب الصادق الاصدق
الناطق بالحق ، فيما رقى ودق . ذكر السيد أن الشيخ لم يدر عافاه الله من أين
آتي . وأرى له عذراً في هذه الفعلة التي ... فقد آتي من وراء حجاب . واحتبل
بغير احتطاب . ودمر عليه من غير باب . فلا غرو ان غاب عنه الصواب . وخرم
وانخرم معه الحساب ، ابراهيم افندي جظه بعد الملاحظة ، ودلظه بلا معا كظة .

(١) كان هذا الشيخ انما صر للاستاذ يحفظ عدة كتب من الحديث والادب
وقد يحفظ المصيدة الطويلة من مرة وكان وصافاً لا يتلهم ولكنه لا يأنزم الصدوق
في الوصف ولا الحكاية

لكن الشيخ جواد ، حجب بكماله عن.... فضلا عن اللحاظ، وإن كان في طبعه لظلالا ، وفي هداه جماعا . فتح سر الشيخ على القلم باب الظأفة . ولولا أن تداركه لطف الله لجذبه للبأبة والفاقة . فلا تؤاخذ مجذوبا ، ولا تغت مغلوبا . ثم إن القصيدة حائية لاجيمية . وكأن غموض معناها أعجم ميناها . سبحان الله العظيم ، وفوق كل ذي علم عليم ، كر كر كر كر كر ، إنها لاحدى الكبر أرجو تقييل أيدي حضرة والدكم . ثم إن حسن لديكم قبلوا سلامي الى حضرات أصحاب السعادة محمد باشا ومحبي الدين باشا نبلي سعادة المرحوم الأمير عبد القادر ، أكرم الله جواره ، وقدس أسرارته . ويهدي حضرتكم التحيات المدهشات ، والتسليمات المرعشات ، حضرات الأساندة الأفاضل ، الشيخ محمد والشيخ احمد عبد الجواد . وحضرة الحاج محبي الدين افندي حماده ، و ابراهيم افندي اللقاني ، والسيد محمود افندي الخوجه ، ومحمد علي افندي . ومن ظني آتي سأحضر الى دمشق يوم الخميس ١٦ شعبان ، لأرفع الى الاستاذ ما أستطيع من شكره على مبادأة (عبده) بالاحسان . رفع الله قدركم ، وأعلى ذكركم ، والسلام

١١

وكتب اليه أيضا

سبحانك اللهم وبمحمدك

يا مجيد ، علمني ما أخطب به عبدك المجيد ، جلبيته مجدك . وأشعرته ودك . وأغزرت عليه في البيان نعمتك . وأنبتت من جناته حكمتك . فبذ القائلين بفصاحته . وملك مشاعرنا ببلاغته ، ثم يصفني وصف الأصفاء ، وبومي . إلي بإشارة الاولياء ، واست مما قال في رطب ولا غنب ، ولا كهوب ولا رُكب . فاجزه اللهم عن حسن ظنه نور اواصل السمي بين يديه ، وأثبه عن صدق ولائه صفاء يكشف من سبحات وجهك عليه

أخي : الحمد لله ، ما أظن ان اثنين توacula على ما توacula ، توacula على لحة روحانية ، لم تخالطها أهواء حيوانية ، وحكم الأرواح يتبعها في الدوام ، لا تنفتر

(عليه) عوارض الأجسام ، اللهم إلا أن الحواس الظاهرة ، يوحشها البعد عن طلعتكم الزاهرة ، ويدهشها القرب من ذاتكم الطاهرة ، فرأى حي من روحك في نعيم مقيم ، وسرور بلذة الصفو مستديم ، وحسي من حسك ما بين وحشة تذكره ودهشة ان شاء الله تغمره ، وكل يوم يمر علينا فيه خبر من ناحيتكم عيد ، وإن في كل سماع عن صحتكم سرور جديد

١٢

وكتب إلى الشيخ إبراهيم اليازجي جواباً عن اعتذار

وصل كتابك بحمل من العذر مقبولة ، ويرتاد من الرضا مبذولة ، ولقد كنت تعلم اني ما أردت لك إلا لنفسك فالحمد لله إذ أرجعك اليها وله الشكر على ما عطفك عليها ، وما أنا بالمقتصر بك عما سألت ، ولا بالناهب بك إلى خلاف ، ما طلبت وغاية قولي لا تثريب عليك . اليوم يغفر الله لك وهو أرحم الراحمين حياتنا شبح روحها المحبة ، والمحبة شبح الاخلاص ، فما أسعد وقتاً نرى فيه حياتك متعشة بروحها ، زاهرة بسر الاخلاص فيها ، وليس بذاعب عنك انك كما تكون يكون الناس لك ، واسأل الله أن ينفي عنك خواطر سوء ، ويزيح عن روحك العائية وساوس الغرور ، وبين علي برويتك عند الغاية التي أحب لك ، وسلامي عليك وحدك من بين أهلك ، ولتكن مواصلتك دأمة والسلام

١٣

وكتب اليه في ١٥ ص ١٣٠٦ بعد رجوعه من الشام الى مصر

عزيزي صفوة البلاء ، ونخبه الادباء حفظه الله

تماديت في التخصير حتى عجز العذر عن التعبير ، وخجل القلم من التجربة ، ولكن في علمكم بحال منتقل الى بلاد قد انكره هواؤها ، وتعرفت اليها ادواؤها ، مالا احتاج معه الى بسط عذر يشفع اليكم ، ويقبل لديكم ، ليت يوماً بعدت فيه عنكم كان يوماً قربت فيه منكم ، ما ولا مثال من أدبكم رؤيتي اذا استوحشت ، ويشفعني اذا انفردت ، لكن سهمي اقصد ما يصيب المحرومين

١٤

وكتب اليه في ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٣٠٦

هامة الفضل وجهة الادب حفظه الله

اكرمني الشيخ بايفاء كتابه ، يثل لي مالم انس من آدابه ، ويشيرني بتوفر
النعمة على سلامته ، ويزيدني يقيناً بانصافها في مودته ، وسرني استقرار الشيخ
على رخاء البال ، وان كدرني ذكر ما عجب لديه من عاصفة البلبال ، لا ترك الله لها
مهباً ، ولا ادام لها مرباً ، وأبلغ الله حضرة الأخ (يعني الشيخ خلية اليازجي
أخا الشيخ ابراهيم وكان مريضاً) غاية الشفاء ، ووقاكم الله وآلكم من الاسواء
لا أبرئ نفسي من استبطاء كتاب الشيخ قبل وروده ، واجالة الاقداح فيما
عسى أن يكون سبباً في تأخر وفوده ، واستكانتي في ذلك لسلطان الوحشة ،
وانهزامي لغارة جيش الدهشة ، حتى كان الكتاب فيصلا وناصر الحربنا ، بل منقذاً
لحزبنا ولا يوفي حق شكره ، إلا شغل بذكره

عجبت لمصير ذلك العمد ، والحال قبل ان يشتد ، وتغيظ المفسدين عليه ،
والتفاهم بالسوء اليه ، وهو في مهده ، وعلى قرب عهده ، كأنما حم على هذه البلاد
أن تكون خطباً لئيران الفساد ، وأن يذل فيها العلم ، ويضل في ابنائها الحلم ، ولا
ينجح الفضل في مسعا ، ولا يخيب الجهل في مبتغاه ، ولا حول ولا قوة الا بالله .
ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، ويدل من هذا العسر يسراً

١٥

وكتب اليه من مصر

عزيزي الفاضل أيداه الله

لمثل أدب الشيخ الفاضل تغني الإشارة ، عن طويل العبارة . وصلت مصر
ومثال الشيخ آخذ بجناحي ، وذكره مالك لسانني ، ورجائي أن تدوم مواصلاه ،
وتحيي النفس مراسلته ، والسلام على من يحب ، من ذوي اللب

في ١٦ صفر سنة ١٣١٠

١٦

وكتب وهو في بيروت الى من مدحه نثراً ونظماً

انت الذي سما بك استعدادك ، وزهابك اهتمامك ، فأعدت للنثر سناء ،
ورددت للشعر بهاء ، فلنا المسرة بمكاتبتك ، ومنا الحمد لمبادءك . أنتني منك
فوائد مثورة ، تتبعها لآلىء منظومة ، أعلاها حسن اختراعك ، وأعلاها جودة
ابداعك ، وكنت جديراً بحايتها ، مبهجاً بزيئها لو أديت للحق فرض خدمته ،
وطالت يدي في تأييد كلمته ، ولكني على ميلي الى الحق لم تساعدني القدرة على
اسعاده ، ولم يسعفني الحول والقوة على انجاده ، فأين انامنه ، وهذه حالي من جليل
ماوصفت ، بل من قليل ماأغزرت ، وأرجو الله أن يرشد العقول الصافية ، ويجمع
القلوب الحازمة ، ويصرفها الى فضل ماأعدها ، فتجود أعمال ، وتثبت آمال وتبدو
آثار يحمدها الحامدون ، ويعرف قدرها العارفون ، فهناك تحقيق ماظننت ،
وتصديق ماحدثت ، إن شاء الله ، والسلام

١٧

وكتب وهو في مصر الى صديق جواباً على تنصل من هفوة بعد

عتاب شديد

لو عرضت عليّ نعم الله وفيها عزة الامراء ، وبزة الأغنياء ، ووفاء الاولياء ، لما
اخترت منها غير الوفاء ، ولعددت نفسي به أسعد السعداء ، هذه خلتي - تقبلها
الله - وفيها لمهجتي احياء . بهذا تعلم مادخلت من السرور عليّ ، فيما كتبت اليّ ، ولو
جعل الله المحبة شكراً أوفى بحقة منها لبذاته ، ولو قدر لها أجراً أجزل عائدة
منها نفسها لالتصته وقدمته . نعم كنت وجهت كتابي الى شيطانك ، فلاقي
الكتاب أكرم نفس فيك ، فانصرف والحمد لله عنك الى حيث لاأراه ، فاهناً
بكرم محبتك وزكا . مناك . والسلام

وكتب من يلزم الى أحد علماء الجزائر المصلحين

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ عبد الحليم سمايا حفظه الله

لا يزال يؤنسني مثال من علمك وفضلك ، ويعجبني رفيق رفيق من كلك ونبلك . وما كان ذلك ليفارقي بعد أن صار بضعة مني ، ولو كشفت لك من نفسك ما كشف لي ، منها لعلت مقدار ما آتاك الله من نعمة العقل والأدب ، ولعرفت أنك ستكون إمام قومك ، تهديهم إن شاء الله سبل الرشاد ، وتبصرهم بما يوفر عليهم الحظين : حظ المعاش وحظ المعاد . هذا هو أمني الذي أسأل الله تحقيقه . فخذ من الوسائل ما يبلغك بفضل الله غاية ما يرمي اليه استعدادك ، وأفضل ذلك فيما أرى استمرارك على مزاولة كلام البلغاء من أهل اللسان العربي . وإتمام ما سبقت لك البداء فيه من اللسان الفرنسي ، ثم دراسة أخلاق البشر ، وما يكون له أثر في تحويلها بتدقيق يجدر به لقب التحقيق . ومن ذلك النظر في تاريخ الأمة الاسلامية ، وتنقل الدين في أطواره ، وعلل ذلك وأسبابه ، حتى يتيسر الحكم في أمراض النفوس ، وحسن اختيار الدواء الذي يناسبها . ثم التقدم إلى كل سريرة بما لا تشمئز منه ، ولا تبادر بالنفرة عنه ، وبذل الجهد في حمل المهم على طلب العلم لتستنير به البصائر في العمل ، وشحذ العزائم على الجد في السعي والكد في كسب الرزق من وجوه الحل ، والاتفاق منه في سبل المنافع وطرق الخير ، وأن يكون ذلك كله ديدنا للداعي لا يقرر عنه حتى يكثر في الناس من هو جدير بالنسبة الى رب الناس ، ولك في ذلك ولدنا الفاضل الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة ، وإخلاص حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ مفتي الحنفية ما يساعدك على ما تقصد من نفع العامة ونصح الخاصة . وإني وإن كنت على ثقة من كل عقلك ، ومعرفتك بما اليه حاجة المسلمين اليوم . فاني لا أجد مندوحة عن التصريح بالتحذير من النظر في سياسة الحكومة أو غيرها من الحكومات ومن الكلام في ذلك فإن هذا الموضوع كبير الخطر ، قريب الضرر ، وإنما

الناس محتاجون إلى نور العلم ، والصدق في العمل ، والجِد في السعي ، حتى يعيشوا في سلام وراحة مع من يجارهم من أهل الأئمة الأخرى ، ولا يتعلقوا من الوهم بحبال تنقطع في أيديهم متى جذبوها ، فيسقطوا والعياذ بالله فيما لا منجاة منه
 بلم ٣٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٢١ محمد عبده

١٩

وكتب الى بعض علماء الشام (١) جوابا عن كتاب هنأه فيه بمنصب الافتاء وهو من ألطف كتبه وفيه من الشكوى من سوء حال قومه ولا سيما الجامعيين ومن التحدث بالنعمة ما ليس في غير.

انصفتي قومك اذ سروا يتناولي منصب الافتاء ، ولعل ذلك لشعورهم بأنني أغبر الناس على دين الله ، وأضرهم بالدفاع عن حماه ، وأدراهم بوجوه الفرص عند سئوحيها ، وأحذقهم في انتهازها ، لا بلاغ الحق أملة ، أو يبلغ الكتاب أجله ، على أنهم مني بحيث لا يفسد نفوسهم الحسد ، ولا يتقاذف بأهوائهم اللدد ، وكل ذي دين يشتهي أن يرى لدينه مثل ما أبحث اليه عزيزي ، واخلص في العمل لتحقيقه نيتي ، خصوصا أن كفي فيه القتال ، ولم يكف بشد حال ، ولا بذل أموال أما قومي فابعدهم غني ، أشدهم قريبا مني ، وما أبعد الانصاف منهم ، يظنون بي الظنون ، بل يتربصون بي ريب المنون ، تسرع منهم في الأحكام ، وذهابا مع الاوهام ، وولعا بكثرة الكلام ، وتلذذا بلك الملام ، أقول فلا يسمعون ، وأدعو فلا يستجيبون ، وأعمل فلا يهتدون وأريهم مصالحهم فلا يبصرون ، واضع أيديهم عليها فلا يحسون ، بل يفرون الى حيث يهلكون ، شأنهم الصياح والعويل ، والصخب والتهويل حتى اذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء ، وإن هانا وأقول: ولا من الخير

وانما مثلي فيهم مثل أخ جيله اخوته ، أو أب عفته ذريته ، أو ابن لم يحن عليه

(١) هو أرجح انه الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله تعالى

ابواه وعمومته مع حاجة الجميع اليه ، وقيام عهدهم عليه ، يهدمون منافعهم بايذائه ولو شاؤا لاستبقوها باستبقائه وهو يسعى ويدأب ليطعم من يلهو ويلعب على أيي أحمد الله على الصبر وسعة الصدر اذا ضاق الأمر وقوة العزم وثبات الحلم وإن كنت في خوف من حلول الاجل ، قبل بلوغ الامل ، خصوصاً عند ما أرى أن العمل في أرض ميتة لو ذابت عليها السماء مطراً لما نبتت زرعاً ، ولا أطلعت شجراً أفرع لذكرى ذلك وأجزع ويكاد قلبي يتقطع ، ثم ارجع الى الله فاعلم انه مع الصابرين ، وأنه لا يضيع أجر العاملين ، فيشج صدرى ، وأمضي في جهادي الدائم ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً

ممن اشتكى ؟ لو أن ما ألقى كان من لفظ العامة ولفظة الجاهلين لكان الامر وتيسر المخرج . ولكن البلاء كل البلاء أن اشد الناس عداوة لا نفسهم هم أولئك المعلمون الذين يبعدون عن الدين مدعين انهم دعائه ، ويمزقون احشائه زاعمين انهم حماه ، وما منهم إلا أحد شخصين : شخص ركب هواه فاعماه ، فهو يرى الحق باطلاً ، والصواب خطأ ، وآخر غرته دنياه ، وأضله جشعه ، فران على قلبه ما يكسب ، وامتنع عليه معرفة الصدق من كثرة ما يكذب ، ولم يعد للحق الى قلبه سبيل

ليتني كنت ، أشكو الى الله جهل العالمين ، وحمق المعلمين ، في مثل الجاهلية التي بعث النبي صلى الله عليه وسلم لمحو أحكامها ، وإزالة أيامها ، تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيداً ، ولكن كان فهم القوم حديداً ، لذلك عند ملاح لهم ضوء الهدى ابصروه ، وعند ما قرع اسماعهم صوت الداعي اجابوه ، كان القرآن يصدع أفئدتهم ، فيلين من شدتهم ، ويفل من شرهم ، ويفجر من صخر القسوة ينايع الحنان والرحمة ، وما كان أهل المناد فيهم إلا قليلاً ، عرفوا الحق فانكروه ، وطائفة كانوا يفرون منه خوف أن يعرفوه ، ولو سمعوا ، لفهموا ثم لم يجدوا بداً من أن ينصروه ، وإن الجحود مع الفهم ، كاليقين في العلم ، كلاهما قليل في بني آدم .

أما اليوم فانما أشكو من قلة الفهم ، وضعف العقل ، واختلال نظام الادراك ، وفساد الشعور عند الخاصة فلا تجذبهم فصاحة ، ولا تبلغ منهم بلاغة ، وغاية ما يطلبون أن يحمدا بما لم يفعلوا ، وأن يوصفوا بالعلم وإن لم يعقلوا ، وأن تقضى حاجاتهم

إذا سألوا ، وإن ترفع مكاناتهم وإن تغزلوا ، وإن استعداد السامع للفهم يستدر
المقال ، ويسدد الفكر للنضال في الجدال أما عيشك فيمن لا يفهم ، فانه ينضب
منك ينبوع الكلام ، ويطمس عين الفكر ، ويزهق روح العقل
جعلني الشيخ عبد الرزاق البيطار ثالث الرجلين (١) وما أنا في شيء من أمرهما ،
الا نزر من المهمة ، وكثير من معرفة قدرهما

الحمد لله لا أحصي ثناء عليه ، وأشكره وأشكر نعمة مرجعها اليه ، وأذكر
من نعمه أكبر نعمة أمدي بها ، وأكرمني بأسبابها ، إحسانه إلي ، بعطف قلب
الاستاذ علي ، وتقريبي من فؤاده ، وإحلالي مكانا من وداده ، كرمت نفس
الاستاذ فكرم فيه مثالي ، وكملت سجاياه فتخيل منها كلي . نسب إلي الشيخ
الجليل شؤونا كلها من سرائره ، وألبسني من الاوصاف ثوبا نسجته يد مظاهره .
جعل لي السيد من حسن ظنه معيناً . وأفادني بثقته ركناً ركيناً ، وسنداً أميناً .
فأسأل الله تحقيق ظنونه ، وأن يمدني دائماً بدقائق فنونه ، وأن ينصرني بولائه ،
وأن يسلكني في عقد أوليائه ، والسلام

٢٠

وكتب من مصر الى مولاي عبدالعزيز سلطان المغرب الاقصى ما يأتي

وصل إلى أسماعنا ، ونحن في ديارنا ، أبناء ماوجه اليه هم ، وشحذ بلوغه
عزمه ، من التهوض بيلاده الى الاصلاح ، والسير بها في منهج الفوز والفلاح ،
وتلونا ما نشر من أوامره الكريمة ، ووعينا ما تضمنته من القواعد القويمة .
فتجددت في سلامة تلك البلاد آمالنا . واشتغلت بأحاديثها أفكارنا وأقوالنا ،
ولما كان الاصلاح الذي بقصده المولى ، إنما يتم برعاية الدين والرجوع اليه في
كتابه المبين ، وسنة صاحبه الأمين . ثم النظر في أقوال وأعمال السلف الصالحين
لتعرض على ذلك كله أعمال الخلف المحدثين . تعلقنا بالآمال بأن يكون لمولانا
لفتة الى العلوم الدينية وإحياء مامات منها ، ونشر ما طوي من كتبها لتأدب

(١) يريد شيخني الاسلام ابن تيمية وابن القيم

النفوس بأدبها ، وتحيي القلوب اذا اتصلت أسبابها بسببها . فتتق هذه المقاصد الجليلة ألهمني الله أن أعرض على حضرة تكم العلية . أنه قد تألفت في مصر جمعية لاهياء العلوم العربية وخاصة عملها أن تبحث عما كاد يفقد من كتب السلف فتصحح نسخه وتطبعه حتى يحيا بذلك ما ندرس من علوم الاوان واحتجب عنا بمحدثات المتأخرين ، وقد عنيت هذه الجمعية بطبع كتاب علي ابن سيده الاندلسي في اللغة المسمى بالمخصص ، وسيتم عن قريب ، وهي الآن تبحث عن نسخ مدونة الامام مالك ، حتى تحصل لها نسخة صحيحة ، ثم تطبع هذا الكتاب الجليل ، وقد وجدت من هذا الكتاب قطع في مصر ، وقطع أخرى في تونس ، وصارت هذه القطع في أيدي الجمعية ، ولكن لم توجد الى الآن نسخة كاملة بوثق بصحتها وقد تأكد للفقير ان نسخة كاملة لكتاب توجد في جامع القرويين . ويسهل على فضل مولانا السلطان أيده الله وأيد به الدين ، أن يندنا في عمانا ، ويعيننا على ما نبتغي من الخير ، باصدار أمره الكريم أن ترسل اليها هذه النسخة ، إما بتمامها لتقابل عليها ما عندنا ونتم منها ما ينقص نسخنا ، ونعيد لها اليه ، ونهدي الجامع عشر نسخ من الكتاب عند نهاية طبعه إن شاء الله تعالى . وإما مفرقة جزءاً بعد جزء ، فكما انتهى الغرض من جزء أرسل الى مقره . وفي كلا الحالين سنقوم لمقامكم السلطاني بما يجب من الشكر على هذا الالتفات السامي الذي سنراه كأن الله حققه . ونسأل الله أن يؤيد بكم ملته ، وينصر بعزمكم شريعته

(يقول جامع الكتاب) ليتأمل الناظر كيف أن الامام لم ينسب الى نفسه عملا ما في الجمعية وهو رئيسها وأكبر مؤسسيها ، وذلك دأبه في كل عمل الامة ، وخدمة الامة

وكتب بذلك أيضا الى مولاي إدريس بن مولاي عبد الهادي

قاضي القضاة والمدرس بجامع القرويين بفاس

بسم الله والحمد لله وسنّه

حضرة الاستاذ الفاضل، العلامة العالم الكامل، مولاي إدريس ابن مولاي

عبد الهادي قاضي القضاة حفظه الله

بلغنا من كمالك، وكرم أخلاقكم، وميلكم الى نفع العامة من المسلمين، وإيصال الفوائد إلى خاصتهم، ما جرأنا على مراسلتكم على غير معرفة سابقة، والتوسل بكم في الوصول الى ما يرجي ثواب السعي فيه إن شاء الله

نبشركم أن في مصر من أهل الفضل من وقفهم الله لنشر ما أماته الاهمال من آثار سلف الأمة، ودواوين علومهم. وقد كانت باكورة أعمالهم طبع كتاب التخصيص في اللغة للإمام الجليل علي ابن سيده النحوي، أشدة الحاجة اليه، ولاشراف نسخه على العلم، والامحاء من الوجود. وبعد أن بلغ الطبع معظم الكتاب، رأى أوائك الفضلاء أن يبحثوا عن كتاب آخر من أمهات العلوم. فرأوا من أفضل الامهات، وأحقها بالعناية، وأشدّها تعرضاً للضياع، والاختفاء من الديار الاسلامية (مدوّنة الامام مالك) فأخذوا يبحثون عن نسخها فتحقق ظنهم في تعرضها للضياع، لأنهم لم يجدوا نسخة كاملة في الديار المصرية، ولا في الديار التونسية وحملهم ذلك على الجد في الطلب والبحث في زوايا المساجد لعلمهم بعثرون على ما يتم لهم نسخة صحيحة فهم كذلك إذ بلغهم أن في مسجد القرويين بمدينة فاس نسخة من الكتاب كاملة. فحملني الحرص على الوصول الى تلك النسخة على أن رفعت عريضة رجا الى مولانا السلطان المعظم مولاي عبد العزيز ليأمر بإرسال النسخة إما جملة وإما جزءاً جزءاً. وعلينا بعد طبع الكتاب أن نرسل منه عشر نسخ الى جامع القرويين

بعد أن أرسلت العريضة حضر عندي من تفضل علي بذكر صفاتكم

الجميلة ، وسجاياءكم الفاضلة . وأكدي أن حضر تكم تكون عوناً على ما أطلب ،
لهذا بادرت بتحرير هذا الرقيم اليكم ، راجياً من همتمكم أن تساعدوني في الوصول
إلى تلك النسخة ، أو غيرها من نسخ المدونة ، ولك علينا أن نعيدها كما أخذناها
ثم نرسل عشر نسخ مطبوعة ، إما للجامع القرويين ، أو لمن يفضل بإرسال نسخة
اليان مع الشكر الخالص والدعاء الدائم إن شاء الله

٢٢

وكتب من مصر الى الفيلسوف تولستوي الروسي عندما حرم من
الكنيسة الروسية

أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوي

لم نحظ بمعرفة شخصك ، ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك ، سطر علينا
نور من أفكارك ، وأشرق في آفاقنا شمس من آرائك ، ألفت بين قفوس
العقلاء ونفسك . هداك الله إلى معرفة سر الفطرة ، التي فطر الناس عليها ،
ووقفك على الغاية التي هدى البشر إليها . فأدرت أن الانسان جاء إلى هذا
الوجود لينبت بالعلم ، ويشعر بالعمل . ولأن تكون ثمرة تعباً ترتاح به نفسه ،
وسعياً يبقى به ويربى جنسه ، وشعرت بالشقا الذي نزل بالناس لما انحرفوا
عن سنة الفطرة ، وبما استعملوا قوام التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها . فيما كدي
راحتهم ، وزعزع طمأنينتهم

ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد ، ووصلت بها إلى حقيقة
التوحيد ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه وتقدمت أمامهم بالعمل
لتحمل نفوسهم عليه فكما كنت بقولك هادياً للعقول كنت بعملك حاثاً للعزائم
والهمم ، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي بها الضالون ، كان مثالك في العمل إماماً
يقتدي به المسترشدون وكما كان وجودك تويخاً من الله للأغنياء كان مدداً من
عناية للضعفاء والفقراء وإن أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته على متاعبك في
النصح والارشاد هو هذا الذي سماء الغافلون بالحرمان والابعاد فليس ما حصل

لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس انك لست من القوم الضالين فاحمد الله على ان فارقوك في أقوالهم كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم هذا وإن نفوسنا لشيقة الى ما يتجدد من آثار قلبك فيما تستقبل من أيام عمرك وانا نسأل الله أن يمد في حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتح أبواب القلوب لفهم قواك ويسوق النفوس الى التآسي بك في عمالك والسلام

٢٣

وكتب اليه أيضا

أيها الروح الزكي ، صدرت من المقام العلمي ، إلى العالم الأرضي ، وتجسدت فيما سموه بتولستوي ، قوي فيك اتصال روحك بمبدئه ، فلم تشغلك حاجات جسدك ، عما تسمو اليه نفسك ، ولم تصب بما أصيب به الجمهور الأعظم من الناس من أعيان ما فصلوا عنه من عالم النور ، فكنت لا تزال تنظر اليه النظرة بعد النظرة ، وترجع اليه البصر الكرة بعد الكرة ، فوقفت بذلك على سر الفطرة ، وأدركت ان الانسان خلق ليتعلم فيعلم فيعمل ولم يخلق ليجهل ويكسل ويهمل

٢٤

وكتب الى محمد بك صالح (١) لما رقي الى قاض من الدرجة الثالثة

ولدي النجيب

أنت تعلم ما مازج قلبي من السرور بترقيتك وليس عندي من عبارة تفني بما تعلم من ذلك وهذا إن شاء الله أول سلم ترقى به الى غاية ما يسري اليه استعدادك والسلام

سنة ١٨٩٣

(١) هو المرحوم محمد باشا صالح المشهور الذي توفي من عهد قريب ، وقد ارتقى في سلم القضاء الاهلي الى أعلى درجاته كما بشره فصار مستشاراً في محكمة الاستئناف وهو من تلاميذه في الرعييل الاول من طلبة دار العلوم وقد سألته موارد عن آرائه في الاستاذات أملاها عليهم عند قراءته لهم مقدمه ابن خلدون في فلسفه التاريخ وسنن الاجتماع والعمران فقال انه كان يحفظ مسوداتها ووعدي بالبحث عنها في أوراقه في البلد عند المامه بها والظاهر انه كان ينسى

وكتب من مصر إلى بعض الاصدقاء الفضلاء

تناولت كتابك ولم يذكر مني ناسياً، ولم ينبه لذكرك لاهياً، فاني من يوم
عرفتك لم يغب عني مثالك، ولا تزال تتمثل لي خلاك
ولو كشف لك من نفسك ما كشف منها لفتنت بها ولحق لك ان تتيه بها
على الناس أجمعين، ولكن ستر الله عنك منها، خير ما أودع لك فيها، لتزينها بالتواضع
وتجملها بالوداعة، ولتسعى الى ما لم يبلغه ساع، فتكون قدوة لخواصك في علو الهمة،
وبذل ما يعز على النفس في نفع الامة، زادك الله من نعمه، وأوسع لك من فضله
وكرمه، ومتعني بصدق ولائك، وجعلك لي عوناً على الحق الذي ادعوا اليه، ولا
أحيا الابنه وله، والسلام

وكتب أخيراً من مصر الى الشيخ عبد الرزاق البيطار، أوحده

هذه سوربة الابرازه جواباً

مولانا الاستاذ العلامة نفعنا الله بحبه

وصل الي كتابك، تسطع فيه آدابك، ويفيض منه العقل، ويضيء منه
الاخلاص والصدق، وما أعظم فضل الله علي في توجه عنايتك الي تعين (علي) إظهار
الحق بعد خفائه، وهدم الباطل بعد شموخ بنائه، ولقد أوسع مولانا في التفضل
على العاجز عن شكره، المقيم على نشر فضله وإعلاء ذكره، وأسأل الله أن يتكفل
بإثابة مولانا الاستاذ على ما يغمرنا به من نعمة الخطور بباله، وجريان ذكرنا فيما
يخط قلبه أو ينطق لسانه

٢٧

وكتب منها الى عالم الشام العامل المصلح الشيخ جمال الدين القاسمي

حضرة الاستاذ

كأن القدر يريد أن يكون ما بيني وبينك سرّاً مكتوماً، ومضمرّاً يأبى أن يكون مرقوماً، فقد حاولت مثين من المرات أن أكتب اليك، وكانت تأتي العوائق فتحول دون ذلك، كأنني كنت أحاول فتح قلعة، أو محو بدعة، وهما أنا اليوم (الجمعة) عقدت العزم على أن لا أقوم من مجلسي هذا حتى أكتب اليك أشكر لك صنيعك على ما تدخله علي من السرور بإيفاد كتبك علي بما تكتب اليّ من وقت الى آخر، واعتذر اليك في الإبطاء عن الجواب بما تعلم من كثرة الشواغل، وأرجو أن لا تحرمني من ذلك الفضل الذي بدأت به، وإن لا تجعل لفضلك في ذلك نهاية، والسلام

٢٨

وكتب منها الى الزايفة الشهير الاستاذ السيد عبد الحميد الزهراوي

بمحص جواباً

والدنا الفاضل

تمنيت لو أنتمعت بقربك، كما قدر لي المتاع بأدبك، ولكن أحمد الله الذي يرينا ما نختار، في غير ما يقع عليه الاختيار، فأنت حيث أنت أنفع ما تكون لقومك، تجعل لهم حظاً من عمل يومك، تخرج عن أبصارهم حجب الغفلة، وتغظهم بما أوتيت من الحكمة، ونهي نفوسهم لقبول الحق إذا أقبل، وتعدّها لمدافعة الباطل إذا أظلم، وأسأل الله أن يشد أزرك، ويخفف من ذلك وزرك، ويرفع بعملك قدرك، وأما صلتنا بك فصلة آمال وأعمال، وهي خير صلة وأوفقها عند الرجال، بارك الله لك في أبامك، ورزقك الخير والسعادة في أعوامك، والسلام

٢٩

وكتب من مصر إلي فرح أفندي أنطون صاحب مجلة الجامعة
جواباً عن كتاب منه يقول فيه انه احتقره (*)

لو احتقرتك ما كتبت إليك كلمة وانك سيء الظن بنفسك ، أكثر مما
يسئ بك غيرك ، وكنت أود لو كنت لنفسك أفضل مما أنت لها اليوم ولكن
اللهم عرفنا بأقدار أنفسنا فذلك اللهم أنفس ما تعطي وأفضل ما نهب ، والسلام
١٧ أكتوبر سنة ١٩٠٣

٣٠

وكتب إلي الشيخ مصطفى نجل صديقه حسن باشا عبدالرازق ما يأتي
ومنه يعلم سببه

ولدنا الاديب

خير الكلام ماوافق حالا ، وحوى من النفس مثالا ، تلك آياتك العشرة
رأيتني والحمد لله متربعا في سبعة منها كأنها الكواكب تسكنها الملائكة وما بقي
كانه الشهب ، نور للاحباب ، رجوم للاشقياء ، ماسرت بشيء سروري بانك شعرت
من علم حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك ، فله أنت والله أبوك ، ولو أذن
لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت إليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء ،
ولكني اكتفى بالاخلاص في الدعاء ان يمتعي الله من نهايتك بما تفرسته في
بدايتك وأن يخلص للحق شرك ويقدرك على الهداية اليه ، وينشط بنفسك لجمع
قومك عليه ، والسلام

(*) كان فرح أفندي عصبيا سيء الظن يظن السوء فيخال ظنه واقعا واسوء
ظنه بالاستاذ وبقي قصة غريبة تطلب من الجزء الاول من هذا التاريخ

٣١

وكتب من مصر الى محمد بك نجيب بكار جوابا

ولدا الفاضل

أشرك لما كتبت اليّ أولا ولما كتبت وأهديت ثانيا وأحمد الله على نعمته
الجديدة في معرفتك، وفضله العظيم في إخلاص مودتك. وأسأله أن يجعل ذلك كله في
سبيله وأن يجعل عمره خيرا للإسلام والمسلمين والسلام.

نموذج من كتبه لوضعي الكتب النافعة ومنهجها

٣٢

كتب الى من ألف كتابا نافعا لا أتذكر من هو ولا ماهو كتابه

حضرة الفاضل المحترم

أبطأت في اجابتك، وقصرت في الاسراع بشرك، لما أتخفت به أهل لغتك
من ذلك الكتاب الذي تجلى فيه ذكاؤك واعتدال رأيك في أحسن صورة، لم
تفتك فيه فضيلة الابداع، ولم تحرم من حسن الاتباع، اقتفيت أثر سلفك من تجويد
الرأي واحترام مقام العقل، فلم يهبط بك التقليد إلى ما يحبط بالعمل ويسقط من
قيمة الكد في الجد، ثم أبدعت في ترتيب كتابك على ما هو أقرب للفهم، وأدنى
إلى التقرب من حقيقة العلم، وكأني بك قد وقفت على ذلك السر الذي خفي
عن الجمهور الأعظم من سبقك، وهو أن القرآن قد خط للعرب طرقا للتعبير،
ومهد لهم سبلا جديدة لصوغ الأساليب، ليخرج بهم من ضيق ما كانوا التزاموه،
ويبعدك منهم عن تكلف كانوا رثموه، ولهذا قوي عندك كل ما بني عليه، وضعف
لديك كل ما لم يستند اليه، جزاك الله عن نفسك خيرا ما يجزى به عامل عن عمله، وجزاك
عن أهل لغتك خيرا ما يجزى به محسن عن إحسانه، والسلام.

وكتب الى سليمان أفندي البستاني مؤلف دائرة المعارف ومترجم
الليادة كتابا قرىء في الحفلة التي أقامها له فضلاء السوريين في القاهرة

عزيزي الفاضل سليمان أفندي البستاني

دعاني أصدقائك وأصدقائي الى الانس بك ساعة تهنيك بالنجاح في ذلك
العمل الأدبي الذي كلفت بابداعه عدة من السنين ، دعوني الى الاشتراك معهم
في شكرك لما دأبت في السعي ، وأخذت نفسك بالصبر على مشقة البحث والعناء
في اختبار مسالك النظم ، تهدي الى أبناء لغتك العربية ، من أحاسن الصناعة
الأدبية ما بعد زينة الناظرين

وكننت أكون أسرع الناس الى إجابة الدعوة لولا مانع ذنبه إلي ذنب العاذل
الى عاشق الحسان ، منعني الانس بهم وبك ، ولكنه لم يمنعني أن أشاركهم في شكرك
تمت لك ترجمة الليادة لناطقة شعراء اليونان هميروس المشهور نسجت
قريحتك ديباجة ذلك الكتاب كتاب الترجمة ، فاذ هو ميدان غزت فيه لغتنا
العربية ضريعتها اليونانية . فسبت خرائدها ، وغنمت فرائدها ، وعادت اليانافي
حلل من آدابها . تحمل الى الأبواب قوتا من لبابها ، وما أجمل ذلك الغلب ، في
زمن ضعف فيه العرب ، حتى عن الزغب في نيل الأدب ، ما ينال منه عن كتب
فضلا عما يكسب بالتعب . فحق لك الشكر على كل من يعرف قيمة ما وفقت لا كماله
من العمل . فقد سددت به ثلثة كانت في بنية العلم العربي من عشرة قرون

أغار قومنا على دقائن الفنون اليونانية في القرن الثالث من الهجرة وما بعده
فثروا منها ما كان مخزونا ، ونشروا بين الناس ما كان مدفونا . ولم يدعوا غامضا إلا
جلوه ، ولا بعيدا إلا قربوه ، ونالت اللغة العربية بصنيعهم ذلك ما لم يكن في حساباتها
فقد صارت لسان العلم والصنعة ، كما كانت لسان الدين والحكمة

لكن كان أولئك الأساطين الأولين كانوا يرون أن ذلك ما يفرضه الحق
عليهم في جانب العلم الذي لا يختلف فيه مشرق عن مغرب ، ولا يتخالف علي

حقائقه الأعجم والمغرب . وظنوا أن ما وراء العلم من آداب القوم ليس مما يتناسب مع آدابهم ، لبعدهما بين أنساب أولئك وأنسابهم . فلم يمدوا نظرهم إلى ما كان في اليونانية من دواوين الشعراء ، وما صاغته قرائح الباغاء ، فلم تنل اليونانية من عنايتهم ما نالت الفارسية والهندية . وكان مؤهل اللغة منهم أن لا يجرموها نفائس ما اخترع اليونانيون ، كما زينوها بزينة ما أبدع الهنديون والفارسيون . وبقي ذلك المؤمل في غيب الدهر ، حتى أتيت ترفع عنه الستر . وجئت تقول للناس إنني آتمم في دولة عباس ، ما انتقص في ملك بني العباس . فما أقر عين العربية بنيل طلبتها ، وظهور ما كان منتظراً أشيعتها . أرجو أن ينال كتابك من الاقبال عليه ، والانتفاع به ، ما يكفى تعبك ، ويبعث هم العاملين على أن تتبعك ، والسلام

٣٤

لما ترجم محمد حافظ بك إبراهيم الجزء الاول من كتاب (البؤساء)
بالعربية أهداه اليه بهذا الكتاب

إلى الاستاذ الامام

إنك موئل البائس ، ومرجع اليائس ، وهذا الكتاب — أيديك الله — قد ألم بعيش البائسين ، وحياة اليائسين . وضعه صاحبه تذكرة لولاة الأمور ، وسماه كتاب (البؤساء) وجعله بيتاً لهذه الكلمة الجامعة ، وتلك الحكمة البالغة (الرحمة فوق العدل) وقد عنيت بتعريبه ، لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب ، وتصرفت فيه بعض التصرف ، واختصرت بعض الاختصار . ورأيت أن أرفعه إلى مقامك الأسنى ، ورأيك الأعلى ، لأجمع في ذلك بين خلال ثلاث (أولها) التيمن باسمك والتشرف بالانتماء إليك (وثانيها) ارتياح النفس وسرور اليراع برفع ذلك الكتاب إلى الرجل الذي يعرف مهر الكلام ، ومقدار كد الأفهام (وثالثها) امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية باهداء ما وضعه حكيم المغرب إلى حكيم المشرق

فليتقدم سيدي إلى فتاه بقبوله والله المستول أن يحفظه للدنيا والدين . وأن يساعدي على إتمام تعريبه للقارئ . . اهـ

قدم محمد حافظ هذا الكتاب الى الاستاذ الامام ونحن جلوس معه في حديقة داره بعين شمس مساء يوم من الأيام فأخذه منه بعد أن قرأه علينا وعليه ودخل الدار فمكث فيها قليلاً ثم عاد إلينا وقال : انتي عصرت دماغى على ما به من جناف الكلال فخرج منه هذه الكلمات : - وأعطى حافظا ورقه قرأ فيها :

تفريط كتاب البؤساء

لو كان بي أن أشكرك لظن بالغت في تحسينه ، أو أحمذك لرأي لك فينا أبدعت في تزيينه لكان لقلبي مطمع أن يدنو من الوفاء بما يوجبه حقك ، ويمجري في الشكر إلى الغاية مما يطلبه فضلك ، لكنك لم تقف بعرفك عندنا ، بل عممت به من حولنا ، وبسطته على القريب والبعيد من أبناء لغتنا

زفدت إلى أهل اللغة العربية ، عذراء من بنات الحكمة الغربية ، سحرت قومها ، وملككت فيهم يومها . ولا تزال تنبه منهم خامداً ، وتهز فيهم جامداً ، بل لا تنفث تحيي من قلوبهم ما أماتته القسوة ، وتقوّم من نفوسهم ما أعوزت فيه الأسوة . حكمة أفاضها الله على رجل منهم . فهدى إلى التقاطها رجلاً منا . فجردها من ثوبها الغريب ، وكساها حلة من نسج الأديب ، وجلاها للنّاظر ، وحلاها للطالب ، بعد ما أصلح من خلقها وزان من معارفها ، ^(١) حتى ظهرت محبة إلى القلوب ، شيقة الى مؤانسة البصائر ، تهش للفهم ، وتبش للطف الذوق ، وتسابق الفكر إلى مواطن العلم . فلا يكاد يلحظها الوهم ألا وهي في النفس مكان الإلهام حاول قوم من قبلك أن يبلغوا من ترجمة الأعجم مبلغك . فوقف العجز بأغلبهم عند مبتدأ الطريق . ووصل منهم فريق إلى ما يحب من مقصده ولكنه لم يعن بأن يعيد إلى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها ، ويرد إليها ما سلبه

(١) معارف من وجه الانسان ما يعرف به ويمتاز من غيره كالعينين والملاغم

المعتدون عليها من متانة التأليف وحسن الصياغة وارتفاع البيان فيها الى أعلى مراتبه ، أما أنت فقد وفيت من ذلك مالا غاية لمزيد بعده ، ولا مطمع لطالب أن يبلغ حده . ولو كنت ممن يقول بالتناسخ لذهبت إلى أن روح ابن المقفع كانت من طيبات الأرواح . فظهرت لك اليوم في صورة ابدع ، ومعنى أنفع ، ولعلك قد سنتت بطريقتك في التعريب سنة يعمل عليها من بمحاولة من ظهور كتابك ، ومحملها الزمان الى أبناء ما يستقبل منه ، فتكون قد أحسنت الى الأبناء ، كما أجملت الصنع مع الآباء ، وحكمت للغة العربية أن لا يدخلها بعد من معجمة سوى ما هو في الأسماء ، أسماء الأماكن والأشخاص ، لأسماء المعاني والاجناس ، ومثلي من يعرف قدر الاحسان إذا عم ، ويعلي مكان المعروف اذا شمل ، ويتمثل في رأيه بقول الحكيم العربي :

ولو آتي حبيبت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفراداً

فلا هطلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنظم البلاداً

فما أعجز قلبي عن الشكر لك ، وما أحقك بأن ترضى من الوفاء باللفاء (١)

تقول : إن الذي وصل سببك بسبب صاحب الكتاب ، ووقف بك على

دقائق من معانيه اشتراكك معه في البؤس ، ونزولك منزله من سوء الحال ،

وربما كان فيما تقول شيء من الحقيقة ، فان كان البؤس قد هبط على صاحبه

بتلك الحكمة ، ثم كان سبباً في امتيازك من بين المترفين بتلك النعمة ، سألت الله

أن يزيد وفرك من هذا البؤس حتى يتم الكتاب على نحو ما ابتدأ ، وأن يجعلك

في بؤسك أغنى من أهل الثراء في نعيمهم ، والسلام

(١) اللفاء بالفتح القليل الذي هو دون الحق

تفريظ تشطير البردة وقصيدة تقرأ على وجهه كبرية

رفع إلى الاستاذ الامام تشطير للبردة من شاعر ضعيف وقصيدة تقرأ على وجهه تعد بالملئات أو الالوف وقد قرظها له بعض كبار العلماء ومنهم الشيخ حسن الطويل وسأله أن يقرظها له فامتنع فاستشفع عليه بمن يعز عليه رد شفاعته فكتب له تقریظاً عجيباً له كيف نشره وهو ليس عندي بنصه ولكني أحفظ منه قوله :
اما التشطير فيكاد غير العارف بمكانة الأصل يحسبه مع التشطير من ينبوع واحد وأما القصيدة التي تفوق أمثالها بكثرة الوجوه التي تتجلى لقارئها فهي من مخترعات القرائح الذكية (أي ليس له هذا الاختراع بل هو مسبوق اليه وهذا صحيح)
(ثم قال الاستاذ) وإذا ساق الجدة حضرة الاديب المشطر في الاشتغال رأينا من قلمه ما تغذى به العقول وتستنير به الافئدة ! الخ

نموذج منه كتب في التعازي

١

كتب وهو في سوربة الى أحد أصدقائه الكبراء معزيا

ان كان للحادثات غالب من الهمة ودافع من العزيمة ، ففي همتكم ما يعرك أذن الدهر ويضرب ناصية الزمان ، وانما انتم بمكان من منعة النفس ، تمر الملمات دون ادناء ، تهيب النظر اليه ، فضلا عن الوثبة عليه ، فلا يفزعكم جائشها ، ولا يستفزكم طائشها ، هذا الذي يعزيني بعض التعزية اذا طاف علي طائف الكدر مما ألم بكم من فقد صاحبة العصمة عقيلتكم . على أن يقينكم بالله وتسليمكم لقدره هو أعلى واكمل من أن يخالطه جزع من الفراق ، وإن كان مر المذاق ، فان من سار عنكم اقبل على رحمة من الله ورضوان ، فهو في جوار ربه ، متمتع بلذة قرب ، وإن له لفخرأ بين السابقين ، ورفعة بين المقربين ، بما أسستم من مجد شامخ ،

وشرف باذخ ، فضاء له النعمة في حياته الأبدية : جنة بالصالحات ، وبهجة بالباقيات . ولقد اختار واختار الله له داراً لو خير بين ساعة فيها والتخليد في هذه الدار الفانية ، لفضل ذلك اليسير على هذا الكثير . نعم يأسف لما أسفتم . ويألم بما ألتم . فعزوا أنفسكم تسروه ، وطيّبوا بالقضاء نفساً تفرحوه . واذكروا منزلته في الصديقين تغبطوه

هذا ما أقدمه اليكم ، وهو نزر مما تطوبه معارفكم ، غير انه مما اناجي به نفسي تصبراً ، واحداً بها تجلداً ، والله اعلم بما شعر به وجداني عندما بلغ إليّ الخبر ، ولقد كان من الفرض ، ان أبادر بعرض إحساسي قبل هذا الوقت ، الا أن عقايل العلة كانت تمنعني النظر في الاخبار ، حتى انتشع غني حجابها من مدة قريبة ، وما أنا بالناسي ، وإن أنست الحوادث ذكرى ، وما أنا بالقاطع ، وإن زينت الأيام هجري ، فصبر جميل ، وما العفو عن تقصيري عليكم بعزير ، وما مولى عرض محبائي على مقام دولة الباشا ، والله يحفظكم للمحبة ويبقيكم للشرف مـ

٢

وكتب منها معزياً عن الامير عبد القادر الجزائري الشهير ، وكانت صلة المودة بينهما محكمة التعرى كما أشير اليه في بعض المکتوبات الاصلاحية أعلام السيادة وأصحاب السعادة حضرة سعادتلو الامير محمد باشا وحضرة سعادتلو الأمير محيي الدين باشا

هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون * ألا الى الله تصير الأمور * « انما الصبر عند الصدمة الأولى » اليوم غشيتني غاشية الغم ، ودهتني داهية الهم ، اليوم بلغنا ما أصابنا وأصاب المسلمين ، ولم يخص الاقربين حتى عم جميع الموحدين ، ولم يمس ذوي الارحام ، حتى زعزع مجد الاسلام ، اليوم شاع على الألسن ، وتحدث الكفاة أن جناب الأمير الشهير ، صرف نظره العالي عن مظاهر الحياة الدنيا ، واستقبل بتمام وجهه ملكوت ربه الأعلى ، سار بروحه الشريفة عن عالم الفناء ، الى ما أعد له من منازل الكرامة في دار البقاء ، وقد اختار لنفسه ما اختاره الله له من الاختصاص

بجواره الكريم ، والاتصال بنور وجهه العظيم ، نظر الله اليها بعين الجبروت ، ليصعد
بجانب الأمير إلى أعلى الملكوت ، سار الأمير إلى ربه ، وترك المؤمنين بلا قيم عليهم ،
ولا وصي يعيد مجدهم اليهم ، ولولا اليقين بأنكم أشباله ، ولم تفقكم مزاياه وخلاله ،
لما تعزت الأنفس في البقاء بعده ، ولما حقنا به اختياراً لما عنده ، كل قول يقال فهو
دون محيط الفكر والنظر ، ومقام الأمير أجل من أن تصل إلى مرادقائه أشعة
البصائر والفكر ، وليس من كلمة أجمع لكلماته ، ولا قول أوفى بفضائله ، سوى أنه
(الأمير عبدالقادر الجزائري) ﴿فهي منتهى وصف الواصفين : وغاية مدح المادحين ،
وكنى في مصيبة أهل الإيمان أن يقال : أصبحوا بلا أمير ، وحسبهم تعزية عن
مصائبهم أنكم بنوه ، وورثة فضله ومعزوه

٢

وكتب منها إلى بعض أصحابه الكرام مزيماً عن كريمته

بسم الله الحمود في السراء والضراء

هذا ملود الرحمن وصدق المرسلون * كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم

واليه ترجعون *

لاحية في القضا ، ولا أنجح في تلطيفه من الرضا ، وإن في قوة إيمانك ،
وسطوع يقينك ، وكل عقلك ، لكفاية في الانابة إلى الله تعالى ، والرغبة فيما لديه
من عظيم الأجر وجزيل الثواب ، والتطامن لأحكامه بقلب شاكر ، ولسان ذاكراً ،
وإن مصيبة القمد وإن جل خطبها ، وعظم على النفس خطرهما ، إلا أن الله تعالى
أعد عنده للصابرين أكرم المنازل ، وأرقى مراتب القرب لديه ، وكفى بالصبر
فضلاً أن يخص صاحبه بما اختص به النبيون والملائكة المقربون ، يقول الله تعالى
(وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك
عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المفلحون) والموت سبيل نزاحم عليه
السابقون واللاحقون ، ومورد ينهل منه الخلاق أجمعون

وما الدهر والأيام إلا كما ترى رزية جر أو فراق حبيب

ولقد كان حضرتم في غنى عن تعزية الأحباء ، وتسلية الأصدقاء ، بما آتاكم الله من عزم يصدع حوادث الأيام ، وثبات يهزم غوائل الزمان ، وكان يمنعنا الحياء ان نذكر سيادتكم بما أنتم به أعلم ، وان تقدم اليكم ما هو لديكم أعلى وارفع ، لكن هذه كلمات نسلي بها خواطرننا على ما ألم بهامن الاشتراك في هذا القضاء الذي امتحن الله به صبرنا وصبركم ، وابتنى به إيماننا وإيمانكم (ليولكم أيكم احسن عملا) ونسأل الله تعالى أن يجعل لكم من مثوبته عوضاً عما أخذ منكم ، وأن يفرغ عليكم الصبر ، وأن يدر غيث الرحمة والرضوان على فقيدتكم الكريمة ، وأن يرفع مقامها في أعلى عِلين ، وان يطيل بقاءكم ، ويديم عزكم ومجدكم ، وعليكم مني مزيد السلام ، وإلى جنابكم الرفيع فائق الاحترام

٨

وكتب الى الشيخ ابراهيم اليازجي مغرباً عن أخيه الشيخ خليل

جناب الشيخ الاروع ، والبلغ الابرع ، أيده الله
لو كانت بالدهر ثمة لكأنت لا بنائه ، ولو حفظ له جوار لصبح لملفاته ،
ممن درجوا على سننه ، وأخذوا بأحكام سننه ، وله فيهم كل يوم غدره ، وليشه
عليهم كل آن كرة ، فكيف يرجي لمن نابذته طباعهم ، وخالفت أوضاعه أوضاعهم ،
فهو يتقلب وأرواحهم في الفضل ثابتة ، ويتغشمر ونفوسهم للحق مخبئة ، فالفضلاء
- وأنت وسطهم - لا يزالون معه في حرب دائمة ، والعرفاء - وأنت هائمهم -
في مقارعات معه متعاقبة ، لكنهم يرون له انكى من نكاياته ، التدرع بالصبر في
ملاقاته ، ورد وثباته ، بسكون الجنان وثباته ، ولست أذكر الشيخ بمثل ما قال ارسطو
« ما أشد ظلم الناس ! يستقبلون القادم الدنيا بالفرح والسرور ، ويتبعون الراحل
عنها بدعاء الويل والثبور ، ولو انصفوا في أمرهم ، لعكسوا في حكمهم » وإن
مصيبية الراحل عنا عظيمة ، ورزية اليأس من لقائه جسيمة ، وحرماننا من آدابه
يذهب بالنفس حشرات ، وخلو وطنه من مثله يذيب القلوب الواجدات ،
ولكن سئم العناء وداره ، وكره الباطل وجواره ، فاستقبل وجه البقاء ، وخلص الى

ماله النجاء، فما الحياة ؟ التصبر ، أجار من التمسر ، والجأء ، أجدر بناء الكد .
 وإني وإن وجهت الخطاب اليك ، لم أقصر الوصية عليك . فلي نفس تشارك نفسك ،
 وحس يشاطر حسك . وهذا حديث نفسي أنشئه . وما بخالج صدري أبته . وإن
 العناية بالراحل عنا في تربية ولده خير لديه وأوفى بحقه من مطاوعة الأسف لفقده ،
 وأنتم موضع الرجاء لخلفه . كما كنتم منتهى المجد لسلفه . وأسأل الله لكم حسن
 العزاء ، وصرف البأساء ، وإقبال النعماء .

٥

وكتب منها أيضاً جواباً عن تعزية

لم يلاقنا الدهر إلا بما أفناه ، وما أنكرنا عليه شيئاً عرفناه ، وقد جبل الله
 هذه الحياة من الشوب ، وأقام حواءها من الحوب ، فلا تخلص لها منفعة من
 مضرة ، ولا تخلوها مبرة من معرة ، سيطت فيها الحسنات بالسيئات ، وبرزت
 الطيبات بالخبيثات ، وإني والزمان عركني وعركته ، وضر سني وضرسته ، فلئن
 ضعفت عن كسر شوكته ، فلا والله ما قلني بقوته ، ولئن صدعني ، فما صدعني ،
 وماذا يصنع بمن ينزل أرزاءه ، حيث ينزل الناس نعماءه ، لا يلاقي الرضا عندي إلا ما
 يرضيه ، ولا ينال الجزع مني إلا ما يرديه ، أعطيت من اليقين مذبة أطردها ذباب
 الهموم ، ومن العزيمة جنة لا تخنقها الغموم ، هذا إذا لم أجد من المصيبة خلفاً ، ولم
 أملك لها من العوض طرفاً ، فكيف وقد وفر الله علي النعمة في بنوتك ، وأجرل لي
 الخلف في اخوتك ، وأسأل الله أن يطمس عين السوء أن تصل اليك

(يقول جامع الكتاب) ان الاستاذ الامام في عهده الأخير تعازي أبلغ
 من هذه وأحسن بياناً ، وأعلى منها غلة وعرفانا ، ولكننا لم نظفر بشيء منها ، ورأينا
 أن لا يخلو الكتاب من شيء من هذا النوع من المنشآت فاكتمينا بما وجدنا ، وأتينا
 سمعنا منه أنه تشغل عليه كتابة المکتوبات الشخصية ولا سيما التعازي منها

شذرات منه كتبه الى جامع الكتاب

ان لدي من شيخنا الاستاذ الامام كتباً كثيرة ، لكن أكثرها في
الشؤون الخاصة ، كما يكون عادة في كتب الوالد الى ولده ولأمين سره ، ولكن
قلما كان يكتب شيئاً يخلو من الحكم العامة ، أو الطرف الأدبية ، وانني أختم هذا
الجزء بشذرات من كتبه إلي

١

كلمة له في الاستانة

من ذلك قوله في كتاب أرسله الي من أوروبا اذ كان عائداً من الاستانة
بعد ذكر شي . بن الاستانة منه انه صادف أحد تلاميذه السوريين هناك يطلب
عملاً ولا يجده ، وانه أوصى به أحد أنجال عزة بك العابد
« لا يمكن لشخص مستقيم السيرة أن يجد عملاً أو يعيب خيراً في الاستانة ،
وعلى كل ذي دين أن يفر منها بدينه وبيقية نفسه . تعلمت في الاستانة ما لم يكن
يعلم الا بالمشاهدة ، وستسمع منه ما يمكن التعبير عنه عند اللقاء ان شاء الله تعالى »
كلمة له من هذا الكتاب في أصحاب الالقب الرسمية

« ما ذكر عن الحموي (هو سليم باشا) ليس يبعد عن أخلاف مثله ممن
يفسبون أنفسهم اذا حملوا وزر لقب من الألقاب ، اللقب يثقل عليهم فيزهق
أرواحهم من أبدانهم ، ولا يبقى متعلق بأجسامهم الاخيال لا يعرف شيئاً من أنفسهم

٢

وكتب في رقيم أرسله الي من رمل الاسكندرية في شأن إرجائه
الرد على مجلة الجامعة

« أخذت القلم الآن لأكتب وإذا بداخل يحبي تحية الصباح ويشغلني
بما لا فائدة فيه . ولا أدري كيف أصيب الوقت الذي أفرغ فيه لما أريد ، وهو
يفرّ مني فرار الخير من أيدي المسلمين »

٣

وكتب في رقيم أرسله الي من السنبلاوين أيام كان متنقلا يوزع
الاعانات على المصايين بالحريق وكان وعدني بأن يتم مقالات الاسلام
والنصرانية في تنقله ذاك

« الى الآن لم أكتب شيئا في الموضوع لأنني في شغل شاغل من هؤلاء
المرزوقين في عقولهم أولا ، وفي بيوتهم ثانياً »

٤

وكتب في رقيم من رأس البر :

« مارأيت مكانا يشغل النفس عن كل شاغل مثل رأس البر لا يشتهي فيه
ان أمدّ يدي الى قلم ، وانما أطالع في أوراق متنوعة ، في أوقات متقطعة ،
ولذلك أراد أفضل مكان للراحة وتبديل الهواء ، بعد شدة التعب وطول العناء ،
« كنت انتظر أن يصل إلي المنار هنا ليكون مما ألقى عليه نظري اذا أرجعته
عن أمواج البحر الأبيض ، ولم أطلقه الى بساط النيل الاحمر ، فأنا جالس طول
يومي بين البحرين »

٥

وكتب في رقيم آخر من رأس البر

« رأس البر لا عقل فيه ولا عمل ، وذلك لا يمنع من ارسال ملازم التفسير ، فكلام
الله يرد الفار من العقول ويعمر الحرب منها »

٦

ومن كتاب له من الاسكندرية يوصيني فيه بمساعدة صديقه
عبد القادر أفندي القباني صاحب جريدة (ثمرات الفنون البيروتية)
وكان قد جاء من بيروت الى مصر بأمر من واليها لأمور من الامور
التي تهم السلطان عبد الحميد نفسه ، وراه الاستاذ في الاسكندرية - وانما
أنشر منه ما يدل على شدة عنايته بأصحابه وهو) :

« ثم اني احب ان تساعد في كل ما يلزمه فيه مساعدتك بقدر ما تستطيع
واعبر كل خدمة تقوم بها له كأنها منك الى شخصي عند اشد ما يكون من
حاجتي اليها ، وسلم عليه سلاما كثيراً ، ولعل القدر يأذن برؤيته مرة ثانية اذا
رجعت الى القاهرة يوم السبت والافاني استودعه الله »

٧

ومن هذا القليل أن شابا سوريا اسمه (كنعان شبلي) جاء بكتاب
من تلميذه ومريده الامير شكيب أرسلان الشهير يوصيه فيه بمساعدته
على عمل يريد في مصر ، فأحاله علي ببطاقة مختومة كتب فيها :

« يحمل اليك هذا شاب متنور يريد أن يطلب عملا في التعليم بمصر ،
ومعرفة الطلب تتوقف على معرفة كثير من الناس ، ورأيت انك ممن يسهل له ذلك .
وقد جاء نابتك كتاب من الامير شكيب أرسلان فأعنه على ما يريد بما تستطيع والسلام »

أي أعنه بما تستطيع لانه جاء بكتاب من الامير شكيب



كلمة له في المنار



رضى الله عنه

وكتب اليّ جواباً عن كتاب أرسلته اليه وكان في المنصورة جاء فيه كلمة تشعر بالشكوى من قلة الاقبال على المنار فقال في تسليل ذلك :

الناس في عماية عن النافع ، وفي انكباب على الضار ، فلا تعجب اذا لم يسرعوا بالاشتراك في المنار ، فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الميل الى تغيير الحاضر ، بما هو اصلح للاجل ، وأعون على الخلاص من شر الغابر ، ولا يزال ذلك الميل في الاغنياء قليلا ، والفقراء لا يستطيعون الى البذل سبيلا ، ولكن ذلك لا يضعف الامل ، في نجاح العمل

فائمة للكتاب في بعض مكارم المنشورة ، وكلام المأثورة

- (١) العلم ما يعرفك من أنت ممن معك
- (٢) العدل للاسماء ، كلمة الله للايمان
- (٣) العفة ثوب تمزقه الفاقة
- (٤) أشد أعوانك الحاجة اليك
- (٥) انما تم نكايه الاعداء ، بخيانة الاصدقاء
- (٦) هلاك العامة فيما ألفت
- (٧) جحود الحق مع العلم به كاليقين في العلم كلاهما قليل في الناس
- (٨) إنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه
- (٩) الرجوع عن الحق بعد العلم به محال
- (١٠) من عرف الحق عز عليه أن يراه مهضوما
- (١١) لا يكون أحد صادقا ومخلصا حتى يكون شجاعا
- (١٢) الشباب يحمل ما حُمِّل
- (١٣) ما وعظك مثل لائم ، ولا قومك مثل مقاوم
- (١٤) ما دخلت السياسة في شيء إلا أفسدته
- (١٥) الذل يمت الارادة
- (١٦) من لا صديق له فهو عدو نفسه وعدو الناس
- (١٧) حسبك من الصديق أن ينصرك بقلبه
- (١٨) تغفل الموت في جسم الأمة حتى أصبحت لا تسمع النداء ولا تنتفع بالدواء
- (١٩) إنني لم أهني نفسي بوجود رجل في قومي يتجرأ أن يقول لي : أخطأت ، فهل أخاف أن يتجرأ أحد منهم على قتلي لاعتقاده أنني أخطأت^(١)

(١) اخبرني أن رجلا كتب اليه كتابا هدد فيه بالقتل فقلت له وانت تمشي كل ليلة منفردا من المحطة الى الدار - اريد أن ينقي ويحترس فقال : انني الخ

- (٢٠) من أم ما يجب التصريح به بيان ما انتشر بين العامة مما يحسبونه ديناً ، وهو عند الله ليس بدين
- (٢١) من شؤم بلادي أن لا أجد فيها من أستفيد منه ، ونميت لو كان كل الناس أعلم مني
- (٢٢) ما رأيت بلداً جعل فيه الدين دكاناً مثل هذا البلد (يعني مصر)
- (٢٣) ينبغي لأهل العلم أن يعملوا بما يتعلمون حتى لا يصدق عليهم قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون)
- (٢٤) القرآن كلام أبدي رقم على صفحات الزمان الى قيام الساعة خطاباً لجميع البشر
- (٢٥) في تفسير القرآن وفهم الدين لا يتبع إلا الدليل القاطع ، لأن هذا من باب العقائد ، وهو مبني على اليقين الذي لا يمكن الأخذ فيه بالظن والوهم
- (٢٦) إن المسلم من أخذ القرآن بجملته من أوله الى آخره ، ولا يكون كمن قال فيهم الله تعالى (أفئذ منون يبيع الكتاب وتكفرون ببعض)
- (٢٧) درجات العلم متفاوت جداً ، والقرآن لم يعد منه شيئاً حقيقياً إلا العلم الذي يهدي الى العمل ، وهو المتمكن في النفس ، الذي تصدر عنه الآثار مطابقة له ، وكل من يعتقد شيئاً ولم يقف على سره ولم ينفذ الى باطنه فهو عبارة عن خيالات تزول بمجرد الشبهة
- (٢٨) إن خطاب القرآن لا يختص بواقعة بل يصح أن يكون خطاباً لكل الناس
- (٢٩) فهم القرآن متوقف على فهم "العام" ، وقد تزل للناس وهو يعبر عنهم فلا يمكن فهمه إلا بفهمهم أيضاً - أي فهم حقيقة أحوالهم وسنن الله فيهم
- (٣٠) بقاء الاسلام الى اليوم كلف في الدلالة على أن الرسول عليه الصلاة والسلام كن رسولاً حياً ، وبقاء القرآن كذلك محفوظاً الى اليوم أقوى شاهد ودليل
- (٣١) لا بد أن يرفع القرآن فوق كل خلاف

- (٣٢) القرآن هو الدوحة والأصل الذي يرجع اليه ، وهو الذي يحمل في الدعوة ويجري على أحكامه
- (٣٣) القرآن لا بد أن يؤخذ من أقرب وجوهه ، وإياك والتعمق في التأويل الذي يجر الى البعد عن معانيه الصحيحة
- (٣٤) فهم كتاب الله يأتي بمعرفة ذوق اللغة ، وذلك بممارسة الكلام البليغ منها
- (٣٥) لا توجد مرآة يرى فيها عبدة الطاغوت أنفسهم أجلى من هذا القرآن ، فإذا لم يكن في قلب الانسان منفذ لدخول روح الله يخرج من كل نور إلى ظلمة
- (٣٦) إني عند ما أسمع القرآن أو أتلوه أحسب أنني في زمن الوحي ، وأن الرسول (ص) ينطق به كما أنزله عليه جبريل عليه السلام
- (٣٧) ليس وراء القرآن غاية
- (٣٨) إنما يصعب القرآن توهم أنه صعب ، وكما أدخل الانسان على نفسه الصعوبة صعب عليه ، وكما مكن نفسه من الفهم مكنه الله منه
- (٣٩) إن لكلام الله أسلوبا خاصا يعرفه أهله ومن امتزج بالحمه ودمه ، وأما الذين لا يعرفون منه إلا مفردات الالفاظ وصور الجمل فأولئك عنه مبعدون
- (٤٠) يجب على كل شخص له ايمان صحيح أن يعقل عقائده على الوجه الذي في كتاب الله وسنة رسوله
- (٤١) لو وقفنا عند حدود الله في كتابه لكنا أعز الناس وأحبهم اليه ، ولكن غلونا فوقعنا فيما وقعنا
- (٤٢) معنى عبادة الله بالقرآن عند الجاهلين به أن يقرأ الشخص ولا يخطر المعاني بباله ، ولا يحرك نفسه لا وامره أو نواهييه . وقراءة العتاقات والعديات من هذا القبيل
- (٤٣) لا يمكن لهذه الأمة أن تقوم مادامت هذه الكتب فيها^(١) ولن تقوم
- (١) يعني كتب التعاليم التي تدرس في الازهر وأمثالها

الآ بالروح اللى كانت فى القرن الأول وهى القرآن ، وكل ما عده
فهو حبل قائم بینه وبين العمل والعلم

(٤٤) وقال فى وصف الذين يصدون عن سبيل الله ويبلغونها عوجاً :

(٤٥) هؤلاء قوم كلما رلوا أو سمعوا شيئاً يومىء إلى قوة الدين وعظمته

يستكرون ، وقومون ويقعدون . وأما الخرافات فهم بها راضون

(٤٦) الاعتقاد فى بلى العلم على مجرد الثقة دائماً يكون معه لائح الشبهة إلى أن

يقنع الشخص على الدليل

(٤٧) كذب الإنسان على نفسه وتفريره بها يحمل الإنسان كثيراً على

الاعتقاد عن الحق والأخذ به

(٤٨) البحث فى كيفية الخلقة من شهوات العقول ولا يمكن الوصول إليه

قال تعالى ﴿ ما شهدتهم خلق السموات والأرض ﴾ الخ وكيف يمكن

لمن لا يعرف الرابطة بين فكره ولسانه أن يتكلم فى كيفية الخلقة

(٤٩) القل حالة نجس المرء مهضوم الحق قهراً

(٥٠) وجود قليل من الأمة صالحين لا يدفع عنها نعمة الله التى يعاقب بها

الأمم عند فسادها

(٥١) للعالم الشكوة عرضة لايقاع الإنسان فى الخطر

(٥٢) كل شخص فى العالم يفضل حالة على حالة فما دام على يقين من الوصول

إليها لا يئلى بما نال من الأخطار فى طريقها

(٥٣) وقال فى وصف بعض المغرورين : لم ينفذ أضغاف شعاع من العلم

فى قلبه فيجد له لذة

(٥٤) وقال فى وصف أناس استحكم فيهم الجهل والجور :

هؤلاء قوم يحبون أن يقعدوا فى صندوق من الجهل ويتفكروا على

أنفسهم عن طاعة حتى لا يأتى فأنح يفتحهم ويفرج عنهم

(٥٥) إذا انحرف الإنسان من الاستقامة لا يمكنه أن يصل إلى حد مطلقاً

(٥٦) إن الله لم يجمع الراحة فى غير العمل

- (٥٧) مجاهدة الانسان بطرد الخواطر عنه في الصلاة عبادة
- (٥٨) معرفة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أول الواجبات وإن كان لا يجب على كل مسلم أن يعرفها بالتفصيل
- (٥٩) سنة الله في خلقه أن أتباع الحق يكونون فقراء في أول الامر ، ثم سلاطين وأمراء في آخره ، لأن الحق حلیم ، والباطل سفیه ، والحق لا يظهر الا اذا بلغ الباطل آخر حده فحينئذ ينهض الحق لمصارعته
- (٦٠) التوحيد كمال الانسان ، والثنية هي الغالبة على الناس وذلك إما بالجهل المحض ، أو بالأخذ والتشكل مع ادعاء التوحيد
- (٦١) الحياء أحسن فضيلة في الانسان تمنعه عما لا يليق به ونعم الخلق الحياء
- (٦٢) كل ما يصدر عن الانسان مخالفاً لما يعتقد حسناً فهو ذنب
- (٦٣) وقال في وصف كلام بلوغ سمعه أشخاص ولم يستعدوا له : هذا شيء سهل على ارباب العقول الساذجة البسيطة ، ولكن صعب على كل عقل تعلم البنائي على السعد
- (٦٤) الفكر في المخلوقات طاعة مستقلة
- (٦٥) كل ميل له سلطان على الانسان يقوده إلى العمل رغماً عنه فهو معبود له ، وذلك الانسان ممن اتخذ آله هواء ، لان الحق لا يجد من نفسه مكاناً إلا قليلاً
- (٦٦) وقال في مخاطبة بعض أهل الجود اذا بقيتم على جهلكم بالتاريخ إلى هذا الحد فلا يمكنكم أن تعرفوا دينكم ولا نجاح لكم في دنياكم .
- (٦٧) العلم القيني أن تعلم أن الشيء واقع وإن تقيضه غير واقع فمن صدم الدليل وقاومه يقال إنه عالم ولكن يقال إنه أضله الله على علم
- (٦٨) المؤمن من عرف الحق من وجهه وطريقه ورجوعه عن ذلك محال
- (٦٩) من فروض الكفاية على الامة ان يوجد فيها طائفة يحصلون أحكام الله من كتابه وسنة رسوله ويردون الناس اليهما

- (٧٠) من يدعي أنه على حق ولا يعمل به فهو كاذب ويكون من قبيل الذين قال الله فيهم (يفترون على الله الكذب)
- (٧١) إذا لم توجه الأعمال لغايتها فالله كفيل بعدم نجاحها
- (٧٢) مهما بلغ الانسان في العلم لا يسلم من هاجس في نفسه يثبته ويقول له « استرح » ولكن العاقل لا يركن اليه
- (٧٣) إذا كان الانسان على علم حقيقي فهو حريص على تعليمه خصوصاً إذا كان هذا العلم من الدين ومن العجيب أن لا نرى أزهدهم المسلمين في التعليم
- (٧٤) من السنن الالهية التي لا تتغير ولا تبدل أن الاتفاق والاعتصام والاتحاد عماد ترقى الأمم وفوزها ، والتخاذل علة انحطاطها وذلتها ، سواء ذلك في الماضي والحاضر والمستقبل (ولن نجد لسنة الله تبديلاً)
- (٧٥) أكبر شيء يوجب التقوى أن يعلم الشخص أن الله قادر على الانتقام منه وأعظم دليل على القدرة الالهية الاشياء التي تأتي على خلاف العادة
- (٧٦) ومما قاله في مخاطبة بعض الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً استشعروا خشية الله في قلوبكم والا هلككم
- (٧٧) ومما قاله في نصيحة بعض طلاب العلم على الطالب إذا خلا بنفسه أن يفكر كثيراً في الداني التي يرومها ، وفي طريقة تعلمه وتعليمه ، وفي مقصده وغايته
- (٧٨) وسئل رضي الله عنه في بعض دروس التفسير عن اختلاف المجتهدين فقال: لو اجتمعوا وتناصفوا لاتفقوا وما اختلفوا
- (٧٩) الدليل على صدق الانسان فيما يدعيه من الاخلاص أن يئذل من نفسه في سبيله ، فان لم يئذل فهو كاذب ، ومهما بلغ الانسان ولم يظهر هذا المحك إخلاصه فهو غير مخلص
- (٨٠) لا يصدر فعل اختياري عن مختار الا اذا صدق بالغاية
- (٨١) إن الله حرم الرشوة لتقرير العدل في الأحكام ، لأن الحاكم اذا لم يكن له هوى في أحد الخصمين لا يبقى عنده سوى الحق

- (٨٢) من الناس من يطلب كماله بتنقيص الكامل ، وهذا نهاية الخسران
- (٨٣) لاصلاح مع الجهل
- (٨٤) الفقه الحقيقي أن تنظر الى شرع الله في جملة ومجموعه (أي لافي كل مسألة بانفرادها)
- (٨٥) ان الذي يعرف الحق يعز عليه أن يرى الحق مهاناً
- (٨٦) التعصب في المذاهب يعمي الشخص حتى عن لغته
- (٨٧) من كان مطلبه الحق ، ولم تدخل نفسه بينه وبين الحق ، أمكنه أن يتفق مع من كان مثله ، ولا يتأني الاختلاف بين طالبي الحق
- (٨٨) تعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يكون باتباع أوامره واجتناب نواهيه
- (٨٩) تشفع بعض الناس بلفظ الاجماع حتى أصبحت لهم ديدناً ، وحتى زعموا أن كل ما عليه العامة فهو إجماع
- (٩٠) محاسبة النفس وخلجان القلب ركن كبير من أركان الايمان ، وقد جعلها الصوفية شرطاً مبرماً في نجاح الانسان
- (٩١) أخفى شيء على الانسان نفسه ، وليس من السهل عليه أن يعرف دخالها
- (٩٢) لا يمكن لشخص أن يدعي أنه خلص من السخط على الله في قلبه الا اذا قبل كل مصيبة بغاية الطمأنينة والركون الى الله والصبر بحيث يكون كالجلبل لا يتزلزل
- (٩٣) الذي ينظر الى الحق ويحرص عليه لا يمكن أن ينخدع بقول من قائلهما بلغت ثقته به ما لم يعرضه على الحق الذي عنده ويمحصه
- (٩٤) أقوى شرط في النجاح قوة العزيمة فيه ، ويصر الانسان على الفرز بفرسه فاذا تضعفت العزيمة ضاع نجاحه ، وهذا شأن المسلمين الآن
- (٩٥) أمر القدوة في الدين أهم شيء في العقائد والأعمال ، فلا بد أن يبحث فيه الانسان بحثاً جيداً ، ويقف عليه وقوفاً تاماً (أي فلا يتخذ كل من ادعى العلم قدوة له)

- (٩٦) لا يمكن للانسان أن يعمل بمصلحة العامة مالم يحس برابطة بينه وبينهم
- (٩٧) يجب على علماء الدين في كل زمن أن يعطوه حقه من شرح مسائله على حسب مقتضيات الأحوال
- (٩٨) إن الذي يحفظ العلم هو العمل به
- (٩٩) انما يأتي بالمبالغة في قوله ، من كان مجازفا في رأيه ، والعقل السليم لا يتعدى الصدق
- (١٠٠) الحجاب المانع لكثير من معرفة ما يتعلق بالشؤون الالهية على ما يقرب من الحقيقة تحكم الشاهد في قلوبهم (أي قياس عالم الغيب على عالم الشهادة)
- (١٠١) لا يمكن للانسان أن يكون صادقا ومخلصا مع الله حتى يكون شجاعا
- (١٠٢) ان قراءة التاريخ واجب من الواجبات الدينية ، وركن من أركان اليقين فلا بد من تحصيله
- (١٠٣) الايمان الذي يجتمع معه أدنى خوف من المخلوقات ليس بايمان ومن كان عنده من الثقة بالله مالا يخشى معه أحدا فهو المؤمن ، وهذا الايمان هو الذي يضع رجل صاحبه في عتبة الجنة
- (١٠٤) وقال في وصف مدينة القاهرة : ما رأيت بلدا جعل فيها الدين دكانا مثل هذه البلد
- (١٠٥) وقال في وصف بعض أهل الجود : هذه الرؤس ما خلقت إلا لتفكر لا لوضع العمام بنافس بعضهم بعضا في تضيق الزمن وفي هذا خسران الدنيا والآخرة
- (١٠٦) لا تشخذ البصيرة بشيء مثل الفكر
- (١٠٧) ما خلق الله في العالم من هو أشأم على نفسه من الحاسد
- (١٠٨) إن الانسان تضيق حياته وتتسع على مقدار ما يعرف اسمه ويشتهر
- (١٠٩) إن الله عالم بكل شيء ولا يتقرب إلى الله بشيء كالعالم
- (١١٠) تنقضي الاجيال والاعوام ولا يمكن أن ينقضي النظر في الحقائق الكونية ولا في الحقائق التي في نفس الانسان

(١١١) اذا وجد الحب في قلب أسعده واذهب شقاه ، وأسعد المحبات
محبة الصداقة ، فاذا وجدت المحبة الخاصة الصحيحة بين شخصين
أسعدتهما أعظم سعادة ومن الأسف أن كثيراً منا لا يمكنهم
أن يقدروا المحبة قدرها

(١١٢) من أكبر التقوى علو الهمة ، ومن أكبرها السعي في مصلحة الأمة
ونفع الناس

(١١٣) أساس سعادة المسلم ثقته بالله وعمله لرضاه

(١١٤) لا وحشة في النفس كوحشة الجهل وكما علم الانسان شيئاً أنس به وسراً

(١١٥) لا يتأتى القطع بشيء إلا بعد أعمال الفكر

(١١٦) وقال في وصف بعض اهل الفساد : هذا صنف مثل ديدان الفساد
لا تعيش إلا في القذر

(١١٧) الشعر اذا لم تكن الفاظه آخذة بجزء من روح الشاعر فليس بشعر

(١١٨) لا يشتهر الانسان في شيء إلا اذا وصل فيه الى حد يعجز عنه الكثيرون

(١١٩) وقال في حالة من الاحوال : نعوذ بالله من الجهل الذي تفقده
القلوب حتى اذا بحث الانسان عن قلبه بين جنبه لا يجده

(١٢٠) العبادة تحديد ما بين العباد وبين الله فلا يجوز فيها القياس

(١٢١) لا يطلق على الله من الاسماء إلا ما جاء في كتابه أو في حديث
متواتر لانتنا لا نعرف من الله إلا ما علنا الله

(١٢٢) ترك الاشتغال بدقائق الفصاحة والبلاغة والبراعة موت للحياة العقلية

(١٢٣) من شر الهوى على الانسان أن يتعلق بما سمع ، وطالب الحق
لا يتعلق بقول غيره إلا اذا عرف أنه يوصله الى الحق

(١٢٤) وقال في وصف بعض أهل الجود

(١٢٥) وضعوا لانفسهم لغة جديدة غير التي انزل الله بها شرعه ، ولذا

نراهم في مثل وقفية الواقف يحارون في الفهم حيرة لا خلاص منها

(١٢٦) أشد التعب أن ترى من حولك مرضى وانت لا تستطيع معالجتهم

- (١٢٧) كل ما سمع عن الرسول ينبغي الوقوف عنده بلا زيادة ولا نقصان
ومن لم يحف قد تعدى على الشرع وخرج عن الحق
- (١٢٨) وجاء رجل يشكره على مساعدته له فقال له كلنا نشكر الله
- (١٢٩) من كان عنده مريض فهو المريض
- (١٣٠) ورأى رضي الله عنه كتابا من كتب الحكم فقال
- (١٣١) هذه الكتب تذكر الانسان بنفسه
- (١٣٢) الباطل لا يصير حقا يمرور الزمن (هذه الكلمة قلها جوابا للخديوي
عند مسأله عن مسأله الترقية وقال له هذا شيء مضى عليه زمن)
- (١٣٣) انما ينهض بالشرق مستبد عادل

(نم الجزء ١)

هذا وإن له رضي الله عنه حكما أخرى كما أن له رسائل ومنشآت كثيرة
منها ما جعلناه في سيرته وهي الجزء الأول من هذا الكتاب وإذا اجتمع عندنا
شيء كثير منها بعد قاننا نودعه في جزء رابع نجعله ذيل لهذا المخرج ونشر فيه
ما يضمن به ان يضع مما خوطب به من المنشور والمنظم وعندها منه فائس كثيرة ،

نسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الآثار

ويتفقد صاحبها بالرحمة

والرضوان